

التصوف

من الإيمان إلى الإحسان

كتاب
فلاح الصالحين

عثمان نوري طویش

دار الفکر



إستانبول: ١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

اسم الكتاب باللغة التركية: İmândan İhsâna Tasavvuf

الترجمة للعربية: التصوف من الإيمان إلى الإحسان

ترجمة: د. محمد حرب / محمد عز الدين سيف

مراجعة وتصحيح: د. مراد كايا / أحمد حمدي

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨-٩٩٤٤-٨٣-٥٨٩-٣

Language : Arabic

طبعة منقحة: تموز ٢٠٢٠

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



► Address: İkitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

التصوف

من الإيمان إلى الإحسان

عثمان نوري طوبّاش



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّهُ
أَعْلَمُ
بِمَا
تَعْمَلُونَ

وَاللَّهُ
أَعْلَمُ
بِمَا
تَعْمَلُونَ

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ
إِذِ ابْنَتْ فَلَاحَ مَن زَكَّاهَا ۖ
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ
إِذِ ابْنَتْ فَلَاحَ مَن زَكَّاهَا ۖ
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ
إِذِ ابْنَتْ فَلَاحَ مَن زَكَّاهَا ۖ
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۖ
إِذِ ابْنَتْ فَلَاحَ مَن زَكَّاهَا ۖ
وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ

لا ريب أن وراء القسم الإلهي في الآيات السابقة أمر عظيم وخطير الشأن؛ ولا شك أن المخلوقات التي أقسم الحق بها أو أقسم عليها ذات أهمية خاصة، وثمة أمر آخر لافت للنظر في الآيات السابقة، فالقسم جاء في سبع آيات متتاليات، ثم استخدمت أداة التوكيد «قد» لتعقبه الحقيقة القرآنية التي قدرها الحق - سبحانه وتعالى - في آيتين:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس، ٩-١٠).

والذي يسترعي النظر ويلفت الانتباه، أنه لم يأت في القرآن الكريم موضوع أقسم الله تعالى به سبع مرات متتاليات إلا موضوع: تركية النفس. مما يؤكد أن في ذلك دلالة شديدة الوضوح على خطورة الأمر وعظم أهميته، فهو طريق نجاة الإنسان يوم الفرع الأكبر.

وسنقوم في الصفحات الآتية بالمساهمة في تجلية هذا الموضوع، وبيان حقيقته من خلال إمدادات ونفحات أولياء الله تعالى، وروعة بيانهم وجمال أحوالهم وسلوكهم، ونقدمه في كتابنا هذا الموسوم: «التصوف من الإيمان إلى الإحسان».



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الباري الذي نفخ في الإنسان من روحه، والشكر لله تعالى الرازق الذي منح عباده نعمة التفكير والتأمل، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد ﷺ؛ القدوة الحسنة، خير خلق الله إيماناً وعبادةً وخلقاً، وأكملهم تفكيراً وتأملًا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فالتصوف في حقيقته هو قلب الإسلام وجوهره وبُعدُه الروحي؛ إذ إن هدف الإسلام ورسالته الرقي بروح الإنسان وفطرته إلى أسمى الدرجات وأرفع المنازل، وتفجير ينابيع المحبة والوجد المكنونة في فؤاده؛ عبر الفيض الروحاني الذي ترفده السماء بمدد رباني، لاسيما عندما يعيش أهل العزائم والمجاهدات هذه المعاني شاخصة حية في الأخلاق والسلوك.

وهذا يعني أن التصوف هو المحضن التربوي الأمثل، والفرع الأسمى الذي يُنبِت الثمرة في شجرة العلم الوارفة، وحديقة الإسلام الغناء.

وقد توالى الكتابات النفيسة طوال الطريق في عمر التصوف، مرشدة أهله، مخاطبة إياهم على مستويات ثلاثة:

- أرباب التفكير العميق الذين ارتقوا مراتب عالية «الخواص».
- ذوي التفكير المتوسط.
- طبقة العامة الواسعة «العوام».





ويمكن في هذا السياق أن نذكر كتابي «فصوص الحکم» لابن عربي (المتوفى سنة ١٢٤٠م) و«الإنسان الكامل» لعبد الكريم الجيلاني (المتوفى سنة ١٤٠٣م) اللذين يخاطبان أرباب التفكير العميق والواسع، أما الكتب الأخرى مثل كتاب «المثنوي» لجلال الدين الرومي (المتوفى سنة ١٢٧٣م) فهي موجهة أحياناً للعقول المتفكرة، وأحياناً أخرى لذوي الفكر المتوسط، والغاية من هذا النوع من الكتب إدراك الحقيقة ومعرفة الله تعالى من خلال فوزهم بالإلهام والفتوحات الربانية، إضافة لما لديهم من علوم ظاهرية.

وثمة أعمال أخرى مثل «أنوار العاشقين» لأحمد بيجان (عاش في القرن الخامس عشر)، و«المحمدية» ليازجي أو غلو محمد (المتوفى سنة ١٥٤١م) و«نفحات الأنس» لعبد الرحمن الجامي (المتوفى سنة ١٤٩٢م)، وهذا النوع من الكتب يخاطب العوام، ويهدف إلى إيصال المسلمين الذين استطاعوا إدراك الحقائق الشرعية إلى أعلى مستوى ممكن في الشعور والإدراك والسلوك.

وإن تنوع المؤلفات حول مفاهيم التصوف يهدف إلى تمكين الخواص والعوام في المجتمع من الفهم الصحيح للإسلام، وإدراك حقيقته وتطبيق تعاليمه ومفاهيمه الواسعة إلى أقصى درجة، كلٌ حسب إدراكه وقدرته، وهكذا يصير الشخص - حسب تعبير السلف الصالح - «ذا جناحين».

ويخاطب التصوف - عبر أساليبه كلها - جميع فئات المجتمع، ويقف حاجزاً منيعاً أمام الكسل والخمول في أوقات الرخاء الاقتصادي والترف الاجتماعي؛ ليحافظ على ما تبقى لديهم من النشاط والحمية، كما أنه استطاع خلال الأوقات العصيبة المليئة بالاحتلال والظلم أن يوجد متنفساً روحانياً يتسامى بالأفئدة فوق حطام الدنيا وظلامها الكئيب، ويُقدّم بلسماً للأفئدة الجريحة، وهدياً للعقول الحائرة، وكوثرًا للأرواح القاحلة، فالتصوف يعلم الأشخاص الذين ارتقوا إلى أوج الأخلاق





الحميدة والعبادة التواضع والمحو، ويبعدهم عن الغرور والكبر والإعجاب بالنفس، ويقدم من ناحية أخرى طوق النجاة للعبيد الغارقين في مستنقع الذنوب، وهذا الطوق يتمثل في العفو الواسع والسماحة والرحمة.

فبعد الاجتياح المغولي للأناضول عمت فيها الفوضى، وانتشر الاضطراب والمعاناة، وبرزت في تلك الفترة التيارات الصوفية المؤثرة، وبرزت معها الكثير من الشخصيات الصوفية الكبيرة، فكانت ملجأً لتهدئة ومواساة الناس هناك، وهذا ما نُحدثنا عنه كثير من وقائع التاريخ.

واليوم تنجرُّ البشرية كلها إلى دوامة كبرى من المعاناة، وخضم هائل من الاضطراب، ولا يمكن أبداً إنكار الحاجة إلى روحانية التصوف وتجلياته التي تشفي الأفئدة وتنقذها من تيه الدنيا، فإخواننا الذين نجوا من براثن الإلحاد هم مثل «الطيور الجريحة» يحتاجون إلى علاج معنوي فعال، وحالة أرواحهم وأفئدتهم في هذا السياق مثل حالة الظمآن الذي يحتاج إلى شربة تروي ظمأ روحه. وثمة كثيرون من الذين عانوا جفاف المادية في الشرق والغرب، ثم فهموا هذا الدين من خلال أهل التصوف، وأدركوا معانيه وأحبوه عبر جاذبية هؤلاء المتصوفة وجماهم الروحاني، وانتهى بهم الشعور بإشباع غريزة التدين إلى اعتناق هذا الدين العظيم.

وبعد كل هذه الأسباب المذكورة، والوقائع الشاخصة للمأساة التي تحياها الإنسانية، تبرز لنا في الأفق الأسمى حقيقة التصوف، وسموه المترفع عن دنس الدنيا، وارتقاءه بأهل الإيمان من وهدة الطين إلى أعلى عليين؛ إنها نعمة الإيمان الناضج بعدما أمدتها الفيوضات الإلهية، فزادتها حلاوة ورسوخاً في القلوب. وهنا تبرز حقيقة التصوف وأهميته، فهو طوق النجاة من أمواج الحياة المتلاطمة، وهو المعراج الذي يرتقي بالعبد إلى درجات الكمال وسماء الجمال، وهو لغير المسلمين نبراس الهداية في عالم الخيرة، والذي يمهد لهم الطريق إلى الإسلام بمعناه الحقيقي.





فالتصوف في حقيقته هو المرآة القلبية التي تعكس النموذج الأمثل للتطبيق العملي للإسلام عبر إظهاره حيًا نابضًا في مرآة حياة النبي ﷺ، ويستمر هذا الانعكاس وتلك الصورة الحية دائمة دوام العصور، حية حياة الأجيال، نافخة فيهم الروح حتى النفخ في الصور.

ولعل في ذلك دليلًا قويًا ودائمًا على أن كبار أرباب التصوف لم يحيدوا قيد أنملة عن اتباع سنة النبي ﷺ بكل رسوخ ودقة.

وما دام التصوف يحافظ - بكل هذا الرسوخ والدقة - على اتباع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فهو يحافظ - بكل تأكيد - على وجود التنزلات الساوية واستمراريتها، وعلى الفيوضات الربانية كغيث من السماء يروي المحبة في الأفئدة على مدى الأزمان؛ لنيل رضوان الله ﷻ ومحبة رسوله ﷺ.

وهذا هو السر الأكبر في وجود الإسلام واستمراره، وامتداد تأثيره القوي؛ رغم ضعف حال المسلمين وتأخرهم المادي.

لذا؛ نجد أعداء الإسلام - ظاهراً وباطناً - يسعون بكل عزم إلى قطع الاتصال بين السماء والأرض، وفصل الروح عن الجسد من خلال توجيه سهامهم إلى التصوف، ورميه بشبهات تشوه صورته، وتُظهره مختلفاً عن الإسلام، ولكم يؤسفنا وجود أشخاص لا يدركون المؤامرة وأسرارها، ولا يدركون حقيقة التصوف وأركانه، فتراهم ينخدعون وراء زيف هذه الشبهات.

فكان لزاماً علينا تدارك خديعة هؤلاء، وانخداع أولئك؛ بإظهار معاني التصوف وجوهره الحقيقي، وتصحيح المفاهيم الخاطئة حوله، وهي محاولة مبدئية، وخطوة أولية، في توصيل النور إلى الأبصار، وكشف الغمام عن البصائر لتدرك المعاني، ومن ثم تعيشها وتستمتع بها.

ولعل كتابنا هذا خطوة أولية في هذا الطريق، وصفحة واحدة ضمن كتابات

ثرية عن عالم التصوف.





وثمة لمحة مهمة نريد أن نقدمها إلى قارئنا الكريم، فقد يبدو لأول وهلة أن هذا الكتاب من تأليف كاتبه، لكنه حقيقة هو من تأليف أولياء الله ﷻ، أي إن جميع الفيوضات والفضائل في هذا الكتاب هي فتوحات وإلهامات من العالم العلوي لأهل الله تعالى، وتقتصر وظيفتنا على تبليغ ما وصلنا من هذه الفيوضات مرتبة بحسب الحاجات والظروف، وكما استفدنا من الأعمال والمؤلفات السابقة أثناء إعدادنا لهذا الكتاب، فإننا وجدنا أصدقاء كثيرين كانوا لنا مثل «الكتاب الحي»، ونريد أن نذكر دورهم بكل شكر وافتخار.

وأخيراً، نرى أنه من الواجب، الذي يمليه علينا ديننا، أن ندعو بكل محبة وإخلاص لكل من ذكر في هذا الكتاب من أهل الله ﷻ، ولأحبابنا الأكاديميين ذوي الفضل.

إلهي، على قلة علمنا ونقص إدراكنا، فإننا أردنا أن نجلي حقيقة التصوف وعالمه الواسع بهذه الأفكار، فبارك لنا يا رب فيها، واجعلها نبغاً دائماً للفيوضات يستقي منه قراؤنا المحترمون.

إلهي، هب لنا ولإخواننا القراء بهذا العمل المتواضع فيضاً من نعمك التي لا تعد ولا تحصى، واجعل هذه النعم تليق بعظمتك وقدرتك يا أرحم الراحمين.. آمين..

عثمان نوري طوباش

أسكدار - إسطنبول

محرم ١٤٣٥هـ / نوفمبر ٢٠١٣م



الفصل الأول

ماهية التصوف

- أ. أصل التصوف
- ب. تعريف التصوف
 ١. التصوف هو الأدب وحسن الأخلاق
 ٢. التصوف هو تزكية النفس وتطهيره القلب
 ٣. التصوف حرب معنوية لا هوادة فيها
 ٤. التصوف هو الإخلاص
 ٥. التصوف هو الاستقامة
 ٦. التصوف هو الرضا والاستسلام
 ٧. تعريفات أخرى للتصوف
- ت. موضوع التصوف
- ث. غاية التصوف
- ج. ضرورة التصوف
- ح. علاقة التصوف بالعلوم الأخرى
 ١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى
 - أ. التصوف وعلم الكلام
 - ب. التصوف والتفسير
 - ت. التصوف وعلم الحديث والسيرة
 - ث. التصوف والفقه
 ٢. التصوف والعلوم الطبيعية
 ٣. التصوف والأدب
 ٤. التصوف والفنون الجميلة
 ٥. التصوف والفلسفة
- خ. العلم النافع
 - أ. الموسيقى
 - ب. العمارة
 - ت. فن الخط



قال رسول الله ﷺ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِم» (مسلم، الإيمان، ٦٢)



ماهية التصوف

يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^٢



أ. أصل التصوف:

لقد أفاض الله تعالى على الناس نعمًا لن يحصوها، ومن أسمى هذه النعم مدده الإلهي لجسد الإنسان وروحه، حيث نفخ فيهم من روحه، بقوله تعالى:

﴿...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾^٣

وبهذا خص الله تعالى البشرية بأثمن جوهرة نزلت من السماء، ووهبهم أنبل المعاني، وأرفع القيم، والمقابل البسيط الذي أراده منهم -وفاءً لهذا العطاء- أن يكونوا عبادًا له وحده سبحانه محبين لذاته، مخلصين لوحديته؛ فيواصلون أخذ نصيبهم من معرفته، والنهل من نبع محبته، والوصال مع حضرته.

ومن المنح الإلهية لبني الإنسان أن كرمهم بمجموعة من الصفات الراقية التي تسمو بهم إلى طريق الهداية. وليس هذا فحسب، بل أمدهم من نبع فضله باختيار خاصة الخاصة من بينهم، وهم الأنبياء، وأنزل عليهم الوحي؛ ليكون البلاغ مهمتهم، وحين ينقضي زمن النبوة والأنبياء، يأتي دور ورثة الأنبياء، وهم أولياء الله تعالى والعلماء الصالحون الذين لا يخلو منهم زمان.^٤

٢ الأحراب: ٢١.

٣ الحجر: ٢٩.

٤ انظر: البخاري، العلم، ١٠؛ أبو داود، العلم، ١/٣٦٤١؛ الملاحم، ١/٤٢٩١.





وقد بدأ إرسال الأنبياء الهداة مع بدء خلق الإنسان، فكان أول البشر هو أول الأنبياء، لتكون الهداية من البدء إلى المنتهى.

إن طريق الهداية المباركة هذا، الذي تدفق من فيض القدرة الإلهية كشعاع النور، وتسلسل عبر حوالي مئة وعشرين ألف نبي بدؤوا هذا الطريق، وواصلوه واحدًا تلو الآخر، جاء متوازيًا مع تطور حياة الإنسان ومكملًا لها، وهذه السلسلة التي استمرت في التبليغ -وبالتوافق مع خصوصيات كل عصر، ومستوى المخاطبين فيه- وصلت في نهاية الأمر إلى مستوى الكمال والذروة مع قدوم سيدنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام.

لقد ظهر نبينا ﷺ بنوره قبل سيدنا آدم عليه السلام، وكان آخر نبي بجسده، أي إنه يمثل الصفحة الأولى والأخيرة من كتاب النبوة، وبعبارة أخرى، بدأت رسالة النبوة بالنور المحمدي، ووصلت إلى نهايتها بالجسد المحمدي، وبهذا يكون النبي محمد ﷺ النبي الخاتم زمنًا، والأول خلقًا.^٥

وبما أن الدافع لخلق الموجودات كلها هو النور المحمدي^٦، فإن الحق تعالى أحيا النبي محمدًا ﷺ حياة مثالية نموذجية، أو بالتعبير القرآني «حياة طيبة» لينال بجدارة لقب «حبيب الله»^٧

لقد أكرم ربنا ﷻ الإنسانية جمعاء بأن جعل النبي عليه الصلاة والسلام هدية وهاديًا وسراجًا منيرًا، وذلك بعد أن ربّاه في حياته الاستثنائية الخاصة ظاهرًا وباطنًا على أكمل وجه.

٥ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ أحمد، مسند، ٤، ١٢٧؛ ابن حبان، الصحيح، ١٤، ٣١٣؛ العجلوني، كشف الخفاء، ١، ٢٦٥.

٦ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ الحاكم، المستدرک، ٢، ٦٧٢ / ٤٢٢٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥، ٤٨٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٢٥٣؛ السيوطي، الدر المنثور، ١، ٦٠، البقرة، ٣٧.

٧ انظر: الترمذي، المناقب، ١؛ الحاكم، المستدرک، ٢، ٦٧٢ / ٤٢٢٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥، ٤٨٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٧١، ٩، ٢٩؛ البزار، المسند، ١٧، ١١؛ قاضي عياض، الشفاء، ١، ١٦٠.





لقد جعل الله تعالى من السيرة النبوية المباركة، ومن شخصية النبي الكريم ﷺ النموذج الأرقى والأسمى للسلوك البشري الذي تحاول الإنسانية الدنو منه والاقتداء به، كل إنسان حسب جهده واجتهاده، مهما كانت قدرته ومنزلته، فالله تعالى قد جعل الإنسان الكامل محمداً ﷺ هو «الأسوة الحسنة» للبشر جميعاً في الأخلاق والسلوك، وهو الذي رسم وسار في المنهاج الذي تستطيع البشرية كلها السير فيه.

لقد بدأ النبي ﷺ حياته من أدنى نقطة، وهي العجز البشري عندما كان طفلاً يتيمًا، ومر بكل ما يمكن تخيله من مراحل ومحطات الحياة البشرية ومنعطفاتها؛ حتى أوصله الله تعالى إلى أعلى المستويات المادية والمعنوية؛ المادية من حيث النفوذ والسلطة والقدرة ورئاسة الدولة، والمعنوية من حيث النبوة والرسالة.

ووفق هذا المنهاج النبوي الذي يصلح لكل زمان ومكان، ويصلح لكل أنواع الناس، يستطيع كل بني البشر السير في هذا الطريق، ومواصلة هذا المنهاج؛ متخذين من النموذج النبوي المثال والقُدوة، وآخذين منه المدد المادي والمعنوي؛ بل يستطيع الجميع أن يطمع ويطمح إلى الوصول إلى درجة النجم السماوي الذي يستمد نوره من الكوكب الدري المحمدي.

لقد خلق الله رسوله ﷺ وجعل من مجمل حياته وتفصيلها في الأفعال والأقوال والحركات والسكنات نموذجاً يُحتذى، وأُسوة تُقتدى، فقال الله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^٨

وذلك لكي تصل البشرية إلى حالة نموذجية في كمال السلوك الأخلاقي والإيماني، وبتعبير أدق إلى كمال السلوك الصوفي، لأن هذا الكمال يبدأ بالاتباع وفق مقدرة العبد وطاقته، ويتدرج ليصل في نهاية المطاف إلى إتقان الاتباع وحقيقة التأسي، ويكون ذلك





بمقدار محبة النبي ﷺ، واتباع سنته، ومن ثم نكون أهلاً لتنزل الفيوضات الروحانية، والتجليات العلوية التي لا تنقطع، وذلك هو شرف الدنيا والآخرة.

لقد خلق الله تعالى فخر الكائنات سيدنا محمداً ﷺ بأفضل فطرة ظاهرياً وباطنيّاً، ورباه أحسن تربية، وقد بين سيدنا محمد ﷺ هذه التربية الإلهية حين قال:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي»^٩

هذا الإنسان الكامل عليه الصلاة والسلام منذ أن شرف العالم بمولده، عاش أربعين سنة في مجتمع جاهلي مكتظ بالأرجاس والأدناس والظلمات، لكنه ﷺ كان دائماً محمياً في بوتقة الحماية الإلهية، يترعرع في كنف الرعاية الربانية، ولم يصبه قط لفح لبيب الجاهلية، ولا مسه قط هبوب سمومها، فقد حصّنه الكنف السماوي ليعده الإعداد الرباني للمهمة النبوية، إذ شقّ صدره وملىّ بالحكمة، ثم استخرج قلبه وانتزع منه حظ الشيطان، ولم يعد في الصدر والقلب الشريفين مكان ولا أثر للمؤثرات الدنيوية؛ بل صار موثلاً للفيوضات الربانية والأنوار الإلهية، وموطناً للسكينة والإيمان والحكمة، والرفقة والرحمة.^{١٠}

وعاش رسول الله ﷺ قبل نبوته حياة فحواها ومبناها ومعناها توحيد صادق، لا سيما في الأوقات التي قرب فيها تكليفه بالرسالة؛ حين نذر نفسه ليكون عبداً خالصاً لله ﷻ، فقد كان يعتزل في جبل النور بين الحين والآخر، ويستغرق في تفكير عميق، وكان سبب الانعزال في الظاهر أنه باخع نفسه على آثار قومه، نتيجة انتشار الضلال والظلم والبؤس، إضافة إلى شعوره تجاههم بالرفقة والرحمة.

أما السبب الحقيقي للانعزال، فهو تهيئة الله تعالى له لتلقي الوحي الإلهي؛ ألا وهو القرآن الكريم من الله تعالى إلى القلب المحمدي الطاهر، وانتقاله للإدراك

٩ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٢؛ المناوي، فيض القدير، ١، ٢٢٤؛ ابن الأثير، النهاية، ١، ٤.

١٠ انظر: البخاري، بدء الخلق ٦، الأنبياء ٢٢، ٤٣؛ مسلم، الإيمان ٢٦٤؛ أحمد، مسند، ١٧، ٣١٧، ٥، ١٣٩، ٤، ١٨٤ - ١٨٥؛ الحاكم، ٢، ٦٧٣؛ الهيثمي، ٨، ٢٢٢ - ٢٣٢؛ مسند الطيالسي، ٣، ١٢٥ / ١٦٤٣؛ ابن كثير، البداية، ٢، ٢٨٠.





البشري، وحين وصل قلب سيدنا محمد ﷺ الدنيوي إلى النقاء الحقيقي بهذا التجلي والإلهام، ارتقى إلى مستوى يمكنه من تلقي الوحي.

وكان قبل البعثة يتلقى الإشارات المعنوية والإلهامات على شكل رؤى صادقة على مدى ستة أشهر، وبذلك كُشِفَتْ له أسرار العالم الروحاني، وكانت هذه المرحلة مرحلة تهيئة استعداد الفطري لتلقي الوحي الإلهي، وحمل المسؤولية الثقيلة التي يستحيل أن يحملها الأشخاص العاديون، وكانت أشبه بعملية تحويل الحديد إلى فولاذ بواسطة المزايا الطبيعية التي يمتلكها المعدن، إنها المزايا البشرية نفسها، ولكن بمؤثرات ربانية.

بهذا التحول جمع سيدنا محمد ﷺ في شخصيته وسلوكه جميع فضائل الأنبياء، ومهامهم، وكراماتهم، وكفاءاتهم^{١١}، فقد وصلت أصالة النسب والأدب والسعادة الجمالية والكمالية فيه إلى ذروتها، وقد جمع عليه الصلاة والسلام في دعوته بين الحقيقة والشرعة، أي بين التكاليف الشرعية والحقائق الصوفية، وكان قدوة للعباد في العبادة؛ وقدوة للزهاد في تطهير القلب، وتركيز النفس، وعلم أصحابه السلوك الظاهري والباطني، كما علمهم كيفية الدعاء والتعبد بالقول والعمل والسلوك الشرعي، وبالقلب والنفس والشعور الصوفي، وكان لهم ولل بشرية كلها النموذج الأسمى في الطريقتين، وكانت البشرية على موعد لتبلغ نقطة تحول جذري في مصيرها ومسيرها، عندما بلغ النبي ﷺ عامه الأربعين، وتلقى التكليف بالرسالة الخاتمة.



والتصوف في جوهره هو الوصول إلى حالة يكون فيها القلب سليماً، يتلقى فيها المعرفة عن الله تعالى، والمحبة من معيتها، ويدنو رويداً رويداً من الحضرة الإلهية لينعم بوصال الله تعالى؛ فهذا الدنو هو نضج إيماني على نار المحبة، ونور المعرفة، ولذة القرب، وهذا النضج هو طريق النجاة الذي اتخذته النبي ﷺ وبدأه في غار حراء، ثم

١١ انظر: القاضي عياض، الشفاء، ١، ٤٨.





في غار ثور، وأورثنا إياه، ثم واصل عليه الصلاة والسلام طريق الرقي، ومعراج الوصول في أزمنة وأمكنة أخرى، ومواقف تربوية ربانية عبر الوحي، مما شكل الروافد الفياضة لتطهير القلب وتركيب النفس.

ومع أنه عليه الصلاة والسلام كان قد وصل قبل الوحي إلى درجة قلبية سامية، ومرتبة روحية سامقة، وعاش حياة منزهة في ظل أخلاق مثالية؛ إلا أنه انطلق بعد نزول الوحي إلى آفاق أرحب، ومن سماء إلى سماء، حيث اللانهاية في ملكوت الله، فقد اتصل بربه جلّ وعلا بقلب ثابت وجنان قوي، ويقين راسخ، واستوعبت جزئياته البشرية نور التوحيد الإلهي، فكان بشرًا رسولاً وصل إلى أقصى آماد التقوى والخشوع في عبوديته، ولم تمنعه هذه المكانة في العبودية من مواصلة العبادة في آناء الليل وأطراف النهار؛ حتى تنتفخ قدماه، وتفيض عيناه، فإذا كلّ الجسد ونامت العينان؛ ما كان الفؤاد لينام وإنما كان دائم اليقظة، ذاكرًا شاكرًا مراقبًا لله تعالى.

حتى إنه عليه الصلاة والسلام صار عبر حياته وسلوكه سلسلة لا تنقطع من المعجزات؛ بل امتدت هذه المعجزات من خلال أقواله وأفعاله وسنته عبر العصور والأجيال، وما تزال تتحدى العلوم الحديثة في كل تفاصيلها وحركاتها وسكناتها.

وصار القرآن الكريم الذي أنزل على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إعجازًا في كل حرف من حروفه، وما احتواه من علوم وحكمة وهدى، ثم صار الاثنان - القرآن ومن أنزل عليه القرآن - إعجازًا ربانيًا في التربية والسلوك والأخلاق، تتمنى البشرية كلها أن تصل إلى أعتابه.

كانت هذه التربية المعجزة على المنهج القرآني المعجز، هي التي أوصلت النبي عليه الصلاة والسلام إلى درجة متناهية من النضج القلبي والروحاني، وأهّلت أن يصل إلى مكان ومكانة لم يصلها كبار الملائكة حتى أمين الوحي جبريل، وصار النبي عليه الصلاة والسلام «المسافر إلى الغيب» في رحلة المعراج، التي كانت هدية منقطعة النظير بين الحبيب والمحبوب، فتجاوز النبي ﷺ جميع حدود الزمان والمكان، ونزل





ضعيفاً مكرماً على ربه تعالى، ولم يكن ثمة وصف لهذه المكانة تصفه لغات الدنيا، إلا قوله سبحانه وتعالى:

﴿...قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^{١٢}

إذ فاقت هذه الرحلة -رحلة الإسراء والمعراج- حدود الإدراك البشري، وفاقت حدود الزمان والمكان، وكانت الإرادة الإلهية فقط هي التي تضبط ما كان، وتعرفنا أنه بالإمكان فقط لرسول الله -الذي طويت له الآفاق والأعمار والأعصار، وتجاوز عليه الصلاة والسلام العوالم والكرسي والعرش وسدرة المنتهى، ثم كان التجلي الإلهي ورؤية عين الحق بعين اليقين- رؤية الله تعالى بغير ستار، ومخاطبته سبحانه بلا واسطة.^{١٣}

ونعود من أقصى آفاق ما بعد الأكوان إلى أسباب خالق الأكوان، وإلى واسطة الوصول ومعراج القبول؛ إنه النضج الروحاني والكمال القلبي، فقد استطاع النبي عليه الصلاة والسلام أن يواصل مهمته في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وهداية البشرية جميعاً، وأن يواجه التكتل الظلامي الجاهلي الذي أراد أن يكبت هذا النور في مهده، ويطفئ جذوته، على أن الوعد كان سخيّاً، والوعد كان قوياً، إلا أن الرد المحمدي الواثق كان -على بساطته- قاطعاً وجليّاً.

١٢ النجم: ٩؛ لقد عبر سيدنا محمد ﷺ في ليلة المعراج سدرة المنتهى، وهو المكان الذي لم يتجاوزه أي مخلوق بما فيهم جبريل عليه السلام. وقد بينت الآية: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ المسافة للإدراك البشري، وحدث اللقاء الذي يستحيل أن يدركه أي عبد.

١٣ قال القاضي عياض:

«وأن هذا الدنو والقرب من الله ﷻ ليس بدنو مكان ولا قربمدى، وليس بدنو حدٍّ، وإنما دنو النبي عليه الصلاة والسلام من ربه، وقربه، إبانة عظيم منزلته، وشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام، يتأول فيه ما يتأول في قوله عليه الصلاة والسلام: (يُنَزَّلُ رَبُّنَا إِلَى سَاءِ الدُّنْيَا). نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان». انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ١، ١٧٨.





أخبر المشركون سيدنا محمداً ﷺ بواسطة أبي طالب أنهم يريدون منه عودته عن دعوته، وكان الجواب النبوي على هذا الطلب دستوراً للشبات على الحق، ودليلاً على رسوخ الإيمان:

«يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر؛ حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته»^{١٤}

وبعد أن رُفض العرض الذي قُدّم عبر أبي طالب من المشركين زلزلوا من انبثاق نور الإسلام، جاؤوا هذه المرة إلى رسول الله ﷺ، وتجروّوا على تقديم العرض التالي: «فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه، أو نُعذر فيك».

فكان رد رسول الله ﷺ على زعماء كفار قريش - وكذلك المساومين على الإيمان في كل زمان - بمثابة صخرة إيمان شامخة تتكسر على اعتبارها كل موجات المساومة على الدين واليقين، فرفض جميع عروضهم الدنيوية التي قدموها، والتي سيقدمونها:

«ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتمكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»^{١٥}

١٤ ابن هشام ١، ٢٦٥-٢٦٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٢، ٦٤.

١٥ ابن هشام ١، ٢٩٥-٢٩٦.





كان هذا الموقف والبيان الذي لا يعتريه أي شك قدوة للإنسانية جمعاء، وأظهر درجة الكمال التي وصل إليها في ثباته على الإيمان، وإدراكه للمسؤولية، وكانت عبوديته خالصة لا تشوبها شائبة، نقّاها الله تعالى كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس. لأن الأصل في هذه العروض والنداءات التي قُدّمت لسيدنا محمد ﷺ - والتي ستقدم لكل السالكين على الطريق - كان التخلي عن الآخرة مقابل التمتع بالدنيا، وتاريخ الإنسانية مليء بالأمثلة عن أشخاص باعوا مسؤولياتهم ومثاليّاتهم، وأغراهم السعي وراء الأشياء الفانية والانغماس في الهوى والهوس، وضلوا طريق الحياة الأبدية.

وإذا تساءلت عن سر هذا الثبات، ومصدر هذه القوة، ونبراس هذا العالم من المثالية والنورانية؛ تجده القرآن الكريم والسنة النبوية، وما فيهما من المبادئ الجوهرية للإسلام، فالقرآن الكريم يأخذ بيدك إلى معرفة الله تعالى، والثناء عليه، ثم يبدأ معك طريق الهداية بتطهير القلب، وتزكية النفس، والإقبال عليه سبحانه، واللجوء إلى بابه، والاستئناس بجنابه، والاستسلام الكامل لإرادته؛ بعد الأخذ بأسبابه، ثم تأتي السنة المطهرة تطبيقاً عملياً ميسراً وكاملاً لمبادئ القرآن وهدايته، وأساليب التطهير وتزكية النفس، والوصول بها إلى عليين.

لقد أكرم الله تعالى البشرية جمعاء، وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ بإنزال القرآن الكريم الذي هو النداء الإلهي الموجه إلى البشرية، ليحفز حواسه وعقله وفكره، وليدرك ذاته، ويدرك الكون حوله، فيصل إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة، عبر معرفة مخلوقاته وكونه المعجز، عبر التفكير والتأمل؛ إذ تصل إلى الصانع من خلال المصنوع، وإلى المسبب من خلال السبب، وتصل إلى الخالق من خلال مخلوقاته.^{١٦}

١٦ كما أجاب به الأعرابي ببدايته الأصمعي عن دليل سؤاله: بَمَ عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسما ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير.

(السفاري، لوامع الأنوار البهية، دمشق ١٤٠٢، ١، ٢٧٢).





إنها الإشارة الإلهية لطريق الهداية، ولسبيل المحبة، ولأسلوب الذكر والفكر، ولوسيلة التقوى والإحسان، والعيش الدائم في معية الله ورؤيته تعالى بإدراك أنك دائماً وأبداً تحت الرقابة الإلهية.

فالإنسان هو صفوة المخلوقات التي تلقت النعم الإلهية، وذروة البشرية كلها في هذا السياق هو الوجود المحمدي.

والإنسان هو المثل الأعلى لجميع الكائنات، ومن خلال هذا الإنسان نستطيع أن نرى العالم المليء بالمكنوزات اللامتناهية، لهذا فهو يُدعى بـ«العالم الصغير».

فالإنسان يحمل في كينونته سر العالم الكبير، تماماً كالبذرة التي تحمل سر الشجرة وأصلها، كذلك كالذرة والنواة التي هي اللبنة الأساسية في صرح الكون وسره الأكبر؛ وقد جعل الله الإنسان «أشرف المخلوقات» لأنه مدار هذا الكون ومركز حوادثه وأحداثه، فإليه نزلت الرسالات، وله خلقت النار والجنات، وعليه تقوم الساعة ومعه تحشر الكائنات؛ أي إنه محور كل الحادثات.

فإذا أدركت حقيقة الإنسان ومكانته في هذا الكون، استطعت أن تدرك مكانة وعظمة الوجود المحمدي الذي هو خير خلق الله تعالى وفخر الكائنات.

وإدراك هذه الحقيقة يعتمد على فطنة الإنسان واستعداده وإمكاناته.

فهذا هو أبو جهل يلتقي رسول الله ﷺ، وهذان هما أبو بكر وعلي ؓ يلتقيانه أيضاً، وشتان بين إدمار هذا وإقبال هذين، وهكذا حال الناس بين مقبل ومدبر على مدار الأزمان، فيكون إقبالهم أو إدمارهم وفق المحبة والاستعداد للترقي، لذلك فقد كانت المحبة والعشق من لدن أبي بكر وعلي ؓ هي التي جعلتهما ينالان شرف أول حلقة في السلسلة الذهبية للتصوف.



إن التصوف هو الاندماج الظاهري والباطني بمنهج سيدنا الرسول ﷺ، ثم الغوص في بحر محبته الواسع؛ فالتصوف هو تجليات الرسول ﷺ الظاهرية والباطنية،





الداخلية والخارجية؛ أي إنه «حال» الرسول. لذلك يركز هدف التصوف الأساسي على الأخذ بنصيب وافر وحظ وافٍ من قبسات الرسول ﷺ، والاتصال معه في عالم الروحانية.

والتصوف بعبارة أخرى هو الإيمان الممزوج بالعشق الإلهي، والعبادة المضمخة بالوجد وجمال السلوك.

إن التصوف هو قطرات الندى التي تتساقط بالفيوضات على القلوب المفعمة بمحبة النور المحمدي المبارك، هذه الفيوضات التي بدأت «بالنفخ من روحه» في آدم التليد، والتي وصلت إلى مستوى كمالها في سيدنا محمد ﷺ.

ولن تكون قادرًا على استيعاب حقيقة الأهلية والقدرة التي تشكل جوهر التصوف، والتي كانت تنتقل في حياة النبي ﷺ من القلب إلى القلب ومن الفرد إلى الفرد؛ إلا من خلال معرفة عميقة ومفصلة عن حياة هذا النبي المبارك ﷺ ومهامه. وكما أن الرسول ﷺ هو القدوة الأسمى للبشرية في كل نواحي الحياة، فإنه أيضًا المثل الأعلى في تربية الناس وتزكية نفوسهم. وعلى المستوى النبوي، فقد كُلف سيدنا محمد ﷺ بالكثير من المهام والمسؤوليات، وتأتي في مقدمة هذه المهام التي كلفه الحق تعالى بها أربع مهام أساسية، وهي:

١. تلقي الوحي الإلهي:

فقد تلقى الرسول الكريم ﷺ الكلام الإلهي عبر جبريل، وتوقف تلقي الوحي الإلهي - الذي جاء طبقًا للإرادة الإلهية - حين انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى.

٢. تبليغ أحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة:

يشتمل القرآن الكريم على أحكام وحقائق أوضحها وطبقها رسول الله ﷺ من خلال أحاديثه الشريفة وسيرته العطرة، وأخذ المجتهدون على عاتقهم هذه الأهلية العلمية، ومسؤولية البلاغ والتبيان بعد وفاة رسول الله ﷺ.





والغرض من شرح الأحكام الإلهية وإيضاحها، هو تقديمها في قالب عملي يتوافق مع الحياة البشرية للوقوف على حاجات العباد، ويسمى هذا العمل الذي يقوم به العلماء المسلمون الموثوقون بـ«الاجتهاد»، وهو عملية مستمرة، ويبقى الاجتهاد ضرورة دائمة حتى حين يغيب أهله، ويتولى وظيفة الاجتهاد هؤلاء العلماء المؤهلون.

٣. تنفيذ المسؤوليات الإدارية:

أي القيادة، والوقوف على تطبيق الأوامر والنواهي الدينية على مستوى المؤسسات والدولة، واستمرت هذه المهمة على يد الخلفاء (أولي الأمر) من بعده.

٤. تطهير أرواح البشر وتنظيم عوالمهم الداخلية بتزكيتها:

كان رسول الله ﷺ ينظم العالم الداخلي للناس، ويزكيهم، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ستستمر هذه المهمة دون انقطاع على يد المشايخ بالصورة نفسها التي يتطلبها استمرار المهام الأخرى، عدا تلقي الوحي الإلهي؛ لأن تطهير المؤمنين لا يقتصر على تطهيرهم من الظاهر فحسب؛ بل يتعدى ذلك إلى الباطن.

وعليه فإن سبب التصوف وأساسه هو استمرار هذه المهام النبوية في كل مكان وزمان، وهي مهام مستمدة من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، لذا؛ فإن استمرار الشيوخ - أرباب التصوف - دون انقطاع هو أمر ضروري واحتياج دائم.



ونعود من جديد إلى أبي بكر رضي الله عنه فهو الحلقة الأولى في السلسلة الذهبية للتصوف. فبعد ثلاثة عشر عاماً من الجهاد في التربية والتزكية والتبليغ والرسالة في مكة المكرمة، كانت الهجرة المباركة، وكان غار ثور إحدى محطات الحياة والطريق، وأحد محاضن التربية والإعداد الإلهي. ففي هذا المكان ظهرت بعض التجليات الإلهية، حيث إن هذا الغار بات مدرسة تفيض بالحكم الإلهية النوعية والانكشافات القلبية. واستمرت الاستضافة فيه ثلاثة أيام بلياليها، ولم يكن رسول الله ﷺ وحده هناك، فقد كان بصحبته سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، وهو أشرف الناس بعد الأنبياء، وهو





الذي نال شرف وفضيلة الصحبة مع رسول الله ﷺ في الغار على مدى الأيام الثلاثة، فقد كان «ثاني اثنين»، وخاطبه سيدنا محمد ﷺ قائلاً له:

﴿... لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾^{١٧}

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن النبي ﷺ علّم أبا بكر ﷺ سر وجود العبد في معية الله تعالى، وهذه الحادثة -وفقاً للعارفين- كانت الظاهرة الأولى لتذكّر الله تعالى في السر، أي الذكر الخفي، ودلالة على اطمئنان القلب بالله تعالى.

وتركز الصوفية على أن غار ثور يعد المكان الذي بدأ فيه انتقال الأسرار الروحية من القلوب إلى القلوب الأخرى، حسب المفهوم الصوفي.

لذا فإن سيدنا أبا بكر ﷺ هو أول شخصية مسلمة تتلقى التدريب الروحاني مباشرة من الرسول ﷺ، وهذا -فيما يرى الصوفية- هو أحد أهم الأسباب التي تجعل منه الحلقة الأولى بعد الرسول ﷺ في السلسلة الذهبية إلى قيام الساعة.

وعليه بات غار ثور مكاناً خاصاً تواصل فيه العبد مع الله المنزه عن جميع المفاهيم الزمانية والمكانية، وكان مرحلة مهمة في التربية القلبية الأساسية.

ويرى الصوفية أن النبي ﷺ قد علّم الذكر الجهري لسيدنا علي ﷺ، ويجب أن يعرف المرء أيضاً أن النبي ﷺ قد أعطى أوراذاً متنوعة لعدد من الصحابة^{١٨}، وأحياناً شجعهم على ذكر الله تعالى في جماعة.^{١٩}

١٧ التوبة: ٤٠.

١٨ انظر: البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩، الدعوات، ١١؛ مسلم، الذكر، ٧٩، ٨٠، المساجد، ١٧٧، ١٤٥؛ أبو داود، الوتر ٢٦/١٥٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ٤/٣٣٧٥، القيامة ٢٣/٢٤٥٧؛ النسائي، السهو ٦٠/١٣٠١؛ ابن ماجه، الأدب، ٥٦؛ أحمد، مسند، ٤، ١٨٨، ٢٤٤ - ١٤٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٧٤.

١٩ انظر: أحمد، مسند، ٤، ١٢٤، ٣، ٢٦٥؛ البخاري، الدعوات، ٦٦؛ مسلم، الذكر، ٤٠؛ أبو داود، العلم، ١٣/٣٦٦٧؛ الترمذي، الدعوات، ٨٢/٣٥١٠؛ الحاكم، ١، ٢١٠ / ٤١٩؛ ابن أبي شيبة، مصنف، ٦، ٥٩؛ الهيثمي، ١٠، ٧٦، ٧٧؛ أبو نعيم، الحلية، ٥، ١١٨.





وهكذا فإن تنوع تطبيق واختيار الأوراد والأذكار، التي هي أهم وسائل التربية الصوفية، هو السبب الأساسي في تنوع أصول وطرائق التربية المعنوية، وهذا يُظهر أن مصدر الطرق الصوفية هو نفسه مصدر المذاهب الفقهية؛ ألا وهو الكتاب والسنة. والتصوف من ناحية تشكيله لجوهر الدين موجود منذ سيدنا آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ، وتظهر الكثير من مفاهيم التصوف بالفعل في حياة الأنبياء جميعاً، إلا أن ظهوره علماً مقررًا، وطريقة نظرية وعملية - كما هو معروف اليوم - وُضع لأول مرة في القرن الثاني للهجرة.

ومع أنه لم يكن هناك أي مذهب من مذاهب الكلام أو الفقه في عهد النبي ﷺ، لكن في الوقت ذاته طبق النبي ﷺ الأحكام العقائدية والفقهية وعلمها لأصحابه، إذاً فالفقه كان موجودًا، وإن لم تدون هذا الإرشادات، أو تجمع كمبادئ علمية منظمة خلال عهده ﷺ. لكن فيما بعد بدأ تلامذة كبار العلماء - مثل علماء الفقه الإسلامي - بجمع اجتهادات المجتهدين، وتصنيفها بعضها إلى بعض، وشكلت هذه العملية بداية ظهور المذاهب الإسلامية؛ حيث جُمعت آراء كل عالم كبير تحت اسمه، ومن هنا نشأ الإرث الإسلامي الذي عرف بمذاهب أهل السنة في الفقه الإسلامي، وهي: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، ثم اتبع المسلمون فيما بعد هذه المذاهب.

وكذلك التصوف، يشجع الناس على اتباع الأجيال المسلمة الأولى في زهدهم وتقواهم؛ هذه الأجيال التي مارست جوهر التصوف خلال حياة الرسول ﷺ، وإن لم تقنن قواعده، وتجعله أسلوباً تربوياً ذا معالم ثابتة ومكتوبة، فالتصوف إذاً قديم قديم الفقه.

ومع طول الأمد، ركن المسلمون إلى الدعة، وتركوا جهاد النفس فقست قلوبهم إلا من رحم الله، فثبت على الحق ثلة من الأفاضال الذين لم يجرفهم تيار الدنيا وخضم الحياة، ووقفوا سدوداً منيعة أمام سيل المادية العارم لينقذوا البشرية ويستأنفوا حياتها من جديد ويمدوا الناس بما يحييهم من دين الله تعالى، فحملوا الأمانة الثقيلة بشموخ كالجبال، ثم أدوها في صبر وتؤدة وموعظة حسنة، وأخذوا بأيدي الناس إلى





طريق الله وإلى مجاهدة حظوظ النفس والمكابرة ضد شهوات الدنيا، فصنعوا رجالاً بل أجيالاً من العبّاد والزّهّاد، ولم يكن هدف هؤلاء العلماء اصطناع طرائق جديدة في التربية والتزكية والتصوف، بل كان هدفهم مجرد التربية والتزكية بأداء العبادات وإجراء المعاملات، والتخلية من الأخلاق الذميمة، والتخلية بالأخلاق الحميدة في ضوء مبادئ القرآن وهدي السنة؛ وصولاً إلى «الإحسان» عبر «الخشوع»، فكان ذلك السلوك من العلماء العاملين، وذلك الاتباع من المريدين السالكين، وهذه الجلسات والحلقات من التوجيه والإرشاد والوعظ والإمداد، فجمعت هذه الكلمات والمواظب والإرشادات والسلوكيات والمجاهدات، وتشكّل من خلالها نظام روحي، هذا النظام كان هو الطرق الصوفية التي كانت كالمدارس والمناهج التربوية التي حملت أسماء مشايخها وأصحابها، فظهرت الطرق التالية: النقشبندية، والقادرية، والرفاعية، والمولوية، والخلوتية، والجلوتية،... وغيرها.

وكانت تُطلق كلمة «طريقة» على كل أسلوب يسعى لمنهجية التفكير والإحسان والوصال مع الله تعالى في كل فرع من فروع التصوف، ويمكن تقسيم هذه الطرائق إلى ثلاثة أقسام:

١. طريق الأخيار: وهي الطرائق التي تركز على العبادات والتقوى.
 ٢. طريق الأبرار: وهي الطرائق التي تركز على تربية النفس من خلال المعاناة وتقديم الخدمات الإسلامية.
 ٣. طريق العشاق: وهي الطرائق التي تسعى للوصول إلى الغاية من خلال العشق والوجد.
- والسبب وراء ظهور الطرائق المتنوعة في هذا الميدان مع مرور الوقت، هو الحاجة لذلك، وليس من باب الاختلاف؛ حيث إن الناس مختلفون في مزاجهم وشخصياتهم وطبائعهم، لهذا فإن تنوع الطرائق يضمن تربية النفس بحسب ما يوافق طبيعة الشخص، لكي يطهر قلبه، ويصل إلى الكمال الروحي.





فالله تعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿...لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾^{٢٠}

إن كلمة «منهاج» هنا تعني لغة «الطريق المنور»، وهي تشير إلى طريق العبودية الذي يتخذه العبد كي يتقرب من الله تعالى، ويقول كبار المتصوفة:

«إن عدد الطرق إلى الله تعالى كثيرة كثيرة عدد أنفاس المخلوقات».

فعلى سبيل المثال؛ يجد الشخص ذو المزاج الجيَّاش سهولة في الارتقاء وفق الأصول المتبعة في الطريقة القادرية، في حين يجد الشعراء والفنانون والرومانسيون ضالتهم في المولوية، أما الأشخاص الذين يسيطر عليهم الوقار والمزاج الهادئ، ولديهم استعداد داخلي عالٍ، يرون النقشبندية مناسبة لهم، ولهذا يجدون سهولة في تلقي الفيوضات باتباع هذه الطريقة، والسير وفق أصول التربية فيها، وهذه القاعدة تُطبَّق على الطرائق كلها حسب خصائصها.

وهكذا نجد أن تنوع الطرائق هي رحمة من الله تعالى، لكن المهم هو أن تكون وفقاً لحدود القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

ومن ناحية أخرى تنقسم الأحكام القرآنية إلى ثلاثة أقسام:

١. العقيدة.

٢. الفقه:

أ. العبادات.

ب. المعاملات.

ت. العقوبات.

٣. الأخلاق (الفقه القلبي).



والفقه القلبي هو الذي يتولى إصلاح العيب الداخلي؛ أي هو إتمام مكارم الأخلاق، وهو يشكل بطانة العقيدة والسلوك العملي، وبالأخلاق ترتقي الأعمال لتصبح «أعمالاً صالحة» حسب القرآن الكريم، والصفات الأهم التي تشير إلى وصول القلب إلى حالة القبول الإلهي هي: التقوى والزهد والإحسان.

فالتقوى: هي الإحساس الداخلي بالمسؤولية أمام الله تعالى، وحماية القلب عبر المراقبة الدقيقة للأوامر والنواهي الإلهية، وهي الشعور الدائم في القلب بأن العبد تحت الرقابة الإلهية؛ أي تحت سمع الله تعالى وبصره، وذلك بالترفع عن الرغبات النفسانية، وتنمية الاستعدادات الروحية.

والزهد: هو امتلاء القلب بالله ﷻ، وخلوه من كل ما سواه.

والإحسان: هو إحساس المؤمن دائماً أنه تحت الرقابة في كل وقت، وتصرفه وفقاً لذلك.

وقد ورد في الحديث الشريف:

«...الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...»^{٢١}

أي إن الإحسان هو إدراك الروح أنها تحت مراقبة الله تعالى دائماً، وعندها يصير ارتقاء القلب إلى درجة أعلى ممكناً حين يستمر هذا الإحساس والشعور، وتنظيم الحياة على هذا الاعتقاد والأساس. وبالوصول لهذه الحالة يتم تصفية القلب، والتصوف من هذا الجانب يعني وصول القلب إلى حالة الصفاء هذه.



فغاية الدين وهدفه ومرماه بناء إنسان متسق مع الكون بجماله الذي خلقه الله عليه، جميل في روحه وأخلاقه وعالمه الداخلي، وذلك بإخلاص العبودية لله وحده، والتخلق بأخلاق الإسلام المثالية، ولا يتأتى ذلك إلا عبر تنقية القلب.

٢١ انظر: البخاري، الإيمان، ٣٧/٥٠، تفسير القرآن، ٨٥/٤٧٧٧؛ مسلم، الإيمان، ١/٨، ٩/٥.





والذكر هو أنجع وسائل التخلية والتخلية، تخلية القلب من دنيا الزخم، وتخليته بفضائل القيم؛ حتى يصير موضعاً لتنزل الفيوضات الربانية، ومراً صافية تنعكس عليها تجليات الحق تعالى.

وقد فتح الله تعالى طريق الوصول إلى عليين على مصراعيه، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فبوسع السالكين والمجاهدين على الطريق أن يبلغوا أعلى درجات المعراج في الترقى الروحاني، بعد الانطلاق من حدود الأحكام الظاهرية والأحكام الفقهية، والبناء على أساسها؛ صروح جذرانها هي: «الزهد»، و«التقوى»، و«الإحسان»؛ ما تزال جذران هذا الصرح تتعالى حتى تبلغ الأسباب، أسباب السماوات، فتطلع إلى عالم الملكوت بعدما تصل إلى الكمال الإنساني، وهو طريق مفتوح لكل الناس؛ كل حسب قدرته واستعداده، إنه طريق الترقى المعنوي الذي فتح الله تعالى مسالكه للجميع، وفق حكمته تعالى.

والمعراج الحقيقي أو الوسيلة الأسرع في هذا الطريق هو «الإحسان»، والإحسان أن تجعل الله في دوام معيتك، سميعاً بصيراً؛ رقيباً شاهداً على كل همساتك ولمحاتك وإسراك وإعلانك. وباستيقان دوام مراقبة الله تعالى عليك، والوصول إلى تلك الحالة الدائمة من المراقبة؛ تدرك روحك الحقيقة، والسر الإلهي الذي ندعوه «الإحسان»، وهو الهدف الذي يرمي المتصوفون الوصول إليه، وإدراك كنهه.

إنه معية الله والوصال مع أنس حضرته، ومن وصل إلى هذه الدرجة أدرك درجة الولاية، وأدرك مثالية الأخلاق التي يرضى الله تعالى عنها.

هكذا كانت أخلاق رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته الروحية، لم يكتفِ عليه الصلاة والسلام بإحدى الطريقتين؛ بل علّم وورث الصحابة والتابعين والأمة جميعاً الحياة الظاهرة والباطنة، والسلوكيات والمجاهدات المفسرة وغير المفسرة، فمن اكتفى بالظاهر فقط قصر بابه، ومن تعدى للباطن طال ذراعه، فنال الآمال ووجد الإقبال.





والمسلمون الأوائل ومن تبعهم أدركوا حقيقة التصوف وتشربوا روحه، ووقفوا على مفهومه وكنهه. ولما طال الأمد كان هناك من ساء فهمه، وتسطحت معرفته، وقصّر علمه عن إدراك حقيقة التصوف، ومن ثم اتخذ منه موقفاً سلبياً؛ بل عدائياً، رامية إياه بشبهات ومثالب؛ لعل أبرزها هو منشأ التصوف وبدايته.

فقد تنوعت الآراء حول أصل التصوف، وهي آراء لا أساس لها، فمنهم من قال إن أصل المصطلح من الكلمة اليونانية «صوفيا» أي «الحكمة» فقط لتشابه أصوات الكلمة، ومنهم من رأى أن أصل التصوف أصل يهودي، وبعضهم قال إن له علاقة بالروحانية الهندية. وهذه الآراء كلها آراء خاطئة بُنيت على أساس تشابه الكلمات أو المحتوى.

أما في حقيقة الأمر؛ فقد رأى علماء الإسلام أن أصل كلمة «التصوف» هو من مصدر إسلامي بحت، ومن بين الآراء المختلفة حول هذا الموضوع أن منشأ كلمة التصوف هو التصفية والاختيار، أي أنها نشأت من «الصفاء»، و«الصفوة»، و«الاصطفاء».

ومنهم من رأى أنها تعود «لأهل الصُّفَّة»، وهو أول شكل من أشكال التصوف، و«أهل الصُّفَّة» هؤلاء هم بعض العباد والزهاد من الصحابة الذين كانوا يلبسون الصوف دائماً، ويجلسون في «الصُّفَّة» وهو المكان المظلل في مسجد المدينة الذي كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم رسول الله ﷺ، ومن هنا جاء هذا الاسم، وقد نال الرأي الأخير القبول العام.

كان هؤلاء الصحابة الذين أطلق عليهم «أهل الصُّفَّة» قد أقاموا في المسجد النبوي من أجل العلم والعرفان والروحانية، وكانوا مميزين في زهدهم وتقواهم بسبب حصّ النبي ﷺ على ذلك؛ حتى إن رسول الله ﷺ طلب من أغنياء الصحابة إعالة هذه الزمرة ومساعدتهم، وتشير هذه الحقيقة التاريخية إلى أن السلوك الصوفي يطابق السنة النبوية، ولم يعترض عليه النبي ﷺ بل حث عليه.





وحين ظهرت الخلافات السياسية بين الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ لم يؤيد «أهل الصُّفَّة» أبداً أي جانب من الجانبين؛ بل بقوا على الحياد، وأخذوا العبرة من اختلاف المؤمنين، وما نتج عنه من ضعف مشاعر الأخوة، وازدادوا زهداً وتقوى، وبات هذا الحال وسيلة لزيادة النشوة. وقد رأى بعض الصحابة الآخرين في دخول هذه الخلافات خطراً معنوياً، ومشوا على خطى أهل الصُّفَّة، وهكذا زاد عدد المتمسكين بطريق الزهد والتقوى.

ومع مرور الوقت أخذ مصطلح «أهل الصُّفَّة» المشتق من «صُفَّة»، وكلمات «تصوف»، و«متصوف» المأخوذة من رياضتهم الروحية، وتقواهم، ينتشر بعد نشأتها، وأخذت الصوفية مكانها في مجرى التاريخ، وبدأت تتأسس الطرق الصوفية.



لقد كان الأصلان -القرآن والسنة- هما عماد التصوف وركيزته، ومنهما انطلق المتصوفون الأوائل في المجاهدة والسلوك، وفاضت إرشاداتهم وعظاتهم ومؤلفاتهم بالتأكيد على أسس الطريق ومنطلقاته، وحدوده وقيوده، فكانت كتاباتهم وآراؤهم، التي لقيت انتشاراً وتأييداً وإقبالاً واسعاً، مثلها مثل آراء المجتهدين من الفقهاء أصحاب المذاهب.

لكن التصوف -شأنه شأن كل العلوم والأفكار والمذاهب- وجد من أساء تطبيقه، تماماً كما وجد من أساء فهمه، فقد وقعت بعض الزلات -أو الكثير من الزلات والشطحات- من المريدين والسالكين؛ بل حتى من بعض المشايخ وأصحاب الطرق؛ الذين ربما قصر فهمهم عن إدراك حقيقة الدين باطنياً وظاهرياً، وربما غلبهم «الحال»، فأساؤوا السلوك؛ إذ غلبتهم «النشوة الصوفية»، فأساؤوا العلم والفهم.

لكن الجواد الأصيل سرعان ما يقوم من كبوته، ويتعافى من عثرته، فتداركت «الطرق» زلاتها، وتدارك «الشيوخ» أخطاءهم، وقوموا انحرافاتهم، وجاء على رأس





الطرق أناس من أهل العلم الحقيقي ظاهراً وباطناً، ففهموا حقيقة الدين، ومن ثم أدركوا كنه التصوف، وصحّحوا الطريق والطريقة.

وكانت الطريقة النقشبندية -وأضرابها- إحدى هذه الطرق التي كان القرآن والسنة منطلقها وركيزتها، ولكي تعبر عن ولائها المطلق للحقائق الشرعية باتت العبارة المعروفة المشهورة:

«الشرعية هي الذراع الثابت للفرجار» قاعدة غير مكتملة، فقد زاد عليها أعلام الطريقة وعدلوها.

فيقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إننا مثل الفرجار، قدمنا ثابتة في الشرعية، وقدمنا الأخرى نجول بها عبر اثنتين وسبعين قوماً»^{٢٢}

«الشرعية كالشمعة؛ تدل على الطريق وتنيره، لكن لا يمكنك عبور الطريق بمجرد وضع شمعة في يدك، كما لا يمكنك السير على الطريق دون شمعة ولكن إذا بدأت السير على الطريق في ضوء الشرعية، فأنت بالتالي تتبع طريقة»^{٢٣}



٢٢ أي إن ركيزتنا الأساسية التي لا نحيد عنها هي الشرعية، ومع ذلك فقد تشابه بعض مظاهرها أو سلوكياتنا أو أساليبنا مع إحدى هذه الملل الاثنتين والسبعين.

٢٣ أي إن دور الشرعية إنارة الطريق كالشمعة، ودور الصوفية كالمركبة التي تسير بك في هذا الطريق، ولا يمكن السير في الطريق دون الشرعية والصوفية معاً. (المترجم)





التصوف هو الحرص على تمثّل الإسلام ظاهرًا وباطنًا،
وذلك بالتطهر من الأدران المادية والمعنوية، والتخلق
بمحاسن الأخلاق الجلية والخفية.



ب. تعريف التصوف

من العسير أن تعبر كلمتائنا المحدودة عن حقيقة التصوف ومكنوناته، إذ لا
يستطيع الإنسان أن يدرك التصوف ويشعر به إلا حين يحيا به، ولذلك تنوعت
تعاريف التصوف واختلفت عند أولياء الله تعالى، فكل منهم كان ينطلق في تعريفه
من رؤية مختلفة عن الآخرين.

وإنما يتعمق فهم أولياء الله والسائرين في هذا الطريق للتصوف كل بحسب
استعداده وقدراته وتلقيه للتجليات والأنوار، ولذلك نرى هؤلاء الأولياء
يستوعبون التصوف بطرق مختلفة، ويخضع ذلك للتجليات الإلهية التي يعيشونها،
ومع ذلك فإن كل تعريف قدمه هؤلاء الأولياء صحيح، ذلك لأنه جاء حسب
التجربة الذاتية التي مر بها كل منهم، أما نحن فنحاول أن نصل إلى تعريف عام
للتصوف من خلال النظر في هذه التعاريف.

فإذا نظرنا إلى هذه التعريفات المختلفة، نستطيع القول أن التصوف -باعتبار
الجوانب المشتركة في هذه التعريفات- إنما هو علم يعمل على إصلاح عالم المؤمنين
الداخلي، ليقوّمه ويصل به إلى الكمال البشري، كما يجعل من هؤلاء الأولياء مثالًا
للأخلاق الحميدة التي تقرّبهم إلى الله تعالى، وتوصلهم إلى معرفته ومحبته.

و فيما يلي بعض من تعريفات التصوف التي قدمها لنا أولياء الله كل حسب
التجليات الروحانية التي نالها، وهي:





١. التصوف هو الأدب وحسن الخلق:

حسن الخلق هو ذلك الإحسان الذي يحمل الإنسان على الاستقامة في الفكر والسلوك عبر تحرير الإيمان من التقليد، حيث يترسخ في القلب شعور المرء دومًا بأنه تحت مراقبة الله تعالى، حتى يهيمن هذا الشعور على ظاهره وباطنه ويستقر في وجدانه. يقول أبو الحسين النوري:

«ليس التصوف بالشكل أو بالعلم، التصوف هو الخلق الحسن لا أكثر ولا أقل، فلو كان التصوف شكلًا لناله المرء بالمجاهدة، ولو كان التصوف علمًا لناله المرء بالتعلم، ولهذا فلا الشكل ولا العلم وحدهما يوصلان إلى المقصد، إنما التصوف التحلي بالأخلاق التي أمر بها الله».

وهذا التعريف يشير إلى أن التصوف يقوم على أسس وطيدة من الأخلاق. إن معنى الخلق الحسن هو التخلق بأخلاق الرسول ﷺ، وفي هذا مدح الله تعالى في القرآن الكريم أخلاق النبي ﷺ في الآية الكريمة:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^{٢٤}

وحين سُئِلَت السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها عن أخلاقه ﷺ، قالت: «كان خلقه القرآن»^{٢٥}

معنى ذلك أن العبد إذا تخلق بأخلاق القرآن واستقام على أحكامه، فإنه يصبح قرآنًا حيًّا، ولا يصل العبد إلى ذروة الخلق الحسن إلا حين يتلو القرآن الكريم بتفكير وتدبر ويتبع أحكامه، فيحل حلاله ويحرم حرامه.

لقد أمر الله تعالى سيدنا محمدًا ﷺ بهداية البشرية وإنارة دربها، وكان ذلك منذ أن أرسله الله تعالى وحتى قيام الساعة في الأزمنة والأمكنة جميعها. ومن هذا المنطلق

٢٤ القلم: ٤.

٢٥ مسلم، المسافرون، ١٣٩/٧٤٦.





انتقلت إلينا كل تفصيلات ودقائق حياته ﷺ، حتى الأمور الخاصة والتصرفات الشخصية عبر روايات صحيحة، وسيستمر هذا الانتقال حتى قيام الساعة بفضل الله تعالى ولطفه، وبدراسة سيرة النبي ﷺ يتبين لنا أنه كان يمثل كمال الإنسانية وذروة مكارم الأخلاق. ويبين الرسول ﷺ مهمته بالحديث النبوي:

«بعثت لأتمم حسن الأخلاق»^{٢٦}

وأنه ﷺ كان «الأسوة الحسنة» للإنسانية جمعاء، أي القدوة في الأخلاق.

ويأتي القرآن الكريم على ذكر أخلاق الرسول ﷺ في الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ

اللَّهُ كَثِيرًا﴾^{٢٧}

وسُيَظْهَرُ اللهُ تعالى حسن الخلق دومًا وإلى قيام الساعة بداية من رسولنا عليه

الصلاة والسلام ومن بعده عبر ورثة الأنبياء.^{٢٨}

وفي الحديث النبوي الشريف:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا»^{٢٩}

وبهذا يشير عليه الصلاة والسلام إلى أن حسن الخلق إنما هو ثمرة الإيمان وعلامة

الكمال، وأن أولياء الله الذين يتخلقون بالأخلاق المحمدية هم الهداة والمرشدون

الروحانيون، ويلفت انتباهنا إلى هذه الحقيقة أيضاً أبو محمد الجريري حين قال:

«التصوف هو تمثيل الأخلاق الحسنة والبعد عن الأخلاق الرديئة».

٢٦ مالك، الموطأ، حُسْنُ الخلق، ٨

٢٧ الأحزاب: ٢١.

٢٨ ورثة الأنبياء: العلماء الحقيقيون الذين يرثون الأنبياء ولا سيما خاتمهم محمدًا ﷺ ظاهرًا وباطنًا، من ناحية العلم والعمل والأخلاق.

٢٩ أبو داود، ١٥/٤٦٨٢؛ أحمد، مسند، ٢، ٢٥٠.





فتزوين القلوب بالأخلاق الحميدة وتنزيهاها عن الأخلاق الرديئة للوصول إلى النجاة والسعادة الأبدية عملية ضرورية، ولكن تحفها المشقات و المصاعب، وفي ذلك يقول أبو هاشم الصوفي وهو من المتصوفة الأوائل:

«إن إزالة الكبر المترسّخ في القلب هو أصعب من الحفر في الجبال بإبرة».

أما أبو بكر الكتاني فيقول:

«التصوف أخلاق، ومن كان أفضل منك في الخلق، كان أطهر منك في المعنى». والتاريخ الإنساني يزخر بأخلاق الأنبياء المثالية، أخلاق لا يضاهيها أي خلق، ومن أجل الأمثلة عن هذه الأخلاق العالية سيدنا يوسف عليه السلام، فيعد أن ظلمه إخوته ظلماً بيئاً كان رده عليهم:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^{٣٠}

وهذا مثال يظهر درجة العفو الكبيرة التي وصل إليها عليه السلام.

إن هدف التصوف هو أن يكون القلب مثل قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام سالماً من الدنيا ومطيعاً لأمر الله تعالى، ومثل قلب إسماعيل عليه السلام في تسليمه للحق ورضاه بقدر الله تعالى، ومثل قلب سيدنا أيوب عليه السلام في صبره، ويجب أن يكون حزن المؤمن مثل حزن سيدنا داود عليه السلام، وفقره مثل فقر سيدنا عيسى عليه السلام واستغنائه عن الآخرين. والمتصوف هو الذي يسعى ليكون قلبه مثل قلب سيدنا موسى عليه السلام في مناجاته حين كان قلبه فياضاً بالحماسة والاشتياق، وهو الذي يسعى ويجتهد أن يكون مخلصاً كإخلاص حبينا وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ويقول أبو حفص الحداد:

«التصوف هو الأدب».

فتعريفه للتصوف هو أنه خلاصة الأخلاق الحسنة.





وعن الأدب يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«اعلم يا سيدي أن الأدب هو تلك الروح الكامنة داخل الإنسان، والأدب عند رجال الله هو نور عيونهم وأفئدتهم، فإذا ما كنت تريد سحق رأس الشيطان، فافتح عينيك لترى أن الأدب يقهر الشيطان، وإذا لم يكن عند الإنسان أدب، فهو ليس بإنسان أبداً، لأن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو الأدب».

وثمة بيت شعري معناه:

سأل عقلي قلبي: «ما الإيمان؟»،

فهمس قلبي لعقلي: «الإيمان هو الأدب».

ونظم شاعر آخر بيتاً جميلاً في «الأدب» قال فيه:

الأدب تاج من نور الباري فالبسه تأمن من كل بلاء

ولهذا نجد أن اللوحة التي تحمل عبارة «أدب يا هو»^{٣١} في التكايا والزوايا وأماكن الخلوات القديمة واحدة من أهم اللوحات الخطية التي تحث على التيقظ والانتباه.

٢. التصوف هو تزكية النفس وتطهير القلب:

أتى الإنسان إلى هذا العالم لكي يُمتحن في عبوديته، ولذلك أُبتلي بالنفس وشهواتها وأهوائها التي تلازمه حتى الموت، وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى درجات الولاية، فإن الثلاثي (الدنيا والنفس والشيطان) يقف له دائماً بالمرصاد من خلال الحيل والوساوس والخداع، ولذلك كانت العبودية تبدأ بالتخلص من هذه المهلكات، ثم النجاة من مغريات هذا العالم الفاني، والتحلي بالتقوى، والتوجه إلى الحق تعالى في نهاية المطاف.

٣١ هذا البيان هو عبارة عن تنبيه ندائي من أجل مراعاة الأدب، وهو في الوقت ذاته توسل يشابه معناه مقولة: «يا إلهي! الطف بنا وامنحنا الأدب».





ولهذا كان من الضروري تركية النفس وتطهير القلب للتخلص من قابلية المعصية المركوزة في فطرة الإنسان، وزرع بذور التقوى، لذلك فكل إنسان مكلف بحسب استعداداته وقدرته بمعرفة الحق تعالى، والارتقاء بهذه المعرفة إلى مرحلة العرفان، عبر العمل الصالح، وتسبيح المولى وشكره، وهذا هو معنى «العبودية» باختصار، أما الوصول إلى حقيقة العبودية فمرتبط بتركية النفس وتطهير القلب، أي بتجاوز عقبة النفس وتحليتها بالأحاسيس الراقية، ولا يمكن نيل شرف درجة «الوصول إلى الله»^{٣٢} و«اللقاء مع الله»^{٣٣} إلا على هذه الصورة.

وجوهر القلب هو «موضع نظر الله تعالى» في هذا العالم، أي إن جوهر القلب ينال شرفاً رفيعاً بتجلي نظرات الله تعالى، وكما أنه لا يجلس على عرش القصر إلا السلطان، فلا ينبغي أن يكون في القلب الخاضع لمملكة الجسد غير الله تعالى، ولا بد من تطهير القلب بإزالة الأفكار النفسانية والميول الخبيثة والتعلق بها سوى الله تعالى، وإلا أغلق الطريق أمام القلب للوصول إلى الألفاظ الإلهية، وهذا لا يعني أن القلب لا بد أن يخلو عن محبة الآخرين، فحين يستطيع المرء تركية نفسه وتطهير قلبه ليصير قلباً سليماً، فإنه يتحرر من محبة غير الله تعالى، في حين لا يستطيع الآخرون أن يزيلوا تماماً من قلوبهم محبة المال والأولاد وما إلى ذلك مع اختلاف درجات هذه المحبة، فمثل هذه الأنواع من المحبة في الحقيقة مشروعة ما لم تتجاوز حداً معيناً.

ويكفي النظر إلى موقع القلب في الحياة المادية والمعنوية لإدراك أهمية تطهيره، وقد عرض النبي ﷺ أهمية القلب في حياة الإنسان حين قال:

«...ألا وإنَّ في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد

الجسد كله، ألا وهي القلب»^{٣٤}

٣٢ الوصول إلى الله: الوصول إلى الله العلي بالقلب في الدنيا.

٣٣ اللقاء مع الله: رؤية جمال ربنا في الآخرة

٣٤ البخاري، الإيمان، ٥٢/٣٩.





ويذكر مولانا جلال الدين الرومي - رحمه الله - أنه من العبث السعي للـ كَيْسٍ ما لم يُغلق الثقب في أسفله، وهكذا هي الأعمال، فالجليُّ أنه مع تطهير القلب تصبح هذه الأعمال وسيلة لسعادة المرء، فالأعمال بالنيات، والنية هي إحدى أعمال القلب، ويعد إصلاح النية وإخلاصها شرطاً في هذا السياق.

إلا أن حالة تزكية القلب هذه إنما ينالها المرء على يد أربابها بالتربية القلبية، فغاية أولياء الله تعالى من تربية القلب هي استشعاره بأنه دائماً مع الله أي بلوغ مرتبة (الإحسان)، وبذلك يصبح هذا القلب «قلباً حياً»، ولكي يصل القلب إلى هذا النضج، لابد من تطهيره مما سوى الله تعالى.

وحين يصل القلب إلى هذا الصفاء ويتخلص من أكداره، تتكشف له الحقائق الجلية والعميقة، وتتجلى عليه الأسماء والأسرار الإلهية، ويعرف المرء الله بقلبه ويرتقي بعلمه إلى حال العرفان.

ولا يمكن النجاة يوم الحساب إلا بالمثل أمام الله تعالى بقلب سليم، مطهر من كل الأمراض المعنوية، ومليء بالمحبة الإلهية، وهذا ما ذكره الله تعالى في كتابه حين قال:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^{٣٥}

ومن جانب آخر، يذكر القرآن الكريم أن الذين لا يطهرون أنفسهم، وتقسوا قلوبهم لبعدها عن ذكر الله تعالى، فإن مصيرهم الهلاك في نهاية المطاف:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ

مَنْ دَسَّاهَا﴾^{٣٦}

﴿...فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^{٣٧}

٣٥ الشعراء: ٨٨-٨٩.

٣٦ الشمس: ٧-١٠.

٣٧ الزمر: ٢٢.





وَلَكُمْ هُوَ مُعَبِّرٌ كَلَامَ أَبِي سَعِيدٍ الْخِرَازِ فِي ضَوْءِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ:
«الإنسان الكامل هو من طهر الله قلبه وملأه نوراً وعرفاناً».

٣. التصوف حرب معنوية لا هوادة فيها:

يعود هذا التعريف الى الشيخ جنيد البغدادي، ويعني به أن المتصوف لا ينفك عن مجاهدة نفسه طوال العمر، والجهاد ضد النفس هو الامتناع عن الرغبات غير المشروعة.

والحروب عادة تبدأ وتنتهي في زمان ومكان محددين، إلا أن مجاهدة النفس تستدعي مجاهدتها طوال العمر دون انقطاع، حيث يقول الله ﷻ في الآية الكريمة:
﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^{٣٨}

ويأمر الحق تبارك وتعالى عبده أمام غفلة النفس وحيلها باليقظة الدائمة والذكر المستمر، فقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^{٣٩}

وقد بيّن الرسول ﷺ أن تزكية النفس أصعب من مجاهدة الكفار حين قال لمن معه عقب عودته من غزوة تبوك المعروفة باسم غزوة العسرة:

«قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال:

«مجاهدة العبد هواه»^{٤٠}

٣٨ الحجر: ٩٩.

٣٩ الأعراف: ٢٠٥.

٤٠ البيهقي، الزهد الكبير، ١٦٥/٣٧٣، السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٣/٨٥١٠.





ويعطي الباحث المعاصر روجيه غارودي أهمية خاصة لتوازن الجهاد الأصغر والأكبر في الإسلام؛ إذ يقول: «التصوف شكل من أشكال التربية المعنوية الإسلامية، وهو ما يسمى بالجهاد الداخلي؛ أي الوقوف في وجه كل نوع من أنواع الرغبات التي تُبعد الإنسان عن الغاية من خلقه، وتوقعه فريسة للنفس، ويُعرف هذا بالجهاد الأكبر في الاصطلاح الإسلامي، أما الجهاد الأصغر فهو الجهاد ضد كل أنواع السلطة والجاه والعلم الخاطيء الذي يبعد المسلمين عن طريق الله تعالى، ويبقي المرء في حالة انسجام واتحاد مع الطريق المؤدي إلى الله تعالى، والالتزان بين هذين النوعين من الجهاد هو الذي يكفل السعادة والسلامة للفرد والمجتمع»^{٤١}.

٤. التصوف هو الإخلاص:

التصوف هو الإخلاص لله تعالى، و«الإخلاص» في الاصطلاح الديني هو العمل ابتغاء مرضاة الله وحده دون أن تكون هناك أي غاية سواه، وتطهير القلب من جميع الآمال ما عدا رضا الله تعالى هو فضيلة كبرى أمر بها المسلمون.

إن كل ما أمر الله ﷻ به العبد لنيل رضاه يسمى عديم النفع لا يجني منه صاحبه سوى التعب والمعاناة، إذا أشرك مع الله تعالى غيره، أو شابه الرياء، وبهذا يظهر أن «الإخلاص» هو أهم الشروط وأساسها لقبول الأعمال أمام الله تعالى.

والإخلاص هو حماية القلب من جميع أنواع الشهوات والأهواء الدنيوية في سبيل الاقتراب من الله تعالى. وبالإخلاص يحظى العبد بأكبر نعمة، ألا وهي رضاه سبحانه وتعالى.

إن ما يريده الله تعالى من عباده هو أن يعملوا بإخلاص سعيًا لرضائه تعالى، والآيتان التاليتان توضحان هذا الأمر:

٤١ انظر: روجيه غارودي، وعود الإسلام، ص ٤٧.





﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾^{٤٢}

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾^{٤٣}

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الموقف الذي طُرد فيه إبليس من الحضرة الإلهية حين قال:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^{٤٤}

فالتصوف هو ربط الأمور كلها بالله تعالى، وتلقي كل شيء منه، والتخلص من الإعجاب بالنفس. وعلى الإنسان مهما كان حاله ومقامه أن يتواضع ويعرف قدره وألا ينسى وجود من هو أعلى مقاماً منه، إذ يقول الله ﷻ - بعد أن انتصر المسلمون في معركة بدر - مخاطباً سيدنا محمداً ﷺ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^{٤٥، ٤٦}

لذلك يجب على الإنسان دائماً أن يحس بعجزه وعبوديته، وأن يعلم أن كل أنواع النعمة والنصر والتوفيق إنما هي من الطاف الله ﷻ، فإن لم يعلم الإنسان ذلك كانت أجور أعماله منقوصة أو صارت هباءً منثوراً.

٤٢ الزمر: ٢.

٤٣ الزمر: ١١.

٤٤ الحجر: ٣٩-٤٠.

٤٥ الأنفال: ١٧.

٤٦ أخذ رسول الله ﷺ أثناء المعركة قبضة من تراب ونثرها على جيش قريش، فغطى هذا التراب بإذن الله أعين الكفار وهذا ما أصابهم بالدهشة، وقد نزلت هذه الآية الكريمة بعد هذه الحادثة.





ويروي سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه الحديث الذي يبين عاقبة المرء حين يؤدي أعماله خالية من الإخلاص، ويخالطها الإعجاب بالنفس والهوى، حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛ ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار؛ ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»^{٤٧}

ويقول جلال الدين الرومي مخاطباً ذلك الذي يعبد الله تعالى دون إخلاص:

«أيها الغافل! كم أرجو أن توجه وجهك بإخلاص للحق تعالى حين تنزل ساجداً له، وكم أرجو أن تعرف معنى (سبحان ربي الأعلى)، فالسجدة ليست سجدة البدن فحسب بل هي سجدة القلب أيضاً».

إن العبادات إذا أقيمت دون إخلاص لا بد أن تشوبها الأهواء المبطنة والأدران المعنوية، والسر في صفاء العبادات وترقيتها إنما هو الإخلاص، فالعمل دون إخلاص لا يجني منه العبد شيئاً، فمثلاً الصلاة التي هي في المرتبة الثانية بعد الإيمان إن لم يُراعى فيها الإخلاص تعرض العبد إلى هذا الوعيد المخيف من الله ﷻ في الآية الكريمة التالية:





﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾^{٤٨}

ويقول جنيد البغدادي - رحمه الله -:

«الإخلاص هو تصفية العمل من الكدر الروحي».

ويقول أحد الأولياء:

«ادعاء الإخلاص نوع خفي من أنواع عدم الإخلاص»

حيث إن أكبر خطر على الإخلاص أن يرى المؤمن نفسه تقياً.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال:

«أخلص دينك يكفك العمل القليل»^{٤٩}

ويقول في حديث آخر:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^{٥٠}

٥. التصوف هو الاستقامة:

التصوف هو أن يحيا المرء باستقامة، والاستقامة هي التمسك بالكتاب والسنة، وفهم الأوامر الإلهية والنبوية فهماً نابعاً من القلب، والحياة بشغف في ظلالها، فالتصوف هو وصول القلب إلى أعلى حالات السعادة بالعيش في روحانيات الكتاب والسنة.

يقول الحق تعالى في الآية الكريمة مخاطباً النبي ﷺ وأمته من بعده:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا...﴾^{٥١}

٤٨ الماعون: ٤-٦.

٤٩ الحاكم، المستدرک، ٤، ٣٤١/٧٨٤٤؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٢٤٤.

٥٠ مسلم، البر، ٣٤/٢٥٦٤.

٥١ هود: ١١٢.





وكان الدافع إلى «شيبتي هود...»^{٥٢} في حديث الرسول ﷺ هو ما ورد في هذا الخطاب الإلهي الذي شرحه المفسرون^{٥٣} على النحو الآتي:

«يا أيها النبي! ليكن سلوكك كما تفرض عليك أخلاق القرآن وأحكامه، وكن مثلاً حياً للاستقامة كي لا يكون موضع للشبهة والتردد في شخصك، واصرف النظر عما يقوله المشركون والمنافقون، ودّعهم إلى الله. واستقم كما أمرت في مهماتك العامة والخاصة، ولا تتعد عن الصراط المستقيم. وثابر على تبليغ ما يوحي إليك وتنفيذه وتطبيقه مهما كان ثقيلاً، فالله مُعينك»^{٥٤}

وقال عبد الله بن عباس ؓ في قول الله تعالى ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾: «مانزلت على النبي ﷺ في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية»^{٥٥} وقد كان هذا الخطاب موجهاً مباشرةً إليه ﷺ، ولم يكن مصدر الشيب في هذه الآية خوفاً على نفسه من التمسك بالاستقامة، فالآية الكريمة:

﴿يَسْ. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{٥٦}

نزلت فيه وتأييداً له عليه الصلاة والسلام، لكن السبب الحقيقي الذي شبيه وأثر فيه من الأعماق، هو القلق على المؤمنين من مشقة تطبيق هذا الأمر الإلهي.

فلا يمكن لأي طريق بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام أن يوصل الإنسان إلى الله سوى طريق الهداية الذي رسمه رسول الله ﷺ، فقد ربط الله تعالى محبته ومغفرته بإطاعة المسلمين للنبي عليه الصلاة والسلام، وهذا ما توضحه الآيات الكريمة:

٥٢ انظر: الترمذي، التفسير، ٣٢٩٧/٥٦.

٥٣ انظر: القرطبي، الجامع، ١٠٧، ٩.

٥٤ انظر: المفسر التركي أمالي محمد حمدي يزير، (دين الحق ولسان القرآن)، ٤، ٢٨٢٩-٢٨٣٠.

٥٥ النووي، شرح صحيح مسلم، ٩، ٢.

٥٦ يس: ١-٤.





﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^{٥٧}

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^{٥٨}

ويؤيد ذو النون المصري - رحمه الله - هذه الحقيقة بقوله:

«إن من يطبق سنة حبيب الله تعالى في أخلاقه وأفعاله وحركاته، يؤكّد حبه للحق تعالى».

أما أبو يزيد البسطامي - رحمه الله -، فيقول:

«لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى ترّبع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة [وإلا فإن حاله ليست كرامة بل استدراج]»^{٥٩} ٦٠

وقد ذكر القرآن الكريم أولئك الذين يستطيعون أن يسلكوا طريق أهل الاستقامة (الصراط المستقيم) بالصورة الصحيحة:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^{٦١}

٥٧ آل عمران: ٣١-٣٢.

٥٨ النور: ٥٤.

٥٩ الاستدراج هو عكس الكرامة، وهي الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ أي الشخص الذي يتظاهر بالولاية. وهذه الأحوال إنما هي امتحان إلهي يأخذهم شيئاً فشيئاً إلى الهلاك.

٦٠ البيهقي، الشعب، ج٣، ٣٠٤؛ القشيري، الرسالة، ص ٥٨..

٦١ النساء: ٦٩.





والظاهر في الآية الكريمة أن الصراط المستقيم طريق خاص بأشخاص محددين، وأساس الاستقامة هو الإيمان والتقوى، ومحلهما القلب، لذا فالاستقامة هي انسجام وتناغم حركة البدن مع توجهات القلب، أي أن تكون الأعمال الظاهرة مرآة وصدى لما في القلب من إيمان وتقوى، فبالإيمان والإخلاص ترعى الاستقامة وتدوم.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه..»^{٦٢}

وعن سفيان بن عبد الله الثَّقَفِيّ، قال: قلت: «يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك» وفي حديث أبي أسامة «غيرك» قال:

«قل: آمنت بالله، فاستقم»^{٦٣}

وليس ثمة أمر إلهي أصعب من المحافظة على الاستقامة على الصورة التي يريدّها الله تعالى، فالمحافظة عليها مقام عالٍ. والاستقامة هي المحافظة على العبادات باعتدال دون الوقوع في الإفراط والتفريط مع الثبات على طريق الله، وتنفيذ أوامره بالشكل الأمثل كما وردت، كلّ حسب طاقته، لهذا السبب كانت الاستقامة شعار أولياء الله وأعظم كراماتهم، والاستقامة الحقيقية هي السير في طريق النور الذي خطّه فخر الكائنات ﷺ.

وقد شرح مولانا جلال الدين الرومي هذه الحقيقة خير شرح حين قال:

«طالما هذه الروح في جسدي سألني مدعناً للقرآن، وأسير على خطى سيدي محمد المختار، وإذا ما نقل أي شخص عني غير هذا الكلام فإنني منه براء».

«إن أي امرئ يذهب إلى مائدة غير مائدة النبي ﷺ، فسيأكل الشيطان معه من الوعاء نفسه، إذ إن من يختار مائدة غير مائدة العرفان تلك، فستمزق العظام حنجرتة».

٦٢ أحمد بن حنبل، مسند، ٣، ١٩٨ / ١٣٠٤٨؛ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٩٧ / ٨.

٦٣ مسلم، الإيمان، ٦٢ / ٣٨.





٦. التصوف هو الرضا والتسليم لله ﷻ:

التسليم هو الخضوع المطلق لله تعالى والطاعة والاستسلام له سبحانه وأوامره دون اعتراض، ومن هذا الجذر اللغوي نفسه اشتقت كلمة «الإسلام»، والتصوف يزرع في الأفئدة الشعور بالرضا والتسليم للحق تعالى كي يتمكن العبد من العيش على أساس الاستقامة والاقتراب من ربه أكثر فأكثر مع كل نفس يتنفسه.

إن الرضا والتسليم للحق تعالى هما اللذان يخففان من تأثير الآلام والمصائب والمحن التي تُغرق هذا العالم الفاني، حتى إن المصائب ببركة الرضا والتسليم لله تصير كأن لم تكن، وتتحول الابتلاءات إلى مسرات حين يتلقاها العبد على أنها منحة من رب العالمين له. والتسليم هو خضوع العبد لأوامر الله تعالى بكل سعادة، وقبوله -بعد الأخذ بالأسباب- لكل تجليات القدر بالرضا العميق، وخير مثال على التسليم هو امتثال سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمر ربه وتقديم كبده قرباناً، وتسليم إسماعيل عليه السلام نفسه للتقدير الإلهي بكل رضا، وقد ضرب الله تعالى مثلاً هذين النبيين للناس أجمعين في التسليم:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَيْنِ﴾^{٦٤}

وبتسليمهما هذا نالا ثناء الله تعالى عليهما، وصارت الأضحية حكماً شرعياً مستقلاً في العبادات، وستبقى عبادة الحج نموذجاً ونبراساً هادياً للأجيال القادمة إلى قيام الساعة على تسليم العبد لله تعالى وخضوعه بين يديه.

فينبغي للعبد إذا استسلم للحق تعالى في الأوامر والنواهي، ورضي بما يقدره الله له، أن يصبر على المشقات والابتلاءات، فالابتلاءات هي مفتاح الكمال. ويقول الشقيق البلخي:

«لو علم العبد ما يتلو المحن من منح لما أراد النجاة منها».





ولذلك لما عرف أولياء الله هذه الحكمة نظروا إلى الغمِّ والسرور بالعين نفسها، وتجاوزوا السعادة المفرطة والحزن العميق اللذين يوقعان المرء في مصيدة النفس، وارتقوا إلى مقام الرضا والتسليم.

ومن أوجه التسليم العشقُ والمحبةُ الإلهية، فالمحبُّ يسعدُّ بكل ما يأتي من الحبيب، ويسعى جاهداً إلى إظهار حميمته وإثباتها.

وربما هذا هو السبب الذي دفع بأبي علي الروزباري لتعريف التصوف على أنه: «لزوم المرء باب الحبيب مستسلماً له ولو طرده آلاف المرات».

إن العبد الذي يملأ العشق قلبه يُقبل راضياً عن كل ما يأتيه من ربه على قدر محبته له، فبتسليم إبراهيم عليه السلام لله تعالى وتحليات عشقه له تحولت النار الدنيوية إلى روضة غناء، أما يعقوب عليه السلام فقد نجح في التخفيف من ألم الفراق من خلال رضاه وتسليمه للتقدير الإلهي، ويقول:

﴿...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ...﴾^{٦٥}

ولهذا جعل أهل التصوف طريق الاستسلام لله تعالى -وهو طريق الأنبياء- محور طريقتهم، وتقول رابعة العدوية -رحمها الله- في هذا الشأن: «إن المحب للحبيب مطيع».

أي إن التسليم هو الطاعة التي تنبعث من الحب، وتنبع من القلب. ولقد وصل الصحابة الكرام إلى مرحلة الكمال البشري بحبهم وارتباطهم وطاعتهم لنبينا ﷺ، حتى غدوا نماذج حية للأمة كلها يعلمونها كيف يمتزج الحب لله بالخضوع والتسليم المطلق له سبحانه من دون أي اعتراض.





٧. تعاريف أخرى للتصوف:

إن الإسلام يهدف لتربية إنسان كامل، وهذا الهدف يتطلب أن يعيش المرء الإسلام ظاهراً وباطناً، بحيث يتحد الجسد مع الروح وينسجم العقل مع القلب.

والتصوف: هو السبيل للعيش على هذه الحال، فالهدف الفريد للتصوف تحويل الإنسان إلى إنسان مسلم صالح يرضى الله تعالى عنه، وهذا ما يوجب على المرء المسلم أن يسعى ليحيا حياته بإدراك الإسلام ضمن تكامل «الشرعية والطريقة والحقيقة والمعرفة».

فالتصوف: هو وجهة الدين الداخلية وجوهره وعمقه الروحي، وهو من هذا الجانب مثل اللاكتوز الموجود في الحليب، فحين نهمل روح الدين وجوهره لا تبقى إلا مجموعة من الأحكام الفقهية الجافة. وفي المقابل ثمة أشخاص لم يفهموا حقيقة التصوف حين ردوا كل أمر إلى الأحكام الباطنية، ولم يلتزموا بالأحكام الظاهرية، خاصة في هذه الأيام مع وجود من يدعون وصولهم إلى النشوة الصوفية، ناهيك عن أولئك الذين يأخذون عبارة «لا ضير في عملك ما دام قلبك طاهراً» شعاراً لهم، ويطلقون العنان لحياتهم النفسانية، ويسعون إلى إظهار مفهوم التصوف على هذا النحو البعيد عن مفهوم التصوف الحقيقي، والمؤسف أن هناك أشخاصاً في أيامنا هذه بعيدون عن روح «المتنوي الشريف» يهملون الجانب المتعلق بالتقوى في المولوية، ويحاولون إظهار السماع^{٦٦} -الذي هو في الأصل ذكرُ الله تعالى- على أنه موروث شعبي ومجلس للموسيقى.

وكما أن رسول الله ﷺ كان أتقانا لله تعالى وأقربنا إليه وقام بالتكاليف والمسؤوليات الشرعية حتى آخر نفس تنفسه، فكذلك ينبغي لكل مسلم يقتدي بهذا النبي أن ينجز مهامه ومسؤولياته الشرعية مهما كان موقعه ومقامه الروحاني، فالشرعية التي نصفها

٦٦ مصطلح عربي الأصل، استعمله المتصوفة للدلالة على الإنشاد الديني والذي يكون ضمن مجالسهم العلمية أو الروحية (المترجم).





أنها الأحكام الظاهرية للإسلام هي مثل الهيكل العظمي الذي يعتمد عليه الجسد، لكن المظاهر الدينية التي هي عبارة عن هيكل فقط تقدّم الإسلام على أنه دينٌ منقّرٌ جاف وناقص، يفتقر إلى الروح والحيوية، وهناك بالفعل من يريد عن عمد أن يظهره على هذا النحو.

والتصوف: هو فهم الإسلام بالطريقة التي فهمها رسول الله ﷺ وسار عليها صحابته رضي الله عنهم، تلك الطريقة المليئة بالفيوضات والروحانيات، ثم السعي للعيش على أساس هذه الطريقة بالحب والشوق.

والتصوف: هو السعي والعمل على تنظيم الحياة على أساس الكتاب والسنة. والتصوف: هو نظام لتطهير النفس من كل شوائبها، وفن الوصول بها إلى التقوى عبر الحذر من كل شيء يُبعد المرء عن الله تعالى، والتصوف هو شعور المرء بوجوده في عالم الامتحان الدنيوي، وهو الذي يوضح قواعد العبودية لله تعالى، وكل ذلك بالفيوضات والروحانيات التي تتغلغل في عروق المرء، فالتصوف هو سعي المرء كي يكون عبداً صالحاً لله تعالى من خلال معرفة الله ومحبته.

والتصوف: هو معرفة الحق تعالى بالقلب، والارتواء من ينبوع العبودية لله تعالى، والارتقاء بالإيمان إلى أفق عالٍ كما هو حال الإحسان.

والتصوف: هو رحلة مقدسة توصل العبد إلى الله تعالى عبر المحبة والصحبة الحقيقية.

والتصوف: هو تطهير الفؤاد مما سوى الله تعالى من خلال الذكر الدائم.

والتصوف: هو فن بقاء العبد حبيباً لله تعالى من خلال الرضا بقضائه في كل زمان ومكان، وهو مهارة الإبقاء على توازن الفؤاد أمام المد والجزر والظروف المتغيرة والمفاجآت، ونسيان الشكوى والتذمر ليكون العبد عبداً صالحاً على الدوام.

والتصوف: هو تعليم الزهد، وتخليص الفؤاد من الرغبات النفسانية المتقلبة في الدنيا عبر إدراك أن الحياة الأساسية هي الحياة في الآخرة.





والتصوف: هو تكريس الوقت على أكثر الأشياء قيمةً.

والتصوف: هو مسؤولية يحملها أولئك الربانيون تجاه عباد الله الغافلين الشاردين التائهين، فيعاملونهم ويخدمونهم ويرشدونهم بالشفقة والرحمة والمحبة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، لذلك يمكننا القول أن «التصوف هو طريق الخدمة الإسلامية».

وخلاصة ما فهمناه عن التصوف وما نريد إيصاله، أن التصوف معرفة رسول الله ﷺ عن قرب وذلك من خلال محبته، والتخلق بأخلاقه الرفيعة، والسعي لتمثل الإسلام بروحانيته على أجمل صورة، والتصوف هو «حياة التقوى» التي عاشها رسول الله ﷺ وصحابته مضمخة بالحب لله تعالى.

أما ما بقي خارج ذلك ولم يأخذ جوهره ومعياره من القرآن والسنة فهو باطل مهمل عزا نفسه للتصوف.

وفي ضوء التعاريف المذكورة للتصوف يمكننا أن نخلص إلى أن:

التصوف: هو السعي لإقامة الدين، والحياة به وفق روحه وأصوله، وذلك من خلال التخلي والتطهر من الأدران المادية والمعنوية، والتحلي واكتساب الأخلاق والصفات الحميدة، وبهذه الطريقة يصل المؤمن إلى فهم شامل للأحداث المادية والمعنوية، وتفتح بصيرته على الأسرار والألغاز الكبيرة التي لا يمكن أن يصل إليها عبر العقل وحده.

والتصوف: هو الصراع للتغلب على النفس التي تمثل حجر عثرة أمام ما يطلبه القلب من اللذات الروحانية اللانهائية.

والتصوف: من ناحية أخرى هو علمٌ يبيّن كيف يجسّد الجسدُ الروحَ، ويمنعها عبر الميول النفسانية من استيعاب الحقائق والحكم من وراء الأحداث، وهو علم يسمح للروح باكتشاف العبر والحكم التي تتجاوز حدود الإدراك، ومشاهدتها من منظور العارفين.





ولندع نتيجة تعريفات التصوف إلى «منظومة التصوف» المشهورة التي نظمها إبراهيم أفندي شيخ تكية آق سراي أولانلار ومن خلال شرح قصيدته المشهورة:

«التصوف في البداية هو التجرد من الوجود المادي، وإنكار الوجود في نفس المرء، أي تسليم إرادته للحق تعالى، أما التصوف في النهاية فهو الفوز بالفضائل الإلهية، حتى يصير المتصوف سلطاناً في قلوب الناس.

والتصوف كطريقة: هو أن يكون الصوفي مجهولاً بين الناس، لا يأبه له أحد، أما في الحقيقة فهو ضيف في قصر الأسرار الإلهية مطلع على خفايا الأمور ومآلات الأحداث.

والتصوف: هو الخلاص من الألبسة والأقفاص الفانية المصنوعة من الطين والماء، وبهذا يصبح المرء إنساناً طاهراً يشع منه النور الإلهي.

والتصوف: هو إيقاد شمعة الفؤاد بالنور الإلهي، لأن التصوف هو الاحتراق بالعشق الإلهي.

والتصوف: هو وجوب تجرد العبد من الإعجاب بالنفس والالتفات للناس، وأن يكون من أهل الشريعة والإيمان الحقيقي.

والتصوف: أن تكون عارفاً بسنن الله في الكون، حتى لا تكون من أهل الهم والكدر.

والتصوف: هو معرفة الأسرار والتجليات والحكم الإلهية وإدراكها، وهذا هو العلاج لأصحاب الهموم.

والتصوف: هو فك طلسم الجسد باسم الله، التصوف هو خراب هذا المبنى العامر الفاني تماماً.

والتصوف: هو تحويل الصوفي مقاله إلى حال، فيحيي بحاله ومقاله معاً قلوب الناس دائماً.





والتصوف: هو الاطلاع على علوم التعبير والتأويل من خلال سبر الأعماق، وبهذا تُعرف الأسرار الإلهية الموجودة في الإنسان والكائنات والقرآن والسنة، والتصوف أيضاً هو أن تكون سرّاً من أسرار الله تعالى في الفؤاد.

والتصوف: هو أن تكون واعياً وغائباً داخل حيرة ودهشة كبيرة أمام عظمة الله تعالى وقدرته وجماله، لأن التصوف هو الإعجاب بأسرار الحق تعالى اللانهائية.

والتصوف: هو إخراج كل شيء من قصر الفؤاد وبقاء الله تعالى وحده فيه، لأن التصوف هو أن يكون قلب المؤمن عرشاً لله تعالى، أي ذاكرًا لله تعالى دائماً.

والتصوف: هو بلوغ الشرق والغرب مع كل نفس، أي التفكير بأهل الإيمان هناك، ومشاركتهم سعادتهم وحزنهم، وخدمة أصحاب الحاجة، أي إن التصوف هو النظر في حال الناس كلهم والاهتمام بهم.

والتصوف: هو رؤية الحق تعالى في كل ذرة من ذرات الكون، فالتصوف هو أن يكون الصوفي كالشمس التي تنير العالم.

والتصوف: هو فهم لغات العالم كلها، يعني فهم حالة كل شخص، أي إن التصوف هو أن تكون حاكماً لعالم العقل مثل حكم سليمان.

والتصوف: هو حمل القرآن الذي هو أمانة إلهية على عاتق الإنسان، وحمل المسؤولية الناتجة عنها بجدية ورغبة؛ والتصوف هو نيل الآيات التي تبشر بالمغفرة الإلهية.

والتصوف: هو الرحمة بالخلق والشفقة عليهم والدعاء للكائنات كلها بـ(اسم الله الأعظم)، فبالتصوف يكون الصوفي قرآناً حياً ورحمة للعالمين.

والتصوف: هو التوجه للحق تعالى في كل حال، وأن يكون الصوفي في خدمة الخلق يهون عليهم كل أمر عسير.

والتصوف: هو جعل فؤادك مكاناً للعلم الإلهي، أي امتلاك العلم اللدني، فالتصوف إذاً تحول حال الصوفي الذي ما هو إلا قطرة واحدة إلى بحر واسع عظيم.





والتصوف: هو إحراق الأنانية بنيران (لا إله)، والتصوف هو أن تكون إنساناً كاملاً بنور كلمة (إلا الله).

والتصوف: هو دعوة الناس إلى طريق الحق تعالى بآية ﴿...قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا...﴾^{٦٧}

والتصوف: هو السعادة والطمأنينة بمآل ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^{٦٨}

والتصوف: هو الإحساس بالموت والبعث ألف مرة في كل يوم، حتى تصير روحاً للعالم كله وسبباً لإحياء الأفتدة الأخرى.

والتصوف: هو إفناء الإنسان لنفسه في وجود الله تعالى، وإخفاء المرء نفسه بالقرب من الله ﷻ الذي تجلّى في رحلة المعراج واتضح في الآية الكريمة:

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾^{٦٩})

والتصوف: هو إعطاء الروح للحبيب والنجاة من كل أنواع الأسر الفانية، والتصوف من هذه الناحية هو أن تكون روح الحبيب حقاً. أي أن تكون محبوباً أيضاً من طرف الحبيب.

يا إبراهيم، التصوف في الأصل هو أن تكون عبداً لله تعالى، لهذا فالتصوف هو أن تكون شريعة محمد ﷺ دليلاً في الفؤاد.



٦٧ الرعد: ٤٣.

٦٨ الفجر: ٢٨.

٦٩ النجم: ٩.





إن موضوع التصوف واسع وعميق سعة البحر وعمقه،
فالتصوف يهتم بكل شيء له علاقة بنفس الإنسان وروحه.



ت. موضوع التصوف:

لقد تنوعت الطرائق التي تتناول كنه التصوف، وتعددت الوسائل التي تحاول الوصول إلى حقيقته، فازدادت زوايا النظر للتصوف عمقًا واتساعًا، لاسيما وأن التصوف مهتم بكل ما يمس الروح والنفس، وهما من أسرار الله تعالى في خلقه، فالتصوف -بذلك- عميقة أغواره كالبحر، عميم نفعه وانتشاره كالطر؛ يهطل من أعلى مزن في طبقات الجو، فيعم مساحات شاسعة من الأرض جبلاً وسهولاً وودياناً، وينفذ إلى أعماقها بعد أن يسقي من على سطحها زرعاً وضرعاً وإنساناً. كذلك التصوف وموضوعاته التي تشبه في تنوعها قطرات المطر في تواترها؛ لا حصر لها ولا عدد.

وجوانب التصوف تشمل كل خطوة يخطوها الإنسان في السعي إلى ربه، وكل درجة يرتقيها في المعراج إلى مولاه، وكل خلجة تعانيها نفسه في الصراع مع معوقات طريقه، وكل صعقة تصيب حواسه في سبيل الخلاص من جواذب الدنيا، وكل عالم تعينه روحه في مدارج الوصول، وكل شعور يحس به في ارتقائه معارج القبول، وكل المخلوقات التي ارتبط بها نفساً وروحاً في هذا الكون؛ حتى كان ارتباطه الأوحد برب العوالم كلها الأحد الصمد، وتحقيق العبودية له وحده تعالى، وتمام معرفته سبحانه.

وإذا كان الخوض في هذا السبيل ضرباً من المستحيل فلا أقل من أن نرشف من البحر المحيط رشفة، أو أن تمس أقدامنا مياه شواطئه، أو تلامس أفكارنا سواحل مواطئه، وليعترف كل منا غرقة بيده.





وعلى سبيل البدء، فإن موضوع التصوف يتضمن مراحل وأحوالاً وأهوالاً يجتازها السالك في الوصول إلى ربه، سعيًا نحو هوية المسلم الكامل؛ وتحقيقاً لمعنى العبودية المطلقة، عبر تزكية النفس وتطهير القلب.

وبمعنى آخر: فإن التصوف يرمي للوصول بالإنسان إلى السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ليحيها بجسده وروحه، ويحقق معناها بسلوكه وشعوره، وينغمس فيها ظاهراً وباطناً، فتعكس على صورته وسيرته، كما تتجلى في روحه وسريره، ويكون ذلك - كما أسلفنا - عبر تزكية النفس وتطهير القلب، ليتذوق الإنسان لذة الشعور بالإحسان، ويحقق التكامل بين الشعور والسلوك، وذلك بالتخلق والتحقق. التخلق بالأخلاق التي أرادها الله لعباده سلوكاً وشعوراً وحياة، والتحقيق واليقين بعين البصر والبصيرة مما عند الله.

ولقد قيل: «إن للعارفين قلوباً ترى ما لا يراه المبصرون».

وعليه، فإن أحد أبرز موضوعات التصوف هو أصول الوصول، وطرائق القبول، وإدراك الأسرار، ومعرفة الخفايا وما وراء الأستار، وكل ما هو مكنوز في خزائن أسماء الله تعالى وصفاته، متجلياً في كونه ومخلوقاته.

وفي ذلك الإطار، يتناول التصوف أحوال السالكين التي يجتازونها، وهي أحوال خاصة ومقامات روحانية عليا؛ تُعدُّ من وسائل المعرفة والإيمان والترقية والوصول، مثل الكشف والإلهام والمشاهدة المعنوية والوجد والعشق....

وهي أحوال لها ضوابطها ومقاماتها وتأثيرها في النفس والروح والقلب والوجدان، والظاهر والباطن.

والخلاصة هي أن موضوع التصوف هو معرفة الله تعالى عبر مشاهدة تجلياته في أسمائه وصفاته ومخلوقاته؛ مشاهدتها بعين اليقين، وعين البصر والبصيرة.

ويكتمل ذلك عبر الوصول إليه في مسالك العالم المعنوي، والتدرج في معرفة كنه الكائنات والمخلوقات، وقبلهم كنه الإنسان والقرآن، ثم الوصول إلى القمة في العالم المعنوي، وفي معرفة الله تعالى.





التصوف هو الرقي بحال المؤمن ليعيش حياته سعيدا في
ظلال الأخلاق الكريمة السامية: كالرحمة والرأفة، والكرم،
والعفو، والشكر .



ث. غاية التصوف:

«أن تكون عبداً لله تعالى على أرقى حال»؛ ذلك هو دستور التصوف وغايته
وهدفه الذي يسعى إليه، وضعها المتصوفة نصب أعينهم طوال الطريق، ووضعها
الأولياء نبراساً هادياً تسعى حوله آمالهم وقلوبهم، وقبل ذلك كله وضعها الأنبياء -
عليهم السلام - معلماً رئيساً جامعاً لكافة الرسالات والنبوات والأديان.

تلك هي غاية التصوف؛ بل غاية الغايات فيه، الفوز برضا الله ﷻ عندما نأتيه
بقلب سليم نجا من علائق أمراض الدنيا، وتخلص من شوائب الذنوب والمعاصي،
وسار على النهج النبوي متبعاً أوامر الشرع ونواهيه، متخلقاً بخلق رسول الله ﷺ،
ممثلاً أوامر القرآن؛ يحيا بالعبادات ويحلق بها في أفق الإحسان، ولا يهوي بها إلى قاع
العادات، فتسمو الروح، ويظهر القلب.

فإذا غابت هذه الغاية، أو لفها شيء من الضباب، اختلت الموازين، وانعكست
نتيجة المعادلة - رغم وجود الإنسان عنصراً رئيساً فيها - تلك هي حقائق التاريخ
والواقع الذي حدثتنا عنه آيات القرآن الكريم، فالإنسان ذلك المخلوق الراقي الذي
اصطفاه الله تعالى وميزه على كل مخلوقاته حتى على الملائكة، وارتقى - بعبوديته - إلى
أعلى درجات الكمال، هو نفسه ذلك الإنسان الذي ارتكس بنفسه في وهاد الطين
بعدما كان في عليين؛ حتى وصل إلى درجة «أولئك كالأنعام بل هم أضل» رغم أنه
كان في الأصل مخلوقاً «في أحسن تقويم»، ذلك أنه تخلى عن المعيار الأساسي الذي





به يُقَوِّم عمله، وافتقد التركيبة الأساسية التي تحول ذلك الطين إلى نور، وتحول ذلك التراب إلى جوهر، إنه الإيمان الذي تتبعه الأخلاق.

ولم تكن مهمة الأنبياء إلا تزكية الأنفس حتى يصل الناس إلى الإيمان، وتتحلّى أنفسهم بالأخلاق.

كذلك كانت مهمة الأولياء الذين واصلوا تلقي العلوم القلبية من لدن المنيع النبوي النوراني الفياض، ليواصلوا ما هم موكلون به من الهدى المحمدي.

وهكذا؛ كان الارتباط الدائم بنهج المصطفى ﷺ والسير الدائم على أثره، والاستمداد الذي لا ينقطع من ينبوعه هو ديدن هؤلاء المتصوفة السالكين في كل حركاتهم وسكناتهم، وأحوالهم ظاهراً وباطناً، وديدن أولياء الله الذين تعاهدوا هؤلاء بالتربية في طريق الهدى النبوي؛ حتى صدق فيهم الحديث الشريف:

«العلماء ورثة الأنبياء»^{٧٠}

وبناءً على ذلك يمكننا القول: إن النضج المعنوي هو ما أراد النبي ﷺ تحقيقه في قلوب وسلوك المؤمنين، وهو أيضاً غاية التصوف، الذي يدعو الناس إلى الإيمان، والتخلي عن دنس الدنيا، والتحلي بمحاسن الأخلاق، فيشمل النضج المعنوي الظاهر والباطن.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلح له إلا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، فأكرموا بهما ما صحبتموه»^{٧١}

والتصوف من هذه الناحية هو إيصال المؤمن إلى حالة التلذُّذ بالأخلاق الحميدة السامية، مثل الرحمة، والرأفة، والكرم، والعفو، والشكر.

٧٠ انظر: البخاري، العلم، ١٠؛ أبو داود، العلم، ١ / ٣٦٤١.

٧١ البيهقي، شعب الإيمان، ١٣، ٣٠١ / ١٠٣٦٦؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٢٠ / ١٢٦٥٩؛ علي المتقي، الكنز، ٦، ٣٩٢ / ٥٢٣٥.





إن النموذج الأسمى الذي يتأسى به أهل التصوف، والشمس التي تنير دربهم، والكوكب الذي يدورون في فلكه، وسفينة النجاة التي يتعلقون بها لتنقذهم من أرض الطوفان، وتوصلهم إلى أرض الإحسان؛ هي الحياة كما عاشها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، والتي وضع بانيها القرآن الكريم، ونقلت لنا دقائقها السنة النبوية المطهرة، ثم يأتي الصالحون الذين عاشوا على هذا المنهج، وذاقوا لذة الحياة في ظلاله، فانتقلت إليهم الفيوضات القلبية إلهاماً وكشفاً ووجداً، فقلوا هذه الانعكاسات المعنوية إلى من حولهم من أرباب التصوف، ليحيا الجميع هذه الأحوال الرائعة في ظل سيرة المصطفى وصحبه الكرام، وتلك هي الغاية العظمى للتصوف وأهله.

وثمة وجه آخر لغاية التصوف، هي مد يد العون والمساعدة لأولئك السائرين في طريق الزهد، الذين يحملون المؤهلات القلبية والإيمانية التي تدفعهم في طريق الكمال، الطريق الذي يجد الإنسان فيه نفسه، ويجد فيه كمال إنسانيته بكمال عبوديته، ويعرف ربّه حق المعرفة بعد أن يعرف إمكاناته وطاقاته معرفة تمكنه من استثمار هذه الطاقات، وتسخير هذه الإمكانيات ليصل في المجاهدة إلى أعلى الغايات، ويرتقي أسمى الدرجات إلى جوار الحق سبحانه بعد أن ينتصر على نفسه، فيحمد نيران شهواتها ويعالج روحه من آفاتهما.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^{٧٢}

هذا الإنسان الظلوم لنفسه، الجهول بالعلوم القلبية والظاهرية، يريد التصوف أن ينقذه من «ظلمه» لنفسه وللناس، ومن الجهل بعلوم الظاهر والباطن، كي ينال الكمالات الأخلاقية والإيمانية ويصير أهلاً لحمل الأمانة، ويصبح إنساناً كاملاً.





وفي هذا الباب يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«ورثة الأنبياء هم من يملكون علوم الظاهر والباطن»؛ أي: العلوم العقلية والقلبية؛ العامة والخاصة.

ولا ينفصل العلم عن الأخلاق، ولا السلوك عن الصفات، فخلاص الإنسان يبدأ بتطهير نفسه من سوء صفاته، وانحراف سلوكه، ثم تتحول هذه الصفات إلى الأجل، وتبديل هذه السلوكيات إلى الأفضل، ويرتبط العلم بالأخلاق، ويندمج السلوك في الأدب، ويتشرب العمل خلقاً، ويتشبع السلوك أدباً، فيتحول العلم إلى «العرفان»، وتصير الأخلاق واقعاً يُعاش، ويصير العلم أركاناً تُبنى عليها صروح الخلق.

وقد أفصحت آيات القرآن عن أولئك النفر القليل العظيم الذين حققوا هذه الغاية، ووصلوا إلى الكمال الإيماني، والتكامل العلمي الخلقى، فقال الله تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^{٧٣}

ذلك الإيمان، وتلك التقوى هما سر الوصول والحصول: الوصول إلى الله، والحصول على فيوضات الله.

فالإيمان عندما يسكن القلب ينفي عنه خبث المعتقدات الباطلة كلها، ويقربه من الحق سبحانه، والتقوى حين تجد طريقها إلى سلوك العبد تطهر قلبه من كل الأغيار، حتى لا يبقى فيه سوى الله سبحانه، وهكذا يصبح قلب ذلك العبد محل نظر الله تعالى، وموضع تجلي أسرارهِ وحِكمِهِ.





يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^{٧٤}



ج. ضرورة التصوف:

إن لذة الفاكهة تكمن في لبها، وكذلك ديننا العظيم نجد روعته في لبه وجوهره، وهو التصوف.

ومن المسلّمات أن الإنسان يتكون من بُعدين هما البدن والروح، وكلُّ منهما له حاجات فطرية، فالإسلام لا ينكر فطرة الإنسان وحاجاته البشرية، بل يعدها حقائق طبيعية، ويسعى في إطار المعايير الأساسية إلى الارتقاء بتلك الميول التي يقبلها، والتقليل من الميول المرفوضة إلى أدنى حد، أو إدخالها تحت غاية مقبولة.

فإذا انساق الإنسان وراء متطلبات الجسد فقط، ولم يلبِ إلا حاجاته المادية، فقد ضل طريقه إلى السكينة والسعادة.

وهنا يبرز دور الدين في هداية الإنسان إلى الطريق الأقوم، وفي الإجابة عن السؤال الذي حيرَّ الفلاسفة منذ القدم، ويقدم الأنموذج الأمثل والبرنامج الأكمل الذي تتوازن فيه الروح والمادة، ويتكامل فيه القلب مع الجسد، فهو الذي يقود الإنسان إلى عالم فسيح من الروحانيات، ويصطحب معه ما ينفعه من الماديات، ثم يعالج هذه الأمور المادية بأن ينفث فيها من روح الدين ولمسات الأخلاق، فتتشبع الماديات بروح الدين، ويحيا الإنسان في تناغم بين نوازعه المادية وآماله الروحانية، ولا يجد ذلك الصراع بين المادة والروح الذي يمزق





حياة أولئك المنغمسين في أحوال المادة، حتى فقدوا أدنى درجات الشعور، فصاروا كالذين وصفهم القرآن الكريم:

﴿...وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^{٧٥}

ولعل ذلك الانغماس في المادة، والبعد عن عالم الروح وانعدام تكامل الرؤى لديهم، هو الذي يدعم خوف بعضهم من التصوف، ويدفعهم للاعتراض عليه.

ولا ريب أن التكوين الطبيعي للإنسان تتوازن فيه الميول الفطرية بين ما هو مادي وما هو معنوي، سواءً بسواء، فهو ينجذب إلى الأسرار المعنوية والحقائق المجردة بالقدر الذي ينجذب إلى الموجودات المادية والواقعية؛ لذا لا بد من وجود توازن وتكامل وتناغم بين عنصري الإنسان: الروح والمادة، ولا بد من الإشباع المتساوي لهذين الجانبين.

ففقدان الجانب الروحاني وإهماله، والاتجاه بالكلية إلى الإشباع المادي، هو الذي هوى بالعالم الغربي اليوم إلى هاوية الإلحاد؛ إذ إن إسرافهم في الرفاه المادي، مع ما يصيب أرواحهم من ظمأ شديد يدمر أخلاقهم؛ كان سببه الأول والأساسي هو انقطاع الصلة بينهم وبين النبع الإلهي، بعدما تدخلت يد البشر العابثة، فكدرت صفو الدين، وحرفت الكلم عن مواضعه، وانحلت الأواصر التي تربط قلوبهم بالله تعالى، فصاروا كالذي يهوي من السماء لا يَقَرُّ على أرض ولا في فضاء، فلم تغنه الدنيا عن ربه الحق، ولم تغنه الرفاهية عن عوزه الشديد إلى طمأنينة القلب.

حتى أصاب الإلحاد قلب العالم المسيحي في روما نفسها مقر الكرسي البابوي، راعي الدين.





إن الإنسان المحروم من الوجد الديني، والمشاعر الروحية، سيرى أعظم حادثة روحية من وجهة نظر مادية، وسيسعى إلى تفسيرها في إطارها الشكلي فحسب، وبهذا يسمي الدين في عينيه جامدًا خاليًا من أي مضمون.

وهنا يأتي دور التصوف الذي يصرف اهتمامه إلى الروح، ويدفع الإنسان -كلاً وفق قدراته واستعداداته- إلى أن يُشبع حاجاته الروحية، التي هي الشق الآخر من تكوينه الفطري، والتي من دونها يفقد الدين مضمونه، وتفقد العبادات جوهرها، فتصير الصلاة مجرد حركات رياضية، وتصير الزكاة مجرد معونة اجتماعية، ومن ثم تفقد العبادات غايتها الأساسية، وفائدتها الجوهرية، ولا يصل الإنسان بعبادته إلى مقام العبودية، أو يدرك الطمأنينة القلبية.

وثمة وجه آخر لفقدان جوهر هذه العبادات، وهو الاكتفاء بأداء الشروط الظاهرية للعبادة، مما يُبعد المسلم عن جوهر الإسلام، ويشوه الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها حين لا يشبع نوازعها الروحية ويغض الطرف عن أشواقها العلوية.

ولا سبيل إلى ذلك التوازن بين المادي والروحي، ولا طريق إلى إشباع العبادات بروح الدين، وتعميق الأداء ووصله مع القلب، إلا من خلال التربية الصوفية. وقد قام كثير من العلماء بالتعمق بحثًا وسعيًا وراء حقيقة الدين، وما يحقق جوهره في النفوس، وكانت النتيجة المثل في النهاية هي التربية الصوفية.

وحين توضع المخلوقات كلها في ترتيب هرمي من أبسطها إلى أكملها، سيحتل «الإنسان» قمة هذا الهرم، ولكن حتى في الجنس البشري هناك اختلاف بين الناس كلٌّ حسب استعداداته وقدراته الفطرية، وهو أمر ضروري للحفاظ على التوازن الاجتماعي في الحياة الدنيا.

وقد خلق الحق سبحانه وتعالى الناس بمقتضى إرادته الإلهية، وأوجد الاختلاف في استعداداتهم المعنوية، كما هو الحال في استعداداتهم الظاهرية، ولم يكلف الله





تعالى عباده أكثر من طاقتهم، لكنه في الوقت ذاته جعلهم مسؤولين، وكلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له.

وتشمل رحمة الله تعالى اللانهاية المخلوقاتِ كلّها، ولهذا السبب يأخذ الله تعالى أدنى مستوى من الاستعداد بعين الاعتبار في تحديده وتقديره للتكاليف الدينية الملقاة على عاتق الإنسانية جمعاء، أي إنه سبحانه يضع الحدود الأساسية بحسب طاقة أعجز فرد من مخلوقاته، بيد أن الفضل الإلهي فتح سبلاً وأبواباً لمن لديه استعدادات زائدة على التكاليف العامة ليرتقى في طريق السير إلى الله ويروي أشواق الروح وتطلعاتها الإيمانية بما تقطعه من أشواط فسيحة في الزهد والتقوى والإحسان، إضافة إلى المهام الشرعية؛ وهذا الطريق هو التصوف.

ونضرب على ذلك مثلاً من الواقع، فقد جاء رجل إلى الشبلي رحمته الله يسأله عن مقدار الزكاة الواجبة في إبله، وقال:

كم في خمس من الإبل؟

فقال الشبلي: شاة في الواجب، فأما عندنا، فكلها لله تعالى،

فقال الرجل: فما دليلك في ذلك؟

فقال الشبلي: سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه خرج عن ماله كله لله ورسوله ﷺ.

ثم قال: من خرج عن ماله كله فإمامه أبو بكر رضي الله عنه، ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فإمامه عمر رضي الله عنه، ومن أخذ لله، وأعطى لله، وجمع لله، ومنع لله، فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكلُّ علمٍ لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم^{٦٦}. ويدل هذا المثال على أن كلَّ صحابيٍّ من الصحابة الكبار ذوي الاستعداد القلبي الكبير كان زعيماً وإماماً في التصوف بحسب صفاته التي تميّزه عن غيره.

ويودُّ منا ربنا ﷻ أن نكون على هذه الحالة، إذ يقول في الآية الكريمة:





﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^{٧٧}

فكل هذه النصوص النقلية، والاستنتاجات العقلية، وما وراءها من المعاني الروحية والقلبية، دلائل وبراهين على ضرورة التصوف.



وكلما ارتقى القلب في عالم الشعور من السكينة إلى الأمان حتى يصل إلى السعادة، ازداد ارتقاءً في التربية الصوفية، وحينها يكون قلبه مهياً -خلال هذه المراحل- لتلقي العلم والحكمة، ومستعداً للاطلاع على حقائق الدين الجوهريّة. وهذه المداخل التي يتدرب فيها العبد ويترقى ويتربى هي طريق ربانية لا مناص لأي إنسان منها، إذا كان يريد الوصول إلى الله تعالى، حتى الأنبياء وهم قدوة البشرية خضعوا لمثل هذه المحطات في مرحلة الإعداد والتهيئة لتلقي الوحي والرسالة؛ إذ إن القلب البشري يحتاج إلى لياقة خاصة كي يتلقى معاني خاصة، ويحتاج إلى درجة من النضج يتحمل معها جلال التجلي الذي يتلقاه، ولطف المعنى الذي يداخله، فيستدعي ذلك تخليصه من القساوة وتخليته بالركة ضمن برنامج من الإعداد الرباني، والرياضة الروحانية، كتلك التي مر بها الأنبياء من أولي العزم:

- فرسول الله عليه الصلاة والسلام قبل تلقي الوحي والرسالة انغزل معتكفاً في غار حراء أياماً طوالاً.

- وكليم الله موسى عليه السلام مكث في طور سيناء أربعين يوماً منتظراً ميثاق ربه.

- ولقي نبي الله يوسف عليه السلام من بلاء إخوته والجب والرق والسجن ما لقي قبل أن يصبح عزيز مصر.





- والمصطفى عليه الصلاة والسلام تحققت فيه أسرار سورة الانشراح قبل الحدث الأعظم الذي لم يرق إليه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وهو المعراج، وما فيه من عجائب وأسرار، فقد شق الصدر الطاهر^{٧٨}، ونُظِّف القلب الشريف، وملئ بالحكمة الربانية والعلم اللدني، استعدادًا وتهيئةً للمثول في الحضرة الإلهية.

فإذا كان هذا هو حال الأنبياء في التربية الروحانية، فما بالنا ببقية العباد، وإلى أي قدر يحتاج هؤلاء من التربية والتطهير القلبي للقرب من الله تعالى، ورؤية حقائق الكون ومعانيه بعين البصيرة.

فهل يستطيع أنفٌ فقد حاسة الشم أن يستنشق عبير الزهور؟!

وهل تستطيع عينٌ أن ترى صفاء الطبيعة من وراء زجاج مغبش؟!

إن إزالة الموانع الذاتية والخارجية من الحواس توسع أمامها دائرة الإدراك، وتفسح أمامها دائرة الشعور، وكذلك القلب كلما ازداد طهرًا، ازداد من الله قربًا، وازداد اطلاعًا على أسرار العلم والكون، وصار موثلاً للتجليات الربانية.

وهذا القلب السليم هو مناط الفخر والفوز عند الله تعالى، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^{٧٩}

٧٨ شق الصدر: هي تلك العملية التي قامت بها الملائكة، ويطلق عليها اسم «شرح الصدر»، حيث شق صدره الشريف وانشرح، ووُضعت فيه السكينة والنور الإلهي. وقد خضع النبي ﷺ لشرح الصدر ثلاث مرات. كانت المرة الأولى حين كان عمره أربعة أعوام، وبناءً على الأحاديث الشريفة أُزيلت من قلبه عَظْمَتَانِ سَوْدَاوَانِ، ووضعت مكانهما الطمأنينة والسكينة. (انظر: أحمد، مسند، ٤، ١٨٤-١٨٥).

والمرة الثانية حين كان في العاشرة من عمره، حين أخرج الغُلَّ والحسد من قلبه ووضعت الرأفة والرحمة مكانهما. (انظر: أحمد، مسند، ٥، ١٣٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٢٢٣).

أما المرة الثالثة فكانت قبل المعراج، وحينها أيضاً شقَّ عن قلبه وملئ بالإيمان والحكمة. (انظر: البخاري، بدء الخلق، ٦، الأنبياء ٢٢-٤٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٤)

وتشير الآية الكريمة التالية إلى العملية التي خضع لها رسولنا صلوات الله عليه وسلامه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الانشراح، ١)





ولكي نصل إلى هذا الوصف القرآني «قلب سليم» نحتاج إلى باع طويل من التربية المعنوية.

هذه المدة قد تطول دهوراً، كما تفعل الأمواج بصخور الشاطئ، فهي على صلابتها وقساوتها ونتوءاتها، تفعل فيها الأمواج فعل السحر، فتهدبها وتشذبها، وتصقلها ناعمة ملساء.

كذلك الألماس الذي يعود في أصله إلى الكربون الأسود، يتحول بفعل الضغط والحرارة الهائلين إلى الألماس، ثم تتدخل يد الصانع الماهر الخبير لتقطيعه وإعدادة وتصنيعه، فيُظَهَرُ للناس معدُّه الخاطف للأبصار، وكذلك الذهب الخام يكون مشبعاً بالأتربة والشوائب، ويصهر في حرارة عالية ليزول خَبَثُهُ، وكلما زادت عليه النار، زاد صفاءه، وارتفع معياره وقيمته^{٨٠}، كذلك قلوب العباد، تزداد قيمتها ومعيارها وصفاءها كلما زادت يد الخبير تربية وتهذيباً.

كما أن الحديد، الذي فيه بأس شديد، يخضع أيضاً للنار والكير، كي تنفي عنه خَبَثَهُ وشوائبه، ثم يعرض للنار مرة أخرى، ويُطْرَق حتى يتم تشكيله والانتفاع به، وبغير هذه المراحل: النار والإحماء والطرق، لا يصير حديداً ولا يتم الانتفاع به. ولا بد للقلب - كذلك - أن يمر بمثل تلك المراحل؛ ليحصل له النفع، وليدرك أعظم المعاني في عالم الحقيقة الذي لا يدركه الإنسان بحواسه، ولا يبلغه بعقله، إنما يصل إليه بقلب تربي وتدرّب ونال قدراً كافياً - وفق طاقته - من الرياضة الروحية.

وهي مسألة تحتاج إلى تدريب طويل، كمثل الرياضي المبتدئ الذي قد يصاب بأذى إذا قام بحركة ما من دون مران، لكنه يؤدي الحركة نفسها بمهارة فائقة بعد فترة من المran، والقلب كذلك يحتاج إلى رياضة طويلة ومران صعب كي يتخلص

٨٠ ثمة معنى لطيف هنا، ففي اللغة نجد عملية تنقية الذهب من الشوائب بالنار تسمى «الْفَتْن» وهي ما يطلق أيضاً على ما يتعرض له الإنسان من اختبارات وابتلاءات، فكلما زادت الفتن على العبد ازداد نقاءً من ذنوبه، كالذهب الذي يزيده الفتن نقاءً من شوائبه.





من قساوته وشوائبه وصلابته وذنوبه، ثم تليينه الرياضة المعنوية، وتجعله مرنًا رقيقًا مستعدًا للارتباط بالله الحق ﷻ، هذا الدين وتلك الرقة لا تكون إلا بكثرة ذكر الله تعالى، وبتنامي محبة النبي ﷺ. يقول الحق تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^{٨١}

ثم يتدرج القلب بعد أن يتدرب، ويرتقي في العلوم، كالطفل الذي يتدرج في مراحل التعليم، ففي عامه الدراسي الأول لا يستطيع استيعاب كتاب مقرر في كلية الحقوق، فهذا يحتاج منه مستوى من النضج العلمي والذهني ما يفوق سنواته العشر، فما بالنا بالقلب الذي يحتاج مستوى من النضج يصل به إلى الله تعالى؟ هذا الطريق يبدأ أولاً بتخليص القلب من القساوة وتطهيره من الذنوب، وهو ما وضعه لنا القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾^{٨٢}
﴿...وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾^{٨٣}

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٨٤}

أي إن الإنسان مكلف بتفادي الآثام الباطنية، مثلما هو مجبر على الابتعاد من الآثام الظاهرية، حتى إن بعض الذنوب الباطنية، مثل الكبر، والرياء، والحسد،

٨١ الأنفال: ٢.

٨٢ الأنعام: ١٢٠.

٨٣ الأنعام: ١٥١.

٨٤ الأعراف: ٣٣.





والحقد، والغضب، والبخل، هي أشد خطراً وأفتك أثراً، والحديث الشريف يخبرنا بحقيقة أنه:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^{٨٥}

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً»^{٨٦}

ووفقاً للحديث؛ لا بد للقلب من التخلص من سوء الخلق، ومن أمراضه المعنوية مثل الكبر، والحسد، والبخل، وغيرها من الأمراض، ولا بد كذلك أن يتخلص من ذنوبه الظاهرية.

وكلاهما متعلق بالآخر، فالذنوب الباطنية وأمراض القلب تنعكس نتائجها على الظاهر، فتنج الذنوب الظاهرية.

لكن الخطير في الأمر أن الذنوب الباطنية أكثر انتشاراً بين الناس رغم خطورتها؛ فهي خفائها لا يُفطنُ إلى مدى توغلها وأثرها.

والقلب الذي يسعى إلى الارتباط بمولاه، والقرب منه سبحانه، ويطمح للتجليات الربانية والمكاشفات القلبية، يحتاج إلى التخلص من كل تلك الذنوب ظاهراً وباطناً؛ ويحتاج إلى التطهر الدائم منها، والابتعاد الدائم عنها، وهو ما يتطلب منه تربية معنوية خاصة، لا تكون إلا في التصوف.

ولأن القلب هو بوتقة الأسرار، فعليه ينعقد الأمر كله، عبادة وسلوكاً، رياضة ومجاهدة، علماً وتقوى.

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث:

٨٥ مسلم، الإيمان، ١٤٧/٩١، ١٤٩/٩١.

٨٦ البخاري، الأدب، ٥٧/٦٠٦٤؛ مسلم، البر، ٢٨/٢٥٦٣.





«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»،
وأشار بأصابعه إلى صدره.^{٨٧}

والقلب مَعْقَدُ النية ومكمنها، والنية هي روح العبادات والسلوك، فإذا كانت النية مرتبطة بالله خالصة له سبحانه، تحولت العادات إلى عبادات، وتحولت الحركات إلى مجاهدات، وصار كلُّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ موجَّهًا في سبيل الله تعالى، حتى اللقمة التي يلقِيها في جوفه، أو يطعمها لأهله.

فمثلاً نجد أن ارتداء العِمَامَةِ أو تغطية الرأس سنة نبوية يؤجَرُ فاعلُها، لكن الأجر هنا ليس منوطاً فقط بالمظهر؛ بل لابد أن يوافقه المَخْبَرُ، فتكون الهيئة على منوال السنة، ويكون السلوك أيضاً على منهاجها، وإلا فلا أجر يُمنح ولا سُنَّة تُتَّبَع؛ بل يصير الأمر تقليدًا شكليًا يؤتي نتائج عكسية، فيسوق المرء إلى العجب والتكبر بمظهره الخادع للناس ولنفسه.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر التركي «يونس أمره»:

لو كان التصوف في العباءات والعمائم لا شتريناه من الأسواق ببضع دراهم.
وينطبق الأمر -في المظهر والملبس- كذلك على المرأة، فالتستر في الملبس والحجاب هو فريضة واجبة على كل مسلمة بالغة، لكن إذا تحجب الجسد وعريت الروح، وإذا كان الحجاب ساترًا للبدن فحسب، ولم يكن ساترًا للسلوك؛ ينقلب الأمر إلى الضد، وحينها يكون الستر مجرد غطاء وإخفاء لسوء الحال، فالحجاب سلوك وليس لباسًا فقط.

وكلنا يعلم أن بناء المساجد له أجر كبير، فمن بنى مسجدًا في الدنيا بنى الله له قصرًا في الجنة، لكنه منوط أيضًا بنية العبد وقلبه، فإما أن يظل الأجر كبيرًا بتفويض الأمر إلى الله ونسبة الفضل إليه بقوله: «هذا من فضل ربي»، وإما أن يتضاءل الأجر حتى يصير هباءً منثورًا إذا داخله الإعلان عن الذات والإعجاب





بالنفس في نسبة المدح لها بقوله: «أنا أفعل كذا» وحينها تحل كلمة «أنا» في القلب، فيخرج منه «الله».

والعبادات في الإسلام منوطة بأمرين: الشكل والروح، وهو ما عبّر عنه الفقهاء حينما قالوا: إن شرطي قبول العبادة هما:

- أن تكون موافقة للشرع (في الشكل).

- أن تكون خالصة النية (لله وحده).

وقد حرص القرآن عند الحديث عن العبادات والسلوكيات أن يركز على الحالة الروحية والأحاسيس القلبية في أدائها، وليس على الحركات والسكنات، فتفاصيل العبادات وهيئاتها غير مذكورة في آيات القرآن، إنما تعلمناها من سنة النبي ﷺ.

فالقلب والروح هما الباعث في حسن أداء العبادات، وهما السبب في قبولها؛ لذا كانت التربية القلبية هي الضمانة الحقيقية للقبول والوصول، والتصوف هو وسيلة تلك التربية القلبية.



إن مظاهر العبادة يستطيع كل فرد أن يؤديها، حتى لو لم يكن مسلمًا، فهذا هو رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، كان يصلي خلف رسول الله ﷺ، ولكن لا قيمة مطلقًا لعبادات تنفصل فيها الحركات عن المشاعر، وأداء المنافقين هذا للعبادات قد يخادعون به الناس، أو يخادعون به أنفسهم، لكنهم لن يخادعوا الله تعالى الذي لا يقبل من العبادة إلا ما كان صادرًا عن القلب، مفعمًا بالروح.

وهذه الحقيقة - حقيقة قبول العبادة - من اليسير أن تطّلع على أدلتها إذا حللنا بصورة عامة الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الصلاة والصيام والزكاة والحج التي تكوّن أركان الإسلام، ومن هذه الآيات الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن الصلاة:





﴿...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾^{٨٨}، أي إذا لم تنه الصلاة الإنسان عن المنكر، فليست الصلاة التي يريد الله تعالى من عباده.

ويقول الله تعالى في شأن أولئك الذين يصلون صلاة بالصورة فقط دون أن يكون فيها خشوع في القلب:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^{٨٩}

وفي آية أخرى يقول المولى عليه السلام:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^{٩٠}

ونفهم من هذه الآيات الكريمة أن إحدى صفات المؤمنين المفلحين هي الخشوع في صلاتهم، فلكي يؤدي العبد الصلاة بمعناها الحقيقي، عليه أن يوفي بشروطها الظاهرية والباطنية كلها، فقد يصلي شخصان الصلاة عينا في المكان والزمان نفسه، لكن يكون الفرق بين صلاتيهما كالفرق بين السماء والأرض.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي يشير فيه إلى ضرورة مراعاة الهيئة القلبية في الصلاة:

«إن الرجل لينصرف وما كُتِبَ له إلا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تسعها، ثمنها، سبعة، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»^{٩١}

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم في معرض ذكره لصفات المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^{٩٢}

٨٨ العنكبوت: ٤٥.

٨٩ الماعون: ٤-٥.

٩٠ المؤمنون: ١-٢.

٩١ أبو داود، سنن الصلاة، ٧٩٦.

٩٢ المؤمنون: ٩.





ويقول مولانا جلال الدين الرومي في المعنى الإشاري لهذه الآية الكريمة
بالإضافة إلى معناها الظاهري:

«يستمرّون على الحال التي كانوا عليها في الصلاة حتى بعد الانتهاء من أدائها».
ويقول أيضًا:

«إن الصلاة التي تهدينا إلى الصراط المستقيم وتنهانا عن المنكر، تؤدّيها خمس
مرات في اليوم واللييلة، ولكنك ترى العاشقين دائمًا في صلاة، لأنّ العشق المشتعل
في أفئدتهم، والمحبة الإلهية التي تسكن ضلوعهم، لا تهدأ بهذه الأوقات الخمسة بل
ولا بخمسمئة ألف وقت».

ويصوّر يونس أمره صلاة عشّاق الله سبحانه وتعالى الذين استيقظت أفئدتهم
من الغفلة فيقول:

العشق هو الإمام، والقلب هو الجماعة

هُم في صلاةٍ، متوجهين إلى الله في كل ساعة

فالمدة التي يقضيها العبد في أداء الفريضة وفي الصلاة هي دقائق معدودات لا
تتجاوز العشر دقائق، لكن العبرة ليست في هذه الدقائق، إنّما في الشحنة المعنوية التي
تملأ بها فؤادك وروحك خلالها، لتنتقل في رحلة الحياة بمعين لا ينضب يوصلك
إلى المحطة التالية بأمان، لتعاود التزود مرة بعد مرة بهذه الطاقة اللانهائية، فالصلاة
تعطيك من الشعور ما يحفظ قلبك عن الغفلة طوال الفترة التي تلي الصلاة، فيظل
القلب في حالته التي كان عليها، وكأنه في صلاة دائمة لا تنقطع، ولو لم يحافظ على
هذا المستوى من الشعور في قلبه، لتراجع به إلى مستوى الغفلة، ثم نزل به دركات
ودركات من الفسق والفجور.

أما هؤلاء الذين لا يدركون حقيقة الصلاة والخشوع فيها، فهم أهل الغفلة
المحرومون من معاني الوقوف في الحضرة الإلهية، فإذا كانوا في الصلاة على هذا الحال
فكيف يكون حالهم -إذًا- بعد الصلاة؟!





وها هنا أقصوصة ذات معنى عن متصوف يجاهد في طريق الوصول إلى الله تعالى، كان أحد الدرويش قائماً يصلي بالليل في أحد المساجد مختلياً بربه، ثم بدأ المطر يهطل بغزارة، فأخذت شدة الأمطار بقلب الرجل إلى منزله وأهله، وذلك أثناء الصلاة، وعندئذ سمع صوتاً من أعماقه يهتف به ويحذره:

«أيها الرجل المصلي، إن صلاتك التي تؤديها لا قيمة لها، فقد أرسلت أهم وأجمل قطعة فيك إلى مكان آخر، أرسلته إلى منزلك، ولم تترك للمسجد ولصلاتك سوى بدنك».

وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ:

«... ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»^{٩٣}

وخلاصة الأمر أن القلب ونضجه هو الركيزة الأساسية في الصلاة، وفي كل العبادات.

والصيام - كذلك - من العبادات القلبية رغم شروطها الظاهرية، فالصيام عبادة تمحو الذنوب وتزيلها، يقول النبي ﷺ:

«من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه»^{٩٤}

وليست الغاية من الصوم جعل الناس يعانون من الجوع، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^{٩٥}، وهكذا يوضح الله تعالى أن الغاية من الصيام هي التقوى.

فعبادة الصيام لا تؤديها فقط المعدة والفم، ولا يُسأل عن صحتها فقط الجهاز الهضمي؛ بل الجهاز الشعوري كله، فالجوع يمنح الفكر مساحات شاسعة، ويمنح

٩٣ ابن ماجه، الصيام، ٢١/ ١٦٩٠؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٧٣.

٩٤ البخاري، الصوم، ٦/ ٣٨، فضل ليلة القدر، ١/ ٢٠١٤؛ مسلم، صلاة المسافرين، ١٧٥/ ٧٦٠.

٩٥ البقرة: ١٨٣.





الشعور آفاقاً رحيبة؛ لأن البطنة تُذهب الفطنة، والحرمان في الجوع والعطش يُبرر ما قد يُحرم منه القلب من المشاعر التي يفقدها في زحام انشغاله بنفسه، فيتذكر العبد في حرمانه المؤقت مدى معاناة الآخرين في حرمانهم الدائم، عندها يدرك القلب مدى حرمانه هو الآخر من مشاعر الشفقة على هؤلاء، والرحمة والحرص على مساعدتهم وإسعادهم، فضلاً عن أن يؤذيه بالغيبة والنميمة والبغض والكيد، ويدرك أيضاً مدى تقصيره في شكر النعم التي منحها له الله تعالى.

تلك هي بعض الفيوضات التي يمنحها الصيام للصائم، بشرط أن تصوم جوارحه قبل معدته.

يقول النبي ﷺ:

«رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ...»^{٩٦}

وإذا ما انتقلنا إلى عبادة الزكاة التي هي مظهر من مظاهر الإيثار لدى المؤمن، وجدنا أيضاً أنه من صفات المؤمنين التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^{٩٧}

فإذا اكتملت الدائرة الشعورية وعرفنا ذلك الحق، حينها يتواصل الإحساس بين اليد التي تعطي والنفس التي تسمح وتسامح، وبين القلب الذي يؤمن أن المال المؤدَّى إنما هو حق الفقير في مال الغني، وليس على الإطلاق منحة أو فضلاً من المزكِّي، وأنه حين يُعطيه للفقير فهو إنما يعيد الحق لأصحابه، ويُسلم عيال الله حصتهم في مال الله الذي هو مؤتمن عليه، ومكلف بأدائه لأصحابه، ولا ينتظر من الفقير دعاءً ولا شكراً؛ بل المزكِّي هو الذي يشكر الفقير؛ لأن الفقير قد ساعده في أداء الفريضة، وتنفيذ المهمة التي لو قصَّر فيها لكان عرضة لجزاء الخائن المختلس، والتي حين يتمها على وجهها الأفضل ينال الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة.

٩٦ ابن ماجه، الصيام، ٢١ / ١٦٩٠؛ أحمد، مسند، ٢، ٣٧٣.

٩٧ الذاريات: ١٩.





ولكي يصل المؤمن الكامل إلى سرِّ قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل»^{٩٨}، عليه أن يتصدَّق وكلُّه إيماناً أنَّ المال قد أعطاه في الحقيقة ليد القدرة الإلهية... وهذا هو المعيار القلبي الذي يحفظ كمال عبادة الزكاة.

وليس الوصول لهذه الحال مستحيلاً ولا خيلاً، فقد كان سلفنا الصالح يزينون صدقاتهم، ويعطرون دراهمهم؛ لأنها سوف تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل الفقير، وليس ذلك من قبيل المبالغة ولا التخيّل؛ إنما هي حقيقة واقعة صرح بها القرآن حين قرَّر أن الله تعالى هو الذي يتقبل الزكوات:

﴿... وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ...﴾^{٩٩}

هذه الحقيقة القرآنية يفتقدها أولئك المتعجرفون بأموالهم، الذين يُتبعون صدقاتهم بالمن والأذى، وهم حقيقة لا يؤذون الفقراء، إنما يؤذون أنفسهم بحرمانها من الأجر والمشاعر الراقية، ويحرمون قلوبهم من الحالة الشعورية الراقية التي تمنحها لهم الزكاة.

وتظهر هذه الرقة القلبية أكثر في عبادة الحج، ويبدو للوهلة الأولى الشكل الظاهري والبدني راجحاً في هذه العبادة، من الإحرام والطواف، إلى الوقوف على عرفات، ثم الذهاب إلى مزدلفة والنحر، لكن كل هذه الشعائر هي الشكل الظاهري للحج فقط، أما الحالة الشعورية التي يحياها الحاج أثناء هذه الشعائر؛ بل التي تعكسها هذه المظاهر، فإنها تُذكِّر المسلم بيوم الحشر، وتضحيات أنبياء الله عليهم السلام ولبس الكفن والتجرد من كل مظاهر الدنيا، والحساب الإلهي الذي يجب على المسلم أن يبدأه مع نفسه في الدنيا، قبل أن يفاجئه طول الحساب وثقله في الآخرة.

٩٨ الطبراني، المعجم الكبير، ٩، ١٠٩؛ الهيثمي، ، مجمع الزوائد، ٣، ١١٠-١١١؛ انظر أيضاً رواية مشاهبة: البخاري، التوحيد، ٢٣.

٩٩ التوبة: ١٠٤.





وفي الحج يتجرد الناس من الملابس، فتذوب الفوارق وتزول الرتب، ويلبسون أشباه الأكفان فيكون التجرد -ولو مؤقتاً- من كل متاع الدنيا، ويؤدي الجميع فعلاً واحداً، وقولاً واحداً، بل يمتنع الجميع عن كثير من المباحات، ويصير بعض الحلال حراماً مؤقتاً، حتى بعض خطرات النفس وزلات اللسان.

إنها نوع خاص من التربية ومستوى رفيع من الإعداد القلبي.

ومرة أخرى فإن هذه الحركات والشعائر ليست مطلوبة لذاتها، إنما لما وراءها من المعاني، وهذا ما يؤكد القرآن في حديثه عن الأضحية في الحج؛ إذ يقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ...﴾^{١٠٠}

هذا القبول للأضحية والقربان أو رفضه؛ إنما هو منوط برضا الله سبحانه وتعالى عمن قدمه، وعن نية صاحب القربان وغرضه، وهو ما حكاه القرآن في قصة ابني آدم عليه السلام، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^{١٠١}



وبعد أن استعرضنا هذه العبادات وما وراءها من المعاني، وما ترمي إليه من الأغراض، فقد اتضح لنا أن هذه العبادات لن تكون «مقبولة»، ولن تكون «صالحة» إلا إذا أداها القلب قبل الجوارح، بصفاء نية، وصدق توجه إلى الله وحده.

لكن ثمة استدراك هنا؛ إذ لا ينبغي أن نفهم من ذلك أن شروط إخلاص النية وصفاء القلب إذا لم تتحقق؛ فعلى الإنسان ترك العمل والإعراض عن العبادة تماماً،

١٠٠ الحج: ٣٧.

١٠١ المائدة: ٢٧.





بحجة عدم استعداد القلب للأداء، أو عدم صلاحية النية للعمل، وإلا فلن يتم عمل ولن تتم عبادة، فمن من الناس يملك قلبه؟!

ولكن ما ينبغي أن نفهمه هو وجوب السعي المتواصل كي نصل بالأعمال والعبادات إلى هذه الدرجة من الكمال شيئاً فشيئاً، وأن نحقق في أعمالنا وقلوبنا هذه المعاني من الخشوع والإخلاص والتقوى.

وهو طريق طويل وشاق يحتاج إلى طول مجاهدة مع صبر وتحمل، مع ابتهاج إلى الله تعالى ورجاء بأن يعينك على سلوك الطريق، وأن يمنحك من فيضه وكرمه ولطفه.

وفي خضم ذلك كله يرسخ في أذهاننا وأفهامنا أن التصوف هو الطريق للوصول إلى هذه المعاني والحالات عبر أساليبه المميزة والمتفردة في التربية؛ لذا فقد تعرض لهجمات شرسة من أعداء الإسلام، وأعداء الدين من بني جلدتنا. وعلى الجانب الآخر نجد محاولات استلاب الإسلام وتفريغه من محتواه، وتصويره على أنه مجموعة من النظم المتحجرة الفارغة المضمون، الخالية من المشاعر والمعاني.

وقد استغل هؤلاء بعض الأخطاء التي ظهرت لدى بعض أهل التصوف - وهو أمر بشري طبيعي - فنسبوا هذه الأخطاء الشخصية إلى التصوف نفسه بعد أن بالغوا في تصويرها، هادين إلى الطعن في التصوف ورفضه، وصدّ الناس عن سبيله، وإغلاق الباب في وجوه المريدين الساعين إلى تربية قلبية.

ولنا هنا أن نتساءل؛ هل إذا أخطأ طبيب ما في علاجك، يكون ذلك مدعاة لك أن تترك الطب كله؟ ومن ناحية أخرى، هل تصلح المعايير المادية الجامدة لنقيس بها شيئاً معنوياً حسيّاً، وهل يصلح أناس عاديون فاقدو المعاني والأحاسيس، كي يحكموا على التصوف وأهله؟

فالأشخاص الذين يحيون حياة عادية روتينية، محرومين من التفكير، محرومين من المشاعر، مفتقدين للمحبة والعشق، لا تمر الحوادث على قلوبهم ولا يعرفون من عالمهم الروحاني شيئاً. هل هؤلاء لديهم القدرة على العيش حياة التصوف أو





الوصول مع الله تعالى؟ ليس قبل أن يتجردوا من هموم الدنيا وشواغل القلب، وتصنفوا أرواحهم وتسمو غاياتهم.

إن التصوف في إحدى حقائقه هو مسؤولية إنسانية، والمتصوف هو ذلك الإنسان الذي يحمل على عاتقه مسؤولية هداية المجتمع إلى سبيل الحق وطريق الله تعالى، فالتصوف بعد أن فهم القرآن وتشربت روحه حقائقه، وعاش عالم القرآن متجرداً من عالم الدنيا، متعمقاً في عالم الروح، واصلاً إلى عالم الحكمة؛ كل هذه العوالم التي يعيشها المتصوف في ظلال القرآن الكريم، يتمنى أن يوصل إليها كل أفراد مجتمعه ليعيشوها كما عاشها هو.

يروى أن الشيخ نجم الدين كُبرى -وهو أحد أولياء الله- مشى في جنازة رجل صالح، وأثناء التلقين، تبسم الشيخ نجم الدين، فاحتار الطلاب في سبب تبسمه المفاجئ، وسألوه عن الحكمة في ذلك، لكن سيدنا نجم الدين لم يرغب في توضيح ذلك، إلا أنه بعد إصرار الطلبة قال:

«قلب الملقن غافل، أما قلب الميت في القبر فحيٌّ، فتعجبت للغافل يلقن من قلبه حي».

إذاً، حالة من يرفض التصوف وينكره باسم العلم هي مثل حالة الميت الذي يلقن الحي، هي حالة تثير الدهشة. ولا ريب أن نجاح جهود أهل التصوف وأعمالهم على مدى التاريخ هو السبب في إبقاء الحياة الدينية حيّة وانتقالها إلى الأجيال القادمة، وفي إرشاد الناس وتبليغ الإسلام.

وبيّن محمد حميد الله -وهو من أبرز علماء الإسلام في القرن الماضي- هذه الحقيقة بقوله:

«لقد كانت العقلانية هي النمط الذي تربيته عليه، وكانت دراساتي وبحوثي تحمّلني على رفض كل شيء لا يمكن تعريفه وإثباته بصورة مقنعة، وبالطبع كنت أؤدي فروض الإسلام، مثل الصلاة والصيام وغيرها، ليس لأسباب تصوفية، وإنما لأسباب شرعية».





وكنت أقول لنفسي: إن الله تعالى هو ربي ومولاي، وقد أمرني أن أفعل هذه الأشياء، ولهذا يجب عليّ أن أقوم بهذه الواجبات. فضلاً عن هذا كله، يرتبط الحق والواجب كل منهما بالآخر، والله تعالى قد أمرني بذلك كي انتفع واستفيد منه، وواجبي في تلك الحالة أن أشكره.

ومنذ أن بدأت العيش في مجتمع غربي في باريس، كنت أشعر بدهشة وحيرة من قبول النصارى للإسلام، ذلك أن ما دفع هؤلاء إلى اعتناق الإسلام ليست آراء علماء الفقه والكلام، بل هم الصوفيون مثل ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي. وكنت في هذا الموضوع شاهد عيان، فعندما طُلب مني إيضاح إحدى الموضوعات الإسلامية، فلم تكن أجوبتي وأدلتي العقلية مقنعة للسائل، ولكن الإيضاح الصوفي لم يتأخر عن إعطاء ثمرته، وبدأت أفقد بالتدريج قوة تأثيري في هذا الموضوع، والآن أنا مؤمن أن الذي سيخدم الإسلام اليوم لا سيما في أوروبا وأفريقيا، ليس السيف أو العقل، بل هو القلب - أي التصوف - كما كان الحال في زمن (قران خان) عقب الدمار والخراب الذي سببه هولاء.

وبعد رؤيتي الجديدة في هذا الموضوع، بدأت في دراسة بعض المؤلفات التي كتبت في موضوع التصوف، مما فتح عيون قلبي، وفهمت أن التصوف الذي كان في عهد النبي ﷺ وكان منهج كبار متصوفة الإسلام، لم يكن الانشغال بالكلام فقط أو بأشياء لا معنى لها، بل كان السير في أقصر طريق بين الإنسان وربه ﷻ، والبحث عن تنمية الشخصية وتطويرها.

ويبحث الإنسان بطبعه عن أسباب الواجبات التي كُلف بها، لكن الشروح المادية في المجال المعنوي تُبعدنا عن الهدف، أما الشروح المعنوية فهي التي تُقنع الإنسان^{١٠٢}

١٠٢ محمد عزيز لحبابي، شخصية الإسلام، ترجمة، إسماعيل حقي آقن، ص ١١٤-١١٥، هامش ٨، اسطنبول، ١٩٧٢. وهذا الهامش هو نص الرسالة المؤرخة في ٢٧ سبتمبر/أيلول ١٩٦٧ والذي

كتبه محمد حميد الله إلى المترجم.





ونفهم من هذا التوضيح أن رفض التصوف المطابق تمامًا للقرآن والسنة كُفْرانٌ بالنعمة، عاقبته ضياع وتيه.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إذا فقد أنفك حاسة الشم، فلا تَلْمُ الوردة».

وثمة جانب آخرٌ شديد الأهمية في دور التصوف ومسؤوليته والمهمة المنوطة به، وهي إصلاح المجتمع والعبور بالناس إلى الجانب الآخر من صحراء الدنيا إلى ظلال الروح وجنة القلب، فأسلوب التصوف وطريقته في هذا الإصلاح هي المحبة والرفقة، وهي طريق تختلف عن الأساليب الشرعية الفقهية المتبعة في الترغيب والترهيب.

ففي عالم غارق في شهوات النفس واستعباد العقل وسيادة المادة، وفي وسط أناس قد أسرتهم الدنيا وأهلكتهم الذنوب، ولم يعد لديهم أمل في النجاة؛ في هذا الخضم الهائل الخطر، تبرز أهمية المحبة والرفقة أسلوبًا للإنقاذ والعلاج والهداية، ووسيلةً معنوية تغدو بها قلوب الناس لتخاطب أرواحهم، وتحظى بالفتوحات المعنوية في أرض مادية قاحلة، فتهد نساءم الإسلام الإلهية كنفحة صوفية تواسي الهلكى، وتحملهم بوداعة إلى سبيل النجاة والفلاح.

لذا؛ لم تكن المحبة مجرد وسيلة وأسلوب صوفي للدعوة؛ بل كانت المحبة من أسس التصوف وحقائقه، ومن أبرز قواعده التي بنيت عليه وسائل الدعوة إلى الله، ونشره الإسلام في ربوع الدنيا.

وها هو واحد من تلك البقاع التي دخلها الإسلام على أيدي أولياء الله من أهل المحبة، يبين موقفه من أولئك الأولياء أمثال: عبد القادر الجيلاني، ويونس إمره، وبهاء الدين النقشبندي، ومولانا جلال الدين الرومي، إنه الفيلسوف والشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال؛ إذ كان قادمًا من بلاد الهند [باكستان]، ودخلت الطائفة المجال الجوي التركي، وفجأة يهب الرجل واقفًا، ويأبى الجلوس، وكان إقبال من عشاق مولانا جلال الدين الرومي، فلما سأله رفاقه عن ذلك قال:





«إن هذا التراب هو تراب مبارك يضم قبر مولانا جلال الدين الرومي، والشعب الذي يعيش في هذا المكان المقدس هو شعب مقدس أيضًا، فقد حافظوا على الإسلام لسنوات طوال، وقد ساهم الشعب التركي في نشر الإسلام في بلادنا، لهذا فأنا أكنُّ كل الاحترام والتقدير في قلبي لمولانا الرومي ولشعبه النبيل، وهذا ما جعلني أقف احترامًا».

هذا النموذج الحي لامتداد أثر المحبة الصوفية من جيل الأولياء في الماضي البعيد إلى جيل الفلاسفة والمفكرين الذين يقودون الفكر الإسلامي في الحاضر، يدل دلالة قاطعة على أن للمحبة الأثر الأقوى والأكثر استمرارًا ونفوذًا، وها هي ثمار المحبة ينال جناها آلاف من الشخصيات النادرة مثل ثمار العشق، والوجد، والرقعة، واللطافة، والمعرفة، والخلق الرفيع، عبر الأجيال والقرون، وبامتداد المسافات والبلاد.





التصوف هو الإلمام المتكامل والمتوازن بعلوم الظاهر
والباطن، انطلاقاً من الحقائق والعلوم الظاهرية، وصولاً
إلى قمة المعارف المعنوية.



ح. علاقة التصوف بالعلوم الأخرى:

خلق الله تعالى في فطرة الإنسان ميلاً طبيعياً إلى المعرفة، ورغبةً في الاطلاع، مع
فضولٍ يدفعه إلى البحث؛ هذه الدوافع تطورت مع الإنسان طوال وجوده وتفاعله
مع الحياة، فتطورت العلوم والمعارف، حتى صارت هذه العلوم بشُعَبِها وفروعها
شبكةً ممتدةً تتلاقى خيوطُها في نقاطٍ مشتركة مع العلوم التي تنبع من أصل واحد،
وتعتمد على حقائق واحدة رغم تباين طرق البحث، ورغم البون الشاسع بين ما هو
فيزيائي، وما هو فلسفي أو ديني أو فني.

لكنها في النهاية تُصَبُّ في بوتقة التصوف إذا بُحِثت بمنظور «الحكمة»، وهو ما
نحاول تجليته في الصفحات الآتية، حيث سنحلل علاقة التصوف بالعلوم الأخرى
في الأقسام الخمسة على الوجه الآتي:

١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى (علم الكلام - التفسير - الحديث
والسيرة - الفقه).

٢. التصوف والعلوم الطبيعية.

٣. التصوف والأدب.

٤. التصوف والفنون الجميلة (الموسيقى - العمارة - الخط).

٥. التصوف والفلسفة.





١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى.

غاية خلق الله للإنسان، وأساليب تحقيق هذه الغاية قد فصلها الدين ويسرها، وعلوم الدين التي نشأت وتنامت في رحاب الدين إنما تطورت لأجل توضيح هذه الغاية، فغاية خلق الإنسان وغاية الدين هي العبادة، والعبادة في معناها الإسلامي الشامل تشمل واجبات المسلم تجاه ربه ﷻ، وتجاه مخلوقات ربه، وتجاه كتاب ربه المسطور (القرآن)، وتجاه كتاب ربه المنظور (الكون)، والتصوف هو روح هذه العبادات، وهو القلب الذي يؤديها، والبصيرة التي تدركها، والفهم الراقى الذي يحصل معانيها فيحسن أداءها، وهو القواعد الحسية والمعنوية التي تعطي الروح والحياة للقواعد الأكاديمية الجافة لهذه العلوم، سواء كانت علومًا دينية أو علومًا دنيوية، وكلها في النهاية علوم للإنسان ولخدمة الإنسان ولهدايته في درب الحق للوصول إلى الحق.

والعبادات -على سبيل المثال- ليست مجرد حركات تؤدَّى، ولا ألفاظًا محفوظة، ولا عادات روتينية فحسب، إنما هي عبادات غايتها الخشوع، ووسيلتها الخشوع، وروحها الخشوع، وهذا الجانب القلبي الأصلي فيها أكدته آيات القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا. حتى الإيمان نفسه من شروطه التصديق بالقلب والإقرار بالجوارح بعد الإقرار باللسان، والتصوف هو الذي يهتم بذلك التواصل ما بين الجانبين الظاهري والباطني من أعمال العبادات.

ولا سبيل إلى تحصيل حقيقة العلوم الظاهرية دون الاعتماد على المشاعر القلبية بالتوازي مع القواعد والأساليب العقلانية، فالعلم الذي يفتقد الخشوع -كجسد فاقد للروح- علم لا فائدة تُرجى منه، فها هم علماء بني إسرائيل حصلوا علمًا جمًّا، لكنه لم يتجاوز عقولهم إلى مشاعرهم ولا إلى قلوبهم، فكانوا كما قال الله تعالى:

﴿...كَمَثَلِ الْجَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾ ١٠٣





وقبل أن نورد تفاصيل علاقة التصوف بفروع العلوم الإسلامية، نؤكد على حقيقة أن سبب الجدل الذي يقع أحياناً بين التصوف والعلم إنما هو لخلل في التواصل بين الجانبين، فإذا تم إصلاح هذا الخلل وجدنا الجانبين في تناغم وتواصل، يكمل أحدهما الآخر.

أ. التصوف وعلم الكلام

من نافلة القول أن نذكر تعريف علم الكلام، وهو العلم الذي يتحدث عن ذات الله تعالى وصفاته ووجدانيته، وهو من أعلى العلوم كعباً وأشرفها قدراً، لدوره في إثبات العقائد ومواجهة شبهات المشككين ودحض أباطيلهم، وإقناع الناس - باستخدام المنهج العقلي - بالإسلام وحقائقه.

بينما يعتمد التصوف المنهج القلبي في معرفة الله تعالى وتعريف الناس به وبصفاته وكمالاته ﷻ.

وثمة تلاقي بين علم الكلام والفلسفة في المنهج العقلي إثباتاً للحق ودحضاً للباطل، لكن علم الكلام منضبط بضوابط الشرع، مبنية قواعده على القرآن والسنة، يزواج بين «العقل» و«النص».

فالعقل يثبت الحقيقة بمنطق السبب والمسبب، أو بمنطق الأعرابي:

«البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على اللطيف الخبير».

فإذا كان العقل والمنطق يكفيان في إثبات كثير من الحقائق في عالم الشهادة، فثمة مواضع وحقائق لا يكفي فيها المنطق، ولا يقدر عليها العقل وحده، وهو ما يجعلنا في حاجة دائمة وماسة إلى القلب والمشاعر في إدراك وإثبات ما يعجز عنه العقل، مما يجعل للتصوف اليد العليا في الوصول إلى أدلة قاطعة عقلية وقلبية، بأساليب الإلهام والكشف، والتجليات المنضبطة بحدود القرآن والسنة.





وليس ثمة تعارض بين التصوف وعلم الكلام؛ بل تكامل وترابط، فعلماء الكلام - كما أسلفنا - ليسوا فلاسفة في اعتماد العقل وحده، بل يمزجون العقل بالنص، والشريعة بالحقيقة.

وتحدثنا حوادث التاريخ عن كثيرٍ من علماء الكلام الذين اعتمدوا أفكار الصوفية وآراءهم منهاجاً وواقعاً، فعلم الكلام يرتقي بالذهن والحواس إلى درجة من النضج تلي جزئاً لا يستهان به من حاجات الإنسان.

ويأتي ذلك التكامل بين التصوف وعلم الكلام من جهة أن العقل له قدرات محدودة، لاسيما فيما يتعلق بالعلوم الباطنة والغيبيات وما وراء الطبيعة، وعالم الملكوت، فيقف العقل والذهن عند حدوده، ولا يستطيع تجاوزها، وهنا يأتي دور التصوف ودور القلب عبر وسائله الخارقة للطبيعة في المعرفة مثل الكشف والإلهام، والسوانح القلبية والتجلي.

ليس ذلك فقط، فحتى الإدراكات العقلية والذهنية لا بد أن تمر بالأحاسيس والمشاعر حتى تدرك كنهها وتصل إلى حقيقتها.

وما يمكن القلب من الوصول إلى درجة مناسبة من الإدراك والكشف هو ذكر الله تعالى، وبهذا الذكر يقود التصوف كل الناس - على اختلاف قدراتهم العقلية - إلى الإيمان المطلق بوجود الله تعالى ووحدانيته.

ويبين فخر الدين الرازي - أحد أشهر المفسرين وعلماء الكلام - هذه الحقيقة قائلاً:

«مهما بدت طرق علم الكلام غير كافية للوصول إلى الحقيقة، فإنها تبقى الخطوة الأولى المهمة للعبور إلى التصوف، فلا يصل المرء إلى درجة الكمال إلا بعد انتقاله من العلوم الشرعية التي تستند إلى الظاهر، إلى العلوم الباطنية التي تستند إلى معرفة حقائق الأحاديث»^{١٠٤}.

١٠٤ محمد صالح الزركان، الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص ٧٦؛ نقلاً عن: محمد عابد الجابري،

بنية عقل الثقافة العربية الإسلامية، ص ٦٢٦.





ب. التصوف والتفسير

إذا كان موضوع علم التفسير هو الإعراب عن المعاني العميقة المركوزة في آيات القرآن الكريم، وإظهار حقائقه ودقائقه، فإن التفسير بذلك يصبح من أهم وسائل التصوف ومن أنجع أدويته وعلاجاته، فالقرآن هو المصدر الأساسي للتصوف.

وهدف التصوف هو نفسه هدف القرآن في الرقي بالشعور الإنساني إلى درجة الإيمان، والوصول بالإيمان إلى درجة الإحسان، وتحلية المؤمن في ظاهره وباطنه وسلوكه بصفات الكمال، وإكساب أحاسيسه ومشاعره وقلبه وعباداته ومعاملاته ملكة المراقبة الإلهية، والعيش الدائم بذكر الله تعالى.

هذا الذكر الذي هو القرآن، جعله المتصوفة دينهم وديدنهم، وقطب دائرة وجودهم، ليلاً ونهاراً، وفي السحر، تلاوة وتفكيراً وتدبراً؛ هو ووردهم اللساني والعقلي والقلبي. وهم بذلك يعيشون بالقرآن، ويعيشون للقرآن، ويصير القرآن محور حياتهم، هؤلاء هم المتصوفون حقاً، الذين ساروا بالقرآن سيرة النبي الذي كان قرآناً يمشي على الأرض.



لقد كانت مساهمات أهل التصوف في علم التفسير مساهمات ذات أثر جليل، فقد انتقلوا بهذا العلم نقلة نوعية، وعبروا به من حدود المعاني الظاهرة إلى حدود المعاني الباطنة، ومن المعاني اللغوية إلى المعاني الإشارية، ومن قيود اللغة وحروفها إلى رحابة أعماق المعاني والدلالات.

فمن ضيق الأفق أن نقصر معاني القرآن ونحبسها في إसार الحروف اللغوية والكلمات البشرية ذات المعنى المحدود، فهذه الآيات الإلهية تحتاج إلى طور فوق أطوار العقل لندرك عالمها ورحابة آفاقها؛ لكن ينبغي التنبيه هنا إلى أن هذا العلم -علم التفسير الإشاري- له أيضاً نُظْمه، وثمة أمور لا بد من مراعاتها عند تقديم المعنى الإشاري لآيات القرآن الكريم، لعل أهمها أمور ثلاثة:





١. عدم التناقض بين المعنى الإشاري والمعنى الظاهري.
٢. أن يكون المعنى الإشاري الجديد مطابقاً للكتاب والسنة.
٣. ألا يخرج المعنى الإشاري عن سياق اللفظ واللغة في الآيات.

ومن أشهر كتب التفسير الإشاري للقرآن الكريم:

- كتاب «حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن السلمي.
- كتاب «لطائف الإشارات» للإمام القشيري.
- كتاب «روح البيان» لإسماعيل حقي البورصوي.

إضافة إلى مؤلفات أخرى لكبار المتصوفة ثرية بهذا النوع من المعاني اللطيفة للتفسير الإشاري؛ مثل: كتب ابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي.

وفي الحقيقة، كما أن إدراك ذات الله تعالى وصفاته ضرب من المستحيل، فكذلك إدراك كل مرامي كلام الله غير ممكن عبر الألفاظ البشرية، حتى بالمعاني الإشارية، وكل الذي يمكننا فهمه ونقله هو مجرد حبة رمل من جبل، وقطرة من محيط، وتُعبّر هذه الآية الكريمة عن هذه الحقيقة أجمل تعبير:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{١٠٥}

ويبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن كلامه أعلى وأعمق من كلام البشر، وأن علمه لا حد له، وذلك كي يسعى الناس جاهدين لفهم معاني القرآن الكثيرة، ولتفتح لهم آفاق رحبية في الفهم والتصوف، والغوص في المعاني والدلالات، وقد قال سيدنا محمد ﷺ عن بعض خصائص القرآن الكريم:

«...ولا تنقضي عجائبه...»^{١٠٦}

١٠٥ لقمان: ٢٧.

١٠٦ الترمذي، فضائل القرآن، ١٤/٢٩٠٦.





ويقول مولانا جلال الدين الرومي في معنى الآية:

«من الممكن كتابة ظاهر القرآن بأوقية من الخبر، ولكن ليس في الكون شيء يكفي لتوضيح أسرارهِ، حتى لو صارت البحار كلها حبراً والأشجار كلها أقلاماً».

لقد أوضحت هذه الآية، وكذلك هذا الحديث حقائق هائلة، فقد حفل القرآن الكريم بحقائق ومعاني لا حصر لها، ثم تناولها بكلمات شديدة الاختصار، أو إشارات عميقة اللطف. إن كلمات القرآن وحروفه هي مجرد بذور تحمل في أعماقها عوالم أخرى لا متناهية من الحيوانات والعوالم والثمار والفروع، وهي تحتاج إلى قلب سليم خصب يستطيع أن ينمّي هذه البذور.

ولو أن هذه الحقائق كُتبت بشيء من التفصيل أو التوضيح في القرآن لاحتاج ذلك إلى عدد لا يحصى من المجلدات، لكن اللبيب تكفيه الإشارة.

هذه الإشارة هي ما قصده أهل العلم عندما عددوا صفات وشروط العلوم اللازمة التي يجب توافرها فيمن يتصدى للتفسير، وأهمها «العلم الوهبي» أو الموهبة والقدرة الخاصة التي لا تتوافر لأي عالم، فقط توجد لدى العلماء الربانيين، الأتقياء الأنقياء الأولياء، أو بمعنى آخر العلماء العاملين. ويشير قول عيسى عليه السلام إلى هذه الحقيقة:

«من عمل بما يعلم ورّثه الله علم ما لم يعلم»^{١٠٧}

وهذا يعني أنه طالما ثمة أمراض قلبية، مثل الكبر والغرور والحسد وحب الدنيا، تمنع من فهم آيات الله، ولم تُعالج بالتطهير والتربية الصوفية، فلا يمكن لأي امرئ أن يأخذ نصيبه من أسرار القرآن، وتوضح الآية الكريمة هذا الأمر بصراحة جلية:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾^{١٠٨}

أي إنه لا ينال أسرار القرآن الكريم إلا من تربى على أخلاق القرآن.

١٠٧ أبو نعيم، الحلية، ١٠، ١٥.

١٠٨ الأعراف: ١٤٦.





ت. التصوف وعلم الحديث والسيرة

علم الحديث هو العلم الذي يبحث في أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخلقية، وأخلاقه الحميدة.

ويتخذ التصوف - مثل العلوم الإسلامية الأخرى - الحديث النبوي المصدر الثاني له بعد القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة مصدرٌ شديد الثراء، فهو يشرح حياة سيدنا محمد ﷺ بكل ما فيها من أبعاد مادية ومعنوية، وقد لعبت دورًا حاسمًا في تكوين التصوف وتطوره، فالأحاديث الشريفة التي تناولت الأمور القلبية مثل الزهد، والورع، والإحسان، والتواضع، والإيثار، والصبر، والشكر، والتوكل، هي الأساس والمنطلق لأفكار أهل التصوف ومفاهيمهم.

إن أحاديث الرسول ﷺ وتصرفاته المتعلقة بحياته الروحانية في المسائل التي تتعلق بالتصوف، قد قاربت بين التصوف وعلم الحديث بحيث وصلا إلى حالة من التماهي يصعب الفصل بينهما.

وقد وضحنا في العلاقة بين التصوف وعلم التفسير أن غاية أهل التصوف هي التقرب إلى الله تعالى والحياة مع القرآن الكريم، ولأن أهل التصوف يعرفون حق المعرفة أن الوصول إلى محبة الله تعالى تتحقق بالسير على خطى الحبيب محمد ﷺ، فقد جعلوا أتباعه في كل أمر شعارًا لهم، والسير على منهاجه سبيل نجاتهم ووصولهم، وبذلك عاشوا السنة وحققوا معانيها وحصلوا كنوزها.

ويلخص الشيخ نقشبند طريقته بأنها على نهج السنة النبوية الشريفة وعلى نهج أصحابه من بعده^{١٠٩}، فهو يقول:

«إن كل ما حصلنا عليه بلطف الله (من العلوم الباطنة)، كان حصيلة العمل بآيات القرآن الكريم وأحاديث سيدنا محمد ﷺ، ولكي نحصل على نتيجة هذه





الأعمال، لا بُدَّ من مراعاة التقوى والقواعد الشرعية، والعمل بعزيمة وفق مناهج أهل السنة والجماعة وتجنب البدع»^{١١٠}

وهذا العمل بمقتضى منهج أهل السنة، وهذا السير على خطى المصطفى ﷺ هو توجية قرآني بالطاعة والاتباع والاهتداء والتأسي؛ لكنه في البداية يحتاج إلى المحبة، ثم هو يتطلب النماذج الحية الواقعية التي تقرب المعاني القلبية إلى الأفهام البشرية، وهو ما تُمَدِّدنا به كتب الحديث والسيرة مددًا لا ينقطع، وكذلك كتب التراجم -سير الصحابة والتابعين والصالحين والأولياء- التي تؤرخ لهذا المدد المستمر، وتواصل تتبع امتداد هذه الأخلاق علمًا وعملاً وحياة وواقعًا من لدن الحبيب ﷺ إلى يومنا هذا. لقد كانت حياته ﷺ هي المعيار في التربية الصوفية التي يربها أولياء الله، هذا المعيار هو الدليل الحي والواضح على التطابق المطلق بين المنهاج الصوفي وجوهر المنهاج القرآني والنبوي الشريف.

إن التطبيق العملي الواقعي -من لدن أهل التصوف- للسيرة والسنة النبوية، ونقلها من الجانب النظري إلى الجانب الواقعي، هو من تلك الفضائل التي تعكسها حياة أهل التصوف.

ولنذكر هنا بعض الأمثلة:

قال الشيخ أبو يزيد البسطامي لأحد طلابه:

«قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية وكان رجلاً مقصودًا مشهورًا بالزهد، فمضوا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه (من أسرار الحق)»^{١١١}

١١٠ يعقوب الجرخي، الرسالة الأنسية (محمد نذير رانجها)، إسلام آباد ١٩٨٣، ص ١٤.

١١١ القشيري، الرسالة، ص ٥٧، ٤١٦-٤١٧.





وكان هذا الإمام الرباني معروفًا بشدة اتباعه لسنة الحبيب المصطفى ﷺ في كل حركاته وسكناته، وكان هذا الاتباع وصيته لكل من يلقاه أو يريه، وكان يقول:

«إن السبب الظاهر والخفي لكل ما يمنحنا الله تعالى إياه من فيوضات وألطف، وكل ما يمنحه سبحانه للبشر من جزاء وثواب إنما هو اتباع سنة المصطفى ﷺ والسير على خطاه، فهو سيد الأولين والآخرين، وأسوة البشرية إلى يوم الدين، وأما كل شقاء يلقاه الإنسان فسببه خلل في اتباع السنة، وكذلك أنا فكل توفيق وسعادي كان بركة ذلك التأسي والاتباع، وأذكر أني ذات مرة دخلت الخلاء غافلاً بقدمي اليمنى، فحزمت سائر يومي هذا من صفاء روعي»^{١١٢}

هذا الإمام الرباني طلب من أحد مريديه يومًا أن يحضر بعض زهور القرنفل من الحديقة، فجاءه المريد بست زهرات، فبدت علامات الحزن على الإمام، وقال:

«ما فتى طلابنا غير مكترئين بحديث سيدنا محمد ﷺ الذي يقول فيه: «...إن الله وثر يحب الوثر»^{١١٣}، ولذا فمن المستحب أن نطبق هذا الحديث في أمورنا كلها، ماذا يفهم الناس من كلمة مستحب؟ المستحب هو الشيء الذي يحبه الله ﷻ، أي إذا ما أعطيت الدنيا والآخرة كلها للمرء مقابل عمل يحبه الله تعالى، فلا قيمة لهذا العطاء مطلقًا، وبما أننا نتبع المستحب بهذا القدر، فإننا نبدأ بخدنا الأيمن قبل الأيسر أثناء غسل وجهنا، لأن التيامن مستحب في كل الأعمال»^{١١٤}

وكتب الإمام الرباني في إحدى رسائله:

«قد شرفنا الله سبحانه وأمثالنا من المفلسين العاجزين المقعدين بدولة اتباع سيد الأولين والآخرين الذي أبرز كمالاته السمائية والصفاتية في طفيل محبته إلى عرضة الظهور، وجعله أفضل جميع الكائنات عليه من الصلوات أفضلها ومن

١١٢ الكشمي، البركات الأهمدية، ص ١٩٧.

١١٣ مسلم، الذكر، ٥/٢٦٧٧؛ البخاري، الدعوات، ٦٨/٦٤١٠.

١١٤ الكشمي، بركات، ص ١٩٨؛ أبو الحسن الندوي، الإمام الرباني، ص ١٨٠-١٨١.





التسليمات أكملها، ورزقنا الاستقامة عليه، فإن ذرة من هذه المتابعة المرضية أفضل من جميع التلذذات الدنيوية والتنعيمات الأخروية بمراتب كثيرة، والفضيلة منوطة بمتابعة سنته، والمزية مربوطة بإتيان شريعته عليه وعلى آله الصلاة والسلام والتحية. والنوم في نصف النهار مثلاً الواقع على وجه هذه المتابعة أفضل من إحياء ألوف من الليالي الواقع على غير وجه المتابعة، وكذلك الإفطار في يوم عيد الفطر الذي أمرت الشريعة به أفضل من صيام أبد الآباد الذي لم يؤخذ من الشريعة، وإعطاء جبل بأمر الشارع أفضل من إنفاق جبل من الذهب من قبل نفسه»^{١١٥}

ويقول الشيخ موسى أفندي - رحمه الله -:

«إن الارتقاء الحقيقي هو بمعرفة العبد أنه أمام نظر الله وسمعه، وتطبيق السنة المطهرة»^{١١٦}

«والحقيقة التي ينبغي لنا الوقوف عليها بقدم راسخة، وإدراكها تمام الإدراك، أن نجاتنا يوم الدين، وأن سعادتنا في عليين، إنما تكمن في اقتدائنا بسنة النبي ﷺ في كل أمرنا، قولاً وفعلاً وعملاً وحركة وسكوناً، وأن يحمل الدم الجاري في عروقنا سنته إلى كل خلايا جسدنا، فنحيا بها، ونحيا لها، ونحيا عليها»^{١١٧}

واتباعاً لهذه السنة؛ كان السائرون على طريق الترقى يجمعون الأحاديث للتربية تحت مسمى «كتاب الزهد» حتى قبل أن تقنن مناهج التصوف، وتبرز قواعده كعلم. وكذلك أثرى المتصوفون علم الحديث والسيرة بما قدموه من المعاني والإشارات ولطائف الإدراك والاتباع.

كما أن كبار المتصوفة وعلماءهم أثروا علوم الحديث بمؤلفاتهم، مثل:

الحكيم الترمذي، والقشيري، وابن عربي، والكلاباذي..

١١٥ الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ١١٧، رقم: ١١٤.

١١٦ صادق دانا، سلطان العارفين، ص ١٩-٢٠.

١١٧ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ١، ١٨٤.





وثمة علماء متخصصون في الحديث تبنا المنهج الصوفي في قواعدهم، فها هو الإمام البخاري الذي يُعد صحيحه أصح الكتب المصنفة؛ كان إذا أراد أن يُدوّن حديثاً في صحائفه، بعد أن يتتبع أسانيده ويتحقق من متنه، نراه يصلي ركعتين حتى يثبت قلبه، ويستكين فؤاده، فيدوّنه قانعاً مطمئناً.^{١١٨}

وها هو الإمام الزاهد المحدث الفقيه أحمد بن حنبل، روى ثلاثة أحاديث شريفة تلقاها عن النبي في رؤية منامية.^{١١٩}

ث. التصوف والفقه:

الفقه لغة: المعرفة والفهم والإدراك لدقائق الأشياء، أما اصطلاحاً فقد مر مفهوم الفقه بتطور تاريخي، فبدايةً كان يعني العلوم الدينية والدنيوية، ثم اختص بما يجب على المسلم عمله، وهو التعريف الذي قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: «معرفة النفس ما لها وما عليها».

وأطلق على علوم العقيدة اسم «الفقه الأكبر» لأنها تعلق بمعرفة الإنسان لربه سبحانه.

ثم توسعت العلوم الفقهية، وتفرعت، فاقترصر الفقه على الأحكام العملية للعبادات، والأمور القضائية للمعاملات، وأحكام الجنايات والعقوبات وغيرها.

وفي الجهة الأخرى يتابع التصوف الشروط الباطنية لصحة العبادات والمعاملات، ويتابع الشروط القلبية لصحة السلوكيات، ويُعدّ التصوف تلك القواعد الباطنية التي تصحّح ذلك كله، ولهذا فإن التصوف يُطلق عليه اسم «فقه الباطن»، أو «الفقه الوجداني»؛ لأنه يمثل القاعدة الروحانية لعلم الفقه، وهو كنهه وجوهره.

١١٨ انظر: ابن حجر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، ص ٤٨٩؛ ابن حجر، تغليق التعليق، ٥، ٤٢١.

١١٩ انظر: مجموعة الأحاديث، ورقة: ١١٠، أ، ١١٢ ب.





والشريعة تضع للعبادات شروطاً ظاهرية وشروطاً باطنية، فما يتعلق أداؤه بالحركات الجسدية، يتعلق قبوله بالمشاعر القلبية، وعليه فإن قواعد الفقه لا تنفصل عن قواعد التصوف، بل يكمل أحدهما الآخر، وكلُّ منهما يؤدي دوره المنوط به.

ففي الوقت الذي يبحث الفقهاء ويدونون أحكام العبادات، مثل الصلاة والصيام والحج؛ وأحكام المعاملات، والأسرة والمواثيق والتجارة والقصاص، يُعطي المتصوفون بالمقابل أهمية لأداء هذه الأحكام جنباً إلى جنب مع المؤثرات المعنوية، مثل الزهد والتقوى والإخلاص، ويعطي القرآن أهمية أكبر للجانب المعنوي من العبادات، ويوجّه العبد إلى الزهد والتقوى.

وقد كان كثير من المتصوفة، مثل الغزالي، وابن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، علماء وفقهاء ضليعين في العلوم الظاهرية، وهناك أيضاً كثير من العلماء في السلسلة النقشبندية، مثل يوسف الهمداني، والشيخ نقشبند، وعلاء الدين العطار، ويعقوب الجرخي، ودرويش محمد، والإمام الرباني، وخالد البغدادي، قد وصلوا إلى الذروة في العلوم الظاهرية وأجيزوا فيها، وقد أطلق أهل العلم في السلسلة النقشبندية على هذه الشخصيات اسم «خواجهكان» أي «الأساتذة» لأنهم تعلموا في المدارس الدينية.

وتعلم علم الظاهر لا يغني عن تعلم علم الباطن، وقد ثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين: فمن الحنفية كابن الهمام، وابن الشلبي، والشرنبلالي، وخير الدين الرملي، وأحمد بن محمد الشريف الحموي المعروف بمحشي الأشباه وأمثالهم؛ ومن الشافعية كسلطان العلماء العز بن عبد السلام، والإمام الغزالي، وتاج الدين السبكي، والسيوطي، وشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والعلامة الشهاب ابن حجر الهيتمي المكي وأضرابهم؛ ومن المالكية كالعارف أبي الحسن الشاذلي، وخليفته الشيخ أبي العباس المرسى، وخليفته الشيخ ابن عطاء الله الاسكندري، والعارف ابن أبي جمرة، وناصر الدين اللقاني، والشيخ العلامة المحقق





العارف أحمد زروق البرلسي وغيرهم؛ ومن الحنابلة كالشيخ عبد القادر الجيلي، وشيخ الإسلام عبد الله الأنصاري الهروي، والشيخ ابن النجار الفتوحي وغيرهم.

وثمة علماء مشهورون منتسبون للنقشبندية، مثل السيد الشريف الجرجاني، والملا الجامي، وعبد الحكيم السيالكوتي، وعبد الغني النابلسي، وابن عابدين، وشهاب الدين الألوسي، وهؤلاء العلماء الأجلة بعد التضلع من علوم الظاهر اشتغلوا بتحصيل علوم الباطن وتلقيها عن أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك^{١٢٠}.

وثمة كلمة مأثورة عن بعض السلف توضح الكثير من الأمور، وتضع الكثير من القواعد، وتنفي الكثير من الخبث، يقول الإمام مالك:

«من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق»^{١٢١}

ويذكر عبد الخالق غجدواني أن المرء الذي يصل إلى مرتبة فناء النفس هو من يحمل القرآن الكريم بيده اليمنى والأحاديث الشريفة بيده اليسرى، ويسلك سبيل الهداية بنوريهما^{١٢٢}، وينصح أحد مريديه قائلاً:

«تعلم علم الفقه والحديث، وابتعد عن الجهال من المتصوفة»^{١٢٣}.

فإدراك المعنى الكامل للإسلام والعيش بمقتضاه يتحقق بوحدة العلم والعرفان، والجمع بين الفقه والتصوف، أي بين علوم الظاهر والباطن.

١٢٠ العلامة محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، اسطنبول ١٤٠٣، ص ٢٥-٢٦؛ محمد بن عبد الله الحاني، البهجة السنية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص ٦.

١٢١ أحمد زروق، قواعد التصوف، القاعدة، ٤؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، بيروت، ١٤٢٢، ١، ٣٣٥؛ شرح الشفا، بيروت ١٤٢١، ٢، ٥١٠؛ الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر ١٣١٥، ٢، ١٥٦.

١٢٢ عبد الرحمن الجامي، نفحات الأنس من حضرة القدس (التحقيق: محمود عبيدي)، طهران ١٣٧٥، ص ٣٨٤.

١٢٣ عبد الخالق غجدواني، الوصايا، مكتبة بيازيد العامة، قسم ولي الدين أفندي، الرقم: ٣٢٢٩، الورقة: ١١أ.



أما من يدعي التضاد بين التصوف والفقه، أو يتوهم التعارض بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، أو يرى البون شاسعاً بين الأحكام الدينية والتربية الصوفية، فهؤلاء قليلو العلم والعمل، محدودو الإدراك والشعور، أصابهم الجهل أو قيدهم التزمت أو أعمى بصيرتهم وأبصارهم الكبر، وهو ما أدى -في بعض حقب التاريخ- إلى التشوه الذي أصاب العلاقة بين الجانبين.

وخلاصة القول في العلاقة بين التصوف وبقية العلوم الإسلامية أن التصوف جزء لا يتجزأ من تلك العلوم، وهو عضو فيها كسائر أعضاء الجسد الواحد.





يقول الله تعالى:

﴿سَرِّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^{١٢٤}



٢. التصوف والعلوم الطبيعية

للهولة الأولى قد نجد تناقضاً بين التصوف والعلوم الطبيعية، فالعلوم الطبيعية الخاضعة للنتائج العملية وأبحاث المختبرات بعيدة كل البعد عن العلوم الميتافيزيقية، أما التصوف فهو مغرق فيما وراء الطبيعة.

لكن الحقيقة غير ذلك، فكلاهما له هدف واحد، وهو الوصول إلى الحكمة من وراء الخلق، والعلة من وراء الموجودات، وإدراك الأسرار الكامنة في الكائنات، وإشباع شغف الإنسان بالاطلاع الأمثل والأشمل على الكون وخالقه؛ أي الانتقال من عالم المشاهدة إلى عالم الشهود، ومن المُلْك إلى الملكوت.

والعلوم الطبيعية ومكتشفاتها وعالمها المادي هو المرحلة الأولى للوصول إلى عالم الحقيقة، وهو الأدلة الأولى والدائمة على عظمة الخلق وقدرة الخالق.

كما أن الإسلام في تعامله مع المخلوقات -عاقلة وغير عاقلة- يهتم بالنواحي الميتافيزيقية كما يهتم بالنواحي الطبيعية، والنبى ﷺ كان يأمر بالرفق ويتعامل به في شأنه كله حتى مع الجمادات، وها هو جذع النخلة الميت يحنُّ إليه، والجمادات في طريقه تسلم عليه.

والاكتشافات العلمية كلّ يوم تقرب المسافة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، وتوثق الصلة بين الفيزياء والميتافيزيقا، وتنفي كل القواعد الجامدة التي وضعها





اللادينيون في العلوم الفيزيائية الطبيعية، فنظرية النشوء والارتقاء وأصل الأنواع محكوم عليها بالإخفاق والقصور من يوم ظهورها، وقانون بقاء المادة وبقاء الكتلة للكيميائي الفرنسي أنطون لافوازييه ذهبت أدراج الرياح بعد تمكن الإنسان من تفتيت الذرة، التي تفتت معها مسلمات قديمة طال النزاع فيها بين العلم والدين حول «قَدَم المادة» وبقائها وفنائها، فأثبت العلم أن ذلك كله مجرد «طاقة»، وأن وجودها «عرضي» مؤقت، وليس بقديم.

واكتشاف الجينات وما تحمله من مورثات أو كروموزومات تحتوي على أسرار وخصائص الشخصية دليلٌ على عظمة الخالق سبحانه، وعلى عظمة كتابه الكريم الذي أشار إلى هذه الحقائق بشكل ميتافيزيقي، ليؤكد لنا الترابط بين العالمين المادي والمعنوي، وليؤكد الصلة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، ولم يكن التباعد بينهما سوى قصور في العلم، واحتاج اكتشاف ذلك التقارب أو التواصل إلى مرور الأزمان المتطاولة، واكتشاف حقائق علمية لإدراك حقائق قرآنية معجزة ثابتة وكامنة وراء الألفاظ والتعبيرات القرآنية.

لكنَّ المسلمَ الحقيقي مؤمن منذ البداية بعظمة خالقه، كما أنه مقررٌ بعجز نفسه البشرية عن فهم كل معاني هذه القدرة.

وفي القرن التاسع عشر كتب ضياء باشا بيتين من الحكمة يقول فيهما:

سبحان من تحيَّرت في صُنعه العقول

سبحان من بقدرته يُعجز الفحول

والمسلم موقن بأن المعجزات الكونية التي يتوالى ظهورها لن تنقطع، وأن تكشُّفها المستمر هو أدلة جديدة ومتجددة تناسب الزمان والمكان والعلوم والأفهام، وأن كل اكتشاف جديد يؤكد عجز الإنسان أمام صُنْع الخالق وعظمته، ولا يبقى مقررٌ له من الاعتراف بالحكم اللانهائية وراء تلك الصنعة والعظمة، وقد أوضح ضياء باشا هذا العجز البشري خير توضيح حين قال:





العقل المحدود لا يطيق ولا يُدرك الغيوب والأسرار

كالميزان الصغير لا يحمل ما ثقل من الأوزان

وهذا يجعل التصوف مرحلة متقدمة وتالية للعلوم الطبيعية في بحثه عن أسرار الكون، وسعيه وراء الحكمة الكامنة في الكائنات، وها هو القرآن الكريم يلفت الانتباه في كثير من مواضعه إلى الأسرار والحكم في الكائنات، فقد قال الله ﷻ:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^{١٢٥}

وتشير كلمة «الآفاق» في الآية الكريمة إلى العالم الخارجي الذي يحيط بالإنسان، أما كلمة «أنفسهم» فهي تشير إلى الحكم والعبر والأسرار في بنية الإنسان المادية والروحية، ويزيل الله تعالى غفلة العباد، ويستلفت انتباههم بقوله:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^{١٢٦}

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^{١٢٧}

ويبين الحق تعالى في آية أخرى -بعد أن أظهر فيض قدرته واستمرارها- أنه قد خلق الإنسان مثل الكائنات الأخرى لغاية:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^{١٢٨}

١٢٥ فصلت: ٥٣.

١٢٦ الحج: ٤٦.

١٢٧ الدخان: ٣٨-٣٩.

١٢٨ المؤمنون: ١١٥.





ففي كل ذرة من الذرات تجليات رائعة للصنعة الإلهية.

ويمتلك التصوف بفكره ومعنوياته القدرة على صياغة تصورٍ كلي شامل يجمع حقائق الكون الطبيعية والميتافيزيقية، ويجعل الإنسان في مركزها، ثم هو يحقق هذا التصور واقعياً، وينقله من مستوى النظرية إلى مستوى التطبيق عبر أساليبه التربوية المعتمدة أساساً على «ذكر الله»، ثم الرياضات الروحانية الأخرى.

هذه الرياضات التي تمنح العقل والقلب وأدوات الحس قدراتٍ أكبرَ على إدراك العلوم والحكمة من ورائها.

ثم إنَّ الكونَ كله في عين المتصوفة ما هو إلا موضع لتجلي وجود الله تعالى وأسمائه وصفاته، وما هذه المخلوقات والموجودات سوى نوع من الإبداع الفني للخالق سبحانه، وإن أبسط المشاهدات التي تتكرر أمام نواظرنا كل يوم بصورة عادية غير ملفتة تحمل في طياتها وظاهرها أعظم المعجزات الناطقة بقدرة الله تعالى والداعية إلى الإيمان العميق به ﷻ.

فها هي ورقة الثوت الخضراء، يأكلها الغزال فيعطينا المسك، وتأكلها دودة القز فتعطينا الحرير.

وغيرها، وغيرها من المخلوقات والعطاءات، الورقة واحدة، ولكن الإبداع لا يحصى، فإذا انتقلت إلى غيره من النباتات والأوراق والأعشاب، وجدت الأصل الذي تستمد منه حياتها وغذاءها واحد: الطين والضوء، ثم تختلف ألوانها وأشكالها وطعومها وأريجها، ألا يجعلك ذلك تتوقف مندهشاً أمام إعجاز الله تعالى وقدرته وتجلياته؟!

لقد خلُق الكون نتيجة تجلي الأسماء الحسنى، مثلما تجلت في القرآن وفي الإنسان، وما من شيء في الكون خلُق عبثاً، هذا ما يؤمن به أهل التصوف إيماناً عميقاً.

لذا فالتصوف يأخذ بيد العلوم الطبيعية في بحثها عن الحكمة الظاهرة لله سبحانه في هذا الكون، وهي ذلك التجلي؛ إذ تقف العلوم عاجزة، فلا تدرك تلك





الأسرار والحكم والمعاني، وهنا تلتقي مع التصوف الذي استطاع بالذكر والرياضة الروحية أن يوسع مداركه، ويطور معارفه القلبية، فيكمل المسيرة في التعرف على الحكمة، وإدراك أسرار التجلي.





«التصوف هو من أوجد الأدب التركي وطوره وارثى به»

نهاد سامي بانارلي



٣. التصوف والأدب

يتبادر إلى الذهن أن الأدب لصيق الصلة بالتصوف، وهذا حق، فالتصوف مجاله عالم القلب والروح والمشاعر، وهي الساحات نفسها التي يعمل فيها الأدب عمله، يصدر عنها، ويخاطبها، ويزدهر بها، ويؤثر فيها، أي إن كلاهما يؤثر في الآخر ويثر به، وهو ما حدث بالفعل مع الأدب التركي الذي ارتقى قممًا شائخة من الرقي الفني، وترسخت أقدامه في مجالات أعمق من الشعور الإنساني، وامتدت آفاقه وآثاره إلى الكثير من مجالات الفكر.

وقد تفاعل الأدب وتشكل وتطور مع ما تميزت به أساليب الحياة الصوفية، فمثلاً هناك ما يسمى «أدب التكايا»، الذي أنتج صوراً مميزة من الأنواع الأدبية، مثل الشعر الغنائي والشعر التعليمي، وأنواعاً أخرى بسيطة سلسة عكست القيم الصوفية، وعبرت عنها، وصارت قوالب لها توصلها في صورتها الراقية إلى جمهور عريض من المريدين، فكان منها نوع يُدعى «التوحيد» وهو الذي يبين معنى التوحيد، ويتناول ذات الله تعالى وصفاته وأسماءه، ونوع آخر يُدعى «المناجاة» وهو يشمل التوجه إلى الله تعالى ودعاءه ومناجاته وذكره تعالى بلهفة وشوق، ونوع ثالث يُدعى «النعت» وهو مختص بالمدائح النبوية، وذكر صفات النبي ﷺ وأخلاقه، وحبّه، والشوق له.





وكان لهذه الأنواع الأدبية دور كبير ومؤثر في دعم القيم الصوفية نشرًا وتقوية وتشجيعًا ومواساة، فهي تنشرها بين العامة والخاصة على نطاق أوسع، وتمس حبات القلوب بأدوات أوقع، وتعالج المشاعر الإنسانية بالعلاج الأنجع، وترتقي بها إلى درجات أرفع، وتجمع الناس على حالة شعورية جماعية من الأخوة والتكاتف والمحبة، وتضرب في ذلك الأمثلة الأروع، كل ذلك في أشكال من البلاغة والأدب المبدع.

وها هو ذا شعر «يونس أمره» ما زال يقدم للناس المواساة والطمأنينة منذ أن قاله مع كارثة الاجتياح المغولي قبل سبعة قرون.

وغيره من الأولياء ذوي الإنتاج الشعري والأدبي أمثال: الشيخ أحمد اليسوي، والولي حاجي بيرام، وأشرف أوغلو الرومي، وعزيز محمود هداي -رحمهم الله جميعًا-، فقد نقلوا التصوف ومعانيه وقيمه من الخاصة إلى العامة، وجعلوها متاحة للجميع، يفهمونها ويدركون معانيها، ويتفيؤون ظلها، ويلجؤون إليها.

ولا نُغفل هنا «أدب الديوان» ببحوره وأوزانه وعروضه، فقد أثره شعراء الصوفية بقصائد ودواوين خالدة، ما زالت نبغًا ثرا يحثيها الشعراء، ويتغنى بها المنشدون إلى يومنا هذا، إضافة إلى الأعمال الأدبية الثرية الأخرى.

كل نوع من هذه الأنواع الأدبية الصوفية يأخذك إلى عالم مختلف من المشاعر والأحاسيس:

- ففي «التوحيد» تأخذك الروح الجياشة إلى آفاق رحبية من معاني الأسماء والصفات، وتسمو بك إلى حالة من العشق الإلهي المتماهي في ذاته سبحانه، وتلك هي قصائد التوحيد التي كتبها المتصوفة تحلق بك في فضاء إيماني شاسع وبعيد، تنال فيه فيوضات لم تدركها من قبل.

- وفي قصائد «النعت» تحيا معاني الوله والعشق للرسول النبي ﷺ، والاشتياق إلى رؤيته والتغني بسيرته وسنته، فتبدو هذه القصائد وكأنها لوحات رائعة نُقِشت





على جدران الأفئدة، وها هو الشاعر «فضولي» في إحدى قصائد النعت، وهي «قصيدة الماء» يقول معبراً عن الاشتياق للحبيب النبي ﷺ:

يقضي الماء عمره كي يصل إلى غبار قدميه
جارياً بلا هدف من صخرة إلى أخرى سعياً إليه

وهناك مجموعة من الشعراء مثل:

مولانا جلال الدين الرومي، وفضولي، ونائيلي، ونابي، ونحيفي، والشيخ غالب، وشعراء عظماء آخرون كتبوا مؤلفات نبعت من قلب يهيم بالنشوة الصوفية. ومع اقتران الأدب الراقي بالمشاعر الصوفية السامية، ومشاعرها العميقة أنتج لنا التقاء هذين العملاقين محتوىً ضخماً في ثرائه وعمقه، ينهل منه القاصي والداني، ويشبع رغبات الجميع على اختلاف الأذواق والأمزجة والأفهام والمشاعر.

وقد أوضح نهاد سامي بانارلي المختص في تاريخ الأدب هذه الحقيقة بقوله:

«التصوف هو من أوجد الأدب التركي وطوره وارتقى به».

ولعلَّ الشاعر «نديم» المعروف بميوله الدنيوية قد كسب شهرته حين برع في أدب «النعت»، وكذلك الشاعر «توفيق فكرت» العلماني اشتهر في الساحة الأدبية بعد أن كتب أشعاراً في أدب «التوحيد».

وهذه هي نتيجة مباشرة لهذا التطور والرقى الذي ارتقى بالأدب التركي إلى العالمية.

لم لا، وقد جاء الحديث النبوي مؤيداً للأدب والشعر، داعماً لتوجه الشعراء والأدباء في توجيه الناس والدفاع عن الدين، وإلهاب حماس المقاتلين والمجاهدين.

فعن أم المؤمنين عائشة ؓ، قالت:

كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ - أو قالت: ينافح عن رسول الله - ويقول رسول الله ﷺ:





«إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر، أو ينافح عن رسول الله»^{١٢٩}
إن وقوف جبريل عليه السلام مع الشاعر حسان عليه السلام في هذا الموضع يُبين أن الحق تعالى
يُلهم الشاعر الذي يسير في طريق الله تعالى ويؤيده بتأييده.





إن الفنون التي امتزجت مشاربها بينابيع التصوف،
واستمدت مشاعرها من رقة قلوب المتصوفة، أبدعت أعمالاً
فنية راقية كانت أدلة شاهدة على رقي الحضارة الإسلامية.



٤ . التصوف والفنون الجميلة

الفن هو انعكاس المشاعر الإنسانية على الأشياء المادية، وتشخيص هذه المشاعر
والمعنويات في صورة ملموسة تدركها الحواس سمعاً وبصراً، ومهما اختلفت
وتنوعت هذه الفنون فهي في الأساس نابعة من روح الإنسان المبدع، وكلما رقت
هذه المشاعر وتعمقت وسمّت، انعكست على رقي تلك الفنون وتأثيرها.

إن الفنون التي امتزجت مشاربها بينابيع التصوف، واستمدت مشاعرها من
رقة قلوب المتصوفة، أبدعت أعمالاً فنية راقية كانت أدلة شاهدة على رقي الحضارة
الإسلامية.

ويقدم لنا التاريخ الأدلة الدامغة والكثيرة على ذلك، فالشعوب التي بنت
الحضارات الإنسانية المتنوعة، لم تبنيها فقط في عالم السياسة أو الاقتصاد أو القوة
العسكرية، إنما الحضارات ذات الأثر الأبقى عبر الدهور شاخصة ماثلة للأعين؛
هي الحضارات ذات المعالم الفنية.

ولا يتسع المجال هنا لعرض تفصيلي للنماذج الصوفية التي تجلت في فنون
الحضارات، ولكننا سوف نعرض هنا باختصار لنماذج من الفنون التي تأثرت
بالتصوف، وهي: الموسيقى، والعمارة، والخط.





أ. التصوف والموسيقى:

الإسلام دين الفطرة، وهو يدعم من هذه الفطرة ما يرتقي بالإنسان إلى السمو الروحي، والموسيقى شأنها شأن المزايا الطبيعية الممنوحة للإنسان، لا يمكن للإسلام أن يرفضها كلها، ولا أن يقبلها كلها، إنما ينتقي منها ما يناسب فطرته، ويرتقي بمشاعره، وتصبح بالفعل فنوناً إبداعية تخدم الروح وتسمو بها، ولا تهوي بالنفس إلى منازل الشهوات.

والتصوف استخدم الموسيقى في هذا المضمار الذي يسمو بالروح، ويغذي النفس، وفي الإطار الذي يقع داخل حدود الآداب الإسلامية، وإلا رفضها. والطرب الذي في الموسيقى يوظف لإطراب الروح ودعم حالة الوجد التي تسعى إليها، سواء كان ذلك مصاحباً لقصائد المدح أم المنظومات الشعرية الصوفية الأخرى، التي تحمل قيم التصوف وآدابه ومعانيه، وتزيد من رغبة المستمع في الإقبال على العبادة والطاعة والذكر لله تعالى، وهي تمنح القلب مشاعر وفيوضات إذا هي وُجدت في ظروف وأحوال خاصة، يراعى فيها المكان والزمان والأنغام والحال؛ كل ذلك يضفي على الحال جواً من الروحانية الخاصة التي يستغلها أرباب التربية الصوفية في الوصول بالمستمع إلى حالة شعورية صوفية تجعله مقبلاً على طاعة، مدبراً عن معصية، متلقياً لمعانٍ وقيم، متخلياً عن أفعال وأفكار، في حالة من الوجد تسمو بروحه إلى عالم أرحب بعيد عن دنيا الشهوات، محلّقاً في آفاق الذكر والتفكير حتى يبلغ ذرى الأجواء الإيمانية.

وقد استخدم المتصوفة الموسيقى ذلك الاستخدام على مدار قرون، مع الوسائط الأخرى حتى ظهر على الساحة الفنية نوع جديد خاص يُسمى «الموسيقى الصوفية». وثمة خلاف دائر بين القوم في استخدام الموسيقى وسيلةً للتربية، ما بين مؤيد لاستخدام الآلات الوترية ومعارض، وما بين رافض لآلات الضرب وموافق، مستندين إلى الآراء الفقهية وما ورد في السنة النبوية من أدلة وشواهد.





وبعيداً عن الدخول في جدل فقهي وتربوي حول تفاصيل الجواز والمنع في الموسيقى وأنواعها وآلاتها، نقول إن الصوت الجميل الندي تميل إليه الآذان، وتنجذب إليه القلوب، وذلك طبعاً ضمن الالتزام بالآداب الإسلامية والحدود الشرعية، ولا ينكر أحد أن الاستماع لأذان الصلاة من صوت خاشع جميل يجعل الإقبال أشد على صلاة الجماعة في مسجد ما دون غيره، وفي إشارة إلى معاني الجذب المعنوي بالصوت الرخيم اختار النبي ﷺ مؤذنه بلال بن رباح ليرفع النداء لأشرف أعمال الإسلام؛ الصلاة، رغم أن صاحبي الاقتراح -عبر الرؤيا الصادقة- كانا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وظل بلال رضي الله عنه صاحب الصوت الرائع مؤذناً للرسول النبي طوال حياته الكريمة.

ومن جهة أخرى؛ لا بد لنا من الاعتراف بأن الموسيقى - كوسيط - يمكن استغلالها استغلالاً سيئاً في الشر، فتصبح مزمراً للشيطان، ودعوة للمعصية وإثارة شهوات النفس، لاسيما في زماننا هذا.

وإليك القول الفصل في هذه المسألة:

يقول الشيخ مسافر الخوارزمي وهو أحد مُريدي الشيخ بهاء الدين نقشبند -رحمه الله-:

حين دخلت في خدمة سيدنا بهاء الدين كنت مولعاً بالسماع، وفي يوم من الأيام تحدثنا مع جماعة من الإخوان، واتفقنا على أن نُحضر المزامير والدفوف والناي، ثم نؤدي السماع في مجلس سيدنا بهاء الدين لنرى ما رأيه في هذا الموضوع، وجلبنا مجموعة من المنشدين ذوي الصوت الجميل الذي يُلطّف القلوب، فلم يمنعنا سيدنا من ذلك لكنه قال في النهاية:

«إننا لا نفعل هذا، ولكن لا ننكره أيضاً»^{١٣٠}

١٣٠ مولانا علي بن حسين الصفي، رشحات، إسطنبول ٢٠١٠، ص ١٣٩.





يشير كلام الشيخ نقشبند -رحمه الله- هنا إلى ضرورة أخذ الحيلة في هذا المجال لأن ذلك قد يتحول إلى آفة نفسية، لذلك علينا أن ندرك أن الاحتياط في هذا الموضوع مهم جداً، لأن الناس في أيامنا هذه لا يحافظون على التوازن والاعتدال، ويرون أن الأمر كله هو عبارة عن موسيقى فيغرقون فيها، ويتعدون شيئاً فشيئاً عن جوهر التصوف.

ب. التصوف والعمارة:

رغم أن العمارة تعتمد على الهندسة والحساب والحجر والخشب، إلا أنها من أرقى الفنون الجميلة، فهي تحول هذه العلوم الرياضية والمواد الصماء إلى أرقى أنواع الفن وأسمى آيات الجمال حين تمزج علوم الرياضيات والهندسة بالمشاعر القلبية، والمواد الخشبية والحجرية بالذوق الرفيع، فتصير المعاني مجسدة في مباني.

لذا كان للعمارة قيمة كبيرة لدى أهل التصوف، وإذا ضربنا على ذلك مثلاً حياً بواحد من أشهر مساجد العالم الإسلامي، وهو مسجد وكنية السلمانية -في إسطنبول- وحللنا خصائصه المعمارية في إطار المفاهيم الصوفية، يمكن بكل وضوح رؤية انعكاس روح الإسلام فيه، والتمازج الروحاني الباهر بصورة تأخذ الألباب، وبعض الرموز الصوفية التي وُضعت بأسلوب ماهر في هذا المكان، فالقبة المركزية والقبب الصغيرة حولها صممت تصميمًا في غاية الإتقان، ويتدرج المسجد في العلو بدءاً من أرضيته لتصل في النهاية إلى القبة المركزية التي ترمز للوحدة الإلهية «الوحدانية»، أما القباب النصف دائرية والقبب الصغيرة الأخرى المنسجمة مع القبة المركزية فهي تُبرز سرَّ أصل من أصول التصوف وهو: «في الوحدة كثرة، وفي الكثرة وحدة».

إن مسجد السلمانية في الحقيقة يجسّد لطافة مفهوم الروحانية بصورة غاية في الجمال، حيث إنه يرمز إلى الانتقال من التفرعات الكثيرة إلى «الوحدة» الإلهية، ثم العودة من تلك «الوحدة» إلى التفرعات (الكثيرة) مرة أخرى.





وترمز القبة الكبيرة في هذا المسجد إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فالقبة التي تعكس تلاوة القرآن الكريم في المسجد الشريف والأدعية فيها على المؤمنين هناك، تُمثِّل رسول الله ﷺ الذي تلقَّى الأوامر من المولى ﷺ وبلغها لأُمَّته.

أما المنارات السامقة فتبدو وكأنها أيادٍ للمسجد الشريف ترتفع إلى السماء داعيةً الله ﷻ ومبتهلةً إليه.

ويبرز في المسجد المركزي تأثير الجو الداخلي على حالة الإنسان الروحانية، ويزور هذا المسجد التاريخي الكثيرون من أديان مختلفة، ويشهدون بتأثرهم بالجو الروحاني الذي يستشعرونه هناك، وتتلقاه أرواحهم في جو من الطمأنينة والسكينة.

وتشير الروايات إلى أن هذا المسجد العظيم -ومساجد أخرى مشابهة- قد بُنيت بناءً على أمرٍ أُخذ في عالم الرؤيا من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد تم تشييد هذه الصروح من ناحية العمارة بنيةً بقائها قائمة إلى يوم القيامة على هيئة متينة ومحكمة قدر الإمكان.

لقد التقى في هذا المسجد الفريد الجهد العظيم مع العبقرية والدقة، ومُزجت فيه السكينة والأصالة بصورة كاملة، فكانت النتيجة لوحةً إبداعية في قمة التناغم والانسجام.

هذا بالنسبة للمساجد، ولكن للتصوف أيضًا دور وبنيات أخرى متعددة، فهناك الزوايا والتكايا والرباطات والخانقاوات، وهي وحدات معمارية مميزة تعطي للمدن الإسلامية مذاقًا خاصًا، ومعنى مميزًا، وهي في انتشارها وكثرة أعدادها -على تنوع مساحاتها- تستشعر فيها الكثير من قيم التصوف، التواضع والبساطة، وإنكار الذات والشعور بالفناء، والبعد عن التكلف والفخامة والرفاهية الممقوتة، فهي مصممة فقط لأداء العبادات والنسك على المنهاج الصوفي، وأركانها وجدرانها مشبعة بتلك القيم التي تعكس معانيها الروحية على أشكالها المعنوية.





ت. التصوف وفن الخط:

وفن الخط الذي نعينه هنا هو فن كتابة القرآن الكريم على أجمل صورة وفقاً لمعايير الجمال، وقد ظهر هذا الفن نتيجة الرغبة في التعبير عن الجمال الشكلي للحروف القرآنية كنوع من التعبير عن سمو جمال القرآن العظيم.

هذا الفن لقي الاهتمام الأكبر في الوسط الصوفي، إذ لعبت الخانقاوات والتكايا دوراً شديداً الأهمية في رعاية هذا الفن وتطوره واستمراره، حيث كانت دور المتصوفة هي المكان الذي يتعلم فيه الفنانون هذا الفن، ثم يلقنونه لطلابهم.

وقد ساعد الجو الروحاني المهيأ في هذه الدور على الإبداع في هذا الفن؛ إذ هو عمل شاق يحتاج إلى صبر وجهد كبيرين للوصول إلى درجة متميزة من الإتقان في الخطوط والنقوش والزخارف، وبقيّة العناصر التابعة للخط، كما أن الاستسلام للمعلم القدوة في إبداع ذلك النوع يحتاج إلى ثقة، وإلى أناس من أهل التقوى، يكتبون كلام الله تعالى، وهو أشرف الكلام.

وهل يمكننا تخيل رجل حاد المزاج سيء الأخلاق يوكل إليه أن يكتب شيئاً في حالته تلك، ستخرج حروفه حينها حادة كمزاجه، سيئة كأخلاقه.

لذا؛ فالتصوف هو الضمانة التي تهذب أخلاق مبدعي فن الخط وأمزجتهم وأحوالهم، ويهيئ لهم الجو المناسب لكتابة كلمات الله سبحانه، في تقوى قبل الجمال، وفي ورع قبل التزيين، وفي محبة قبل النقوش، وفي مشاعر وجدانية تلف العملية الإبداعية في رسم المصحف من أولها إلى آخرها.

والحق أن تقوية الروح هي قاعدة لتنشئة العباقرة الكبار في هذا الفن -وفي غيره من الفنون- في كل وقت، وقد ترعرع أساتذة فن الخط الذين هم قدوة في هذا الفن، مثل الشيخ حمد الله، وقره حصاري، ويساري زاده، ومصطفى راقم، والكثير منهم، ووصلوا عبر التربية الروحية في ظل التصوف إلى النضج والإتقان.





وها هو واحد من أولئك الفنانين في مجال الخط، ومن المتشربين لأخلاق التصوف، يمزجون التضحية بالعمل، والفن بالتقوى، إنه الخطاط «قره حصارى» الذي قام بكتابة الآيات القرآنية في قبة مسجد السليمانية، فقام هذا الفنان الصوفي بجهد متميز في عمله ذاك، حتى فقد بصره مع آخر حروف أبدعها.

وعندما أرادوا افتتاح المسجد بعد إتمام الأعمال فيه، قال السلطان سليمان القانوني معرباً عن امتنانه وإعجابه بالعمل الفني الفذ للمعماري الأشهر سنان: «إنه لشرف عظيم للمعماري سنان أن يبدع هذا المسجد الرائع وينشئه على هذه الصورة المبهرة».

فماذا كان رد المعماري سنان على السلطان، ذلك المعماري الصوفي الذي تعلم القيم الإسلامية الصوفية قبل الفن، وأبدع فيها قبل أن يبدع في العمارة، فكان إنكار الذات والتواضع وإسناد الحق لأهله هو المسيطر على مشاعر يمكن أن يملأها العُجب والغرور.

لقد رد على السلطان في أدب جم؛ قائلاً:

«سلطاننا العظيم، إن الخطاط قره حصارى هو الأحق بهذا التكريم؛ لقد قدّم عينيه فداءً لهذا العمل الرائع، فهلاًّ منحتموه شرف افتتاح هذا المسجد؟».

فما كان من السلطان إلا أن أمر بأن يقوم قره حصارى بافتتاح هذا المسجد العظيم وسط دموع الإعجاب والانبهار من الحاضرين، دموع الانبهار بالإبداع الفني والخلق الصوفي.

ويعود الفضل في تطور فن الخط واستمراريته إلى قواعده الصوفية ومراعاته للمعايير المعنوية، ومن هذا المنطلق كان الإقبال الكبير على كتابة المصحف الشريف والحلية الشريفة، حيث إنه لم يكن باستطاعة كل خطاط أن يكتب القرآن الكريم والحلية الشريفة إلا إذا وصل إلى ذروة فن الخط، وصار ذلك عرفاً متبعاً بين الناس،





وهكذا بدت هذه المؤلفات القيّمة، بجاذبيتها المدهشة التي تلاطف الأرواح والأفئدة، وسيلةً تحثُّ الناس على اتباع أمر الله تعالى الذي يقول: «اقرأ».

وقد تعلّم الطلبة هذا الفن بلا مقابل على مدى القرون، لأنه فن يخدم القرآن الكريم بإخلاص، ولم يكن فناً مشوباً بالمنفعة المادية، لذلك عرف كل خطاط زكاة هذا الفن بتعليم غيره.

وخلاصة القول في علاقة التصوف بالفنون أن المؤمن الذي يضع نصب عينيه الحديث الشريف: «إن الله جميل يحب الجمال»^{١٣١}، ويدرك معناه، هو الذي يعرف قيمة هذه الفنون، ويدرك ما وراءها من المعاني الروحانية والقيم الإسلامية والمشاعر الصوفية.

فصناعة الجمال تعبر عن الجمال الداخلي للفنان، وعن طهره القلبي وصفائه الروحي، بعد أن يتخلص من دواعي الغرور والإعجاب بالنفس، ويدرك أنه ينقل بفنّه صورة من صور إبداع الخالق في كونه، وهو ما يتطلب تربية صوفية عميقة تفجر ينباع الإبداع في مشاعر هذا الفنان.





إن لم تملك مفاتيح عالم الحقيقة الأبدية، وهي حياة قلبك
ومشاعر روحك، فلن يستطيع مفتاح العقل وحده أن يلج
بك إلى ذلك العالم الممتلئ.



٥. التصوف والفلسفة:

إذا أردنا تعريف الفلسفة بعيداً عن أصلها اللغوي الذي يعتريه لغط كبير، فإن معناها الاصطلاحي أو المتعارف عليه هو ذلك العلم الذي يسعى إلى وضع أحكام عامة للعلوم كلها، وقواعد كلية للعقل يتوخاها في بحثه عن الحقيقة عبر كل العلوم البشرية الظاهرية.

وعليه فإن الفلسفة هي أم العلوم، محرابها العقل، وديدها القوانين الطبيعية، ورغم سعيها إلى الحكمة عبر محاولة تفسير الأحداث والعلوم، فإن قصورها ناتج من اعتمادها على العقل وحده، والمبالغة في ذلك أحياناً إلى درجة تصل به إلى القداسة. فإذا رجعنا إلى قيمة العقل ومكانته في الإسلام وجدناه أحد الشروط الأساسية للفرائض والعقائد والعبادات، وهو مناط التكليف؛ إلا أنه ليس المنهاج الأوحد للوصول إلى الحق والحقيقة، بل صنوه الذي لا يفارقه هو «النص»، أو «النقل».

وهو ما يدفعنا إلى القول بقصور العقل منفرداً عن الإحاطة بحكمة «الشارع»، وإدراك حقيقة «الخلق» و«الخالق» سبحانه.

فما السبيل إذاً إلى مواصلة البحث فيما وراء الطبيعة، والكشف عن الحقائق الميتافيزيقية واستكناه علومها؟

هنا يأتي دور التصوف؛ حيث يوظف الإمكانيات كلها: العقل، والنقل، والقلب، والكشف، ثم هو يتخطى إلى أفق أرحب، فيربي العقل تربية روحية تمنحه إمكانيات أعلى في الاستيعاب والإدراك، وكذلك تضبط حركة «الكشف والإلهام»





بضوابط «النقل» فلا تقبل قدسية العقل، ولا تقبل أيضًا شطحات الكشف؛ إنها تصهر إمكانات الجميع في بوتقة واحدة تكون نتيجتها مقبولة من الجميع، فكرًا وعقلًا ونقلًا وقلبًا، يقبلها النقل والعقل، ويتقبلها الناس على اختلاف مستويات مداركهم ومشاربهم. أما إذا كان «الفتح» أوسع وأعمق، والكشف أكثر لطفًا ودقةً من أن تدركه العقول، أو تحتمله النصوص ظاهريًا، فثمة قانون صوفي مؤداه أن ما يكشفه الصوفي بقلبه وروحه لا يُجَبَّر غيْرُه على التصديق به؛ هذا القانون يقول:

«الكشف دليل لأهل الكشف لا لغيرهم».

لكن المحير في الأمر أن الرغبة الجارحة في الوصول إلى الحقيقة، وفي كشف الغموض، وحب الاستطلاع هي رغبات فطرية مركوزة في الجِلَّة الإنسانية، وربما كانت هذه الرغبة هي الدافع لحيرة الفلاسفة وتعدد المناهج والمدارس الفلسفية، وربما السبب الآخر في قصور هذه الفلسفات والتيارات الفكرية كلها هو اعتمادها فقط على العقل؛ ذلك العقل الذي يبذل أقصى طاقاته، ويستنفذها في حل مشكلات الفلسفة، والإجابة عن تساؤلاتها الأزلية، لكنه في النهاية يعلن عجزه واستسلامه، ومن ثم يأتي فيلسوف جديد بمنهج جديد وفلسفة جديدة، لا تستطيع هي الأخرى أن تجد الإجابات المطلوبة، لكنها تستطيع فقط أن تنقد وتنقض الإجابات السابقة التي اقترحتها الفلسفات السابقة.

كل ذلك التيه الذي يعيشه الإنسان في فلسفته كان سببه عدم إيمانه، فلا دين يمنحه الحقائق الكبرى، ولا إيمان يهدي قلبه وفكره، ولا تقوى تهدد روحه، وتطفئ ظمأها للحقيقة، إنها الموجود فقط عقل، وعقل بلا هدى.

فالعقل وحده غير كاف على الإطلاق، وهو سلاح ذو حدين، قد يقتلك أو يقتل عدوك، هذا العقل يمكنه أن يقودك إلى الخير والبر والصلاح، فترتقي درجات الكمال الإنساني إلى مرتبة {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، وقد يسوقك العقل إلى الغواية والبلايا والرزايا، فتتهوى في دركات البهيمية إلى حضيض {بَلْ هُمْ أَضَلُّ}.





ولا ينكر أحد عبقرية جنكيز خان أو ذكاء هولوكو، ورغم ذلك لم يحجزهما عقلهما عن ارتكاب أشنع الجرائم التي ما زالت وصمة عار في جبين الإنسانية، ومع ذلك لم يندى لهم جبين خجلاً مما فعلوه، ولا رف لهم جفن من تأنيب الضمير.

إذاً، فالعقل لا بد له من هدى، وليس يهدي العقل سوى خالقه سبحانه، فإذا ما انضبط العقل بضوابط الشرع، والنص، والنقل، وتربى على منهاج الله تعالى قرأنا وسنة، وتربية صوفية، كان في ذلك خلاصه من تيه الفلسفة وحيرتها.

ولو كانت العقول العظيمة لها القدرة وحدها على تدبير أمر البشرية لاستطاع الفلاسفة أن يوجدوا «المدينة الفاضلة» ولا استطاعوا أن يدلوا الناس على طريق السعادة، أو لأغنوا عن إرسال الأنبياء لهداية البشرية، ولما احتاج الناس إلى «هدى» من السماء ينزل به الوحي.

وقد لاحظ بعض الفلاسفة هذه الحقيقة، واعترفوا بعجز العقل، لذلك بدؤوا بالبحث عن وسائل أخرى يستخدمونها في بحثهم عن الحقيقة، ومن هؤلاء الفلاسفة الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩-١٩٤١) الذي قيل «الحدس» وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقيقة، وكلمة «الحدس» هذه كان أهل الكشف يستخدمونها في الماضي لنشاطاتهم القلبية، وكانت تسمى «السوانح القلبية».

ويقول برغسون أنه من الخطأ واللامنطقي رفض الحقائق الميتافيزيقية التي يتلقاها المتدينون حين يصلون إلى مرتبة معنوية محددة بعد تطهير القلب وعبر الرياضات الروحية (الذكر الصوفي وغيره)، لأن هذه الحقائق لا تخضع للتحليل التجريبي مثل الحقائق الفيزيائية، وأوضح أن الحقائق المجردة مثل تلك الموجودة في التجارب الصوفية لا يمكن أن تكون موضوعاً في تجارب المختبرات، وهذا يظهر أن جزءاً صغيراً من الفلسفة يلائم الفكر الديني، وبالتالي فهو يلائم التصوف.

أما البقية من الفلاسفة فما زال العقل محرابهم، وما زالوا يتخبطون في ذلك القفص الحديدي الضيق الذي حبسوا فكرهم فيه، ولم يفتحوا له آفاق الروح والقلب والمشاعر والدين، فصاروا في غيهم يترددون ويناقضون.





وعلى النقيض تمامًا نرى العقل الذي غذاه الوحي، وهده أنبياء الله الذين كانوا جميعاً ينهلون من معين واحد، ويصدرون عن أمر واحد^{١٣٢}، ويدينون بدين واحد، ويؤمنون برب واحد.

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله:

«ثم إنني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيغ منه، علمت أن ذلك أيضاً غير وافٍ بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات»^{١٣٣}

ويوضح نجيب فاضل قيساكوراك موقف الإمام الغزالي بين العقل والمعرفة في أحد مؤلفاته قائلاً: «إن المفكر الكبير المعروف بـ (حجة الإسلام)... كان مما قاله في المرحلة التي ترك فيها أمور الإدراك العلمية والفكرية كلها، وتوجه إلى المعرفة الحقيقية: وجدت أن كل شيء هو عبارة عن اللجوء إلى روحانية نبي الأنبياء، وسائر ما تبقى ما هو إلا كذب ودجل، ووهم وخيال!... أما العقل فهو لا شيء... مجرد حدود! وهذا الرأس العبقري العظيم الذي لم ير العالم مثله قد تراجع عن تساؤلاته كلها، والتجأ إلى روحانية نبي الأنبياء، ووصل إلى اللاحدود»^{١٣٤}

ذلك هو العقل العاجز المحدود، وهذا هو التصوف بعالمه الرحيب اللانهائي، فإذا لم تكن تملك مفاتيح عالم الحقيقة الأبدية، وهي حياة قلبك ومشاعر روحك، فلن يستطيع مفتاح العقل وحده أن يلج بك إلى ذلك العالم المشدود.

١٣٢ في ذلك يقول الحق ﷻ: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (الشورى، ١٣).

١٣٣ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ٢٨.

١٣٤ نجيب فاضل قيساكوراك، من جيش الأولياء، ص ٢١٣.





ليس العلم المشاهدة بل إدراك الحكمة وحل الأسرار.



خ. العلم النافع:

ثمة فروق جوهرية بين مصطلحات ثلاثة قد تتقارب حروفها ومعانيها: العالم، والعارف، والعرفان.

فالعالم هو كل صاحب علم ظاهري، أو رجل يحمل «العلوم الكتابية»، أما العارف فهو شخص ذو علم وحكمة وإطلاع على الأسرار الكامنة وراء العلم بتجلياته الإلهية.

بينما العرفان هو تلك الحالة أو الدرجة التي يصل إليها العارف بعلمه وتقواه، بعقله وقلبه، حين تكون العلوم كالبدور التي تحمل الخير والبركة والنماء، وتوضع في التربة الصالحة، وتتفاعل مع البيئة الصالحة، فتتمو وتكبر، وتتكاثر وتنتج، ويعم خيرها، فكما أن هذه الحبوب لا تخرج أسرارها المودعة فيها إلا حينما تتفاعل مع الكون، كذلك العلم.

والعلم نافع بطبعه، مفيد لأهله وللناس شريطة أن يستخدم بالأسلوب الصحيح، والطريقة المثلى في استخدام العلم هي أن يتجذّر هذا العلم في أعماق روحك وقلبك، كما تفعل البذور في التربة؛ حينها يحصل النفع بالعلم في الدنيا والآخرة، ويستطيع الإنسان أن يوجه الطاقة الخيرية في «العلم النافع» لسعادة البشرية.





ومن المعاني الدقيقة لتفادي الخلل البشري في استخدام العلم وتوجيهه ما قاله العلامة «ماهر عز» رحمته الله عندما ذكر أن الإرشاد المعنوي هو الذي يمكن من خلاله تجنب الزلل في تحصيل العلم بالعقل وحده دون القلب؛ يقول:

«إني موقن بأن المعرفة الحقة لن تصل إليها إلا من خلال أهلها تعليمًا، وإرشادًا، وتربيةً، وتوجيهًا، مع سعيك الدؤوب في التحصيل وجمع كل شاردة وواردة تستطيع الحصول عليها؛ لذا فإنني بمجرد أن تلقيت إشارة قلبية من تجليات الشيخ رمضان أوغلو للعروج إلى سماء المعرفة، فقد ربطت إرادتي به، وأسلمت قيادي له»^{١٣٥}.

ودرجة «المعرفة» التي يصل إليها كبار المتصوفة، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا بالرياضات الروحانية والتربية المعنوية، هي التي تنتقل بمدارك الإنسان إلى آفاق أرحب مما يدركه العلم الظاهري، وتنجو بروحه أيضًا من ذلك الغرور والكبر مهما بلغ علمه، لأنه حينها يدرك مدى عجزه، وهو غارق بفكره في هذا العالم اللانهائي من الدهشة بالحقائق والمعارف بالغة التعقيد، حينها يدرك أن الحواس والمشاهدة الظاهرة لا يمكن وحدها أن تحصل على المعرفة؛ بل بإدراك الحكمة والأسرار وراء العلوم والمخلوقات، فالعلم الحقيقي هو أن ندرك حل لغز هذا النظام الكوني الكبير، وما وراءه من الأسرار الإلهية الكبرى.

وهناك حكاية ذات مغزى ومدلول جوهري، يرويها لنا مولانا جلال الدين الرومي، يوضح بها أهمية «العلم النافع»، والمعرفة الحقة المنجية يوم الدين والموصلة للسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والتي من دونها يكون عمر الإنسان وعلمه وسعيه هباءً منثورًا، تقول الحكاية:

كان أحد علماء النحو يركب ذات يوم سفينة، وأثناء سفرها في عرض البحر كان العالم المغرور بعلمه يجالس صاحب السفينة، ويسأله بين الحين والآخر أسئلة معجزة ما كان لدى صاحب السفينة من جواب سوى كلمة (لا أدري)، بينما العالم





النحوي تزيده هذه الإجابة نشوة بعلمه، واستهزاءً بصاحب السفينة، وحينها قال النحوي للرجل: يا للأسف!! لقد أضعت نصف عمرك بلا طائل بسبب جهلك.

جرحت تلك الكلمات الغليظة مشاعر صاحب السفينة، لكنه إن فقد العلم فلم يفقد الأخلاق، وإن كُسِر قلبه بهذا التحقير فلم تُكسِر روحه بالنزول إلى درك رد السفاهة؛ بل صمت، ولم يرد على كلمات وسلوكيات هذا المعتر بعلمه.

ثم هبَّت عاصفة هيجت الأمواج، وتلاعبت بالسفينة، وأدخلتها في دوامة الغرق، وجعلت الجميع يوقنون بالهلاك، وهنا ذهب صاحب السفينة ليطمئن على العالم النحوي، فسأله: يا سيدي، هل تعرف السباحة؟

وهنا تلثم النحوي الخائف الجاهل بالسباحة، وقال: لا، لا أعرف.

وكان الرد الحكيم من صاحب السفينة:

«يا أستاذنا، إذا كان نصف عمري قد ضاع جهلاً لأنني لم أتعلم النحو، فإن عمرك كله سيضيع الآن مع هذه السفينة في تلك الدوامة لأنك لم تتعلم السباحة، أما كنت تدري أيها النحوي أن علم السباحة هو أهم وأنفع من علم النحو في هذا البحر؟».

والنحو هنا رمز للعلم الظاهري العقلي الدنيوي، أما السباحة فهي رمز للعلم الباطني القلبي المنقذ، الذي يلييك حينما تستدعيه، ويحييك عندما تناديه، وينقذك عندما تحتاج إليه في الدنيا والآخرة، علم ينفع روحك وبدنك، ويوصلك إلى رضا الله تعالى عبر العمل الصالح والإيمان الكامل.

وهذه السفينة المقبلة على الغرق هي نفسها الجسد الفاني المقبل على الموت بعد الدخول في دوامة الحياة ومعترك الأجل، وحينما تأتي الساعة الحاسمة تتخلى عنك حظوظ الدنيا التي اتخذتها زينة وتفاخرًا، ولا تنجيك علومك التي تعلمتها لتماري بها السفهاء، وتجاري بها العلماء، وتصرف بها وجوه الناس إليك، لا تنفعك هذه العلوم التي تعلمتها للناس، لا الله تعالى؛ بل حتى لم تتعلمها لنفسك، فتجيب عن





أسئلتك الحائرة، وتقدم لك الإجابات الشافية، وترتقي بك من درجة العالم إلى سماء درجة العارف، ولم تُخرجها من خزائن عقلك لتغرسها في أرض قلبك، فتثبت وتورق وتتفياً ظلها في كنف الله تعالى ورضاه.

فما سبيل النجاة بهذه العلوم؟

السبيل هو التوجه بهذه العلوم إلى الله تعالى، والتخلص من كل مراد سواه، ومن كل رجاء عداه، وجعل العلم وسيلة لنيل رضاه، فالمرء الذي يتفاخر بالعلم، والنفس التي تتباهى بالمعرفة، ستوضع في التراب بعد أن تغرق السفينة، ولن يبقى منك سوى «قلب سليم» يقبل على الله تعالى حاملاً علماً نافعاً، يستطيع وحده أن يمخر عباب المحيط، ناجياً من كل ريح عاتية أو موجة عالية، لا تثقله نفسه فتهوي به وبعلمه إلى القاع، ولا تغويه شهواته فتجره وتدور به في دوامة البحر، إنما هو علم يتجرد به لله وحده سبحانه، ولا يعطي منه شيئاً لنفسه ولا لشهوات نفسه، فهو يحارب هذه الشهوات من الغرور والكبر والرغبات حتى يقتلها، ليفوز بالحياة الأبدية الخالصة من الشهوات، المتخلصة من الرغبات، الصاعدة إلى أعلى الجنات، الناجية من كل الملمات.

وهذا هو معنى النصيحة الصوفية القائلة:

«موتوا قبل أن تموتوا». أي لمت منكم النفوس والشهوات، قبل أن تموت منكم الأبدان وتنكسر الأرواح.

والسبيل إلى ذلك هو ما قاله أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»^{١٣٦}

ليكون الإنسان دائم المراقبة لنفسه، شديد الحرص على كل تحركاتها وسكناتها، ممسكاً بكل قوة بلجامها، فلا تدفعه لشهوة، ولا تجره لرغبة، ولا توقعه في آفة.





ويروي لنا القاضي أبو بكر بن العربي الأندلسي هذا المشهد، فيقول:

رأيت الإمام الغزالي في البرية، وعليه مرقعة، وبيده عكاز وركوة، فقلت له: «يا إمام، أليس التدريس في بغداد أفضل من هذا؟» فنظر إليّ شزراً، وقال: «لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة، وجنحت شمس العقول إلى مغرب الوصول:

تركت هوى ليلي وسعدى بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلما لم أجد لغزلي نساجاً كسرتُ مغزلي.^{١٣٧}

هذا العالم الفذ بعد طول علم ومجاهدة أدرك الغاية، وعرف الحقيقة، ورأى بعين البصيرة، فعرف قيمة هذه الدنيا الحقيرة، وعلم أن ما كان فيه من العلم ليس علماً؛ بل العلم الحقيقي والأثر الأبقى والمنقذ الوحيد وطريق السعادة الأوحداً إنما هو العلم الذي يزيدك بالله معرفة، ويملاً قلبك إيماناً به وشوقاً إليه، فتؤدي العمل الصالح بروحك قبل جسدك.

والعلم الحق هو الذي يملك على أن تدرك ما عليك من مسؤوليات يوجبها عليك هذا العلم: المسؤولية العقلية والوجدانية والقلبية، حتى لا يفلت زمام العلم من يديك، ويصبح قوة جامحة لا يُعلم لها توجه، ولا يُدرك لها قرار، وينقلب نفعه ضرراً بالغاً، وكأنه قوة نووية في يد مخرب؛ وبدلاً من أن تنتج طاقة تدير عجلة الإنتاج تصير خطراً يدمر كل أخضر ويابس.

ولا تتحقق الاستفادة والنفع من العلوم، ولا يتم الانتقال من مرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق إلا بتوجيه العلوم من مجرد علم إلى «علم نافع»، متصل بالله تعالى، نابع من القلب، مفعم بالأخلاق.

١٣٧ ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت ١٤٠٦، ج٦، ٢٢؛ محمد بن سليمان البغدادي الخالدي، الحديقة الندية، ص ٢٦؛ محمد بن عبد الله الخاني، البهجة السنية، اسطنبول ٢٠٠٢، ص ٦.





وها هي العلوم المجردة من الأخلاق تهبط بأصحابها من السماء إلى الأرض، ومن نور الإيمان إلى نار الجاهلية، فعلم القانون حين يُسَلَّب صاحبه الأخلاق يصير جلاذاً قاسياً لا قاضياً عادلاً، وعلم الطب حين يُسَلَّب صاحبه الرحمة والرفقة يصير قصباً لا ملاك رحمة، وذلك راع يسوس أمور الناس بسياسته المحنكة، لكنه حين يُسَلَّب الرفق يشقُّ على قومه، وأصحاب العلم هؤلاء أشدَّ ضرراً من الجهلاء مسلوبي العقول.

ولكم هو جميل كلام يونس إمّره حين قال:

«تحصيل العلم له غاية، هي معرفة العبد خالقه في النهاية، إن قرأت ولم تعرف الباري، فجهدك إذا ضاع هباء».

فالعلم القلبي هو العلم النافع الذي يرتقي بأصحابه وبالدين كلها في الدرجات المادية والمعنوية.

ودعنا نتساءل عن النفع المادي من العلم الظاهري المجرد عن المعنويات إذا كان يلفه الكبر والغرور، ويقود أصحابه إلى درك الشرور، فأين نفع يُرجى منه مهما كان مادياً أو معنوياً، نفعه المعنوي انكسار للقلوب، كما فعل مع صاحب السفينة، ونفعه المادي دمار شامل كصاحب القنبلة النووية، لا نفع يُرجى منه مطلقاً.

لذا؛ فإن البيان النبوي الرشيد، والمنطق المصطفوي السديد، والعبقريّة المحمدية الفذة كان دعاؤها بالعلم النافع؛ إذ يقول رسول الله ﷺ.

«اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً»^{١٣٨}

وفي هذا السياق نجد أن غاية العلم النافع الذي يكون كنه علم التصوف هي تزيين العبد بالزهد والتقوى والإحسان، ومن كان علمه على هذا النحو، صار علمه عندها معرفة، وصار صاحبه عارفاً.





ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن العلماء الذين يقتصرون على الظاهر فقط يعلمون دقائق وتفاصيل الهندسة، والفلك، والطب، والفلسفة، كل حسب مجاله، لكن علمهم هذا ما هو إلا علم بهذه الحياة الفانية التي تُزال بطرفة عين، وهو علم لا يُري الإنسان طريق المعراج الذي يتجاوز السماء السابعة».

«ولا يمكن للغافلين الذين تحكمهم أنفسهم أن يعلموا الطريق إلى الله تعالى، ولا المنازل في هذا الطريق، ولا يمكن إلا للعارفين من أهل القلوب أن يعرفوا علوم الطريق إلى الله سبحانه، ليس بعقولهم بل بقلوبهم».

فإذا ما اختلط العلم بالقلب، ونضج فيه، أدرك حقيقة الوجود وسره الأعظم، وحكمته الإلهية، وكان في وصال مع الحق سبحانه. وتنعم صاحبه بالتجليات والفيوضات الربانية، وسرى نور العلم من أذنيه وعقله إلى قلبه وسلوكه وروحه، فتحول العلم من صورة إلى سيرة، ومن فضول إلى فضيلة، ومن أوراق إلى أخلاق، ومن سطور وزبور إلى نور.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿...وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^{١٣٩}

وهذه الزيادة هي التي ترفع من منزلة العبد في التقوى والخشية، فالله ﷻ يقول:

﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾^{١٤٠}

ويقول نبينا الكريم ﷺ:

«إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا»^{١٤١}

١٣٩ طه: ١١٤.

١٤٠ فاطر: ٢٨.

١٤١ البخاري، الإيمان، ١٣؛ الأدب، ٧٢.





وعن يزيد بن سلمة الجعفي رضي الله عنه قال، قال يزيد بن سلمة:
يا رسول الله، إني قد سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسيني أوله آخره،
فحدثني بكلمة تكون جماعاً، قال:

«اتقِ الله فيما تعلم»^{١٤٢}

وقد لخص النبي ﷺ بهذه الكلمات غاية العلم ووضح طريقه الأمثل.
ويخاطب الإمام الغزالي - رحمه الله - أولئك المشغولين بالعلوم الدنيوية المحضّة،
والذين يقضون عمرهم في «القليل والقال» متناسين ربهم ﷻ، قائلاً:
«يا بني، عارٌ عليك، إن لم يوصلك الكلام، والمنطق، والبلاغة، والشعر،
والصرف، والنحو، وما شابهها من العلوم إلى العرفان، ماذا جنيت في عمرك الذي
وهبك إياه الله ﷻ لكي تعبد فيه سوى أنك ضيّعته؟!».

إذاً، ما فائدة العلم الذي لا ينفع في إيصال العبد إلى الجنة، والنظر إلى جمال الله
تعالى، لا بل يوصله إلى الخسران؟ وهل من الممكن أن نطلق اسم علم على العلوم
التي تجعل من الإنسان شبيهاً بإبليس، وبلعم بن باعوراء، وقارون، وأولئك الذين
«أضلهم الله على علم»، فكان العلم سبب ضلالتهم وهلاكهم، فلم يملأهم العلم
نوراً؛ بل حشاهم غروراً، حتى تطاول المخلوق الحقير على الخالق العزيز سبحانه،
فأورثهم العلم جهلاً وحقاً وهلاكاً، ولم يعطهم نوراً وهداية.

ويقول علماء الإسلام في ذلك:

«العلم هو الإدراك، ودون الإدراك لا يتحقق العلم، ومنتهى الإدراك هو معرفة
الله ﷻ، وبهذا تكون معرفة الله تعالى جوهر العلوم كلها، وبدرجة الاقتراب من هذه
المعرفة تزداد قيمة هذه العلوم».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:





«الإنسان البارِع المتعلِّم إنسان جيد، لكن خذ العبرة مما حصل مع إبليس ولا تعطه قيمة كبيرة، لأن إبليس أيضاً كان لديه علم، فقد رأى خلق آدم من التراب، ورأى وجهه الخارجى، لكنه لم يرَ حقيقته».

«إن أكثر أهل الجنة هم أهل القلوب الصافية، والإيمان المحض، وكم أضلَّ العقلُ أهلَ العلم، وكم ضلَّتْ أفهامُ أهلِ العقل، وكم زلتْ أقدامُ الفلاسفة، فأنجُ بنفسك أيها الإنسان من هذا التيه، وتخلص من هذه الأرزاء، واحظَّ بتنزلات رحمت ربك في كل حين».

فالطريق إلى الحقيقة لا يكون بالعقل وحده، فالعقل سبيله تحليل ألغاز الكون، وكشف أسرار الخلق، وتتوقف مهمته وقدراته عند مجرد الكشف عن وجود هذه الأسرار، والوقوف على عتبة الاندهاش والتعجب، والاستسلام عند نقطة التسييح بقدرة الخالق سبحانه أما تجاوز هذه العتبات، والولوج إلى باب الأسرار، وكشف الأستار، فإنه بالإيمان والعشق.

فالعقل الذي تربي على منهاج الوحي الأمين بالقرآن والسنة، يوصلك إلى منتصف الطريق في الوصول إلى السر، ثم يأتي دور القلب ليكمل لك الطريق في كشف السر، وإدراك الحكمة من وراء الخلق.

وهذا العقل مجرد باب يمكنك فقط استخدامه لينفتح لك على عالم الحقائق والأسرار، لأنه مجرد درجة ترتقي بها في الدين إلى الدرجات الظاهرية الأولى.

أما الدخول إلى عالم الأسرار، والارتقاء في درجات الكمال، والوصول إلى «العرفان» فيكون بالعشق، كما قال مولانا جلال الدين الرومي في اجتياز هذه المراحل:

«اجعل العقل قرباناً أمام المصطفى ﷺ»

فعندما تنتهي طاقة العقل، لا تستطيع إكمال المسيرة وبلوغ الغاية إلا بطاقة القلب، بالمدد الإلهي عبر الفيوضات والوجد، لتصل إلى الله الحق.





وهذا هو طريق الأولياء، الذين عبروا بحر الوجود بالحب، واجتازوا إلى عالم الأسرار بالوجد، وتعالوا على دنيا الفناء والخراب بنشوة الإيمان، واحتضنتهم حالة الاستغراق والتفكير بنشوة العشق.

فأولياء الله تعالى هم الذين ورثوا مهمة الأنبياء واضطلعوا بأعباء مهمة الرسالة، وواصلوا طريق المرسلين في هداية البشرية، وتربية النفوس، وتركيز الأخلاق، وتلك هي الغاية الأساسية التي أرادوها، والتي وصلت بهم إلى ذروة عالم الروحانية.

وليست كل أحوال الأولياء كرامات، إنما هي علمٌ صار عرفاناً، وإيمانٌ ملأ القلب والروح فصار بصيرة ترى التجليات الإلهية في كل أرجاء الكون، عبر العشق الإلهي الذي تشربته خلايا قلوبهم.

ويرى أولياء الله تعالى هذا العالم في إطار تجليات القدرة الإلهية، وبالبصيرة التي كانت نتيجة العشق الإلهي، ويطلعون على أسرار وحقائق الإنسان والحياة والكون. فإذا انحرف العلم عن مساره، وضل عن طريقه، ولم يتخذ سبيله في ينبوعه القلبي؛ صار في القلب شوكة لا وردة، وفي العقل ضلالاً وليس هدى، ولم يبصر عجائب المخلوقات والآيات التي يزخر بها الكون.

إن طعم الحياة يصير أكثر لذة وأعظم متعة لمن يفهم لغة الرياح والجبال والأنهار، ويتعلم من فنون الزهور والأشجار والطيور وحتى الوحوش والكواسر، ويحس بالفن الإلهي المبثوث في كل أرجاء الدنيا، فمن لم يدرك ذلك كله، أو شيئاً منه، فهو علامة على فراغ القلب وانعدام نضجه.

ويوجه سعدى شيرازي القلوب إلى الحكمة، ويدعو إلى العلم النافع بقوله: «حتى أوراق الأشجار الخضراء هي ديوان للمعرفة في نظر الشخص الواعي، أفلا تبدي كل ذرة في هذا الوجود إبداع الفن الإلهي؟».

إنَّ الكون معرّضٌ للتجليات التي تفيض من ينبوع الأسماء الإلهية، والإنسان هذا السر الغامض، ما هو إلا تجلٍ كاملٌ للأسماء الإلهية، فمن يرد الوصول إلى الكمال





في الدنيا، عليه أن يكون صاحب قلب يحمل أحاسيس سامية، وقد كان الحسين بن منصور الحلاج حتى أثناء رحمة يبحث عن القلب الكامل.

وكلُّ ذرة في هذا الكون تنقل لنا سلامًا وخبرًا جديدًا من الأسماء الإلهية في كل لحظة من لحظات العمر، فإذا لم تكن الأمور كُلُّها، من ابتسامات الطفل الرضيع إلى خفقات جناحي الفراشة، ومن نغمت العندليب إلى ألوان الربيع وأريجيه، تجلياتٍ للأسماء الإلهية، فماذا ستكون إذا؟ وأعظم مظهر من مظاهر العلم النافع هو قراءة المرء كتاب الكون والمخلوقات بعيني قلبه، وإدراكه أن العالم ما هو إلا حكم وعبر وتجليات إلهية، إذ يقول المولى في كتابه الكريم:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِِينَ﴾^{١٤٣}

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^{١٤٤}

وتهدينا الآيات إلى أن المخلوقات في الكون هي معجزات، وأن وراء الموجودات حكمٌ وأسرار، وأن الخلق كان لعبرة وعظة، وأن ذلك الإبداع كله موصل إلى المبدع سبحانه، وهذه المخلوقات بعظمتها دليلٌ على عظمة الخالق سبحانه، وأنها كلها تجليات للعظمة الإلهية. هذه العظمة تلفت حتى الأنظار العمياء، وتحرك القلوب الجامدة، فالأزهار الرقيقة بألوانها المبهجة وأريجها الزكي تبعث السرور والمبهجة والبسمة في أشد الوجوه عبوسًا وأكثر القلوب غلظة.

وجسم الإنسان الذي هو جَماع لكل معجزات الخلق والكون، وأنموذج متفرد للدلالة على عظمة الخالق، عندما يقف أمامه الطبيب العالم، وينظر إليه من هذه الزاوية، زاوية الإبداع الإلهي، سيرى فيه كنزًا ضخمًا من كنوز الأسرار الربانية، عندها يدرك بالعلم النافع والنضج القلبي مقدار القدرة الإلهية، فينظر إلى مريضه بعين الشفقة والرحمة، لا بعين الكيمياء والعمل الروتيني.

١٤٣ الدخان: ٣٨.

١٤٤ المؤمنون: ١١٥.





فما بالنال بقلب المؤمن وروحه، وما بالنال بصاحب العلم الباطني، كيف يكون إدراكه لهذه العظمة. أما إذا لم يصل الإنسان إلى هذا الإدراك، ولم يبلغ ذاك الأفق، فقد سقط في هاوية من النقص والعجز لا يجبرها شيء من المناصب العلمية والدينية، فأى قيمة دنيوية يمكن قياسها بالنضح القلبي والكمال الأخلاقي.

ونفهم من كل ما سبق أن طريق العلم النافع يحتاج إلى التخلي والتخلي، التخلي عن خصال سلبية تصيب القلب والنفس مثل الرياء والتكبر والطمع والفخر وحب الرئاسة وغير ذلك....

والتخلي بملء القلب بالصفات الإيمانية التي تحيي الروح بالخلق المحمدي العظيم كالتقوى والخشوع والرحمة والصبر والشكر والتواضع والقناعة والزهد والورع والتوكل على الله تعالى.

ويبين الإمام الرباني المحيط الذي يزدهر فيه العلم النافع بقوله:

«أيها الإخوة المؤمنون، إن أول أمر ضروري لنا إنما هو تصحيح الاعتقاد بناءً على الكتاب والسنة، فأهل البدعة والضلالة يظنون أن عقائدهم وأحكامهم الباطلة توافق الكتاب والسنة، ولكن اعتقادهم في الواقع بعيد أشد البعد عن الحق والحقيقة».

وعليه؛ فإنه من الواجب معرفة أوامر الشرع ونواهيه، ومعرفة الأحكام الدينية ومراعاتها بدقة، والسير على خطى الحبيب المصطفى ﷺ سنةً وسيرةً، والتخلق بخلق القرآن، وتطبيق ذلك كله في الواقع وترجمته إلى أعمال صالحة تحمل موافقة الشرع ومشاعر القلب، فتصل إلى الكمال.

فلا تطبيق للأحكام الدينية، ولا طائل وراء تنفيذها، إذا لم يكن الاعتقاد سليماً.

ولا وصول إلى كمال الأخلاق وسمو المشاعر، إذا لم تراعى أحكام الشرع.

ولن تتحقق سلامة القلب وتركبة النفس وتطهير الروح دون عمل وجهاد.





فإذا تحقق تطهير القلب وتركيز النفس، وتحققت سلامة الاعتقاد وصلاح العلم والعمل، حينها يصل السلوك بالعبد إلى الكشف والوجد، فينال الفيوضات الإلهية، وحينها يصل العلم إلى درجة «العلم النافع»، ثم يصير معرفة بالله تعالى.

اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا.

اللهم إِنَّا نَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ.

اللهم اجعلنا من عبادك الذين يعملون بعلمهم، واجعلنا يا رب من أولئك السعداء الذين وصلوا إلى العرفان، وارتقوا في معرفتك إلى الدرجات العلا.



الفصل الثاني

التربية الصوفية (السير والسلوك)

- | | |
|--|-------------------------------|
| ج. إحياء الليل | أ. النفس وتزكيتها |
| ح. ذكر الله ومراقبته | ١. ماهية النفس |
| خ. محبة رسول الله وإكثار الصلاة عليه | ٢. تزكية النفس |
| د. التفكير في الموت | ٣. مراتب النفس |
| ذ. صحبة الصالحين والصادقين | أ. النفس الأمارة |
| ر. التحلي بالأخلاق الحميدة | ب. النفس اللوامة |
| ٤. رؤية العالم بقلب صافي | ت. النفس الملهمة |
| ت. المبادئ الأساسية في التربية الصوفية | ث. النفس المطمئنة |
| ث. المرشد الكامل وطرق الإرشاد | ج. النفس الراضية |
| ١. المرشد الكامل | ح. النفس المرضية |
| ٢. طرق الإرشاد | خ. النفس الكاملة |
| أ. المحبة - الرابطة | ب. القلب وتطهيره |
| ب. الصحبة | ١. ماهية القلب |
| ت. الخدمة | ٢. أنواع القلب |
| ث. التوجه | ٣. تطهير القلب |
| ج. الدعاء | أ. الطعام الحلال |
| ج. أسلوب التصوف | ب. الاستغفار والدعاء |
| ١. أسلوب الهداية والرحمة | ت. قراءة القرآن واتباع أحكامه |
| ٢. أسلوب الحلم والرفقة | ث. أداء العبادات بخشوع |



قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (الأعلى، ١٤)



التصوف مدرسة معنوية لتربية النفس وتطهير القلب على
يد المرّين الحقيقيّين ورثة الرسول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ



التربية الصوفية «السير والسلوك»

عالم التصوف هو ذلك المحضن التربوي الذي يدخله العبد، فيجد فيه مَنْ
يزكي نفسه من أدرانها، ويطهر قلبه من أدوائه، ويقود روحه إلى سمو الرحمة في
ظل هدي نبي الرحمة ﷺ على يد ورثة الأنبياء.

فللتصوف أساليبه التربوية الخاصة المتعددة بتعدد طبائع البشر، فقد خلق الله
تعالى البشر مختلفين في طبائعهم وقلوبهم وأرواحهم واستعداداتهم وقدراتهم
للسير في طريق الله تعالى، والعروج إلى كمالات الدرجات الصوفية.

بل إن من البشر من يقصر باعه وتضمّر قدرته، وتستعصي على المرين
أساليب تقويمه وتغييره، فيقف عند درجة لا يعدوها، وعند مرتبة لا يتخطاها.

والأساليب التربوية في الشريعة والتصوف قد وضعت للعامة والخاصة، فأما
وضعها الشريعة فهي ما يَسْعُ الجميع -على اختلاف قدراتهم وإمكاناتهم- أن
يتربوا على أصولها، ويمثلوا لنظمها التربوية، وأما من كان لديه بسطة في القدرة
وسعة في الاستعداد، وقدرًا من التميز ليصل إلى مرتبة أعلى، ودرجة أرقى، فإن
التصوف يقدم له من تعدد الأساليب ما يوافق تعدد الطبائع البشرية والإمكانات
المتفردة المستعدة للسلوك في الطريق للوصول بالجميع إلى حالة النضج المبتغاة
عبر التربية بالتوجيه والأوامر الإلهية؛ وهذا التميز بين كل أسلوب وآخر كأنه مثل
النظارات الطبية التي يضعها الإنسان وفق معايير طبية دقيقة تتفاوت مع تفاوت
مقياس درجة البصر، ثم تتفاوت وفق درجة البصيرة.





إنه الفرق بين الشريعة والتصوف، لا خلاف ولا اختلاف بينهما، لكن علاقتهما معاً مثل الفرجار بذراعيه الثابتة والمتحركة، فالذراع الثابتة للفرجار هي الشريعة، لا يند عنها الفرجار قيد أنملة، فعليها ثباته، وحولها مداره، وأما الذراع الثانية للفرجار فهي التصوف، الذي يدور وراء التوجيهات الإلهية والأساليب التربوية الراقية، وأما المسافة بين الذراعين في الفرجار، فهي التي تقتارب وتتباعد وفق قدرة السالك في جهاده لنفسه، واستعداد قلبه للتلقي والتزكي والتطهر.

وثمة معايير تتحكم في ذراعي الفرجار، وحركة أحدهما وثبات الآخر؛ هذه المعايير هي: دقة الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه، لذا فإن المتصوف الحقيقي هو الذي التزم بالشريعة قرأناً وسنة، فأصلح عالمه الظاهري، وانطلق إلى تربية عالمه الباطني، وهو في عمل دؤوب وجهاد دائم سعيًا إلى الكمال الظاهري، وإلى ذروة الانكشاف الباطني.

وهو لا ينسى أبداً أن عالمه الداخلي الباطني هو الأساس وهو الأهم، لأنه هو المنطلق نحو الكمالات، فالقلب هو الذي يوجه الإرادة، والإرادة هي التي توجه الأفعال، والأفعال هي مناط الإصلاح.

ولهذا كان لابد في التصوف من تطهير القلب -الذي يعد مركز الأحاسيس والنيّات- وتزيينه بالمحامد وتطهيره من الخبائث، فالقلب السليم يحوّل ما ينزل به من قضاء الله تعالى إلى تجليات لطف ورحمة وبركة، أما من ساءت نياتهم القلبية فلن يجدوا النور في طريقهم البتة.

والقصة التالية مثال معبر عن هذه الحقيقة:

خرج أنوشروان -الذي اشتهر بعدالته في التاريخ- ذات يوم إلى الصيد، ثم افترق عن أصحابه وسلك طريقاً أدّى به إلى بستان، وهناك رأى شاباً، فطلب منه رمانة يرتوي بمائها.





فَعَصَرَ أَنْوَشِرَوَانَ الرِّمَانَ وَرَوَى ظَمَاءَهُ، وَسُرَّ كَثِيرًا بِذَلِكَ، وَغَدَا كَالْمَتَشْيِي،
وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

«لَا بَدَّ أَنْ أَحْصِلَ عَلَى هَذَا الْبُسْتَانِ، فَلثَمَارِهِ لَذَّةٌ مَا بَعْدَهَا لَذَّةٌ، عَلَيَّ أَنْ أَخْذَهُ
مَعَهُمَا كَانَتِ الْوَسِيلَةُ».

ثُمَّ طَلَبَ رَمَّانَةً أُخْرَى، لَكِنَّهَا كَانَتْ جَافَّةً حَامِضَةً، فَسَأَلَ عَنِ السَّبَبِ، فَأَجَابَهُ
ذَاقُ الشَّابِّ ذُو الْفِرَاسَةِ:

«يَا مُوَلَايَ، لَا بَدَّ أَنْ قَلْبُكُمْ مَالَ إِلَى الظُّلْمِ، وَفَكَّرْتُمْ فِي أَخْذِ هَذَا الْبُسْتَانِ مِنِّي
بِقُوَّتِكُمْ وَسُطُوتِكُمْ».

فَتَخَلَّى أَنْوَشِرَوَانُ عَنْ أَخْذِ الْبُسْتَانِ قَسْرًا، وَنَدِمَ عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ السَّيِّئَةِ وَتَابَ،
وَحِينَ طَلَبَ رَمَّانَةً أُخْرَى وَجَدَهَا أَحْلَى مِنَ الْأُولَى وَأَكْثَرَ عَصِيرًا.

فَاحْتَارَ السُّلْطَانُ، وَسَأَلَ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي لَذَّةِ هَذِهِ الرَّمَّانَةِ، فَقَالَ لَهُ الشَّابُّ هَذِهِ
الْمَرَّةَ:

«أُظَنُّ أَنَّهَا التَّوْبَةُ عَنْ غَضَبِ الْبُسْتَانِ».

وَيُرَوَّى أَنَّ أَنْوَشِرَوَانَ تَابَ -نَتِيجَةُ هَذِهِ الْحَادِثَةِ وَأَمْثَالِهَا- عَنِ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ،
وَأَصْلَحَ قَلْبَهُ، وَصَارَ يَرَاعِي الْحَقَّ وَالْحَقُوقَ مِرَاعَاةً دَقِيقَةً، فَغَدَا اسْمُهُ مُرْتَبِطًا
بِالْعَدَالَةِ إِلَى الْأَبَدِ.

وَأَدَّى أَنْوَشِرَوَانُ الْحَقُوقَ لَشَعْبِهِ وَزَادَ فِيهَا، وَتَسَامَحَ مَعَهُمْ جَمِيعًا، وَحِينَ
تُوفِيَ طَافُوا بِتَابُوتِهِ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ مَمْلَكَتِهِ، وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ صَاحَ الْمَنَادِيُّ:

«مَنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ عِنْدَنَا فَلْيَأْتِ لِيَأْخُذْهُ».

فَمَا وَجَدُوا امْرَأَةً لَهُ دِرْهَمٌ وَاحِدٌ عِنْدَهُ.^{١٤٥}

١٤٥ انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ١، ٢٠٦-٢٠٧؛ إسماعيل حقي البورصوي، روح البيان، ١، ١٦٠؛

محمود سامي رمضان أوغلو، المصاحبة، ج٦، ص ٤٣-٤٤.





نفهم من هذه القصة أن من تطهرت قلوبهم يتركون دائماً الفضائل والذكريات الجميلة وراءهم، فأحوال الإنسان وحركاته هي مرآة لعالمه الداخلي، فكما أنه لا يمكن رسم خط مستقيم بمسطرة عوجاء، كذلك لا يمكن انتظار سلوك حسن من إنسان لا يعرف قلبه الصفاء والنقاء.

وإذا لم تكن ثمار الشجرة سليمة فنعلم حينئذ أنه ثمة مرض في جذرها ولا بد من علاجها، والقلب مثل الشجرة، فإن كان متردداً على الهوى والوساوس، فينبغي أن يخضع لتربية معنوية.

وغاية التربية الصوفية هي جعل الفؤاد يحيا بمشاعر عميقة ووجدان سام، وبفضل ذلك وحده يغدو حال الإنسان وسلوكه في ذروة الفضيلة، فيصبحان وسيلة لنيل رضا الله تعالى.

وقد كانت حياة النبي ﷺ تحتوي على أصولٍ وطرائق استثنائية تضمن للقلوب عبودية صادقة سامية، وقد اتبع ﷺ في أساليبه التربوية المعنوية أدق القواعد القلبية، ومن هذه القواعد أنه لم يوجّه اللوم قط إلى الشخص الذي يخاطبه، أو الشخص الذي يتحدث عنه؛ بل كان النبي ﷺ يلجأ إلى التورية والتعمية، فلا يجرح ولا يفضح أحداً، وربما كان يحمل القصور على نفسه، فكثيراً ما كان يبدأ حديثه في الأمور التي تقع بقوله: «ما لي أراكم»^{١٤٦}، وكان إذا بلغه عن رجل أمرٌ ما، لم يقل: «ما بال فلان يقول؟» ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟»^{١٤٧}

وقد تعلم أهل القلوب وأهل الإصلاح هذا الدرس النبوي، فتراهم يتبعون أصول الرقة، ويراعون الأحاسيس القلبية في معاملاتهم مع الناس، ويتخذون من مسامحة الخلق شعاراً لهم، ولأن اهتمامهم مُنصبٌّ على الباطن وعلى القلب،

١٤٦ انظر: البخاري، المناقب ٢٥، الأيمان ٣؛ مسلم، الصلاة، ١١٩؛ أبو داود، الخاتم، ٤؛ الأدب، ١٤؛

ابن حبان، صحيح، ٤، ٥٣٤.

١٤٧ أبو داود، الأدب، ٥/٤٧٨٨.





فإنهم لا يهتمون بالظاهر الذي أساء إليهم؛ بل يسامحون المذنب ليتخلص من ذنبه، ويعاملون المسيء بالرحمة ليستميلوا قلبه، وينسون الذنب لتسكن عواصف الغضب، وتنطفئ نار الغيظ، فتهدأ الأجواء، وتسكن الأنواء، ولا يتبقى إلا الصفاء. أهل القلب المصلحون يقومون بخطوة أكثر أهمية قبل إصلاح أحوال الناس؛ إنهم يجهزونهم أولاً لهذا الإصلاح وقبوله والأنس به، من خلال أنس الصحبة، وهذوء الطبع، وسماحة النفس، ولطافة القلب، وبركات اللمسات النورانية.

هذا الأسلوب القلبي في التربية قائم على التسامح ونفي الشعور بالانتقام؛ بل حتى تجنب اللوم والتقريع والدفع بالكرم والإحسان، فهذا هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم سيدنا يوسف عليه السلام وموقفه مع إخوته، يُلقونه صغيراً ضعيفاً في الحب، فيلقاهم قوياً «عزيزاً» بالحب، لبي طلبهم وأكرم نزلهم وأعطاهم من الطعام ما يكفي قومهم، ثم هو ينسب إساءتهم له إلى الشيطان لا إليهم، ثم هو يدعو الله لهم ويستغفر لهم:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^{١٤٨}

والنفس البشرية مهما كانت سادرة في غيها عندما تقابل مثل ذلك الشعور القلبي الراقي، ومثل تلك المعاملة الشريفة، لا بد أن تدركها المعجزة، ويؤثر فيها الإعجاز، أو على الأقل تبهتها المفاجأة. مفاجأة التحول من أقصى الشعور المتوقع للانتقام إلى أدنى الشعور المتلقي للتسامح والمحبة، عندها تنقلب الشقاوة هدى، وتتحول دواعي الذنوب إلى عوامل للتوبة.

وإذا استصعب بعض من الناس هذا المثال وتعذر بأن من قام به إنما هو نبي وليس فردا عاديا، فهائمه قصة ولي صوفي ورجل مربٍّ مع شراب خمر، مجموعة من الشباب الغافل يجتمعون على شاطئ نهر دجلة حول المعازف والقيان والكؤوس والدنان، يشربون الخمر ولا يبالون بأحد، وإذا بالشيخ معروف





الكرخي - رحمه الله - يمر بهم، وكأنه هتك سترهم، ومحا سرورهم، فقد ظنوا أن الرجل الرباني سيدعو عليهم - وكان معروفًا أنه مستجاب الدعوة - فيصيبهم الهلاك، حتى إن أحدهم صدمه ذلك الشعور بالانتقام، فقام مغاضبًا، وصرخ في وجه الشيخ منتهرًا مستهزئًا: «هيا لا تتلكأ، ادعُ علينا حتى نغرق في خضم دجلة». لكن معروفًا الكرخي لا يستفزه ذلك الاستهزاء، ولا يحركه الشعور بكرهية المذنب، إنما تدفعه مسؤولية التخلص من الذنب، واحتواء المذنب بالحب، فيرفع يديه إلى السماء داعيًا: «اللهم كما فرّحتهم في الدنيا، وفرّحهم في الآخرة». ولوقع المفاجأة لا يدرك الشباب معنى كلمات الشيخ، فيسألونه:

«انظر ما تقول أيها الشيخ؟ هل تعي ما تدعوه به».

وهنا لا يشرح الشيخ مقولته، إنما يبين لهم طريقته وأسلوبه التربوي:

«يا بني، إذا فرّحك في الآخرة تاب عليك».

وبعد أن زال عن الفتية هول الموقف ومهابته، إذا هم يعيدون حساباتهم، ويقرّعون أنفسهم، فيوبخهم شعور الندم، وتنتابهم رغبة التوبة، فيكسرون المعازف، ويريقون دنان الخمر، وينطلقون إلى طلب الفرح والسعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

وثمة خاصية أخرى في معايير التربية المعنوية لدى التصوف، وهي مراعاة اختيار أسلوب الإصلاح بما يتوافق مع طبيعة كل فرد واستعداده؛ إذ ليس من الحكمة أن تتجاهل طبيعة كل إنسان وخصوصيته، فتجهل الأسلوب الأمثل في توجيهه وتربيته، كما أن المرشد الكامل هو الذي يدرك كنه هذه الفطرة والطبيعة الخاصة لكل مرید، فيصون هذه الطبيعة وذلك الاستعداد عن الانجراف في التيار النفساني؛ ويقود المرید إلى استخدامه في أسمى الغايات ويوظفه للارتقاء به إلى أعلى الدرجات، وذلك عبر معادلة وتركيبية دوائية تناسب حالته، وتوافق أدواءه، فيكون شفاؤه في عالمه المعنوي، وترياقه في عالمه القلبي، ونبراسه في عالمه النوراني.





ألا ترى العرب في جاهليتهم - وكانوا مضرب المثل في قساوة القلوب، والتجرد من الشعور، لا تعرف الرحمة إليهم طريقاً، ولا يجد الضعيف لديهم جواراً، ولا يجد اللين في قافلتهم ركاباً - ها هم أولاء تحدث فيهم المعجزة، فيصبحون أرق الناس أفئدة، وألين الناس عريكة، وأصفى الناس قلوباً، وأرقاهم أخلاقاً، حتى صاروا مضرب المثل، وحديث التاريخ والدنيا في مناقبهم وآثارهم ونموذجيتهم.

كل ذلك التحول كان عبر التربية التي تلقوها على يد النبي ﷺ والمحبة التي ملأت جوانحهم لله ولرسوله ﷺ، فامتألت عبادتهم خشوعاً، وأفعالهم لله خضوعاً، وصارت أخلاقهم مثلاً، وأفعالهم نبأً، وسيرهم أنموذجاً.

وكان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هم النموذج الأرفع للتربية النبوية في الظاهر والباطن، وها هو عبد الله بن مسعود ؓ يصف هذه الحالة، فيقول:

«ولقد كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل»^{١٤٩}

تلك هي التربية القلبية المعنوية النبوية التي ربها النبي ﷺ لأصحابه، حتى وصلوا إلى هذا السمو ظاهراً وباطناً، وهي نفسها التربية الصوفية التي تهدف إلى تزكية النفس، وتطهير القلب، وهي أيضاً التي تتحقق على أيدي ورثة النبي من العلماء أهل السلوك والتصوف والمربين الحقيقيين.

أما السالكون في هذا الطريق، والمجاهدون للسير فيه حتى يبلغوا أعلى الدرجات، والساعون إلى مرتبة «الإنسان الكامل»، فهؤلاء هم المنتسبون إلى مدرسة التربية الصوفية، وهؤلاء هم أهل «السير والسلوك».





من عرف نفسه فقد عرف ربه.



أ. النفس وتزكيتها

١. ماهية النفس

عندما خلق الله تعالى سيدنا آدم أباً للبشر كرّمه وكرّم نسله وذريته، فجعلهم من أفضل المخلوقات؛ لذا فقد شاءت العناية الإلهية أن تجعل العمل والطاعة سبباً لدخول آدم وبنيه الجنة، فاستقرارهم في الجنة يكون جزاءً لما عملوا في الدنيا منّة من الله تعالى وكرماً منه سبحانه، وقد تحققت هذه الإرادة الإلهية كما جاء في القرآن الكريم، فقد كان الزلل البشري الذي وقع فيه سيدنا وأبونا آدم عليه السلام هو السبب الظاهري للخروج من الموطن الأصلي لبني آدم، ونزولهم إلى دنيا الاختبار وعالم الامتحان، وكان عليهم للعودة إلى الجنة والموطن الأصلي أن يتجاوزوا الكثير من الصعوبات، ويقدموا الكثير من التضحيات.

وعلى غير المنهج الرباني في المخلوقات، جَبَل الله تعالى الإنسان جِبِلَّةً مغايرة، فلم يفطره على الخير المحض، ولم يخلقه على الشر المحض؛ بل هداه النجدين، وأعطاه النقيضين.

ولأن الإنسان هو أكرم المخلوقات وأشرفها، فقد ترك الله تعالى له حرية الاختيار، وتحديد المكانة التي يرنو إليها من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، فإما أن يهوي إلى أسفل سافلين، وإما أن يرقى إلى أعلى عليين، فيحدد هو بنفسه درجته، إما أن يكون كالأنعام أو أضل، وإما أن يكون كالملائكة بل أجَلّ، وذلك وفق إرادته واستعداده، وما تهديه إليه فطرته خيراً أو شراً.





ويتوقف اختياره والمكانة التي يتبوّؤها على نتيجة الحرب الضروس التي تدور رحاها في جوانحه بين نوازع الخير ونوازع الشر، هذه النوازع تمثل جيشين متحاربين في فطرة نفس واحدة، الميول السلبية من ناحية، والميول الإيجابية من ناحية أخرى؛ كلٌّ يجهز عدته وعتاده، ويحمل على الآخر ويجلب عليه بخيله ورجله. ومنشأ هذه الميول - كما يرى الفكر الصوفي - يعود إلى ما يسمى «الروح الحيوانية»، و«الروح السلطانية»، فما هما هاتان الروحان؟

الروح الحيوانية: هي تلك القوة الحيوية التي تسري في جسد الإنسان، فتحفظ حياته، وتمده بعوامل البقاء، وهي التي نسميها «النفس» أو «الروح»، وهي المسؤولة عن العمليات الحيوية لاستمرار حياة الإنسان، إرادياً ولا إرادياً، في يقظته ونومه وحتى في حالة غيابه عن الوعي، كالتنفس وعمل المخ وسريان الدم ونبضات القلب، وغيرها من النواحي البيولوجية.

هذه الروح هي التي تنتهي بنهاية الحياة، والتي تخرج مع الموت، ومركزها إما في الرأس والدماغ، وإما في الصدر والقلب؛ أما انتشارها ففي كل أعضاء الجسد وخلاياه، ومع كل قطرة دم تسري فيه، وهي الروح الحيوانية المرتبطة بعالم الخلق والجسد.

لذا فهي المسؤولة بشكل ما عن الحركات والسلوكيات والأفعال، ومن الضروري أن تخضع - هذه الروح الحيوانية - إلى التربية والإصلاح حتى لا يكون اتجاه الإنسان ونوازه إلى الميول السلبية وحدها.

الروح السلطانية: هي تلك النفخة الإلهية التي بثها الله تعالى من روحه في الإنسان، فميزته عن سائر مخلوقات الكون، هذه الروح الآتية من عالم الغيب هي التي تتحكم في العالم القلبي للإنسان، وفي أعماله الصالحة، وهي تسكن الجسد البشري إلى حين أيضاً؛ لكنها لا تنتهي بنهايته كما هو الحال في الروح الحيوانية، إنما تغادر الجسد، وتنتهي ولايتها عليه بمجرد موته وفنائته.





وكلاهما موجود في الإنسان -الروح الحيوانية والروح السلطانية- فأيهما كانت له الغلبة والسيطرة والتوجيه، كان توجه الإنسان وعمله، فإما أن تخلد به الروح الحيوانية إلى الأرض وطينها وشتاطينها، وإما أن تصعد به الروح السلطانية إلى السماء وأفلاكها وأملاكها.

وكل ذلك معلق بإرادة الإنسان وقدرته على السيطرة والتوظيف والقيادة، وذلك بقدر معلوم، وهو مناط التكليف، ومبعث الثواب والعقاب والحساب.

وفي هذا المعترك الدنيوي الذي يدور الإنسان في رحاه، ويحاول أن يجتاز عقباته، يجد أن أكبر تلك العقبات هي النفس، وليست النفس في ذاتها، إنما فيما تجر إليه من كبوات، وما تتبعه من شهوات.

أما جوهر النفس وكنهها فهو جوهرة ثمينة، ومعدن نفيس إذا نفى عنها الإنسان خَبَثَهَا بالمجاهدة، وعمل على تجليتها وتلميعها بالسلوك، وهذبها وشذبها كالجواهرى، فأبدى جمالها، ووضعها في موضعها الذي تستحقه بالعمل الصالح؛ وكل ذلك عبر التربية المعنوية.

أيها الإنسان إنك تجني ما زرعت، فمن جاهد وجَد، ومن زرع حَصَد، ومن سلك بلغ، ومن تَزَكَّى تَرَقَّى.

هَبْ أنك مغترب سعيًا وراء المال، فهل تضيع الوقت وتبخل بالجهد الذي يمنحك المال، طبعًا لا، فما بالك بغربة الدنيا التي تجمع منها مال الآخرة.

يقول البوصيري في «البردة»:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم.

والنفس كذلك مثل الفرس القوي، فإما أن تلجمه وتتحكم في قوته، فيقطع بك الطريق إلى غايتك، وتكون قوته في خدمتك؛ وإما أن يهيم بك جامحًا، تسيل به الأباطح، فلا يصل إلى غاية، ولا تستقر به نهاية، إلا هلاكًا أو هاوية.





والفرس لجامه التربية، وسرجه الاتباع والانقياد، وترويضه المجاهدة والسلوك. والفصيل في مسألة النفس هو التربية، فمن أخضعها للتربية فقد زكّاها، ومن تركها لهواها فقد دسّاها.

والنفس التي تحملها بين جنبيك مثل الفرس الذي يحملك، كلما كان ضامرا كان سباقا، وكلما أجهده قطع بك أبعد المسافات، وكلما حفزته على تخطي العقبات قويت سواعده، وبلغ الغاية، وإنما تكون عظمة النتيجة وكبر الجائزة على قدر العرق المصبوب، والجهد المبذول.

لكن ذلك كله منوط بمن يروّض الفرس، وليس بالفارس وحده، فليس اللجام هو الذي يكبح جماح الفرس، وليس السرج هو الذي يسهّل قيادته، إنما هو المروّض الذي يعرف طبعه، ويدرك فنون سياسته وقيادته، ويدرك أسباب جموحه ونفوره، ويعالج كبواته، ويجيد التحكم بزمامه.

والنفس كالفرس في احتياجها لمن يروضها ويسوسها، ويعرف طبائعها، ويدرك أساليب علاجها، ويهديها سبيلها لتبلغ غايتها، وتحتاج أيضا لمن يساعدها على القيام من كبواتها، وعلى تجاوز عثراتها، ومواصلة الطريق رغم العقبات، والبلوغ إلى أقصى الغايات وأرفع الدرجات.

إنه المرشد المعنوي الذي يقود نفسك في طريقها، ويسوسها في سلوكها، وينقذها من غفلتها، ويملأ فراغها، ويكفيها من حرمانها، ويطلعها على حقائق النفس والكون.

إن أبرز سيئات النفس، وأشدّ جوانبها ظلماً أن تكون حاجزاً بين العبد وربّه، وحجاباً بينه وبين طريق الهدى، فتحرم القلب من الذكر، وتشغله بما سوى الله تعالى، هنا لابد من إعلان الحرب عليها، والاستعداد لقتالها بكل سلاح، ووضع خطة محكمة للتغلب عليها؛ خطة تخضع لأصول وعلم ومعرفة وتجربة، كي تكون النتيجة مضمونة، والنصر أكيداً، فجهاد النفس - لكل سالك - هو قدر محتوم.





لذا؛ فإن النبي ﷺ أشرف مخلوقات الكون يقول في الحديث الشريف:

«المجاهد من جاهد نفسه»^{١٥٠}

فهو الجهاد الأكبر والأصعب والأخطر.

والهدف من جهاد النفس ليس قتلها، إنما أسرها لتمكن من قيادها، ولتحسن السيطرة عليها، والتحكم فيها.

لأن الأصل ليس إفناء النفس، بل تجنيبها الإفراط، وتربيتها، وتحديد رغباتها وميولها بالأحكام المطابقة للرضا الإلهي، والإمام الغزالي يشبه الإنسان في هذا الخصوص بالراكب على دابة، فيقول:

«النفس مطية الروح، فإذا ما أطلق الإنسان لجام النفس وتبعها فقدّر الهلاك، وإذا ما سعى إلى قتل هذه النفس وإفنائها^{١٥١} فلن تكون له مطية يركبها في طريق الحقيقة، لهذا كله، عليك أن تمسك لجام النفس، وتستفيد منها لتكون مطيتك إلى غاياتك.»

إن مراعاة هذا المعيار في تربية النفس حاجة تقتضيها الأصول النبوية. فالنبي ﷺ كان شديد الحسم والوضوح في أمر الثلاثة الذين أرادوا الغلو في مخالفة الفطرة، ومنع النفس عن حاجاتها الأساسية، فرجل أراد الصيام الدائم، ورجل أراد القيام المستمر، ورجل أراد التبتل والانقطاع عن النساء والحياة الأسرية، فجاء البيان النبوي الشافي بأن هذا الغلو مخالف لسيرته وسنته ﷺ؛ ومناقض كذلك لفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها^{١٥٢}.

١٥٠ الترمذي، فضائل الجهاد، ٢ / ١٦٢١؛ أحمد، مسند، ٦، ٢٠، ٢٣٩٦٥.

١٥١ كما هو الحال في بعض الأديان الهندية والفلسفات الروحانية.

١٥٢ انظر: البخاري، النكاح، ١، الصوم ٥٥-٥٧، التهجد ٧، الأنبياء ٣٧، النكاح ٨٩؛ مسلم، الصيام

١٨١-١٩٣؛ الواحدي، أسباب النزول، ص. ٢٠٧-٢٠٨، (المائدة ٨٧ / ٥)؛ علي القاري، المرقاة،

١٨٢، ١٨٣.





ولا يتوقف خطر النفس على حجبها لطريق الهداية؛ بل خطرُها كذلك أعظم للسالكين في ذلك الطريق، ولعل أعظم تلك المخاطر وأكبر تلك الآفات على الطريق: العُجب، والكِبَر.

فهي تعجب بذاتها، وتتكبر بطاعتها وعبادتها، وتتطاول على الآخرين بمكانتها من الله تعالى. وهو ما يحتاج إلى يقظة دائمة وحماسة مستمرة في المجاهدة، واحتراس دائم من مكائد النفس، فتعيش حياتك كلها وأنت تخشى مكرها، ولا تأمن شرها، ولا تغفل عن دسائسها.

فالمعركة حامية الوطيس، لا تنفك تدور رحاها فتطحن بين شقيها من تدركه الغفلة أو يخلد إلى الراحة، أو يتنابه ضعف الإرادة، أو تخبو جذوة الحماسة في صدره وقلبه. فالْمُؤْمِن الواعي، والسالك اليقظ هو من يظل متنبهاً لأخطار النفس، وينصب لها دائماً المحاكمة العادلة الحاسمة التي تكبح جماحها، وتضمن لها الصراط القويم.

وبعد ذلك كله لا بد أن يمتلك صاحبها وقائدها إرادة قوية لا تخور، وعزيمة ثابتة لا تفتقر، عزيمة تَرَبَّت على منهج القرآن، وإرادة عاشت على منهاج السنة، تدرك كيف تحكم، وتعرف كيف تتحكم.

لكن كيف يكون ذلك؟ كيف تقود فرساً جامحاً، وتتحكم بنوازع بشرية الشرِّ مطيئها والشهوات فطرتها؟ إن تربية هذه النفس وتزكيتها أمرٌ جدُّ خطير، فها بنا نقف على حقيقة الأمر.





الهدف المأمول والغاية المرجوة في هذه الدنيا من تهذيب النفس
أن تجعل طبيعتك كالزهرة الندية وسط أشواك البرية، فلا
يرغمك جفاف طبيعتهم على فقدان نداوتك، ولا جفاء طبعهم
على نسيان سخاوتك، فإذا قُذفت بحجر ألقى أطيّب الثمر.



٢. تزكية النفس

تفيد معاجم اللغة عن معنى التزكية بأنه التطهير والتنظيف والتخليص من كل
ذميم، وكذلك تفيد معاني الزيادة والنماء والبركة.^{١٥٣}

أما التزكية في معناها الصوفي فتشمل عملية التربية المعنوية بحذافيرها،
فتزكية النفس في واقعها العملي هي أن تبدأ بتطهيرها من الكفر، ثم من الجهل،
ثم من الأحاسيس الدنيئة، والمشاعر الشهوانية، والأفذار الإنسانية، والمعتقدات
المشوهة، والأخلاقيات المنحرفة، والأعمال الزائغة عن أوامر الشرع ونواهيه،
أي تطهير القلب من فساد الاعتقاد، وتطهير الأفعال من مذمات الأعمال، وتطهير
العقل من نقائص الجهل.

ثم متابعة ذلك التطهير بالتدبير، ومتابعة تلك التخلية بالتحلية، فإذا خَلَّتِ
القلب من فساد الاعتقاد خَلَّتْه بالتقوى والإيمان، وإذا خَلَّتِ العقل من نقائص
الجهل خَلَّتْه بالعلم والحكمة والعرفان، وإذا خَلَّتِ الأفعال من مذمات الأعمال

١٥٣ التزكية اكتساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم، قاله الحرالي، وأصل التزكية
نفي ما يستقبح قولاً أو فعلاً، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان. (التعاريف - المناوي)
وقوله تعالى: (قد أفلح من زكاها) الضمير للنفس، و«التزكية» التطهير من الأخلاق الذميمة الناشئة
من شر البطن والكلام والغضب والحسد والبخل وحب الجاه وحب الدنيا والكبر والعجب،
ولكل هذه المذكورات علاج في المطولات. وفي الغريب: (قد أفلح من زكاها) أي ظفر من طهر
نفسه بالعمل الصالح. (مجمع البحرين - الطريحي) (المترجم)





حليتها بالأعمال الصالحة والمشاعر النقية، وإذا خليت الروح من جفاف الدنيا ملأتها بروح وريحان، وندى من جنات عدن، ورويتها من كوثر القرآن والسنة.

والتزكية في المفهوم الصوفي هي أن تنزع لجام الرغبات من أيدي النفس، وتنزع مقوَد الشهوات من سيطرة الرغبة، وتخلص البدن من نفوذ نوازع الشر يكون بتقوية الإرادة، وتتأتى هذه الإرادة برياضة النفس وترويضها، وتدريبها على أصول الاعتدال في مدخلات النفس؛ لتحسن مخرجاتها، وليسهل التحكم فيها، ويحصل إجماعها. ومن أصول إجماع النفس لدى أهل التصوف:

نقص الطعام، وقلة المنام، وندرة الكلام.

وهي الخطوات الأولى في طريق الرياضة، والقواعد الأولى لحكم النفس والسيطرة عليها؛ لكن لا بد أن نضع في الحسبان اعتدال الميزان، فنحن هنا نروض النفس ولا نقتلها، فعلياً أن نحافظ على أمانة الله لدينا، وهي أبداننا، فنصونها عن البوار المادي، ولا نقصر في تطهرها المعنوي.

والاعتدال في كل الأحوال هو كمال الإسلام وميزته الكبرى، فلا تهاون ولا غلو، ولا إفراط ولا تفريط، فالعبادات والرياضات والمجاهدات إنما وضعت قواعدها للتزكية والتربية، وفق الخضوع للأوامر الإلهية.

وعاقبة الإنسان ومآله في أخراه ودينه متوقف -إلى حد كبير- على هذه التربية وتلك التزكية؛ هل تسوقه إلى هلاك، أم تقوده إلى نجاة؟ وكي نقف على بداية طريق التربية والتزكية، لا بد من الوقوف في البداية ضد الشهوات، وضد فساد الأحوال والطموحات، وكذلك لا بد من الخضوع التام للإرادة الإلهية.

ثم إدراك المؤمن السالك مدى عجزه وقصوره ونقصانه وجهله، وفنائه، وفي المقابل؛ يدرك مدى عظمة ربه وقدرته وجلاله وكماله.

وبناءً على ذلك الإدراك ينظم المؤمن أفعاله، وحينها يمكن للنفس الأمارة بالسوء -وفق الوصف الرباني- أن تتطهر من هذا السوء لتصل إلى حالة مقبولة.





ولأن هذا السبيل -سبيل التربية والتزكية- هو جهاد في طريق السير والسلوك، فقد أطلق عليه اسم «الجهاد الأكبر» لمدى قدره وخطره، وهو ما جاء في الأثر عن النبي ﷺ إبان عودته من غزوة تبوك، ورغم أنها أيضاً كانت من أصعب وأخطر الغزوات، إلا أنه ﷺ قال لأصحابه عند القدوم منها:

«قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^{١٥٤}

وهل هناك جهاد أكبر من الجهاد في الغزوة بالذات، التي أحاطت بها العقبات والمصاعب منذ اللحظات الأولى للإعلان عنها، فالجيش الذي يجابهه المسلمون جيش عرمرم ملأ الشرق والغرب، والوقت الذي بدأ فيه الإعداد للزحف كان حين اشتد الحر، وطاب جني الثمر وحان موسم الحصاد، كل ذلك مع خفة الزاد، وانعدام الراحلة، وبُعْدِ الشُّقَّة، وتباطؤ الناصر، فقد تخاذل المنافقون، وكثر اللامزون، ومع هذا كله انطلق نحو ثلاثين ألف صحابي يقطعون الفيافي، ويضربون أكباد الإبل لمسافة بلغت نحو ألف كيلو متر.

فَمَنَّ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ وصحبه الكرام بإحدى الحُسَين وأحد الوعدين، وها هو الجيش يعود إلى المدينة، وقد صارت عكن بطونهم عظاماً، وأطرافهم من ضمورها كأنها سهام، تغيرت منهم الوجوه حتى أنكرهم القريب، وتبدلت أحوالهم حتى رق لهم العدو مع الحبيب، ثم بعد كل هذه الأحوال والأحوال، يسمعون من النبي ﷺ ذلك المقال: «الجهاد الأصغر»، فتطلعت الأبصار والأفئدة إلى صاحب الحكمة ونبع العرفان، المصطفى ﷺ يسألونه:

«يا رسول الله، إنك ترى حالنا هذا! وهل هناك جهاد أكبر من هذا؟»، فأجاب ﷺ:

«قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه»^{١٥٥}

١٥٤ البيهقي، الزهد الكبير، ١٦٥، ١٩٩٦؛ السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٣/٦١٠٧.

١٥٥ انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ٤، ٨٠ (الحج: ٧٨). قارن: السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٣؛ المناوي، فيض القدير، ٣، ١٤١/٢٨٧٣؛ علي المتقي، ٤، ٤٣٠/١١٢٦٠.





وفي هذه الغزوة أيضاً ما هو أشد على الأفهام وأصعب على الأحلام، إنه ذلك الدرس الدقيق من قصة الثلاثة الذين خُلّفوا، فأفعدتهم أنفسهم عن اللحاق بالركب الكريم إلى الجهاد، رغم أنهم شاركوا في معظم الغزوات السابقة، هاهم منبذون من الناس، مقطوعون من الجماعة، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، بل ضاقت عليهم جلودهم ندامة وتقريعاً، وأصابهم العار قبل أن يأتيهم الفرج من العزيز الغفار.

هؤلاء الثلاثة تخلفوا عما يُدعى «الجهاد الأصغر» فأصابهم التحقير، فما بالنا بمن يتخلف عن «الجهاد الأكبر»، أي تحقير يصيبه؟ وأي عار يلحق به؟ وبأي جواب سوف يجيب مولاه حين يُنصب الميزان، ويُنشر الديوان، وتنطق الجوارح قبل اللسان، لتشهد الأعضاء والأبدان على من أتبع نفسه هواها، فما طهرها وما زكّاها، لكنه تخلف عن الجهاد الأكبر ففسّأها.^{١٥٦}

١٥٦ الصحابة الثلاثة هم: مرارة بن ربيع العمري، وهلال ابن أبي أمية الواقفي، وكعب ابن مالك شاعر الرسول. وقد شارك هؤلاء الثلاثة في الغزوات كلها، وكان مرارة وهلال من أهل بدر. ولكن ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت حين قوبلوا بهذه المعاملة التي كانت بسبب تخلفهم عن الجهاد في غزوة تبوك. لقد صاروا غرباء بين الناس، حين هجرهم الرسول ﷺ وأصحابه، وحتى إن نساءهم صرّن غريبات بالنسبة لهؤلاء الثلاثة؛ إذ كان من اللازم قطع أي علاقة والانفصال عنهم، حتى يأتي الوحي الإلهي ويبين وضعهم. لقد كانوا في مأزق لا مخرج منه، لهذا ذرفوا دموع الندامة كل ساعة، وباتوا كالشموع التي تذوب يوماً بعد يوم. لقد ارتكبوا خطأ، لكنهم لم يتعدوا عن الإخلاص والاستقامة والتسليم والتوبة. واستمر الحال بهم هكذا على مدى خمسين يوماً، وفي النهاية كان ثواب اعترافهم بذنبهم، وتوبتهم النصوح، هو نزول آية بحقهم، تعلن العفو عنهم:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة، ١١٨-١١٩)

(للاستزادة في هذا الموضوع انظر: عثمان نوري طوباش، سيدنا محمد المصطفى، ج-٢، ٥٠٥-٥٠٩)





وكما يقول الفاروق عمر رضي الله عنه:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»^{١٥٧}، فحاسبها حساباً غير يسير، ولم يغفل لها أو يغفر أي أمر قليل أو كثير، وأخضعها لحساب دقيق، قبل أن يأتيه الحساب الإلهي الأدق.

ويحذر المولى عليه السلام عباده تحذيراً شديداً حين يقول:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^{١٥٨}

ويقول الحق تعالى في آية أخرى:

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾^{١٥٩}

ويقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«الكَيْسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»^{١٦٠}

بعد كل هذه المعاني في القرآن والسنة، وكل هذه التكاليفات المؤكدة بمواثيق لا تنحل، وكل هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقك، لابد أنك أدركت عظم الغاية والتكليف المنوط بك، وأدركت ما تحتاج إليه من خطط تعينك على أداء هذه المهمة الشاقة المعقدة والدقيقة، فينبغي أن تكون كل حركة من حركاتك سعياً نحو القمة، وكل سكنة من سكناتك انتقاصاً لحظ الشيطان من نفسك، وكل فعل من أفعالك معراجاً للتقرب إلى الحضرة الإلهية. وإلا، وقعت في زلل عظيم، وخسران مبین، وكنت كمن يبني قصراً، ويهدم مصرّاً.

١٥٧ الترمذي، القيامة، ٢٥ / ٢٤٥٩.

١٥٨ المؤمنون: ١١٥.

١٥٩ القيامة: ٣٦.

١٦٠ الترمذي، القيامة، ٢٥ / ٢٤٥٩؛ ابن ماجه، الزهد، ٣١ / ٤٢٦٠.





وَيُنَبِّهُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنْ مَخَاطِرِ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^{١٦١}

ويقول سيدنا محمد ﷺ:

«إني أخاف على أمتي من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم

جائر»^{١٦٢}

«إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى»^{١٦٣}

لذا، فإن تركية النفس للمؤمن أمر مصيري، ومسألة حياة أو موت، حياة قلب أو موت روح، وكأنها جزء من الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، ما أعظمها من مسؤولية!

ويقول الله تعالى عن هذه المسؤولية في الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^{١٦٤}

فالفلاح منوط بتزكية النفس وتربيتها، أما إهمالها في توحشها، وتركها سادرةً في غيها، فهو الخسران المبين.

إن النفس هي السيف الذي يقتل ويقاقل، يقتل صاحبه، أو يقاقل عدوه، يفعل الشيء وضده، يحفظ حياتكم ويقاقل دونها، أو هو يضيعها ويودي بها، والفصل بين الأمرين هو التربية؛ تلك التي تسمو بالإنسان أو تهوي به.

وثمة إشارة وعلامة على أنك تسير على الدرب الصحيح، وهو أن ترى شجرة عملك قد أثمرت، وآتت أكلها، وأن ترى ثمرتها قد أينعت، وأطعمت

١٦١ الفرقان: ٤٤.

١٦٢ انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ١/ ١٨٧ / ٨٨٣؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٢.

١٦٣ أحمد، مسند، ٤، ٤٢٠، ٤٢٣ / ١٩٧٧٣؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٨٨؛ أبو نعيم، الحلية، ٢، ٣٢.

١٦٤ الشمس: ٩-١٠.





أهلها؛ أي أن يكون عملك ذا فائدة وأثر في الناس، كالإنفاق والصدقة والخدمة، فإذا ما أثمر العمل في الناس فقد أثمر فيك وأثر، وضربت جذوره في أعماق شخصيتك، واستأنست به روحك.

وثمة وسيلة عظيمة في إصلاح النفس تزكيةً وتربيةً وتهذيباً، ألا وهي قراءة القرآن، أصدق الكلام وأعظمه، وأرشد الهدي وأحكمه، قراءة وتدبراً وعملاً وامثالاً.

والعبد حين يجعل القرآن منهاجَه، ويجعله هدايته ونبراسه وسراجَه، ويتخذَه قانوناً عملياً، وواقعاً فعلياً، يعيش به، ويعيش له، وتستقيم أمورُه وحياته كلها عليه، حينها تكون نجاته محتومة، وبراءته مختومة، وآثار دسائس الشيطان فيه معدومة، عندها يرضى برضا الله تعالى ويسخط بسخطه، فتنتفتح له أبواب التجليات، وسماء الانكشافات، وتنهل عليه شآبيب الألفاف الإلهية، ويرقى إلى حال الفتح، فيفتح الله تعالى عليه فتوح العارفين، وينفذ من عالم الشهود إلى عالم المشاهدة، ومن عالم الظاهر إلى عالم الباطن، ومن دنيا الماديات إلى أفق المعنويات؛ حيث التجليات والفيوضات، فيسمع ما لا أذن سمعت، ويرى ما لا عين رأت، ويدرك ما لم يخطر على قلب بشر، ويمسي الكون كله أمامَ بصره وبصيرته كتاباً مليئاً بآيات الحكمة والعظمة.

والقرآن والسنة معاً هما دستور ذلك كله ومفتاحه، والسبيل إليه ومعراجَه، بما يحمله من توجيهات وأوامر ونواه وعظات وأحكام وآيات.

وثمة آيات كثيرة في قرآننا العظيم تتحدث عن تزكية النفس، والتزكية في هذه الآيات تقع في ثلاثة أقسام، وهي:

- تزكية الله تعالى.

- تزكية الرسول ﷺ.

- تزكية المرء نفسه.





١. تزكية الله تعالى

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^{١٦٥}

وقد فسر الشيخ الماليلي حمدي رحمه الله هذه الآية بقوله:

«لا تثنوا على أنفسكم بظنكم أن لا ذنب أو عيب فيكم، وأنكم طاهرون أنقياء، فكم من عيوب موجودة فيكم وأنتم غير مطلعين عليها»^{١٦٦}
أما الألوسي فيقول في تفسير هذه الآية:

«نزلت -على ما قيل- في قوم من المؤمنين كانوا يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا، وهذا مذموم منهي عنه إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء، أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به، ولا يعد فاعله من المزكّين أنفسهم»^{١٦٧}
يقول المولى رحمه الله في آية أخرى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونُ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^{١٦٨}

والتزكية في هذه الآية هي عبارة عن سعي المرء لمدح نفسه، وإظهارها على أنها طاهرة، لكن التزكية الحقيقية منوطة بالتقوى، والتقوى هي صفة من صفات الباطن لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى؛ ولهذا لا تُقبل تزكيتنا لأنفسنا، بل تزكية الله تعالى لنا.
وكان من دعاء الرسول ﷺ:

«اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرَ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيهَا وَمَوْلَاهَا...»^{١٦٩}

١٦٥ النجم: ٣٢.

١٦٦ المفسر التركي الماليلي محمد حمدي يزير، (دين الحق ولسان القرآن)، ٧، ٤٦٠٥.

١٦٧ الألوسي، روح المعاني، ٢٧، ٦٤.

١٦٨ النساء: ٤٩.

١٦٩ مسلم، الذكر، ٧٣/٢٧٢٢.





ويقول عز من قائل:

﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^{١٧٠}

في هذه الآية الكريمة المحكمة نجد بلاغة النص الحاسم القاطع في أن فعل التزكية منسوب إلى الله وحده، فهو الذي يزكي، وهو الذي يفتح لك الطريق للتزكية، وهو الذي يدعمك فيه، ويأخذ بيدك إليه سبحانه، وليست التزكية جهداً خالصاً من نفسك، ولا عملاً متفرداً من إرادتك، ولا سموّاً راقياً من قلبك، فاحذر من الإعجاب بذاتك إذا أنت وجدت بعضاً من نتائج جهادك، فكل ذلك لا جدارة ولا دراية ولا هداية منك إليك، إنما هو توفيقه سبحانه، والخلاص الأبدي في الدنيا والآخرة هو أمر إلهي عبر توفيق الله لك بجهادك، وإرساله الأنبياء والمرسلين، وإمدادك بالأولياء والمرشدين، وهدايتك إلى ذاته العلية، برحمته الإلهية.

٢. تزكية الرسول ﷺ

يوضح المولى ﷺ مهمات النبي محمد ﷺ في قوله:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^{١٧١}

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^{١٧٢}

نفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أن للرسول الكريم ﷺ ثلاث مهمات هي:

١٧٠ النور: ٢١.

١٧١ البقرة: ١٥١.

١٧٢ آل عمران: ١٦٤.





أ. تلاوة آيات الله على الناس:

المهمة الأولى مشتقة من اسم صاحبها -الرسول- فهو الذي يحمل رسالة السماء إلى الأرض، ويبلغ كلام الله إلى عباد الله، فينقل آيات الوحي الإلهي إلى مسامع وأفهام وقلوب الناس، كمرحلة أولى وأساسية في تبليغ رسالته، وإرساء قاعدة رئيسية في مهمة نبوته.

ب. تزكية الناس:

وهي المهمة التالية للأنبياء والمرسلين، وتسبق دعوتهم إلى التوحيد والإيمان، إنها تزكية أنفسهم من أدران الشرك ومساوئ أخلاق الجاهلية، وتطهير قلوبهم من تعلقها بالأغيار، وعبادة ما دون الله أو الشرك به سبحانه، أو التصورات الخاطئة عن ذاته العلية، وبعد أن تطهر هذه النفوس والقلوب من علائق الجاهلية، يجد الخشوع سبيله إليها مع الطمأنينة بالإيمان، والأنس بصحبة أهل الإيمان، والسير في طريق الهداية في هدي النبي ﷺ كما فعل الصحابة الكرام الذين كانوا من قبل في جاهلية جهلاء وظلمة ظلماء، حتى جاءهم النور المبين، فأخرجهم من الظلمات، وأعطاهم البينات والآيات، فصاروا معجزات يضرب بهم المثل في المناقب حتى ارتقوا أعلى المراتب.

ت. تعليم الكتاب والحكمة:

وهي المهمة الثالثة والمرحلة التالية في توصيل الرسالة، فالنفوس التي تزكت، والقلوب التي تطهرت، تحتاج لما يملؤها ويهديها وينورها، ولا يملؤها مثل القرآن، كما أن القرآن لا يفقهه على حقيقته، ولا ينفذ إلى أعماق معانيه إلا قلب سليم طاهر. فهذا الكنز الثمين الذي لا يتناهى ولا ينفد مستودعه وخزائنه، هو كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتاب الله المنظور (الكون)، والإنسان هو الذي يقرأ هذا وذاك، وتتجلى حكمة الكتابين وأسرارهما في قلبه، وبمقدار نضج قلبه وتزكيته يدرك هذه الأسرار ويسبر أغوارها.





أما تعليم الحكمة فهي المرحلة الأخيرة من تلك المراحل، ومرتّب عليها ومرتبط بها، فالآية الكريمة تربط العلم بالتزكية؛ بل تجعل التزكية أساساً للعلم والحكمة، كما أن العلم لا طائل من ورائه ولا نفع منه دون الحكمة، وصاحبه كمن بلغ منتصف الطريق بين المنطلق والغاية، فلا هو أراح نفسه من عناء العمل، ولا هو واصل العناء ليلبغ الهدف، فلا ظهرًا أبقي ولا أرضاً قطع.

ويبدأ الأنبياء عليهم السلام مهمتهم بقراءة كتاب الله ﷻ، ثم يعملون على تطهير نفوس حواريتهم من أدرانها، ثم يعلمونهم الكتاب، وعندها تكون القلوب قد طهرت واستعدت لتعلم الحكمة، والاطلاع على أسرار الكون ومظاهر القدرة فيه. ويقول سيدنا عثمان رضي الله عنه في ذلك:

«لو أن قلوبنا طهرت لم تمل من ذكر الله ﷻ»^{١٧٣}

إن مهمة الرسول ﷺ في قراءة الآيات، وتعليم الحلال والحرام ستستمر على يد العلماء، أما مهمة تزكية النفوس وتطهير القلوب فهي مهمة المرشد الكامل إلى يوم القيامة.

٣. تزكية المرء نفسه

يقول الله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ

مَنْ دَسَّاهَا﴾^{١٧٤}

والحكم في الآيات واضح لا تأويل فيه، والحق فيها بين حاسم لا مواربة فيه، مآل ومصير من عمل على نفسه وجعلها شغله الشاغل تربية وتهذيباً، أو إهمالاً وتقصيراً، إما الفلاح، وإما الخيبة والخسران في الآخرة.

١٧٣ علي المتقي، كنز العمال، ٢، ٢٨٧/٤٠٢٢

١٧٤ الشمس: ٧-١٠.





ويشتر الله تعالى في الآية التالية عباده الذين سينالون السعادة الحقيقية:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^{١٧٥}

ويقول الله ﷻ في آية أخرى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^{١٧٦}

كما أن الترتيب الموجود في هذه الآية الكريمة يجذب انتباهنا، وهذا الترتيب هو كالتالي:

- أولاً تطهير القلب والبدن والمال من السيئات، وبهذا يزول حاجز الغفلة بين العبد وربّه.

- ثم تزيين القلب باللذات الروحانية من خلال دخول العبد في حالة عبادة خاشعة تامة، ببدن يتغذى على الطعام الحلال، وقلب ذاكر لله ذي الطول والجلال.

ويعبر البورصوي عن ذلك في تفسيره قائلاً:

«وفي الآية إشارة إلى تطهير النفس من المخالفات الشرعية، وتطهير القلب من المحبة الدنيوية، بل من ملاحظة غيره والتوجه إلى الله تعالى بقدر الاستعداد»^{١٧٧}
وها هو ولي الله أبو بكر الكتّاني -رحمه الله- يسألونه عن ماهية عمله في الدنيا، بينما هو مفارقها، طريح على فراش الموت، فيجيبهم واضعاً قواعد جليّة في كلمات قليلة:

«أما عملي، فما كنت لأذيعه عليكم خشية الرياء، لكن الوقوف على أعتاب الموت ما ترك للرياء باباً، لقد أمضيت أربعين حولاً حارساً أميناً عند باب قلبي،

١٧٥ الفجر: ٢٩-٣٠.

١٧٦ الأعلى: ١٤-١٥.

١٧٧ البورصوي، روح البيان، ١٠، ٤١٠.





وجاهدت ألا أفتح هذا الباب إلا لله سبحانه، فلما استوثقت من الباب لم يعد قلبي عارفاً إلا بالله تعالى».

وكلمة «تَزَكَّى» الواردة في الآية السابقة فَسَّرَهَا حَبْرُ الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بأنها قول «لا إله إلا الله»^{١٧٨}؛ إذ إن أول خطوة ومرحلة في التزكية هي تطهير القلب من الكفر والشرك، وكلمة التوحيد تبدأ بنفي الأغيار والآلهة التي تُعبد من دون الله تعالى من الأهواء والطبائع والشهوات وكل أوثان النفس، ثم بعد النفي يأتي الإثبات لله تعالى وحده، بعد أن يتم تجهيز عرش القلب ليتربع عليه العظيم الأوحد.

وما أروع ما قاله الشاعر في هذا المعنى:

لا يتجلى الحق في فؤادك ما لم تُخرج من قلبك الأغيارُ

فالسلطان لا يدخل قصره إلا بعد أن تبلغ الدار غاية الإعمارِ

وعن أهمية التزكية يقول إبراهيم الدسوقي -رحمه الله-:

«يا بُني، لا تغتر بعبادتك مهما بَلَغَتْ، ولا بسريرتك مهما طهرت، ولا تُعَجِبَنَّ بذاتك مهما نلت من الحق تعالى معاملة خالصة، فللنفس حِيلٌ لا تنتهي، ولها غرور لا ينفد، فكم من درويش غرته نفسه حتى أهلكته شهواته».

ويقول الشيخ العالم حاتم الأصم -رحمه الله-:

«لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، وقد لقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة، فإن إبليس بعد طول تعبه لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام^{١٧٩} كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي.

وكم من آية كريمة يحذر فيها ربنا الرحيمُ عباده من حيل الشيطان ومكائده:

١٧٨ القرطبي، الجامع، ٢٠، ٢٢.

١٧٩ انظر: الأعراف، ١٧٥-١٧٦.





﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^{١٨٠}

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^{١٨١}

ولا تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر قدرًا من المصطفى ﷺ، ولم ينتفع بلقائه أقاربه أو أعداؤه^{١٨٢}

والأمثلة على ذلك تترى:

- فهذا هو ابن نبي؛ يأوي إلى الجبل ولا يأوي إلى رب الجبل؛ يستغني عن نبوة أبيه وسفينة أبيه، فيكون من الهالكين.

- وها هي امرأة نبي، لم تركز إلى دعوة زوجها لوط، ولا إلى فيوضات رب لوط، فكانت عاقبتها عاقبة قوم لوط.

استغنى هؤلاء جميعًا عن الحق، فأعرض الحق عنهم، رغم أنهم كانوا إلى كنفه أدنى، وإلى ساحته أقرب، لكن قرب المكان لا يُعتد به إذا لم يكن قرب في المكانة، وأنس في القرب، وشعور في القلب.

فلا زوج ولا ولد، ولا أب ولا معين ولا سند، ولا ينفع في النجاة أحد، إلا الواحد الأحد. فمن تجاوز عقبة نفسه، ونجا من غوايتها فقد أدرك النجاة، وأدركه الفلاح، ومن وقع في براثنها، واشتبك في حبالها فقد ضل طريق النجاة، وصار من المهلكين. ويقول المولى سبحانه في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا

يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^{١٨٣}

١٨٠ الأعراف: ١٦.

١٨١ الحجر: ٣٩.

١٨٢ القشيري، الرسالة، ١، ٢٥٧.

١٨٣ فاطر: ١٨.





والتزكي في هذه الآية يحمل أيضاً معنى الصلاة الخاشعة والعبادات الخالصة لله، وقبله تحذير بالخشية، وإنذار بالمراقبة، كما تلقي الآية المسؤولية عليك وحدك، وتلزمك طائرُك في عنقك، فتزكيتك لا تنفع أحداً سوى نفسك، وعملك الصالح لا يفيد أحداً سواك.

وتوضح آية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^{١٨٤} أَنَّ من يصل إلى العلم الحقيقي، ترتعد فرائضه خشية من الله تعالى، أما من لا يعرف ربه، ولا يخشاه، فقلبه ميّت، ولا يؤثر التنبيه ولا النصيحة في مثل هؤلاء الأشخاص، والآية السبعون من سورة يس تفيد المعنى نفسه ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا...﴾، وهذا يعني وجوب الخشية في الباطن، والصلاة الصحيحة في الظاهر.

والآية الكريمة التالية تبين أن من يتطهر من الذنوب، فجزاؤه الجنة والدرجات الرفيعة:

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾^{١٨٥}

أوتدري أيها العبد المخلص ما جزاء الحب الخالص، وما هو رد المحبوب على حبيبه الوفي؟ إنه جزاء أعظم من الجنة، وأرفع من الفردوس الأعلى، وأحسن من الحسنى، فمن تعلق قلبه بالله وحده، ولم يشغل بسواه سبحانه، وأخلص الحب له، والشغف به، والسكون الدائم إليه، والركون والتوكل الحق عليه؛ كان جزاؤه من الله يوم القيامة النعمة العظمى بالنظر إلى وجه الله تعالى، والتمتع بجماله، والانبهار بجلاله، فلا كلمات تعبر عن مقدار الجزاء، ولا بلاغة تومئ إلى عظمة الأجر.





وما من امرئ يتوجه إلى الله تعالى حق التوجه بإرادته واختياره، إلا انقطعت جميع أفكاره بغير الله ﷻ وزالت همومه، وتبدأ معرفة الله تعالى بإدراك حقيقة النفس بعد تزكيتها، وهذا هو المعنى الحقيقي لعبارة «من عرف نفسه، عرف ربه».

لكن من الذي يُعرِّفك نفسك؟ ومن الذي يقودها إلى الفلاح؟ ومن الذي تأمن فيه علمه وتجربته وتقواه وقدرته على القيادة؟ وأين نجد هؤلاء النورانيين في دنيا الظلام، وأين نجد أهل الحق في عالم الأوهام؟

إنهم هاهنا؛ أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، سواء من كان منهم حيًّا، أو من انتقل إلى كنف ربه، ولنا في سيرتهم ومآثرهم امتداد نور الهداية، وطوق النجاة في بحر الغواية.

وهم كثير قد لا يفتن بعض الناس إليهم، لكن التاريخ لا يغفل ذكرهم، من هؤلاء السلاطين في دنيا الظاهر والباطن، السلطان سليم الأول، وهذا الموقف ذو الدلالة العظيمة:

يعود السلطان سليم فاتح مصر والشام من فتوحاته المظفرة، وقبل دخول عاصمته -إسطنبول- يعلم بالحثود الهائلة من شعبه تستعد لاستقباله في فرحة عارمة، تملؤهم مشاعر الفخر والفرح بسلطانهم الفاتح وجيشه المظفر، فإذا بالسلطان الذي هزم الجيوش وأزال العروش يخشى على نفسه من الهزيمة أمام جحافل الفخر والعجب والغرور، فيأمر على الفور جيشه بالتوقف خارج المدينة عند سفوح (شامليجه) ويلجأ إلى مرشده ومريه «حسن جان» قائلاً:

«لقد رأيت ألا أدخل المدينة إلا في جنح الظلام، بعد أن تنفض الجموع، ويأوي كلُّ إلى داره، فإني أخشى أن تهلكنا عبارات المدح والثناء، ويصيب نفوسنا من إعجابهم بالبلاء».

وبالفعل يلج السلطان وجيشه عاصمته في ستر الليل، هروباً من أضواء الانبهار، وخوفاً من تحية الانتصار، لقد كان حذر السلطان على نفوس جيشه أشدَّ





من حذره من عتاد أعدائه وجيوشهم، لقد كانت معركة «شامليجه» أشد خطراً في أعين السلطان وفكره من وقائعه في مرج دابق والريدانية.

لقد كانت سلطنته على نفسه أجدر من سلطنته على الدولة والجيش والأعداء. ويوضح بيته الشعري التالي أن الإرشاد على يد أحد الأولياء الصالحين أكثر قيمة من حكم الدنيا وما عليها:

ليس الخير في كون المرء سلطاناً على الدنيا

بل الانتساب إلى ولي يوصلك إلى الدرجات العليا

وفي دنيا التصوف وعلم الروحانيات ما يسمى «التفحص الباطني» أو ما يعرف في الأوساط التربوية باسم «محاسبة النفس»، وهو أمر يجب على كل مسلم أن يعتاده، حتى يصبح ديدنه في كل وقت، وعادته في كل مساء حين يخلد إلى النوم، وتنكفى عنه زخارف الدنيا، فيحدث نفسه ويحاسبها، ويجادلها في أفعالها، ويقرعها على أخطائها، ويزجرها عن إصرارها، حتى تخف أثقالها، وتبرأ من أدرانها. ولنستمع هنا إلى نصيحة الإمام أبي حامد الغزالي بأذن واعية:

«إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يُفرغ قلبه ساعةً لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، فإن فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأنسأ في أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت، ثم قد رُدِدَتْ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهر لا تعدلها قيمة.

واعلمي يا نفس أن اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر أنه ينشر للعبد بكل يوم ولييلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فينالها من الفرح





والسرور والاستيثار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار، ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بآلم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح منها نتنها، ويغشاها ظلامها، وهي الساعة التي عصى فيها، فينال من الهول والفرع، ما لو قُسم على أهل الجنة لتغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الريح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فات، وناهيك به حسرة وغبنًا.

وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهد في اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك»^{١٨٦}

وللنفس التي تجاهد على التزكي والتطهر جنود يساعدونها، وأعوان يؤازرونها، فهذا البدن وجوارحه أمانة منحها الله تعالى للإنسان، وحدد لها مهمتها ووظيفتها، فمن وضعها في غير موضعها واستخدمها لغير أغراضها، فقد ضيع الأمانة، وأهدر الفرصة التي لن تعوض.

- فالعين تغض بصرها عن المحرمات وكل ما يشغلها عن النظر إلى آيات الله تعالى في الكون، فهي التي تدخل على القلب الشواغل بغير الله.

- واللسان الذي باستطاعته أن يورد صاحبه المهالك بما يحمله من آفات يجب أن يُمنع من مزالق الشيطان كالغيبة والكذب والزور، والذم والنفاق، ويستخدم فيما يرضي الله تعالى من الذكر والخير.

- والمعدة وهي بيت الداء ومستودع الطعام، وأصل البطنة التي تُذهب الفطنة، إذا أطعمت من حلال فتحت لك بابًا إلى السماء لا يُغلق، وكنت مُستجاب الدعوة.





وهكذا كل الأعضاء والجوارح؛ خلق الله لها القدرة على فعل الحلال والمباحات، فمن اكتفى بالحلال، واحترز عن المحرمات، ولم يشغلها بما دون ذلك، كان على الهدى النبوي القائل:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^{١٨٧}

فمن أنفق جهده وأتعب جوارحه فيما يملأ خزائن حسناته، كان هو الحصيف الذي يستحق الفوز المبين؛ أما من أضاع جهده، وأفنى جوارحه في مباحات لا تغني ولا تسمن من جوع فقد أنفق كنزه فيما لا يجدي، وبعثر خزائنه فيما لا يغني.

ولا تغفل -أيها المحاسب نفسه- حين تحاسبها أن تدقق وتمحص في معرفة غايتها، هل تعمل النفس أعمالها لله وحده، أم لحظ النفس وحده؟ هل غرّها الشيطان، وألبس عليها المفاهيم والظنون، فأحسّت بالرضا والركون إلى عملها والسداد فيها، فبعدت عن الغاية، وتعكر إخلاصها؟



وهناك حالات ثلاثة يمكننا رؤيتها أثناء تزكية النفس وصولاً إلى «القلب السليم»، وهي:

- حالة أهل التقوى، وهي الحالة التي لا يؤدي القلب فيها أحداً، فتقيه أخلاقه عن شرور النفس، وتحجزه عن إصابة الناس ببلواها.

- حالة أهل المحبة، وهي الحالة التي لا ينالهم الأذى من أحد، فلا مديح الناس يغرهم، ولا الأحوال تغريهم، ويقول الشاعر معبراً عن هذه الحالة:

أيها العاشق، غاية كل عاقل في هذه الدنيا
أن لا يؤدي أحداً ولا يتأذى من أحد





- حالة أهل الإخلاص، وهي الحالة التي يضع فيها المسلم رضا ربه نصب عينيه، ويترجح عنده أمر الآخرة، مهما لقي من معارضات منافع الدنيا. وخلاصة ما ذكرناه:

لقد جعل الله تعالى النفسَ عائقاً أمام كل إنسان في هذه الدنيا، التي ما هي إلا امتحان أرادَه الله تعالى، وأمرَ الإنسان بالأوبة إلى خالقه من خلال الانتصار على المصاعب التي تضعها النفس، وجعل النفس أداة بيد البشر فقد تكون وسيلة للخير أو الشر، أي قد تكون باباً للفوز أو هاوية يلقى فيها الإنسان غيًّا إذا ما أتبع النفس هواها؛ أما بركة تركية النفس، فأمر عظيم لا يمكن مقارنته بأي شيء في هذه الدنيا.

اللهم اجعلنا ممن يتغلبون على أهواء أنفسهم!

آمين!





إن الإنسان الذي وصل إلى مرتبة طهارة النفس وسلامة القلب هو آية بيّنة من آيات الخالق المبدع سبحانه، وهو مظهر تجليات الجمال الإلهي.



٣. مراتب النفس

النفس في معراجها نحو الكمالات التربوية وصولاً إلى القمم المعنوية تمر بمراحل ومراتب، وتنقسم إلى أقسام سبعة هي:
النفس الأمارة - النفس اللوامة - النفس الملهمة - النفس المطمئنة - النفس الراضية - النفس المرضية - النفس الكاملة.

أ. النفس الأمارة

وجاء اسمها من فعلها الدائم بالأمر، فهي كثيرًا ما تأمر الأعضاء بإطاعة الهوى، وإرضاء النزوات، والتمرغ في الشهوات، وتأمر العبد دومًا بكل ما يبعده عن مرضاة الله تعالى.

وهذه النفس واحدة من فريق الشيطان وحزبه، عملها الذنوب، وهدفها اللذات، وطريقها الشهوات، ودأبها المعاصي.

والعبد الواقع في أسر هذه النفس الأمارة لا يستطيع مقاومتها، ولا يملك سوى الاستسلام، والانقياد التام لرغباتها وميولها وغوايتها.

وفي هذه الحالة تكون «النفس الأمارة» أشدَّ خطرًا وأقوى غواية على العبد من إبليس وشياطينه، وهي حقيقة واقعة يؤكدّها ابن عطاء الله السكندري بقوله:





«إن ما يجب أن تكون أشدَّ له خشية هو نفسك التي بين جنبيك، فهي الخصم الذي لا يفارقك، والعدو الذي لا ينفك يحاربك، أما الشيطان فهو قيد الأسر في بعض الأوقات، ألا ترى أن الشياطين حين تُصَفَّد في رمضان لا تمتنع الجنايات من الوقوع، ولا المظالم من الحدوث، ولا الأخلاق من الانحدار، فمن المسؤول عن ذلك كله سوى النفس وغوايتها».

وقوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾^{١٨٨} إنما هو إيضاح لمرتبة هذه النفس وصفتها.

والشاعر «نوعي زاده عطائي» يشبه النفس بالأفعى السامة، لأنها في مثل خطرهما ونعومتها، وفي مثل تخفيها وسُميتها، وفي مثل آفاتها المفجعة، وآثارها على العالم المعنوي للإنسان.

يقول عطائي في شعره:

كل خلق ذميم صار كالأفعى ورأس الأفاعي النفس الأمارة
والمؤمن الحصيف الواعي الحريص هو الذي يبذل دوماً كل ما في وسعه
للنجاة من لدغاتها وسمومها وآفاتها.

إن إعلان حالة التأهب القصوى، والاستنفار الدائم لجهاد النفس ومجابهتها هو طريق النجاة، فَرُبَّ غفلةٍ ساعةٍ تودي بك إلى الخسران حتى قيام الساعة.

فمن أراد أن يريح فرسه فاته العدو، ومن أراد أن يغمد سيفه خسر المباراة، ومن أغمد سيف عقله وإرادته في غمد غفلة النفس خسر المعركة الكبرى في الدنيا والآخرة؛ ذلك هو الخسران المبين، ولا ينجو من ذلك سوى عباد الله المخلصين، أي هؤلاء الذين يستمدون العون والحماية منه سبحانه، مثل سيدنا





يوسف عليه السلام، وقصته مع السيدة زليخة في بيت عزيز مصر، ويقص علينا القرآن تفاصيلَ معبرةً عن عجائب قصة يوسف عليه السلام، ذلك الشاب جميل الصورة، نقي السريرة، والأحوال التي تقلبت به خفصاً وارتفاعاً، حتى كانت الفتنة الكبرى التي نسجت خيوطها امرأة العزيز.

ويوضح المولى سبحانه هذه الحادثة في الآيات الكريمة الآتية:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^{١٨٩}

لقد تنزلت ألطاف الله بالمدد الإلهي على سيدنا يوسف عليه السلام، فكانت ترياقاً ضد سموم أفاعي النفس الأماراة المتمثلة في زليخة وحبائلها، أما هؤلاء الذين لم تبلغ نفوسهم اللطف، ولم ترق درجاتهم إلى نوال المدد، فقد ألجأهم الله تعالى إلى الاعتصام بتقواه، واتخاذها مجنّةً ضد سهام النفس وغوائلها.

وقد وضع الله تعالى لنا المنهج الرباني الحكيم الذي يقينا الاقتراب من شواطئ بحر المعاصي، فضلاً عن الخوض فيه. فالإسلام -في تشريعاته الوقائية- لا يحرم الزنا فحسب، إنما هو يحرم ويمنع كل ما يؤدي إلى ذلك الطريق، أو يسهل الوصول إليه من الخلوة والنظرة، وغيرها من المقدمات.

فإذا عدنا إلى الحادثة الزليخية ومجمع العبر والبلايا اليوسفية، نجد «البلاء العظيم» الذي تعرض له «الكريم ابن الكريم ابن الكريم»، منذ أن كان غلاماً صغيراً إلى أن صار رجلاً بلغ أشده، وبلغ معه الاختبارُ أشده، ربما كان ذلك هو الثمن الذي يدفعه في الدنيا، ليكون الجزاء في الآخرة أيضاً بالغاً أشده.





لقد اجتمعت عناصرٌ وعواملٌ وخيوطٌ نسجت طولاً وعرضاً نسيجاً محكمًا في لحمته وسداه، وأفضت إلى ابتلاءٍ قلَّ أن نجد في عالم المعنويات له مثيلاً: شابٌّ يافعُ الشباب نابضٌ بالحياة، جمع من الحُسن ما لم يجمعه إنسي، ونال من انجذاب القلوب إليه ما جعل صفوة النساء يقطعن أيديهن، ووضع في مكانة تجعل المعصية أقرب إليه من شراك نعله ومتناول يديه.

وامرأة جمعت مع الحسن الوافر مالا أوفر، ومع الجاه والشهرة حظًا أكبر، وإلى جانب ذلك كله جاذبية وشهوة أكثر، ثم تديبرًا وتهيئة للمعصية أشد حنكة.

فقد غَلَقَت الأبواب، وغَيَّيت الحُجَّاب، وهَيَّأت الأسباب، في أيسر معصية تنالها النفس، وأعظم ذنب يقترفه البدن، فقالت المرأة: «هيت لك» في إصرار سبقه إعداد، وأحاطت به تيسيرات، وكلما كانت التيسيرات أكثر كانت الصعوبات على يوسف أكبر، فاشتد عليه البلاء والامتحان، وصَعَبَ عليه الأمر حتى لا يطيقه إنسان، حتى جاءه من الله تعالى مدد وبرهان، ويصف القرآن الموقف قائلاً: «لولا أن رأى برهان ربه»، وكان طوق النجاة الذي ألقاه الله تعالى إليه، وحبل السماء الذي تعلق به هو: «معاذ الله».

«اللجوء إلى الله» هو ملاذ المستجيرين وغوث المستغيثين وطوق النجاة في خضم الحياة، وحبل السماء المنقذ من برائن البلاء؛ لكن من يستحق هذا المدد المنقذ، ومن الذي يدرك هذا اللجوء المعجز؟

إنهم أهل التقوى؛ الذين قويت لديهم مشاعر مراقبة الله والخوف من سلطانه تعالى، فقاومت مشاعرهم رغبات النفس الأمارة، وتصدت لأوامرها، ونجت من بلواها.

ولعل الاختيار الأصعب للشباب مواجهة شهوة امرأة وإغرائها، وقد هُيئت الأسباب وأسُدلت الستور.





لكن مَنْ أطفأ نار الشهوة بالتقوى، واستظل في الدنيا بمجنة الأخلاق، كان جزاؤه في الآخرة أن يستظل في ظل عرش الرحمن، كما أخبر النبي ﷺ:

«...رجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله...»^{١٩٠}

وإذا كان الإغراء والوعد لم يُجد مع نبي الله يوسف ﷺ، ففعل الوعيد والتهديد ينفع معه، فقد تواصل الإغواء، وطال الامتحان، وبعد أن كانت قد هيأت له امرأة العزيز أسباب الغواية فأعرض عنها، وأعدت له أيضًا غياهب السجون، لكن كمالات المقام التربوي وسموه، واكتمال الرعاية الإلهية، وشمول الكنف الرباني، كان السبب الدائم للنجاح والنجاة، وكانت نجاته هذه المرة هروبًا إلى بلاء أقل قسوة وأسهل مراسًا إذ قال:

﴿... رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^{١٩١}

فيكرر بذلك اللجوء والاستعاذة بلطف الله وحده، فهو سبحانه صاحب الملاذ الآمن، والركن الركين.



والتقوى هي القلعة الحصينة، والدرع الواقى، والترىاق الشافي من كل آفات النفس الأمارة.

وحين تُعرَف النفس على حقيقتها فلن يكون منك إلا الذعر والفرار منها، وها هي الإشارات في قصة سيدنا موسى ﷺ توضح لنا حقيقة هذه النفس وتجليها. فلقد كُلف سيدنا موسى ﷺ بالنبوة في طور سيناء، وجاءه عِقَب ذلك التكليف الأمر الإلهي:

١٩٠ البخاري، الأذان، ٣٦/٦٦٠، الزكاة، ١٦/١٤٢٣؛ مسلم، الزكاة، ٩١/١٠٣١.

١٩١ يوسف، ٣٣.





﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾^{١٩٢}

لقد أظهر الله سبحانه قدرته لموسى عليه السلام في العصا، واستأنس بهذه القدرة، وحين اصطفى الله موسى عليه السلام نبياً، وتكلم معه عن قرب، وألقى عليه بعض التكليف، خاطبه قائلاً:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾^{١٩٣}

فأجابه سيدنا موسى عليه السلام:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾^{١٩٤}
فأمره الله تعالى:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾^{١٩٥}

فاستجاب موسى سريعاً لهذا الأمر الرباني:

﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾^{١٩٦}

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن فرّ منها:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾^{١٩٧}

لقد ذكر سيدنا موسى عليه السلام في كلامه مع رب العالمين، وفي إجابته البديهية عن العصا التي في يمينه أنها من المهمات الدنيوية والعلائق المادية، فأمره الحق

١٩٢ القصص: ٣١.

١٩٣ طه: ١٧.

١٩٤ طه: ١٨.

١٩٥ طه: ١٩.

١٩٦ طه: ٢٠.

١٩٧ طه: ٢١.





تعالى برميها والتخلص منها، وكأنه يأمره أن يخلع من نفسه كل سبب يعتمد عليه من دون الله تعالى، فلا يعتمد على غيره، ولا يتعلق إلا به سبحانه.

وسيدنا موسى عليه السلام حين نفذ الأمر الإلهي، وألقى أسباب الدنيا وعلائق النفس أظهر الله تعالى له النفس على حقيقتها حية تسعى، وأفعى ضخمة تلقف ما يافكون من الأفاعي والحبال، فكان ذعره شديداً، وهربه بعيداً، وتجلى الدرس الرباني والمعنى الإشاري في الآيات:

«يا موسى، إن تلك الحية هي نفسك، وهي العلائق والأسباب التي تركز إليها من دون الله تعالى، فانظر كيف كانت حقيقتها حين ألقيتها، فإذا هي حية تسعى، وكيف فررت منها فرعاً ومُلئت منها رعباً.

يا موسى، إنك منذ اليوم نبي موحد، فكيف ترتبط بالأسباب، ولا يكون ارتباطك الأعز والأوحد برب الأسباب؟

كيف تعتمد في عالمك المادي والمعنوي على الأشياء!

وكيف يسمح لك أدبك النبوي وسلوكك التوحيدي بأن تعدد أوجه الاستفادة من أشياء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان!
تذكرُ الأشياءَ ولا توحد رب الأشياء!

ثم كيف يكون لك فيها مآرب أخرى؟ بل كيف يكون لك أصلاً اتصال مع أي أشياء أخرى؟

إن أولى خطوات التوحيد ترك الاعتماد على الأسباب، والتسليم المطلق لله تعالى، والتوكل عليه سبحانه حق التوكل.

يا موسى، كما ألقيت عصاك، ألق كل الأسباب والعلاقات، وتخلص من كل الطلبات والرغبات، حينها ترى نفسك على حقيقتها، فتفر منها إلى الله».





وقد قيل:

«مَنْ سَمِعَ بِقَلْبِهِ نِدَاءَ رَبِّهِ، وَرَأَى بِبَصِيرَتِهِ نُورَ جَمَالِهِ، وَأَدْرَكَ سُبْحَاتِ جَلَالِهِ، فَإِنَّهُ يَنْخَلَعُ مِنْ نَفْسِهِ وَدُنْيَا، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيَلْجَأُ إِلَى كُنْفِ اللَّهِ، وَيَأْوِي إِلَى فَضْلِ وَكَرَمِ مَوْلَاهُ، وَيَتَجَرَّدُ مِنْ كُلِّ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ».



والإنسان يترك سعادته الحقيقية، ويتنازل عن حياته الأبدية والأخروية -بتأثير النفس الأمارة- في مقابل بخس من اللذة الزائلة الدنيوية الفانية، وهكذا بأقل القليل تغريه على ترك منازلٍ عِلِيَّينَ، لتهوي به إلى أسفل سافلين.

هذا الإنسان المبتلى بالنفس الأمارة يركبه العناد، فيتنبك طريق الحق، ويعميه الكبر عن النظر إلى سبيل النجاة، وتشغله سفاسف الأمور عن معاليها، فيشغله الزور عن الذكر، ويلهيه اللهو عن التسييح، ويستغرقه الكذب والنميمة والأفعال الذميمة عن لطف الذكر وطيب الكلام والأفعال العظام.

فهل يترك الجنة إلا جاهلاً، وهل يعمى عن جمال الله تعالى إلا غافلاً، وهل يتنازل عن السعادة الأبدية إلا إنسان خُتِمَ على قلبه وسمعته وبصره.

إنها النفس الأمارة التي تسيطر فيها الروح الحيوانية على الروح السلطانية، وتتحكم الصفة الحيوانية بالنفس حتى تفقد الصفة الإنسانية.

ويقول المولى رحمه الله في هؤلاء:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^{١٩٨}





إن هذه هي صفات أهل الغفلة، الذين تحجرت مشاعرهم فلا يقدرون حقيقة الأشياء، ولا يرونها على طبيعتها، فيسوغون لأنفسهم سدورهم في غيهم، متعللين بتأجيل التوبة وتأخير العذاب، أَلَسَ عليهم الشيطان مفاهيم الأشياء، وقلب لهم الأمور، فكأن الإمهال إهمال، وكأن الرحمة إغفال، وكأن الآية تلو الآية، والفرصة تلو الفرصة، تأييد على الباطل، وتغيب أبعد لغفلة الغافل؛ حتى استمرؤوا الذنوب، واستلذوا المعاصي، واستصغروا الكبائر، وتهاونوا وتناسوا ظُلْمة المصائر.

وما أعظم تحذير الله تعالى عباده حين يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ١٩٩

ومن مساوئ النفس الأمانة أنها تعبت بمشاعر الإنسان فتشوه مفاهيمه، وتضعف عقله ومداركه، فهو في غفلة شديدة عن السعي الحثيث نحو الآخرة، يعبر صحراء الدنيا بلا زاد ولا راحلة، يأوي إلى واحة غنّاء في طريقه فلا هو يتزود منها ولا يستعد لما هو مُقَدِّم عليه، فلا هو بالخير يتزود، ولا عن الشر ينتهي.

وفوق ذلك كله إذا تصادف أن قام أحدهم بخير ما مهما كان قليلاً، فهو في عينه كبير، وفي موازينه كثير، لا يزال يكبر في نفسه حتى يشغله عن غيره من الخيرات، وإذا اتفق أن شعر ببعض الندم على منكر ما، فلا تزال به نفسه الأمانة تطمئنه وتواسيه حتى يتلاشى تأثير الندم، ويفقد الإنسان قدرته على التغيير في السلوك نحو الأقوم، ويفقد قدرته على التوجيه في الطريق نحو الخير.





إن المؤمن في هذه المرحلة كمريض بحاجةٍ إلى دواء ليتخلص من النفس الأمارة، وينتقل إلى النفس اللوامة، ولذلك كان من أهم الأصول الضرورية في التداوي المعنوي محاسبته لذاته محاسبةً دقيقة. ويجب على العبد أن يعرف أن الله -صاحب العظمة والجلالة- مَطَّلَعٌ على كل شيء، فيعزم على التوبة، ويفكر في الأسئلة التي ستُوجَّه إليه في القبر، والحساب يوم الحشر، والعذاب الشديد في سقر، ويجب على العبد أثناء التوبة أن يُخلص ويشعر بالندامة، ولا ينجي الحق تعالى بلسانه فقط، بل ينجيه بالقلب أيضًا.

فالندم حين يعض القلب ويسكب فيه مرارته، يُخرج منه حبَّ المعصية والإصرارَ عليها، فتكون التوبة نصوحة صافية، وليست شعلة من النار تهيج فجأة ثم ما تلبث أن تتمد، وحين تبرد حرارتها يبحث القلب عن معصية يروي بها ظمأه إلى الذنوب واللذة الشهوانية ولسان حاله يقول:

رمضان وكَلَى هاتها يا ساقِي مشتاقة تسعى إلى مشتاقِ

فهى توبة زائفة مؤقتة، وهي توبة المنافقين المستهزئين بمقام التواب، غير المدركين لعظمة الغفور الرحيم.

أما التوبة الحقيقية فهي التي يروي بذرتها الندم، ويشيد بنيانها تركُ الإصرار، وينمي فروعها التعهد بعدم العودة، وينبت ثمرها ترك المعصية أبدًا.

وفي طريق التوبة والتخلص من النفس الأمارة، يجب على العبد أن يجاهد ساعيًا في معرفة كلمة التوحيد، والتعمق في روحها، وإدراك حقيقة معانيها، وتنفيذ متطلبات القول، وما وراءه من فعل، والفعل المطلوب في الأساس -تنفيذًا لكلمة التوحيد- هو مراعاة الأحكام الشرعية الضرورية على أقل تقدير.

وبمجرد قول «لا إله» يجب أن تنفي من قلبك -كما نفيت بلسانك- كل الأغيار من دون الله تعالى، وكل معبود للشهوة سواه، فتنفي كل أوثان الهوى، وتحطم كل أصنام الرغبات، وتمحو آثارَ كل تعلقٍ بغير ذاته سبحانه، وتنفي كل توجُّه وقصد لغير جلاله تعالى.





ثم بعد أن تنظف قلبك من كل تماثيل الشرك، تنطلق كلمة «إلا الله»، ومعها تثبت حقيقتها في جوهر قلبك، فيكون القلب هو عرشه وحده، لا يدنو من مكانه شيء من رغبات النفس، فلا يكون في قلبك إلا الله ﷻ، حينها يرتقي إيمان العبد من التقليد إلى التحقيق، وتنتقل أعماله الصالحة من التمثيل إلى التوثيق؛ ليلعب في النهاية إلى كمالات الطريق.

وكان من دعاء محمد أسعد أفندي:

«جعلنا الله آمرين للنفس الأمارة ونائلين للنفس المطمئنة بمقتضى مقولة: (الحرُّ مَنْ كان أميراً على نفسه) وجعلنا من المستحقين لمقام خطابه الجميل حين قال:

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^{٢٠٠} ! آمين!^{٢٠١}

ب. النفس اللوامة

يدرك المسلم أن الله عفوٌ غفور مهمل ارتكب العبد من المعاصي، فهو يركن إلى هذا الغفران، أما إذا أراد التوبة بصدق، وشعر بالندم يحرق الأعماق، وجاهد نفسه للإقلاع عن الذنوب؛ عندها ينتقل المرء من حالة النفس الأمارة إلى حالة النفس اللوامة.

واللوم في اللغة يعني المؤاخظة والتقريع، والنفس اللوامة هي التي يغالبها الشعور بالندم على ما قصرت في جنب الله تعالى، وما أهملت من حقوق وواجبات، وهي النفس التي تلاقي تعذيب الضمير في كل حين على انحرافها عن منهج الله وعدم التزامها بأوامره ونواهيه سبحانه.

٢٠٠ الفجر: ٢٩-٣٠.

٢٠١ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، دار السعادة ١٣٤٣، مطبعة أحمد كامل، ص ٤٣، رقم: ١٧.





هذا اللوم والندم هو المقدمة الأولى الأساسية للتوبة، والمدخل إلى المغفرة، والخطوة الأولى نحو طريق الهداية، والبعد عن طريق الغفلة، والانتصار -المؤقت- على الرغبة في اقتراف الذنب.

ويحدث الندم بعد الوقوع في الذنب مباشرة، عندما تتخلص الروح السلطانية من أسر الروح الحيوانية، فيلوم العبد نفسه، ويعيب عليها معصيتها، ثم يشرع في الاستغفار.

وتبدأ بوادر الإفاقة من الغفلة، فتجد في قلبك بعضاً من نور، فتسرك حسناتك، وتحزنك سيئاتك، ثم لا تجد ميلاً قوياً للشهوات، ولا اندفاعاً نحو الرغبات، بل سعيًا من النفس لمجاهدة الإفراط في السيئات، والبعد عن المعاصي.

وهذه حالة الخاضع لأمر الله تعالى على الدوام، المكثّر من الأعمال الصالحات، المخلص فيها لوجه الله تعالى.

لكن ذلك الإخلاص منقوص غير تام، فلم تصل أنفسهم بعد إلى حالة النضج والطمأنينة، ولا أرواحهم إلى حالة السكينة التي يلهمها إياها الفيض الرباني، فهم رغم عملهم لوجه الله تعالى يرغبون أن يطلع الناس على تلك الأعمال، وأن يشتهروا بتلك الأحوال، وهم بذلك ما زالوا يحملون بعض طبائع السوء للنفس الأمارة، فتلومهم النفس اللوامة.

وقد ورد في القرآن الكريم اسم هذه النفس حين أقسم المولى ﷺ:

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^{٢٠٢}

هذا الاسم «اللوامة» ليس مجرد كلمة ينطقها اللسان؛ إنما هو فعل وشعور تدور رحاه في الجنان ليؤدي إلى النتيجة المطلوبة، وهو عبور الحد الفاصل والدقيق بين «النفس الأمارة»، و «النفس اللوامة»، وإلا منعك الكبر من لوم نفسك لومًا حقيقيًا، فبقيت تحت حكم النفس الأمارة.





يقول المولى سبحانه في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَّا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلٍ

الْوَرِيدِ﴾^{٢٠٣}

لذا؛ يجب على الإنسان أن يكون شديد الحيطة والحذر من وساوس هذه النفس ومداخلها، وألا يأمن جانبها، وألا يتهاون في مراقبة أفعالها، فهي تُفسد من حيث تُظهر الإصلاح، فتراها تُظهر التواضع المصطنع أحياناً؛ لأنها تريده، وتحب أن تُحمد عليه، فقد أصابها الرياء، وفارقها الإخلاص، وانزوت فطرتها، فتواري «التواضع»، وجاء «الفخر بالتواضع»^{٢٠٤}

ويستطيع المرء أن ينجو من هذه الوسائس، ويغلق أمام وساوس النفس تلك المداخل إذا هو أخضع نفسه للتربية المعنوية، وأنسها بصحبة الصالحين، ومتابعة المرشدين، عندها يتحقق الثبات على التوبة، والتطهر من خبائث الأفعال.

ولكن تبقى هناك في القلب بعض العادات، وفي الروح بعض الآفات، وعليك أن تواصل الجهاد والانتقال من مرحلة إلى أخرى أعلى منها، وأن تتجاوز مرحلة النفس اللوامة إلى غيرها.

والمرحلة التي تلي مرحلة النفس اللوامة هي «النفس المُلَهَّمة»، لكن التجاوز إلى هذه المرحلة يحتاج إلى أحد الأصول المهمة في التربية المعنوية، وهو ما يسمى «الرابعة»، إنه الارتباط القلبي الدائم مع المرشد الكامل، فالمرشد الذي أخذت عليه عهدك وأسلمت إليه قيدك، عليك أن تلتصق به كالرضيع مع أمه.

٢٠٣ ق: ١٦.

٢٠٤ الفخر بالتواضع: هو مدح الذات بما يوحى بالتواضع. مثل أن يقول المرء: «أنا فقير وعاجز، إلا أنني أختتم القرآن في ثلاثة أيام»، وذلك كي يمدح ذاته.





تتطلب مرحلة النفس الملهمة الالتزام التام بالأوامر الإلهية، والحذر التام في كل السلوكيات والأحوال، ومداومة حساب النفس ومحاكمتها على كل صغيرة وكبيرة، وتجديد التوبة في كل حين، ثم السعي بتدرج للتخلص من آفات قلبك وعيوب نفسك ومذمات أخلاقك، فتتعرف على أكثر طباعك سوءاً، وتبدأ صادقاً في التخلص منها والتحلي بضدها رويداً رويداً، وسيساعدك في ذلك أن تنظر إلى إخوانك المؤمنين لتراهم بمرآة نفسك، وتعلم أنهم أيضاً يرونك بالمرآة نفسها، فالمؤمن مرآة أخيه، فإذا أحببت أن يروك كما تراهم، أو إذا خجلت ونفرت، فستعلم كم هي مسيئة تلك العيوب إليك، وكم هي مشوهة لصورتك، وكم هي بغیضة إليك وإليهم، فتهجرها ملياً، وبعون الله الله تنزّه عنها و تتبرأ منها.

والذكر الدائم لله ﷻ هو أحد معارج الوصول لهذه النفس الملهمة، مع اليقظة التامة في مواجهة المعاصي، والسعي قدماً لأن تملأ قلبك بنور الله ﷻ ومحبه.

ت. النفس الملهمة

وهي المرتبة الثالثة من مراتب النفس، والمرحلة التي تصل إليها بعد النفس اللوامة، وذلك حين تغلب عليك التوبة من الذنوب، ويصبح ديدنك الاستغفار من المعاصي، وتجاهد للصدود عنها والحذر منها، وينصرف قلبك عن سبيلها منشغلاً بجهد نفسك تحت مظلة الإرشاد المعنوي، وفي أنس الصحبة الصالحة مدعوماً بكنف وحماية «الرابعة».

وفي هذه المرحلة يكون العبد قد وصل من الإخلاص إلى درجة تجعله متوجهاً إلى الله تعالى، واضعاً رضاه سبحانه نصب عينيه، منشغلاً عن مراعاة الناس، متعلقاً قلبه بربه، متغافلاً عما سواه تعالى، وبفضل لطف الله وفيوضاته يصبح قلبه فرقاناً بين الخير والشر، ومجنّة ضد الهوى، وماءً يطفئ نار الشهوة، ونسيماً يلطف حرارة الرغبات، ويصفو القلب لتتجلى فيه حقائق الإيمان.





وقد جاءت كلمة «مُلْهَمَة» التي تصف مرتبة النفس هذه من القرآن الكريم حين قال الله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^{٢٠}

أي إن النفس المُلْهَمَة هي النفس التي تتلقى الإلهام، والعبد الذي يعيش بهذه النفس ينكشف له قليل من المعرفة والكشوفات والحقائق من لدنه تعالى، وذلك ببركة مراعاته الأوامر والنواهي الإلهية على أفضل وجه، فيتوجه حينئذ العبد بالعشق إلى عالم الأرواح، ويصل إلى النضج الذي يُمكنه من نيل بعض النسمات والإلهامات الربانية، بيد أن فهمها وتمييزها -أرحمانية هي أم لا- يتطلب الخضوع المطلق لمرشدٍ معنوي.

وينبغي الحذر الشديد هنا أيضاً، فالنفس التي أصابتها الهزيمة، والروح الحيوانية التي طردت من سلطانها، لن تستسلم بسهولة، ولن تترك الروح السلطانية تستمتع بالانتصار، وتتذوق حلاوة الكمال؛ بل تناوش وتجاوز وتراوغ، ولا تنفك تدبر حيلها ودسائسها الخفية، حتى لا يهنأ العبد بكمال التسليم والتوكل على الله تعالى، وحتى لا يتحقق له الكمال الظاهري والفعلية في الباطن.

وبالتالي؛ لا تزال الطباع السيئة تجد لأقدامها موطناً في النفس، ولا تزال الأخلاق الخبيثة تجد لآفاتنا أثراً في القلب، مع أنها لا تكون متجذرة، فتجد أثراً للوساوس وضيق القلب والأوهام والشهوات، وشيئاً من القلق وعدم ثبات للطمأنينة، ولا تجد سعادة التسليم الكامل لله تعالى.

ولا يزال طول الأمل يداعب الإنسان، ولا تزال هموم العيش والمعيشة تشغله، والقلق على المستقبل والخوف على الرزق يشاغله، ولم تترك النفس تماماً إلى فضيلة التوكل، ولم تستوعب تماماً معاني اسم الله «الرزاق».





إِذَا، فالتسليم لله تعالى، والتوكل عليه سبحانه لما يتحقق بتمامه في القلب، والرضا بقضائه ﷻ لما يترسخ في المشاعر؛ بل يكون فقط تقليدًا ظاهريًا.

إذ إن نجاح العبد في هذه المرحلة هو نجاح صغير، متمثل في هزيمة الروح الحيوانية، وترك رغبات النفس وتأديبها بعض الشيء، ولَمَّا تَأْتِ بعدُ مراحل غرس الطباع الجميلة والأخلاق الحميدة واستنباتاتها.

وهنا تكون نجاحات الرياضة والمجاهدة في «ترك» ما تُسر به النفس، لكن هذا الترك لا بد أن يتبعه فعل، وهو «ذكر الله»، وذكر الله تعالى يجب أن تُراعى آدابه وتُسلك دروبه بالإرشاد المعنوي والهداية الربانية من لدن أولياء الله.

فلن يستقر الذكر في القلب ويصفو، والقلب لا زال مأخوذًا بهموم الدنيا وشواغلها. إنما يصفو الذكر حين يكون الذكر للتلذذ، والتسبيح مفعماً بالعشق الإلهي، والتكبير ممتلئًا بالوجد، وليس ذكرًا يهدف منه إلى التداوي فقط، والتخلص من العيوب.

وإذا كان الذكر للحب وبالحب، فحينها يطَّلِع العبد عبر الإلهام الربَّاني على أسرار الكون، ويتعجب من مظاهر القدرة الإلهية أمامه ويندهش منها، ويصل قلبه إلى الاطمئنان، ويبدأ بإدراك قول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾^{٢٠٦}

وحين ينال العبد من ربه ذاك النوال، ويمسه من لطفه سبحانه ذاك الجمال تنضح كلماته بالحكمة، وتتألق كلماته بالموعظة.

وكلما توغلت أكثر في هذا الدرب، وكلما نوَّرت بالذكر جنبات القلب، وكلما صرت مهينًا لفيوضات الرب؛ تصاغرت في نفسك الروح الحيوانية، وازدادت سيطرة الروح السلطانية، وتصاغرت لديك الميول السفلية، وصرت





أكثر تواضعًا وقناعة وكرمًا، وقويت عندك روح المسامحة وسعة الصبر وقوة التحمل.

بيد أن إحدى آفات هذه المرتبة هو ظن المرء أنه «صار شخصًا أفضل»، وهذا ما قد يجرّه إلى الكبر والعُجب إذا ما أصابته الغفلة، لهذا يجب على المؤمن في مرتبة النفس المُلهمة أن يعلم دائمًا أنه تحت المراقبة الإلهية، ويرتكز في أحواله وسلوكه على مشاعر التواضع وإدراك فنائه، وينبغي له أن يتفكر في الموت وعدم الغفلة عن التفكير في الآخرة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«أكثرُوا ذكر الموت فإنه يَمَحِّصُ الذنوب، ويزهد في الدنيا، فإن ذكرتموه عند الغنى هدمه، وإن ذكرتموه عند الفقر أرضاكم بعيشكم»^{٢٠٧}

وينبغي على السالك الذي وصلت نفسه إلى هذه المرتبة أن يحيا بمقتضى نصيحة سيدنا عمر رضي الله عنه حين قال:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسِبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنَ لكم، وتزَيَّنوا للعرض الأكبر، وإنما يخفُّ الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»^{٢٠٨}

ث. النفس المطمئنة

هي النفس التي اطمأن فيها الإيمان ورسخ اليقين، فسكنت بتقواها وقويت بأخلاقها، وتطهرت من أمراضها، وسمت بالذكر روحها، بالامتناع عن نواهي الشرع، والامتنال لأوامر الحق.

في هذه المرحلة والمرتبة تمت عملية التخلية بإخلاء النفس والقلب والروح من كل الآفات والأمراض والأغراض، وإغلاق منافذ الوسوس ومواقع

٢٠٧ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٤٧ / ٣٠٣٥

٢٠٨ الترمذي، القيامة، ٢٥ / ٢٤٥٩؛ ابن كثير، التفسير، ١، ٢٧.





الدسائس، ليصبح المجال بعد ذلك طاهراً مهيباً لعملية التحلية، فتترسخ محاسن الأخلاق، ويكون المرء جديراً بأن يتخلق بأخلاق سيد الخلق، وأسوة البشرية رسول الله ﷺ، فتصير حليته الصبر، ووسامه التوكل، وقلادته الرضا، وتواجه التسليم لله سبحانه.

والنفس المطمئنة هي نفس أهل التقوى واليقين، وهي مرتبة أهل الله العارفين، الذين انشغلت بذكر الله قلوبهم، واطلعت على بواطن أحكام الشرع عقولهم. يقول الإمام الرباني -رحمه الله-:

«إن العبودية والعبادات هي محض تقليد، لكن حين يصل المرء إلى مرتبة النفس المطمئنة يغدو التقليد تحقيقاً».

ويقول شيخنا سامي أفندي:

«إن دخول الإسلام بالمعنى الحقيقي منوط بالتخلص من النفس الأمارة، واتباع أوامر الله تعالى، وبناءً على ذلك، تُطلق كلمة (الإسلام المجازي) على الإسلام الذي يُصدِّقه القلب فقط قبل الوصول إلى النفس المطمئنة، وتُطلق كلمة (الإيمان الحقيقي) على الإيمان بعد أن تصل النفس إلى مقام النفس المطمئنة»^{٢٠٩} أما الترقى في العبودية إلى مستوى التحقق، فهو الوصول إلى «مرتبة الحقيقة» الموجودة في تسلسل الشريعة، والطريقة، والحقيقة، والمعرفة.

وكلما ارتقى العبد في طريق السلوك والمجاهدات ازدادت الأعباء الملقاة على كاهله، ولم تنفعه المبررات التي يتعلل بها عند الكبوات، فإذا وصل إلى سن الرشد في الطريقة بعد أن يُكمل السير والسلوك، وتنتهي مرحلة الطفولة المعصومة التي لا يُؤاخذ فيها على عيوبه، ولا يُلام على هفواته؛ حينها يصير مسؤولاً مؤاخذاً على أصول الشريعة وآداب الطريقة، وهنا تقف مسؤوليته عند

٢٠٩ محمود سامي أفندي، المصاحبة، إسطنبول ٢٠٠٨، ١، ١٢٧-١٢٩.





حدود درجته، ولا يُحاسب على آداب الحقيقة إلا بعد أن يخطو خطواته الأخيرة في مرحلة «النفس المطمئنة» عبر «الحقيقة»، ويكون قد وصل إلى سن الرشد فيها، ليُحاسب بمقتضى آدابها.

وتختلف موازين الأخطاء باختلاف الدرجات، وكما يقال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، فإن بعض المباحات في «الشريعة» تُعد ذنباً في «الطريقة»، وبعض الهفوات في «الطريقة» تعد كبائر في «الحقيقة» لدى العارفين. وإذا ضربنا لذلك مثلاً نقول:

الإسراف في الطعام لدى الشريعة هو الأكل بعد الشبع.
أما الإسراف في الطعام لدى الطريقة فهو الأكل حتى الشبع.
والإسراف في الطعام لدى أهل المعرفة فهو -إضافة لما سبق- ألا يرى العبد التجليات الإلهية في النعم.
وعلى ذلك يمكنك قياس مدى دقة الموازين، وتضخم المسؤوليات مع الرقي في الدرجات.

وحين تبلغ النفس المطمئنة عين الحقيقة، وتستروح برد اليقين^{٢١٠} وراحة السكينة بنوال عناية الله تعالى وتوفيقه بعد أن تخلصت من هموم الدنيا، ومآسي القلب، وجواذب الروح، تنطلق مرفرفة في سماء الوجد لتتال حظها من منحة «الإلهام» و«الكشف».

ففي هذه المرتبة تنزاح ستائر الغفلة عن بصيرة القلب، وتنحسر أغطية الشك عن بصيرة العقل، فيرى كلاهما بعين اليقين حقائق الحكمة، بعد تمام التسليم

٢١٠ اليقين: كلمة تعني الحزم والبتات، أي لا مكان للشبهة في اليقين، وهي الحالة التي يكون فيها القلب مطمئناً بحقيقة الشيء أمامه، واليقين أيضاً تجاوز الدلائل المعروضة، ورؤية الأمور بقوة الإيمان واضحة جلية، ويقسم القشيري اليقين إلى ثلاثة أقسام: ١. علم اليقين: ما كان بشرط البرهان. ٢. عين اليقين: ما كان بحكم البيان. ٣. حق اليقين: ما كان بنعت العيان.





لله تعالى والاستسلام لقضائه وقدره والاطمئنان لرضائه، ونرى العبد يقبل من التكاليف الدينية والأوامر الإلهية ما ثقل وما غمض بلا أدنى ريبة، ويقوم بها دون أدنى تقصير، وعلى أفضل وجه ولو اضطرت الظروف أن يواجهه العالم كله بتكاليف إيمانه وحقائق يقينه، كمثل نوح عليه السلام عندما كان يصنع السفينة في قلب الصحراء منفذاً أمر ربه في يقين لا يدانيه ريب رغم سخرية الناظر، واستحالة الأمر الإلهي في عيون الناس، لكن أهل اليقين ينظرون من نافذة الحقيقة إلى العالمين المادي والمعنوي، فيرون ما لا يراه المبصرون.

وأمثال هؤلاء لا يضرهم كيد الكائدين، ولا أذى المسرفين، ولا سخرية المجادلين، فإذا رسخ في القلب اليقين، لن تزعجه مكائد العالمين.

وهاهم سحرة فرعون يأتون في صلف المتكبرين، عوناً للسلطان على أهل الإيمان، يطلبون نوال الدنيا وعطايا أهلها، لكنهم يرون الحقائق جلية، والآيات بيّنة.

وكان هول المعجزة يسارع في العبور بهم من مرحلة إلى مرحلة في السير والسلوك، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فيترسخ في قلوبهم اليقين، فيؤمنون ولا يابّهون بما دون ذلك من فوات نعيم الدنيا، وإقبال عقابها الأليم، ويكون الرد الحاسم البليغ على تهديدات فرعون:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. وَمَا نَنفَعُ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَّنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^{٢١١}

فاستحقوا بذلك الثناء والنداء الإلهي:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾^{٢١٢}

٢١١ الأعراف: ١٢٥-١٢٦.

٢١٢ الفجر: ٢٧.





هذا الثناء الرباني لم تنله الأنفس الأدنى درجة؛ لا النفس الأمارة، ولا النفس اللوامة، إنما نالته النفس التي اطمأن بالإيمان قلبها، وسكنت باليقين روحها. ثم تواصل هذه النفس جهادها، وتضع مقودها ولجامها في يمين طاعة الله، وتستسلم لقضائه سبحانه، لتنعم بالوصال مع الله، وتحظى بالدنو من جنبه تعالى، فترتقي في الدرجات، وتداني الكمالات، وتصعد إلى مراتب النفس الراضية، والنفس المرضية، والنفس الكاملة.

ج. النفس الراضية

هي النفس التي وصلت إلى حالة الفناء في إرادة الله تعالى، فتلاشت إرادتها أمام إرادته، وفنيت مشيئتها أمام مشيئته، وتوجهت إليه سبحانه بكل كيائها، فلم يبقَ لها توجه ولا رغبة لأحد سواه جل في علاه، فخضعت لحكمه، وقنعت بحكمته، ورحبت بقدره، وفرحت بقضائه.

ويقول الحق تعالى مخاطباً هذه النفس:

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^{٢١٣}

وكلمة «راضية» في الآية تشير إلى مسمى هذه النفس ومقامها.

ذلك الرضا يعني أن تصبر النفس على كل ما يختبرها الله تعالى به من امتحانات، وأن تخوض ما قسمه لها من ابتلاءات، وأن ترضى بمراد الله لها من مصائب وملامات مهما كثرت وتنوعت، يقول سبحانه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^{٢١٤}

٢١٣ الفجر: ٢٨.

٢١٤ البقرة: ١٥٥.





تُعَدُّ الآيَةُ أصنافاً وجوانب ومراحل من البلايا والرزايا، ثم هي تبشر الصابرين، ولكن الدخول في زمرة الصابرين يتطلب الانتساب إلى زمرة الذين ارتقوا بالنفس، فترضى بما أُبتليتَ مهما بلغ البلاء، ولا تشكو من الرزايا مهما كان القضاء، ولا تتدمر مهما عاندتك الدنيا وتقلبت بك الأنواء؛ بل تُبدي التسليم والرضا التام، وكأنك تبصر ما وراء القضاء من حكمة، وما وراء الحكمة من إرادة إلهية.

وخير مثال نذكره عن الصبر والرضا هو سيدنا جعفر الصادق عليه السلام، فقد مات بين يديه ولدٌ صغيرٌ له من غصة اعترته، فبكى، لكنه تذكر النعمة في هذا الوقت، وقال: «لئن أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن ابتليتَ لقد عافيتَ» ثم حمله إلى النساء فصرخن حين رأيته، فأقسم عليهن ألا يصرخن، ثم أخرجه إلى الدفن وهو يقول: «سبحان من يقبض أولادنا ولا نزداد له إلا حباً»، ويقول بعد أن وراه التراب:

«إنا قوم نسأل الله تعالى ما نحب فيمن نحب فيعطينا، فإذا أنزل ما نكره فيمن نحب رضينا»^{٢١٥}

ما أشدَّ الابتلاء هنا! وما أعظم الصبر! ثم ما أرقى الرضا! وما أتم التسليم! إنه ابتلاء يناسب سمو المقام وعلو المرحلة، وهي حقيقة وناموس كوني، فكلما ارتقى المرء في الدرجات زادت وقست عليه الابتلاءات، وهو ما عبر عنه النبي ﷺ في الحديث التالي:

عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال:

«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد، حتى يتركه يمشي على الأرض، وما عليه من خطيئة»^{٢١٦}

٢١٥ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص ٨٠.

٢١٦ ابن ماجة، الفتن، ٢٣/٤٠٢٣؛ الترمذي، الزهد، ٥٧/٢٣٩٨





وما يساعد العبد على هذا الصبر، وذلك الرضا؛ هو أن يتجاوز عقبة النفس، فيرضى من ربه كلَّ شيء، لأنه في الأصل يرضى بربه، ويقبل بالتالي كل ما أتى من جانبه سبحانه؛ لأنه يدرك أن المحنة تأتي في أعقابها بمنحة، والاثنان متلازمان، فالمكافآت الكبرى تأتي بعد مجاهدة كبرى، وللطريق المعنوي غرائب وتقلبات وأحوال.

في هذه المرحلة -النفس الراضية- يستوي في عين العبد الخير والشر، ويستوي في قلبه الغم والسرور، ولأنه يوقن أن كل شيء هو بقدر الله تعالى، فإن السعادة والأسى عنده سيان، فكلاهما عطية الرحمن.

وتلك أبيات الشاعر الصوفي تعبّر عن هذه الحالة:

كل شيء من الله جميل أكان وردًا أو شوكة

أو تاجًا أو كفناً أو قهراً أو لطفًا

إنها ليست كلمات تُقال، ولا مبالغات شعراء يقولون ما لا يفعلون، إنها حقائق أحوال نفس جاهدت، ونتيجة سلوك من سار في الطريق وواجه مصاعبه، واعتاد على متاعبه حتى وصل إلى ذلك المقام بعدما أدى مطالبه؛ لذا فالواجب على المرء ألا ينطق بمثل هذه الكلمات هباءً ولا تقليدًا، فقد يأخذ الله تعالى قدرك من لسانك فيعرضك لاختبار المقام وابتلاء المرحلة للتحقق من حقيقة ما تقول، وعندما تجد الاختبار شديد الصعوبة بعكس نطق الكلمات شديدة السهولة يكون الإخفاق كذلك أقرب إلى الواقع من النطق والمنطق.

أما من وصل إلى مقام النفس الراضية حقًا، فإنه يبدأ في الاطلاع على الأسرار الإلهية، ولأنه يدرك معنى الوحدةانية بعمق، فإنه يرى الكمالات في العالم الروحاني، وينال شرف تجليات أسماء الله تعالى وصفاته، ويصير هو مصدرًا للنور، وينوعًا للخير، ونبراسًا للحق، وفيضًا من الأخلاق الحُسنى والشَمائل الفضلى.





والنفس الراضية تتبع أوامر الله تعالى بكل سكينة، وتنتهي عن نواهيها بكل طمأنينة، وتؤدي العبادات بكل إخلاص وتفانٍ، لذا فهي تتكاسل أحياناً في أداء تلك العبادات، لماذا؟

لأن القصد من وراء العبادات التي تُتعب الإنسان الارتقاء في المراتب، أو نيل الكرامات والكشوفات، أو ما شابهها من مقاصد جلييلة، ولكن إذا ما كانت غاية الإنسان من السعي هي الحصول على مثل هذه الكرامات، فإنه يغلق الطريق أمامه بنفسه، وتذهب جهوده كلها هباءً، وفي هذه الحالة تظهر المتاعب والمشقات التي تُنسي الإنسان الذكر والفكر، ولذلك لا ينبغي الأمل إلا من أجل رضا الله تعالى من بداية السير والسلوك إلى نهايته.

فإذا أردت القرب من الله تعالى، فعليك أن تدرك قربته تعالى منك، وأن تعي معنى أنه سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد.

كذلك؛ إذا أردت رضا الله تعالى فعليك أن ترضى عن الله تعالى، برضاك عن قدره وقضاه، والسعي في طريقه إلى منتهاه، والصبر على لأواء الطريق وابتلاءاته، لأن في ذلك الخلاص والنجاة.

ويقول الإمام الرباني عن هذه المرتبة:

«الأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف التي تحصل للصوفية في أثناء الطريق (السير والسلوك) ليست من المقاصد، بل هي أوهام وخيالات تربي بها أطفال الطريقة، فينبغي أن يجاوز جميع ذلك، وأن يصل إلى مقام الرضا، الذي هو نهاية مقامات السلوك والجذبة، فإن المقصود من طيّ منازل الطريقة والحقيقة ليس إلا تحصيل الإخلاص المستلزم لحصول مقام الرضا»^{٢١٧}





ح. النفس المرضية

إذا كانت النفس الراضية هي التي رضيت عن الله تعالى، فإن النفس المرضية هي التي رضي الله عنها بعد أن أتمت هي رضاها عن الله تعالى، وقدمت من الأعمال الصالحات ما تنال به رضاه.

هذه المرتبة والمرحلة -النفس المرضية- هي التي أتمت العمليتين الأهم في التربية: التخلية، والتحلية، فتخلت عن كل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة والآفات المشينة، ثم تحلت بالأخلاق الحسنة والطباع الحميدة، والفضائل والمكرمات. وفيها يجد العبد لذة الرأفة والرحمة والعفو، وحلاوة المحبة والكرم، وجمال الخلق الكريم.

وفيها أيضًا تكون محاسبة العبد لنفسه أشد عسرًا، ومراقبته لها أعظم حيطة، وترصده لمكائد الشيطان أشد حذرًا، ويقظته لحيل إبليس أكثر وعيًا؛ حتى إنه يحاسب نفسه مع كل طرفة عين، ويراقبها مع كل شهيق، ويحذرهما مع كل زفير. وفيها يكون الاستسلام التام لله تعالى، والتسليم الكامل لمشيئته سبحانه؛ حتى يستوي عنده حنو اللطف وقهر الجبروت، طالما كلاهما من عنده سبحانه، فيكون الرضا عن الحاليين هو رضاك عن الله، وذلك هو بشرى المؤمن برضا الله تعالى عنه كذلك في عالم الخلود، كما أشارت الآية الكريمة إلى النفس المرضية في قوله تعالى:

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^{٢١٨}

ويؤكد ذلك أيضًا آية أخرى مبينة لحال أهل الرضا:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾^{٢١٩}

٢١٨ الفجر: ٢٨.

٢١٩ البينة: ٨.





ذلك الرضا هو مرتبة «حق اليقين» التي يطلع العبد فيها على الخفي من الأسرار، وتنكشف عن بصيرته الحقائق المحجوبة عن غير أهلها، فقد أيد الله تعالى بقدرته ما لديهم من حواس وبصائر، وصاروا عباداً ربانيين، وكأن الله تعالى هو أعينهم التي بها يبصرون، وآذانهم التي بها يسمعون، وألسنتهم التي بها يتكلمون، وأيديهم التي بها يبطنون^{٢٢٠}؛ لأن الله عنهم راضٍ، وهم عنه سبحانه راضون.

لذا؛ فإن الله تعالى يكرمهم في مقامهم هذا وأحوالهم تلك، فتذوق أنفسهم تجليات الكمال التي يشاهدها العبد في مرتبة النفس الراضية، وتجد ألطف الأخلاق وجمال الخصال، مثل حلاوة الصبر، وراحة التوكل، ورضا التسليم، وسعادة الرضا.

وهذه الخصال هي التي عاشها الأنبياء واقعاً وأحوالاً، وها هو سيدنا يعقوب عليه السلام يفقد أحب أبنائه، ثم يفقد الآخر، فتبيض عيناه، ويشتد بلاؤه، ثم يصف حاله ومآله، فيحكي عنه القرآن الكريم:

﴿...فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾^{٢٢١}

وها هو سيدنا أيوب عليه السلام مضرب المثل في الابتلاء، لكنه أيضاً كان مضرب المثل في الصبر، وحين طلبت منه زوجته قائلة:

«لو دعوت الله ليفرج عنك حالك»

أجابها:

«لقد وهبني الله تعالى ثمانين عاماً عشتها معافى صحيحاً، وإنني لأستحي من الله جل جلاله أن لا أطيق الحياة في بلائي المدة التي لبثتها في رخائي».

٢٢٠ انظر: البخاري، الرقاق، ٣٨ / ٦٥٠٢.

٢٢١ يوسف: ١٨.





وحين رُمي إبراهيم عليه السلام في النار استقبله جبريل عليه السلام بين المنجنيق والنار، فقال: السلام عليك يا إبراهيم، أنا جبريل، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، حاجتي إلى الله ربي. ٢٢٢

وثمة نفس أخرى - غير تلك الأنفس التي عرضناها - في مراتب التزكية التي يمر بها العبد السالك في طريقه، وهي مرتبة النفس الكاملة، أو النفس الصافية، وهي المفوضة لأهل الكمال.

خ. النفس الكاملة / النفس الصافية

وهي النفس التي بلغت بها التزكية والتربية مرتبة الكمال، وتمام الصفاء، وسمو النضج، ويستحصل العبد في هذه المرتبة على كل أسرار المعرفة بلطف الله وعطائه، وإحسانه الإلهي، وليس فقط بالعمل، فتلك المرتبة من أسرار القدر. فصاحب هذه النفس قد وصل إلى «مقام الإرشاد»، وصار متحملاً مسؤولاً للإرشاد، ومكلفاً بمتابعة رسالة الأنبياء في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، عبر التأثير فيهم بحاله وسلوكه، ومعالجتهم بنفاذ بصيرته في إدراك داء الشخص ودوائه؛ وهؤلاء المرشدون لا يفقدون الأمل في إصلاح الناس مهما بلغوا من الفسوق، فالطريق إلى الله لا يغلق في وجه أحد.





القلب واحد من أكبر ساحات الصراع، وميادين المواجهة بين قطبي الدنيا: الخير والشر، وهو صراع أبدي لا تزال القلوب تضطرب فيه بين النفحات الملائكية والنزغات الشيطانية.



ب. القلب وتطهيره

١. ماهية القلب

للقلب دورٌ محوري وجوهري في عالمنا المادي وعالمنا الروحي، وهو مركز دائرة التربية، ومحط رحلات الأحاسيس، وميزان تقويم المشاعر. ومن مقاصد الدين تربية الناس والوصول بهم إلى درجة من الرقي المعنوي تتطهر معها قلوبهم، فتدرك عبوديتها للخالق سبحانه، وتعمل وفق هذا الإدراك بعد أن تصل قلوبهم إلى درجة من النضج المعنوي تحيا فيه بذكر الله تعالى، وتقشعر خوفاً منه سبحانه.

وإذا كانت الحقائق العلمية قد أظهرت أن الخلية التي ينقطع عنها ضخ الدم لمدة أقصاها أربع ثوانٍ تموت، فما بالنا بالخلية التي ينقطع عنها المدد الرباني والفيوضات الإلهية، أو تلك الخلية التي تنقطع عنها المشاعر الإيمانية وذكر الله تعالى وكل ذلك يضخه القلب؛ فالدم في عالم المادة كالشعور في عالم الروح.

فإذا ما اتجهنا إلى العقل وأثره في العالم المادي والمعنوي وجدناه مركز التفكير، ومجمع إصدار الأوامر والإشارات للأعضاء والخلايا، إلا أن أفكاره وأحاسيسه مصدرها القلب.





إِذَا، فالقلب هو صاحب السلطتين المادية والمعنوية في الجسد والروح حتى على العقل نفسه، فهو الذي يترجم إشارات الحواس ويحولها إلى مشاعر، وهذه المشاعر تدفع العقل إلى اتخاذ قرار تتصرف الأعضاء بموجبه، وبهذا يكون القلب هو المحرك الأساسي لأفعال الإنسان تجاه مواقفه، فالعين ترى حال المرضى، والأذن تسمع أنينهم، واليد تلمس جلودهم، لكن القشعريرة التي تمر من الجلود إلى الجلود تتحرك عبر القلب الذي شعر بالرحمة، فتحوّلت الإشارات العصبية من العين والأذن واليد إلى العقل، لكنها في العقل تظل مجرد مدركات للعالم الخارجي، وأحاسيس تنقل إليه صورة ذلك العالم، أما مشاعر الرحمة والمحبة أو الغضب والانتقام، أو اتخاذ قرار وتكوين رأي تجاه هذه الأحداث، فالمحرك الأول والأخير له هو القلب الذي يصيغ هذه الإشارات العصبية إلى مشاعر، وهذه الحركات الميكانيكية إلى دقات شعورية.

هذه الحقيقة يمكننا إدراكها بسهولة في كل التصرفات البشرية، والخالق المبدع سبحانه حين خلق القلب، حدد له وظيفته وفق فطرته، وهي أنه بوصلة للحق والحقيقة في دنيا المعنويات. وأي شيء يخالف الفطرة؛ تزيغ به الطرقات، وينحرف عن الغايات، فتقلب سعادته ثبوراً، وتتحول نعمته شروراً.

لذا؛ فمن الأسس التربوية أن يتجه القلب نحو غايته الفطرية التي خلقه الله تعالى لها، وكل من أراد أن يربي فعلية تغذية القلب لمواصل سيره نحو تلك الغاية، ودعمه في التوجه نحو الهدف ليوافق الإرادة الإلهية.

وفي الآية التالية يحذر الحقُّ عباده من ذلك الميل القلبي نحو الدنيا، والانحراف الشعوري عن الغاية، منخدعين بالملذات ومغترين بالشهوات، فيقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^{٢٢٣}





ويوضح مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله- ضرورة إجماع الرغبات النفسانية، كي لا يحيد الإنسان عن الغاية الأساسية التي خُلق لأجلها قائلاً:

«لا تهتمنَّ بتسمين بدنك، فمالك في النهاية إلى التراب، إنما الأصل أن تربِّي قلبك، فالقلب هو مَنْ سيرتقي، ويصل إلى مراتب الشرف وينال حُسن المآب».

«قدّم القليل من الدسم والعسل لبدنك؛ لأن مَنْ يزيد في تسمينه عن الحد الضروري يقع في الرغبات النفسانية، ويصل إلى الدناءة في نهاية المطاف».

«ولكن قدّم للروح الغذاء المعنوي، وقدم لها الفكر الناضج، والفهم الدقيق، والغذاء الروحاني، كي تبقى قوية ومقتدرة أينما حلت».

وينصح لقمان الحكيم ابنه بقصد إيقاظه من الغفلة، فيقول:

«يا بُني، إن الدنيا بحر عميق، هلك فيه عالمٌ وخلق كثير، فاجعل سفينتك فيه الإيمان بالله، واجعل حشوها تقوى الله وطاعته، واجعل شراعها الدين، به تجري توكُّلاً على الله، لعلك تنجو ولعلك لا تنجو»^{٢٢٤}

وإذا كان للقلب دور أساسي في حياة البدن وعمل الجسد، فإن دوره أكثر أهمية وأعظم أثراً في الحياة الروحية، لأن الذي يمنح الإنسان صفة الإنسانية هو روحه لا صورته.

فالقلب هو الذي يصل بالإنسان إلى معنى «الإنسانية»، وهو الذي يمدّه بأسبابها ويرفده بينابيعها، ويحقق فيه معانيها؛ لأنه هو الذي يحمل الأسرار الكونية والتجليات الربانية، ويضم في جوهره الحِكم الإلهية.

وبناءً على هذه الحكمة، يتحقق الإيمان بـ«تصديق القلب» قبل «إقرار اللسان»؛ واللافت للانتباه أن «التصديق الجازم» بالقلب كافٍ أكثر من مجرد الإقرار بالذهن أو الفكر.





والإنسان هو جوهر الكون كله، وقد جبله الله تعالى على ما فيه من المتناقضات؛ إذ يحمل في فطرته الخير والشر معاً، كما أن القلب هو جوهر ذلك الإنسان الذي هداه الله النجدين، وهياًه للطبيعتين المتضادتين، للتأثيرات الملائكية وللتدخلات الشيطانية، فالقلب واحد من أكبر ساحات الصراع، وميادين المواجهة بين قطبي الدنيا: الخير والشر، وهو صراع أبدي لا تزال القلوب تضطرب فيه بين النفحات الملائكية والنزغات الشيطانية.

هذه النفحات الملائكية هي التي تمنح القلب أحواله الروحانية وسلوكياته الإيمانية، فتروي في أرضه شجرة الإيمان، وتثمر في رياضه الأخلاق الحميدة، وتلقي ثمارها إلى الناس أعمالاً صالحة، فتحثوهم رافة ورحمة وخدمة، ثم هي تستمد حياتها من معين لا ينفد، عبادات خاشعة، وذكر تطمئن به وتحيًا.

أما تلك النزغات الشيطانية فهي التي تصيب القلب بآفات المادة، وتصرفه عن لذة الروح، فتبدله بالعمل الصالح ذنباً، وبالأخلاق الحميدة عيوباً، وبينابيع الإيمان والتقوى غربة ووحشة، وتغريه ليمضي في سبل الشهوات والنزوات بعيداً عن الله تعالى.

أما صد النزغات الشيطانية وطردها من القلب، فلا يكون إلا بالعبادة الخاشعة، وذكر الله تعالى، فترتقي القلوب حتى تتصاغر أمامها المغريات والأهواء، وتتوالى عليها النفحات والتجليات، ويترسخ فيها الإيمان كجذور الشجر؛ حتى ترقى إلى مرتبة تنكشف فيها الأستار، ويتجاوز القلب كل الأسوار، فيطلع على الكون من نافذة الكشف والتجليات.

فتبدو أسرار عالم اللاهوت المغيب وعالم الناسوت المشاهد واضحةً جليّةً لصاحب هذا القلب، ويمسي الكون بأسراره كلها كالكتاب المقروء.

وليس القلب عضلة إرادية مثل بقية الأعضاء البشرية التي يسيّرُها الناس وفق إرادتهم، ويتحكمون فيها وفق رغبتهم، فالقلب مختلف عنها في تلك الطاعة





وذلك التسليم للإرادة البشرية؛ إذ إنه متأثر أكثر بالعوامل الخارجية، وتراه منساقاً إلى الأحاسيس التي يكتسبها من عالم الماديات أكثر من الخواطر والسوانح التي تأتية من عالم المعنويات في داخله، وكأنه مثل الماء الذي يتخذ شكله ولونه ووضعه من الإناء الموضوع فيه.

أما أرباب القلوب - رواد الطريق والسلوك - الساعون إلى دار السلامة، فهم الذين تمكنت قلوبهم من اختيار النفحات الملائكية، والميل إلى الفطرة النقية، والاستسلام للميول الإيجابية في ساحة الصراع الكبرى بين الجانبين، لأنها تملك التركيبة الحيوية الفعالة التي تجعلها في الفريق المنتصر.

وتعرض لنا الآيات الكريمة الآتية هذا الموضوع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٢٢٥}

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^{٢٢٦}

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾^{٢٢٧}

والإرادة في ساحة الصراع تبدأ عملها أولاً بالتمييز بين الفريقين، وإلقاء نظرة فاحصة عليها حتى تتعرف على قوى الخير وأيديها البيضاء، وتتعرف على قوى الشر وأيديها الملوثة، ثم تختار إلى أي الجانبين تميل، ومع أيهما تمضي، فتقرر

٢٢٥ التوبة: ١١٩.

٢٢٦ الأنعام: ٦٨.

٢٢٧ النساء: ١٤٠.





مصيرها، وتحدد غايتها، وتختار الرفيق في الطريق، ولا تستسلم لمن يسوقها إلى جهنم وعذاب الحريق، فالقلوب في طبعها الهوائي المستسلم للمؤثرات، والمنقاد للشهوات مثل أرجوحة الأطفال التي لا تستقر في أي من الجانبين، ومثل نواس الساعة لا يزال يروح ويحيي يمنة ويسرة طالما الساعة تعمل، والعمر يمر، ولا يتوقف تأرجح القلوب إلا مع نهاية العمر والحياة.

وإذا ما رجعنا إلى الأصل اللغوي لكلمة «القلب» وجدنا المعاجم العربية تقول إن «قلب الشيء ضده، وتغيير الشكل واللون»، مما يؤكد على التغير والتقلب، وهو خصوصية تميز بها القلب عن سائر أعضاء الجسد رغم أنه العضو المركزي في البدن.

ويقول النبي ﷺ:

«مثل القلب مثل الريشة تقلبها الرياح بفلاة»^{٢٢٨}

وتوضّح الحادثة التالية التي جرت في حياة الرسول ﷺ حالة «التغير» في القلب خير توضيح:

فعن حنظلة الأسدي -وكان من كُتّاب رسول الله ﷺ- قال:

لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟، قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله، ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأننا نراهم رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك، تذكّرنا بالنار والجنة، حتى كأننا نراهم رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً فقال رسول الله ﷺ:





«والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات. ٢٢٩

وفي الحديث دلالة واضحة على ضرورة التوفيق بين العالمين المادي والمعنوي، فعليك أن تؤدي العبادات أداءً تستشعر معه معاني الآخرة وأسرارها، كما عليك أن تؤدي من مشاغل الدنيا ما يقيم أودك، ويصلح شأنك، وتستمر به الحياة. وهو إشارة نبوية إلى تأكيد المعنى اللغوي للقلب من حيث «التلُّون» والانتقال من حال إلى حال.

ومن الأهداف الأساسية والأولية للتصوف أن تُستبدل حالة «التمكين» بحالة «التلُّون» بحيث يتمكن القلب من «الاستقرار على استقامته» ببركة الذكر والصحبة.

ولعل من أظهر الأمثلة على ثبات القلب وتمكينه من الحق وثباته على الاستقامة والتصديق، هو موقف سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه إبان حادث الإسراء والمعراج، فلم يسر إليه تردد، ولم يساوره أدنى شك؛ بل كان تصديقه يقيناً، وثباته على فكرته متيناً، واستقرار الإيمان في قلبه مكيناً.

وهاهم رؤوس الفتنة وزعماء الكفر يصلون في ساحات مكة بين أهل الإيمان، كما تصل نزغات الشيطان في ساحات القلب، ينشرون الشك والتكذيب، ويخاطبون الصحابة رضوان الله عليهم -وعلى رأسهم أبو بكر الصديق- مستهزئين قائلين:

«هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة؟»

٢٢٩ مسلم، التوبة، ١٢-١٣/٢٧٥٠. وتذكر الروايات الأخرى أن حنظلة رضي الله عنه مرَّ بأكياً بأبي بكر رضي الله عنه وشكى

له حاله، انظر: الترمذي، القيامة، ٥٩/٢٥١٤؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٨؛ أحمد، مسند، ٤، ١٧٨





وكما كانت صولتهم أقوى عنفواناً، كانت وقفة أبي بكر رضي الله عنه أثبت إيماناً، وكان ثبات القلب البكري أقوى من زلزلة التشكيك المكي، وجاءهم الرد المُسكت الصادم:

«والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه»^{٢٣٠}

لقد خلق الله تعالى ثلاثة أصناف من مخلوقاته شديدة التباين في فحواها ومبناها:

- الملائكة، وهم لا يفعلون إلا الخير.
 - الشياطين، وهم لا يقتربون إلا الشر.
 - البشر، وهم في الوسط بين الطرفين، أو هم يجمعون بين النقيضين.
- ومن ثم يجب على بني الإنسان أن يحافظوا على هذا التوازن، وألا يكونوا متطرفين في الميل؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فالفطرة البشرية لا طاقة لها بنورانية وحياة الملائكة، فتصير مثلهم تماماً، وليست بقدر السوء والظلامية التي عليها الشياطين فتنجذب إليهم بالكلية، إنما يجب على الإنسان الاعتدال بين الإفراط والتفريط، وأن يكون على فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وأن يدرك هدفه وغايته، ويعرف أن شغله الشاغل هو «الاستعداد لما بعد الموت»، والاستعداد ليوم الرحيل، والحشد للوقوف بين يدي الله تعالى يوم القيامة، فتكون غايته الدنيوية هي حماية قلبه من نزغات الشيطان، وعمله هو تعريضه للنفحات الرحمانية، فيحافظ على قلبه سليماً كما كان في أصل خلقته.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم في الحديث:





«ما من مولود إلا يُؤلَّد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه، أو يمجّسانه...»^{٢٣١}

وتعني هذه الحقيقة أن البناء الفطري والسليم للقلب هو «الإسلام»، لكن حين يتعرض القلب لتأثيرات سلبية، تفسد بنيته السليمة ويفقد الاستقامة.

لكن ثمة قلوب لها من المناعة والقوة والقدرة ما يضعف هذه التأثيرات السلبية فلا تنالها بسوء، تلك هي القلوب المليئة بالتجليات الروحانية، التي جعلت الأخلاق الحميدة شعارها، والأعمال الصالحة لها ديدنها، والأحوال المعنوية غايتها، وانهالت عليها الفيوضات من عالم المعنويات، كما ينهال القطر من السماء، فيجعل الصحراء جنات وأنهارًا. وبهذه الطريقة وحدها ينال العبد سر الاحتفاظ بالأصل الفطري له، والذي هو «أحسن تقويم».

وللقلوب عيون تُرفع عنها الحُجُب^{٢٣٢}، ولا تظهر في سمائها السُحُب، فترى الحقائق والدقائق، ولا يتوارى عن أبصارها أسرار ولا رقائق، وهي القلوب ذات البصيرة والفراسة في النظر إلى الحادثات والمخلوقات.

وأصحاب هذه القلوب المبصرة هم أهل التربية والإرشاد، المجاهدون لكل ما يصرفهم عن سبيل الرشاد والحق.

أما مَنْ فقد مزية الصدق في الإخلاص والسعي، فقد كبا جواده بعيدًا عن مرحلة اليقين، وُصِّمَتْ أذنه عن كلمات الأولياء والمرسلين، فأقعدته عناده عن الطريق، وصده تكبره عن المسير، وهوت به نفسه إلى ظلمات قسوة القلب والضلال؛ بل يحسب نفسه أنه قد أحسن صنعًا، ويشفق على العميان فاقدى الأبصار بينما هو فاقد للبصر والبصيرة.

٢٣١ البخاري، الجناز، ٣٠/١٣٥٨؛ مسلم، القدر، ٢٢/٢٦٥٨، ٢٣/٢٦٥٨. «والفطرة الإسلام».

٢٣٢ انظر: الحج: ٤٦.





وقد أعطى الله تعالى للإنسان المُكَلَّف القدرة على الأفعال، والإرادة في الاختيار، والتمكن من فعل الخير أو الشر، والرغبة في الميول الملائكية أو الشيطانية بكل حرية ومحض إرادة.

لكن الذي يحدد اختيار الإنسان، ويتحكم في توجيه إرادته هو قلبه، ومدى ميله إلى النزعة الشيطانية أو الملائكية، وعمق تأثير هذا القلب بالمشورات الخارجية أو الميول النفسانية، ومستوى استقامته أو انحرافه عن غايته الأخروية. فإذا وقعت القلوب تحت سلطان النفسانية وملأتها الطموحات الشهوانية انعدمت فيها الأخلاق، وران عليها الفسق والنفاق، وغلفها الشرك، واغتالها الوسوس، فخالفت فطرتها، وضلت طريقها وغايتها، وكانت -وفق التعبير القرآني- ﴿أَضَلَّ﴾^{٢٣٣} وأقل وأذل من مرتبة الحيوانات، تحتاج لعلاج طويل، وجهد جهيد في تخفيف علتها، والبرء من أدوائها.





سلوكنا يرسم ملامح قلوبنا،

وهمسات قلوبنا تحدد مسيرة سلوكنا.



٢. أنواع القلوب

يمكن تصنيف القلوب -حسب حالاتها المعنوية- في ثلاث فئات:

أ. القلوب المحافظة على نبلها لتحقيق الغاية من خلقها.

ب. القلوب المختومة والميتة.

ت. القلوب المريضة الغافلة.

أ. القلوب المحافظة على نبلها لتحقيق الغاية من خلقها

وهي القلوب التي أيقظها الذكر من غفلاتها، وحررها النور من ظلماتها، وأنقذتها الروحانية من ضلال النفسانية، وأهل هذه القلوب هم الذين عملوا بمقتضى الآيات الكريمة التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^{٢٣٤}

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾^{٢٣٥}

﴿رَجُلًا لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^{٢٣٦}

٢٣٤ الأحزاب: ٤١.

٢٣٥ المزمل: ٨.

٢٣٦ النور: ٣٧.





لقد تخطى هؤلاء بنضج قلوبهم مرحلة تجلي أسماء الجلال إلى مرحلة تجلي أسماء الجمال، فتخطوا الرهبة إلى الرغبة، وبلغوا الكمال باتباعهم أخلاق رب الكمال، وباقتنائهم آثار رسول الكمال ﷺ، وبتعبدهم بوصايا القرآن الكريم. فتجردت قلوبهم من الميول النفسانية، وأشبعت بفيوضات العشق وتجليات الوجد بعد أن أشربت بحب الله تعالى وحب رسوله الكريم ﷺ، فحققوا معنى التوحيد، وتنزهت قلوبهم عما سوى الله تعالى.

وقد منح القرآن الكريم لهذه القلوب صفات ومسميات متعددة هي:

القلب السليم - القلب المنيب - القلب المطمئن.

- فأما القلب السليم، فهو ذلك القلب الذي نجا من غوائل النفس وآفاتهما، وتخلص من أهواء النفس وشهواتها، فحافظ على طهره ونقاؤه واتساقه مع الفطرة بمعونة من الله تعالى.

وهذا الصفاء لا يتم التوصل إليه أو الحفاظ عليه إلا من خلال الأصول التربوية الصوفية، من تزكية النفس وتطهير القلب وما يندرج تحت هذين الأصلين من مجاهدات، وبذلك ينال العبد ألطاف ربه وفيوضاته، بعد أن يجلو قلبه من صدى الذنوب، ويتخفف من أوزار المعاصي، ويخلصه من القسوة التي رانت عليه، ويهيئه لتلقي الأنوار الإلهية، والتقلب في نعيم الروحانية بانتصاره على شهوات نفسه ونزواتها.

وكانها قبسات عظيمة من أنوار الشمس تجمعت في بقعة واحدة، فتركزت أشعتها وحرارتها وقوتها في عدسة محدبة لتقلب النور ناراً تأكل الذنوب وتضيء الدروب، فتهتدي بفضل الله تعالى القلوب، وتفوز بالقبول، وتأتي ربها بحال سليم كما يقول تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^{٢٣٧}





وهو ما صاغه الشاعر روهي البغدادي في شعره:
أيها التاجر والمغامر في نوال الأمر العظيم
ليس الذهب أو الفضة ما تروم
إنما يوم الحساب مرادك القلب السليم.

- وأما القلب المنيب، فهو ذلك القلب الذي خلق في السماء بعيداً عن
جاذبية الأرض، وانطلق في الفضاء حرّاً من قيود المادة، فنبذ علائق الدنيا، وذاب
شوقاً في ملذات عالم الخلود، وشغله الوجد والعشق عن عالم الفناء.
والقلب هنا في حالة اضطراب بالمشاعر السامية لمظاهر القدرة الإلهية،
يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَأَرْزَلْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ. مَنْ
خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾^{٢٣٨}

- وأما القلب المطمئن فهو ذلك القلب الذي استراح بعد عناء السفر وبُعد
الشُّقة وعوائق الطريق، الذي لم يترك المسير بالنهار ولا السرى بالليل حتى يبلغ
المقصد، لم يمنعه مانع، ولم يقطعه قاطع، فنوّر قلبه بالذكر، وسلّم قياد نفسه
لروحانية، وخلّص عبادته من التقليد إلى رسوخ التحقيق، وبلغ الآفاق في
كمالات الأخلاق، وتركز فيه الإيمان، فصار مركزاً للإحساس.

هذا الحال الذي وصفه القرآن الكريم، فقال:

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^{٢٣٩}

فوصول القلب إلى حال الأمان والاطمئنان يتطلب منه «الإيمان الحقيقي»،
و«الرضا».

٢٣٨ ق: ٣١-٣٣.

٢٣٩ الرعد: ٢٨.





ولا يغيب عن الذهن أيضاً الحال الذي لم تصفه الآية، لكنها أشارت إلى ضده، فالقلوب المنقطعة عن الله تعالى، البعيدة عن ذكره، لا يمسه الرضا، ولا يقربها الاطمئنان مهما راوغتها خيالات الدنيا وتساويرها، فتظل على الدوام أسيرة الاضطراب، مقطوعة الأسباب، منبوذة من الحضرة الإلهية.

وعلامات القلب السليم والمنيب والمطمئن كثيرة منها: الرقة، والرحمة بالمخلوقات، والبكاء، والرضا، وخدمة الحق والخير، والهروب من الشر، والنصيحة، والسعي للإرشاد، والامتلاء بلذة العشق الإلهي.

وذخيرة القلب في ذلك السمو المعنوي، ورأس ماله في العالم الروحاني، هو تحري الحلال وإطابة المطعم، ثم إخلاص الدعاء والاستغفار، ودوام التوبة، وإحاطة ذلك كله بسياج من العمل الصالح.

فالقلب حتى يظل صامداً في طريقه يحتاج إلى المدد الرباني، وهذا المدد إنما يُستجلب بالدعاء والاستغفار، فالاستغفار والتوبة تعمل عمل الزارع الحصيف الذي يتعاهد غرسه بالرعاية من كل الآفات أولاً بأول، حتى تخرج حين حصادها ناضجة الثمر، كذلك القلوب إن لم تتعاهدها بالتنظيف والتخليص من الآفات والأكدار بالدعاء والاستغفار، يضعف حسها وتقسو مشاعرها، وتُحجب عنها الحقيقة شيئاً فشيئاً بصممها وعمائها المعنوي.

لذا كان الاستغفار هو بداية أوراد التصوف للتطهر من الأكدار، وثمة قاعدة مشهورة في «مجلة الأحكام العدلية»، تقول:

«درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

كما أن قاعدة أخرى يضعها أولياء الله عن تحري الحلال في المطعم والمشرب، تقول:

«من أكل الحلال أنار الله فؤاده، وجعل ينابيع الحكمة تفيض من قلبه، وتظهر على لسانه».

وللحفاظ على هذه المنزلة والدرجة لا ضمانة للعبد سوى العمل الصالح.





تلك القلوب الحية المفعمة بنور الله تعالى، الغارقة في لذة نعيم محبته، هي قلوب الأنبياء والمرسلين، وقلوب الأولياء والمرشدين، فهم الذين طلقوا الدنيا ثلاثاً؛ بل إنهم لم يجعلوا أقصى رجائهم ومنتهى أملهم الجنة ونعيمها، ولم يجعلوا أشد خوفهم وأعظم إشفاقهم من النار وعذابها، إنما مقصدهم وغايتهم الحقيقية إنما هو الرضا والحب الإلهي.

وقد حمل الله هؤلاء الربانيين الأمانة العظمى والمسؤولية الكبرى، وهي دعوة الناس إلى «دار السلام»، وهداية الخلق إلى الحق، فهم الذين يرفعون عن العباد حُجُب الغفلة، ويزيلون الغشاوة عن عيون القلوب، ويُحيون هذه القلوب بحُسن الخُلُق، ويهدونها بالحث على إخلاص العبادة، والارتقاء بالسلوك الإنساني إلى كمال المعرفة والوصول إلى الله تعالى.

إن المقام الذي يُطلب من السالك الارتقاء إليه بتربية القلب هو مقام الإحسان، وبهذا ينال صفة «القلب الحي».

ب. القلوب المختومة والميتة

ذلك الصنف الثاني من القلوب هو المناقض تماماً لكل ما ذكرناه في الصنف الأول، فهي قلوب ميتة قد سُدَّت في وجوها أبواب الإيمان، واشتعلت بنيران المعاصي والأهواء.

وإن المثل الأعلى لأصحاب هذه القلوب في إسفافهم وملذاتهم هي الأنعام والحيوانات، فلا هم لهم طوال حياتهم سوى لذة الطعام وصفاء الشراب. ويصف الحق تبارك وتعالى حالهم مقارناً بأحوال أضدادهم، فيقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾^{٢٤٠}





﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا﴾ ٢٤١

هؤلاء الذين جعلوا الدنيا أكبر همهم، ومبلغ علمهم، فعميت أبصارهم عن حقائق الكون والإنسان والحياة، وقصرت حواسهم عن مظاهر العظمة في الوجود؛ بل عميت أبصارهم عن أسرار الحياة في أنفسهم فهم لا يبصرونها؛ هؤلاء الذين ضلوا لن تكون لهم النار عذاباً فقط؛ بل هي مثوى لهم، ومستقر أبدي، وذلك هو الخسران المبين.

لأنهم تركوا بإرادتهم المرتبة الإنسانية، وهبطوا إلى ما هو أدنى من المرتبة الحيوانية، والأغرب من ذلك أنهم لم يكتفوا بضلالهم فحسب؛ بل كانوا مصدر ضلالة وفتنة لمن حولهم؛ ضلوا وأضلوا، وتمادوا في نكران عظمة الخلق حتى أنكروا عظمة الخالق، واستغرقوا في كفران النعمة حتى كفروا بالمنعم، وبارزوا الله بالمعاصي، وحاربوه -سبحانه- بالذنوب، وعادوه بالكفر، ولم تردعهم الأوامر ولا النواهي، ولم تزرهم الآيات والمعجزات، فكانوا كما صورتهم آيات القرآن:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ٢٤٢

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ٢٤٣

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ

بِهَادِي الْعُمَيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ٢٤٤

٢٤١ الفرقان: ٤٤.

٢٤٢ يس: ٧٧.

٢٤٣ البقرة: ١٨.

٢٤٤ النمل: ٨٠-٨١.





والآيات الكريمة تؤكد وتثبت أن قلوب هؤلاء مقفلة ومختومة، ويوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٤٥

إن هذه الحالة سرٌ وحكمة إلهية تجعل البشرية كلها مضطربة بالخوف والخشية، ولأن كل إنسان لديه نصيب من صفة «هادي» و«مُضِل»، فلا يمكن أن يعتقد أن قلبه سيُختم عليه، وأن أبواب الهداية ستُغلق تمامًا بالإرادة الإلهية، طالما أنه موجود في هذه الدنيا، وذلك لأنه ثمة أمثلة عن أشخاص لم تُغلق أبواب الهداية أمامهم، ومنهم: سيدنا عمر رضي الله عنه الذي خرج لغاية سيئة حين أراد قتل الرسول ﷺ، ووحشي حين قتل سيدنا حمزة رضي الله عنه، وهند زوجة أبي سفيان حين بقرت بطن سيدنا حمزة رضي الله عنه وأخرجت كبده، ولاكته بكل حقد.

ومع أن القرآن الكريم قد ذكر أشخاصًا خُتم على قلوبهم، لكن لا يمكن تحديد من خُتم على قلبه في الحياة الدنيا، ذلك أن العاقبة مجهولة، فسحرة فرعون مثلاً عاشوا في الضلالة، لكنهم نالوا الهداية في آخر أعمارهم، في حين طوى كلٌّ من قارون وبلعم بن باعوراء كتاب حياتهم بالخسران، بعد أن عاشوا طوال عمرهم في الهداية.

والنقطة المثيرة للانتباه هنا أن الأشخاص الذين خُتم على قلوبهم وذكروا في القرآن الكريم كان بعضهم ممن ارتكب الذنوب العظيمة مثل «الظلم» و«الكفر» و«الفسق»، وقد ورد في القرآن الكريم (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) في ستة وعشرين موضعًا للدلالة على من اتصف بهذه الصفات الثلاث، اثنتا عشرة آية من هذه الآيات ذكرت الظالمين، وثمان منها الكافرين، وست منها الفاسقين، فباب الهداية إذاً مفتوح لمن يتوب عن هذه الذنوب، ويتوجه إلى الله تعالى بقلب خالص.





وإذا كانت هذه الذنوب الثلاثة هي السبب الأساسي في الختم على القلوب، والمسار الرئيسي للضلالة والخسران والعذاب العظيم في الآخرة، وقبل ذلك الحرمان من الهداية في الدنيا، فيمكننا أن نتبع أسباب ذلك الحرمان لتتقيها، ونتباعد عنها كما يتباعد المشرق من المغرب، وهذه الذنوب الثلاثة هي: (الظلم، والكفر، والفسق).

ثم لا يبقى سوى تسليم الأمر كله لله تعالى، والاستسلام لمشيئته وقدرته وقضائه وقدره سبحانه.

وسنصرف النظر عن التعمق أكثر في هذه النقطة لأن القضاء والقدر يبقى مجهولاً بناءً على الكثير من الحكم، ولأن التفتيش والبحث العميق في هذا الموضوع غير جائز.

ومهما كانت الحكمة من وراء ذلك، فثمة حقيقة لا تقبل الإنكار، وهي أن من خُتم على قلبه، فقد أغلقت أمامه الأبواب المؤدية للحق تعالى، وانقطعت علاقته مع الإنسانية الحقيقية والحياة المعنوية، ولا يستطيع أحد أن يُزيل هذا الختم من قلبه سوى صاحب القدرة المطلقة، وهو المولى الذي نسيه، وينبّه الله سبحانه عباده من الوقوع في مثل هذه الغفلة في قوله:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^{٢٤٦}

وتعني الآية أن من ينسى الله تعالى يُنسيه الله نفسه؛ فيصبح من الفاسقين الذين خسروا الدنيا والآخرة وتبلدت أحاسيسهم ومشاعرهم، وضلت قلوبهم عن إدراك حقائق هويتهم وكيانهم، فلا ترى النور ولا تعرف الهداية، ولا تكثر بالاطلاع على ذلك كله، فضلاً عن أن تتبعه أو حتى تدرك أهميته لها.

وهمهم الوحيد وشغلهم الشاغل إعمار هذه الدنيا بالملذات، وتزيينها بالشهوات، ثم الغرق فيها سُكراً وتيهًا، لا يعرفون موتاً ولا آخرة ولا حساباً.





إنها قلوب تعيش في ظلمات كهوفٍ لا يصلها النور، وفي عالم مظلم عفن
عششت فيه الخفافيش وطيور الظلام، فهذه القلوب لا تستطيع الخروج إلى العالم
الطبيعي الذي يناسب الفطرة الطبيعية، لأنها قلوب استعبدتها الميول الشيطانية،
فبدلت فطرتها وشوّهت طبيعتها، فترى الشقاوة سرورًا، وترى الظلمة نورًا.

ويقول الشاعر محمد عاكف في هؤلاء:

الإيمان في القلب جوهر ما أعظمه

والقلب الصدى بلا إيمان وزر ما أثقله

وحتى لو أفاق ذلك الذي غرق في مستنقع النفسانية والجحود، ورأى عالم
الحقيقة، حين يتزلزل خوفًا ساعة خروج الروح، وحين يضرب ملك الموت
ضربات الصاعقة، ستكون هذه الإفاقة متأخرة لا نفع فيها؛ لأن تكليف الإنسان
يتهي في اللحظة التي يقف أمامه ملك الموت، وبعد تلك اللحظة تضع الفرصة
التي كانت بين يديه إلى الأبد، وتكون تلك الأوبة والندامة عديمة النفع والفائدة،
كما كان حال فرعون حين آمن وسجد متأخرًا لحظة خروج أنفاسه الأخيرة؛ وما
عاقبة هؤلاء إلا لهيبُ جهنم التي تزداد اتقادًا، كلما أُلقي فيها فوج من أجسادهم.

ت. القلوب المريضة والغافلة

هذه القلوب تقع في الحالة المتأرجحة أو المتوسطة بين الحالتين
السابقتين، بين القلوب الحية والقلوب الميتة، تراهم مذبحين لا إلى هؤلاء
ولا إلى هؤلاء، وقد اختلط لديهم الحابل بالنابل، فلا يتسقون مع الفطرة ولا
ينسجمون مع الطبيعة، لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار، لا تستقر بهم السكينة
ولا يلبثون طويلا في كنف الطمأنينة؛ شوّش الغموض عالمهم الداخلي
فجعلهم في تيه بين عالم الماديات وعالم المعنويات؛ تشعب بهم الالتباس
فشتت فكرهم، وزلزل حالهم.





هذه القلوب التي ابتليت بالغفلة فأصابها العلل والأدواء، فهي تتخبط في أرجوحة التناقض، وتدور في دوامة الشك، وتتوه في شُعب التردد، أصابت العلل عالمها المعنوي، وفتح الجهل أبواب أعماقها للشهوات، وأسقطت الطموحات أسوار دفاعها ضد الرغبات، فتخطت سياج الأخلاق، وتجاوزت حدود القيم، وانطلقت في دنيا الشهوات.

ويصف الله تعالى هذه الزمرة في القرآن الكريم بقوله:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^{٢٤٧}

وأخطر أمراض هذه القلوب هي: الشك، والجهل، والشهوات والطموحات، وانعدام الأخلاق، والقسوة.

الشك: مرض عضال يحجب المرء عن عالم المعنويات، ويحرمه من تذوق لذة الروحانيات، ويعمي بصره وبصيرته عن نور الحقائق، ويصيب قلبه بالموت المعنوي، محروماً من الاستقرار والطمأنينة؛ وتزلزل الأرض من تحت أقدامه قلقاً واضطراباً.

الجهل: هو أن يسير المرء في طريق الخسران، وسوء الخاتمة، وظلمة المصير، ولا يدري حتى أنه ثمة عالم من الحقائق والنور وسعادة المصير، فقد عميت الأبصار، وضلت الأفكار، وأظلمت المدارك، ولم يذق صاحبها سوى مرارة التعاسة.

الشهوات والطموحات: هو الرق والأسر الذي يظل صاحبه مقيداً في قسوة قلبه، ومكبلاً بلجام رغباته، لا يسوقه سواها، ولا يرى إلها، وهو كالشاربين شُرب الهيم، كلما شرب ازداد هوساً بالشهوة، وسُكراً بالرغبة، ولا يجد رياءً في شربه، ولا خلاصاً من هيامه، ولا تحرراً من نير شهواته إلا في تراب قبره.





انعدام الأخلاق: وهو من أخطر أمراض القلب؛ كخطورة السرطان على الجسد، ولكنه أيضًا غير مستحيل العلاج إن أدرك المرء خطورة علته، وبادره بالدواء الناجع، والله يشفي من يشاء، ويهدي من يشاء.

القسوة: وليس في العلل أشد خطورة منها، وليس في الأمراض ما لا يرجى شفاؤه مثلها، فهي عين الضلالة، وأصل الحرمان، وأسفل سافلين في دركات الشقاء، إنها انقطاع القلوب عن فطرتها، وانفصال المشاعر عن أحاسيسها، وفقدان كل معاني الإدراك في عالم الروح والمادة، فلا تبصر نورًا، ولا تستشعر سرورًا، لا تسمع الأنات، ولا تعرف الرحمات، فتصير كالحجارة أو أشد قسوة. وإن الحجارة هي أرق من هذه القلوب وأكثر حميمية ولطافة، وقد بين المولى سبحانه هذه الحقيقة في القرآن الكريم حين قال:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^{٢٤٨}

ونفهم من هذه الآية الكريمة أن قسوة القلب هي نتيجة طبيعية لنسيان الله تعالى، والحرمان من الأنس بالحقائق الإلهية لمدة طويلة، ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^{٢٤٩}

والأعمال والعبادات إن لم تكن صادرة عن قلوب واعية معافاة من الآفات كانت أعمالًا غير مقبولة، وغير ذات قيمة، لا ينظر الله تعالى إليها، فقد سُلِبَت هذه

٢٤٨ البقرة: ٧٤.

٢٤٩ الزمر: ٢٢.





القلوب أحاسيسها ومشاعرها، ونورها وحياتها، فانقطعت عن حقائق الكون، ولم تبصر معجزات وآيات الخالق سبحانه.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^{٢٥٠}

وتشير الآية إلى أن الأعضاء البشرية في الجسد قد تتعطل عن عملها الطبيعي رغم استمرارها في الحركة الميكانيكية، فهي وإن لم تفقد وظيفتها السريرية ولم تفقد حياتها البدنية لكنها فقدت حياتها الروحية، ووظيفتها المعنوية.

ثم تؤكد الآية حقيقةً شديدة الأهمية، وهي أن المسؤول عن العمل العضوي والبدني والروحي والمعنوي هو القلب، وليس العقل، أو المخ البشري؛ إنه القلب الذي في الصدر.

وأمرض القلب مهما صغرت تظل خطورتها كامنة فيه، وكذلك فإنها مهما كبرت يمكن تداركها وعلاجها، فلا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار.

وقد تتراكم الصغائر على القلب، وتتكاثر عليه حتى تهلكه، فلا بد من الحذر الشديد، واللجوء إلى الله تعالى، والاعتماد عليه وحده، والتسليم لإرادته والاستسلام التام لما فرضه سبحانه من مقتضيات الإيمان وعوامل اليقين.

ولعل أبرز إيضاح لخطورة حال القلب، وضرورة الحفاظ عليه، والحذر من آفاته، هو حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«...ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^{٢٥١}

٢٥٠ الحج: ٤٦.

٢٥١ البخاري، الإيمان، ٣٩/٥٢؛ مسلم، المساقاة، ١٠٧/١٥٩٩.





وما هذه الدنيا إلا صحراء ممتدة وتيه كبير، يسير الإنسان فيها نحو هدفه، تُسفي عليه الريح من رمالها، ويصيبه من حرها وقرها، وتُعرضه للمهالك كل حين، ولن يجد ملاذًا من تلك الرياح إلا في نسيمات المدد الإلهي، ولن تجد الواحة الخضراء في هذه الصحراء القاحلة إلا في كنف العون الرباني، ولن تجد الإرشاد إلى الغاية، والدليل إلى الهدف، والمعين في الطريق إلا في ظل طاعة الله، والتسليم له سبحانه.

وما أبلغ الشاعر الفيلسوف المسلم محمد إقبال عندما صور هذا المشهد، فقال:

رأيت الكافر حيران له الآفاق تيه
ورأيت المؤمن كوناً تاهت الآفاق فيه.





القلب مثل ينبوع الماء الصافي، وصفحة الماء المتلألئة، إذا
شابهته شائبة من الذنوب تَعَكَّرَ الصفو وَخَفَّتَ البريق، فمنْ
أراد رؤية كنوز النبع، والوصول إلى لؤلؤه وجواهره، فلا بد
من استعادة صفائه ونقاؤه.



٣. تطهير القلب

تحدثنا من قبل عن القلوب وأنواعها وحالاتها، وهاهنا نكمل الحديث عن
الشروط الضرورية والصفات الأساسية والمزايا اللازمة لهذه القلوب كي تتدرج
في رقيها، فتصير قلوبًا سليمة ومنيبة ومطمئنة، وكي تحارب الآفات وتعالج
الأمراض التي قد تصيبها، وكي تتجنب الانزلاق في مهوي دركات القلوب
المختومة بالحرمان. وهذه الشروط هي:

أ. الطعام الحلال

ب. الاستغفار والدعاء

ت. قراءة القرآن واتباع أحكامه

ث. الخشوع في العبادة.

ج. إحياء الليل

ح. ذكر الله تعالى ومراقبته

خ. محبة الرسول ﷺ والإكثار من الصلاة عليه

د. التفكير في الموت

ذ. صحبة الصالحين والصادقين

ر. التحلي بالأخلاق الحميدة

ولنقف الآن على كل شرط منها نتأمله مليًا، وندرك أهميته وعُمق أثره،
لنتمكن من العمل بهمة ومثابرة ودقة على تطبيقه.





أ. الطعام الحلال

يقول إبراهيم الدسوقي - رحمه الله -:

«يا إخوتي، لن ننالوا الحكمة والمعرفة طالما أنكم تأكلون الحرام».

إن البدن الذي يؤدي العبادات ويقوم بالطاعات يستمد قوته وقدرته من الغذاء المادي والغذاء المعنوي؛ ذلك الغذاء الذي تنعكس طاقته الإيجابية أو السلبية على الجسد وعلى القلب وعلى العبادات والطاعات، فإذا كان الغذاء والطعام حلالاً طيباً، انعكست الفيوضات والرحمات على البدن والقلب، وإذا كان الغذاء والطعام حراماً خبيثاً انعكست الغفلة والقسوة والثقل على القلب والجسد وسائر أفعالهما.

وثمة ارتباط وثيق بين الحلال الكامن في الطعام والإخلاص والقبول الكامن في العمل الصالح، وعلى سبيل المثال فإن الدعاء لا يُرفع إلا بطعام حلال.

وقد وضح الرسول ﷺ هذا الأمر حين قال:

«أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:

{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}

[المؤمنون: ١٥]

وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة: ٢٧١]

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنيّ يستجاب لذلك؟»^{٢٥٢}





ويقول محمود سامي رمضان أوغلو - رحمه الله -:

«إن الشرط الأول في قبول دعاء العبد هو إصلاح القلب باللحمة الحلال، والشرط الأخير هو إخلاص القلب وحضوره، أي التوجه إلى الله تعالى توجُّهًا تامًّا، فإذا لم تكن اللحمة في الفم حلالاً، فمن الصعب أن يكون هذا العبد مخلصاً حاضراً، متوجِّهًا لله تعالى، تاركاً لما سواه»^{٢٥٣}

وأولياء الله تعالى يدركون تمام الإدراك مدى خطورة المأكَل الحرام، وما يترتب عليه من الأفعال والأقوال، وفي القاعدة التالية تجد مدى الحساسية الراقية في ذلك التحذير، يقولون:

«انتبه لما يدخل في فمك حين تأكل، ولما يخرج منه حين تتكلم».

ويضع لنا الهادي الأمين ﷺ الخطوط الفاصلة للحلال والحرام، ويضع معها الحدود التي تتقي بها الحرام، بل تتوقى مجرد الاقتراب منه، ويضرب لنا مثلاً حياً مبسطاً لشرح القضية برمتها، فيقول في الحديث الشريف:

«الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مُشَبَّهَات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبَّهَات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرمى حول الحمى، يوشك أن يواقعها، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه...»^{٢٥٤}

إن القلوب التي أشبعها الحلال، ورواها الرضا برزق الله تعالى، وأقنعها الاستسلام لقضائه، ولم تتطلع إلى ما وراء الحلال من شبهات أو محرمات أو شهوات - تلك القلوب التي حافظت على نقائها الأول، وفطرتها الأجمل - تمسي مهبطاً للفيوضات، وموئلاً للحكمة والتجليات، أما تلك القلوب التي أظلمت أعماقها، واستمرت الحرام، فتمسي مهبطاً للشياطين وراية لعداوة الحق والدين.

٢٥٣ محمود سامي، المصاحبة، ج٢، ٨.

٢٥٤ البخاري، الإيمان، ٣٩/٥٢.





ونسوق إليك بعض الأمثلة والقصص التي تدل على مدى حساسية أهل الإيمان والقلوب في معالجة هذه الأمور بدقة متناهية وحذر شديد.

عن زيد بن أرقم قال:

«كان لأبي بكر غلام يغل عليه^{٢٥٥}، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ فقال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقت لهم فوعدوني، فلما أن جاء اليوم مررت بهم، فإذا عرس لهم فأعطوني، فقال: أف لك، كدت تهلكني، فأدخل يده في حلقه وجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقليل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بعس^{٢٥٦} ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها، فقليل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»

فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة^{٢٥٧}

وإليك أيضاً دقة وحساسية وحذراً أشد في التعامل مع الطعام؛ إنه الحديث الذي دار بين سيدنا الخضر عليه السلام وعبد الخالق عجدواني - رحمه الله - أثناء زيارة الخضر عليه السلام لولي الله هذا.

فقد قدّم شيخنا عجدواني رغيفي خبز للخضر عليه السلام، لكنه لم يأكل منهما، فقال عبد الخالق عجدواني - رحمه الله -:

«إن هذا الطعام طعام حلال، فلم لا تأكلون منه؟»

٢٥٥ يغل عليه أي: يأتيه بغلته، وفلان يغل على فلان، وأغل القوم: إذا بلغت غلتهم.

٢٥٦ العس: القدح العظيم.

٢٥٧ انظر: أبو نعيم، الحلية، ١، ٣١، الترمذي، السفر، ٣١/٦١٤؛ أحمد بن عبد الله الطبري، الرياض

النضرة، ٢، ١٤٠-١٤١؛ القرطبي، تفسير، ١٩، ١٣٥.





فأجابه الخضر عليه السلام: «نعم، إنه طعام حلال، ولكن من عَجَنَ العجين لم يكن متوضّئاً، فليس لي حقُّ أن أكله»^{٢٥٨}

لقد تخطى هؤلاء الأطهار الأبرار مرحلة الحلال في الطعام إلى مرحلة الحلال في شعور من صنع الطعام، وفي الأحوال التي تحيط بالمسألة كلها؛ رقة ودقة ورقياً.

وكان الشيخ نقشبند رحمته الله يفر من ريب الأمور، ويتحرى الحلال في طعامه، ويحث طلابه على العمل بذلك.^{٢٥٩}

وحرصاً منه على تحري حلال الطعام، وحلال الحال الذي صنع فيه الطعام كان رحمته الله يزرع بيديه الشعير والمشمش وبعض الخضراوات، وهو على حذر شديد إذ يتوخى الحلال في كل ما يستخدمه للزراعة سواء أكانت الأرض أم الحيوانات أم الآلات، بل حتى البذور والمياه^{٢٦٠}.

لذا فقد كان كثير من العلماء حريصين على التوافد إلى مجلسه للتبرك بحلال طعامه.

وقد سأل أحد علماء بخارى الشيخ نقشبند يوماً:

«كيف يحضر القلب في الصلاة؟»

فأجاب الشيخ: «حضور القلب يبدأ من اللقمة الحلال التي تطعمها وأنت تتفكر في نعم الله عليك، ثم بيقظة القلب عند الوضوء حتى تصل إلى التكبير الأولى عندها يبدأ حضور القلب في الصلاة»^{٢٦١}

٢٥٨ رشحات، ص ٩٢-٩٣.

٢٥٩ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين وعدة السالكين، ص ٦٣، ٦٨.

٢٦٠ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ٦٤؛ محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص ٣٧، ١١٢، ١٣٨؛ رشحات، ص ١٥٩، ١٨٤.

٢٦١ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ٨٤.





وقال مرة لأحد طلبته حين اشتكى من فقد روحانيته التي كان فيها:

«أذهب وفتش عن لقمتك التي تتناولها أحلال هي أم لا!»، وحين ذهب ذاك

الطالب وبحث، اشتبه بقطعة من الحطب في موقد الطعام، فتأب. ٢٦٢

وبلغ من حرص الصالحين في مصلحة تحري الحلال في الطعام أنهم كانوا يشترونه من السوق سرًا، وينقلونه إلى بيوتهم خفية، كي يصونوه عن العيون التي تنظر، والنفوس التي ترقب الطعام فتصيبه بأحقادها وحسدها واشتهائها؛ حرصًا من هؤلاء الصالحين على كل لقمة في الطعام الذي يستمدون منه طاقتهم للعبادة، ومصدرهم للحلال.

وثمة أمر آخر مهم يُضاف إلى ذلك كله، وهو التوازن في استخدام الحلال، وعدم الإسراف في استعماله، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ

كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ٢٦٣

ويوضح مولانا جلال الدين الرومي في كتابه (المثنوي) بأسلوب مجازي تأثير اللقمة الحلال في البدن والروح فيقول:

«لقد تجلّى علينا الإلهام بصورة مختلفة ليلة أمس، لأن بعض اللقيمت المريبة التي نزلت في المعدة سدّت طريق الإلهام. إن الطعام المشبوه الذي تطلبه النفس يمنعك عن طريق الحق تعالى، فهو كالأشواك التي دخلت في قدميك، لهذا يمسي من لا يتحرى لقمته من العصاة. أيها البدن، إن فيك ورادة غاية في الجمال إذا ما حافظت عليها، فستظهر من الروائح الزكية التي تنبعث من تلك الوردة حديقة عرفان ومعرفة لا حدّ لها».

٢٦٢ لجنة، موسوعة الأولياء، ٣، ٤٤١.

٢٦٣ الإسراء: ٢٦-٢٧.





ويشير عبد القادر الجيلاني إلى أهمية اللقمة في تطهير القلب:
«انتبه يا بُني! الطعام الحرام يُميت القلب، ثمّة لقمة تنير قلبك وأخرى تُظلمه؛
وثمّة لقمة تشغلك بالدنيا وأخرى تشغلك بالآخرة؛ وثمّة لقمة تجعلك زاهداً في
الدنيا والآخرة وأخرى توجّهك إلى خالق الدنيا والآخرة.

إن الطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويُحبّب إليك المعاصي، أما الطعام المباح
فيشغلك بالآخرة ويُحبّب إليك الطاعات، ويُقرّبك من المولى تبارك وتعالى.

ولا يمكن معرفة ماهية الطعام وتأثيره إلا بمعرفة الله حين تستقر في القلب،
لا في الدفتر والكتاب. والمعرفة الإلهية هي إحسان للقلب من الخالق لا من
المخلوق، وهي تتحقق بعد توحيد الله والعمل بأحكامه.»

ويقول إبراهيم الدسوقي: «يا إخوتي، لا تظنوا أنكم ستنالون شيئاً من الحكمة
والمعرفة طالما أنكم تأكلون الحرام».

وكم هو مثير الحديث الذي دار بين عبيد الله أحرار والسيد قاسم التبريزي
حول الطعام الحلال؛ يقول شيخنا عبيد الله أحرار: قال لي السيد قاسم يوماً:

«يا بُني، هل تعلم لماذا تبدو الحكمة والحقيقة قليلة في زماننا؟ لأن تطهير
الباطن في عصرنا قليل جداً، الكمال هو في تطهير الباطن، وتطهير الباطن يكون
بأكل اللقمة الحلال، واللقمة الحلال في عصرنا هذا قليلة جداً، وكأنه لا يوجد
إنسان طاهر الباطن...إذاً، كيف تريد أن تتجلى الأسرار الإلهية في مثل هذه
الأحوال؟»^{٢٦٤}





ب. الاستغفار والدعاء

﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^{٢٦٥}

إذا كان دوام اللجوء إلى الله تعالى هو حال الأنبياء والأولياء والصلحاء، فما بالنا بحال أصحاب الذنوب والخطايا والأهواء؛ إنهم أشد احتياجاً للأوبة إلى كنف الله تعالى واستغفاره والتضرع إليه، ولا يُتصوّر أن عبداً مهما بلغ يمكنه تحمل البعد عن الجنب الكريم، وكأنه كوكب يدور حول شمس، فإذا انفلت من جاذبيتها ضل في التيه وتخطى في الفضاء حتى يبتلعه نجم أسود، فيظل إلى يوم القيامة يتخبط في أعماق الفناء.

لا يستغني امرؤ عن الدعاء والاستغفار مهما كان نبياً أو ولياً صالحاً، فلا ينجو بشر من زلل، ولا يسلم آدمي من خلل، والذي يمكنه محو آثار كل زلل وإصلاح كل خلل إنما هو الدعاء والاستغفار، الذي يُقرب العبد من ربه مجدداً، لأنه في حقيقته هو الالتجاء والندم.

كما أن كلمة «الصلاة» في اللغة العربية تعني «الدعاء»، ولعل الحكمة من ذلك أن الصلاة هي أشمل وأكمل أشكال الدعاء والالتجاء إلى الله سبحانه.

كما أن الدعاء يبدأ بالاستغفار وطلب العفو من الله ﷻ، والتبرؤ إليه سبحانه من كل الذنوب والخطايا، فعلى قدر عزم العبد على ترك الذنب، وعلى قدر شعور العبد بالندم على الذنب، يكون زوال أثر ذلك الذنب من صفحة القلب، ويكون مقدار صفائه وجلائه من جديد، فيصير حينها كالمرآة الصافية التي تنعكس عليها الحقيقة بكل وضوح وجلاء، وحينها يصير مؤهلاً لاستقبال الفيوضات والتجليات النورانية.





والحديث الشريف التالي ينبّه الناس ويرشدهم إلى ضرورة تصفية القلوب،
وبيّن أن القلوب التي أظلمت بالذنوب لا يُنيرها شيء كالاستغفار:

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكُتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر
وتاب سُقل قلبه، وإن عاد زيدَ فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله {كَأَنَّ
بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ٤١]»^{٢٦٦}

والخطوة الأولى في التقرب إلى الله تعالى هو الاستغفار، لأنه إعلان عن
عجز العبد، وتبرئه من حوله وطوله، وخروجه عن قوته وإرادته، وإعلانه اللجوء
إلى الله تعالى، والاستسلام التام له سبحانه، وهو وسيلة استجلاب رحمت الله
تعالى، والنجاة من ابتلاءاته وامتحاناته، وهو المحجّن الذي يصد سهام القضاء،
والدرع الذي يقي من نصال البلاء؛ لذا كان الاستغفار مقدماً على الشكر، وكان
الاستغفار هو البداية الصوفية للدروس المعنوية مهما تعددت الوسائل التربوية
والطرق الصوفية.

وليس أبلغ من آيات الله تعالى وقرآنه العظيم في بيان أهمية الدعاء؛ يقول الله
سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ مَا يَدْعُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾^{٢٦٧}

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾^{٢٦٨}

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^{٢٦٩}

٢٦٦ الترمذي، التفسير، ٨٣/ ٣٣٣٤.

٢٦٧ الفرقان: ٧٧.

٢٦٨ البقرة: ١٨٦.

٢٦٩ الأعراف: ٥٥.





كما تبين الأحاديث النبوية الشريفة أيضاً أهمية الدعاء وعظيم أثره، فيقول المصطفى ﷺ:

«ليس شيءٌ أكرم على الله تعالى من الدعاء»^{٢٧٠}

«من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء»^{٢٧١} الترمذي، الدعوات، ٩

«من فُتح له منكم باب الدعاء فُتحت له أبواب الرحمة...»^{٢٧٢}

«ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»^{٢٧٣} الترمذي، الدعوات، ٦٥

وللدعاء آدابه وشروطه التي نتعلمها من الأحاديث النبوية السابقة؛ لعل أبرزها حضور القلب، والشعور بجلال الموقف وهيبة المدعو وقدرته، كما أن التوسل بالضعفاء والفقراء والصلحاء من أسباب الإجابة، فلعلهم هم الأولى برحمات الله تعالى وتنزلات قدرته، فذلك النبي ﷺ يطلب من الله العون والنصر متوسلاً بفقراء المهاجرين^{٢٧٤}، يقول ﷺ:

«ابغوني الضعفاء، فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»^{٢٧٥}

وكان الصحابة الكرام ﷺ أثناء ذهابهم إلى الجهاد يطلبون دعاء أصحاب الصُّفّة بالنصر إضافةً إلى أدعيتهم.

٢٧٠ الترمذي، الدعوات، ١ / ٣٣٧٠.

٢٧١ الترمذي، الدعوات، ٩ / ٣٣٨٢.

٢٧٢ الترمذي، الدعوات، ١٠١ / ٣٥٤٨.

٢٧٣ الترمذي، الدعوات، ٦٥ / ٣٤٧٩.

٢٧٤ انظر: البخاري، الجهاد، ٧٦؛ الطبراني، الكبير، ١، ٢٩٢.

٢٧٥ أبو داود، الجهاد، ٧٠ / ٢٥٩٤؛ أحمد، مسند، ٥، ١٨٩.





ويقول الإمام الرباني - رحمه الله - في هذا الشأن:

«إن الفتح والنصر على قسمين: ظاهر وباطن، أما ظاهر النصر وصورته فهو ما ارتبط بالأسباب وكان متعلقاً بالعدة والعتاد، معتدّاً بكتائب العسكر والسلاح، وأما الباطن أو حقيقة الفتح والنصر، فهو ما كان معتدّاً بكتائب الدعاء، متسلحاً بعتاد الضعف بين يدي الله تعالى، وسلاح الانكسار لجلاله، حينها يكون أقوى العدتين؛ بل تصير كتائب الدعاء هي الروح والقلب لكتائب العسكر، فلا تمنح النصرة من الله إلا لقلوب تستحق التأييد الإلهي»^{٢٧٦}

ويقول الرسول ﷺ:

«ما دعوة أسرع إجابة من دعوة غائب لغائب»^{٢٧٧}

أي إن من أهم أسباب الإجابة للدعاء، ورفعته إلى السماء، وتحقيقه في القضاء، هو أن يدعو الإنسان لأخيه بظهر الغيب؛ لأن الغياب بعيد عن التملق والتصنع، وهو دليل على الإخلاص والصدق، وليس أضمن لقبول الدعاء عند الله من هذين الشرطين: الإخلاص، والصدق، إضافة إلى قبول الداعي عند الله ﷻ. وثمة مسألة في أسباب قبول الدعاء قد تلتبس على المرء، فيتساءل بعضهم هل يلزم أن تجتمع كل الأسباب والشرائط لتتم الإجابة، بحيث إذا فقد شرط امتنعت الإجابة؟

لا ريب في أن تحقق كل الشروط، واجتماع كل الأسباب هو أبلغ وأكد في الإجابة، لكن فقدان شرط لا يعني فقدان الإجابة، فإذا دعا العبد المذنب لأخيه بظهر الغيب مخلصاً تقبل الله دعوته، لأن ذنبه على نفسه، وحري بالله الكريم ألا يتركه ويتحاشاه لفقد معظم الأسباب، فربُّ الأسباب سبحانه يتقبل حتى من

٢٧٦ الإمام الرباني، المكتوبات، ٣، ٣٣٠-٣٣١، رقم: ٤٧.

٢٧٧ الترمذي، البر، ٥٠ / ١٩٨٠.





عباده العصاة أقل الأسباب؛ ولعل أن يكون في ذلك خطوة يقترب بها العبد من باب مولاه.

وسأل الصحابة الكرام رسول الله ﷺ:

أي الدعاء أسمع؟ قال:

«جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات»^{٢٧٨}

فإذا سبق الاستغفار الدعاء وصاحبه الندم، وقارن العزم على ترك الذنب حرارة الدعاء، وخرج ذلك كله من أتون قلب متقد بالتفكير في معاني الدعاء وألفاظ الرجاء، كان ذلك أحرى بالقبول وأجدر بالوصول.

وثمة بريد أسرع ورسول أبلغ في إيصال الدعاء، إنه العمل الصالح، وهي حقيقة قررتها آيات القرآن الكريم؛ إذ يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿...إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾^{٢٧٩}

فإذا جمعت الخوف إلى الدعاء، ثم قرنت مع الخوف الرجاء، وأتبع ذلك بالاستغفار، وصدر ذلك كله عن قلب منكسر وطرف باك، كان ذلك الدعاء أبلغ وأسمع.

ويقول مولانا جلال الدين -رحمه الله- في موضوع التخلص من أمراض القلب وقبول الدعاء:

«تُب إلى الله، واذعُ بفؤاد منكسر وعين ندية، فالزهور تنفتح في الأماكن المشمسة الرطبة!».

وأول من بدأ التوبة هو سيدنا آدم عليه السلام أول الأنبياء وأمنا حواء حين ابتهلا إلى الله تعالى:

٢٧٨ الترمذي، الدعوات، ٧٨ / ٣٤٩٩.

٢٧٩ فاطر: ١٠.





﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^{٢٨٠}

وغدا هذا الدعاء مثلاً تدعو به ذريتهما من بعدهما إلى قيام الساعة.

ويدعو الله تعالى عباده إلى التوبة كي ينبههم من غفلة القلوب ويشفيهم من الأمراض المعنوية، فيقول عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾^{٢٨١}

فإذا كانت الآية الكريمة تطلب التوبة النصوح من الذين آمنوا، فمعنى ذلك أن العباد مهما علت درجاتهم وبلغت منازلهم مُعَرَّضُونَ لخطر المعصية، فالقلوب أشدُّ تقلباً من القدر حين تغلي، والعبد ليس في عصمة عن شراك المعصية، وحبال الشيطان.

ولهذا كله يُعَلِّمُ ربنا تبارك وتعالى العباد الدعاء التالي:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^{٢٨٢}

وقد جعل نبينا الكريم ﷺ هذا التعليم الإلهي ورداً له، فكان دائماً ما يردد:

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^{٢٨٣}

ويقول سيدنا محمد ﷺ أيضاً:

«من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً،

ورزقه من حيث لا يحتسب»^{٢٨٤}

٢٨٠ الأعراف: ٢٣.

٢٨١ التحريم: ٨.

٢٨٢ آل عمران: ٨.

٢٨٣ الترمذي، القدر، ٧ / ٢١٤٠؛ النسائي، السنن الكبرى، النعوت، ٢٥ / ٧٦٩٠.

٢٨٤ أبو داوود، الوتر، ٢٦ / ١٥١٨؛ ابن ماجه، الأدب، ٥٧ / ٣٨١٩؛ أحمد، مسند، ١، ٢٤٨ / ٢٢٣٤.





ويقول عليه الصلاة والسلام:

«أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأَمْتِي {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣] فَإِذَا مَضَيْتَ تَرَكْتَ فِيهِمُ الْإِسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^{٢٨٥}

والدعاء والاستغفار من أهم الوسائل في تطهير القلوب، وتشير الآية الكريمة الآتية إلى أهمية الدعاء في تطهيرها من الأدران المعنوية:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^{٢٨٦}

ذلك التطهير المطلوب من أدران القلوب، يبدأ أولاً بالتخلص من السلبيات والآفات وكافة المشبطات التي تعيق عن بلوغ الهدف، ثم إعداد القلب وتجهيزه وتدريبه لبدء عمله الضروري، ويسير في طريقه الفطري ليلبغ هدفه الأساسي.

وقدوتنا في ذلك النبي ﷺ الذي كان يدعو الله تعالى، ويلجأ إليه سبحانه في التخلص من هذه السلبيات والآفات، يقول عليه الصلاة والسلام:

«...اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»^{٢٨٧}

«اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلَجِ وَالْبَرْدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ»^{٢٨٨}

٢٨٥ الترمذي، التفسير، ٨/ ٣٠٨٢.

٢٨٦ الحشر: ١٠.

٢٨٧ مسلم، الذكر، ٧٣/ ٢٧٢٢.

٢٨٨ البخاري، الدعوات، ٣٩/ ٦٣٦٨.





ولا يتحقق الوصول إلى درجة القلب السليم إلا باللطاف من الله ﷻ، وهذا ما أقر به أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم ﷺ، نتبين ذلك من دعائه القرآني القائل:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^{٢٨٩}

وكان النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام يلتجئ إلى ربه ويبتهل إليه كما كان يفعل سيدنا إبراهيم ﷺ، فكان من دعائه:

«...وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَقَلْبًا سَلِيمًا...»^{٢٩٠}

ومن الأمور المهمة في الدعاء أيضاً الإلحاح؛ والتكرار والثبات في الدعاء من سُنن النبي ﷺ، وهو يُظهر مدى الفاقة والتذلل لله ﷻ، أما الثبات فيعني التمسك بالأمل في الإجابة، واليقين بأن الله تعالى يرى لعباده ما هو أصلح لشانهم، فإذا ما استوثقت من شروط الإجابة، فتيقن من القبول، ولا تظهر الفتور، ولا تستبطئ الاستجابة^{٢٩١}، فربما أخرج الله تعالى دعوتك إلى حينٍ معلوم، أو بدلها لقدر محتوم، أو عوضك عنها يوم القيامة بأجر عظيم.^{٢٩٢}

٢٨٩ الشعراء: ٨٧-٨٩.

٢٩٠ الترمذي، الدعوات، ٢٣ / ٣٤٠٧.

٢٩١ انظر: البخاري، الدعوات، ٢٢؛ مسلم، الذكر، ٩٠، ٩١؛ أبو داود، الوتر، ٢٣؛ الترمذي، الدعوات، ١٢؛ ابن ماجه، الدعاء، ٧.

٢٩٢ انظر: الموطأ، القرآن، ٣٦؛ الترمذي، الدعوات، ١١٥ / ٣٥٧٣؛ ٩ / ٣٣٨١.





ت. قراءة القرآن، واتباع أحكامه

إذا تطهرت القلوب لم تشيع من كلام الله سبحانه، وإذا سمت روحانياتها استشفت أسرار الكون المنظور عبر تأمل الكتاب المسطور.

إن القرآن الكريم هو النعمة الكبرى التي منحها الله تعالى للبشرية؛ لأن فيوضاته اللانهائية هي المدد المادي والمعنوي لكل معاني السكينة والطمأنينة، وهي المصدر المثالي لسلامة الإنسان وقلبه، ولسعاده في الدنيا والآخرة. ومن أطلع على هذا الكنز العظيم، ثم أدار له ظهره فهو المحروم حقاً، وذلك هو عين جحود النعمة، ووصمة عار الإنسانية، وطريق الهلاك الذي لا موطن فيه لقبس من نور.

هذا النبع الروحاني الفياض يقدم للبشرية أنجع الأدوية لعلتها الأزلية، ويجب على أسئلتها الحائرة التي ضل في غياهاها الفلاسفة، ويسقي البشرية إكسير السعادة والحياة المثالية، ويمنح القلوب المتعبة والكليلة الراحة والهدى والسكينة.

والحق تبارك وتعالى يصف لنا كنه هذا القرآن ووظيفته، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^{٢٩٣}

والنبي الهادي عليه الصلاة والسلام، ومن تنزل عليه القرآن يصف القرآن فيقول:

«ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن»^{٢٩٤}

٢٩٣ يونس: ٥٧.

٢٩٤ الدارمي، فضائل القرآن، ١ / ٣٣٦٤.





«اقرأوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لن يعذب قلباً

وعى القرآن»^{٢٩٥}

«أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»^{٢٩٦} (٢٩٧)

إن القلوب المحرومة من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن تصيبها القسوة، وقد بعث أبو موسى الأشعري إلى قرّاء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمئة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال:

«أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولنّ عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم...»^{٢٩٨}

والحادثة التالية تحمل الكثير من العبر عن تأثير القرآن الكريم حتى على الحيوانات والملائكة: عن أسيد بن حضير قال:

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه فلما اجتريه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح، حدث النبي عليه الصلاة والسلام فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء،

٢٩٥ الدارمي، فضائل القرآن، ١ / ٣٣٦٢.

٢٩٦ إن الله تعالى يُكرم أهل القرآن الذين لا يكتفون بحفظه فقط بل يتبعون أحكامه ويتخلّقون بأخلاقه. وقد خصّ الله تعالى بعضاً من عباده من حفظة القرآن بإكرام خاص بأنهم لا تفتنى أجسادهم بعد الموت. ومن هذا ما شهد به الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو -رحمه الله- وهو من أولياء الله، إذ شهد على فتح قبر أحد الحفاظ بعد ثلاثين عاماً من موته أثناء اضطرابهم لفتح طريق في محافظة أضنة من المكان الذي دُفن فيه، فكان جسده كما هو، حتى إن الكفن كان موجوداً عليه.

٢٩٧ الحاكم، المستدرک، ١، ٤٣٠/٧٤٦؛ النسائي، السنن الكبرى، فضائل القرآن، ١٣ / ٧٩٧٧.

٢٩٨ مسلم، الزكاة، ١١٩ / ١٠٥٠.





فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصاييح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدري ما ذلك؟» قال: لا، قال:

«تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم»^{٢٩٩}

لقد أنزل الله تعالى القرآن من أجل الإنسان، أخرجه من مستودع السماء إلى مستودع الأرض، إلى قلوب المؤمنين، فأُيِّسَ إلهي أعظم من القرآن الكريم، وأي مستودع رباني أوعى من القلب السليم، فهل من الممكن أن تُغلق هذه القلوب دونه، وتبخل على نفسها بفيض حكمه وعبره وأسراره؟

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^{٣٠٠}

إن القرآن هو انعكاس لأسماء الله تعالى على إدراكنا الدنيوي في صورة كلام، ويظهر الله تعالى عظمة المعاني التي لا تُعد ولا تُحصى في القرآن بالصورة التالية:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{٣٠١}

فإن القلوب إذا تطهرت لم تشبع من كلام الله سبحانه، وإذا سمت روحانياتها استشفت أسرار الكون المنظور عبر تأمل الكتاب المسطور.

لذا، على المرء أن يُعد قلبه إعداداً يليق بتلقي القرآن، وبفهم القرآن، وبإدراك أسرار القرآن، وبانكشاف حقائق القرآن.

فمن أقام القرآن أمامه، وجعله إمامه، هداه إلى الصراط المستقيم، ومن جعل القرآن مهجوراً، نال في حياته ثبوراً، وصلي في آخرته سعيّاً.

٢٩٩ البخاري، فضائل القرآن، ١٥ / ٥٠١٨.

٣٠٠ محمد: ٢٥.

٣٠١ لقمان: ٢٧.





وتوضح الآياتان الآيتين الأثر العضوي والنفسي والمعنوي والإيماني في قلوب المؤمنين عند تلاوة القرآن الكريم:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...﴾^{٣٠٢}
 ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^{٣٠٣}

والقرآن هو أعظم دليل عرفته البشرية في الدنيا، وفي الآخرة، به تستقيم حياتها المادية حتى تبلغ المثالية، وبه ترتقي حياتها المعنوية حتى تبلغ العرفان، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^{٣٠٤}

ولأن القرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه سبحانه، فهو الحق المحض الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليس كأديان البشر الوضعية تطالها أيدي التحريف، وليس كمذاهب البشر الآنية ينقض بعضها بعضاً، إنما قرآن كريم عظيم صالح لكل زمان ومكان، مناسب لكل الأحوال والأحيان، يقود البشرية في طريقها عبر الأزمان إلى أن يفتح لها باب الأبدية بعد الموت، ويرتقي بها في درجات الخلود.

وفي ذلك يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام:

٣٠٢ الزمر: ٢٣.

٣٠٣ الأنفال: ٢.

٣٠٤ الإسراء: ٩.





«يُقَال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتنق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرأها»^{٣٠٥}

وثمة إشارة نبوية جليلة هنا، تومئ إلى الحالة التي ينبغي أن يكون عليها قارئ القرآن؛ بل هي تمنح السامع مؤشر الحكم، فقد سئل النبي ﷺ:
أيُّ النَّاس أحسن صوتًا للقرآن، وأحسن قراءة؟ قال:
«من إذا سمعته يقرأ، أُرِيتَ أنه يخشى الله»^{٣٠٦}

وهل ننسى المعجزة القرآنية التي حولت القلب العمري من عداوته الشديدة للإسلام والمسلمين إلى الفاروق الذي تتوافق آراؤه مع أحكام القرآن الكريم حتى قبل أن ينزل القرآن، يستمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى آيات الله تُتلى في بيت أخته فاطمة بخشوع، فيعتريه ما يعتريه.

وتسلط الآيتان الكريمتان الآيتان الضوء على كيفية قراءة القرآن الكريم:

﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^{٣٠٧}

﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^{٣٠٨}

وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال:

«تعلم عمر رضي الله عنه البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزوراً»^{٣٠٩}

في حين أنهى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سورة البقرة في ثمانية أعوام.^{٣١٠}

٣٠٥ أبو داود، الوتر، ٢٠ / ١٤٦٤؛ الترمذي، فضائل القرآن، ١٨ / ٢٩١٤.

٣٠٦ الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤ / ٣٥٣٢.

٣٠٧ ص: ٢٩.

٣٠٨ المزمّل: ٤.

٣٠٩ القرطبي، الجامع، ١، ٤٠. الجزور: ما يصلح لأن يُذبح من الإبل.

٣١٠ مالك، الموطأ، القرآن، ١١.





وكان الصحابة الكرام يقتربون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، فكانوا يعملون بما في القرآن من علم، ووصلوا بحكم القرآن إلى حالة الكمال.^{٣١١}

وحُكي عن أبي سليمان الداراني - رحمه الله - أنه قال:

«إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ ولولا أنني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها»^{٣١٢}

والأمثلة الواردة كلها توضح بجلاء أن من واجب قارئ القرآن أن يتخطى الألفاظ والسطور، وأن ينفذ إلى المعاني والبواطن، وأن ينتقل من القراءة إلى تنفيذ ما فيها من أوامر ونواهٍ، وأن يمثل ما في المعاني من أخلاق وسلوك.

ولعل أول الشروط في التعامل مع القرآن والنفوذ إلى أعماقه احترام القرآن قلبًا وقلبًا، فتحترم صحائفه وأوراقه، كما تتمثل أوامره وأخلاقه.

والتاريخ يخبرنا عن الدولة العثمانية وما وصلت إليه من مرتبة في العالمين المادي والمعنوي ببركة احترامهم للقرآن الكريم وتقديسهم له.

وتشير إحدى الروايات التاريخية المشهورة إلى أن مؤسس الدولة العثمانية السلطان عثمان غازي رحمه الله بات ليلة في بيت الشيخ أدبالي، فلم يستطع النوم فيها أبدًا احترامًا للقرآن الكريم الذي كان معلقًا على الحائط.

وثمة آداب أخرى للتعامل مع المصحف باحترام وقُدسية، وهي من آداب حملة القرآن التي استقها العلماء من نصوص الكتاب والسنة، مثل عدم جواز مس المصحف للجُنب أو المُحدث، وعدم حمل المصحف أسفل الخصر، وعدم تركه مفتوحًا، أو موضوعًا على الأرض، أو وضع شيء فوقه، وغير ذلك من الآداب التي تُظهر وجوب احترام المصحف الشريف الذي يضم بين دفتيه كلام الله تعالى.

٣١١ أحمد، مسند، ٥، ٤١٠.

٣١٢ الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت ١٩٩٠، ١، ٣٧٤.





ويأتي بعد ذلك الاهتمام بالقرآن بكثرة قراءاته، والمداومة على تلاوته، والحرص على أن يكون لك ورد ثابت من القرآن مهما كان قليلاً، لكنه ثابت لا ينقطع، ولتذكر دومًا أن أول أمر إلهي جاء به الوحي هو: ﴿اقرأ﴾^{٣١٣}

وهل تصح أولى العبادات وعمود الإسلام - الصلاة - إلا بقراءة القرآن؟

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار»

فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل،

«ورجل آتاه الله ما لا فهو يهلكه في الحق»

فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل.^{٣١٤}

وكان أول كلام تكلم به الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك مخاطبًا الرعية:

«يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إمامًا وارضوه حكمًا، واجعلوه لكم قائدًا؛ فإنه

ناسخ لما كان قبله ولن ينسخه كتاب بعده، اعلّموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد

الشیطان وصفافه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس إدبار الليل إذا عسعس»^{٣١٥}

بل إن مجرد النظر إلى كلمات القرآن وصحائفه استثناسًا، واتخاذها للعين

نبراسًا، يُثاب عليه الناظر، فليس شيء يمس القرآن أو ينتمي إليه ويقرب منه إلا

وينال صاحبه ببركة القرآن نوالاً وثواباً.

وعبر كل هذه الآيات التي تدل على عظمة القرآن، وتلك الأحاديث التي

توضح جلال أثره، نستطيع أن ندرك ما للقرآن من قدر في حياة المؤمن، بل هو

حياة المؤمن، وحياة قلبه، والمدد الإلهي لهما.

٣١٣ العلق، ١.

٣١٤ البخاري، فضائل القرآن، ٢٠ / ٥٠٢٦.

٣١٥ البيهقي، كتاب الزهد، ص ٦١.





وكان من دعاء الرسول الأكرم ﷺ:

«ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك بن عبدك بن أمتك،
ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك،
سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في
علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري، وجلاء حزني وذهاب
همي. إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً»

ف قيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

«بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»^{٣١٦}

ث. الخشوع في العبادة

«...الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك...»^{٣١٧}

إن العبادة هي ذلك الميثاق الأزلي الذي أخذه الله تعالى على عباده وهم لا
يزالون في أصلاب آبائهم، ميثاق العبودية له سبحانه، والإقرار بربوبيته تعالى،
وأداء ذلك على أحسن حال وأكمله.

هذا الأداء للعبادات هو بوابة المرء إلى عالم الروح والوصال مع الحق
سبحانه، وهو الخلاص من هموم الدنيا وأدناسها وأرجاسها، والرقى إلى جوار
الحضرة الربانية حيث راحة الروح وطهر القلب، وطمأنينة النفس، والشفاء من
كل داء، والأمن من كل خوف، والحصول على السعادة الأبدية.

فالعبادات هي الواحة الغناء في الصحراء الدنيوية الجرداء، وهي زاد العبد
وراحلته في رحلته عبر الدنيا إلى الآخرة.

٣١٦ أحمد، مسند، ١، ٣٩١/٣٧١٢.

٣١٧ البخاري، الإيمان، ٣٧/٥٠، تفسير القرآن، ٣١/٤٧٧٧.





وعندما يرفع العبد يديه في الصلاة بتكبيره الإحرام فكأنه يرفعها ليطرق أبواب السماء، وحين ينادي بالتكبير فكأنه يطلب الإذن للدخول في معية رب الأرض والسماء، فيبدأ بالبسملة التي بها يُبتدأ كل أمر ذي شأن، ثم يحمد الله تعالى ويمجده ويشني عليه، وبعدها يبدأ الدعاء والطلب والرجاء، ويطلب الهداية إلى طريق السعادة.

وإذا كان الحق -تبارك وتعالى- قد خلق الناس لغاية، وهي العبادة؛ فإن الوصول إلى هذه الغاية لا يتأتى إلا بإتقان هذه العبادة بالخشوع.

والخشوع يعني المثل بين يدي الله تعالى في حالة شعورية خاصة، تجمع بين مشاعر الخوف والرجاء وعقائد الولاء والبراء، بين السكينة والطمأنينة، بين الانفصال عن عالم الأرض والاتصال بعالم السماء، واستشعار معية المعبود وحضرته، واستحضار مهابته وقدرته وخشيته.

- وأعظم هذه العبادات أثراً وأعمها نفعاً هي الصلاة، وهي من أجل النعم التي حبا الله تعالى بها عباده، ومن أقوى الأسباب التي تربط العبد بربه، بقول النبي ﷺ: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة»^{٣١٨}

وعن أنس، قال: كنا عند رسول الله ﷺ حيث حضرته الوفاة، قال: فقال لنا: «اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة ثلاثاً، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، اتقوا الله في الضعيفين المرأة الأرملة والصبي اليتيم، اتقوا الله في الصلاة» فجعل يرددّها وهو يقول: «الصلاة» وهو يغرغر حتى فاضت نفسه^{٣١٩}.

٣١٨ مسلم، الطهارة، ١٧/٢٣٤.

٣١٩ البيهقي، الشعب، ج٧، ٤٧٧. انظر أيضاً: أحمد، مسند، ٦، ٢٩٠، ٣١٥؛ أبو داود، أدب، ١٢٣-

١٢٤/٥١٥٦؛ ابن ماجه، وصايا، ١.





وإذا أدرك العبد ماهية الصلاة وحقيقتها، واستشعر معناها، وذاق لذتها، لم يستبدلها بغيرها أبداً؛ حتى ولو كانت الجنة.

يقول سليمان الداراني - رحمه الله -:

«لو خُيِّرَت بين ركعتي صلاة ودخول الفردوس لاخترت الركعتين، لأن دخول الفردوس في الجنة هو مطلبٌ للنفس يسعدها، لكن حين أصلي ركعتين، فإنني سأكون مع ربي ﷺ».

والصلاة تختلف عن بقية العبادات، ففي الصلاة يكون العبد منفرداً مع ربه، لا يراي الناس بركاته، ولا يباهي بحجه، ولا يمارس حياته مع صيامه، إنما يقف بين يدي ربه بجسده وروحه وقلبه، لا تشغله من شواغل الدنيا سوى ما تشغله به نفسه.

وحين يقف العبد للصلاة يجب أن يقطع كل اتصال له بالدنيا، ويرفع كل حواسه عنها، ويصرف مشاعره دونها، ولا يقع في مداركه شيء سوى الاتصال بالملا الأعلى، فإذا وصل إلى حقيقة الصلاة وكنهها، حينئذ تنزاح الأستار، وتنكشف الأسرار، وتتجلى الحقائق والأنوار.

والصلاة تشترط للخضوع فيها - شأن كل العبادات - أن تستشعر معية الله تعالى ومراقبته لك، فإذا أيقنت بهذه المعية والمراقبة استحييت أن تشغل بغيره سبحانه، أو أن يتعلق قلبك بشيء دونه.

يقول النبي ﷺ:

«الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^{٣٢٠}

أي أن تجمع قلبك وذهنك، وتتخلص من جميع الأفكار الفانية، وترتكز على ذكر الله تعالى، وأن تعبد الله تعالى كأنك تراه مهما كان الحال الذي أنت عليه!





ويقول النبي ﷺ:

«اذكر الموت في صلاتك فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحريٌّ أن يحسن صلاته، وصلَّ صلاة رجل لا يظن أن يصلي صلاة غيرها، وإياك وكل أمر يعتذر منه»^{٣٢١}

ويصف الله تعالى الصلاة الحقيقية في قوله:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^{٣٢٢} (العنكبوت، ٤٥)

ودوام حالة الانتهاء عن الفحشاء والمنكر بعد الصلاة هو المؤشر الأوضح على استمرار حالة الخشوع والطمأنينة بعدها، وإلا فإن الصلاة لم تكن كما يريد الله تعالى، حينها يستحق صاحبها هذا الوعيد الإلهي في الآيات التالية:

﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^{٣٢٣}

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً، ثم انصرف، فقال: «يا فلان، ألا تحسن صلاتك؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي؟ وإنما يصلي لنفسه، إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي»^{٣٢٤}

وهؤلاء الذين لا يراعون في الصلاة إلا الحركات والسكنات، ولا يبالون بالرحمات والفيوضات، كمثّل الذي يؤدي ديناً وهو كاره، أو يفعل خيراً وهو مُجبر، أو يقوم بواجب اعتيادي خالٍ من الروح والشعور.

٣٢١ الديلمي، الفردوس، ١، ٤٣١/١٧٥٥. قارن: ابن ماجة، الزهد، ١٥؛ أحمد، مسند، ٥، ٤١٢.

٣٢٢ العنكبوت: ٤٥.

٣٢٣ الماعون: ٤-٧.

٣٢٤ مسلم، الصلاة، ١٠٨/٤٢٣.





ويصف المولى سبحانه الصلاة الحقيقية المثالية حين يقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^{٣٢٥}

ويصف الصحابي عبد الله بن الشَّخِير رضي الله عنه حال الرسول ﷺ في صلاته، فيقول:

«رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْلِي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ»^{٣٢٦}

ويوضح رسول الله ﷺ ضرورة الخشوع في الصلاة فيقول:

«ما منكم رجل يقرب وضوءه... ثم قام فصلى، فحمد الله وأثنى عليه ومجَّده بالذي هو له أهل، وفرَّغ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهَيْئَتِهِ يوم ولدته أمه»^{٣٢٧}

وقال رسول الله ﷺ أيضاً بعد أن فرغ من وضوئه:

«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يَحْدِثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^{٣٢٨}

ويقول أبو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه:

«مِنْ فَقْهِ الْمَرْءِ إِقْبَالُهُ عَلَى حَاجَتِهِ حَتَّى يُقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ وَقَلْبُهُ فَارِغٌ»^{٣٢٩}

وكان وجه سيدنا علي رضي الله عنه يصفّرُ حين يقف للصلاة لما يكون عليه من خشوع، ويتجرد حتى من إحساسه ببدنه، وقد وقف ذات مرة للصلاة كي يُخرجوا من قدمه المباركة سهماً أصابه في المعركة، إذ كان يعلم من نفسه أنه لن يشعر في الصلاة بأي ألم، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كم من عبد يصلي صلاته على هذا النحو بأن يقطع علاقاته كلها عن الدنيا وما فيها؟

٣٢٥ المؤمنون: ١-٢.

٣٢٦ أبو داود، الصلاة، ١٥٦-١٥٧؛ أحمد، مسند، ٤، ٢٥.

٣٢٧ مسلم، المسافرين، ٢٩٤/٨٣٢.

٣٢٨ البخاري، الوضوء، ٢٤، ٢٨؛ مسلم، الطهارة، ٣-٤/٢٢٦.

٣٢٩ البخاري، الأذان، ٤٢.





لكن العبد الذي لم يصل إلى هذه المرتبة في الخشوع والكمال في العبادة، لا ينبغي عليه أبداً القنوط من عبادته وتركها؛ بل عليه أن يضع هذا الكمال موضع الهدف والغاية، ويجعل من أخطاء عباداته درجات أولية في سلم الرقي إلى الدرجات العلى، ويجعل شغله الشاغل في كيفية تجنب أخطائه، ويجعل مطاعن عبادته هي الجراحات التي يسعى لمداواتها، فمن تمسك بالخيط الرفيع، أو شك أن يرتبط بحبل الله المتين.

وثمة فائدة كبرى في انتظام الصلاة على وقتها، وهي انتظام حياة العبد على وتيرة مادية ومعنوية متناسقة، فيصير وقته منظماً، وعمله منظماً، ومدده السماوي منتظماً، وحياته كلها تسير بوحى من ذلك التناسق والانسجام.

كما تحافظ الصلاة المنتظمة على نشاطك العقلي وتيقظك الفكري، وبها يرتفع مؤشرك الإيماني وسموك المعنوي، وبها تطهر من وصمات الدنيا وطينها الأرضي.

- والصوم كذلك من العبادات التي يجاهد بها المرء دنياه، ويسعى بها إلى أخراها، ويواصل بها السلوك في طريق مجاهدة نفسه وهواه، ليصل بها إلى أسمى درجات الإحسان والتقوى.

فغاية الصوم مجاهدة النفس، وتخطي عقباتها الكؤود، والانفلات من نيرها، والتحرر من قيادها، وإلجامها وقهرها بالامتناع عن تحقيق مرادها، وليس الصوم عن طعام وشراب وشهوة؛ إنما الصيام عن الرغبات الدنيوية للنفس، والصيام عن الذنوب صغيرها وكبيرها، وهو المعنى الذي قصده الشيخ عبد الله دهلوي عندما قال: «إن حياتنا في هذه الدنيا هي يوم واحد فقط، فيجب علينا أن نصوم ذلك

اليوم»^{٣٣٠}





ورياضة الصوم تبدأ بتدريينا على التقليل من المباحات، والاقتصاد في الحلال، ثم الابتعاد عن الشبهات؛ فضلاً عن الامتناع التام عن المحرمات، فيكتسب العبد من الأخلاق والفضائل والقوة ما يجعله صامداً أمام المشقات، قوياً أمام الصعوبات، متسلحاً ضد الشهوات والرغبات.

فيدرك الناس -غنيهم وفقيرهم- معنى الجوع، ويحسون بمدى عظمة نعمة الله تعالى عليهم، ومدى معاناة المحرومين من هذه النعمة، ومن ثم يزرع في الجميع الإحساس بالتعاون والتراحم.

والصوم يُحيي في الناس مشاعر التقوى ويزيد من صفاء القلوب، فالله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^{٣٣١}

ويوضح رسول الله ﷺ فضيلة الصوم في الحديث التالي:

عن أبي هريرة ؓ يقول: قال رسول الله ﷺ:

«قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة، وإذا كان يومٌ صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤٌ صائم»^{٣٣٢}

إن امتلاك العبد لإرادته هو الضمانة الأقوى أمام رغبات النفس وطبيعتها الشهوانية، والذي يقوِّي هذه الإرادة وينميها هو المنهج التربوي الذي يُعد الصوم أصلاً من أصوله.

٣٣١ البقرة: ١٨٣.

٣٣٢ البخاري، الصوم، ٩ / ١٩٠٤؛ مسلم، الصيام، ١٦٣ / ١١٥١.





يقول مولانا جلال الدين الرومي - رحمه الله - في ضرورة تناول الطعام القليل في الدنيا لنيل نِعَمِ العالم الأبدى:

«الغذاء الأساسي للإنسان هو الحكمة والعشق الإلهي، لهذا ليس من الصواب إعطاء البدن غذاءً أكثر من اللازم».

«إن الإنسان يفقد الطمأنينة حين يكون قلقاً على غذاء بدنه وينسى غذاءه الروحاني الأساسي؛ لأنه لن يعرف الشبع في هذه الحالة. لذلك تراه مصفراً الوجه مرتجف القدمين مضطرب القلب نتيجة حرصه، ولكن شتآن بين الغذاء الأرضي والغذاء الأبدى!».

«ويقول الله تعالى عن الشهداء أنهم ﴿... عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾»^{٣٣٣}، ولا يوجد فمٌ أو جسد لهذا الغذاء المعنوي».

وللصوم حقيقة - لا بد من الوصول إليها وتحقيقها حتى يحقق العبد معنى الصوم، ويصل إلى الغاية من عبادة الصوم - هي صيام الحواس مع صيام الجوارح، فصيام الفم والفرج لا بد أن يتبعه صيام العين والأذن واللسان وكافة الأعضاء، كي يكون وقت إفطارنا وقت العفو عن ذنوبنا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد، وجهل عليك فقل: إني صائم»^{٣٣٤}

وعن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين صامتا وأن رجلاً قال:

يا رسول الله إن ها هنا امرأتين قد صامتا وإنهما قد كادتا أن تموتا من العطش، قال: فأعرض عنه أو سكت، ثم عاد فقال: يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا، قال: «ادعهما»، قال: فجاءتا، قال: فجيء بقدرح أو عس، فقال لإحدهما:

٣٣٣ آل عمران: ١٦٩.

٣٣٤ الحاكم، المستدرک، ١، ٥٩٥/١٥٧٠.





«قيي» فقاءت قيحًا أو دمًا وصديدًا ولحمًا حتى قاءت نصف القدح، ثم قال للآخرى: «قيي»، فقاءت من قيح ودم وصديد ولحم عبيط وغيره حتى ملأت القدح، ثم قال:

«إن هاتين صامتا عما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله ﷻ عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان من لحوم الناس»^{٣٣٥}

- وعبادة «الزكاة» أيضًا تملك من أساليب التربية والعلاج المجتمعي ما يصب في رافد خشوع العبادات، وتهذيب النفس، ف«الإنفاق» عبادة فُرِضت لعلاج النفس الفردية للإنسان، والنفس الجماعية للمجتمع، ولعلاج الروابط النفسية والاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

فالمال أحد أقوى الشهوات التي تتحكم في النفس البشرية، فمن امتلك المال يرفض بشدة إنفاقه إلا على ملذاته، ويتعمى عمّن هو في احتياج إلى فُتات منه، ومن لم يمتلكه كَنَز في قلبه حقداً وحسداً على من يضمن عليه بالمال.

أما إذا أخرج الغني زكاته وصدقاته وهداياه ليطفئ نار حسد هذه القلوب، وليقطع حبال قيود هذه النفس الشحيحة، حينها تتحول هذه النار التي تأكل القلوب إلى حرارة تدفع العلاقات الإنسانية بين الأغنياء والفقراء، وتتحول هذه القيود التي تلجم النفس عن الإنفاق إلى أسباب تربط القلوب ببعضها ببعض، وتربطها بالله سبحانه في معادلة إسلامية من التكافل والتعاون والتراحم، ونفي التباغض والتحاسد، وحجة للجميع أمام الله تعالى حين يسأل صاحب المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وطُهرة لهذا المال من آفة الحرام والشبهات.

وقد حفل القرآن الكريم بذكر آيات الزكاة؛ بل ربطها المشرّع في سبع وعشرين آية بالصلاة عماد الدين، تنبيهًا لأهميتها وخطورها.





والزكاة دينٌ بمقدارٍ معيَّن مفروض من الله تعالى على من كانت لديه الإمكانية كي يؤدِّيها للمحتاجين، يقول المولى ﷺ في القرآن الكريم:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^{٣٣٦}

هذا الحق المقرر من لدن صاحب خزائن السماوات والأرض لصالح السائل والمحروم يصير -وفق تفصيلات التشريع- وكأنه ضريبة إلهية في مال الغني، يُطَهَّر بها ماله، ويؤكد بها حله، فتزيل هذه الضريبة الثقل المالي الجاثم على قلب الغني، وتساعد على الانفكاك من ربقته، وتزيل التكسد المتزايد على كفة واحدة في المجتمع فتميلها ميلاً عظيماً، وتعيد توزيع المال بشكل تسير معه عجلة الحياة في المجتمع الإسلامي بعدالة واتزان. ويتحقق التوازن والعدالة والانسجام الاجتماعي، ويكفي لفهم هذه الحقيقة النظر إلى آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^{٣٣٧}

وثمة نكتة لغوية مهمة في تلك المسميات، فكلمة «الزكاة» تعني «التزكية» والتطهير، فمن فعلها كان هو صاحب العقلية الاقتصادية التربوية في الحفاظ على أصل ماله وحله، وطهارة نفسه ونقائها.

ولنعلم أن الزكاة هي الحد الأدنى المفروض من درجات الإنفاق، فمن أراد زيادة في التطهير والتزكية فعليه الزيادة من الإنفاق والصدقة، وهو المعيار الرباني الذي أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿لَن تَأْلُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^{٣٣٨}

وفي لمحة تربوية شديدة الوضوح والترغيب، يربط هذا الإنفاق بنوال رباني، ويضعه تحت رقابة ربانية مباشرة.

٣٣٦ الذاريات: ١٩.

٣٣٧ الأعلى: ١٥.

٣٣٨ آل عمران: ٩٢.





ولعلنا نلاحظ أن الإنفاق والصدقة - بخلاف الزكاة - ليس لها حدٌّ أو سقف شرعي؛ بل تُرك الباب مفتوحاً أمام المسلم لينفق بلا حدود، وتُرك الأجر كذلك بلا سقف وبلا حدود، وظل الثواب مخفياً كما في الصيام، فقد منح الله الأمة الخاتمة للنبي الخاتم ﷺ ما لم يمنحه لغيرها، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، حتى الهُم بالسيئة ثم الامتناع والهم بالحسنة والتوقف؛ كل ذلك له - من كرم الله وفضله - أجر.

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^{٣٣٩}

ولا بد من ملاحظة أن الآية الكريمة تشير إلى أن الزكاة والإنفاق تطهران العبد من ناحيتين: المالية والقلبية.

ويوجه الله تعالى تهديداً في الآيتين الكريمتين الآتيتين:

﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾^{٣٤٠}

ويحذرنا رسول الله ﷺ حين يقول في الحديث:

عن أبي هريرة ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهُ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَجَاعاً أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ يَطْوِقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشَدَقِيهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكُ أَنَا كَنْزُكَ»،

٣٣٩ التوبة: ١٠٣.

٣٤٠ التوبة: ٣٤ - ٣٥.





ثم تلا: {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...} [آل عمران: ١٨٠] إلى آخر الآية» ٣٤١

ومن بخل بمال الله على الفقراء من عيال الله لم يسلب هؤلاء المحتاجين حقهم فقط؛ بل حرم نفسه أيضاً من فرصة التحرر من حب المال، وحرم قلبه من وسيلة تطهير وتهذيب.

وقد عاودت الآيات بيان خطر هذه المحبة للمال على قلب صاحبه، وكانت التسمية القرآنية لتلك الحالة أنها «فتنة»؛ إذ يقول الحق تعالى:

﴿...إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ ٣٤٢

هذه الفتن في المال والأبناء يمكن للإنسان تفاديها والتحصن ضدها، ليس فقط من خلال الإنفاق والصدقة؛ إنما وسائل التحصن أوسع من ذلك بكثير، ربما تبدأ من دائرة الخلاص من حب الدنيا واجتثاث جذور هذا الحب من أعماق القلب، والدائرة الخاصة بالمال هي إدراك حقيقة أن هذا المال -ومال الدنيا كلها- مجرد أمانة في عنق صاحبها ملزم بردها، وردّها هو ثقل يزيحه عن كاهله، وليس جزءاً يقتطع من أملاكه.

أي أن زيادة الإنفاق هي زيادة في التخلص من الأعباء.

والقرآن الكريم يفتح لنا مصراعاً واسعاً لمعاني الإنفاق، فيجعل كل الأخلاق الكريمة مجالاً للتبادل والتبادل والتعاطي والتعامل والعطاء والإنفاق، ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾ ٣٤٣

٣٤١ البخاري، الزكاة، ٣/٤٥٦٥؛ الترمذي، التفسير، ٣/٣٠١٢؛ أحمد، مسند، ١٤، ٢٩٨ / ٨٦٦١.

٣٤٢ التغاين: ١٥.

٣٤٣ البقرة: ٢١٩.





إن الغني الكريم الشكور، والفقير النبيل الصبور هما في مقام الشرف الإنساني والرضا الإلهي، وقد ذمَّ الإسلام الغنيَّ المتكبر الشحيح، والفقير الذي لا صبر عنده ويعصي الله ﷻ.

والزكاة ما هي إلا شكر عملي من صاحب المال والثروة، وزيادة النعم بالشكر هو وعد إلهي، فالله تعالى يقول: ﴿...لَنِّ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾^{٣٤٤}

وكان النبي ﷺ يُحِبُّ الإنفاق كثيراً ويحث عليه، ويقول في الحديث القدسي: «قال الله: أنفق يا ابن آدم، أنفق عليك»^{٣٤٥}

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

«ثلاثة أُسِمَ عليهن وأُحْدِثُكُمْ حَدِيثًا فاحفظوه»، قال: «ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظَلِمَ عبدٌ مظلَمَةً فصبر عليها إلا زاده الله عزًّا، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها»^{٣٤٦}

وكان النبي ﷺ دائماً يحب أن يكون الكرم طبيعة المسلم الأصلية:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^{٣٤٧}

ويوضح سيدنا محمد ﷺ الفوائد المعنوية للكرم بمثال من العالم المادي:

عن أبي هريرة ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل البخيل والمنفق كمثلي رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بانه

٣٤٤ إبراهيم: ٧.

٣٤٥ البخاري، النفقات، ١/ ٥٣٥٢.

٣٤٦ الترمذي، الزهد، ١٧/ ٢٣٢٥؛ انظر أيضاً: مسلم، البر، ٦٩/ ٢٥٨٨.

٣٤٧ البخاري، العلم، ١٥/ ٧٣؛ مسلم، صلاة المسافرين، ٢٦٨/ ٨١٦.





وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسّعها ولا تتسع»^{٣٤٨}

ويقول النبي ﷺ أيضاً ليحث على السخاء:

«تجاوزوا للسخي عن ذنبه، فإن الله تعالى يأخذ بيده عند عثرته»^{٣٤٩}

وخلاصة القول إن فطرة الإنسان المُحبة للعالم وزينتها، الميل إلى الدنيا وزخرفها، تطمح إلى جمع المال وكثره، وكلما ازداد جمع المال ازداد الجشع والحرص والامتناع عن الإنفاق، وتناولت المماطلة والتأجيل والتسويق، وتباعدت المسافة بينه وبين الناس فقراهم ومحتاجيهم، ومرضاهم وعانيهم، فتقطعت الأوصال وتبلدت المشاعر، وخبث جذوة الأخلاق.

وأما الإنفاق، فمن يفقد الإحساس بالناس، يفقد القدرة على الإنفاق؛ بل يفقد الرغبة في ذلك، ولا يملك من وعود ماله إلا التسويق، وتخطبه النفس بلغة خداعة قائلة:

«يجب أن تكون غنياً أكثر، فأنت تستطيع أن تنفق وتعمل الخير في المستقبل!».

وهؤلاء هم الذين ضل سعيهم، ويظل الشحيح طوال عمره جامعا لما يُحاسب على جمعه، ومُمسكا لما يُحاسب على إمساكه، ومقتراً حتى على نفسه التي أجهدتها التقتير والإمساك، والسعي والشح، أولئك هم الذين انطبق عليهم القول المأثور: «هلك المسوّفون».

ويصف الله ﷻ في الآية الكريمة حال الإنسان الذي أفاق من غيبوته ساعة الموت وما يخالجه من شعور أبدى بالندامة:

﴿...رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^{٣٥٠}

^{٣٤٨} البخاري، الجهاد، ٨٩، الزكاة ٢٨؛ مسلم، الزكاة ٦٧-٧٧.

^{٣٤٩} الهيثمي، مجمع الزوائد، ٦، ٢٨٢ / ١٠٦٩٤؛ قارن: أبو داود، الحدود، ٥ / ٤٣٧٥.

^{٣٥٠} المنافقون: ١٠.





وللإنفاق آداب ومشاعر، فالمنفق عليه أن يشعر بالامتنان تجاه من أخذ ماله وأراحه من ثقله، وتجاه من أخذ صك الدين الذي ينوء به كاهله، وتجاه من بسببه يملأ الله صحيفته أجرًا وثوابًا، وتجاه من أخذ المضغة التي هي حظ الشيطان في ماله ونفسه.

يقول الله تعالى مبينًا أهمية تقديم الصدقة للمحتاج بقلب حساس:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ...﴾^{٣٥١}

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾^{٣٥٢}

ويبين الحديث التالي لزوم إعطاء الصدقة بحالة روحانية:

«إن الصدقة لتقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، وإن الله ليدفع بها سبعين بابًا من مخازي الدنيا...»^{٣٥٣}

إنه المنفق لا يعطي ماله للمحتاج، ولكنه يعطيه ليعتق نفسه من أسر الدنيا، ويعتق قلبه من حزن الدنيا، ويشترى بهذا المال السعادة الأبدية، فليكثر منه أو يقلل. إن مالك المُلْك سبحانه وصاحب الخزائن التي لا تنفذ قادر على أن يحيل الجبال ذهبًا والرمال تبرًا، وسُحِب السماء منّا وسلوى، وحصى الأرض حليًا وعسلًا، وهو سبحانه يفعل ذلك وأكثر، ألا ترى مُزْنَ السماء يسوقها إلى الأرض القاحلة فتحيا ويحيا الناس في خيرها؟! ألا ترى حبات صغيرة ينبت الله بها من الطين ألوانًا شتى من الطعام والفاكهة رطبًا ويابسًا؟ أليس يملك سبحانه أن يجعل رزق الإنسان وفق إنفاقه وصدقته؟

٣٥١ التوبة: ١٠٤.

٣٥٢ البقرة: ٢٦٤.

٣٥٣ أبو نعيم، الحلية، ٤، ٨٥.





بلى والله، وهو واقع بالفعل ولكنه يوم القيامة حين يكون كل امرئ في ظل صدقته.

والإنفاق على مخلوقات الله احتساباً لله، وابتغاءً لمرضاته، وحباً في ذاته، هو أيضاً لذة يجدها المنفق حين يسهم في إسعاد مخلوقات من يحب، والإنعام على موجودات من يعشق.

- وأما عبادة «الحج» فذات طبيعة خاصة، إذ هي عبادة بدنية ومالية في آن معاً، وطبيعتها الخاصة تعود إلى مناسكها وشعائرها التي تربط الإنسان بالماضي السحيق وعصور الأنبياء المتعاقبة من لدن آدم وإبراهيم وإسماعيل وخاتمهم محمد ﷺ، فمن يحج الآن كان ممن لبى نداء خليل الله إبراهيم عليه السلام حين أذن بالحج فسمعت الذريات في أصلاب آبائها وأجابت نداءه.

وكذلك يرتبط الحاج بالغيب المستقبلي يوم القيامة حين يلبس ملابس الإحرام، ويقف على صعيد عرفات، لا يحمل من متاع الدنيا شيئاً، ولا يميزه عن بقية الخلائق شيء إلا ما يفقهه من معاني مناسك الحج؛ تلك المناسك التي ترتقي بالإيمان في القلب إلى أسمى الدرجات، وتربط القلب بالملأ الأعلى، فيدرك تسبيحات السماء التي تتناغم من ترنيمات قلبه المشتاق إلى لقاء ربه، والذي هيجته الذكرى في مشاعر الحج وذكرياته ومناسكه وتليياته؛ لذا فالحج وسيلة للوصول إلى سر مقولة أهل التصوف: «موتوا قبل أن تموتوا».

وحقيقة عبادة الحج أنها بوتقة واحدة كبرى ينصهر فيها المسلمون جميعاً بنار العشق وحرارة الوجد، ثم ينهلون جميعاً من تجليات الله تعالى، ويلتحمون جميعاً في حال معنوي واحد فتنفذ إلى روحهم فيوضات ربهم ﷻ.

والحج عبادة يجد فيها الإنسان طمأنينة روحية، ويتصل بجذوره الضاربة في أعماق التاريخ، وهي مظهر روحاني يتطهر فيه القلب حين يرتشف من معين الفيوضات الإلهية.





إن الكعبة المعظمة هي قبلة المؤمنين التي أمر الله تعالى بالتوجه إليها في الصلاة وهدفها الاستقامة حين قال:

﴿كَأَلَّا لَا تَطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^{٣٥٤}

ومنزلة الكعبة ومكانها في الأرض بمثابة منزلة القلب ومكانه من الإنسان، وكما أن القلب هو مظهر تجليات الحق وفيوضاته، فكذلك الكعبة هي مظهر تجليات الله تعالى على الأرض وفيوضاته على عباده، فالكعبة هي قلب الكون، والحج بذلك هو أشد العبادات حساسية، وأكثرها إلحاحًا في استحضار القلب ومشاعره عند الأداء.

ويقول سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي رحمته الله:

«في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى الحج رأيت الكعبة فقط، وفي الثانية رأيت الكعبة وربّها، أما في الثالثة فقد رأيت رب الكعبة فقط»^{٣٥٥}

هذا الترقّي في درجات الإحساس والصفاء المعنوي، وهذا الاختراق المتواصل لأستار الغيب سترًا وراء ستر، وهذه الرقة والرحمة والمحبة والعشق، كل ذلك يطهر طبيعتك الإنسانية لتصل إلى درجة الملائكة.

ففي الحج يكون المظهر والمخبر متشبهًا بالملائكة في اللباس الأبيض الناصع، وفي اللسان العفيف المنزه عن الرفث والفسوق والجدال^{٣٥٦}، وفي السلوك الرفيق الممتنع عن الصيد الحلال، وفي المعاملة الرقيقة مع كل كائنات الكون حبًا وعشقًا لرب الكون.

٣٥٤ العلق: ١٩.

٣٥٥ الهجويري، كشف المحجوب، ١٣٩٤، مكتبة الإسكندرية، ص ٣١٩.

٣٥٦ انظر: البقرة: ١٩٧. الرفث: هو ما يتعلق بالأمر الجنسية، أي الحديث عن هذا الموضوع أو التكلم بأي نوع من أنواع الكلام البذيء. والفسوق: كل فعل من أفعال الذنب. والجدال: المناقشة والجدل اللذان لا فائدة منهما.





وكذلك في الحج يكون المظهر والمخبر متشبهًا بمراحل الموت في الكفن الأبيض، وفي أرض المحشر، وفي المحاسبة الدقيقة لكل جزء من المال المشارك في رحلة الحج، كالمحاسبة الدقيقة لكل عمل يعمل به المرء أمام ربه.

وثمة أمر آخر تحذيري هو أنه لا بد للمرء القادر على الذهاب إلى الحج أن يتفكر في هذه الأمور جيدًا، وأن يحذر بشدة من التراخي أو التقاعس عن الذهاب إلى «الحج» إن توفرت أسبابه، وإلا فإنه سيواجه التحذير الشديد من النبي ﷺ حين قال:

«مَنْ مَلَكَ زَادًا وَرَاحِلَةً تَبْلُغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحْجِ، فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: {وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧]»^{٣٥٧}

ولم يصف الله تعالى في نهاية الآية أولئك الذين يمتنعون عن الذهاب إلى الحج على الرغم من استطاعتهم بقوله «مَنْ لَمْ يَحْجِ» بل قال:

﴿...وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^{٣٥٨}

إن هذه التحذيرات الإلهية موجهة لمن يهمل هذه العبادة - رغم توفر جميع شروطها لديه - بسبب غفلته، تحذيرات بأنه سيلقى خسرانًا أليمًا وسيدوق العذاب الإلهي.

وما أفدح خسارة المسلم حين يعرض عن الذهاب إلى الحج الذي يطهر قلبه وينقي من ذنوبه. ويقول النبي ﷺ في الأحاديث الشريفة:

«مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^{٣٥٩}

٣٥٧ الترمذي، الحج، ٣/٨١٢.

٣٥٨ آل عمران: ٩٧.

٣٥٩ مسلم، الحج، ٤٣٨/١٣٥٠.





«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة»^{٣٦٠}
 «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف»^{٣٦١}

ج. إحياء الليل

جاء في الحديث الشريف:

«ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له»^{٣٦٢}

خلق الله النهار معاشاً للناس يكابدون فيه الدنيا ومتاعها، لكنه برحمته سبحانه خلق لهم الليل يسكنون إليه ويهجعون فيه، يغتسلون في بحر الليل من أوضار النهار، ويأوون إلى كنف السماء إذ تطير إليها أرواحهم في هدأة المساء. فالليل حضن يأوي إليه العابدون كما يأوي الرضيع إلى حضن أمه، يطمئن إليه ويستريح فيه، وينهل منه سر بقاءه وحياته فيطعم ويشرب، ومن دفته ينطلق بما يستمدّه من مشاعر الطمأنينة والسكينة ليتعرف على العالم ويواجه الدنيا من حوله. وهكذا جعل الله ﷻ النهار معاشاً ينتشر العباد في الأرض يبتغون من فضل الله ﷻ، وجعل الليل لباساً وسترًا يختلي فيه العابدون بربهم ويحلقون بأرواحهم في عوالمه الرحمانية.

فالليل ميقات الفيوضات، ومحراب أهل الوجد، وتكية العارفين، ومنهل الراغبين، ومطمع الداعين، وملاذ القائمين الخائفين، وسكن العابدين.

٣٦٠ الترمذي، الحج، ٢/ ٨١٠؛ النسائي، المناسك، ٦/ ٢٦٣٠؛ ابن ماجة، المناسك، ٣/ ٢٨٨٧.

٣٦١ أحمد، مسند، ٥، ٣٥٤-٣٥٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٢٠٨ / ٥٢٦٨.

٣٦٢ البخاري، التوحيد، ٣٥ / ٧٤٩٤، التهجد، ١٤ / ١١٤٥؛ مسلم، المسافرين، ١٦٨ / ٧٥٨.





ويقول الله تعالى في هؤلاء:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^{٣٦٣}

وقد فسر سيدنا رسول الله ﷺ هذه الآية في الحديث القدسي:

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر...»^{٣٦٤}

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾^{٣٦٥}

ولا يمكننا هنا أن نجلي للقارئ قيمة الليل، ولا أن نرصد كنوزه أو نصف جواهره، فذلك ما لا يعلمه العباد ولا يدركه البشر، ولا يحيطه علم آدميين، ففيه من الأسرار والأنوار والإمدادات ما لا يحصى، وكفينا هنا أن نذكر أولي الألباب أن الحق ﷻ أشار إليه في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ بل أقسم به، والعظيم سبحانه لا يقسم إلا بعظيم، ورب الأسرار لا يقسم إلا بأحد مستودعات الأسرار. إن قسم الله ﷻ بالليل في آيات ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾^{٣٦٦} و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾^{٣٦٧} و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾^{٣٦٨} هو تذكرة إلهية لنا كي ندرك ونلتفت بقلوبنا إلى الحقائق العظيمة المكنوزة فيه.

٣٦٣ السجدة: ١٦-١٧.

٣٦٤ البخاري، بدء الخلق، ٨/ ٣٢٤٤، التوحيد، ٣٥/ ٧٤٩٨؛ مسلم، الجنة، ٢-٥/ ٢٨٢٤.

٣٦٥ الإنسان: ٢٦.

٣٦٦ الانشقاق: ١٧.

٣٦٧ الضحى: ٢.

٣٦٨ التكوير: ١٧.





وثمة إشارة نبوية كبرى تلقي الضوء على كنز لا يفنى ومعين لا ينضب من عظمة الليل، إنها أعظم بشارة لقلوب العاشقين وأجزل عطاء للسائلين، وأصدق بشارة للخاطئين المذنبين القانطين.

جاء في الحديث:

«ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فأعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له»^{٣٦٩} ويقول أولياء الله تعالى:

«إن إحياء الليالي هو الملك والسلطنة الحقيقية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦٢]»^{٣٧٠}

فيعطينا المولى سبحانه لمحات من تلك السلطة الاعتبارية، والسلطنة المعنوية، إنها بدائع الكون التي خلقها الله تعالى لك، بها تعتبر وتتعض وتستمع وتُشيع مشاعرك وتُحيي قلبك.

ففي وقت السحر يبدأ الكون فصلاً جديداً من حياته؛ حيث الصبح يتنفس، والطيور تغدو متوكلة على ربها لتلتمس رزقها، والكائنات تستيقظ من نومها وتتهياً لتبدو في أبهى حلة وأجمل حال وأروع مآل، وبعد ذلك كله هل من غافل - مهما غفل - أن يفوت روعة هذه اللحظات؟ وكرم مانح تلك الهبات؟!.

والخلاصة أن الله تعالى يدعونا إلى الاستيقاظ في الأسحار:

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^{٣٧١}، ومن يستجب لهذه الدعوة يلق من الله تعالى الشاء والبشارة معاً.

٣٦٩ البخاري، التوحيد، ٣٥/ ٧٤٩٤، التهجد، ١٤/ ١١٤٥؛ مسلم، المسافرين، ١٦٨/ ٧٥٨.

٣٧٠ الخادمي، مجموعة الرسائل (رسالة الوصية والنصيحة)، ص ١٩٤.

٣٧١ آل عمران: ١٧





ويقول أبو يزيد البسطامي:

«لم يُفتح لي شيءٌ إلا بعد أن أيقظت ليلي حتى صار نهاراً»^{٣٧٢}

ويقول الحسن البصري رحمته الله:

«إن العبد ليزن الذنب فيحرم به قيام الليل».

ويقول إبراهيم بن أدهم:

«لا تعصه بالنهار وهو يُقيمك بين يديه في الليل».

وكان الشيخ سيف الدين رحمته الله يكثر من الصلاة في الليل، ويختتم القرآن في ركعتين، وحين يأتي الصباح يقول:

«يا رب إنني لا أشبع من عطائك، يا رب كم هو قصير هذا الليل!».

تلك بعض من بشارات الليل وأسراره، فقد كانت هذه الليالي زاد أبي يزيد البسطامي، فكانت الفتوحات التي ما زلنا ننهل من أسرارها.

وكانت هذه الليالي موعد إبراهيم بن أدهم مع ربه وحبيبه وسيده الذي ينتظر طوال النهار لقاءه بشوق، فيكون ذلك عصمته من المعصية.

وكانت هذه الليالي حديث الشيخ سيف الدين مع ربه وصلته مع مولاه ومتعته المعنوية التي لا تنتهي؛ حتى ليود أن يكون اليوم كله ليلاً، فهل بوسعك أن يضيع من الليل لحظة؟

لكن عطاء الليل ومنحه وفتوحاته تحتاج إلى إعداد واستعداد لها منذ بداية النهار، فالمعصية بالنهار حجاب بالليل، والذنوب بالنهار غشاء على البصر والبصيرة، فمن عصى الله تعالى بالنهار حُرِمَ من إحياء الليل، وغاب نبض الحياة عن فؤاده كما يعلمنا الحسن البصري.

^{٣٧٢} البورصوي، روح البيان، ١، ٤٠١.





ويقول المولى تعالى في قيام الليل والأسحار واصفًا عباده المحظوظين الذين نالوا فيوضاته ونعمه الإلهية إذ كانوا يحذرون من غضبه جل جلاله:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^{٣٧٣}

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾^{٣٧٤}

ويقول الله تعالى في آية كريمة أخرى:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقْلَبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^{٣٧٥}

ويقول القاضي البيضاوي في تفسير هذه الآية:

«لما نسخ قيام فرض الليل طاف النبي ﷺ تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصًا على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن»^{٣٧٦}

وللأسحار قيمة لا تبلغها ولا تدنو منها أي من الأوقات الأخرى؛ إذ يصعب القيام فيها، وتشق على النفس العبادة فيها، فلا يلجأ إليها إلا أهل التعظيم والتوقير والمحبة الخالصة لجلاله سبحانه لأن هذه المحبة هي الحافز الأساسي لإحياء الليل والاستغفار بالأسحار والهيام بالأذكار والخلوة مع المولى سبحانه، والدنو من مجلس غفرانه، والدخول في زمرة محبيه لنوال فيوضاته ومعرفته.

فإن أدرك المؤمن قيمة الليل، وعرف قدر الأسحار، ونال من فضل العبادة فيهما، وذاق من روحانية الوصال، صار ليله ذاك أضوأ من نهاره، وصارت ظلمة ليله أسطع من شمس نهاره. لكنه إذا استسلم لغفواته، وأمات قلبه غفلاته،

٣٧٣ الذاريات: ١٧-١٨.

٣٧٤ الفرقان: ٦٤.

٣٧٥ الشعراء: ٢١٨-٢١٩.

٣٧٦ البيضاوي، أنوار التنزيل، ٤، ١١١.





وأَسْرَتِه مناماته، فَوَّت على نفسه التحرر من نير مشقة النهار ومرارة الدنيا، كالأرض التي تهدر قطرات الأمطار، فلا هي تنبت الكأ ولا هي تحفظ الماء.

وكان من نصائح أم سليمان عليها السلام أن قالت له:

«يا بُني لا تُكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»^{٣٧٧}

والنوم موت حقيقي، وقبره الليل، فإذا ما نَوَّرَ قبرك بالذكر، وأنست وحشته بالعبادة، وجعلت وداعك للدنيا لحظات المعية مع الله ﷻ؛ حينها لا يكون النوم موتاً إنما عرس أخروي، واحتفال سماوي.

وينقل لنا عبد الله بن عمرو بن العاص التنبيه الذي وجهه رسول الله ﷺ إليه:

«يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل»^{٣٧٨}

ويخاطب النبي الكريم ﷺ أصحابه الكرام قائلاً لهم:

«عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله، ومنهأة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردةٌ للداء عن الجسد»^{٣٧٩}

ومن نافلة القول أن نذكر ما اكتشفه الطب الحديث من الأهمية البيولوجية لذلك العمل السيكولوجي، فقيام بعض الليل وعدم الاستسلام الكامل للنوم هو صنيع صحي له فوائد عظيمة للبدن؛ ناهيك عن فوائده الأعظم للروح والقلب.

ويحدثنا الطب عن قيام الليل فيقول: إن مَنْ يستيقظ بعد نوم طويل تجده يعاني من آلام في الرأس، وهذا نتيجة تباطؤ عملية الشهيق والزفير أثناء النوم، وعدم تزويد الدماغ بالمقدار الكافي من الأكسجين، أما مَنْ يقسّم نومه فإنه

٣٧٧ ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٧٤/ ١٣٣٢.

٣٧٨ البخاري، التهجد، ١٩/ ١١٥٢؛ مسلم، الصيام، ١٨٥/ ١١٥٩.

٣٧٩ الترمذي، الدعوات، ١٠١/ ٣٥٤٩.





يستيقظ نشيطاً حتى لو كان نومه لمدة قصيرة، وذلك لأنه عاد إلى عملية الشهيق والزفير الطبيعية، وأخذ الكثير من الأكسجين حين قام من نومه.

ومن ناحية أخرى نجد أن الذين يموتون وخاصة الكبار في السن تقع حالات وفاتهم في الصباح في أغلب الأوقات، لهذا يُطلق الأطباء اسم «ساعة الموت» على «وقت السحر»، والسبب هو تباطؤ عمل القلب في أعماق ساعات النوم، فَمَنْ يستيقظ في هذه الساعة ويتوضأ بماء بارد، يُعيد وظائف جسده كلها إلى حالتها الطبيعية.

وإن كان هدفنا هنا إنما هو التذكير بالفوائد الأخروية والروحانية لقيام الليل، لكن أوامر الدين ونواحيه تحمل من الفوائد الدنيوية والأخروية ما يجذب أهل الدنيا وأهل الآخرة، وفيها ما يحمل الترغيب والترهيب، ومنافع البدن والروح، وغنائم المال والقلب، فكل العبادات لا تزال تكشف عن أسرارها، وتمد العلم باكتشافات ومعجزات تجعل من تفاصيل ودقائق السُنن النبوية حياة نموذجية للمؤمن العابد والإنسان العادي، وكلُّ يعمل على شاكلته، وينال من كنوز أوامر ربه ما يرضي بدنه أو يرضي روحه.

ح. ذكر الله ومراقبته

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^{٣٨٠}

يرى كثير من اللغويين أن كلمة «إنسان» هي اشتقاق من كلمة «نسيان»، ولعل لهذا الرأي وجاهته المنطقية وسنده الواقعي، فالآفة الكبرى للإنسان هي النسيان، وهي أكبر نقاط ضعفه وأسباب هلاكه.

والطريق الأنجع للقضاء على هذه الآفة إنما هو الذكر.





كما أن الإنسان إذا عاد إلى أصل خلقته وإلى حديث ربه إليه وإلى كل العباد عندما كانوا في عالم الذر حين قال لهم المولى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^{٣٨١} فنطق الناس في عالم الذر بالحقيقة الأزلية، وأقروا بالعبودية لربوبيته سبحانه.

فإذا عاد الإنسان إلى إقراره الذي أقر به، عندها يدرك الغاية التي خُلق من أجلها، والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه، ويحيا وفيًا للعهد الذي قطعه لربه والميثاق الذي أخذه على نفسه، فلا ينسى خالقه أبدًا، ولا يزيغ قلبه أو يضل إدراكه عن ربه؛ فيعيش على فطرته، ولا تهلكه آفته أو يضيعه النسيان، فهذا التذكر للعهد والميثاق هو الذكر.

ويعتمد الذكر على التكرار الذي يقوي الفهم، ويرسخ المعنى ليستقر في الذاكرة كما استقر في اللسان.

لكن الاعتماد الأكبر في الذكر ليس على تردد الكلمات باللسان إنما على استقرار المعنى في القلب وانشغال الروح به، فالله سبحانه لا ينظر إلى صورنا وأجسادنا وإنما ينظر إلى قلوبنا، فالقلب هو محل التجليات الإلهية، فينبغي حمايته من الغفلة والنسيان وتحصينه وتزيينه بالذكر.

وثمة دلالة عميقة في القرآن الكريم على كثرة ورود كلمة «الذكر»، فقد تكررت في أكثر من مئتين وخمسين موضعًا، ولعل في ذلك تأكيدًا على مدى أهمية الذكر، وعمق أثره على العبادة، وترسيخ العبودية في النفس.

ويصل العبد إلى حقيقة العبودية أكثر فأكثر كلما تعمق في معنى الذكر؛ فكلما ترسخ الذكر في قلبه وتعمق في مشاعره كانت معرفته لله أعمق، ولذلك كان الذكر مناط عبادة القلب، فمعرفة الله تعالى هي أرقى المعارف وأعظم العلوم وأنفعها للإنسان.





وقد أنزل الله تعالى آياتٍ في هذا الخصوص كي لا يغفل عباده عن روحانية الذكر، إذ يقول المولى تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾^{٣٨٢}
 ...وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ...^{٣٨٣}

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^{٣٨٤}

وحتى حين أرسل الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، أمرهما بألا يغفلا عن ذكره:

﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾^{٣٨٥}

ولكم هو خسران كبير أن يذكر الله تعالى كل ما في الكون في حين يغفل الإنسان عن ذكره وهو أشرف المخلوقات،
 يقول الله تعالى:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^{٣٨٦}

ولا ريب أن ذكر الله لا يقتصر على لفظ كلمة «الله» وتكرارها على اللسان، بل لا بد أن تجد هذه الكلمة وقعها في القلب الذي يشكل مركز الإحساس، يقول نبينا محمد ﷺ:

٣٨٢ الحديد: ١٦.

٣٨٣ العنكبوت: ٤٥.

٣٨٤ البقرة: ١٥٢.

٣٨٥ طه: ٤٢.

٣٨٦ الإسراء: ٤٤.





«مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكر ربّه، مثل الحي والميت»^{٣٨٧}

«علامة حبّ الله تعالى حب ذكر الله»^{٣٨٨}

وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دويّ كدوي النحل يذكرون بصاحبهن، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به»^{٣٨٩}

وقال أبو هريرة: عن النبي ﷺ:

«قال الله تعالى: أنا مع عبدي حيثما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^{٣٩٠}

إن البعيدين عن الذكر بعيدون عن محبة الله تعالى، وهم تحت التهديد الإلهي الوارد في الآية الكريمة:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ...﴾^{٣٩١}

ويبين الله تعالى لزوم البقاء في حالة ذكر دائم كي ينجو العبد من التهديد السابق بقوله:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ

وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^{٣٩٢}

ويقول الله تعالى أيضًا موضّحًا خطر البعد عن ذكر الله:

٣٨٧ البخاري، الدعوات، ٦٦/٦٤٠٧.

٣٨٨ السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٥٢/٨١٦٠.

٣٨٩ أحمد، مسند، ٤، ٢٦٨/١٨٣٦٢؛ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ١٦٨/٣٥٠٣٧.

٣٩٠ البخاري، التوحيد، ٤٣.

٣٩١ الزمر: ٢٢.

٣٩٢ الأعراف: ٢٠٥.





﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ
الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾^{٣٩٣}

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ
رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْسَى﴾^{٣٩٤}

ويقول سيدنا محمد ﷺ:

«مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَرَةً، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا،
لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَرَةً»^{٣٩٥}

«ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا عن مثل جيفة
حمار وكان لهم حسرة»^{٣٩٦}

إن الخصال والأخلاق الحميدة مخصوصة بمن يخاف الحق تعالى ويحبه
ويذكره كثيرًا، يقول نبينا الأكرم ﷺ في فضيلة الذكر ومجالس الذكر في الحديث
القدسي:

«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في
نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم...»^{٣٩٧}

٣٩٣ الزخرف: ٣٦-٣٨.

٣٩٤ طه: ١٢٤-١٢٦.

٣٩٥ أبو داود، الأدب، ٢٥/٤٨٥٦.

٣٩٦ أبو داود، الأدب، ٢٥/٤٨٥٥، ٩٧-٩٨/٥٠٥٩. قارن: أحمد، مسند، ٢، ٤٣٢.

٣٩٧ البخاري، التوحيد، ١٥/٧٤٠٥.





وخاطب النبي ﷺ أصحابه الكرام يوماً قائلاً:

«ألا أُنَبِّئُكُمْ بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»

قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى»^{٣٩٨}

وكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه الكرام الذكر على سبيل التربية القلبية حسب استعدادهم، وحواره مع أم هانئ خير مثال على ذلك:

فعن أم هانئ رضي الله عنها قالت: أتيت إلى رسول الله ﷺ، فقلت:

يا رسول الله، دلني على عمل فإني قد كبرت وضعفت وبدنت، فقال عليه الصلاة والسلام:

«كبري الله مائة مرة، واحمدي الله مائة مرة، وسبحي الله مائة مرة خير من مائة فرس ملجم مسرج في سبيل الله، وخير من مائة بدنة، وخير من مائة رقبة»^{٣٩٩}

وكما أن للذكر عظيم الأثر في الأسحار وفي الخلوات مع الله تعالى، كذلك له أجر عظيم حين يكون في جماعة، فقد خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال الله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحد بمنزلة من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا، قال: «الله ما أجلسكم إلا ذاك؟»

قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال:

٣٩٨ الترمذي، الدعوات، ٦/ ٣٣٧٧؛ ابن ماجه، الأدب، ٥٣/ ٣٧٩٠.

٣٩٩ ابن ماجه، الأدب، ٥٦/ ٣٨١٠؛ أحمد، مسند، ٤، ٣٤٤/ ٣٧٣٩٣.





«أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة»^{٤٠٠}

وعن أبي هريرة ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم» قال: «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...»^{٤٠١}

وعن سلمان الفارسي ؓ، قال:

كان سلمان في عصابة يذكرون الله ﷻ، فمر بهم رسول الله ﷺ فجاءهم قاصداً حتى دنا منهم فكفوا عن الحديث إعظاماً لرسول الله ﷺ، فقال: «ما كنتم تقولون؟ فإني رأيت الرحمة تنزل عليكم، فأحببت أن أشارككم فيها»^{٤٠٢}

ولذكر كلمة التوحيد في جماعة أهمية خاصة بين الأذكار، إذ يروي شداد بن أوس ؓ الحادثة الآتية:

كنا عند النبي ﷺ، فقال ﷺ: «هل فيكم غريب؟» يعني أهل الكتاب فقلنا: لا يا رسول الله، فأمر بغلق الباب، وقال: «ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله» فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده، ثم قال:

«الحمد لله، اللهم بعثني بهذه الكلمة، وأمرني بها، ووعدتني عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: «أبشروا فإن الله ﷻ قد غفر لكم»^{٤٠٣}

٤٠٠ مسلم، الذكر، ٤٠/٢٧١٠.

٤٠١ البخاري، الدعوات، ٦٦/٦٤٠٨.

٤٠٢ الحاكم، المستدرک، ١، ٢٠١/٤١٩؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٣٤٢.

٤٠٣ أحمد، مسند، ٤، ١٢٤/١٧١٢١.





ويقول سيدنا محمد ﷺ عن كلمة التوحيد في حديث آخر:

«إِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة مَنْ قالها صادقاً أدخله الله بها الجنة، وَمَنْ قالها كاذباً حقنت دمه وأحرزت ماله، ولقي الله غداً فحاسبه»^{٤٠٤}

والذكر دواء يتناوله المؤمن بلسانه ليمرره إلى قلبه، فإذا تغافل اللسان عن المداومة على الدواء تكاثرت على قلبه الأرزاء.

والذكر كذلك هو الحارس الأمين على قلبك ولسانك، وهو ميزان مراقبتك لله، يقول النبي ﷺ:

«لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وَإِنْ أَبْعَدَ النَّاسُ مِنْ اللَّهِ الْقَلْبَ الْقَاسِي»^{٤٠٥}

وإذا كان الذكر قد أورده القرآن الكريم في ٢٥٠ موضعاً كما أسلفنا، فكذلك السُّنة النبوية الشريفة قد استفاضت أحاديثها حول الذكر وفضله وأثره وفيوضاته، والمحروم هو من حرم نفسه من نعمة الذكر بعدما علم عقبائها في الدنيا والآخرة. وكان الصحابة الكرام ؓ يعطون أهمية كبيرة للذكر، فعن أبي سعيد مولى الأنصار قال:

«كان عمر لا يدع سامراً بعد العشاء يقول: ارجعوا لعل الله يرزقكم صلاة أو تهجداً، فانتهى إلينا، وأنا قاعد مع ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي ذر، فقال: ما يُقعدُكم؟ قلنا: أردنا أن نذكر الله، فقعد معهم»^{٤٠٦}

والذكر يحتاج إلى المداومة، كما يحتاج إلى الاستغراق، حتى يشغلك عما سواه.

٤٠٤ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٢٦/٥٥.

٤٠٥ الترمذي، الزهد، ٦٢/٢٤١١.

٤٠٦ الطحاوي، شرح معاني الآثار، ٤، ٣٣٠.





يقول الشيخ عبد الله الدهلوي:

«عليكم بكثرة الذكر، فلولاه لما استيقظ القلب وما وعى، فالإنسان دائماً مفتقر إلى ربه، ومحتاج إلى مولاه، ولحظة من الغفلة هي دهر من الذنوب، ولا وقت لنضيعه في الغفلات، أو ننتقصه من أعمارنا القصيرات، فلنداوم الذكر في الخلوات والجلوات، في الليل والنهار، وليكن جسدك مع الناس وقلبك مع ربك، مستعداً دائماً لتلقى فيوضاته التي تأتي بغتة، فتستقبلها القلوب الواعية والأرواح الصافية والأفئدة الذاكرة»^{٤٠٧}

ويحثنا محمد أسعد أربيلي على الذكر بصورة أدق وأعمق، فيقول:

«أدعو الله أن يرزقكم قلوباً مبصرة، وأفئدة مستبصرة، وذرات ذاكرة، ينضح الذكر من خلاياها، كما يفوح الرحيق من الزهور، والأريج من العطور... آمين».

«وأدعو الله أن ألقاه بقلب ذاكِر سليم من الدنيا، معافى من رغباتها؛ غير مفتون بشهواتها، مكللاً بتاج الشريعة، متوجاً بشرف الشئنة، وحالي معه سبحانه هو الذكر الدائم، وحاله معي المعية التي لا تنقطع....»^{٤٠٨}

«من الضروري على كل متوجه إلى الحق تعالى أن يعود لطائفه كلها على الذكر لأن هذه اللطائف كلها بحاجة إلى تطهير، فكما أنه من الضروري على الإنسان أن يغسل كل جزء من بدنه وكل نقطة أثناء الغسل، فكذلك الحال مع مَنْ يريد تطهير قلبه، إذ يجب عليه أن يذكر الله تعالى بكل لطائفه وبكل ذرة من ذرات بدنه»^{٤٠٩}

وبقدر ما تشتعل نار المحبة في قلبك تستحضر ذكره وتنشغل بذكره ولا يشغل قلبك سواه، فذكر الله ﷻ يزيد حلاوة الإيمان في قلوب عباد الله العاشقين

٤٠٧ عبد الله دهلوي، المكاتيب الشريفة، ص ١٣٥، رقم: ٩٠.

٤٠٨ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٠٠، رقم: ٦٩.

٤٠٩ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٤٠، رقم: ١١٢.





لجلاله وجماله كما يزيد محبتهم له سبحانه، ومع أن رغبات النفس وشهوات البدن تنقضني بمجرد إشباعها إلا أن رغبات الروح تزداد إذا أشبعتها، ومحبة الله تزداد كلما ذكرته، وكأنها النار كلما ألقمتها شيئاً تزداد لهيباً واضطراباً.

هؤلاء الذاكرون العاشقون الذين ملأ ذكر الله ﷻ عليهم دنياهم يصفهم القرآن الكريم قائلاً:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^{٤٠} فالذكر هو الطريق الذي يسير فيه الإيمان متزايداً، وتحيا فيه القلوب مطمئنة، وهو القطار الذي يمر بك في مسيرك على محطات اللطاف الإلهية، ويجتاز رياض الروحانية، ويصل في النهاية إلى الحق سبحانه؛ لأنه عاش طوال حياته في ذكره وعلى طريقه، فالإنسان يموت على الحال التي عاش عليها في دنياه، ويُحشر على ما مات عليه، يقول النبي ﷺ:

«يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَىٰ مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^{٤١}

ثم يدرك الحقيقة الأزلية، ويعرف إجابة السؤال الأبدي الذي كان -وما زال- يحير البشرية، وهو مناط فلسفاتهم، حينها يُشبع الإنسان توفه إلى المعرفة، ويطمئن قلبه إلى العلم، وتركن روحه إلى محبة الله سبحانه.

وهو ما تعبر عنه الآية القرآنية القائلة:

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^{٤٢}

٤١٠ آل عمران: ١٩١.

٤١١ مسلم، الجنة، ٨٣/ ٢٨٧٨.

٤١٢ الرعد: ٢٨.





خ. محبة الرسول ﷺ والصلاة عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^{٤١٣}

يرتد البصر البشري خاسئاً وهو حسير إذا ما نظر إلى نور الشمس، وكل أفداح الدنيا لا تكفي إذا ما حاولنا أن نسكب فيها مياه البحار، فما بالنا بالعقل البشري العادي الذي يحاول استيعاب الحقيقة النبوية، وما بالنا بالبصر البشري العادي الذي يحاول رؤية واستبصار حقيقة النور المحمدي، إن أدوات الإدراك التي يمتلكها البشر لا تملك القدرة على استكناه واستيعاب هذه الكينونة النبوية المباركة على حقيقتها الكاملة.

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة موضعاً هذه الحقيقة:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
إن الصلاة والسلام على سيد الكائنات واجب بمقتضى الأمر الإلهي الوارد في الآية الكريمة، وهذه من الآداب التي حثنا عليها المولى ﷺ، وأمر بها الأمة كلها تجاه النبي ﷺ. بل إنه من مقتضيات الإيمان ومن أساسيات الإسلام السعي الدائم للتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ، والتأسي بسيرته العطرة، وتتبع آثاره وسننه الشريفة، وترسيخ محبته ﷺ بالقلوب.

فهذا النبي الكريم هو الذي «يصلي ويسلم» عليه الحق ﷻ مع ملائكته الذين لا يُحصون، فيقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^{٤١٤}

٤١٣ الأحزاب: ٥٦.

٤١٤ آل عمران: ٣١.





تبدأ المشاعر الأولى في محبة النبي ﷺ بخشية الله تعالى، والتأدب في حضرته، والاستشعار الدائم لمعيته سبحانه، ثم تخلص النفس من شهواتها وآفات رغبة فيما عند الله تعالى، وحرصاً على نيل محبة نبي الله، إذ هو الطاقة الكبرى الدافعة في الاقتداء والتأسي بشخصيته العظيمة ﷺ.

وفي هذه الأمة المحمدية هناك أناس من «أهل القلوب»، وهؤلاء هم الذين حققوا في مشاعرهم معاني محبته والتأسي به عليه الصلاة والسلام، حتى بلغت محبتهم مرحلة الفناء فيه عليه الصلاة والسلام، وهم يقدمون لنا نماذج حية وواقعية من هذه المحبة.

لقد استطاع هؤلاء أن يصلوا إلى نبع المحبة، فقد أحبوا الله تعالى حق المحبة، وأحبوا رسول الله ﷺ حق المحبة، فصاروا هم أيضاً أهلاً لمحبة الخلق إلى قيام الساعة، وحبنا لهم حباً عملياً يكون في تذكركم والترضي عنهم، والدعاء لهم والاقتداء بهم.

فإذا ما تساءلنا عن كيفية وصولهم إلى هذه المنزلة والمحبة، نورد لك نموذجين وقصتين من حياة هؤلاء الأفاضل.

أرسل رسول الله ﷺ إلى القبائل المحيطة به معلمين كي ينشروا الدين المبين ويعلموه، لكن بعضاً من هؤلاء المعلمين تعرضوا للغدر من بعض هذه القبائل، وهذا ما تحقق في وقعة الرجيع.

فقد أرادت كل من قبيلتي «عضل» و«قارة» من رسول الله ﷺ معلمين كي يعلموهم الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ وفداً من عشرة رجال، وحين وصلت هذه القافلة إلى موقع الرجيع، وقعت في المكيدة، فاستشهد منهم ثمانية، بينما سُلم اثنان منهم إلى مشركي مكة.

وكان الأسيران الصحابيَّين زيداً بن الدثنة وخبيباً بن عدي ؓ، واستشهدا على يد كفار مكة، وكانوا قد سألوا زيداً قبل أن يصلبوه:





«أيسرُك أن محمداً في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟»
 فأجاب زيد عليه السلام: «والله ما يسرنى أن محمداً أُشيك بشوكة وأني في بيتي!»
 فما كان لأبي سفيان بعدما رأى من هذه المحبة إلا أن يقول:
 «ما رأينا أصحاب رجل قط أشدَّ حباً من أصحاب محمد لمحمد».
 ثم ذهبوا إلى خبيب عليه السلام، وقالوا له: «ارجع عن الإسلام، نُخلِ سبيلك!»
 فقال: «لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعاً!»
 وسألوه ما سألوا زيداً عليه السلام فكان جواب خبيب مثل جواب زيد.
 وقبل استشهاد خبيب كان له طلب واحد فقط وهو: «السلام على سيدنا محمد عليه السلام!..»
 لكن لم يكن عنده من يرسل سلامه هذا للنبي، فرفع عينيه بحزن إلى السماء ودعا قائلاً:
 «اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس ها هنا أحدٌ يبلغ رسولك السلام عني، فبلغه أنت عني السلام!»
 وفي ذلك الحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه، فأخذه كما كان يأخذه إذا أنزل عليه الوحي. ثم قال: «وعليه السلام ورحمة الله»، ثم قال: «هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام».
 وكانت النهاية أن استشهاد الصحابيَّان قتلاً بعد التعذيب الشديد، وكان ممَّا قاله خبيب عليه السلام من كلام عظيم حين استشدهد:
 فليست أبالى حين أُقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
 وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممنوع! ^{٤١٥}





إذاً، هكذا كان إيمان الصحابي وعشقه وجسارته!.. وفي الوقت الذي يرونا مثل هذا التعذيب، لم يكن محبُّو الله ورسوله ليشعروا بأي هول أو ذعر أمام مثل هذه المشاهد أبداً، إذ كان جلُّ همِّهم هو تنفيذ أمر وسنة رسول الله ﷺ، وكان سلامهم يصل إلى مكانه بإخلاصهم ومحبتهم، وفوق ذلك كله كان الذي يوصل السلام هو رب العباد جلَّ وعلا.

ولكم هو معبر المثل التالي الذي يظهر اشتياق الصحابة للنبي ﷺ ومحبتهم له: جاء عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال له:

«يا رسول الله! أنت أحبُّ إلي من نفسي ومالي وأولادي وأهلي. ولولا نعمة رؤيتك لما أردت إلا الموت»، ثم بكى. فسأله النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عبد الله؟»

فأجاب: «يا رسول الله، إذا مُتَّ كنت في عليين لا نراك ولا نجتمع بك».

فسكت رسول الرحمة ﷺ، وفي تلك الأثناء نزلت عليه الآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^{٤١٦}

وبينما كان عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه يعمل في أرضه، أتاه ابنه منقطع الأنفاس ليخبره بكل أسى وفاة رسول الله ﷺ، فلما سمع الأنصاري هذا الخبر دعا قائلاً:

«اللهم أعمني فلا أرى شيئاً بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي، فعمي مكانه»^{٤١٧}

وعن القاسم بن محمد أن رجلاً من أصحاب محمد ﷺ ذهب بصره فعادوه، فلم يكن عليه هم أو غم من فقدان عينيه، وكان يقول لمن يواسيه:

٤١٦ النساء: ٦٩.

٤١٧ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥، ٢٧١.





«كنت أريدهما لأنظر إلى النبي ﷺ، فأما إذ قبض النبي ﷺ فوالله ما يسرني أن ما بهما بظبي من ظباء تباله»^{٤١٨}

ذلك الحب الذي صار عشقاً، لا تغيره الظروف، ولا تبدله الأحوال؛ يسري بين القلوب بلا انقطاع كما تسري الجاذبية بين الأقمار والكواكب، لا ينفرط عقدهما إلا بأمر إلهي جليل. يقول الله في الآية الكريمة:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^{٤١٩} (النور، ٥٦)

ومن منطلق مقولة «إن المحب لمن يحب مطيع»، نرى أن اتباع الأسوة الحسنة في كل الأمور هو شرط لازم، ولهذا فإن العشق والمحبة والاتباع في هذا المجال هي العمود الفقري لمحبة الله تعالى.

إن الشهادة التي هي من أسس الإسلام ومقتضيات الإيمان، تجد فيها كلمة «محمد رسول الله»، دائماً تتبع كلمة «لا إله إلا الله»، فهما على الدوام متلازمتان متتاليتان لا تنفصلان، يرددهما العبد قولاً وعملاً واعتقاداً، فمع كل كلمة توحيد، وكل صلاة على النبي ﷺ تكون خطوة يخطوها نحو ربه، يقترب منه سبحانه، ويغرس غرساً جديداً في جنة محبته، ويفتح آفاقاً جديدة في مدارك بصيرته، يرتادها بفتوحات معنوية، وتجليات ربانية، وفيوضات إلهية، وحيها وجبريلها هو محبة الرسول ﷺ.

والكون كله ما هو إلا تجلٌ للمحبة الإلهية، وجوهر هذا التجلي هو «النور المحمدي»، والطريق الوحيد للوصال مع الله تعالى هو بمحبة نبيه ﷺ.

إن الروحانية في العبادات، واللباقة في المعاملات، والتأدب في الأخلاق، واللطافة في القلوب، والنورانية في المُحيا، والسلاسة في اللسان، والرقّة في

٤١٨ انظر: البخاري، المغازي، ١٠؛ الواقدي، مغازي، ١، ٣٦٠-٣٦٢؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ٥٦.

٤١٩ البخاري، الأدب المفرد، ٥٣٣؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ٣١٣.





المشاعر، والعمق في البصيرة، والأمور الحسنة الحميدة كلها، ما هي إلا ومضات انعكست على القلوب من محبة نور الوجود ﷺ.

وما أجمل كلام مولانا جلال الدين الرومي حين يقول:

«تعال يا قلبي! فالعيد الحقيقي حين يكون الوصال مع سيدي محمد ﷺ، فضوء الكون كله من نور جمال هذا الرسول المبارك».

والصلاة على النبي ﷺ زاد عظيم للمسلم في كل الأزمنة والأمكنة والأحوال، فيها يقوَّى رابطته بحبيبه ﷺ، وبها يستمد من روحانيته عليه الصلاة والسلام، وبها يستمطر الرحمات والبركات من السماء، وبها ينفرد في الأسحار وأوقات المناجاة، وبها تنزل الفيوضات الإلهية على قلبه.

هذه الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام كانت سر الفضائل التي نالها أولياء الله، وكانت معراجهم إلى الدرجات العُليا في اتباع رسول الله ﷺ، وتعدد هذه الفضائل والوسائل في الصلاة على نحو لا يمكن حصره؛ لكننا نورد فيما يلي بعضاً منه:

١. موافقة الله تعالى وملائكته في صلاتهم على النبي وذلك بالامتثال للأمر الإلهي، فالآية الكريمة تقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^{٤٢٠}

وبالطبع ثمة فرق في المعنى بين صلاة وسلام الله، والملائكة، والمؤمنين: «فصلاة الله» هي رحمته بنبيه ورفعته إلى أعلى الدرجات، «وصلاة الملائكة» هي الاستغفار للنبي الكريم والدعاء له، «أما صلاة المؤمنين» فهي الدعاء لرسول الله عليه الصلاة والسلام ولأنفسهم.





٢. وسيلة للعفو عن الذنوب.

يقول النبي ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرَ درَجَاتٍ»^{٤٢١}

٣. وسيلة للقرب من النبي ﷺ يوم القيامة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث:

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عَلَيَّ صَلَاةً»^{٤٢٢}

٤. رد رسول الله ﷺ على مَنْ يَصَلِّي عليه.

يقول النبي ﷺ في الحديث:

«ما من أحد يَسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»^{٤٢٣}

٥. عرض اسم مَنْ يَصَلِّي على النبي ﷺ.

يقول النبي ﷺ في الحديث:

«إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةُ سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يَبْلُغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»^{٤٢٤}

٦. الصلاة على النبي ﷺ تحمل المسلم على التخلق بأخلاق النبي ﷺ، والترفع عن الرذائل، وتحثه على الفضائل، وترتقي بالعبد من وهاد الدنيا إلى سماوات المحبة، فيحيا ساميًا عن أَوْضَارِ المخلوقات، فانيًا في محبة الخالق، وسيد المخلوقات عليه الصلاة والسلام.

٧. الصلاة على النبي ﷺ تزيدك حبًا له، وتزيد حبه عليه الصلاة والسلام لك.

٤٢١ النسائي، السهو، ٥٥ / ١٢٩٧؛ أحمد، مسند، ٢١، ٢٨٨ / ١٣٧٥٤.

٤٢٢ الترمذي، الوتر، ٢١ / ٤٨٤.

٤٢٣ أبو داود، المناسك، ٩٦ / ٢٠٤١.

٤٢٤ النسائي، السهو، ٤٦ / ١٢٨٢؛ أحمد، مسند، ٦، ٢٣٤.





٨. الصلاة على النبي ﷺ نوع من شكر النعم العظمى التي امتن الله تعالى بها على عباده، تلك النعم التي لا تعد ولا تحصى والتي كان أجلها إرسال الهادي البشير النذير عليه الصلاة والسلام لينقذنا من الظلمات إلى النور.

٩. هو وسيلة لنزول رحمة الله تعالى علينا.

يقول رسول الله ﷺ:

«من صَلَّى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرًا»^{٤٢٥}

١٠. الصلاة على النبي ﷺ وسيلة فريدة ليحظى المؤمن بدعاء السنة لم تعص الله قط، ولم تنطق بغير تسبيحه قط، إنهم الملائكة الكرام الذين يدعون الله لكل من صلى وسلم على النبي ﷺ، وعلى رأسهم جبريل الأمين ﷺ يستغفر للعبد عشرًا بكل صلاة أو تسليم، ثم يأتي ربهم جل وعلا فيمحو ذنوبهم.^{٤٢٦}

١١. يكون سببًا لتذكُّر الكلام الذي ينساه العبد.

١٢. وسيلة لقبول الدعاء:

فقد رأى رسول الله ﷺ رجلًا يومًا يدعو بعد الصلاة دون أن يحمد الله تعالى أو يصلي ويسلم على نبيه فقال: «عجلتَ أيها المصلي». ثم نادى على الرجل وقال له:

«إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعْدْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ادْعُهُ»^{٤٢٧}

ويقول علي عليه السلام:

«كل دعاء محجوب حتى يُصَلَّى على محمد ﷺ وآل محمد»^{٤٢٨}

٤٢٥ مسلم، الصلاة، ٧٠/٤٠٨؛ أبو داود، الوتر، ١٩/١٥٣٠.

٤٢٦ انظر: النسائي، السهو، ٥٥/١٢٩٣.

٤٢٧ الترمذي، الدعوات، ٦٤/٣٤٧٦.

٤٢٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ١٦٠/١٧٢٧٨؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٣، ١٣٦/١٤٧٥.





١٣. يحمي العبد من التعرض للعتاب الإلهي:

يقول رسول الله ﷺ:

«رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ...»^{٤٢٩}

«ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يُصلُّوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»^{٤٣٠}

«ما قعد قوم مقعداً لا يذكرون الله تعالى ولا يصلون على النبي إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة للثواب»^{٤٣١}

١٤. إن العبد الذي يصلي على النبي يُكفَى همه ويُغْفَرُ ذنبه.

يقول أبي بن كعب رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ:

يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت». قال: قلت: الربع، قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك»، قلت: النصف، قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك»، قال: قلت: فالثلثين، قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خيرٌ لك»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذا تكفى همك، ويغفرُ لك ذنبك»^{٤٣٢}

إن الصلاة والسلام على النبي يضمن للعبد الارتباط مع روحانية سيدنا النبي والاستفادة من أنواره، وثواب هذه الصلوات ناتج عن محبة العبد للنبي والإخلاص له.

فالصلاة والسلام عليك سيدي يا رسول الله!! اشفع لنا يا نبي الله!..

٤٢٩ الترمذي، الدعوات، ١٠٠/٣٥٤٥؛ أحمد، مسند، ١٢، ٤٢١/٧٤٥١.

٤٣٠ الترمذي، الدعوات، ٨/٣٣٨٠؛ أحمد، مسند، ١٥، ٥٢٤/٩٨٤٣.

٤٣١ أحمد، مسند، ٢، ٤٦٣/٩٩٦٥.

٤٣٢ الترمذي، القيامة، ٢٣/٢٤٥٧؛ الحاكم، ٢، ٤٥٧/٣٥٧٨؛ البيهقي، الشعب، ٣، ٨٥/١٤١٨.





د. التفكير في الموت

لا زمان ولا مكان يمكن الهرب إليه من الموت في الدنيا،
ولا عودة إلى الوراء في البرزخ، ولا ملجأ يأوي إليه العبد
من هول يوم القيامة.

الموت قدر محتوم، والقبر مصير ابن آدم، ولا مفر لكل امرئ من أن يمر
بحياة البرزخ، وأن يعيش أهوال القيامة، فلا ملجأ ولا مهرب من الله إلا إليه
سبحانه.

وحتى تأتي هذه اللحظات الحاسمة يعيش الإنسان متأرجحاً بين نقيضين:
بين الحياة والموت، وبين الرجاء والخوف، وبين السعادة والحزن.

وكلاهما ينغص على الإنسان مشاعره، فخوف الموت والمصير غصة في
حلق سعادته، والانغماس في شهوات الدنيا هو غفلة عن الاستعداد للمصير
المحتوم، وما لم يدرك الإنسان حقيقة الحياة والموت، فسيعيش فاقداً سر
الحياتين، مغيباً عن حقائق الدارين، غير مدرك للحكمة من وراء الخلق.

والموت لغزٌ كبير وسرٌّ عظيم يجب على كل آدمي أن يتفكر فيه بكل طاقته؛
لأنه المصير المحتوم، والخطوة التالية في الطريق السريع الذي يسعى الإنسان
فيه، ويجب أن يحلّ اللغز قبل أن يحلّ عليه الموت.

يقول الله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾^{٤٣٣}

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^{٤٣٤}

٤٣٣ الملك: ٢.

٤٣٤ الأنبياء: ٣٥.





إن الدنيا مدرسة إيمان إلهية، أما الموت فهو قانون انتقال ضروري، ويقول مولانا جلال الدين الرومي: «موتوا كي تحيوا».

إذ لا يمكن إحياء القلب إلا بترك الأمور النفسانية، ويقول النبي ﷺ:

«فأكثرُوا من ذكر هادم اللذات: الموت»^{٤٣٥}

والتفكر في الموت هو صافرة الإنذار الدائمة التي تذكرك بالخطر القادم قبل أن يدهمك، وتنبهك إلى المصير المحتوم قبل أن يفاجئك، فتتخذ كل استعداد لما هو قادم، وتدير ظهرك لشواغل الدنيا وشهواتها، وتولي وجهك شطر طريق ربك الذي أنت مقبلٌ عليه لا محالة، وتفك عن معصميك قيود النفسانية، وتشحذ همتك بالنفحات الربانية، وتجهز بالإيمان عتادك وعدتك مستعدًا لليوم الآخر.

وعن طارق بن عبد الله المحاربي، رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«يا طارق، استعد للموت قبل نزول الموت»^{٤٣٦}

ولو عاش الإنسان أعمارًا متطاولة فوق عمره، ولو أمطرته السماء بأمانيه - وإن بلغت عدد حبات المطر - لما شبع نفسه من الدنيا، ولما روى غُلته منها، حتى لو صارت أمانيه عدد أوراق أشجار يُسقطها الخريف على قبره منذ موته، وحتى مبعثه يوم القيامة.

كل هذا الأمل في الدنيا رغم امتلاء القلب بحكايات وذكريات من غيبهم الموت، ورغم علم كل السالكين في دروب الدنيا أن كل دهاليزها وفجاجها مهما استقامت أو اعوجت، أو ضلت أو اهتدت أو استسلمت أو هربت، لا تؤدي إلا نحو مصير محتوم هو القبر.

يقول الله سبحانه في الآية الكريمة:

٤٣٥ الترمذي، القيامة، ٢٦/٢٣٠٧؛ ابن ماجة، الزهد، ٣١/٤٢٥٨.

٤٣٦ الحاكم، المستدرک، ٤، ٣٤٧/٧٨٦٨.





﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^{٤٣٧}

وليس ثمة أبلغ من صمت القبور ناصحًا، وليس ثمة صوت أعلى من بكم حجارتها واعظًا، يخاطب كلَّ مَنْ حوله بلسان الحال، فيعظ مَنْ في القبور، وَمَنْ هو خارجها، وكل مار عليها، وكل ناظر إليها، منادياً عبر الصمت، صارخاً بأعلى صوت: الموت... الموت... الحقيقة الباقية هي الموت، الموت بوحشته المهيبة ووحشيته الرهيبة، وثقله الراسخ في أعماق الأرض والحياة والمخلوقات.

وقد رأى الحسن شيخاً في جنازة، فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يُردَّ إلى الدنيا فيزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة؟ فقال الشيخ: اللهم نعم! فقال الحسن: فما بالناس لا نكون كلنا كهذا الميت؟ ثم انصرف وهو يقول: أي موعظة؟ ما أبلغها لو كان في القلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادي.^{٤٣٨}

ولكن الإنسان يظل أسير الخداع، لاهثاً وراء السراب، يعمه في سكرته ويسدر في غيه حتى يفيقه الموت من غفلته، ويكتشف حينها أنه كان غارقاً في بحر لجي لا يرى له ساحل، ويدور في دوامة ذلك البحر دوراناً لا يدع له مجالاً للتفكير أو الإدراك والتقدير، وعندما ينتشله الموت من البحر، وتسلمه الدوامة إلى القبر؛ هنالك فقط سيكتشف أنه كان مخدوعاً بصورة مرعبة حين يلقي مستقبله الأبدى. والحياة الغافلة هي الانهماك باللعب في الطفولة، والشهوة في الشباب، والغفلة في الرشد، والحسرة على ما فات في الشيخوخة، والندامة والتخبط في طيات الحياة.

٤٣٧ الجمعة: ٨.

٤٣٨ ابن الجوزي، آداب الحسن البصري، تحقيق. سليمان الحرش، دار النوادر، ١٤٢٨، ص ٢٩.





وليست الآماد متطاولة إلى ما لا نهاية في انتظار يوم القيامة؛ بل هو أقرب إليك من شراك نعلك، فمن مات فقد قامت قيامته، وملك الموت على أهبة الاستعداد في كل زمان ومكان لتنفيذ الأمر الإلهي المحتوم، لا يقصر ولا يغفل قيد أنملة عن تنفيذ مهمته، بينما المرء الموكل به الموت والمنوط بروحه التنفيذ يكون سادراً في غفلة ما بعدها غفلة، ولا يفيق إلا حين يبدأ ملك الموت في عمله؛ حيث لا ملجأ ولا منجى ولا مهرب من الله إلا إليه، ولو كان المرء حصيفاً مؤمناً لوجد المفر والمهرب في نداء الحق سبحانه ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾^{٢٩} فبادر بالفرار إلى رحمة ربه، والعيش في كنفه، حينها تستوي عنده الحياة والموت؛ لأنه قدّم في حياته لما بعد الموت، واستعد للدارين، مستعيناً برب الدارين، الذي خلق الموت والحياة ليلبونا أيّنا أحسن عملاً.

وكم من مشهد في الدنيا يعظك ويذكرك بالموت؛ منها الواعظ الصامت كمشهد الجنازات، ومنظر القبور، وزرقة شفاه الموتى، ولمعات دموع الشكالي على وجنات فقدت بريق الحياة، وأطفأ بهجتها ظلام انقطاع الروح عن المحبوب. وأما الواعظ الصارخ فنزعات الحناجر عند سكرات الموت، ونزاعات انتزاع الروح عن خلايا الجسد، وأنات الشكالي، وآهات الحزاني، وشهقات المتفاجئين من انتزاع الموت لشباب وأطفال وأصحاء وآخرين كانوا يظنون بالحياة ونعيمها الظنوناً. أفلا يدعوننا ذلك كله إلى اليقين أن لحظات ميلادنا هي أولى خطواتنا نحو مصيرنا المحتوم، وهو الموت؟

ألا يذكرنا عري الميلاد والمجيء إلى الدنيا، بعري الخروج منها رغم ما كنزناه فيها؟

ألا تذكرنا صرخات القدوم والنفس الأول في الدنيا بصرخات الرحيل والترحال الأخير؟





وتوضح الآية الكريمة الآتية أن كل لحظة تمر في شريط الزمان تقربنا من فجر الحقيقة:

﴿وَمَنْ نَعْمَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^{٤٤٠}

إنه قانون سماوي وحقيقة ربانية قاطعة لا مجال لتأويلها، فسطوعها يلقي الضوء على حقيقة الدنيا وما فيها من الغدر والانقلاب والانتقاص، فكلما ازداد الإنسان منها أنتقص، وكلما أعطي منها حُرم.

وهي أشد تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا، ترفع أقوامًا وتخفض آخرين، ويتبدل حالها ما بين عشية وضحاها، إذا جلت أو جلت، وإذا دنت أو دنت، وإذا حلت أو حلت، وإذا كست أو كست.....

والدنيا كالظل؛ لن تتمكن أبدًا من اللحاق بها، أو الإمساك بأطرافها، وكلما حاولت إدراكها هربت منك وهي عند أطراف أصابعك، أما إذا أعطيتها ظهرك أقبلت إليك، وإذا تركتها ومضيت لحقت بك، فإذا حاولت الفرار منها لم تزل تتعقبك، وتطرح نفسها بين قدميك، ثم إذا فتحت لها أبواب قلبك غلقت في وجهك الأبواب، ولم ترَ منها إلا السراب.

وإذا سلّمتها زهرة نفسك أذبلت في حدائقك الزهور، ولم ترَ منها إلا وحشة التيه والغرور.

وإذا فتحت لها خزائن روحك أفقرتك وإن ملكتك الدنيا، وصرت كالملك الضليل يُحكّم ولا يحكّم، ويصير الكون على اتساعه أضيّق وأوحش في عينيك من ظلمة القبور.

وهكذا الدنيا تفعل بك الأفاعيل، وتوردك المهالك، وتصعد بك في متاهات السماء حتى يضيق صدرك، وتهوي بك في مجاهل الأرض حتى تضيق نفسك،





وتغرق بك في تيه الدنيا حتى تضل روحك، ولا ينقذك منها سوى ملك الموت حين تأتي اللحظات الحاسمة الرهيبة... الموت.

وسأل رجل رسول الله ﷺ يوماً، أي المؤمنين أكيس؟ قال:

«أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً، أولئك الأكياس»^{٤٤١}

وقال رسول الله ﷺ أيضاً:

«لتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا»^{٤٤٢}

وقد كان نقش خاتم سيدنا عمر بن الخطاب ؓ: «كفى بالموت واعظاً».

وعن سهل بن سعد الساعدي ؓ قال: مات رجل من أصحاب النبي ﷺ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يشنون عليه، ويذكرون من عبادته، ورسول الله ﷺ ساكت، فلما سكتوا قال رسول الله ﷺ:

«هل كان يكثر ذكر الموت؟» قالوا: لا قال: «فهل كان يدع كثيراً مما يشتهي»

قالوا: لا. قال: «ما بلغ صاحبكم كثيراً مما تذهبون إليه»^{٤٤٣}

وعن مجاهد بن جبر ؓ وهو من كبار التابعين، عن عبد الله بن عمر ؓ، قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك في أهل القبور»

فقال لي ابن عمر ؓ: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك ومن حياتك قبل موتك فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً»^{٤٤٤}

٤٤١ ابن ماجه، الزهد، ٣١ / ٤٢٥٩.

٤٤٢ الترمذي، القيامة، ٢٤ / ٢٤٥٨؛ أحمد، مسند، ٦، ١٨٧ / ٣٦٧١.

٤٤٣ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٣٠٨-٣٠٩ / ١٨٢٠٦.

٤٤٤ الترمذي، الزهد، ٢٥ / ٢٣٣٣؛ انظر: البخاري، الرقاق، ٣ / ٦٤١٦.





وقال أنس بن مالك رضي الله عنه:

«إن الأرض تنادي كل يوم بعشر كلمات وتقول:

يا ابن آدم! تسعى على ظهري ومصيرك في بطني. وتعصي على ظهري وتعذب في بطني. وتضحك على ظهري وتبكي في بطني. وتفرح على ظهري وتحزن في بطني. وتجمع المال على ظهري وتندم في بطني. وتأكل الحرام على ظهري وتأكلك الديدان في بطني. وتحتال على ظهري وتذل في بطني. وتمشي مسروراً على ظهري وتقع حزيناً في بطني. وتمشي في نور على ظهري وتقع في الظلمات في بطني. وتمشي في المجامع على ظهري وتقع وحيداً في بطني»^{٤٤٥}

إنَّ لحظات الموت وخاتمة الإنسان هي المرأة التي تنعكس عليها مصائر الإنسان يوم القيامة وتخبره بعاقبته في الحياة الآخرة، وهي النزول الأخيرة للستار على مسرح الحياة، والمشاهدون والجمهور هم شهود الله تعالى في أرضه، فإن أثنوا عليه خيراً فهو إلى خير، وإن كان غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

تلك النفس التي تتهيأ للموت، وتنتظر اللحظات الأخيرة، وتستعد للحياة الآخرة، ولا يكون الموت عندها سوى بوابة مرور إلى العيش جسداً وروحاً في العالم العلوي.

شتان بين نفس اتبعت هواها وأشبعتها شهواتها وكان ذكر الموت لها خيالاً باهتاً، ونفس سعت في التزكية، وجاهدت في التربية، وأشبعها عالم المعنويات وروتها الفيوضات والتجليات، وكان ذكر الموت لها شوقاً للقاء الأحبة، أو هو كما وصفها مولانا جلال الدين الرومي - رحمه الله -: «ليلة العرس»^{٤٤٦}

٤٤٥ ابن حجر العسقلاني، منبهات، ٣٧.

٤٤٦ ليلة العرس: مصطلح استخدمه مولانا جلال الدين الرومي ليدل على أن ليلة الوفاة تغدو وسيلة

للقاء المحبوب الحقيقي وهو الله تعالى. (المترجم)





نعم؛ باستطاعة المرء أن يجعل أشدَّ أمور الدنيا رعباً - وهو الموت - أشدها رغبة في نفسه، وبوسعه أن يجعل «الموت جميلاً»؛ إذا هو تجاوز عقبة نفسه، وتقلَّب بها في المجاهدات والأحوال، وكانت محطاته في سفره إلى الموت هي: التوبة، الزهد، التوكل، القناعة، الذكر، التوجه، الصبر، المراقبة، الرضا.

أما كيف نتفكر في الموت، ونجعله نُصب أعيننا، ونعمل عملنا استعداداً لمصيرنا بعده، فلنأخذ العبرة والوسيلة من المجاهدين الأوائل.

وكان أسيد بن حضير رضي الله عنه من أفاضل الصحابة، فكان يقول:

«لو أنني أكون كما أكون محل حال من أحوال ثلاث، لكنت من أهل الجنة، وما شككت في ذلك: حين أقرأ القرآن وحين أسمع، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدت جنازة، فما شهدت جنازة قط، فحدثت نفسي سوى ما هو مفعول بها، وما هي صائرة إليه»^{٤٤٧}

ويروي محمد بن كعب القرظي الحادثة التالية، فيقول:

«لقيتُ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالمدينة في شبابه وجماله ونضارته، قال: فلما استخلفَ قدمتُ عليه فاستأذنت فأذن لي، فجعلتُ أحدُ النظر إليه فقال لي:

يا ابن كعب ما لي أراك تحد النظر؟

قلت: يا أمير المؤمنين لما أرى من تغَيَّر لونك ونحول جسمك ونفار شعرك، فقال: يا ابن كعب فكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري وقد انتزع النمل مقلتي، وسالتا على خدي، وابتدر منخراي وفمي صديداً، لكنت لي أشدَّ إنكاراً، دع ذاك، وأعد علي حديث ابن عباس...»^{٤٤٨}

ويوضِّح الإمام الغزالي ضرورة أن يتفكر المؤمن في الموت ويوصيه بما يلي:

٤٤٧ انظر: أحمد، مسند، ٤، ٣٥١؛ الحاكم، ٣، ٣٢٦ / ٥٢٦٠.

٤٤٨ الحاكم، ج٤، ٣٠٠ / ٧٧٠٦.





«يجب على المؤمن بعد أن يصلي صلاة الفجر وقبل أن يبدأ يومه أن يبقى وحيداً مع نفسه لمدة محددة، وأن يتعاهد معها على بعض الأمور والشروط، فالتاجر حين يسلم رأس ماله لشريكه يقوم بمثل هذه المعاهدات معه، ولا يهمل حينها بعضاً من التحذيرات لشريكه، والإنسان أيضاً ينبغي أن يحذر نفسه ويلقنها التالي: إن رأس مالي هو عمري، ومع مرور كل يوم من عمري يذهب رأس مالي، ويتهيئ الربح والمكسب، لكن هذا اليوم هو يوم جديد، وقد أكرمني الله تعالى في هذا اليوم أيضاً بأن أذن لي بالعيش، ولو توفاني لكنت تمنيت أن يعيدني ولو ليوم واحد فقط كي أعمل هنا صالحاً. أيها الولد، فلنفترض أنك توفيت الآن، ثم أعدت إلى هذه الدنيا، لهذا لا تقترب أبداً اليوم من الذنوب والمعاصي واحذر منها، ولا تبذر أية لحظة من لحظات يومك هذا؛ لأن كل نفس تتنفسه نعمة لا تُقدَّر بثمن».

وعلى هذا النحو يحقق الإنسان سرَّ عبارة «موتوا قبل أن تموتوا»، ويضع بالمعنى الكامل محبة الله تعالى وطاعته مكان سلطة النفس التي كأنها زالت.

د. صحبة الصالحين والصادقين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٤٤٩}

فالآية الكريمة تحمل إشارة إلهية لطيفة بأن معية الله تعالى تبدأ بمعية الصالحين، والتحصن بتقوى الله يبدأ بمصاحبة الصادقين والتقرب منهم.

فالاستئناس بأهل القلوب ومصاحبة الصالحين والصادقين هو السبيل لتهيئة القلب أن يتلقى الفيوضات والروحانيات، وكذلك هو السبيل لوقاية القلب من خبث المؤثرات وسهام الدنيا، فيكون القلب في مأمن أمين وحصن حصين، لا





يناله إلا الخير؛ إذ هو أضعف الأعضاء مقاومة، وأشدّها تأثراً بما حولها، وأميلها إلى اتباع الدنيا وما فيها مهما كان ما فيها.

وهناك حقيقة مهمة عن القلب ينبغي أن نقف عليها ونعيها جيداً، وهي أنه سريع الانسجام والتأقلم مع الوسط الذي يعيش فيه، فإذا كانت الميول القلبية المحيطة ميولاً إيجابية انحاز إليها، وإذا كانت الميول القلبية المحيطة ميولاً سلبية مال إليها.

وكلما كان القلب بعيداً عن المؤثرات الإيجابية، وبعيداً عن النضج المعنوي، ظل هدفاً كبيراً للمخاطر، فالتأثيرات الخارجية في البيئة المحيطة به قد تدفعه إلى قبولها حتى يحبها، أو تدفعه لرفضها حتى يكرهها؛ لذا فإن المحبة والكراهية درجة مهمة من المؤثرات القلبية ينبغي على أهل التربية استخدامها بمهارة، لأنها تؤثر بشدة في الترقية الروحية للإنسان أو حتى في تدنيه.

والذي يوصل الإنسان إلى الفوز العظيم هو عقيدة «الولاء والبراء» كما في مصطلح الأصوليين، بمعنى أن نتوجه بالمحبة لمن يستحقها، ونناصب العداء من يستحقه، فإذا أخطأت أحد الهدفين وقعت في خطر عظيم.

كل ذلك سهل على المرء فهمه وتنفيذه إذا ما عاش حياته متقرباً من الصالحين، دائراً في دائرة قطبيتهم، واقعاً في محيط تأثيرهم، مستمداً من نفحاتهم التربوية، محباً لهم محبة حقيقية.

لكن هذه المحبة إذا افتقدت حقيقتها وبعدت عن عمقها الروحاني فإنها تظل بعيدة بصاحبها عن الوصول إلى الهدف المرجو، والنتيجة المطلوبة.

والحادثة الآتية التي مرّ بها أبو يزيد البسطامي رحمه الله فيها الكثير من العبر في هذا الموضوع:

في يوم من الأيام كان الشيخ أبو يزيد البسطامي يمشي في الطريق، وكان أحد الشباب يتعقبه ويمشي على إثره، وكان الشيخ يلبس فرواً، فقال الشاب:





«يا سيدي هلاً أعطيتنا قطعة من هذا الفرو كي نتبرَّك ونستفيد من فيوضاتكم!»
فأجابه الشيخ البسطامي إجابة عظيمة:

«إذا لم تعمل مثل عمل أبي يزيد فلن يفيدك فرو أو حتى جلد أبي يزيد!»^{٤٥٠}
إنَّ في كائنات الكون جميعها ميلاً للتشبه ببعضها سواء في الهيئات والأشكال أو في الأحوال والأعمال، ومنشأ هذه الحقيقة هو أن هذه الكائنات من أصل واحد، فمثلاً إذا وقعت آنية مليئة بعطر فَوَّاح في زاوية إحدى الغرف، فإن الرائحة المنبعثة ستنتقل من جزيء في الهواء امتصَّ الرائحة كاملة إلى جزيء آخر حتى تصبح جزيئات الهواء في الغرفة كلها مشبعة بهذه الرائحة، وهذه الحالة أحد قوانين الفيزياء المنطبقة أيضاً على المظاهر المتناقضة كلها مثل الحرارة والبرودة، لكن ثمة حاجة لواسطة تحفظ هذا التشابه كي يظهر هذا القانون في الحياة البشرية، وهذه الوساطة ما هي إلا المحبة.

وثمة عبارة مشهورة متداولة على ألسنة الناس تقول: «من القلب إلى القلب سبيل»، وهي تؤكد الحقيقة والقانون الذي أسلفناه.

وفي طبيعة الإنسان وفطرته ميلٌ إلى التقليد؛ هذا الحس ينشأ مع الطفل منذ نعومة أظافره، ويبقى معه طوال حياته، ويتطور بين القوة والضعف، لكنه يبقى معه لا يفارقه في تصرفاته وأفعاله وميوله وكافة نواحي شخصيته.

والشخصيات القوية المؤثرة تصير مصدراً لإلهام الناس من حولها، ومثالاً يحتذونه، وقدوة يتأسسون بها، لا سيما إن كان هؤلاء القدوة من الصالحين والصادقين، الذين يؤثرون بحسن أخلاقهم وصدق أحوالهم وصلاح قلوبهم فيمنَّ حولهم من المقلدين والتابعين والمريدين. ولعل المثال الأعظم على ذلك هو الصحابة الكرام -رضوان الله تعالى عليهم- عندما تحولوا من الجاهلية ودركاتهما إلى أسمى درجات الرقي المعنوي ببركة التأسي بالنبي ﷺ وتأثيره الروحاني في شخصياتهم وأفعالهم.





والمحبة هي السرُّ الأكبر في شدة التأثير والتأسي واتباع القدوة، فها هو المعلم حينما يحبه تلاميذه يسهل عليهم فهم دروسه، ويسلس الدرس مهما كان صعباً، فالمحبة تجعل من شفقة المعلم عوناً في اجتياز الصعاب، ويجد الطلاب لذة في مواجهة التحديات والتغلب عليها، وها هو العامل يكدُّ ويكدح في العمل ويلقى فيه المشقة والتعب، لكنه إذا أحب ذلك العمل، تراه يستعذب التعب ويستلذ المشقة؛ بل لا يشعر بقسوة التعب على حقيقته، إنما يجد خفة في ثقل هذا العمل، وراحة في أدائه.

وها هو المسلم يغدو إلى صلاة التراويح أو قيام الليل بعد يوم شاق في الصيام، ويؤدي ركعاتها العشرين، لكنه يشعر بروحانية هذه الصلاة وراحة التقرب من ربه، ولا يكاد يحس بشيء من التعب، بينما نجد مَنْ كسل عن العبادة ولم يجد في قلبه محبتها، نجده يستثقل حتى ركعتي الفجر.

فالمحبة هي ذلك الإكسير السحري الذي يحوّل مشقة العبادة إلى لذة الطاعة، ويحوّل عنت المجاهدة إلى نسيمات على الطريق، ويجعل من العوائق رقائق.

وعلى الجانب الآخر فإن محبة أهل الغفلة والأنس بأهل الفسق، أكبر خطر يعرضه المرء على قلبه، وعليك المقارنة بين الرياح التي تمر على الحدائق فتحمل معها النسيم العليل والأريج الجميل، والرياح التي تمر على الصحاري فتحمل معها الحميم والسّموم.

ذلك هو الفارق بين الصبحة الصالحة والصبحة الطالحة.

والفارق بين الفتّين هو كما صورهُ النبي ﷺ، فصاحب السوء كنافخ الكير تحرق ناره، ويؤذيك دخانه، وصاحب الخير كحامل المسك يعطيك من أطيبه أو تشمُّ منه رائحة طيبة.

وينصح الشيخ عبيد الله أحرار رَحِمَهُمُ اللهُ أحبابه متحدّثاً عن هذا الموضوع:





«إن صحبة المتساهلين في الدين والغافلين عن رب العالمين يؤدي إلى فتور القلب، وتشوش الروح، وتعاسة الفؤاد».

وفي يوم من الأيام أحسَّ أبو يزيد البسطامي رحمته الله بالقلق داخله، ولم يستطع التخلص من هذه الحال على الرغم من محاولاته، فقال لمن كان معه في المجلس: «انظروا هل بيننا غريب يجلس معنا؟»

فبحثوا، لكنهم لم يجدوا أحداً، غير أن أبا يزيد البسطامي أصرَّ على ذلك وقال:

«ابحثوا جيداً، وانظروا حيث العُصي»، ثم بحثوا مرة أخرى ووجدوا عصاً لرجل غافل، فأخرجوها، فعادت طمأنينة القلب لأبي يزيد البسطامي.^{٤٥١}
وفي يوم من الأيام جاء قريب للشيخ عبيد الله أحرار إلى حضرته، فقال له الشيخ:

«ثمة رائحة غريبة تأتي منك»، ثم أضاف قائلاً:

«يبدو أنك ترتدي لباس شخص غريب».

فقال الشخص:

«نعم، كلامك صحيح».

فذهب وبدَّل ذلك اللباس، ثم عاد^{٤٥٢}.

هذه الحالات الطيبة والأحوال الروحانية الراقية، تجعل بين الأختيار رابطة ربانية لا تنفصم رغم بعد المسافات وتطاول الأزمنة؛ بل إن هذه الرابطة تنتقل من الأشخاص إلى الأشياء، وليست في الأحوال الإيجابية فقط؛ بل في النواحي السلبية أيضاً، وها هي الأمثلة التي تؤكد ذلك القانون الروحاني.

٤٥١ صفي، رشحات، ص ٤٦٩-٤٧٠.

٤٥٢ صفي، رشحات، ص ٤٧٠.





ذلك الترابط القلبي بين سيدنا يعقوب وابنه سيدنا يوسف عليهما السلام، لقد أحب يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام أكثر من بقية أبنائه محبةً خاصة لما بينهما من التشابه الأخلاقي نتيجة المعين الواحد الذي يستقي منه كلاهما؛ معين النبوة والاتصال بالمدد السماوي، وبعد الفراق الكبير في الزمان والمكان بين الجسدين لم تفقد الأرواح اتصالها؛ بل إن الأشياء والجمادات الخاصة بهما لم تفقد اتصالها، وها هو قميص يوسف عليه السلام يأتي من مصر إلى بلاد الكنعانيين فيشمه الأب النبي المحب الرباني ويجد فيه ريح ابنه يوسف؛ بل يُلقى عليه القميص، فيرتد بصيراً سعيداً مستبشراً.

وكذلك قلب الإنسان الذي هو أشد حساسية ورقة وتأثراً بالأحوال من الجمادات والأشياء، هو دائماً في حاجة إلى المحبة يعقوبية والاتصال اليوسفي، ليمر في مراحل الأسر والعبودية والسجن الدنيوي، حتى يجد الملاذ الآمن في الجنة. وذلك التأثير بالأحوال المعنوية سلماً وإيجاباً يكون حتى على الجمادات والأماكن، ويقول كبار العلماء في هذا الموضوع:

«إن أعمال الناس وأخلاقهم تنعكس حتى على الجمادات، ومن هذا المنطلق ثمة فرق كبير في القيمة بين عبادة في مكان ارتكبت فيه أنواع مختلفة من الأعمال البذيئة، وبين عبادة أخرى في مكان وجدت فيه الأعمال الصالحة والخيرة، ولهذا السبب تكون الصلاة في حرم الكعبة أرفع بدرجات كثيرة من الصلاة في جميع الأماكن الأخرى».

فإذا كانت الكعبة وكان الحرم الشريف مثلاً على التأثير المعنوي الإيجابي، فثمة مثل آخر على التأثير المعنوي السلبي، وهو وادي الحجر، فعندما كان الصحابة الكرام عائدين من أكثر الغزوات عسراً ومشقة، وهي غزوة تبوك، مروا في الطريق على ذلك الوادي -وادي الحجر- فأرادوا أن يستريحوا فيه ويستظلوا ويتزودوا بالماء، وكان المكان هو الآثار الباقية من مساكن قوم ثمود، ويروي





لنا ابن عمر رضي الله عنه ما حصل هناك فيقول: «لما نزل رسول الله ﷺ الحجر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنّا منها واستقينا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»^{٤٥٣}

إن هذه الحادثة وأمثالها ما هي إلا مثال حيّ واحد من بين الأمثلة الكثيرة على انعكاس الحالات الروحانية وانتقالها إلى الجمادات.

إن حصول المسلم المُجاهد على الفيوضات -الطاقة المعنوية- التي تؤهله لنيل المزايا القلبية والوصول إلى الكشف يتطلب العمق في صحبة الصالحين، وخاصة الصحبة المعنوية وليست المعية الجسدية فحسب.

ويلفت انتباهنا هنا وصية لقمان لابنه حين قال له:

«يا بُنَيَّ، عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يُحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر»^{٤٥٤}

ويوضّح الحديث الشريف الآتي أهمية الصحبة والدرجات المعنوية التي تمنحها للمؤمن:

«... ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...»^{٤٥٥}

وعن أبي إدريس الخولاني، أنه قال:

دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوا إليه، وصدروا عن قوله، فسألت عنه، ف قيل هذا معاذ بن جبل،

٤٥٣ البخاري، الأنبياء، ١٧/٣٣٧٩.

٤٥٤ أحمد، الزهد، ٥٥٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٢٥.

٤٥٥ مسلم، الذكر، ٣٨/٢٦٩٩؛ أبو داود، الوتر، ١٤/١٤٥٥؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.





فلما كان الغد هَجَرْتُ فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: الله؟ فقلت: الله، فقال: الله؟ فقلت: الله، فقال: الله؟ فقلت: الله. قال: فأخذ بحبوة ردائي فجذبني إليه، وقال: أبشر فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتبازلين فيَّ»^{٤٥٦}

ويقول المولى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٤٥٧}

هذه الصحبة والمعية هي السبيل لانتقال التأثير والأحوال، وقوة انتقال الأحوال تكون بحسب عمق المحبة والأنس، ومن أراد المرتبة العليا في الإيمان فعليه بدوام الاتصال والأنس بأهل الكمال من الصادقين والصالحين. وكم هو جميل توضيح الرسول ﷺ لأهمية صحبة الصادقين من خلال هذا التشبيه الرائع:

«مثل المجلس الصالح والمجلس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحاً خبيثة»^{٤٥٨}

وكما أن صحبة الصالحين في الحياة مهمة، كذلك مجاورتهم في القبر أيضاً مهمة، فقد ذكر جماعة من العلماء استحباب الدفن بجوار الصالحين، ولم يذكروا دليلاً صريحاً على ذلك من السنة، وإنما هو مجرد استنباط من بعض الأحاديث،

٤٥٦ مالك، الموطأ، الشعر، ٥.

٤٥٧ التوبة: ١١٩.

٤٥٨ البخاري، البيوع، ٣٨/٢١٠١؛ مسلم، البر، ١٤٦/٢٦٢٨.





كما استنبط بعضهم ذلك من حديث: «أن موسى عليه الصلاة والسلام لَمَّا حضرته الوفاة سأل ربه أن يدينه من الأرض المقدسة رمية بحجر»^{٤٥٩}
وقد بَوَّب البخاري رَحِمَهُ اللهُ لِلْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ:
«باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها».

قال ابن بطال:

«ومعنى سؤال موسى أن يدينه من الأرض المقدسة، والله أعلم، لفضل من دُفِن في الأرض المقدسة من الأنبياء والصالحين، فاستحب مجاورتهم في الممات، كما يستحب جيرتهم في المحيا، ولأن الفضلاء يقصدون المواضع الفاضلة، ويزورون قبورها ويدعون لأهلها»^{٤٦٠}

وقال النووي:

«وفي هذا استحباب الدفن في المواضع الفاضلة والمواطن المباركة والقرب من مدافن الصالحين»^{٤٦١}

وقد ورد عن غير واحد من السلف وأهل العلم الوصية بالدفن بجوار بعض الصالحين، فقد أوصى ابن مسعود أن يدفن بجانب قبر عثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.^{٤٦٢}
وأوصى غالب بن جبريل صاحب الإمام البخاري أن يدفن إلى جنب البخاري.^{٤٦٣}

وأوصى أبو بكر الخطيب الحافظ أن يدفن إلى جانب بشر بن الحارث.^{٤٦٤}

٤٥٩ انظر: البخاري، الجنائز، ٥٨/١٣٣٩؛ مسلم، الفضائل، ١٥٧-١٥٨/٢٣٧٢.

٤٦٠ شرح ابن بطال، ٥/٣٥٩.

٤٦١ شرح مسلم، ١٥/١٢٨.

٤٦٢ الثقات لابن حبان، ٣/٢٠٨.

٤٦٣ المتفق والمفترق، ٣/٢٠١.

٤٦٤ تاريخ دمشق، ٥/٣٤.





وبيّن الحديث التالي أهمية تأمين الحاجة من الصالحين:
فعن ابن الفراسي، أن الفراسي، قال لرسول الله ﷺ: أسألُ يا رسول الله؟ فقال
النبي ﷺ:

«لا، وإن كنتَ سائلاً لا بد، فاسأل الصالحين»^{٤٦٥}

وعن القاضي شريح، أنه كتب إلى عمر رضي الله عنه يسأله، فكتب إليه:
«أن أقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى فبسنة رسول الله ﷺ،
فإن لم يكن في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسول الله ﷺ، فاقض بما قضى به
الصالحون، فإن لم يكن في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسول الله ﷺ، ولم يقض
به الصالحون، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك،
والسلام عليكم»^{٤٦٦}

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال:

«إنه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي، ولسنا هنالك، ثم إن الله ﷻ قدر علينا
أن بلغنا ما ترون، فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم، فليقض بما في كتاب الله،
فإن جاء أمر ليس في كتاب الله، فليقض بما قضى به نبيه ﷺ، فإن جاء أمر ليس في
كتاب الله، ولا قضى به نبيه ﷺ، فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاء أمر ليس
في كتاب الله، ولا قضى به نبيه ﷺ، ولا قضى به الصالحون، فليجتهد رأيه، ولا
يقول: إني أخاف، وإني أخاف، فإن الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أمور
مشتهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^{٤٦٧}

ويقول النبي ﷺ في ترك الشبهات:

٤٦٥ أبو داود، الزكاة، ٢٨/١٦٤٦؛ النسائي، الزكاة، ٨٤/٢٥٨٧.

٤٦٦ النسائي، آداب القضاة، ١١/٥٣٩٩.

٤٦٧ النسائي، آداب القضاة، ١١/٥٣٩٧.





«... استفت قلبك، واستفت نفسك... البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^{٤٦٨}

إن في أنفاس العلماء الصالحين ودعوات الرجال الكاملين تأثيرات عجيبة، وتشير الروايات أن أبا أبي حنيفة ثابتاً أهدى الفالوذج «نوع من الحلو» لعلي بن أبي طالب يوم النيروز ويوم المهرجان، فدعا له ولأولاده بالبركة، وكان ثابت يقول: «أنا في بركة دعوة صدرت من علي» حتى إنه كان يفتخر بأولاده العلماء ويشكر الله على ذلك.^{٤٦٩}

وحين جاء درويشٌ إلى أبي يزيد البسطامي وقال له:

«أوصني بعمل صالح يقربني من الله».

فنصحه البسطامي رحمته الله قائلاً:

«أحبَّ أولياء الله، وأظهر محبتك لهم، وحَبَّ نفسك إليهم كي يحبوك، فالله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه سبعين مرة في اليوم واللييلة، وعسى أن يغدو اسمك في قلب وليٍّ من الأولياء، فينظر الله إليه فيحبك ويغفر ذنوبك»^{٤٧٠}

لذا؛ فإنَّ أرسى قواعد التربية الصوفية الحفاظ بقوة وفعالية على «الرابطة»^{٤٧١}، فيضمن المريد السالك والمجاهد في الطريق انتسابه واستمراره على المحبة لأهل القلوب الصادقين الصالحين.

٤٦٨ أحمد، مسند، ٤، ٢٢٧-٢٢٨ / ١٨٠٠٦؛ الدارمي، البيوع، ٢ / ٢٥٧٥.

٤٦٩ البورصوي، روح البيان، التوبة: ١٢٢.

٤٧٠ قاسم محمد عباس، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، دمشق ٢٠٠٤، ص ٧٠؛ محمد بن علي، النور من كلمات أبي طيفور، (عبد الرحمن بدوي، داخل شطحات الصوفية)، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٩٩، ١١٥.

٤٧١ للتوسع أكثر انظر الصفحة: ٣٤٢.





وتمتد بركة هذه الرابطة وعمق تأثيرها حتى إلى الذين تنكبوا الطريق، واستهوتهم المعاصي، وساروا في دروب الذنوب، فتنقذهم من مزالق الهاوية، وتحفظهم من حالات الضياع المعنوي، أو القنوط من رحمة الله تعالى، ولا تزال تمدهم ببركتها، وتنزل عليهم فيوضاتها، فتيقنهم من الانجذاب الكامل نحو طريق الغواية، وتشدهم إلى طريق الهداية، فلعل الله يمنُّ عليهم فيعتصمون بحبله.

وعندما تشتد هذه المحبة بين المريد وشيخه تتحول إلى تيار متدفق، مثل تيار الماء أو الهواء أو الكهرباء، وتنقل بين الطرفين شحنات موجبة هائلة من التأثير والتأثر والتبادل الروحي، حتى تصل إلى درجة «الشباب» في الشخصية.

ورغم أن المُتأثر الذي يتلقى تيارات العطاء، يتدرج في الترقى عبر فيوضات الشيخ الصالح، إلا أن ذلك الصالح الصادق يصيبه الضرر من ذلك إلى حد ما.

فالصالحون الصادقون الذين يقومون بهذه العمليات المتتالية والمركبة والمعقدة من التنظيف المعنوي والتطهير النفسي والتعقيم الروحي، يقومون بتنفيذ معادلات كيميائية وحيوية ذات أهمية كبرى فيما يسميه علماء الطبيعة «التوازن البيولوجي»، أو بكلمات أخرى يقومون بعملية التصفية والتنقية التي تقوم بها أوراق النباتات للهواء في الجو، ثم بعملية «التمثيل الضوئي» لغذاء ذلك النبات؛ أو هم كغلاف طبقة الأوزون التي تحيط بالأرض وتمنع عنها الأشعة الكونية الضارة، ولا تسمح إلا بمرور الأشعة الكونية المفيدة للحياة على ظهر الأرض.

ولا تسعنا الأمثلة المتاحة لهذا الدور العظيم الذي يقوم به أهل التربية؛ بل الأدوار المتتالية والدقيقة التي يكونون فيها مثل المستشفى المتكامل الذي يعتني بالمرضى المشرف على الموت، ويتابع حالته بدقة وعناية وتمكن فائق، حتى يتحول المريض إلى جسد قوي ذي مناعة.





والصالحون الصادقون المعنيون بهذه الصنعة المبهرة والتكليف المعجز، لا بد أن ينالوا في مراحل إعدادهم النفسي وتكوينهم الروحي مرحلة من العزلة والخلوة؛ ليس فقط تقريباً من الله تعالى، وإنما أيضاً بعداً عن الدنيا وأدناسها وأوضارها.

ويبنى المحبُّ في الحبيب حين تقوى المحبة بالأُنس في نهاية المطاف، ويوضح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله بكلماته التالية هذه الحالة التي تتحقق فقط حين تكون نتيجة العشق:

«حين يصب النهر في البحر يفقد خاصيته، ويمسي جزءاً من البحر الذي صبَّ فيه، والخبز الذي نأكله يذوب في عالمنا الداخلي ويصبح جزءاً من بدننا، والمحبُّ أيضاً يفنى وجوده في الحبيب بحسب شدة محبته له».

ويستمر مولانا الرومي بكلامه مبيناً الحالة الروحية الموجودة في حالة التشابه والفناء بقوله:

«أتى العشق ليملاً مثل الدم عروقي وجلدي، وأخذني من ذاتي وملاً وجودي بمحبته، واستولى المحبوب على كل جزء من بدني، ولم يبق لي سوى اسمي، أما ما بقي فقد أصبح له».

وهذا هو ما يطلق عليه في التصوف «الفناء في الله» و«البقاء بالله»^{٤٧٢}، والسمو إلى درجة «البقاء بالله» أو الرقي إلى مرتبة «الفناء في الله»، يتطلب مراحل طويلة من إعداد القلب وتدريبه وتجهيزه؛ ليكون قادراً وجديراً ليتحمل هذا الأمر، عبر التدريب على المحبة البشرية، ليصل إلى كمال المحبة الإلهية والفناء في الله تعالى.

٤٧٢ هذين المصطلحين تعريفات مختلفة في المراجع الصوفية، ومن هذه التعريفات: الفناء في الله: حين يفنى العبد في الله يتجرد قلبياً من العلاقات الدنيوية جميعها، ويتطهر من الصفات النفسانية. البقاء بالله: هو تخلق العبد الذي تطهر من الصفات النفسانية بأخلاق الله، ويتحقق هذا الحال بالالتزام بأخلاق رسول الله ﷺ والقرآن الكريم وروحانيتهما.





نعم، إنه الحب البشري؛ بل العشق الذي يسميه المتصوفة «العشق المجازي»، وهو عشق مباح ومطلوب لتحضير القلب وتدريبه، والوصول به إلى العشق الإلهي، وله صور كثيرة كعشق الرجل زوجته.

ولتحديد معنى العشق ومستواه يجب أن ننظر في كلام مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول:

«أنصف، لتعلم أن العشق أمر رائع، وما يجرحه هو طبائعك السيئة، فقد أطلقت اسم العشق على الشهوة. آه! فلتعلم أن الفرق كبير جداً بين الشهوة والعشق».

«العشق والوجد الإلهيان يجعلان من المؤمن متيقظاً دائماً، أما العشق الدنيوي والشهواني فهو يجعل الإنسان أحمق أبله، والعشق هو الاحتراق والتخبط في الإنسان الذي خلق من ماء وتراب، وليس المهم دوران الدم في العروق أي دوام الحياة، بل امتلاء الرئتين بالعشق».

وهكذا تكتمل صورة العشق البشري بأن تتماهي ذاتُ المحب في ذات المحبوب؛ حتى تتشابه - إلى أكبر درجة - أشكالهم، وتتماثل - إلى أدق التفاصيل - شخصياتهم.

وعلى الجانب الصوفي عندما يصل المريد في التصوف إلى هذه النقطة في محبته لمرشده، يفنى في وجود شيخه، ويطلق على هذا المقام كلمة «الفناء في الشيخ».

وكان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يعيش في حالة وجدٍ واستغراق مختلفة في كل مرة يلتقي أو يصحب بها رسول الله ﷺ، وحين يكون في حضرته، يزيد شوقه ومحبته للرسول بدلاً من أن يسكن ويهدأ.

وقد قال النبي ﷺ ذات مرة:

«ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر»





أما سيدنا أبو بكر رضي الله عنه الذي تجرد من ذاته وفنى في وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال عشقه له، فقد أحسَّ أنه حين تلقى «خطاب» المديح النبوي انفصل عن النبي وصار من الأغيار، وشعر بألم حارق يشبه نيران الافتراق التي تكون في أعماق الروح، فبكى وأصابه قلق من أن يكون من «الغير» وقال: «هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله»^{٤٧٣}

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ما الذهب وما الروح!... وما اللؤلؤ والمرجان إن لم ينفق على الحبيب ولم يكن فداءً له؟!»

وما أشبه هذه الحقيقة التي نطق بها مولانا الرومي بحالة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.
وحين مرض سيد الكائنات محمد صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام، مرض سيدنا الصديق ولزم الفراش بسبب حزنه على النبي صلى الله عليه وسلم.

وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فراش الموت قال في حق أبي بكر رضي الله عنه:
«سُدُّوا الأبواب، إلا باب أبي بكر!»^{٤٧٤}

وكان هذا المديح من النبي دليلاً أيضاً على التدفق القلبي بينهما.
ويوضِّح الشيخ سعدي الشيرازي سمة الانتقال في الأحوال قائلاً:
«لقد نال كلب أصحاب الكهف شرفاً كبيراً حين كان مع الصادقين، فقد ورد ذكره في القرآن الكريم وصار جزءاً من التاريخ، في حين وقعت زوجة النبي لوط في الكفر حين صحبت الفاسقين».
إن انتقال الحال عن طريق الأنس بالصالحين والصادقين وما ينتج عنه من «تشابه» هو ما يصفه الشيخ سعدي في كتابه «غولستان» على صورة حكاية تشخيصية:

٤٧٣ ابن ماجه، المقدمة، ١١/٩٤؛ أحمد، ٢، ٢٥٣/٧٤٤٦.

٤٧٤ البخاري، أصحاب النبي، ٣.





«يذهب الرجل إلى الحمام، فيعطيه أحد أصدقائه في الحمام صلصالاً ذا رائحة عطرة كي ينظف جسده، فتنبعث رائحة زكية من هذا الصلصال تلاطف الروح»

ثم يسأل الرجل الصلصال:

«أيها المبارك، لقد انتشيتُ برائحتك العطرة، فقل لي أأنت مسكٌ أم عنبر؟»

فيجيبه الصلصال:

«لست مسكاً ولا عنبراً، فكما تعرفون أنا من تراب مُهمل، لكنني كنت تحت وردة، وكنت أبتلُّ بقطرات الندى المتساقطة من براعمها. وتلك الرائحة التي كنتم تشمونها وتشرح صدوركم ما هي إلا لتلك الوردة».

هكذا تسرَّب عبر الوردة عبر قطرات الندى إلى حفئات التراب إلى عجين الصلصال إلى أجساد الرجال؛ بل إلى أرواحهم، فما ظنُّنا بدفقات العشق السارية من قلوب الأولياء والصالحين والصادقين والمربين والمرشدين إلى قلوب ومشاعر المريدين والسالكين؛ لاشك أن هذه القلوب ستصير أشد عبيراً من بستان الورد بأجمعه.

إن القمر الذي يفيض على الأرض نوراً وتألُّفاً وشاعرية، هو نفسه لا يملك شيئاً من ذلك النور ولا تلك الشاعرية، إنه مجرد انعكاس لنور الشمس وناقل لأضوائها، فصار وكأنه جزء من هذه الشمس، وهكذا المريد الذي يحب شيخه، ويصل إلى الفناء في محبته؛ حتى يصبح جزءاً منه فيتلقى من روحانياته ومعنوياته وفيوضاته، ليعكسها ويصبها على الآخرين.





ر. التحلي بالأخلاق الحميدة

«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليغضض الفاحش البذيء»^{٤٧٥}

خلق الله تعالى الإنسان على الفطرة، وأودع في فطرته الأخلاق الحسنة التي ترتقي به في عالم المعنويات، وهداه السبيل وألهمه السير في طريق الترقى واستثمار هذه الأخلاق والمزايا للوصول إلى قمة العالم القلبي، كما أتاح له أيضاً ملكة الاختيار وإمكانية التحول إلى السبيل الآخر، في درب الغواية والشقاء والتشبع بالشهوات؛ وعلى الإنسان أن يتمسك بفطرته التي فطره الله تعالى عليها، ويبني بنيانه المعنوي على أساسها، ويتحول من صورة إلى سيرة، ومن هيكل بشري إلى نور سماوي، فيرسخ الأخلاق الحميدة في فطرته، وينفي خبث الأخلاق الذميمة من سريره.

والقلوب التي تمتلك قدرًا مناسبًا من الروحانية هي التي تتمكن من استثمار الأخلاق الحميدة فيها للقيام بالأعمال الصالحة، ومن الترقى في الأحوال المعنوية، منطلقًا صاحبها من كونه خُلِقَ على أحسن تقويم.

وعلى النقيض نجد القلوب التي فقدت روحانيتها، وغلبت عليها شقوتها تصير أرضاً خصبة لمساوئ الأخلاق والشهوات ونزغات الشياطين، فيهجر فطرته ليختار طريق الشر بعد أن هداه الله النجدين، فيضل ويهوي، ويصير أضل من الأنعام سبيلاً.

وها هو الحق الرحيم سبحانه يخاطب الإنسان ويحذره كي يعود إلى ذاته ولا يقع في الهاوية فيقول:





﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^{٤٧٦}

ويقول ربُّنا ﷺ أيضاً في القرآن الكريم:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ...﴾^{٤٧٧}

لكن هذه الدعوة مشروطة بشروطها، مقيدة بمقتضاها، فليس الأمر هكذا خبط عشواء، أو احتطاباً لبليل، إنما هو انتقاء للارتقاء، واستجابة لنداء السماء، فلا بد من امتلاك المؤهلات التي تجعلك أهلاً لاستحقاق النداء وتلبية الدعوة، إنها «دار السلام»، فلا يستحقها إلا أهل السلام والسلامة، وأصحاب «القلب السليم».

والشرط الوحيد للعيش كإنسان هو تمثل الأهداف السامية للدين والأخلاق، فذروة الكمال الإنساني والأخلاق الحميدة هو سيدنا محمد ﷺ، حيث يقول المولى ﷺ تأييداً وتصديقاً لصفة النبي محمد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^{٤٧٨}

ويقول سيدنا محمد ﷺ في الحديث الشريف:

«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليغضض الفاحش البذيء»^{٤٧٩}

«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»^{٤٨٠}

٤٧٦ الانفطار: ٦-٨.

٤٧٧ يونس: ٢٥.

٤٧٨ القلم: ٤.

٤٧٩ الترمذي، البر، ٦٢/٢٠٠٢.

٤٨٠ أحمد، مسند، ٢، ٣٨١/ ٨٩٥٢؛ موطأ، حسن الخلق، ٨؛ الحاكم، المستدرک، ٦٧٠.





إن الإنسان الكامل والنبى الوحيد فى التاريخ الذى ذُكرت تفاصيل حياته الدقيقة كلها هو سيدنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام، فقد كان تدوين كلامه وأفعاله ومشاعره جميعها لحظة بلحظة وسام شرفٍ فى تاريخ الإنسانية، فحياة النبى ﷺ «الأسوة الحسنة» تمثل ذروة قيم البشرية كلها، ويبيّن الله ﷻ هذه الحقيقة فى الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^{٤٨١}

ومن أراد الحياة الحقيقية، وأراد السير على منهج الله تعالى، والتزام طريق الهدى الذى خطته له فطرته؛ فعليه الأخذ بنصيب وافٍ من سيرة المصطفى ﷺ، فهو الإنسان الكامل، والأسوة الحسنة، ومحبتُهُ عليه الصلاة والسلام هي السبيل إلى بلوغ رضا الله تعالى، والحياة فى ظلال سيرته والاقتباس من معين روحانيته والتأسي بشمائله عليه الصلاة والسلام هو السبيل لتمثل حاله وبلوغ بعض من كماله، ولعل أعظم مثال على ذلك هم الصحابة الكرام ﷺ، ثم ورثتهم من الأولياء والصالحين والصادقين.

وتهمم الأرواح اللطيفة فى سماء روحانيته، وتذوب القلوب الرقيقة فى بحر محبته، حتى تبنى الأرواح والقلوب فى عشقه، وتنعم فى الدنيا نعيمًا يغرقها فى الألفاف الإلهية.

إن أرقى النماذج البشرية فى السمو والكمال على مدار التاريخ هم أولاء الذين اتخذوا من الرسول عليه الصلاة والسلام مصدرهم النوراني، ونبعهم الإيمانى، وفيضهم الروحاني، واتخذوا من محبته علاجًا ربانيًا لقلوبهم، ومددًا إلهيًا لأرواحهم.





ولنا أن نذكر هنا أن محبة النبي ﷺ هي أكثر علاج مؤثر في القلوب المريضة الغافلة.

ومن بين الأمثلة على رفعة خلقه وأخلاقه وسلوكه:

كان وجه رسول الله ﷺ المبارك أجمل وأطهر الوجوه، وحين هاجر إلى المدينة كان عبد الله بن سلام وهو من أحبار اليهود يسأل عن رسول الله ﷺ بفضول، وما إن رأى وجهه المبارك حتى قال:

«أن وجهه ليس بوجه كذاب»، وأسلم حينها.^{٤٨٢}

لقد كان الوجه الكريم وحده معجزة ودليلاً وبرهاناً على نبوته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كان انعكاساً لروحانيته، ومرآة لسيرته، ومظهرًا لنورانيته. كان الوجه الكريم للنبي ﷺ كتاباً مفتوحاً يقرأ الناظرون إليه أحوال الإنسان الكامل وأخلاقه ومشاعره، والنبي النوراني، والرسول الرباني؛ حتى كان أصحابه ﷺ يعرفون رضاه وغضبه من محياه، ويعرفون رغبته في شيء ما أو رغبته عنه من قسماته، لقد كانت حركاته وسكناته وإشاراته وقسماته دليلاً على مشاعره وباطنه، وهي سنة واجبة الاتباع لمن أراد سلوك طريق النجاة، ولمن أراد لقلبه طريق السلامة.

لقد كان أول نور خلقه الله تعالى هو نور محمد ﷺ، وكان الإنسان الكامل في خلقه وخلقه، فقد كان الجسد الشريف قوياً نشيطاً يحمل عزيمة ماضية، مع حياة شديد هو أشد من حياة العذراء في خدرها، وكانت الحكمة تتفجر ينباعها من لسانه الشريف، ولا يعرف الفم الشريف من الغيبة أو النسيمة أو اللغو شيئاً؛ بل لا ينطق إلا بالحق، ولا ينطق عن الهوى؛ يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويوصل المفاهيم للناس على قدر مداركهم، ليناً سهلاً متواضعاً، دائم التيسم، ضحكه تبسماً لا قهقهة ولا لغواً، ذا وقار ومهابة، يحبه من يراه، ويعشقه من يألفه، وتفيض بركات نوره وأخلاقه وفضائله على كل من حوله أو مرَّ به.





أما معاملاته عليه الصلاة والسلام فقد كان يُنزل الناس منازلهم، ويعرف لذوي الفضل فضلهم، رفيقاً بأهل الضعف، مُكرماً للضيف، خير الناس في معاملته للأهل والأصحاب، أغدق الناس على الأقارب، أكثر الناس عطاءً لكل سائل وطارق، أكثر الخلق رفقاً ولطفاً.

يقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

«لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^{٤٨٣}

كان خلقه الكريم ﷺ يوازن بين الشجاعة والحلم، ويجمع بين الرأفة والرحمة والكرم والعطاء؛ حتى إنه لم يكن يلبس أو يأكل دون خدمه، ولم يسمعوا أو يجدوا منه ما يجرحهم قط.

وأما وعده فكان مُنجزاً، وعهده ثابتاً، وقوله صادقاً، كثير الصمت تغشاه السكينة، لا ينطق إلا بمقدار، مفوهاً بليغاً قد أوتي جوامع الكلم، يسترعي إليه آذان السامعين وقلوب المستمعين.

وكان صمته فكراً ونطقه ذاكرةً، دائم التفكير، يطول حزنه خشية لله وشفقة على الأمة، ولا تنقطع ابتسامته أملاً في الله وبشرى للأمة.

لا يستثير غضبه شيء من أمور الدنيا، إلا أن تُنتهك حرمة من حرمت الله، ولا يدخل في شيء من الجدال أو المراء، ولا يغضب لنفسه؛ يراعي مشاعر الناس أشد ما تكون المراعاة، حتى إنه لم يدخل بيت أحد دون استئذان، حتى بيوت زوجاته.

وكان وقته مقسماً بين ثلاثة: وقت في عبادة الله، ووقت في معية أهله، ووقت لذاته، ويشاركه في القسم الثالث العوام والخواص، وكل آتٍ يطلب الهدى والنصيحة وفيوضات النور النبوي.

وكان عليه الصلاة والسلام دائماً في معية الله تعالى، وكنفه، عبادة وذكرًا وتفكيراً.

٤٨٣ البخاري، الإيمان، ٦/١٣؛ مسلم، الإيمان، ٧١-٧٢/٤٥.





ورغم قدسية المسجد فإنه لم يتخذ فيه مكاناً محدداً، يقوم فيه أو يصلي أو يعظ، ولم يُرد أن يضيفي قدسية على مكان ما، ولا يضيفي على نفسه مكانة ما تكبراً بالمكث في مقام ما؛ بل كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يتصدر مجلساً أو يتخذ فيه كرسيّاً أو مكاناً متميزاً، وكان يأمر أصحابه بذلك.

لا يردُّ صاحب حاجة حتى يقضي له حاجته، عاجلة أو مؤجلة، مادية أو معنوية، فإن لم يستطع قضاءها عوّض صاحبها بدعوة أو عظة أو نصيحة، يعيش بين الناس كواحد منهم، فعلى سمو مقامه وقدسية مكانته عند ربه وعند المؤمنين؛ إلا أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد التواضع، شديد التواصل والتعاش مع الناس، يشاركتهم أتراحهم وأفراحهم وحياتهم ومواقفهم، لا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين سيدهم ومولاهم، رابطة الإنسانية والإسلام هي التي تجمع الناس وتزن مقاديرهم عنده.

وكانت مجالسه عليه الصلاة والسلام نبأاً للهدى وفيضاً للنور، ونبأاً للفضائل الكبرى من الحلم والعلم والحياء والصبر والتوكل والأمانة.

يعالج أصحاب المعاييب والنقائص بالإشارة والتلميح، ولم يُعرف عنه قط أنه فضح أحداً بالتصريح، إنما هي إشارات لطيفة، وإيماءات لا تجرح المشاعر، فيقول في حديثه معرضاً: ما بال أقوام، ما بال أحدكم،... وغيرها من إشارات عامة، لم تكن عيوب الأشخاص تشغله إلا بقدر رغبته في إصلاحها، ولا يتبعها تجسساً ولا ظناً؛ بل كان ينهى عن ذلك ويزجر.

ومن أحاديثه عليه الصلاة والسلام:

«لا تُظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله وبيتليك»^{٤٨٤}





كلماته وأحاديثه إنما هي في شؤون الآخرة، وما يوصل إلى نعيمها من أفعال وأعمال، يفيض منها الوجد، وتغمرها السكينة، وتشع منها المحبة.

وحين يتكلم يُفَتِّن مَنْ حَوْلَهُ بروعة كلامه، ويمسي آذناً صاغيةً له، وقد روى سيدنا عمر رضي الله عنه أنهم كانوا يستمعون للنبي عليه الصلاة والسلام الساعات الطوال بسكينة وكأن على رؤوسهم الطير، لقد كان الأدب الذي ينعكس على الصحابة والحياء من النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجاته، حتى إنهم كانوا يُعَدُّون سؤاله نوعاً من التناول على النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك كانوا ينتظرون قدوم أعرابي يسأل النبي صلى الله عليه وسلم كي يستفيدوا من فيوضاته وروحانيته.^{٤٨٥}

ويوضح أبو هريرة رضي الله عنه سعة رحمة النبي صلى الله عليه وسلم ورأفته في روايته التي يقول فيها:

قيل لرسول الله: يا رسول الله ادعُ على المشركين، فقال:

«إني لم أُبعث لعاناً، وإنما بُعثت رحمة»^{٤٨٦}

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم واصفاً حبيبه صلى الله عليه وسلم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^{٤٨٧}

ويقول شيخنا أحمد الرفاعي -وهو من أولياء الله تعالى- ناصحاً أبناءه وإخوته في الدين:

«يا طالب العرفان، انفق كل ما تملك في سبيل الله، واتَّبِعِ السُّنَّةَ الشريفة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وأمض أيامك ولياليك في عبادة مليئة بالخشوع، ولتكن معاملتك دائماً معاملة حسنة... فهذا فقط تستطيع أن تصل إلى المعرفة،

٤٨٥ انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٢٢-٤٢٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ١٣.

٤٨٦ مسلم، البر، ٨٧/٢٥٩٩.

٤٨٧ الأنبياء: ١٠٧.





وما لم تفعل ذلك فلن تنال نصيبًا من ذلك كله، وإن لم يكن حالك كحال النبي، فستبقى عبدًا ناقصًا».

هذه الجولة السريعة في روضة الأخلاق النبوية الفيحاء هدفنا منها أن نتنسم من عبير هذه الجنة الغناء، وأن تتساقط على أرواحنا قطرات الندى، فتروي ظمأها، وتُنبِت في أرضها من خيرات الفيض النبوي، فالوصول إلى الله تعالى له طريق وسر، هو العيش بقلب خالص في ظلال كتاب الله تعالى وسُنة رسول الله ﷺ، وليس هناك دافع وحافز على ذلك مثل محبته عليه الصلاة والسلام، وكرهية كل من عاداه.





خلق الله الدنيا وجعل من مشاهدة ما بثَّ فيها من إبداعات
مصدر تفكر وعبادة وآيات لأولي الألباب، بينما هي عند
الحمقى مجرد لعب ولهو وزينة.



٤ . رؤية العالم بقلبٍ صافٍ

إن الإنسان الذي ارتقى بقلبه ليصل به إلى مرتبة «القلب السليم» عبر
المجاهدات البشرية والتربية الصوفية والألطف الإلهية، ووصل إلى حالة الطهر
والصفاء والربانية، هو إنسانٌ في صورته، لكنه كالملائكة في مقامه وسيرته.

وبعض مَنْ وصل إلى هذه الدرجة هم كالنجوم التي تحتل موقعًا بين ملايين
النجوم في هذا الفضاء، يعيشون في خفاء بالنسبة إلى العالم الخارجي، ويحيون
في عالمهم الخاص، ولا يُعرفون أبدًا.

وبعضهم الآخر قد يعيش ظاهراً في دنيا الناس وعالمهم، إذ يؤدي مهامَّ
ووظائف اجتماعية موكولة إليه، وهؤلاء ممَّنْ حظوا بالخلود والحياة بعد الموت؛
إذ يصيرون في حياتهم قادة وقدوة، وبعد وفاتهم نبراساً وأسوة، وطوال تاريخ
البشرية مشاعل هداية؛ لا بل يستمرون في وظائفهم البشرية حتى بعد انتقالهم
إلى دار القرار.

ويدركون السبب النهائي في سلسلة الأسباب الموجودة وراء الحوادث، أي
إنهم يدركون الإرادة الإلهية، ولهذا يعيشون وهم محيطون بالحكمة ومُظللون
بالطمأنينة والسكينة، ويُمسون مصونين عن كثير من حالات الضعف البشري مثل
الاضطراب والقلق.





فبالنسبة إليهم لا شيء اسمه «عبث»، إذ إنهم يبدوون مرحلة الترقى المعنوي بعبارة «اصفح عن المخلوق من أجل الخالق»، وينظرون إلى العالم بأحاسيس مليئة بالعبرة والمحبة والدهشة، ومدركين الحكمة من وراء الأحداث.

فنظرتهم إلى الكون هي نظرة قلبٍ مفعم بالجمال، يسهل عليه رؤية الجمال وإدراكه في كل شيء حتى في الصحراء الجرداء، فيرى تموجات رمالها وصفير رياحها لوحة سمعية بصرية بديعة، رغم ما تثيره لدى الناس من ذعر؛ حتى غروب الشمس وإقبال الليل وحِزَم الضوء التي تتسرب أشعتها عبر غيوم السماء التي قد توحى للبعض بخوفٍ من يوم شاتٍ ممطر ذي رعد وبرق، بينما هو يوحى لهم بمشهد لوحة إعجازية سماوية ترسمها القدرة الإلهية.

حتى الحيوانات والهوام المتوحشة لا ينظرون إلى وحشيتها وأظلافها ومخالبها وسمومها نظرة الإنسان الخائف من عداوتها؛ بل نظرة الفنان المفتون بألوانها وحرركاتها وعجائب أشكالها وقدراتها، وما منحها الله تعالى من خصوصيات.

أمثال هؤلاء الأولياء لا يضرهم خوف الهوام ولا تضيرهم وحشية الوحوش؛ بل يسلمهم الله تعالى من أذى مخلوقاته، لأنهم نظروا إلى كل خلقه نظرة العبرة والاندعاش، وجعلوا المحبة رابطة بينهم وبين هذه المخلوقات، لأنهم جميعاً من صنع الله تعالى، فالمحبة تجعل المُحب دائماً في طاعة المحبوب وفي كنفه وفي رباط معه، كأن التأثير بينهما ينتقل عبر إشعاعات غير بصرية؛ إنما هي إشعاعات قلبية تحكم وتتحكم وتفعل الأعاجيب.

والأولياء تختلف نظرتهم للكون عن نظرة الإنسان العادي؛ تماماً كاختلاف نظرة الشاعر الرقيق إلى مشهدٍ ما في اللوحة المرسومة وفي الطبيعة المخلوقة، شتان بين المشهدين وشتان بين النظرتين، فهذا الجمال الكوني الخلاب ما هو إلا «عمل عادي» منقول على لوحة وألوان، فاقدة الإحساس مهما كانت مشابهة للواقع، فاقدة الحياة مهما كانت نابضة بالجمال.





الفرق بين المشهدين كالفرق بين النظرتين، نظرة أولياء الله تعالى ذوي القلوب الصافية التي ترى من الجمال والإبداع ما لا يراه البشر العاديون بأبصارهم المحدودة، وقلوبهم المتعبة، ومشاعرهم الكليّة.

إن قلوب الأولياء تتلذذ بمشاهد الإبداع الإلهي، وتندesh بعجائب الإبداع الإلهي، وتسجد مسبحةً لقدرة الخلق الإلهي، والتي يراها غيرهم كل يوم، فيمرون عليها وهم عنها معرضون.

فهذه الأرض قطع متجاورات تُنبِت الأشجار المتنوعة، والفواكه الكثيرة، رغم أنها تُسقى بماء واحد.

وهذه الأزهار التي تتفتح، تفتتح معها آفاق من التسبيح بالجمال ورب الجمال، أرضها واحدة وطينها واحد، وألوانها شتى، وإبداعها ليس له حدود.

وهذه اليرقات العمياء الصماء؛ سرعان ما تتحول إلى فراشات تخطف الأبصار، وتخلب الأبواب بإبداع ألوانها.

ولا نذهب بعيداً، فالآيات لا تحتاج إلى رحلة في الكون؛ بل لا تحتاج إلى سمع وأبصار: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الجسد الإنساني الذي يحمل في كل جراحة آية، وفي كل عضو معجزة؛ بل في كل خلية عجائب وغرائب.

ولمثل هؤلاء فقط يغدو الكون كله كالكتاب المُعد للقراءة، فقد تجاوزوا العلم الموجود في السطور، ووصلوا إلى علم الصدور، وخير مثال على ذلك مولانا جلال الدين الرومي الذي كان في وقت من الأوقات مدرّساً مُنكبّاً على الكتب في مدرسة سلجوقية، حتى أصابه قبح من إرشاد الدرويش البسيط شمس الدين الذي كان قلبه مليئاً بالعشق، وما إن أخذ مولانا ذلك القبح حتى بدأ بالاحتراق بنيران العشق، وبعد أن وُلِد مولانا من جديد في العشق على هذا النحو، غاص في بحر العلوم الباطنية بعد أن أكمل كتب العلوم الظاهرية، وعلى هذا الأساس بدأ بقراءة أسرار الكون وحقائقه، وبعد أن أكمل مولانا هذه المرحلة





من حياته، ظهر كتابه المليء بالإنذار المسمّى بـ«المنثوي» الذي كشف أسرار القرآن والإنسان والكون، والحكم الكامنة فيها.

ولا يمكن للمؤمن التحلي بمثل هذه الأحوال إلا بمقدار ترقّي العشق والاستعداد والمقدرة في قلبه. أو كما يقول ابن عطاء الله السكندري في حكمه: «ورود الإمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار». «إذا تحقق الاستعداد، وصفت الأسرار، وطهرت السرائر، ووصلت القلوب إلى ذروة السمو، صارت محلاً للتجليات الإلهية؛ بل يصبح القلب مركزاً للأرض وقطباً تدور حوله الألفاظ».

وها هو الملا جامي يؤكد حقيقة «كعبية القلب» أي إن القلب صار كالكعبة؛ بل أعظم، فيقول:

«إن الكعبة بناها إبراهيم بن آزر، أما القلوب فهي محل نظر الله العلي العظيم». إن تشبيه القلب بالكعبة يرد كثيراً في كتب مناقب المتصوفة، وذلك لأن موقع القلب في الإنسان الذي هو جوهر الكون يشبه إلى حد كبير موقع الكعبة بالنسبة إلى الكون، والحق أن القلب والكعبة كليهما يُعدّان مركزين تحل فيهما التجليات الإلهية ونقطتين لتموضعها.

حتى إن بعض كتّاب المناقب يبالغون أحياناً في تفضيل القلب على الكعبة، إما لشدة الوجد وطغيان العشق على الأفهام، وإما تأكيداً لأهل السلوك على أهمية الإرادة البشرية في الوصول بالقلب إلى أرقى الدرجات وأرفع المستويات، ولتحفيز المجاهدين في الطريق على التنافس في نيل هذا الهدف السامي.

ويلفت انتباهنا هنا خطابُ ابن عمر رضي الله عنهما للكعبة المشرفة ويقصد به أصحاب القلوب الذين صارت قلوبهم محلاً للتجليات الإلهية، إذ يقول:

«ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»^{٤٨٨}





والقلب هو موضع الإيمان، ونفهم من كلام ابن عمر رضي الله عنه أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ. ويقول مولانا جلال الدين الرومي مؤيداً هذه الحقيقة: «إذا كنت تملك البصيرة، فطُفْ حول قلبك! فالمعنى الحقيقي للكعبة التي تعتقد أنها مصنوعة من تراب هو القلب».

«لقد فرض المولى صلى الله عليه وسلم الطواف الذي تراه وتعرفه حول الكعبة كي تكون صاحب قلب طاهر خالٍ من كل معصية».

«ولتعلم جيداً أنك إذا ما جرحت أو كسرت قلباً هو محلُّ نظر الله تعالى فلن يوازي الثواب الذي أخذته من الذهاب إلى الكعبة -حتى لو مشياً- الذنوب التي اكتسبتها نتيجة كسر القلب».

ويبين الشيخ عبد القادر الجيلاني شرط الوصول إلى هذا السمو بقوله: «لا يمكن أن يكون القلب كعبةً إلا حين تطهره مما سوى الله، ويكون طالباً لمعرفة الله».

ويقول إسماعيل حقي بورصوي في هذا الموضوع: «إن مَنْ يدخل القلوب أفضل ممَّنْ يدخل الكعبة، لهذا السبب يقولون للعباد الصالحين وأولياء الله: «لا تخرجونا من قلوبكم»، وهكذا يستمدون الفيوضات، ويطلبون الهمة»^{٤٨٩}.

ويوضح الإمام الرباني رحمته الله حقيقة أن الإنسان «كون صغير» بقوله: «إن الإنسان هو خلاصة العالم المصغر، وبناءً على ذلك، نجد في الإنسان مثلاً على كل شيء موجود في العالم».

ومعنى ذلك أن الإنسان الكوني هذا يدور في الفضاء الواسع بين قطبين مغناطيسيين هما الخير والشر، فإما أن يجذبه أحدهما، أو ينجذب هو إلى

٤٨٩ استمداد الفيوضات: طلب الفيوضات. طلب الهمة: طلب اهتمام المرشد.





أحدهما، وغاية كل تكاليف الدين، وغاية كل ممارسات التصوف هو أن تُضعف نوازع اجتذابه إلى الشر، وأن تُقوّي نوازع اجتذابه إلى الخير.

ولا محيص من استخدام كل أعضاء الجسد الكوني في هذه المهمة المصيرية، وعلى رأسها يأتي القلب؛ إذ هو مركز الإحساس، ودفة الفكر، وزمام الإرادة ومصدر كل الأفعال الاختيارية.

لكن القلب غير خاضع للإرادة، وهو أشد الأعضاء استقلالية وحرية، بل هو المتفرد بذلك؛ لذا فهو أصعبها مراساً في التطويع لأوامر الله، وأكثرها احتياجاً للاهتمام والرعاية والموالاة الدائمة تطهيراً وتحصيئاً وعلاجاً وتركياً.

وعلى قدر المشقة يكون الأجر، فالذي جاهد في تركية قلبه وإخضاعه لأوامر الله؛ ينال لطف الله تعالى الذي يمنحه لعباده، والذي يرتقي بهم إلى درجة الملائكة؛ بل أسمى وأعلى.

ولأن القلب ووجوده المعنوي المسمى بالفؤاد ذو أهمية كبيرة لضمان سعادة الإنسان وسلامته، فإن جرحه من أي شخص يُعدُّ جرماً عظيماً عند أرباب التصوف كلهم.

ويقول مولانا الرومي محدثاً من جرح القلب:

«إن القلب المكسور الذي لا تعطيه أي أهمية، وتنظر إليه كأنه قشة هو أسمى من العرش والكرسي واللوحي والقلم!.. فلا تحتقرن القلب ولو كان ذليلاً! فذلك القلب على الرغم من ذلّه أسمى من أسمى شيء، وذلك القلب المكسور هو المخلوق الذي ينظر إليه الله تعالى، ولكم هي مباركة تلك الروح التي تصلحها، فأعمار قلب مكسور محطّم لمُتّي قطعة أفضل من كثير من الحسنات وأعمال الخير عند الله ﷻ... صه! فحتى لو كان في كل شعرة منك مثلاً لسان، لن تستطيع شرح القلب والتعبير عنه».





إن للقلب أهمية تفوق أهمية الأعضاء الأخرى؛ لأنه يحتل موقعاً رفيعاً في جسد الإنسان، وهو محل انعكاس التجليات الإلهية، والذي يتلقى هذه التجليات، وكما ذكرنا في الأعلى، نرى أن «التصديق بالقلب» شرط لتحقيق الإيمان، والآية الكريمة التالية تذكر أن الوحي خاطب القلب الذي هو مركز الإحساس، لا الدماغ الذي هو مركز التفكير:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^{٤٩٠}

ومع السعي البشري الدؤوب في تربية القلب يحتاج المرء إلى اللطف الإلهي العجيب في إتمام هذه التربية، فالسعي البشري هو توجيه الإرادة، والمدد الرباني هو إنجاح الصادق في هذه الإرادة، وعلى السالك في الطريق أن يعلق آماله - بعد سعيه - على كرم الله تعالى، الذي لا يُعجزه شيء، ولا ييخل على عباده بشيء، وقد قال الحبيب المصطفى ﷺ:

«...استعن بالله ولا تعجز...»^{٤٩١}

وكان من أقوال السلف الصالح: «ما لا يدرك كله لا يترك كله»، ولا بُدَّ من التفكير على هذا النحو أثناء تربية القلب، إذ لا يجب التقصير في تحقيق ما يمكن تحقيقه.

وفي التصوف مثل شائع هو:

«مدد يا أبي، سعي وعمل يا ولدي»، أي أن مَنْ ينتظر مدداً من شيخه، لا بُدَّ أن يسعى حسب طاقته، وما يطلبه الله - صاحب اللطف والكرم اللامحدود - من عبده أثناء تربية قلبه هو السعي الحقيقي والخالص لوجه الله تعالى بإدراكه عجزه و«فناؤه» أمام العظمة الإلهية، وبمقتضى الحكمة التي تقول: «مَنْ عرف نفسه

٤٩٠ الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

٤٩١ مسلم، ٣٤/٢٦٦٤.





عرف ربه»، فإذا ما كان السعي لمجاهدة النفس من العبد، فالتوفيق من الله تعالى، ولا شك أن الله جلَّ جلاله سيحاسب عبده وفقًا لما لطف عليه، والمهم هنا هو أن يتوجه العبد للحق والخير بقدر النعم التي تلقّاها من المولى ﷻ.

فيا ربّي أرنا بوارق الحقيقة في قلوبنا وأسرار وحكم الدنيا والآخرة، وأنر أبصارنا وأفئدتنا، كي نتشرف بجمالك في الدار الآخرة!
آمين





لن يبلغ الإنسان مصافَّ الكمال ما لم يتجرد من كل صفاته
السلبية السيئة، ويتخلق بأسمى الأخلاق الإنسانية، وذلك
حين يراعي أشواق القلب وتطلعات الروح وحاجات النفس.



ت. المبادئ الأساسية في التربية الصوفية

لقد وضعت الطرق الصوفية أصولاً وقواعد هي بمثابة القوانين في السير
والسلوك، لاسيما لدى الطريقة النقشبندية، ولهذه القواعد والأصول رعاية
وأهمية خاصة، فهي التي تؤهل المريد حالاً ومقالاتاً لترتقي به نحو الكمال درجة
بعد الأخرى.

ومن هذه المبادئ تلك التي وضعها ونظمها أحد كبار المتصوفة وهو الشيخ
عبد الخالق غجدواني رحمته الله، وهي بمثابة المعايير المعنوية التي تربي وتقيس
هوية الإنسان الكامل، وهي كالتالي:

١. هُوشُ دردم: أي الذكر مع كل نفس يتنفسه العبد، والوعي روحانيًا لهذا
الذكر، والحذر من الغفلة عنه.

ويعرّف مولانا سعد الدين كاشغري هذا المعيار بقوله:

«هو عدم السقوط في الغفلة أبدًا حتى حين الانتقال من نفسٍ إلى نفسٍ آخر،
والبقاء مع الله دائماً وأبداً»^{٤٩٢}

يقول الشيخ نقشبند:

«إن مبني هذه الطريق على النفس، فينبغي لك أن تحفظ النفس وقت الدخول
والخروج، بل تحفظ ما بين النفسين!»





إن البقاء واعياً مع كل نفس عند الذاكر هو عدم الغفلة عن الله تعالى أثناء أوقات الذكر وسائر الأوقات. وتخليصُ الأنفاس من الغفلة يمنح القلب الطمأنينة، وبقاء قلب العبد مع الله تعالى في كل نفس يتنفسه منوطٌ بإحياء الأنفاس ببركة طاعة الله ﷻ، وحين تستقر طمأنينة المعية في قلب الإنسان، فسوف يستشعر التحسن في كل أحواله ومواقفه.

٢. نَظَرَ بَرَقَدَمٍ: وهو المشي بالنظر إلى طرف القدم، أي إن على السالك المشي في الطريق ناظراً إلى قدميه، كي لا يشغل العين والقلب والجوارح بما حوله، فالعلاقات التي لا تكون مع الله تعالى وتجاوز حدودها، تُذهب طمأنينة القلب، وتضع حجاباً بين العبد وربّه.

وهذا الأصل في حد ذاته ما هو إلا تطبيق للسنة في صفة مشي النبي ﷺ، إذ لم يكن الرسول الكريم ﷺ كثير التلفت، ولا ينظر حوله من غير ضرورة أثناء مشيه، بل ينظر إلى طرف قدميه، ويمشي بوقار وسرعة كأنه ينحدر من مكان عال، أي إن هذا المبدأ مقتبسٌ من الأخلاق المثلّية لرسول الله ﷺ.

فالنظرة بوابة الفؤاد، والعين رسول القلب وقلمه، تدوّن في القلب ما تنظر إليه، وتسجل في النفس ما تراه، ويصير القلب أرشيفاً يحفظ ما توردّه عليه العين، وكأن العين كاميرا تصوّر كلّ ما تمر به، ثم ترسله إلى القلب، فتجعله متخماً بغثاء كثير من شواغل الدنيا وتوافهها، وتشغل منه حيزاً كبيراً كان جديراً أن تشغله فيوضات الله تعالى؛ لذا فعدم الإسراف في النظر وقصره على المهم يجعل القلب متفرغاً لما هو أبقي وأبقى، ويتركه بعيداً عن التشويش والانشغال والاستهلاك والهلاك، ولا تنعكس عليه من الصور إلا ما يوقظه ويظهره ويتركه سليماً.

فالوساوس تبدأ حين يتعلق قلب السالك بما سوى الله تعالى، فإذا ما اختلط العبد مع الغافلين، فستنعكس قسوة قلوبهم وطبائعهم السيئة وأفعالهم الشنيعة عليه، وهي من أشد المخاطر.





فيجب على المريد السالك أن يجاهد اضطراب النظر وفضوله، وأن ينتبه إلى مواضع نظره، وما يعكسه من صور على قلبه، وأن يمثل دائماً للسنة النبوية في النظر أثناء السير، أدباً وتواضعاً وحفظاً للقلب والنظر.

٣. سَفَرُ دَرَوْطَن: يعني توجه السالكين إلى الهوية الحقيقية للعبد، أي إلى الأخلاق الحميدة والمشاعر اللطيفة، بعد تطهيرها من الأخلاق السيئة وتخليصها من ثقل الذنوب، كل ذلك إضافة إلى السير بقصد الوصول إلى المرشد الكامل. وينبغي على السالك السعي والاجتهاد الدائم للارتقاء من مقامٍ إلى مقامٍ أعلى، وعدم الرضا أبداً بالحالة المعنوية التي هو عليها.

يقول الشيخ أبو عثمان المغربي:

«يجب على السالك ترك الهوى والنزوات، والرجوع إلى عبادة الله وطاعته. إن ما يُقصدُ بعبارة (سفر دروطن) ليس السفر من بلد إلى آخر، بل وصول الإنسان إلى الله ﷻ في عالمه الداخلي، وحين يجد السالك المرشد الكامل، فإنه يترك حينها الرحلة الظاهرية، ويبدأ رحلته الباطنية».

عبر هذا الدستور في السير والسلوك يُدرك السالك أنه يتجه إلى ربه في كل خطوةٍ يخطوها كما هو حال إبراهيم عليه السلام حين قال:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ﴾^{٤٩٣}

٤. خلوة دَرُ انجَمَن: هو قدرة العبد على استحضار المعية مع الحق تعالى دوماً حتى لو كان بين الناس، أي أن يدرك السالك أنه مع المولى ﷻ في الباطن، حتى لو كان في الظاهر يختلط مع الناس وينشغل بالأعمال اليومية.

وبفضل هذا يستمر في صحبة الله تعالى دون أن يحسّ عليه أحد ممّن حوله، ولا يُنقص في الوقت ذاته من مقتضيات الحياة البشرية، وتوضح هذه الحالة خير توضيح العبارة القائلة: «اليد في الكسب، والقلب مع الرب».





ويصف الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم عباده الذين يملكون مثل هذا القلب المُدرِك بقوله:

﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^{٤٩٤}

ومن أساسيات الطريقة النقشبندية صحبة الناس والاختلاط بهم، وليس اعتزالهم والابتعاد عنهم، فالخلوة النقشبندية ليست الخلوة بالجسد بعيداً عن دنيا الناس وحياتهم، إنما هي الخلوة الدائمة بالقلب مع الله تعالى؛ حتى لو كان العبد يعيش بين الناس ويخالطهم.

٥. يذكّر: وصول القلب إلى حالة الذكر، أي تثبيت فكرة أن المقصود الوحيد في القلب هو الله تعالى، بعد إخراج الأدران التي تشمل ما سواه تعالى، والتي تجذرت في القلب، عبر النفي والإثبات «بذكر لا إله إلا الله».

وحين تنتشر حرارة الذكر وتسري من القلب إلى سائر البدن، تنتقل المشاعر السامية المكنوزة في اللاشعور أيضاً إلى حالة الشعور، وتنعكس على السلوك، فالإنسان الذي يذكر الله تعالى ويكون فكره معه دائماً لا بد أن يأخذ نصيباً من أخلاق الله مثل الرحمة والصبر والكرم والعفو، وهي كلها من الشروط الضرورية لكمال الإنسان، لهذا السبب نجد أن من أهم مبادئ التصوف تنبيه القلب بالذكر.

ووفقاً لبعض النصائح التي قدّمها الشيخ «عبيد الله» نجد أن القصد من وراء الذكر هو بقاء القلب دائماً مع المولى ﷻ، ولا بُدَّ من إضافة صفتي المحبة والتعظيم لهذه المعية.^{٤٩٥}

٤٩٤ النور: ٣٧.

٤٩٥ رشحات، ص ٦٩.





٦. بازُكشت: أي إن المطلوب والمقصود هو رضا الله وحده، والتفكير العميق في دعاء «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبِي» بعد ذكر النفي والإثبات في التوحيد «لا إله إلا الله»، من أجل تأكيد معنى النفي والإثبات، وتثبيت سر التوحيد في القلب بمعناه الحقيقي.

وعلى هذا النحو يصل القلب إلى الاطمئنان بنفي الغايات والرغبات كلها التي تكوّن حاجزاً بين العبد وربّه، ومن ناحية أخرى تتأصل الغاية الأساسية وهي نيل رضا الله تعالى في القلب مرة أخرى، وذلك بطرد الوسوس كلها التي قد تدخل القلب، ومن هذه الوسوس أن غاية الذكر -الذي هو تدريب روحاني- هي ارتقاء المراتب ونيل الكرامات.

وحين يأخذ معنى الذكر بهذه الصورة مكانه في الشعور، وينعكس على الحياة، ينعدم الهوس بالأمور الفانية، ويبدأ العبد برؤية التجليات الإلهية في كل شيء.

٧. نِكَاه دَاشت: أي الوقاية من الخواطر النفسانية والشیطانية، والمحافظة على معنى النفي والإثبات في القلب.

ويعني الحفاظ على الجوارح من تلك الخواطر الشيطانية، فتحافظ على عينيك بعيداً عن فضول النظر، وتحافظ على عقلك من شطحات الفكر، وتحافظ على قلبك من كل زيغ وغفلة وخطر، فهو محل نظر الله تعالى وفيوضاته، ومستقر وجوده في دنيا العبد وحياته.

وحماية القلب من المكاره أحد أهم أهداف التصوف، ولا ينال هذه الثمرة اليانعة أحد من الزُّرَّاع إلا بعد طول عمل ورعاية ومجاهدة.

٨. يادداشت: يجب على العبد أن يستحضر دوماً في عقله وقلبه أنه تحت نظر الله تعالى في كل وقت، وبهذا الشعور يهتم بأعماله وأفعاله، ويطلق على هذا اسم «المراقبة»، وجميع المبادئ التي ذكرناها إلى الآن هي لتحقيق هذا الحال.





يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^{٤٩٦}

هذا القرب الإلهي المتجاوز للعمق البشري يؤكد للإنسان أنه دائماً تحت رقابة شاملة لا يعزب عنها مثقال ذرة من عمله، ومَنْ أراد النجاة من حال العييد إلى حال العباد، والوصول إلى حال «المراقبة»، فعملية اللجوء إلى معنى «الإحسان»، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ذلك المعنى والشعور يجعلك واقفاً دائماً بين يدي الله سبحانه، وحينها تستحيي الذنوب أن تقاربك، وتخجل أنت أن تقتربها.

٩. وقوف زماني: هو التدقيق في كل ساعة تمر في حياة العبد، هل مرّت بـ «حضور» أم بـ «غفلة»؟ وتقويم الوقت خير تقويم. فيجب على السالك أن يعرف قيمة الوقت جيداً، ويترك الأمور غير الضرورية، ويخصص وقته للأشياء القيّمة، وبحسب تقديره للوقت سيحاسب نفسه مراراً وتكراراً.

و«وقوف زماني» بمعنى آخر هو أن يعلم السالك حاله في كل لحظة، والعمل بموجب معرفته لحاله، أيتطلب الشكر أم الاستغفار؟

ووقت الإنسان هو حياته وعمره، ووقت السالك هو ميدان جهاده وسيفه ورمحه، وعليه أن يحسن استثمار كل لحظة في ذلك الوقت؛ ليدرك مَنْ سبقوه، ويسابق مَنْ زاحموه، ويتغلب على عواقب الدنيا الكؤود، ونزغات الشيطان الرجيم، وما أعد له أعداؤه من مشطات وعقبات دون الوصول إلى الكمال والارتقاء إلى خير حال.





وعلى السالك أن يتفحص كل لحظة... هل كانت لحظة عمل صالح فيشكر الله تعالى عليها، أو لحظة عمل طالح فيستغفر الله تعالى منها، أو لحظة غفلة فيتوب إلى الله عنها، وعن تضييع عمره وتفويت جهاده؟

ولابد أن يدرك السالك حقيقة قيمة الوقت وأنه من أثنى الأشياء، فإذا فات لا يعوّض وإذا مضى لا يعود، ولا يملك الإنسان أثنى منه لا مالا ولا جاهاً ولا سلطاناً.

وثة مبدأ مهم في الصوفية يخلصك من الحيرة في إضاعة الأوقات بين الماضي والحاضر والمستقبل، يقول: «الصوفي ابن وقته». أي يجب عليه أن يتخلص من الالتفات نحو هموم الماضي، وأن يتخلص من القلق تجاه غموض المستقبل، وأن يتخلص من كل غفلة تضيع عليه وقته ولحظاته، وأن يركز أشد التركيز على حالته الحاضرة، ولحظته الراهنة، فيستثمرها أنفع استثمار، ولا يضيع منها مثقال حبة من خردل، وأن يكون على حذر شديد من الغفلة، ويكون في أشد درجات محاسبة النفس على حال كل لحظة، فما مضى من لحظاته في حضور قلب يجب أن يشكر الله عليه، وما مضى من لحظاته في غفلة يجب أن يتوب إلى الله تعالى منه، أي: يداوم الاستغفار في حالة القبض، ويداوم الشكر في حالة البسط.

١٠. وقوف عددي: مراعاة عدد الذكر والانتباه إليه.

فالمرشد الكامل يعطي السالك مقداراً معيناً من الذكر بحسب حالته المعنوية، فللوصول إلى النتيجة المأمولة من الذكر هناك عدد محدد لا بد من تكراره، فهي بمثابة جرعة إذا ما جاز التعبير هنا، لهذا السبب ينبغي على السالك أن يراعي العدد الذي أعطاه إياه المرشد والمعياري الذي حدده كي لا يتشتت انتباهه، ويقع قلبه في الوسوس أثناء الذكر.

فمهما كانت نوعية الذكر مهمة، فإن عدم تحديد مقدار الذكر قد يتسبب في انعدام الحضور الذهني والقلبي أحياناً، وهذا الحال هو نتيجة للأخطاء التي تنشأ





من الإفراط في الذكر، كما هو الحال في الأمور الأخرى، لذا يجب السعي لأداء الذكر على أجمل صورة، مع مراعاة النوعية والكمية، وليس المقصود من مراعاة عدد الذكر هو الأرقام المجردة، بل هو التعمق في «الذكر القلبي» في إطار العدد، ومن الواضح أن كمية الذكر لا تقف عائقاً أمام نوعيته بل هي شرط يقوّي الذكر ويدعمه.

والحق أنه لا يمكن مراعاة عدد الذكر في كثير من الأوقات حين يكون الذهن مليئاً بأفكار مختلفة، والقلب بعيداً عن الطمأنينة نتيجة الهموم المتنوعة، لذلك فإن حماية العقل من التشُّت، والتركيز على المعنى الحقيقي للذكر، ومراعاة عدده، كل هذا يعني الجدّية في هذا العمل.

١١. وقوف قلبي: هو انشغال القلب دائماً بذكر الله سبحانه، أي هو الإحساس دائماً بشعور الإحسان، فالسالك يتفقد قلبه وينظر في حاله كل حين.

والغاية الأساسية من الذكر هي معرفة القلب الذاكر بالرب المذكور، إذ ليس الذكر مجرد تكرار ألفاظ لا تجاوز الفم إلى القلب، وإنما يجب على العبد أن يكون في حالة مراقبة أثناء الذكر، والسعي لتركيز انتباهه كله على مذكوره، وكان كبار المتصوفة يقولون إن الوقوف القلبي أي توجيه الانتباه إلى القلب هو شرط في الذكر، ولكي يتذوّق الإنسان المعنى الحقيقي للذكر يجب عليه أن يتوجه بكيانه كله - لا سيما القلب - إلى الله ﷻ. يقول المولى رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا»^{٤٩٧}





الصالحون الذين يملكون نفوسًا طاهرة، وقلوبًا نورانية،
ينفثون من روحهم في أرواح السالكين..



ث. المرشد الكامل وطرق الإرشاد

١. المرشد الكامل

المؤمن الذي يتدرج في طريق الروحانية ويرتقي، يجد الكثير من التجليات والفيوضات، فهو يبحر بقلبه في بحر لحي تتقلب عليه نواميس الكون، من الهدوء والسكون إلى العاصفة وجبال الأمواج، ومن بريق النجوم الهادية إلى برق الرعود الهادرة، وسفينة قلبه في ذلك البحر الهادر تحتاج إلى قبطان خبير وربان حصيف يقودها عبر الأهواء والأحوال إلى شاطئ النجاة، ويبلغ بها الضفة الأخرى وشاطئ الأمان، عابرًا بها بين العواصف والأمواج، متجاوزًا بها الأنواء والظلماء، وكل عوامل الإفناء في غياهب المحيط.

ومثل هذه التجليات والأمور لا تُرى في بداية الطريق، وتبدأ المظاهر التي لا تُعرف أرحمانية هي أم شيطانية تتراءى للسالك مع الدخول في عرض هذا المحيط، وتبدأ بعض الأحوال والتقلبات المعنوية التي تختلف من فردٍ لآخر مثل الانقباض والانبساط^{٤٩٨}، لذلك يحتاج السالك إلى هداية المرشد الكامل العارف من أجل تحديد هذه الأمور واتخاذ الاحتياطات اللازمة.

٤٩٨ الانقباض والانبساط: هما حالتان متضادتان عند السالك. والانقباض هو الضيق المعنوي نتيجة المشاعر المرعبة وما شابهها، أما الانبساط هو الانشراح المعنوي بالأمل.





والوصول إلى الطريق المستقيم يتطلب من المؤمن أن يضع نفسه تحت نظام تربوي محكم ومتكامل، وليس ثمة أكمل من سُنّة النبي المصطفى ﷺ في حياته العادية والروحانية، فليسَ كلُّ امرئ بحسب طاقته وقدرته في تحصيل القدر الأكبر من سُنّته ﷺ، والامثال لسيرته التي حوت كل المواقف والمصاعب والمغريات التي يمكن أن يواجهها مسلم في صبره وشكره وعسره ويسره، في تبسّمه للبلايا وتخطيه للرزايا وتعاليه على الدنيا وتواضعه للخلائق وتساميه عن النقائص وتفردّه بالخصائص.

وغيرها من الصفات النبوية التي تملأ دنيا المؤمن، والتي يقوم عليها ورثة الأنبياء من العلماء والعارفين والأولياء والمرشدين الكاملين، يتوارثونها كابراً عن كابر، ويورثونها للسالكين تدريباً وتعليماً ومجاهدة وفيضاً، فليحرص كل سالك على صحبة هؤلاء المرشدين الأولياء لتنعكس عليه الصفات والأخلاق النبوية كما ينعكس نور الشمس على الدنيا عبر القمر، وهؤلاء المرشدون هم الأقمار التي تعكس الأنوار النبوية على القلوب البشرية.

وقد خلق الله تعالى الإنسان على فطرة الإسلام، ومهمة التصوف هي الانطلاق من هذه القاعدة الفطرية نحو المعالي، واستثمار الإمكانيات المتاحة لدى المسلم مهما كانت درجة الاستعداد قليلة أو كثيرة، وما على أهل الطريق الصوفي سوى تنمية هذه الاستعدادات، ورعاية هذه البذرة في أرضها، فكأن هذه الفطرة وما فيها من استعداد معدن مدفون في أعماق الأرض، فعلى قدر الجهد الذي يبذله المنقبون في استخراجها تأتي النتائج، وعلى قدر المسبار الذي يغوص في أعماق الأرض بحثاً عن النفط، يتدفق هذا النفط جودة وغزارة.

والمرشد الكامل هو الذي يُخرج هذه الجوهرة إلى الوجود عبر استخدامه المسبار المعنوي للارتقاء بهذه الفطرة وتنمية استعداداتها، ولكن من الضروري أن يتعمق هذا المسبار إلى أن يصل إلى تلك المنطقة التي تحتوي على النفط





كي يخرج إلى الأعلى، ومن الضروري أن يكون المسبار قويًا لكي لا يتحطم إذا اصطدم بصخرة كبيرة، وهذا يعني أنه من المهم جدًا أن يكون المرشد الكامل الذي يخضع المرء لتوجيهاته المعنوية مقتدرًا وعارفاً، وثمة بعض المعايير المحددة لهذا الأمر، ونريد هنا أن نقدم لمحةً عن هذه المسألة المهمة بما أننا ذكرناها هنا:

حيث إنه يمكن معرفة المرشد الكامل الحقيقي عبر هذه الصفات الثلاثة الآتية:

الصفة الأولى: الاتباع التام للكتاب والسنة

فحياة المرشد الكامل هي العيش بالقرآن، وعلى القرآن، وللقرآن، وهي تطبيق عملي لمعنى التأسى بالنبي ﷺ واتباعه ومحبته، لأن المرشدين هم «ورثة الأنبياء»، بمعنى أنهم هم المؤتمنون على استمرار النبوة برسالتها وأخلاقيها وأهدافها بين الناس إلى يوم الدين، فكل أفعالهم وأقوالهم وأعمالهم وخطواتهم دليل في طريق الله، دليل لا يصيبه زيغ، و طريق لا تقرب منه غفلة، ولا يدنو من هذه الرابطة المعنوية بين المرشدين والسالكين شيء من الحياة النفسانية؛ بل هي فيوضات روحانية نورانية.

الصفة الثانية: تذكيرهم بالله تعالى من خلال أقوالهم وأحوالهم

حيث نجد أن أولياء الله تعالى من عباده يذكرون من حولهم بالله تعالى دائماً كل حين، لأنهم يتعرضون لتجليات أسماء الله الكامل، وتنعكس الصفات الجمالية على أخلاقهم، قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال:

«خياركم الذين الذين إذا رُؤُوا، ذُكر الله تعالى»^{٤٩٩}





وهؤلاء الأولياء من المرشدين الكاملين لا يحتاج مَنْ صَحِبَهُمْ ولا مَنْ رَأَاهُمْ إلى طول الصلابة، ولا إلى درس وموعظة وخطبة، إنما التأثير بهم يتأتى بمجرد النظر إليهم؛ بل أكثر من ذلك، بمجرد الوجود في محيط معيتهم، كأنهم المادة المشعة التي لا تتوقف عن إرسال إشعاعاتها فيما حولها مخترقة كل الحواجز؛ دون إجراء أي معادلات كيميائية أو فيزيائية، فقد تشبعوا بإشعاعاتهم تلك من نور الله تعالى ومن معية رسول الله ﷺ، ففاضت فيوضاتهم على مَنْ حولهم دون أن ينبسوا ببنت شفة.

فقد تخلق أولياء الله بأخلاق الله تعالى واقتبسوا من نوره سبحانه، فجعل الله تعالى لهم نصيباً من أسمائه وصفاته:

فاسمًا «الرحمن» و«الرحيم» هما من أكثر أسماء الله المعروفة، وقد رزق الله تعالى أولياء نصيباً من هذين الاسمين حتى صاروا على درجة عالية من الرحمة. والحق جلَّ جلاله «ستار العيوب»، وولي الله لا يبحث عن العيوب بل يسترها.

والمولى ﷺ «كريم»، وأولياء الله هم أيضاً كرماء ويتلذذون حين يكرمون الناس.

والله ﷻ «غفور»، والأولياء أيضاً يغفرون الأخطاء والنواقص.

والخالق جلَّ في علاه «حليم»، وأولياء الله هم أصحاب الحلم.

لذا فهم يختلفون عن الناس اختلافاً كثيراً، فقلوبهم لله أخشع، وعبادتهم لله أخضع، وأعمالهم لله أطوع، ودعاؤهم لله أسمع، ومقامهم عند الله أرفع.

وهؤلاء هم الذين ساروا على خطى الحبيب ﷺ فكان لهم نصيب من أخلاقه ونوره، فهم يحملونها إلى كل مكان يحلون فيه، فينشرون فيه أريج النبوة ونورها، بعد أن صارت صدورهم فواحاً بهذا الأريج، وصارت قلوبهم مرآة لهذا النور.





على عكس صحبة أهل المعاصي، فلهم ثقل معنوي ينوء به كاهل من يصحبهم من المؤمنين الصادقين، وسرعان ما يشعرون بوطأة هذا الصحبة الفاسقة، بينما تجد روحه السكينة والطمأنينة في كنف الظلال النبوية.

إنه لضرب من اللذة المعنوية لا يبلغها الخيال في صحبة المؤمن للنبي ﷺ نفسه؛ حين تكون في معيته وجواره وتحت ناظريه وبين يديه، ويتوجه خطابه الكريم إليك، إنها الجنة بعينها.

ومن أراد القرب من هذه المنزلة فعليه بالمرشد الكامل، صحبة ومعية وجواراً والتزاماً ومحبة، فالمرشد الكامل هو ذلك الإنسان الذي جعل من النبي ﷺ قدوته وأسوته وقائده في كل أفعاله وخطواته وخلجاته، وحتى في أنفاسه، فورث من علمه وأخلاقه، وصار مرآة لنوره وروضة لروحانيته، وانعكاساً لهيئته، ومصدرًا لفيوضاته.

ومن المرشدين يتحمل قلبه ذلك الفيض النبوي، إن هول المفاجأة التي تصطدم بها روح المريد عند بدايته مع المرشد الكامل، هي كالصعقة الكهربائية الشديدة من تيار كهربائي نوراني متدفق، يزلزل كيانه، ثم يحمله روحاً مرفرفة، وقلباً غائصاً في الآفاق المعنوية.

الصفة الثالثة: التعيين المعنوي

فلا يكفي اجتماع مجموعة من الأشخاص لتعيين مرشد؛ لأن هذه الوظيفة يعيّنُها ويحددها مرشد كامل مجاز من تلك السلسلة الصحيحة الموصولة بالنبي ﷺ، فإذا لم يوجد مثل هذا التعيين فإن السلسلة تنقطع هنالك، لهذا السبب حين لا يجد المرشدون الكاملون شخصاً صالحاً كي يخلفهم، لا يستطيعون تعيين من يكمل طريقهم، وقد يكون المعين أحياناً شخصاً واحداً فقط، وأحياناً أخرى مجموعة من الأشخاص كما كان الحال مع الشيخ خالد البغدادي حين ترك الكثير من المرشدين خلفه، وهي حكمة لا يعلمها إلا الله تعالى.





والخلاصة أن هناك مجاهدات وممارسات يمر بها القلب وتجتازها الروح كي يصل العبد إلى حالة من الصفاء يستحق بها تلقي الفيوضات، ويستقبل بها الحقائق المعنوية بعد نضوج قلبه، هذا النضوج القلبي -عبر تلك الممارسات- يقتضي سلوك الطرق الموصلة إلى الكمال المعنوي، ومعرفة شروط هذه الطرق ومقتضياتها ليطبقها بدقة.

وفي هذا الطريق الوعر يحتاج السالك إلى مرشد كامل من أولياء الله، يكون له دليلاً ونبراساً وزاداً ومرشداً عبر الطريق؛ هؤلاء المرشدون لا يبلغون هذه الدرجة إلا بالصفات الثلاثة المذكورة فيما سبق.



بعض التنبيهات المهمة:

بما أن المرشد الكامل يملك خصائص قد أبرزناها آنفاً، وهو عبد لله ﷻ مختارٌ ليس كغيره، فيجب التأدب معه، وإظهار الاحترام له، والاستفادة من روحانيته، لكن يجب ألا يُخرج هذا الأدب والاحترام والاستفادة المرء عن الحدود الموضوععة ليقع بين سندان الإفراط ومطرقة التفريط؛ لأن الأنبياء والصالحين كلهم عبادٌ لله تعالى أولاً وآخراً، فهم قد نالوا حظاً وفيراً من بحر العلم والحكمة والمعرفة بالقدر الذي حدده الله لهم، وقد يأتي زمان تُفتح أمام أعينهم وقلوبهم أسرار العالمين، وقد يأتي زمان لا يبصرون شيئاً أمامهم.

ويقول الشيخ سعدي في كتابه «غولستان»:

سأل أحدهم سيدنا يعقوب عليه السلام:

«يا مَنْ تملك قلباً نورانياً، يا أيها النبي العاقل! لقد وجدت ريح يوسف في ثوبه الذي أتوك به من مصر، لكن لماذا لم تر ابنك حين ألقى وحيداً في البئر القريبة منك؟»

فأجابه سيدنا يعقوب عليه السلام:





«إن النصيب الذي نلناه من الله تعالى في هذا الأمر هو كالبرق الذي يومض، لهذا السبب تظهر لنا الحقائق واضحة أحياناً، وتغيب عنا أحياناً أخرى».

وحين سُئل النبي ﷺ يوماً عن الروح وما كان يدري الجواب، قال للسائل وهو على يقين أن الوحي سيأتيه، لكنه لم يتلفظ بكلمة «إن شاء الله»: «غداً أجيبك!»
بيد أن الوحي لم يأت في اليوم التالي وغاب عنه خمسة عشر يوماً، وبقي هذا المخلوق النوراني الذي أُرسل رحمة للعالمين محجوباً عن الإجابة، وفي النهاية نزلت عليه الآية الآتية عبر الوحي تنبيهاً له وللناس:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ٥٠٠١

وبعد معرفة أن هذا المعيار يُطبّق حتى على رسول الله ﷺ، فمن اللازم إدراك أن محتواه يشمل العباد جميعاً دون استثناء. ومن هذا المنطلق لا يمكن القول إن دعاء عبدٍ يحبه الله تعالى سيُقبل حتماً، أو سيُشفى المريض الذي يقرأ عليه؛ لأن الأساس هو توافق إخلاص الطرفين مع الإرادة الإلهية، إذ لا بدُّ أن نضع في الحسبان أن الأدعية جميعها والالتجاء إلى الله تعالى قد لا تُقبل، فلا تتحقق في هذه الدنيا مباشرة، بل تتجلى فيما بعد، أي في الآخرة؛ لأنها مرتبطة بإرادة الله تعالى وحكمته.

ولنا أن نذكر أمراً آخر لا يقل أهمية وهو أن لكل نبي وولي طبيعة وسلوكاً يختلف بهما عن غيره، لهذا قد لا تجد صفة بارزة في أحدهم موجودة في المستوى نفسه لدى الآخر، فمن الخطأ إذا توقع تشابه الطبيعة والسلوك فيهم جميعاً.

فالقرآن الكريم يُعلّمنا أن سيدنا موسى ﷺ قد أُعطي علماً لم يكن لدى سيدنا الخضر، وأن سيدنا الخضر ﷺ قد أُعطي علماً لم يكن لدى موسى ﷺ،

٥٠٠ الكهف: ٢٣-٢٤.

٥٠١ انظر: ابن كثير، ٣، ٨٣؛ الألوسي، ١٥، ٢٤٧.





وكما أن الشيخ الجيلاني لم يكن مثل مولانا الرومي كذلك لم يكن مولانا مثل شيخنا الجيلاني، وذلك بسبب اختلاف ما وُهب كل منهما، وما يُطلب منهما من خدمات، لكن لا شك أن الغاية الأساسية لهم جميعاً هي العبودية والمعرفة؛ لأن الطرق المؤدية إلى مرضاة المولى ﷺ كثيرة كثرة أنفاس المخلوقات.

ولابد أن نذكر إحدى الحقائق وهي أن العباد كلهم باستثناء الأنبياء لا يأمنون مكر الله تعالى، أي إن العبد حتى لو صعد إلى قمة القمم، يبقى معرضاً لخطر انزلاق قدمه وسقوطه، وأفضل مثال على هذا هو بلعام بن باعوراء الذي كان صالحاً في وقت من الأوقات، لكنه اتبع هوى نفسه فيما بعد، ووقع في الخسران الأبدي، ويخبرنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^{٥٠٢}

وقصة قارون التي وردت في سورة القصص قريبة من قصة باعوراء، فقد كان قارون صالحاً في غاية الصلاح لا يشابهه أحد، لكنه خسر سعادته الأبدية بأن صار غافلاً سيئاً وعاصياً حقيراً، وقد جعله المولى ﷺ في أسفل سافلين مع ثروته التي كان يعتمد عليها ويسند ظهره إليها متفاخراً، ولهذا السبب، مهما كان العبد في مقام معنوي أو مرتبة عالية، فإن نفسه التي بين جنبيه دائماً تنصب له الكمائن، وتنتظر الفرصة المناسبة كي توقع قلبه في الخسران، ولذلك كله كان سيدنا محمد ﷺ يلتجئ إلى ربه تعالى قائلاً:





«اللَّهُمَّ رَحِمَتِكَ أَرْجُو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت»^{٥٠٣}

ويحيا أولياء الله تعالى دائماً حياتهم ضمن إطار هذا الحديث الشريف، فلا ينخدعون أبداً بقول بعضهم: «وصلنا إلى التمام في كل أمر»؛ لأن مَنْ يتوهم مثل هذه الأوهام حتى لو أنهى السير والسلوك، يبقى في منتصف الطريق، أما الذين يقولون: «لم أصل إلى التمام بعد» ويدركون عيوبهم ونقصانهم، ويكونون في حالة عجز والتجاء، فأولئك يستمرون في طريق الروحانية.

ومع أن سيدنا محمداً ﷺ - وهو خير الأنبياء - قد وصل إلى درجة من العبودية لا تُقارن مع أحد من خلق الله، فقد كان يُحيي الليالي حتى تتورم قدماءه ولم يترك ذلك أبداً، وحين سأله السيدة عائشة ؓ عن سبب هذا، أجابها:

«أفلا أكون عبداً شكوراً»^{٥٠٤}

ووفقاً لرواية زوجاته الطاهرات كان الرسول الكريم ﷺ ينشغل بالحمد والثناء أكثر حيناً بعد حين بعد أن نزلت عليه آية:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾^{٥٠٥}

وعلى هذا الأساس لا يمكن أبداً لأي عبد من العباد أن يتخلص من مسؤولية العبودية، أو أن يُرفع عنه بعض التكليف، أو يُعفى منها، مهما كانت الدرجة التي وصل إليها في طريقه للوصول إلى الحق تعالى، أي إن الفروض والواجبات والسُنن والحلال والحرام والمباح وجميع القوانين والتكاليف الإلهية ستبقى ملقاةً على كاهل الذي يمشي في طريق العبودية، ولن تُرفع عنه إلى أن يلقي

٥٠٣ أبو داود، الأدب، ١٠٠-١٠١ / ٥٠٩٠.

٥٠٤ مسلم، المنافقون، ٧٩/٢٨١٩.

٥٠٥ النصر: ٣.





الموت. ولهذا السبب يسعى المرشد الحقيقي لكي يعيش عمره كاملاً وهو يتبع أمر الله تعالى الذي يقول:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^{٥٠٦}

ومثل هؤلاء المرشدين في طريق الروحانية لا يطلبون أي طلب ولو كان صغيراً مقابل ما يقدمونه من خدمات لأمة الإسلام، وحتى إنهم لا ينتظرون شيئاً مقابل عبوديتهم لربهم جل وعلا، إذ إنهم يعلمون أن من ينتظر شيئاً مقابل العمل الصالح، فسيُنقص من قيمة عمله ودرجته، ومن هذا المنطلق أعطى سيدنا علي وسيدتنا فاطمة عليهما السلام الطعام للمسكين الذي أتاهم وقت الإفطار في اليوم الأول وهما صائمان، ولليتم في اليوم الثاني، وللأسير في اليوم الثالث، واكتفيا بالإفطار على الماء لثلاثة أيام متتالية، وكان رُدُّهما على شكر الفقير لهما:

﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^{٥٠٧}

والخلاصة أن المرشد الحقيقي هو ذروة العالم الروحاني الذي يكمل مهمة التربية والتزكية التي كُلِّف بها الأنبياء، لكونه شخصية مثالية، وفي الوقت ذاته، وصل أولياء الله هؤلاء إلى درجة الإحسان في إيمانهم فعرفوا الله تعالى وصفاته السامية، ولهذا وهبهم الله سبحانه العلم من لدنه والحكمة والمعرفة وسائر النعم الأخرى، بيد أنه لم يصل أحدهم إلى الدرجة التي وصل إليها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وبالطبع لم يصل الصحابة إلى مرتبة الأنبياء، والأنبياء أنفسهم لم يصلوا إلى مقام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين نتكلم عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نجد أنه هو أيضاً مجرد عبد لله ورسوله.

وبناءً على هذه الحقيقة يجب الحذر من تقدير الناس زيادة عن الحد، وينبغي

٥٠٦ الحجر: ٩٨-٩٩.

٥٠٧ الإنسان: ٩. انظر: الواحدي، ص ٤٧٠؛ الزمخشري، ج ٤، ١٩١-١٩٢.





معاملتهم على حسب الحالة التي هم عليها، فأويس القرني وحتى الإمام الأعظم أبو حنيفة الذي جمع الحقوق في الإسلام لا يمكن أن يصل إلى درجة الصحابة الكرام، وثمة بعض الغافلين أحياناً يقدِّرون بعض شيوخهم أكثر من الصحابة رضوان الله عليهم، وحتى أكثر من رسول الله ﷺ، ويُظهرون الاحترام والولاء -كما يظنون- وهم في الحقيقة بفعلهم هذا لم يرتكبوا خطأ فحسب، بل وقعوا في الضلالة، وهذه الضلالة إفراط غريب لا يناقض إرادة المولى ﷺ فحسب بل يُبعد المرء عن الحقيقة أيضاً، لهذا السبب كان رسول الله ﷺ يمنع المدح والثناء دون سبب جائز؛ لأنه كان قلقاً من الوقوع في حالات الضلالة هذه، وإذا ما كان المدح يقوِّي النفسانية في العبد، كان يقول عليه الصلاة والسلام:

«إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب»^{٥٠٨}

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي ﷺ، فقال:

«ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك» مراراً

ثم قال:

«مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مُحَالَةَ، فَلْيَقِلْ أَحْسَبْ فَلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيْبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسَبَهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»^{٥٠٩}

وعن أبي موسى ﷺ، قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يُثني على رجل ويُطريه في مدحه، فقال:

«أهلكتم -أو قطعتم- ظهر الرجل»^{٥١٠}

٥٠٨ مسلم، الزهد، ٦٩/٣٠٠٢؛ أبو داود، الأدب، ١٠/٤٨٠٤؛ أحمد، مسند، ٦، ٥/٥٦٤٨.

٥٠٩ البخاري، الشهادات، ١٦/٢٦٦٢.

٥١٠ البخاري، الشهادات، ١٧/٢٦٦٣.





أي إنكم حمَلْتُم الرجل ذنوبًا لا قِبَل له بها؛ لأن هذا الشخص قد يصيبه العُجب والكبر بعد مدح الناس له مدحًا يزيد عن حدّه، ثم ينجُرُّ إلى طريق المتكبرين، ويحمِل على ظهره ذنوبًا تُنهكه وتقضي عليه.
فالمدائح التي تثير النفسانية ما هي إلا توقعات على هلاك القلب.





دنيا المخلوقات جوهرها المحبة وكنهها الرابطة، ولأن
الرابطة هي إحدى مظاهر المحبة، فإن استمرار الرابطة
هو ديمومة لحيوية المحبة في قلوب الخلق.



٢. طرائق الإرشاد

أ. المحبة - الرابطة

إن جوهر التصوف وغايته ودافعه لا يخرج عن المحبة والأدب والرابطة،
فالحافز الأساسي الذي يدفع إلى السير في الطريق والسلوك فيه هو «المحبة»،
والهدف الذي يبتغيه السالك هو «الأدب»، والزاد والواسطة والمطية هي
«الرابطة»؛ إذًا فالمحبة والرابطة في التصوف هي رأس الأمر وعموده، وتعجز
الكلمات أن تصف أهميتهما.

أما المحبة فهي بمثابة الجاذبية المغناطيسية التي تجمع فتات الذرات،
فتجعل منها الجبال، ولو انفرط عقد هذه الجاذبية لانهارت وصارت هباءً منثورًا،
وكلما اشتدت محبتك لشخص ما فإنها تشمل بظلالها كل ما يمس هذا الشخص
ويرتبط به من أهل وأصدقاء؛ بل كل ما ينتمي إليه من جمادات وأشياء، كذلك كل
ما يتصف به من آداب وأخلاق، وكل ما يشبهه من صفات وأشباه ولمحات، وكل
ما يذكر به من خطرات ونفحات، هذه المحبة إذا وجدت في قلب المريد لشيخه،
فسوف تمد هذه المحبة ظلالها على أقارب الشيخ والمتممين إليه والمتصفين
بصفاته، والمشابهين له في سلوكه وحركاته؛ بل إن هذا المريد يزداد سعادة وهناءً؛
إذ ما امتلك شيئًا من حاجيات وأشياء شيخه، ويذكرنا ذلك بالشعور الذي شعر به
سيدنا أويس القرني عليه السلام حين تلقى خرقه النبي ﷺ التي أرسلت إليه.^{٥١١}





وكلما ازدادت هذه المحبة ازدادت «النسبة» إلى المحبوب، والانتماء إليه؛ حتى تصبح شاملة مستغرقة جامعة مانعة.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن مصطلحين صوفيين هما: «العشق المطلق»^{٥١٢} و«العشق المجازي».

أما «العشق المطلق» فهو المحبة التي تشمل الجميع، وهو كالدائرة التي يقع المحبوب في مركزها، وتتسع إلى ما لانهاية لتحتوي جميع من حول المركز سواء كان قريباً أم بعيداً، وهذا ما وصفه يونس أمره في بيتٍ من الشعر يقول فيه:

أيها الإنسان تسامح مع المخلوق ليس من أجله بل من أجل الخالق

وهذا يعني احتضان جميع مخلوقات الله تعالى بالمحبة والرحمة مهما كانت صفاتها وماهيتها وأعمالها احتراماً وتبجيلاً للخالق ﷻ، وهذه آخر المراحل التي قد يصل إليها العاشق، وأما الأحوال التي يكون فيها قبل وصوله -تدرجياً- إلى هذه المرحلة فتسمى بـ«العشق المجازي».

ويبدأ هذا «العشق المجازي» حين يرتبط السالك بمرشده بالمحبة والعشق، وهو عشق «مجازي»؛ لأن القلب المخصوص لله تعالى لن يجد معشوقاً حقيقياً غيره ﷻ، أما المحبوبون الآخرون والأحوال التي يعيشها العبد فهي بمثابة درجات سلم الصعود إلى القصر، وهي في حكم تحضير القلب لمحبة الله جلّ وعلا، وهي السعي للانتقال من «ليلى» إلى «المولى» إذا جاز التعبير هنا، وأفضل المراحل في هذا السعي وأكثرها فيوضات هي حين اللقاء بالمرشد الكامل الحقيقي، والشعور بالارتياح المعنوي في محبته والأنس به، وأحسن تجلياته هي الرابطة، والرابطة هي الوصول إلى أشد درجات المحبة التي لا تُقاس بغيرها من العلاقات البسيطة العادية.

٥١٢ بين القرآن الكريم للمؤمنين في الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) ضرورة أن تكون محبة الله في أقصى درجة ممكنة، وهذه الدرجة من المحبة هي ما نطلق عليه اسم «العشق الإلهي».





والمعنى اللغوي للرابطة هو العلاقة والتجمع والتوحد والارتباط، وعلى ذلك فإن جميع الكائنات في الوجود لها رابطة، فجميع المخلوقات مرتبطة ببعضها البعض، ليس فقط رباطاً عضوياً فيزيائياً أو بيولوجياً، إنما هو رباط قلبي شعوري، نستطيع أن نمثلها بالرابطة الموجودة لدى الحيوان تجاه صغيره، والوالدين تجاه أولادهم، والأولاد تجاه والديهم، والشباب تجاه خطيبته، والمرء تجاه مَنْ يتَّخذُه قدوة لنفسه، ولولا الرابطة لما وُجدت الحياة في المجتمع، ولما كابدت الأمهات صعوبة تربية الصغار، ولانقطعت في النهاية السلسلة التي تربط الأحياء بعضها ببعض، وإذا كانت هناك رابطة محبة طبيعية في مثل هذه الأمور الدنيوية الفانية، أفلا تكون هناك رابطة في العالم الروحاني؟

وللرابطة ثلاثة أنواع هي:

١. الرابطة الطبيعية: وهي المحبة التي يشعر بها الفرد تجاه من حوله، وهي من آثار الدوافع الفطرية مثل محبة الأم لأولادها.

٢. الرابطة السفلية: وهي الارتباط بالميل الشيطانية الممنوعة، مثل انشغال قلب المقامر دائماً بالقمار وغفلته واجباته حتى عن عائلته وأهله.

٣. الرابطة العلوية: وهي الارتباط بالمفاهيم المقدسة والوسائل التي تحمل الإنسان -عبر المشاعر السامية- إلى الله ﷻ، ولكي يستفيد المرء قلبياً من روحانية الذين وصلوا إلى مقام التجلية والمشاهدة، فلا بُدَّ له أن يكون فعلياً أو معنوياً في أكنافهم وتحت أنظارهم.

هذا النوع الثالث من الرابطة هو المقصود في العلاقة بين المريد ومرشده الكامل؛ إذ يجب على المريد أن يَمَكِّن قلبه من محبة شيخه ومرشده، كي يكون أهلاً لإرشاد الشيخ، والتدرج على يديه، والارتقاء بواسطته، ونيل الفيوضات منه.





ولعل المثال الأشهر على هذه الرابطة العلوية، هو تلك المحبة التي كانت في قلوب الصحابة الكرام عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأبرز هؤلاء في محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وبفضل الارتباط القلبي بين الصحابة ورسول الله نتج الانعكاس والانصباع في أرواحهم عن طريق انتقال أحوال النبي إلى الصحابة، ولهذا السبب استطاع الصحابة الكرام أن ينالوا لذة كبيرة من قولهم للنبي بكل إخلاص وود: «فذاك أبي وأمي يا رسول الله!»، فحين افتدوا كل شيء في سبيل الله ورسوله، عرفوا الشكر والمنة في قلوبهم، ولأنهم فهموا معنى الحديث الشريف «المرء مع من أحب»^{٥١٣} وعملوا بمحتواه، صاروا في معية النبي حالاً وعملاً وإحساساً وفكراً.

ويشير سيدنا الحسن سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهمية موقع الرابطة في التكامل المعنوي:

فقد وصف سيدنا الحسن رضي الله عنه حالته الروحية التي كان فيها حين سأل خاله هند بن أبي هالة عن حلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

«سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافاً عن حلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً»^{٥١٤}

إن كلام سيدنا الحسن رضي الله عنه يدل بالفعل على الرابطة؛ لأن الاستماع إلى وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أفضل الوسائل لتأسيس رابطة قلبية معه، وهذا يعني أن الرابطة التي هي من أصول التصوف مأخوذة من تطبيق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لذلك.

٥١٣ البخاري، الأدب، ٩٦ / ٦١٦٨.

٥١٤ الترمذي، الشمائل، ٨، ٢٧٣ / ١٤٠٢٦.





الرابطة محبة

إن الرابطة التي تُعدُّ إحدى طرائق التربية الصوفية هي مظهر من مظاهر المحبة التي تُكوّن جوهر المخلوق، وهي التي تحافظ على نضج المحبة وحيويتها وتختلف أسماء الرابطة وطرق ممارستها من طريقة صوفية إلى أخرى، لكن المريد عمومًا يستحضر صورة مرشده أمام عينيه، ويتذكّر حاله وسلوكه، ليصير مع حال مرشده من خلال المشاعر السامية الراقية، وبمعنى آخر، يسعى المريد لتقليد مرشده في أعماله الصالحة وأحواله الرائعة عبر المحافظة على المحبة التي يشعر بها تجاه مرشده في قلبه دائمًا وأبدًا. إن المحافظة على نضج هذه المحبة والاحترام والتبجيل للمرشد دائمًا على هذا النحو، يُكسب المريد حيوية معنوية.

لقد أوضحنا من قبل مدى التأثير الذي تحدثه صحبة الصالحين، فما بالنا بالتأثير الذي تُحدثه محبتهم.

والمحبة هي إحدى أزواد السفر، وإحدى مطايا الطريق؛ بل هي الدافع الأهم في السلوك، فمحبة المريد لشيخه ومرشده تدفعه لتقليده، والتشبه به، والسير على مناهجه، ومن ثم الترقى في طريق الروحانية، واكتساب الحالة المعنوية من المرشد وانعكاسها على المريد.

بيد أن التجاوز في مقدار المحبة التي تُعدُّ أساس الرابطة، تجرُّ المرء إلى الإفراط؛ لهذا السبب، ليست الرابطة تجاوز الحدود في السلوك لدرجة إضافة الألوهية إلى المرشد المُتَّبِع، وليحفظنا الله من هذا، فمثل هذه المحبة تُوقع العبد في مصيدة الشرك؛ لأن المرشد ما هو إلا «واسطة» بالنسبة إلى المريد، وإيصال الواسطة بالمحبة الزائدة إلى مرتبة «الغاية» هو خطأ ما بعده خطأ، وحالات الإفراط هذه تخالف روح التصوف، فالكشوفات والكرامات والتوفيق والأحوال الروحانية جميعها من إحسان المولى ﷻ للعبد.





يقول الشيخ إبراهيم الدسوقي:

«يا أولادي لا تصحبوا غير شيخكم، واصبروا على جفاه فإنه ربما امتحنكم ليريد بكم الخير، وأن تكونوا محلاً لأسراره، ومطلعاً لأنواره؛ ليرقيكم بذلك إلى معرفة الله ﷻ، فَمَنْ أَشْغَلَ قَلْبَهُ بِمَحَبَّةِ شَيْخِهِ رَقَاهُ اللَّهُ ﷻ، ولولا أَنَّ الشَّيْخَ سَلَّمَ لَتَرَقَّى الْمُرِيدِينَ لَمَقَّتْ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ قَلْبٍ وَجَدَ فِيهِ مَحَبَّةَ لِسَوَاهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَيُورٌ»^{٥١٥}

والآية الكريمة تقول:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^{٥١٦}

ويجب ألا ننسى أن كل عبد سوى الأنبياء عاجزٌ وناقص، وحتى الأنبياء أنفسهم قد يقعون في زلات بسبب طبيعتهم البشرية، لكنهم يُوجَّهون إلى الطريق الصحيح بسبب تلقِّيهم التأييد الإلهي، ومهما كان من الضروري إظهار المحبة والاحترام والتبجيل لكبار أهل التصوف والروحانية، فمن الضروري الحذر غاية الحذر كي يصون العبد نفسه من المبالغة في تعظيمهم من خلال مراعاته للحدود الشرعية.

وحين توفيَّ الصحابي عثمان بن مظعون وقد كان مشهوراً بزهده وعبادته في المدينة، قالت أم العلاء ﷺ:

«رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله»،

فقال رسول الله ﷺ:

«وما يدريك»،

قلت: «لا أدري والله»، قال ﷺ:

٥١٥ الطبقات الكبرى، لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، مصر، ١٣١٥، ١، ١٥١.

٥١٦ الرعد: ٢٨.





«أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ولا بكم»
 قالت أم العلاء عليها السلام: «فوالله لا أُرَكِّي أحدًا بعده»^{٥١٧}
 لأن الله وَعَلَّمَ هو الوحيد الذي يعلم الغيب.

الرابعة تحافظ على الحال

الإنسان مخلوقٌ معقد التركيب، شديدُ التقلب والتأثر بما حوله، لذا فإن «أحوال» الإنسان مثل جسده الضعيف، سريعة التأثير سلبًا بالأمراض والأحوال المعدية، وإيجابًا بأحوال الصالحين إذا توفر لها شرط الصحبة والمحبة، وعلى قدر تحقق المحبة يزداد التأثير بالحال.

ويستطيع الأفراد ذوو الخلق الراسخ والشخصية القوية أن يؤثروا بأخلاقهم وسلوكهم فيمن حولهم، فما بالنا بالأولياء والصالحين من المرشدين الكاملين، ويمكننا أن نطلق على هذا التأثير والتأثير اسم «التبادل الروحاني»، هذا التبادل يتم عبر قناتي المحبة والرابعة، فهما الطريق الأسرع والأبلغ إلى الغاية المرجوة في طريق الله تعالى.

ومن العجيب والمؤسف أن ترى المسلم العاقل منزعًا إذا أصاب ملايسه شيءٌ من الأقدار الحسية التي تشوه منظرها وتذهب بجمالها، بينما تراه غير آبه لما أصاب قلبه من الأدناس المعنوية التي تذهب بطهارته وصفائه، وما ذلك إلا لغفلته وتخدير مشاعره، وتغيب حواسه التي استحوذ عليها الشيطان فحجبها بالوساوس. وعلى المؤمن أن يكون كيِّسًا فطنًا، فيحفظ قلبه منتهيًا واعيًا، ويغلق دونه أبواب النزغات الشيطانية، ويوقف انحداره في هوة الخسائر وتضييع الفرص والأوقات؛ ليدرك الطريق الصحيح نحو السعادة الأبدية.





وئمة مصطلح في أصول التربية النفسية يُدعى «انتقال الشخصية»، ويدخل في معناه التأثيرات الإيجابية والسلبية التي تتلقاها الشخصية وتختارها أسوة لها، ومن رحمة الله سبحانه لنا أن حدد لنا الاختيار الصحيح، وترك لنا حرية اتباعه، فقال في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٥١٨}

وعندما تمعن النظر والتأمل في بلاغة الأمر القرآني ودلالاته، تجد الحق تبارك وتعالى لم يأمر المؤمنين بأن «كونوا صادقين» في إيمانهم حتى يحافظوا على تقواهم ودرجة الإيمان التي وصلوا إليها؛ بل كان الأمر الإلهي بأن «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» فوجههم إلى بداية الطريق، وأول السلم الصاعد إلى مراتب الصدق والصادقين والصديقين، وهو صحبة الصادقين ومحبتهم، والأنس بهم، واقتفاء آثارهم، والسير على منهاجهم والحياة على منوالهم، لتكون النتيجة الطبيعية لذلك هي وصول المؤمن إلى درجة الصدق ومرتبة الصادقين.

وقد ورد في المثل المشهور حول تأثير الصحبة، وهو يقول: «مَنْ عَاشَرَ الْقَوْمَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا صَارَ مِنْهُمْ»، وليس أنفع ولا أنجع ولا أروع للمسلم من صحبة هؤلاء الصالحين والأولياء والمرشدين الكاملين، وإلا، وجدت على الجانب الآخر صحبة الفارغين والضائعين والغافلين؛ لأن الطبيعة البشرية تبحث دائماً عمّن تصاحبه، وتعيش في كنفه، وعن جماعة ترتبط بها، وتحيا في ظلالها، وهو ما عبر عنه المثل القائل: «الطبيعة لا تعرف الفراغ».

وهناك منطق آخر يفكر به الرافضون لمنهج الصحبة، المتعالون على اتباع الصالحين، المهووسون بهوى النفس، والمسحورون بأسطورة العقل البشري، الذين ضاق أفقهم فلم يبصروا ولم يدركوا سوى ما تمليه عليهم حواسهم





القاصرة، وعلومهم الوضعية المحدودة، هؤلاء يقولون: لا حاجة لنا للعباد الصادقين، فالقرآن يكفي، ولدينا العقل الذي نعرف به معاني القرآن ونفسره.

ونسى هؤلاء أن القلب هو الذي يستطيع معرفة معاني القرآن، وأن فيوضات الصالحين هي التي تنير لهم حقائق القرآن، وأن العلوم الوضعية تقيس الظواهر، ولا تعرف البواطن، وليس كل شيء يمكن إخضاعه للبحث والتجربة والاختبار المادي، ولا حتى للتفكير العقلي أو المنطق العلمي، فعقل الإنسان محدود، وحواسه قاصرة، وعمره محدود، وعليه أن يستفيد من تراكُم الخبرات التي سبقته، والتي استغرقت دهوراً طويلة، وتجارب مديدة، وعقولاً وقلوباً لا حصر لها.

إنَّ صحبة الصالحين والصادقين في عملية تهذيب النفس هي كالإشعاعات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، لكن تأثيرها لا يخفى على أحد، فالجلوس في جوار الصالحين، ومراقبة أحوالهم وسلوكهم، وحتى النظر إلى وجوههم النورانية يُذكر الإنسان بالله تعالى، وتكون وسيلةً للاغتراف من أخلاقهم الحميدة، لذا، يُعدُّ الوجود في حضرة كبار أهل الدين والروحانية نعمة كبيرة للعبد؛ لأن الأحوال - كما ذكرنا - تنتقل من شخص لآخر، فكما تعلق رائحة الورود في لباس المرء حين يتجول في حديقة مليئة بالزهور، كذلك الحال في مجالس الصالحين إذ تصير هذه المجالس كالأسواق تنعكس وتتبادل فيها الحالات المعنوية الروحانية.

ويقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«إن الأمر الذي جاء حين قال الله تعالى ﴿كُونُوا مَعَ﴾ في الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ تعني الصحبة والمعية دائماً، أي أن للمعية وجهين؛ لأنها ذكرت بصراحة، أحدهما فعلي والآخر اعتباري، والمعية الفعلية هي وجود العبد فعلاً في مجالس الصادقين وبقلب حاضر، أما المعية الاعتبارية فهي تخيل أحوال الصادقين في غيبتهم».





إذًا، فكما أنه من الضروري أدبًا التحلي بالمشاعر السامية الراقية حين يكون العبد في صحبة ظاهرة مع أولياء الله، كذلك يجب عليه الاستمرار على هذا الحال بصحبة قلبية حين لا يكون مع الأولياء؛ لأن الصحبة الفعلية مع أولياء الله تعالى قد لا تُتاح في كل وقت، وفي هذا الوضع ثمة حاجة للرابطة كي تستمر الصحبة القلبية.

إن غاية الرابطة هنا وهدفها الواضح هو التعلق بحبل الله تعالى، والنجاة من الطوفان بركوب سفينة نبي الله، والاتصال بالسند النبوي عبر السلسلة الطاهرة من أولياء الله الذين توارثوا النور والأخلاق والصحبة كابرًا عن كابر، في سلسلة تمتد إلى رسول الله ﷺ فيما يشبه نور الشمس التي تعكسها الأقمار إلى كل كواكب المجموعة الشمسية، على حسب درجة قرب الأقمار وبعدها من الشمس والكواكب.

وإذا ما كانت هناك صحبة بالجسد إلى جانب الصحبة المعنوية مع أولياء الله تعالى، فهي «نور على نور».

إلا أن الاختصار على الصحبة الفعلية الجسدية في التربية الصوفية غير مقبول؛ لأن الإنسان قد يقف أمام المرشد الكامل دائمًا، ولكنه لا يحظى بأي حس ومشاعر بسبب غفلته، في حين نرى أن المريد الحقيقي وإن كان في بلاد بعيدة عن مرشده ينال ما يناله من فيوضات كثيرة وذلك عبر مشاعر الاحترام والتبجيل التي يَكُنُّها لمرشده، والعشق والشوق له والارتباط معه، ومن أقوال كبار أهل التصوف: «مَنْ في اليمن جانبي، وَمَنْ في جانبي في اليمن»، لهذا فإن الأمر المهم هو عدم فقدان مشاعر الصحبة القلبية مهما كان المكان الذي أنت فيه. يقول رسول الله ﷺ:

«إن أولى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا، وحيث كانوا»^{٥١٩}





والتدفق المعنوي الذي ينتقل فيه الحال من المرشد إلى المريد، ترتبط قوته ودرجته بمدى إدراك المرشد الكامل، وبمستوى استعداد المريد ومحبه، ومع ذلك فإن هذه الرابطة لا تعد كافية وحدها في ذلك السياق للإصلاح، فالدرجات والمستويات في التصوف لا يصل إليها المريد لمجرد كونه مريدًا؛ بل مستواه في الدرجة مرتبط بمستواه في الاستعداد، وبمستواه في المحبة، ومن هنا تتفاوت المستويات بين المريد وبين أخيه في الطريق نفسه وفي زمرة المرشد نفسه، فالمرشدون الكاملون مهما تفاوتت مقاديرهم في الدرجات والفيوضات هم بالنسبة إلى المريدين كالبحيرة الفياضة، أو كالبحر الزاخر، أو كالمحيط الواسع، ماؤهم يفيض، والمريد الذي يريد أن يملأ دلوه من ذلك الماء يملؤه حسب قدرة دلوه على الامتلاء، وليس بحسب كثرة الماء في ذلك البحر؛ إذًا فاستعداد المريد هنا هو مناط الفيوضات.

الرابطة ليست مسألة اعتقادية

إن الرابطة -التي تُعد من الأصول المهمة جدًا في التربية الصوفية- موجودة في الطرق الصوفية كلها تقريبًا مهما كان الاختلاف بينها في الاسم وطريقة التطبيق، بيد أن الرابطة -بدءًا من القرن التاسع عشر- وضعها بعض الأشخاص ضمن مسائل الإيمان والكفر، وهذا ما عرّضها للانتقاد الشديد، مع أن الرابطة -كما ذكرنا سابقًا- حالة طبيعية أثبتتها علم النفس، ولا علاقة لها أبدًا بالاعتقاد، ويقول عبيد الله أحرار في هذا الموضوع:

«ألا يقع المرء في الكفر حين يكون قلبه معلقًا بالمال والمُلْك وما شابههما من الرغبات الدنيوية النفسانية؟ فهل يكون مخطئًا حين يكون قلبه مرتبطًا بمؤمن ويشعر بالمحبة تجاهه؟»^{٥٢٠}

٥٢٠ علي بن حسين صافي، رشحات عين الحياة (تحقيق: علي أصغر مُعِينِيان)، طهران ١٩٧٧/٢٥٣٦،





استذكار الصالحين وسيلة للبركة

تُعَدُّ قراءة السلسلة الشريفة^{٥٢١} من الأصول المستخدمة في الرابطة والمراقبة، والغاية من ذلك نيل جزء من الرحمة المرجوة التي تنزل على القلوب عبر استذكارهم، وانعكاس أحوال الصالحين الحسنة، ويقول سفيان بن عيينة وهو من كبار العلماء: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»^{٥٢٢}

فذكر الصالحين واستحضار قصصهم والاسترواح في ظلال مناقبهم، والاستذكار في ضوء قبس من أنوارهم، والاستنشاق من عبير سيرهم، والاستبصار عبر بصرهم وبصيرتهم ورؤيتهم ورؤاهم؛ كل ذلك سبيل لأن تهيم الأرواح في عالمهم، وتحيا في جنتهم، وتستمطر الرحمات والبركات والفيوضات من عليائهم.

ولكي لا تكون صحبة الصالحين ظاهراً فقط بل قلباً وروحاً، يجب قراءة السلسلة الشريفة كي تكون وسيلة لتنزل الرحمات والبركات، فكم من كتب ألفت كي تحتوي صفحاتها مناقب أولياء الله تعالى، وتكون وسيلة لإلهام أولئك الذين يقرؤونها بمحبة.

ويقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله:

«الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليّ من الفقه؛ لأنها آداب القوم»^{٥٢٣}

وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ...﴾^{٥٢٤}

٥٢١ السلسلة الشريفة: هي اسم أطلق على سلسلة المرشدين التي تمتد لتصل إلى الرسول ﷺ.

٥٢٢ أبو نعيم، الحلية، ٧، ٢٨٥؛ أحمد، الزهد، بيروت ١٤٢٠، ص ٢٦٤؛ عجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٧٠.

٥٢٣ القاضي عياض، ترتيب المدارك، المغرب ١٩٦٥، ١، ٢٣.

٥٢٤ الأنعام: ٩٠.





وقال بعض المشايخ:

«الحكايات جند من جنود الله يثبت بها قلوب أوليائه»، وشاهده قوله تعالى:
 ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
 وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٢٥، ٥٢٦

وانطلاقاً من هذه القاعدة القرآنية، فإن قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين
 تصير مصدراً للموعظة، وينبوعاً للحكمة، وسجلاً للذكرى، وملهماً للعقول
 والقلوب، وزاداً للأرواح، ونبراساً للطريق.

فهي أمثلة واقعية ونماذج حية لأناس جاهدوا، فارتقوا من الثرى إلى الثريا،
 وارتفعوا من أدنى دركات الدنيا إلى أسمى درجات الجنة في الفردوس الأعلى،
 وفيهم القدوة والأسوة لكل حال، ولكل موقف مما يمر به الإنسان، فيتعلم
 المواجهة، ويمارس الجهاد، ويباشر الرقي على نبراسهم، دون اللجوء إلى الأساليب
 التربوية الجامدة التي تستخدم عبارات الأمر والزجر مثل: افعل هذا، ولا تفعل ذاك.
 إضافةً إلى أن قراءة السلسلة الشريفة بشكل منتظم يجعلك مطلعاً على كل
 أحوال الصالحين والأولياء الذين استمدوا من القبس النبوي وعاشوا في كنف
 سيرته ونورانيته، فتتجذر محبتهم في قلبك، ويطرسخ اتباعهم في روحك، ويصح
 نسبك إليهم.

ويمكن للمريد أن يتنهل إلى المولى ﷺ ويتوسل بالأولياء في السلسلة
 الشريفة، ويقول الشيخ أبو سعيد محمد خادمي رحمته الله:

«مَنْ قرأ سلسلة المشايخ بعد ختم الأوراد، وعند تلقين الذكر، وعند الشروع
 في ذكره، وعند تمام ورده تحصل له الترقيات والمكاشفات، ويقرؤها صاحب

٥٢٥ هـ: ١٢٠

٥٢٦ القاضي عياض، ترتيب المدارك، مغرب ١٩٦٥، ١، ٢٣.





الورد والذكر خصوصًا حين تغلب عليه الروحانية، ويقرؤها كذلك لتفريج الكروب والهموم والغموم وتيسير المراد وقضاء الحوائج ولشفاء المريض وتكتب أيضًا وتُحمل»^{٥٢٧}

مقامات الفناء

من مقامات الفناء، مقام «الفناء في الشيخ»، وهو مقام يصل إليه المريد حين تزداد الرابطة مع الشيخ وتصل إلى المحبة، وتنعكس صور هذه المحبة على سلوك المريد في وجود الشيخ وفي غيابه، فيظهر له الحب والأدب والتبجيل في كل الأحيان، ويتخلق دائمًا بأخلاقه.

والمقام الأسمى منه هو مقام «الفناء في الرسول ﷺ»، فالنبي ﷺ هو الحلقة الأولى والأعلى في السلسلة الشريفة، وهو مصدر ذلك النور، وينبوع تلك المحبة، وبحر تلك الأخلاق، ومنه بدأ إشعاع النور والحال الذي انعكس على الصحابة الكرام ؓ فانقلبت حياتهم من الظلمات إلى النور، واعتدلت فطرتهم من الاعوجاج إلى السلامة والاستقامة، وكانوا هم ورثة العلم والنور، وأصحاب البلاغ بعد النبي ﷺ، ثم جاءت الحلقات التالية في السلسلة الشريفة من الأولياء والصالحين والمرشدين، فواصلوا إبلاغ الهدى إلى الخلق، وواصلوا انعكاس النور على قلوب المريدين.

وتتطلب مرتبة «الفناء في الرسول ﷺ» شدة الامتثال للسيرة النبوية الشريفة أسلوبًا ومنهاجًا، وتتطلب من المريد أن يتصرف وكأنه في حضرة النبي ﷺ، ويساعد على ذلك قوة الرابطة مع حضرته عبر محبته، وأما الذي يقوّي في القلب محبته فدوام الصلاة عليه واتباع سُنّته ﷺ.

ولا يخفى على أحد أن حال الفناء في الرسول ﷺ تحقق على أجمل صورة لدى سيدنا أبي بكر الصديق ؓ، ولهذا قال عنه رسول الله ﷺ:





«لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله ﷺ صاحبكم خليلًا»^{٥٢٨}

ولكم يعبر هذا الحديث الشريف أجمل تعبير عن القرب بين القلبين! والمرحلة الأعلى من مرحلة الصحبة القلبية هذه هي مقام «الفناء في الله»، فقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾^{٥٢٩}

﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^{٥٣٠}

ولا يمكن للعبد أن يصل إلى سرّ هاتين الآيتين إلا إذا وصل إلى مقام «الفناء في الله تعالى».

والمرشد الكامل الذي وصل إلى هذا المقام، يكون قلبه موئلاً لتلقي الفيوضات وتجليات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وكأن هذا القلب هو عدسة مقعرة تُركّز حزم الضوء في بقعة واحدة فتحولها إلى لهب يحرق الذنوب، وإلى نار تحول القبائح إلى رماد تذرّوه الرياح، وإلى حرارة عالية تطهر القلب من كل الآفات الدنيوية والنفسانية.

وينبغي على المريد أن ينال من بركة هذه الفيوضات والتجليات التي تنهمر على شيخه، وذلك عبر تقوية الرابطة ومشاعر المحبة مع ذلك المرشد الكامل؛ حيث تنمحي شخصيته النفسانية، وتذوب في شخصية شيخه الروحانية، وبذلك تزول أحوال المريد الدنيوية لتنعكس عليه أحوال شيخه العلوية.

إن انتقال الحال من المرشد إلى المريد هو مظهر لزيادة الشابه بينهما.

٥٢٨ مسلم، فضائل الصحابة، ٣/ ٢٣٨٣.

٥٢٩ الحديد: ٤.

٥٣٠ ق: ١٦.





فقد ورد في الحديث الشريف:

«المرء مع مَنْ أَحَبَّ»^{٥٣١}

ويلفت انتباهنا هنا قصة أصحاب الكهف^{٥٣٢} التي ذُكرت في القرآن الكريم، فقد انعكس الولاء والإخلاص على كلبهم قَطْمِيرَ نتيجة حراسته للصالحين والصادقين^{٥٣٣}، ويروى أنه سيدخل الجنة؛ لأنه كان مع الصادقين، وإذا ما ارتفعت درجة الكلب قَطْمِيرَ إلى هذه الدرجة الرفيعة بسبب حراسته للصادقين بوفاء وإخلاص، فلا ريب أن المؤمن الذي يرتبط بمحبة مع أولياء الله والصالحين سيرتقي إلى درجات سامية.

رابطة الموت «التفكر في الموت»

وهي مسألة مهمة ورابطة ذات بال من روابط التصوف؛ حيث يطلق مصطلح «التفكر في الموت» على رابطة المريد مع الموت وعلاقته بهذه الحقيقة الحتمية؛ لأن التفكر في الموت له أثر كبير على سلوك الإنسان وأحواله.

وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث:

«...أكثرُوا من ذكر هادم اللذات: الموت»^{٥٣٤}

وذلك التفكر في الموت، واستحضار معانيه شاخصة أمام الأبصار، يشغل في القلب حيزًا كبيرًا، تضيق معه مساحة حب الدنيا فيه، وتنطفئ معه جذوة نار الرغبات والشهوات، وتفقد الملذات طعمها، ويصبح ذلك كله جدارًا مانعًا ضد غزوات الغفلة، وترياقًا شافيًا ضد أمراض النفس؛ بل دافعًا حثيثًا نحو الأوبة

٥٣١ البخاري، الأدب، ٩٦/٦١٦٨.

٥٣٢ انظر: سورة الكهف، الآيات، ٩-٢٦.

٥٣٣ إسماعيل حقي بورصوي، روح البيان، ٥، ٢٢٦.

٥٣٤ الترمذي، القيامة، ٢٦/٢٣٠٧؛ ابن ماجة، الزهد، ٣١/٤٢٥٨.





وخشوع العبادة، وإخلاص التوبة، ويصبح الذكر الدائم هو الوسيلة التي تسمو بالمؤمن، وترتفع به في عالم السعادة في الدنيا والآخرة.

ولم يزل التفكير في الموت هو وصية العلماء والأولياء والمرشدين، وأحد وسائلهم في إيقاظ القلوب، والتنبية من الغفلة، وإحياء المشاعر وإلهاب الحواس.

وقد كان من وصية سيدنا علي لابنه الحسن عليه السلام:

«يا بُنَيَّ، أصلح قلبك بذكر الموت، واعلم أن كل شيء إلى زوال، وأنت إلى فناء، وأن الدنيا دار محن وبلاء، فاذكر ذلك ولا تنسه قلبك أبداً!».

والواقع أن الزمان لن يمر على الإنسان مثل خطٍ مستقيم لا منعطفات فيه، فكما توجد أيام سعيدة في هذه الدنيا، فمن الممكن والمقدّر أن تكون هناك أيامٌ همٌّ وغمٌّ لا ينبغي أن يغفل عنها الإنسان.

ومن نصائح الإمام الغزالي رحمته الله:

«يا بُنَيَّ، لتحيا قدراً ما تريد، فسيأتيك يوم تموت فيه. ولتحبّ ما تهواه، فسيأتيك يوم تنفصل عنه. ولتعمل ما تشاء، فسيأتيك يوم تُحساب فيه!..»

يا بُنَيَّ، يجب أن يكون مقصدك السعي لتربية الروح، والسيطرة على نفسك، وتحضير بدنك للموت. فالموقف الأخير لك هو القبر، ومن في القبور ينتظرونك ويقولون: «متى ستأتي إلينا؟»، فإياك ثم إياك أن تذهب إليهم دون زاد!».

ومما جاء في الخطبة الأخيرة لعمر بن عبد العزيز رحمته الله قوله:

«إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه ليحكم بينكم، ويفصل بينكم، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرِمَ جنةً عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حَذَرَ الله اليومَ وخافه، وباع نافداً بباقي، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وستصير من بعدكم للباقيين، وكذلك حتى تردوا إلى خير





الوارثين، ثم إنكم تشيِّعون كل يوم غاديًا ورائحًا، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسد، فارق الأحباب، وباشر التراب، ووُجِّه للحساب، مرتهن بما عمل، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله وموافاته، وحلول الموت بكم، أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي، وأستغفر الله وما منكم من أحد يبلغنا حاجته لا يسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي، حتى يكون عيشنا وعيشه واحدًا، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولاً، وكنت بأسبابه عالمًا، ولكن سبق من الله كتاب ناطق، وسُنة عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته. ثم رفع طرف رداءه فبكى وأبكى مَنْ حوله»^{٣٥}

والموت هو الحقيقة الوحيدة الباقية في أجل الإنسان، والذي يستمر معه منذ ميلاده، وحتى مبعثه وخلوده إما في الجنة أو في النار، فقد جاء في الأثر أن: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا». لكن هيهات أن ينفع ذلك الانتباه بعد فوات العمر، وبعد رفع القلم، وبعد جفاف الصحف، فهلاً انتبهت أيها المسلم قبل أن ينبهك الموت، وهلاً استيقظت قبل أن يوقظك النفخ في الصور؟

يمكن الآن -عبر التفكير في الموت وأمور الآخرة- أن ترى بعين البصيرة من الحقائق والغيبات ما يصعد بك إلى جبل يعصمك من الماء، وما يدخل بك إلى قلعة حصينة ضد هجمات الأعداء، وما يكشف عنك الغطاء قبل الفناء، فيجعل بصرك حديدًا، وقلبك زهيدًا، وقرينك -من الشياطين- طريدًا.

وبما أن الغاية الأساسية في التصوف هي قهر النفس، فإننا نجد أن التفكير في الموت أصل من الأصول الموجودة في كل طريقة.





ب. الصحبة

مجالس الذكر والصحبة في الدنيا هي جنة الله تعالى في الأرض،
تتنزل عليها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتظللها السكينة.

وللصحبة معنى آخر هو «الخطاب» أي: الحديث الذي يتوجه به الصاحب إلى صاحبه في مجالس الذكر والصحبة، وذلك الخطاب هو أحد أهم الوسائل التي يستخدمها المرشد الكامل للتأثير على المريدين السالكين وتربية أرواحهم وقلوبهم، فذلك المرشد صاحب القلب السليم والروح الطاهرة والنفس الزكية لا بد وأن تحمل كلماته روح التربية، ويحمل خطابه مفاتيح القلوب، وتفيض توجيهاته بمشاعر الإخلاص والحب لمريديه، فتصل الكلمات من القلب إلى القلب، وتتجاوز اللسان إلى الآذان، ثم إلى أعماق الجوارح والجنان.

وثمة عوامل تقوي من تأثير الخطاب والصحبة؛ يأتي على رأسها «الإخلاص»، فالإخلاص هو أصل كل عمل وفرعه وجوهره، وهو مناط القبول عند الله تعالى، والمرشدون المخلصون يتغنون من خطابهم توصيل البلاغ النبوي إلى المريدين قياماً بواجبهم في حمل الرسالة ورثةً للأنبياء.

كما ينبغي أن يتحقق الإخلاص أيضاً في المريد المتلقي لهذا الخطاب؛ ليكون شديد الحرص على تنفيذ ما يسمعه.

والعامل الثاني المقوي لتأثير الخطاب والصحبة هو «الإيجاز»، فالإيجاز هو أصل البلاغة، وأحد عوامل الإعجاز في الخطاب والأدب، وعندما يختار الناصح والمرشد أبلغ الكلمات وأوجزها في خطابه، يكون ذلك أكثر تأثيراً في السامع وأحرى به في استيعابها وتنفيذها.

ولعل أسمى مثال على ذلك هو بلاغة القرآن الكريم التي هي أبرز مظاهر إعجازه، فقد بُعث صاحب معجزة القرآن النبي عليه الصلاة والسلام إلى قوم





هم أكثر الناس أدبًا وبلاغة، وأعظمهم فصاحة، وأوضحهم بيانًا، ومجال المنافسة والتفاخر بينهم هو البلاغة، وأهم محاور حياتهم هو الشعر والأدب، وأسواقهم التجارية هي في الأصل أندية لعرض نتاجهم الأدبي والشعري؛ حتى إن القصائد التي تنال أعلى الدرجات في البلاغة يعلقونها على أستار الكعبة، ولهذا تسمى هذه القصائد الخالدة «المعلقات»؛ لكن نزول القرآن الكريم كان أكبر تحدٍّ عرفته بلاغة العرب، وأعظم أنموذج للبلاغة البشرية على الإطلاق، فواجهوا إعجازه بالعجز، ولم يملكوا إلا أن ينزلوا المعلقات من أستار الكعبة، وها هو ليبد بن ربيعة العامري أحد شعراء المعلقات المشهورين وقد أسلم وهو في قمة شهرته وعطائه الشعري، قد اعتزل بإسلامه الشعر منبهراً بالقرآن الكريم، وقد قال أكثر أهل الأخبار: إن ليبدأ لم يقل شعراً منذ أسلم، وقيل إنه لم يقل بعد إسلامه إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا.

وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً:

« يا أبا عقيل أنشدني شيئاً من شعرك »

فقال: « ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران ».

ولم يبق ثمّ مظهر للإعجاز والبلاغة سوى القرآن الكريم، فقد أسكت كلّ البلغاء والفصحاء بمستوى لا تطاوله المستويات الأدبية كلها، وكان سبباً مباشراً في إيمان الكثيرين ودخولهم في الإسلام^{٥٣٦}؛ حتى الآخرين الذين لم يدخلوه، لم يستطيعوا منع أنفسهم من التصريح بشدة الإعجاب به، حتى بلغ أن رموه بالسحر، وكان التحدي الإلهي لهم أن يجتمعوا - وهم أرباب الفصاحة - ليأتوا بشيء من مثله؛ سورة أو بضع آيات أو حتى آية واحدة، فأعجزهم الأمر.





وصدق النبي ﷺ إذ يصف مدى تأثير البلاغة في الناس، فيقول:

«إن من البيان لسحرا»^{٥٣٧}

أي إن الكلمات لها تأثير ساحر في القلوب.

هذا البيان البليغ مع الإخلاص في الصحبة والخطاب هو الذي جعل لهما التأثير الأكبر في الإرشاد وتربية المريدين، فإذا أردنا أن ندرك ذلك بوضوح تام، فليس أنصع وأنفع وأنجع من المثال الأعظم للبشرية في بركة الصحبة، وهو الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، مع النبي ﷺ، ولعل ذلك هو السبب في أن المؤرخين الأتراك أطلقوا على تلك الفترة الزمنية اسم «عصر السعادة».

فالصحبة من الناحية الشرعية هي سُنَّة مؤكدة من سُنن النبي ﷺ، ومن الناحية الصوفية هي ذات موقع خاص جدًا في كل الطرق -لا سيما النقشبندية- لأنه من خلال تلك الصحبة تنتقل الفيوضات من القلب إلى القلب.

ويعبر يونس أمره بإيجاز عن قدرة الخطاب في التأثير الإيجابي أو السلبي عبر الأبيات التالية:

رُبَّ كلمة تنهـي الحروب رُبَّ كلمة تقطع الرؤوس
رُبَّ كلمة تحوّل الطبق المسموم إلى طبق زبدة وعسل.

وها هي الصحراء العربية كانت في الجاهلية ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب ما في قلوب الناس من بقية خير، حتى كادت أن تصبح أرضًا بلقًا جرداء لا خير في قلوب أصحابها ولا ندى، لكنها في صحبة النبي ﷺ وجدت الظل والندى، والاختصار والنور والهدى، ووجدت الرواء بعد الصدى، وانغrust في هذه الصحراء نخلًا بأسقام من القيم، وأنبت ما كان في أعماقها من بذور للأخلاق، فتحوّلت صحراء الجاهلية إلى روضة الإسلام، وفاضت عليها بركات الصحبة النبوية، والبركة المحمدية، والمحبة المصطفوية، فتبدلت الأحوال، وانعكست





الأهوال، فالأيدي التي وأدت بنات أحياء علمت أهل الأرض بعد ذلك الرأفة، والقلوب التي تربت على الغلظة صارت نماذج في الرحمة، والأرواح القاحلة التي أخذت من الصحراء قسوتها صارت مضرب المثل في ندواتها ورقتها ورهافتها.

وفي هذا السياق ينبغي أن نلفت الأنظار إلى أن الاشتقاق اللغوي العربي لكلمتي «الصحابي» و«الصحبة» من جذر لغوي واحد، ولعل في ذلك إشارة واضحة إلى قوة تأثير الصحبة في التربية والترقية؛ إذ صار هؤلاء الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كنجوم السماء في الظلمات، بأيهم اقتدينا اهتدينا، لقد كانوا في صحبة النبي ﷺ ماديًا ومعنويًا، وعرفوا للصحبة حقوقها، وطبقوا شروطها، فكانوا بحق نماذج لورثة الأنبياء، بعدما جعلوا من قلوبهم وعقولهم أوعية تتلقى الفيوضات النبوية، وسجلات يُسَطَّر فيها العلم النبوي، ونبراسًا يرسل نوره إلى كل الخلائق إلى يوم القيامة ويقول الله ﷻ عنهم:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُوقَفُونَ الْأُولَئِكَ فِي الْأُولَىٰ وَالَّذِينَ تَبِعُوا نَبَاهُمْ فِي حَقٍّ مِنْهُ لَهُمْ أَجْرٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلَا يَنْصَرُونَ لَهُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^{٥٣٨}

وكل صحبة تجتمع على عبادة، وترتبط بمحبة ربانية، وتمتلى بفيوضات روحانية، ما هي إلا صحبة تحمل انعكاسًا لصحبة رسول الله ﷺ، وهي حلقة في سلسلة شريفة مركزها صحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ بل وتقتبس نورها وفيضها من رسول الله ﷺ ذاته عبر انعكاسها من خلال أولياء الله تعالى؛ لأن ذلك النور الساري يشع من المركز النبوي مباشرة إليها، وما الأولياء والمرشدون إلا قنوات يسري فيها ذلك النور، فأصل النور واحد، وكل الأنوار -مهما بعدت الشُّقَّة- ما هي إلا قبس من ذلك الأصل وامتداد له.





إن مجالس الصحبة والذكر هي جنة الدنيا؛ حيث تنزل الرحمات الإلهية والسكينة على القلوب وتزخر بها، فعن الأغر أبي مسلم أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«... ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...»^{٥٣٩}

والعابد الذكي والسالك الحصيف ينبغي أن يكون شديد الحرص على مجالس الصادقين وصحبة الأولياء ومعية الصادقين، فهي كنوز لا تُقدَّر بثمن، وجنان وارفات تؤتي أكلها كل حين، وعيون فياضات تأتيك بالماء السلسيل من أنقى معين.

فأهل الصلاح والقلوب، وأهل المعرفة والمعالي، تُفيض جوارحهم في مجالس الصحبة على أهل الاستعداد فيوضات المحبة والعشق والوجد والأنوار والأسرار؛ كأنها نسائم الصباح التي تسري على جنة غناء فتحمل في نداها من عبير ونعيم تلك الجنة إلى أنوف وصدور وأرواح من تيقظ واستعد وفتح صدره وروحه لاستنشاق ذلك العبير، واسترواح ذلك النعيم الرباني.

يقول المولى رحمه الله في الآية الكريمة:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^{٥٤٠}

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أدرك المعنى الكامل لهذه الآية الكريمة:

«الدين النصيحة»^{٥٤١}

٥٣٩ مسلم، الذكر، ٣٨/٢٦٩٩؛ أبو داود، الوتر، ١٤/١٤٥٥؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

٥٤٠ الذاريات: ٥٥.

٥٤١ البخاري، الإيمان، ٤٢.





وللنصيحة معنيان، أحدهما الدعوة للخير، والآخر هو الإخلاص.
 وكان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إذا لقي الرجل من أصحابه يقول له: «تعال نؤمن
 ربنا ساعة»، فقالها ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، وجاء إلى النبي ﷺ فقال:
 «يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة»
 فقال النبي ﷺ:

«يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تباهي بها الملائكة عليهم
 السلام»^{٥٤٢}

ويدلُّ على الأهمية الكبيرة للصحة ما رواه أبو سعيد الخدري أنه قالت
 النساء للنبي ﷺ:

«غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك»، فوعدهن يومًا لقيهنَّ فيه،
 فوعظهنَّ وأمرهنَّ»^{٥٤٣}

وكانت الصحابيات اللواتي هن قدوة للأمهات جميعًا يعلمنَّ جيدًا قيمة
 الصحة وما فيها من بركة، فكنَّ ينبهنَّ أولادهن إذا ما تأخروا عن الذهاب إلى
 رسول الله ﷺ، ويقول حذيفة رضي الله عنه:

«سألني أُمِّي متى عهدك بالنبي ﷺ فقلت ما لي به عهد منذ كذا وكذا، فنالت
 مني، فقلت لها: دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي
 ولك...»^{٥٤٤}

وكان الشيخ محمد ضياء الدين رحمه الله وهو من كبار العلماء، يجمع الفتیان
 الصغار بين الحين والآخر ويجلس معهم، فسألته زوجته في أحد الأيام:
 «إن هؤلاء ما زالوا صغارًا، أتى لهم أن يفهموا معنى الصحة؟»

٥٤٢ انظر: أحمد، مسند، ٣، ٢٦٥/١٣٧٦٩.

٥٤٣ البخاري، العلم، ٣٦/١٠١؛ أحمد، مسند، ١٧، ٣٩٨/١١٢٩٦.

٥٤٤ الترمذي، المناقب، ٣٠/٣٧٨١؛ أحمد، مسند، ٥، ٣٩١-٣٩٢/٢٣٣٢٩.





فأجابها الشيخ:

«وهؤلاء أيضًا يستفيدون، قليلاً كان أم كثيراً، لكن مقصودي ليس أن يفهموا شيئاً ما بعينه، إن مجالس الصحبة تُنزل رحمة الله، وأنا أسعى لتلك الرحمة، وهؤلاء الفتيان وسيلة لذلك...».

ويقول الشيخ نقشبند رحمته الله:

«حين يكون المرء مع الآخرين ويقدم الخدمات، يحظى بطمأنينة قلبية أكثر من تلك التي يحظى بها حين يكون في الخلوة، (أي إنه يدرك الوحدة في الكثرة، وإذا استطاع أن يكون مع الله تعالى حين يكون بين الناس، فإن القلب سيطمئن أكثر)، ولا ينكشف العالم القلبي في طريقتنا إلا بهذه الصورة، إذ إن طريقتنا في التربية قائمة على الصحبة، ففي الخلوة شهرة، والشهرة آفة، وكل الخير والبركة في المعية والاجتماع، ولا يمكن الاجتماع إلا بالصحبة، وتحقيق هذا الحال منوط بكون الصحبة نافعة ومفيدة، ولا يكون المرء في صحبة مع غيره إلا إذا ترك الأنا وهجر ذاته».

ويوضح الشيخ جعفر بن سليمان رحمته الله ما كان يحظى به حين يكون في صحبة الصالحين قائلاً:

«مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة؛ فيرجع إليّ نشاطي في العبادة، ويفارقني الكسل، فأنشط في العبادة أسبوعاً»^{٥٤٥}
وكان عمر بن عبد العزيز رحمته الله يقول:

«كان حضور مجلس الفقيه عبيد الله بن عبد الله -وهو من فقهاء المدينة- أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها، فبصحبة مثل هؤلاء وملازمتهم تفتح العقول، وتطمئن القلوب، وينال المرء الأدب».





وذات مرة غاب أحد مریدی الشیخ عبد الخالق غجدواني عن مجالسه لمدة طويلة، وكان هذا المرید یرى في منامه في كل ليلة أنَّ مجموعةً من الناس یأتون إلیه ویقولون له:

«لقد وصلت إلی الکمال الآن، دعنا نحملك إلی الجنة!».

ثم یحملونه علی ظهر ناقة إلی مکان فيه نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وما لذَّ من الطعام، والمياه الجارية، وفي الصباح یجد نفسه في فراشه.

وفي يوم من الأيام انتبه الغجدواني رَجُلًا بفراسته إلی حال المرید، فذهب إلیه لیسأل عنه، فروى المرید ما یحدث معه، وبعد أن سمع الغجدواني كلامه أوصاه قائلاً:

«إذا رأیت نفسك في هذه الرؤیا مرة أخرى فقل ثلاث مرات: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلی العظيم) ثم افتح عینک!»

وفعل المرید ما طلبه شیخه منه في تلك الليلة، وفتح عینیه فرأى أنه بین عظام حیوانات میتة، وفهم أن رؤیاه كانت من الشیطان، ولزم شیخه وما عاد یفارقه بعدها.^{٥٤٦}

وفي يوم من الأيام ترك أحد الطلبة مجالس الولي الکبیر أبي الحسن الشاذلي رَجُلًا فرآه الولي يوماً وسأله:

«لماذا اعتزلتنا، ورغبت عن مجالسنا؟»

فأجابه الطالب:

«یکفیني ما أخذت منکم وتعلمته إلی الآن، ولا حاجة للمجالس بعد الیوم».

فقال له الشیخ الشاذلي الذي أسف لهذا الموقف محذراً:

٥٤٦ مقامات عبد الخالق غجدواني وعارف ربوکري، ص ١٤-١٥؛ بدر الدين السرهندي، حضرات القدس، ج١، ورقة: ٨٣، ب، ٨٤.





«يا بُني، لو كان اكتفاء رجل بعلم وفيوضات رجل آخر صحيحًا، لكان يكفي سيدنا أبا بكر العلمُ والفيوضات التي أخذها من رسول الله ﷺ، ولكنه لم يفارق الرسول ﷺ حتى وفاته».

وبالطبع لم يكن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه هو وحده من لازم النبي ﷺ، بل كان الصحابة كلهم يهرعون بشوق إلى صحبة النبي ﷺ ويأخذون من علمه وفيضه، إذ كان رسول الله ﷺ يحث أصحابه على ذلك بالوسائل كلها؛ لأن الصحبة كانت من أهم أصول التربية التي يتبعها الرسول ﷺ.

وثمة أمر آخر يجب أن يؤخذ بالحسبان إضافة إلى الحرص على محاسن الصحبة؛ وهو الاهتمام بزمان الصحبة ومكانها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام، كراهة السّامة علينا»^{٥٤٧}

وعن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال:

«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»^{٥٤٨}

وقد أدرك علماء الإسلام كلهم الحكمة من هذا الحديث الشريف، فأخضعوا قلوبهم دائمًا لمجالس أولياء الله تعالى، ولم يمتنعوا أبدًا عن حضور مثل هذه المجالس، وكان أحمد بن حنبل رحمه الله وهو إمام أحد المذاهب الأربعة المتبعة يذهب مرارًا وتكرارًا إلى بشر الحافي رحمه الله وهو من أولياء الله، ويجلس معه، وكان متعلقًا به غاية التعلق.

٥٤٧ البخاري، العلم، ١١/٦٨.

٥٤٨ البخاري، العلم، ٨/٦٦.





وفي يوم من الأيام قال له طلبته:

«يا إمام، إنك عالم مجتهد في علوم القرآن والسنة، ومع ذلك تذهب بين الحين والآخر إلى مثل هذا الرجل، فهل يليق ذلك بمقامك؟»
فأجابه الإمام:

«نعم، إنني أفقه منه فيما ذكرتم، لكنه أعلم بكثير مني بالله ﷻ».

ت. الخدمة

أساس الخدمة هو التوجه إلى عباد الله تعالى بقلب يملؤه الإخلاص، وجوارح تغمرها الرحمة، وروح يزيناها الإيثار، وتلك هي مقتضيات رضا الله تعالى، ومناطق قبول تلك الخدمة.

وينبغي على أهل الخدمة أن يكونوا شديدي التنبه في معاملتهم للناس الذين يخدمونهم، وأن يكونوا شديدي الحرص كطبيب يعمل بمبضعه في جسد بشري مليء بالأوردة والشرابين، فأى خطأ بسيط قد يصيب ذلك الجسد بمكروه؛ والذي يقدم الخدمة أشد حرصًا من ذلك الطبيب، لأنه يخاطب قلوب الناس، والقلوب هي محل نظر الله تعالى.

إن للخدمة في التربية الصوفية أهمية عظيمة، وهي من أكثر الطرق تأثيرًا في غرس التواضع وانعدام الذات ومشاعر الرأفة بالمخلوقات في القلوب، ومن هذا المنطلق كانت الخدمة واسطة مهمة بالنسبة إلى المرشد الكامل في تربيته للسالكين وكان من أقوال الشيخ عبيد الله أحرار:

«كان شيوخنا يُشغِلون مَنْ يرون فيهم الأمل في المستقبل بالخدمة»^{٥٤٩}





والتوجه إلى الله تعالى بالمحبة والإخلاص هو أساس الأخلاق في الإسلام، والدليل عليها هو «الخدمة»، فالخدمة هي خطوة أساسية في طريق الله تعالى، والوصول بالقلب إلى أسمى المراتب.

وهو ما يعبر عنه الشعار الصوفي «من يخدم الناس تعلقو همته».

وهي الخطوة التي بدأ منها جميع من نال الوصال مع الله تعالى من الأنبياء والأولياء، ثم ارتقوا بعدها إلى مراتب الكمال والعلا، أي إنهم كانوا طوال عمرهم مثلاً واقعياً لسيرة النبي ﷺ.

وكما يقال في الأثر: «سيد القوم خادهم»

والسيادة هنا هي صنو السعادة، والخدمة هي طريقها، والإخلاص حقيقتها، والولاء وسيلتها، وقد أمدتنا السنة المباركة بنماذج جعلت الخدمة -ولو كانت صغيرة- عند الله تعالى أعظم درجة من النافلة.

فعن أنس رضي الله عنه قال:

كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا من يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضرَبوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ:

«ذهب المفطرون اليوم بالأجر»^{٥٥٠}

ويقول النبي ﷺ في أحاديث أخرى:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^{٥٥١}

٥٥٠ مسلم، الصيام، ١٠٠-١٠١/ ١١١٩.

٥٥١ البخاري، المظالم، ٣/ ٢٤٤٢؛ مسلم، البر، ٥٨/ ٢٥٨٠.





وكان رسول الله ﷺ في مقدمة الصحابة بكل تواضع حين يكون العمل لوجه الله تعالى، فمع أنه كان سيد أصحابه لدى بناء المسجد النبوي إلا أنه كان يشاركهم في حمل الطوب. ٥٥٢

وعن البراء بن عازب قال:

«رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه» ٥٥٣

وعن أبي الزبير، أن جابر بن عبد الله حدثهم، قال:

«كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف، ويردف ويدعو لهم» ٥٥٤

وها هو العاتق الشريف يحمل الحجارة في بناء المسجد، وها هي الأيدي الكريمة تشارك في حفر الخندق مثل بقية المشاركين؛ بل أكثر، ويأتي الصحب الكرام ليكفوه المؤونة، ويكفوه عن العمل، فيأبى إلا المعاونة والمشاركة كأى فرد فيهم، بركةً وتواضعًا وخدمةً وقُدوةً.

فقد كان النبي ﷺ قدوة في الخدمة، خدمة الصغير والكبير، والقوى والضعيف، والمرأة والطفل والشيخ، وكل محتاج؛ بل كانت حياته ﷺ كلها خدمة للبشرية ومخلوقات الله كلها.

وعلى منهاج النبي ﷺ سار الصحابة رضوان الله عليهم في الخدمة والبذل والإيثار، وكانوا في العطاء كالبحر الفياض، وكانت مسيرتهم في الحياة والقُدوة كمسيرة النهر الجاري من منبعه النبوي عبر العصور والدهور، ويسقي في طريقه

٥٥٢ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥.

٥٥٣ البخاري، الجهاد، ٣٤ / ٢٨٣٧، المغازي، ٢٩، التمني، ٧ / ٧٢٣٦.

٥٥٤ أبو داود، الجهاد، ٩٤ / ٢٦٣٩.





البلاد والعباد والأحياء، ولا يضمن على أحد حتى الجماد، حتى يصب في بحر المحبة والوصال بالمولى ﷺ.

ومنْ يَألف هذه الحقيقة، يرى نفسه خادماً للناس حتى لو كان سلطاناً عليهم، وخير مثال على ذلك هو السلطان العثماني ياووز سليم خان، فحين صارت البلاد الحجازية المباركة أمانة في عنقه، ونودي في خطبة الجمعة باسم «حاكم الحرمين الشريفين»، اعترض على ذلك وعينه تذرْفان الدموع؛ وقال مصححاً: «لا، بل خادم الحرمين الشريفين»، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر فهمه الدقيق لمعنى الخدمة والغاية الأساسية للعبودية.

وكان عبيد الله أحرار ﷺ ينسب المرتبة التي وصل إليها لبركة الخدمة، ويقول من باب الشكر على النعمة والاعتراف بها:

«إنني لم أتعلم هذا الطريق من كتب الصوفية بل من خدمتي للناس كافة إن الخدمة فضيلة من الفضائل الكبرى، فلقد حملوا كل فرد من طريق مختلف، وحملونا من طريق الخدمة، لهذا السبب؛ الخدمة بالنسبة لي أصل أرضى عنه وأفضله على غيره، وهي من أحبِّ الأصول، وأوصي بالخدمة مَنْ أراه مستعدًّا للروحانية والكمال وقادرًا عليها»^{٥٥٥}

ويوضِّح هذا الكلام في الوقت ذاته أن العلم وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ من تطبيق ما تعلمه في الخدمة.

ويلخِّص أحمد الكاساني ﷺ في كلامه أهمية تقديم الخدمة بقلب ناضج واع فيقول:

«الدنيا مكان للخدمة، والآخرة للقربة؛ أي الاقتراب من الله تعالى، واقتراب المرء من الله منوط بنسبة الخدمة في الدنيا»^{٥٥٦}

٥٥٥ رشحات، ص ٤٢٦-٤٢٧.

٥٥٦ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٣ب- ٥٤أ.





لهذا السبب يجب على المرء أن يأخذ بوصية الشيخ يوسف الهمداني الذي يقول:

«أغلق باب الأنانية، وافتح باب الخدمة والصحبة!»^{٥٥٧}

وكان والدي الشيخ موسى رحمته الله يعطي أهمية كبيرة للخدمة ويقول:

«يجب السير في طريق الخدمة بالصدق. ويجب على كل فرد -بحسب الزمان الذي يعيش فيه- أن يقدم الخدمة للمؤمنين وحتى للمخلوقات كلها بمقدار استعدادده وقدرته على ذلك!»^{٥٥٨}

«يجب على كل مسلم صاحب عقل سليم أن يكون فعّالاً بأن يقدم الخدمات للمسلمين ولمجتمعه وللمخلوقات جميعاً، ولا يمكن لمن لا يخدم الناس ببدنه وفكره وماله لوجه الله تعالى أن يكون مؤمناً كاملاً؛ لأن هذا مكمل للفرائض وجزء من سنة رسول الله ﷺ»^{٥٥٩}

ولقبول هذه الخدمة -شأنها شأن كل عمل- ينبغي أن يملأها الإخلاص، كما يقتضي قبولها أيضاً أن تكون متوجهة إلى الله سعيًا لرضاه سبحانه، ومتوجهة إلى عباد الله تعالى بقلوب ملؤها الرحمة والإيثار، بعيدة عن كل الأغراض النفسانية، لا يشغلها سوى الأغراض الأخروية، رضا الله تعالى والفوز بجنته، والنجاة من عذابه.

ومن أبرز وسائل هذه النجاة «شق تمر» تقدمها إلى محتاج فتقيه من الجوع، ويقيك الله بها من النار، كما جاء في حديث النبي ﷺ:

«اتقوا النار ولو بشق تمر»^{٥٦٠}

٥٥٧ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٧ب، ٦٢أ.

٥٥٨ انظر: من رسائله إلى مريديه، الميزاب الذهبي، عدد: ١٦٢، ص ٦، آب/ أغسطس ١٩٩٩؛ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ج ١، ٥٢-٥٣؛ ج ٣، ٢١٠.

٥٥٩ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ج ٣، ٢٢٠.

٥٦٠ البخاري، الزكاة، ١٠/ ١٤١٧، الرقاق، ٥١/ ٦٥٤٠؛ مسلم، الزكاة، ٦٦-٧٠/ ١٠١٦.





ويروي لنا الشيخ عبيد الله أحرار رحمهم الله هذه الحادثة، فيقول:
 كنت في يوم من الأيام أمشي في السوق، فجاءني رجل وقال:
 «إنني جائع، هلّا تطعمني لوجه الله تعالى!»
 ولم تكن لي قدرة على إطعامه في ذلك الوقت، وكانت معي عمامة قديمة،
 فذهبنا إلى دكان أحد الطباخين، وقلت للطباخ:
 «خذ عمامتي هذه، هي قديمة ولكنها نظيفة، يمكنك أن تجفف فيها الأطباق،
 لكن أريد منك أن تطعم هذا الجائع مقابل ذلك، فهل ترضى بذلك؟»
 فأعطى الطباخ الطعام للفقير، وأراد إرجاع عمامتي لي، لكنني لم أقبل مع
 كل إصراره، ثم انتظرت ذلك الجائع حتى ينتهي من طعامه مع أنني كنت جائعاً
 مثله أيضاً»^{٥٦١}

وتم تتبدل الأحوال المادية للشيخ، ولا تتبدل الأحوال المعنوية، فيتحول
 فقره المدقع إلى ثراء واسع؛ لكن حبه للخدمة لا يتبدل ولا يزداد إلا إثارة، ولا
 تغره الدنيا التي منحتة حقولاً يعمل فيها الآلاف من العمال، ومع اتساع غناه
 وطوله تتسع دائرة عطائه وخدمته، ويصف جانباً من ذلك بقوله:

«لقد أخذت على عاتقي رعاية بعض المرضى في مدرسة مولانا قطب الدين
 في سمرقند، وكان هؤلاء المرضى يوسّخون السرر حين يزداد مرضهم، فكننت
 أغسل ثيابهم بيديّ وألبسهم إياها، فأصبت ذات يوم بمرضهم بسبب خدمتي
 المستمرة لهم، وصرت طريح الفراش، ولكن على الرغم من هذه الحالة التي
 صرت إليها، داومت على جلب الماء بالقراب للمرضى، وتنظيف سررهم،
 وغسل ثيابهم»^{٥٦٢}

٥٦١ رشحات، ص ٤١٩.

٥٦٢ مير عبد الأول، المسموعات، اسطنبول ١٩٩٣، ص ٣٢-٣٣؛ رشحات، ص ٤٢٥.





وكان رحمه الله يقدم هذه الخدمة لكل الناس بلا تفرقة أو تمييز، لمن عرف ولمن لم يعرف، ثم ينسلُّ منسحبًا في هدوء كي لا يفسد أحدٌ عليه خدمته بأي مقابل. وثمة أدب آخر من آداب الخدمة يكلمنا عنه الشيخ موسى رحمه الله فيقول:

«يجب على العبد أن يرتقي في أخلاقه ومعاملاته طالما أنه يقدم خدمات للآخرين، وعليه أن يسعى لتوجيه قلبه لربه جل جلاله توجيهًا يليق بكماله، ويؤدي العبودية للحق تعالى على أكمل وجه؛ هذه العبودية القائمة على الإخلاص والأدب والتواضع، وإن لم يكن الحال كذلك، فإن أهل الخدمة الذين لا يجدون في أنفسهم الروحانية وكمال الأخلاق والأصول، إن لم يرتقوا إلى الدرجات العليا، فإن خدماتهم تفسد الروحانية ويحرمون من نصرة المولى وَجَّهْ بسبب ضعف نيتهم»^{٥٦٣}

وغير ذلك من الآداب المتعلقة بالخدمة والإنفاق التي نجد نماذج راقية منها في حياة وسلوك أهل العلم والدين والولاية، فقد أدرك هؤلاء أن شكرهم لنعمة الله تعالى عليهم لا يكون إلا بالفيض بهذه النعمة على عباد الله جميعًا، وجعلهم شركاء لهم فيما أنعم الله عليهم، ويتأتى ذلك عبر حفاظهم على دوام الترقى في المراتب، ودوام الحفاظ على الرقي المعنوي إلى معالي الأخلاق والروحانيات، فلا تزيدهم التقوى إلا خُلُقًا، ولا يزيدهم الغنى إلا زهدًا، ولا يزيدهم الرقي إلا تواضعًا.

ومن المراتب صعبة الوصول في الخدمة ما سنراه في القصة التالية للشيخ معروف الكرخي وهو من كبار أولياء الله تعالى:

فقد حلَّ رجل مريض طاعن في السن ضيفًا على الشيخ معروف الكرخي، وكان مسكينًا لا حيلة له؛ قد تساقط شعره وشُحِبَ لونه، وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجهَّز له الشيخ الكرخي سريرًا ليسترريح عليه.





كان المريض يعاني كثيرًا من مرضه ويئن ويصرخ بصوت عالٍ، واستمر على هذا الحال طوال الليل حتى الصباح، فما استطاع لا هو ولا مَنْ كان معه في البيت أن ينام بسبب ألمه وصراخه، وفوق ذلك كله؛ ازداد طبعه سوءًا وبدأ بإزعاج الآخرين وذلك بعتابه الشديد عليهم، وفي نهاية المطاف بدأ من كان في البيت بالمغادرة لأنهم لم يستطيعوا تحمّل كلامه الفظ وسلوكه السيئ، ولم يبقَ مع المريض سوى معروف الكرخي وزوجته.

ولم يكن معروف الكرخي ينام في الليل، بل كان يلبي حاجات هذا المريض سيئ المزاج، ويحاول جاهدًا خدمته، وفي يوم من الأيام غلبه النعاس، فنام دون قصد، وحين رأى هذا المريض الغافل الكرخي الذي كان يرعاه برأفة ورحمة نائمًا، بدأ بمعاتبته ولومه بدل أن يشكره، وقال:

«أي نوع من الدراويش هذا! إن مثل هؤلاء لهم سمعة في الظاهر فقط، أما في الحقيقة فهم في قمة الرياء، وكل عمل من أعمالهم من أجل هوى أنفسهم، ظاهرهم طهارة وباطنهم قذارة، يأمرّون الناس بالتقوى وينسون أنفسهم، ولهذا ينام هذا الرجل هنا ولا يفكر في حالتي، وكيف لمثل هذا الذي أشبع بطنه ونام أن يعلم حالة مريض لا حيلة له ولا يدخل النوم إلى عينيه حتى الصباح!».

أما معروف الكرخي فقد كان يسمع هذا الكلام المرير الذي يرميه الرجل به لكنه يصبر عليه ويحتمل، وكأنه لم يسمعه، لكن زوجته ما استطاعت أن تصبر وتتحمل أكثر، فقالت لزوجها بصوت خافت:

«لقد سمعت ما يقوله سيئ الطباع هذا، ليس علينا أن نؤويه بعد هذا اليوم، ولن نسمح له بأن يحمّلنا معاناته ويقابلك بالجفاء، أخبره أن يغادر هذا المكان وليعتن بنفسه لوحده، فالخير يُقدّم لمن يُقدّره، ومن السوء الإحسان لمن ينكر عليك إحسانك، فهذا يجعلهم يتمادون أكثر، ولا يجوز أن توضع وسادة تحت رأس هذا الدنيء، بل لا بد أن يوضع رأس الظالمين على حجر».





وكان معروف الكرخي يستمع بهدوء إلى كلام زوجته، ثم قال لها وهو يتسم:

«يا امرأة، لماذا يغضبك كلام هذا الرجل؟ فإنه إذا صرخ كان صراخه علي، وإذا أساء الأدب فهو يوجه كلامه إلي، وكلمات هذا الرجل التي تبدو مُستقبحة تُسعدني، ألا ترين أنه في حالة اضطراب وألم! ألا ترين أنه لا ينام ولو للحظة! ولتعلمي أن الرأفة الحقيقية والرحمة في معناها الأصلي هي أن تتحملي جفاء مثل هؤلاء».

ويقدم الشيخ سعدي الذي نقل هذه القصة نصائحنا لنا فيقول:
«إن الفضيلة في الخدمة هي تحمل الضعفاء شكرًا لكونك قويًا تتمتع بصحة جيدة».

«إن القلب العفو هو ذلك القلب المليء بالمحبة، وإذا ما كنت شخصًا فظًا غليظ القلب، فإن ذكرك سيموت مع موت جسدك، أما إن كنت صاحب كرم ومن أهل الخدمة والخير، فإن ذكرك سيدوم بعد موت جسدك بمقدار تضحياتك ودخولك في قلوب الناس، ألا ترى القبور الكثيرة في الكرخ! ألا ترى أنه لا توجد قبور معروفة يزورها الناس هناك سوى قبر معروف الكرخي!».

ومن العبارات الجميلة التي نطق بها أهل الدين والعلم قولهم: «التصوف أن تكون محبوبًا لا حِملاً على الآخرين» أي أن تتحمل كل فرد في المجتمع، وألا تكون حِملاً على أحد.

إن أبواب الرحمة تُفتح للأمة عبر خدمات التضحية والإيثار، وقيمة الخدمة منوطة بعظم التضحية في أدائها، وبتقديمها كأنها عبادة من العبادات المفروضة، والخدمة المقبولة عند الله تعالى هي تلك الموجهة لنيل رضاه، والتي يؤديها العبد دون أن يجرح مشاعر مَنْ يتلقى هذه الخدمة، ويقول عبد الله بن المُنازل رَحِمَهُ اللهُ:

«الأدب في الخدمة أفضل وأعز من الخدمة ذاتها».





ويقول مولانا جلال الدين الرومي بناءً على هذه الحقيقة:

«اعمل واخدم الناس لوجه الله تعالى، إذ لا يضيرك قبول الناس عملك أو رفضهم، ألا يكفيك في سوق الدنيا هذه أن يشتري منك الله تعالى كل بضاعتك وتصبح غنيًا بها؟ وكيف لك أن تقارن بين ما ستأخذه من الله تعالى وبين ما يمكن للناس أن يعطوك إياه! لذلك وجّه عينيك وقلبك إلى ما ستأله من فيوضات من الله تعالى لا إلى عبارات الشكر من الناس!».

إذا؛ هذا هو الجمال والسمو والرقى الذي أراد التصوف إيصال القلوب إليه، وكان من الوصايا التي تلقاها الشيخ بهاء الدين نقشبند رحمته الله من أستاذه كي يتخلّص من ميوله النفسانية في داخله: «راقب القلوب وانتبه إليها، واعتن بأولئك الفقراء والضعفاء ومكسوري القلوب واخدمهم، وراع أولئك الذين يستصغروهم الناس وامدحهم وجاملهم، وأظهر لهم التواضع والمحوية!».

كان الشيخ نقشبند رحمته الله في السنوات الأولى من انتسابه للطريقة يسعى للوصول إلى حالة «المحوية» التي هي عكس الغرور والتكبر، وفي سبيل ذلك عاش سبع سنوات لا يمكن لأي فرد أن يعيش مثلها، فقد كان يخدم المرضى والمعاقين والحيوانات الجريحة، وحتى إنه كان ينظف الطريق الذي يمشي عليه الناس. ويوضح بنفسه هذه الحالة التي عاشها فيقول:

«لقد عملت مدة طويلة كما أمرني أستاذي، وقدمت الخدمات كلها، ووصلت إلى حالة كنت فيها إذا ما صادفت أي مخلوق من مخلوقات الله أثناء سيرتي في الطريق، أقف وانتظر مروره، واستمر حالي على هذا المنوال طوال سبعة أعوام وأكرمني الله تعالى بعد هذه الخدمات بحال من الفيوضات الربانية التي لم أكن عليها من قبل، ففي إحدى الليالي صادفت كلبًا في طريقي، وأصابني حالة لم أعهد لها من قبل، فتوجهت إلى الله تعالى بالابتهاال والتضرع، وبدأت بالبكاء الشديد، حينها استلقى هذا الحيوان المسكين على ظهره ونظر إلى السماء، ورفع





أطرافه الأمامية، وبدأ بالأنين بحزن، فرفعت يديّ، وبدأت بقول: آمين، بقلب خاشع مكسور لله، واستمر هذا الحال إلى أن سكت هذا الحيوان وعاد إلى وضعه الطبيعي»^{٥٦٤}

إن المثال السابق هو مظهر من مظاهر خدمة المخلوقات من أجل الخالق عبر النظر إليهم بعين الله تعالى الممتلئة بالمحبة.

ويوضح الشيخ علاء الدين العطار خدمات أستاذه نقشبند بقوله:

«كانت أخلاق أستاذنا الشيخ نقشبند أخلاقاً رفيعة سامية، فإذا ما زاره أحد في بيته، كان يخدم ضيفه بنفسه، ويكرمه خير إكرام، ويظهر ترحيبه به ورعايته له. وكان يعتني أيضاً بدابة الضيف اعتناءً شديداً، فلا يعود الضيف مشغولاً بدابته»^{٥٦٥}.

ويقول الشيخ شادي وهو من مريدي الشيخ نقشبند:

«عندما كان يأتي صاحب للشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللهُ أو ضيف إلى داره، كان الشيخ يخدمه، ثم يقدم الماء والعلف لدابته، فقد كانت جميع الخدمات نعمةً بالنسبة إليه، وحتى لو أتى الدراويش الذين يربيههم إلى داره، كان يُعَدُّ لهم ما يلزم من أجل طهاراتهم ونظافتهم ويقول: (إن هذه الخدمات كلها نعمة ومِنَّة بالنسبة إلي)، وإذا ما شَرَفَ شيخُنا دارَ مريد من المريدين، كان يسأل عن أولاده وأقاربه وخدمه ودوابه وحتى دجاجاته، وكان يهتم بكل فرد من أفراد البيت ويجذب قلبه إليه»^{٥٦٦}

وإذا ما طُبِخَ طعام في مجلس، كان الشيخ نقشبند يقدم الطعام بيديه لمن طبخه وحضره.^{٥٦٧}

٥٦٤ انظر: أنيس الطالبين، ص ٤٩-٥٠؛ محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص ١٧-١٨.

٥٦٥ أنيس الطالبين، ص ٧٠.

٥٦٦ أنيس الطالبين، ص ٧١؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، ورقة: ٤٦ ب، محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص ٣٨.

٥٦٧ أنيس الطالبين، ص ١٩٨؛ محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، ص ١٥٣.





ويقول أحد طلبته:

«كان السبب في انتسابي للشيخ نقشبند وارتباط قلبي به هو الحادثة التالية:
في يوم من الأيام اجتمع الدراويش في بخارى -وكنت واحداً منهم-
ليعودوا الشيخ نقشبند الذي كان مريضاً آنذاك، والتقينا به في مكان يُسمى (باغي
مزار)، كان الشيخ يلتقي بالدروايش بوجه مبتسم حتى في مرضه، ويذهب مباشرة
ليحضر الشياه التي سُدِّبَ لهم، حتى إنه جاء حاملاً شاة على ظهره المبارك
وانشغل بنفسه في طبخ الطعام، وإلى مثل هؤلاء من أولياء الله مال قلبي لما
يتحللون به من أخلاق حميدة سامية»^{٥٦٨}

كان الشيخ نقشبند رحمته الله يسعى جاهداً لحل مشكلات كل فرد ويهتم
بأمورهم، ولهذا كان يُطلق عليه اسم «الشيخ حلال المشكلات».
وكان الشيخ نقشبند رحمته الله يقول:

«إن أولياء الله يتحملون الناس وأعباءهم من أجل تحسين أخلاقهم، والقلوب
كلها تحت نظر الله دون استثناء، سواء أعلم صاحب القلب أم لم يعلم. ولهذا
يتحمل الأولياء الناس كي ينالوا قلوبهم فتكون وسيلة لنيل الفيوضات من النظر
الإلهي في تلك القلوب!»^{٥٦٩}

ويقول الله تعالى واصفاً المؤمنين الصالحين:

﴿...وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾^{٥٧٠}

ولعل أفضل الخدمات التي تحقق معاني الآية الكريمة هي الأوقاف، وما
تذخر به من صور متنوعة وكثيرة تقدم الخدمات لكل المخلوقات، وبشتى السبل
التي تخفف عنها أعباء الحياة.

^{٥٦٨} أنيس الطالبين، ص ١٤٥.

^{٥٦٩} ديوان مولانا خالد البغدادي، البيت: ١٣٦-١٣٧.

^{٥٧٠} آل عمران: ١١٤.





وكان الأنبياء -عليهم السلام- قدوةً بشرية في تقديم الخدمة للناس، وتبعهم الأولياء والمؤمنون في ذلك الطريق، فكانت حياتهم وسلوكياتهم موقوفة لخدمة الناس، وحولوا هذه الخدمات إلى أصقاع الدنيا، وسطروا أجمل الصفحات في تاريخ البشرية.

وتختلف الخدمات من وقف إلى آخر، وتختلف الجهود الخدمية من شخص إلى آخر، كما تختلف الظروف والاحتياجات والقدرات على البذل والعطاء والخدمة، لكن الله تعالى يقدر ذلك كله وفق ما وهبه للإنسان من قدرة واستطاعة، ووفق ما يحمله قلب ذلك الإنسان من إخلاص وإيثار.

ولا ينسى التاريخ أبداً موقف مئة وعشرين ألف صحابي في حجة الوداع حول النبي ﷺ، فسرعان ما تفرق هذا الجمع الكريم تفرق أشعة الشمس في دروب الكون عند شروقها، فما تركوا مكاناً يستطيعون بلوغه، إلا حملوا إليه النور والهداية والعلم والدين والبركة، خدمة لدين الله تعالى وخلقه.

وتدّخر بقاع الدنيا شرقاً وغرباً بمقابر الصحابة الكرام، فقبور أولاد سيدنا عثمان والعباس ؑ في سمرقند، وغيرهم في الصين، وفي القسطنطينية، وأرجاء الجزيرة العربية، وأفريقيا، وآسيا.

فذلك الصحابي الجليل جار رسول الله ﷺ -أبو أيوب الأنصاري ؑ- رغم تجاوزه الثمانين من عمره يصل مرتين إلى أسوار القسطنطينية مع جيوش الفتح ليحمل النور والخدمة والسعادة إلى الناس.

وذلك الصحابي وهب بن كبشة ؑ مدفون في الصين^{٥٧١}، وهي مسافة تحتاج إلى عام كامل من السفر والمسير، لكنه كان يؤدي الرسالة التي كلفه بها النبي ﷺ،

٥٧١ يوجد مقام في مدينة غوانغهو الصينية يُنسب إلى سعد بن أبي وقاص ؑ. ومن إحدى حقائق التاريخ هي أن الأماكن التي توجد فيها قبور الصحابة الكرام وأولياء الله تكون غالباً ذا تأثير في الحفاظ على الدين وإيمان الناس في تلك الأماكن، والأمثلة عن هذه كثيرة في آسيا الوسطى في مدن مثل سمرقند وبخارى وتركستان وطشقند.





فقام بها كما أمر، ثم تجشم عناء العودة إلى المدينة في سنة أخرى شوقاً إلى الحبيب عليه الصلاة والسلام، والذي وجده قد انتقل إلى جوار ربه، فعاود السفر الطويل مرة أخرى مكملًا المهمة المقدسة في الخدمة والتبليغ، وإنفاذ الأمر النبوي بحمل الرسالة إلى أقصى بقاع الأرض، وما زال عليها حتى لقي ربه في تلك البلاد البعيدة.

لقد كان الإيمان العميق لهذا الجيل العملاق من الصحابة هو الدافع والوازع الأقوى الذي حفزهم على تقديم الخدمة، من قلوبهم إلى البشرية كلها في كل مكان؛ بل في كل زمان عبر القوة المعنوية التي حملتها سيرتهم وقُدوتهم. ولا ريب أن الصحابة الكرام قد وصلوا إلى هذه المرتبة العالية من خلال التزامهم بمبادئ الخدمة التسعة في ضوء تربية النبي عليه الصلاة والسلام لهم؛ وهذه المبادئ هي:

١. خدمة الله تعالى: الالتزام بأوامره ونواهيه بكل صدق ومحبة.
 ٢. خدمة رسول الله عليه الصلاة والسلام: العيش بمقتضى سنته، ومحبه من صميم القلب.
 ٣. خدمة أولياء الله: إظهار المحبة والوفاء والصدق لهم.
 ٤. خدمة الوالدين: نيل رضاهما وإطاعتهما دون أدنى تردد أو تذمر.
 ٥. خدمة الأولاد: حسن تربيتهم كي يكونوا مؤمنين صالحين.
 ٦. خدمة الأقارب: صلة الرحم والإحسان إليهم.
 ٧. خدمة المؤمنين: مشاركتهم أفراحهم وأتراحهم.
 ٨. خدمة الناس كلهم: السعي لفائدة الآخرين بالقول والفعل.
 ٩. خدمة المخلوقات: النظر إلى المخلوقات كلها بعين الرأفة.
- وما أحسن قول الشيخ علي راميتي في هذه الخدمات والقيام بحققها:





«هناك الكثير ممَّن يخدمون الناس وهم يمتنون عليهم، وهناك الكثير ممَّن يخدمون الناس وهم يمتنون لهم، وشتان بين الفريقين، لكن ممَّن ينال رضا الله هو الذي يؤدي الخدمة ويستشعر معها أنها نعمة من الله ينبغي عليه أن يقدم الشكر مع الخدمة، ولا يستشعر معها الشكوى»^{٥٧٢}

وفي خضم ذلك كله، هناك كنز مدفون في أعماق الروح لا يمكن استخراجه إلا عبر المشاعر الراقية التي يستشعرها المرء حين يقدم الخدمة للناس، هذا الكنز تبرز جواهره في السكينة والطمأنينة وسلامة الروح، وهي جواهر تتلألأ لكل ممَّن يقدم خدمة بإخلاص؛ سواء كان مدرِّكاً لوجود هذا الكنز أم لا، لكن الذي يصل إليه سريعاً ويستمتع بذلك الأجر الرباني والسعادة الدنيوية والأخروية هو الذي يستشعر أن الخدمة عبادة من الفرائض يؤديها إلى الله - لا إلى الناس - بإخلاص ورضاً.

ويجد العبد نفسه سائرًا في طريق النجاة حين تستولي على قلبه الرغبة الصادقة في الخدمة؛ حيث تحتل مكان القسوة والفظاظة، فتطرد رقة «يونس أمره» من القلب قسوة «الحجاج الثقفي»، وحينها يسمو القلب ويسمو معه العقل والحس والشعور، وترتقي معهم العلوم والفنون والآداب والأخلاق.

حين ذلك يكون القلب قد وصل إلى النضج المعنوي، وأنتج هذه الروائع بعد أن قدم هذه الخدمات الحقيقية والمخلصة، ومثل هذه القلوب هي التي تكون «محل نظر الله تعالى».

ويالسعادة ممَّن تمتع قلبه بهذه المزايا بعد أن استمتع بإخلاص الخدمة، ويالخيران من حُرِّم قلبه تلك الصفات المعنوية التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة.





ث. التوجه

ويقصد به توجيه كل القوى الروحية الموجودة لدى المرشد إلى قلب المريد، وعلى هذا الأساس ينقل المرشد حاله إلى المريد؛ والتوجه بمعنى آخر هو نقل الأحوال الفاضلة من المرشد الكامل إلى المريد وينتج عن ذلك تصرف المرشد بقلب المريد وروحه، ويكون ذلك بوسائل كثيرة أصيلة أو ثانوية، وستكلم هنا عن وسيلتين من وسائل التوجه وهما: «العين» «النظر» و«الجوهر» «القوة الروحانية».

«العين» «النظر»:

والمقصود بـ «العين/ النظر» هو دلالتها في الاستخدام اللغوي والشرعي والحياة اليومية، وغالبًا ما تنصبُّ هذه الدلالة على الحَسَد، وذلك لدى عامة الناس. وتشير الأحاديث الشريفة إلى هذا النوع من النظر:

«العين حق»^{٥٧٣}

«العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين».^{٥٧٤}

لكن ثمة معنى آخر إيجابيًا في تأثير النظر، وقد أثبتت الحقائق العلمية والفيزيائية أن هناك إشعاعات تخرج من عين الناظر إلى المنظور مما يدعم القول بأن التأثير سلبيًا أو إيجابيًا يكون متبادلًا بين الشخصين.

لكن التأثير الأكبر يكون للشخص الأكثر طاقة في الشر، وهو الحاسد، كما يكون الشخص الأكثر قابلية للتأثر هو الشخص المحسود.

ومن المعلوم أن «الليزر» المكتشف في عصرنا هو عبارة عن نوع من أنواع الأشعة غير المرئية، ومن الحقائق المعروفة لكل فرد اليوم أن الليزر يستخدم

^{٥٧٣} البخاري، الطب، ١٢/ ٥٧٤٠؛ مسلم، السلام، ٤١/ ٢١٨٧.

^{٥٧٤} مسلم، السلام، ٤٢/ ٢١٨٨.





لقطع طبقات من الحديد وفي العمليات الجراحية، ومن المعلوم أيضاً أن بعض الأجسام تظهر رد فعل حين تتعرض للأشعة لاسيما في ألوانها.^{٥٧٥}

والمعنى الإيجابي في النظر نجده في التصوف على النحو التالي:

إن «النظر» الذي يعرف العامة ماهيته بطريق الحس أو النقل -ولو لم تكن معرفة علمية- يلعب في التصوف دوراً أساسياً أثناء تربية السالكين تربية معنوية؛ لأن المرشد الكامل هو الشخص الذي وصلت قوة تأثير نظره إلى أعلى درجة نتيجة الرياضات وطهارة القلب، وهذه الأهلية والقدرة مقتبسة من رسول الله ﷺ لأنه من ورثته.

وتأتي مرتبة «الصحابة الكرام» في المرتبة الثانية بعد سلسلة الأنبياء التي تحتل المرتبة الأولى في سلم الرقي المعنوي، والسبب في رفعة شأن الصحابة وشرفهم ومكانتهم لا يقتصر على «بركة صحبتهم للنبي ﷺ» فحسب، فالأساس هو أن «النبي ﷺ كان يوجه نظره إليهم»، وإذا ما أردنا بالفعل ذكر المعايير المختلفة التي تجعل من الرجل «صحابياً»، نجد أنه من المعايير المسلّمة مواجهة الرجل الرسول ﷺ، أي تبادل النظر بين الرسول ﷺ وذلك الرجل وهو مؤمن به.

ولا يمكن المقارنة أبداً بين أفضل ولي من أولياء الله وأدنى صحابي في المرتبة؛ لأن الصحابي نال ما لا يمكن أن يناله الولي وذلك مما أخذه من نظر

٥٧٥ نجد في بعض المكاتب أن طاولات القراءة تُغطى بقماش أخضر اللون، كي تحفظ العينين من التعب، ولأن عين الإنسان ترتاح حين تنظر إلى اللون الأخضر كما هو الحال حين تنظر إلى البحر والأفق. ويلبس الناس ثياباً بيضاء في الصيف لأن اللون الأبيض يعكس أشعة الشمس، أما اللون الأسود فردُّ فعله تجاه أشعة الشمس هي عكس ردة فعل اللون الأبيض، فالألوان القائمة لا تعكس أشعة الشمس بل تمتصها، لذا ترفع من حرارة الجسد. ويلبس الأطباء في المستشفيات ثياباً بيضاء لأن اللون الأبيض هو رمز النظافة، أما في غرفة العمليات فهم يلبسون ثياباً خضراء اللون قريبة من اللون الياقوتي، ليس لعدم إزعاج العينين فقط بل لإراحتهما أيضاً. أما اللونين الأصفر الداكن والأزرق الداكن فلها خاصية امتصاص الأشعة.





النبي ﷺ ومخاطبته إياه، وهذا هو الفارق الكبير بينهما الذي لا يمكن أن يكون إلا بهذا النظر، لذلك لم يصل مَنْ أتى بعد وفاة النبي ﷺ إلى مقام الصحابة لأنهم لم يحفظوا بالنظر إليه، بيد أن مَنْ نال شرف رؤية الصحابة وصل إلى مرتبة «التابعين»، ومَنْ رأى التابعين نال شرف مرتبة «تابع التابعين».

لقد ورث أولياء الله تعالى من النبي ﷺ الروحانية والأخلاق الحميدة، لذلك لا يمكن أن تُقاس صلاحياتهم وقدراتهم مع غيرهم، وعلى هذا الأساس إذا أراد المرء الاستفادة الكاملة من المرشد الكامل، فلا يكفي أن يكون محباً له فقط، بل لا بُدَّ من نيل الشرف والفيوضات عبر التعرض لنظره النوراني.

وجاء في الحديث:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^{٥٧٦}

ويشير هذا الحديث إلى أن فراسة المؤمن تزداد بازدياد إيمانه، ونفهم من هذا القول أيضاً أن فراسة أولياء الله - وهم المؤمنون الذين ارتقوا إلى الدرجات العالية - أقوى من فراسة المؤمنين الآخرين.

إن التحذير المذكور في الحديث الشريف من خلال كلمة «اتَّقُوا» تعني:

«ألا تذهبوا إلى المؤمنين الكاملين بأفكار تخفونها، وبقلب مشغول بالأمر الدنيوية؛ لأن هؤلاء أشخاص مستثنون يرون بفراساتهم ما تَسعون لإخفائه».

فَمَنْ يكون نظره قوياً إلى هذه الدرجة، تزول أمامه الحواجز الظاهرية، ويرى الحقائق بصورة واضحة جليّة، لذلك كله، نجد أنه من الآداب الدينية المحافظة على اللسان أمام العالم، وعلى القلب أمام العارف.

وبما أن العين «النظر» هي وسيلة مهمة من الوسائل التي يستخدمها المرشد في طريقة التربية، فإن تلقّي السالك لنظر المرشد يُعدُّ فوزاً عظيماً.





ذكرى:

حين كنت في مدرسة الأئمة والخطباء، تعرفت على شخص لطيف ذي قلب سليم اسمه أحمد جان، كان باكستانيًا متعلقًا بالشيخ سامي، وكان يحب والدي الشيخ موسى رحمه الله كثيرًا، ولا يرغب في الابتعاد عنه، وكان يأتي إلى تركيا مرارًا لزيارة شيخنا سامي، ويبقى في بيت الضيافة عندنا.

كانت المحبة تملأ قلبه، حتى إنه كان يجول حول منزل الشيخ سامي في الأيام التي لا تكون فيها صحبة معه، وذلك بسبب اشتياقه الشديد لرؤيته، وفي إحدى الليالي روى لنا كيف بدأت محبته للشيخ ووصلت إلى هذه الدرجة فقال: كان ذلك في موسم الحج حين كنت جالسًا في المكان الذي يُطلق عليه اسم أصحاب الصُّفَّة في الروضة الشريفة، إذ مرَّ من أمامي شيخ لطيف نوراني الوجه يذكرك بالله حين تنظر إلى وجهه، مع جماعة نورانية ترافقه، وحين صار بمحاذاتي تمامًا نظر إليَّ نظرة.

ومن خلال نظرة العين هذه دخلتُ حينها في حالة غريبة إلى عالم يختلف عن عالمنا هذا، لقد تغير كل شيء، فصرت وكأنني فقدت ذاتي بعد أن تلذذت بهذا العالم الروحاني، وصرت فجأةً متعلقًا بهذا الإنسان الذي لا مثيل له غايةً التعلق، وأصبحت في حالة تشبه الغيبوبة، وما هي إلا لحظات حتى عدت إلى وعيي من جديد، وعزمت مباشرة على إيجاد هذا الشيخ، لكن كان من الصعب إيجاده بين هذا الحشد الكبير المألوف في الروضة الشريفة.

ففكرت في العودة إلى المكان نفسه وانتظاره هناك، والحمد لله الذي لم يخيب لي أمني، فتبعته بسعادة وفرح، واقترب مني بعض ممن كانوا بصحبته، وأرادوا تقديم صدقة لي ظنًا منهم أنني متسول، لكنني لم أقبل، وعلى الرغم من أنني لم أكن ميسور الحال، إلا أنني ببركة نظر هذا الرجل الصالح لم أعد أهتم بقيمة أي شيء في هذه الدنيا، وباتت لدي قناعة مختلفة.





ثم وصلوا إلى بيت ودخلوا فيه، وأردت الدخول خلفهم أيضًا، لكن أصحابه منعوني من ذلك لأنهم لم يعرفوني، وهذا أمر طبيعي، بيد أن سلطان العارفين الشيخ سامي رجع إلى الوراء وقبل أن يدخلني معهم.

في ذلك اليوم، وفي ذلك البيت، تلقيت من ذلك العالم الكبير الكثير من التجليات والنظر والتوجه.

والحمد والشكر لله، فبفضل هذه النظرات والتوجه تغيرت حياتي كلها رأسًا على عقب، وصارت على أجمل حال، وغدوت إنسانًا لطيفًا يهتم بالحياة الأبدية ويعمل لأجلها، وفي الوقت الحاضر أذخر المال كي أزور هذا الشيخ في كل عام وأستفيد من نظراته وتوجهه، وهذا بالنسبة لي أعظم فوز يمكن لقلبي أن يحظى به، ونشوتي التي ما بعدها نشوة.

الجوهر «القوة الروحانية»

إن الوسيلة الأكثر تأثيرًا التي يستخدمها المرشد كي يوجّه قلب المريد وروحه هي «قوته الروحانية»، ولا يعلم أحد ماهية هذه الوسيلة إلا مَنْ يستخدمها، وهي تدخل في قسم الحال في التصوف، فلا يمكن أن تشرح في الكتب؛ لأنها ليست من قسم المقال «الكلام».

ج. الدعاء

الدعاء هو سنة من سنن النبي ﷺ، وقد اتخذ المتصوفة هذه السنة كأحد الأصول والوسائل في تربية السالك، والتي يستعين بها المرشد الكامل في توجيه المريد.

وقد كان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في المرحلة المكية للدعوة قبل الهجرة حينما كان المسلمون مستضعفين، أن يُعزَّ الله تعالى الإسلام بأحد العُمَرَيْن، رغم أن كلا العُمَرَيْن كانا من أشد الناس ضغينة وحرَبًا ضد الإسلام،





حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عازماً على قتل النبي عليه الصلاة والسلام، لكن بركة الدعاء كانت أسرع إلى قلبه فملأته نوراً وهداية، وحولت نار كراهيته إلى نار حماسة وحمية للإسلام وأهله.

وفي أثناء حصار الطائف طلب الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على قبيلة ثقيف التي أصاب المسلمين كثيرٌ من شرها وأذاها، لكن كيف للنبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على أحد وهو الرحمة المهداة؛ فما كان منه إلا أن دعا لهم، فقال: «اللهم اهد ثقيفا»^{٥٧٧} فما لبثوا غير يسير حتى جاؤوا مباعين مسلمين ببركة الدعاء النبوي الكريم لهم ولغيرهم من القبائل والبلدان والأصقاع.

وكان من دعائه أيضاً: «اللهم اهدِ دوساً وأتِ بهم»^{٥٧٨}

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر نظر نحو اليمن فقال:

«اللهم أقبل بقلوبهم»

ونظر نحو العراق فقال مثل ذلك، ونظر نحو كل أفق فقال مثل ذلك، وقال:

«اللهم ارزقنا من تراث الأرض وبارك لنا في مَدُننا وصاعنا»^{٥٧٩}

وقد استجاب الله تعالى لدعاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانتشر الإسلام في كل بقعة من بقاع الأرض.

ويروي الصحابي شعبة الحادثة الآتية:

خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، والله ما أخرجني إسلامٌ ولا معرفةٌ به، ولكن أبيتُ أن تظهر هوازنُ على قریش، فقلت وأنا واقف معه: يا محمد إني أرى خيلاً بُلقاً، فقال: «يا شعبة إنه لا يراها إلا كافر»، فضرب يده في صدري ثم قال:

٥٧٧ الترمذي، المناقب، ٧٣/٣٩٤٢؛ ابن هشام، السيرة، ٤، ١٠٣.

٥٧٨ البخاري، المغازي، ٧٥/٤٣٩٢؛ مسلم، الفضائل، ١٩٧/٢٥٢٤؛ أحمد، مسند، ٢، ٢٤٣/٧٣١٥.

٥٧٩ البخاري، الأدب المفرد، ص ٢٤٣/٤٨٢؛ الترمذي، المناقب، ٧١/٣٩٣٤.





«اللَّهُمَّ اهْدِ شَيْبَةً»، ثم ضربها الثانية فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ شَيْبَةً»، ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللَّهُمَّ اهْدِ شَيْبَةً»، فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحدٌ من خلق الله أَحَبَّ إِلَيَّ منه.^{٥٨٠}

وكانت أم أبي هريرة ترفض دعوات ابنها الكثيرة إلى الإسلام، لكنها في نهاية المطاف اهتدت إلى دين الإسلام ببركة دعاء النبي ﷺ.^{٥٨١}

ويمتد تأثير بركة الدعاء النبوي إلى دعاء ورثة الأنبياء من الصالحين والأولياء كوسيلة للإصلاح والتربية. والدعاء وسيلة متاحة للجميع، ومستجابة من الجميع، إذا تحققت شروطها، فليس الصالحون فقط هم مستجابي الدعاء، المذنبون أيضاً مستجابوا الدعاء، إذا هم أخلصوا النية فيه، وصدقوا في اللجوء إلى الله تعالى، والخشوع بين يديه، فالله تعالى لا يترك عباده مهما عظمت ذنوبهم، ودعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب مقبول؛ بل تؤمّن عليه الملائكة.

ونذكر هنا نبذة عن خصائص الدعاء لعلنا نستفيد منها: فقد كان رسول الله ﷺ يوصي المؤمنين دائماً بالدعاء بعضهم لبعض سواء أكان في حضورهم أم في غيابهم، فعن عمر رضي الله عنه، قال:

استأذنت النبي عليه الصلاة والسلام في العمرة، فأذن لي، وقال:

«لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعائك»، فقال كلمة ما يسرّني أن لي بها الدنيا.^{٥٨٢}

ولا شك أن النبي ﷺ هو أشرف المخلوقات عند الله ﷻ، ومع ذلك فقد طلب المخلوق النوراني عليه الصلاة والسلام الدعاء من أصحابه، وهي إشارة إلى أهل الدين والعلم الذين وصلوا إلى درجات سامية بأن يستفيدوا من دعاء مَنْ هم أقل منهم مقاماً.

٥٨٠ ابن كثير، البداية، ٤، ٣٣٣.

٥٨١ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ١٥٨ / ٢٤٩١.

٥٨٢ أبو داود، الوتر، ٢٣ / ١٤٩٨؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٩ / ٣٥٦٢؛ ابن ماجه، المناسك، ٥ / ٤٩٨٢.





وقد قال رسول الله ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه:

«إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياض فمروه
فليستغفر لكم»^{٥٨٣}

وقد التقى سيدنا عمر رضي الله عنه في النهاية بسيدنا أويس القرني وطلب الدعاء منه.
وهكذا نرى أنه من وصايا رسول الله ﷺ لأئمة طلب الدعاء من الصالحين
أصحاب الفضيلة والتقوى من أجل دفع البلاء والغم، وجلب الخير والبركة.





يقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ ٥٨٤



ج. أسلوب التصوف

١. أسلوب الهداية والرحمة

يعرف المرشدون الكاملون أهمية الأسلوب في التصوف بقدر معرفتهم محتوى الإرشاد ومضمونه، ويتبعون الهدي النبوي في هذا الموضوع، لذلك كانوا دائماً وسيلة لهداية الكثير من العباد، وقد كان شعارهم في التربية المعنوية الاقتراب من السالكين بالرفقة والرحمة ليرتقوا في درجات الكمال، فكان ذلك سبباً في وصولهم إلى نتائج مثمرة.

وتمتلى حياة أولياء الله بأمثلة لا تُعد ولا تُحصى عن هذا الموضوع، ولكم هي مُعبّرة قصة الشيخ إبراهيم حقي الأرضرومي وهو من كبار المتصوفة:

ففي يوم من أيام رمضان دُعي الشيخ إبراهيم حقي إلى إحدى قرى أرضروم كي يعظ الناس وينصحهم، وأرسل له فرس مع خادم غير مسلم كي يساعده مقابل أجرة، وعند السفر، وبما أنه لم يكن هناك إلا دابة واحدة، ما كان للشيخ إبراهيم حقي إلا أن يتناوب على ركوبها مع الخادم، إذ كان يقتدي بسيدنا عمر رضي الله عنه حين توجه إلى القدس بصحبة عبد له وتناوب معه آنذاك على ركوب الناقة، وقد اعترض الخادم غير المسلم على ذلك مراراً قائلاً:

«إذا سمع أهل القرية بهذا سيوبخونني، ولن يعطوني أجري!»





فأجابه الشيخ:

«يا بُني، إننا نجهل ما سنؤول إليه حين تخرج أنفاسنا الأخيرة! إنك تقلق من معاتبة أهل القرية وتوبيخهم لك، لكنني أخاف من الحساب الكبير أمام المولى ﷻ! ثم بدأ بالتناوب على الفرس مع الخادم.

ولحكمة إلهية، حين شرعاً بالدخول إلى القرية كان الخادم هو الذي يركب على الفرس، تماماً كما كان الحال مع سيدنا عمر رضي الله عنه وعبداه، فخاف الخادم المسكين من أهل القرية، وتنازل عن حقه في الركوب، وأصرَّ على ركوب الشيخ، لكن الشيخ إبراهيم قال:

«أنت تركب الآن» ودخل القرية وهو يمشي أمام الحصان.

وما إن رأى أهل القرية هذا الموقف، حتى أسرعوا إلى الخادم وبدؤوا بتأنيبه والصراخ عليه قائلين:

«ما أشدَّ وقاحتك! إنك تنعم بالركوب على الفرس مع أنك شاب، وتترك هذا الشيخ ذا اللحية البيضاء ماشياً! هل هذه هي أمانتك؟ أهكذا أمرناك؟».

حينها وضح لهم الشيخ إبراهيم حقي الموقف فكفُّوا عن التوبيخ، وفي تلك الأثناء صاح رجل من أهل القرية مخاطباً الخادم غير المسلم:

«أيها الرجل، لقد رأيت ما رأيت من هذه الفضائل، أفلا تسلم!».

فسكت الخادم بضع دقائق ثم قال جملة فيها الكثير من العبر:

«إذا كنتم تدعونني إلى دينكم، فلن أستجيب لكم أبداً! أما إن كنتم تدعونني لدين هذا الشيخ المبارك، فأقول لكم إنني آمنت وأنا في طريقي إلى هنا!».

السر في معاملة هذا الرجل الصالح للخادم هو أنه نظر إليه نظرة العارف إلى الجوهر؛ لقد أبصر في الخادم إنسانيته وتشرفه بكونه مخلوقاً قد نفخ الله تعالى فيه من روحه، وجعله خليفة له في الأرض، ولم ينظر إليه على أنه غير مسلم أو عاصٍ.





لذلك نرى الصالحين مدركين تماماً أن الله تعالى قد شرّفهم بأن كانوا «خليفته» في الأرض، ويعرفون عِظَم الحقيقة التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^{٥٨٥}، وهم لا يولّون العبدَ ظهورهم بل ينظرون إلى الكمال في جوهره مهما كان غارقاً في الذنوب والآثام، ولا يقطعون بسهولة الأمل بصلاح أي إنسان، ويسعون لعدم فقدان الإنسان أمله، وأكثر ما ذكره الله تعالى في القرآن من أسمائه: «الرحمن والرحيم»، وقد أنزل سورة كاملة باسم «الرحمن» التي تعني أن رحمته تشمل المخلوقات كلها، وابتدأ أول آية فيها بـ «الرحمن».

وانطلاقاً من هذه الفكرة نرى أن التقرب من الإنسان من باب قلبه، أي بأسلوب الهداية والرحمة، أنجع طريق لبلوغ الرضا الإلهي.

وبالنظر إلى النتيجة، نجده أكثر الطرق بركة في تحصيل الغايات وبلوغ المرام، وأرقها في إزالة الصدا عن القلوب وعن معدنها الثمين، وهو أسلوب يمنح الجميع -الداعي والمدعو، المرشد والمريد، العاصي والمربي- المزيد من الخصال والأخلاق، ويوصلهم إلى طريق من النضج والمحبة واللطافة والرغبة في الوصال مع الله تعالى؛ كل بحسب درجته، واستعداده، ومقامه، وهذا الأسلوب هو إكسير الحياة الذي أحيا القلوب الكثيرة من مواتها، وعالجها من أسقامها، كما حدث على يد مولانا جلال الدين الرومي، ويونس أمره.

لهذا كان لمحتوى التصوف وأسلوبه في تبليغ الإسلام أهمية كبيرة في كل زمان، ومن حقائق التاريخ ظهور شخصيات صوفية كبيرة مثل مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره في مجتمع يقبع تحت نير الاحتلال المغولي، وكانت هذه الشخصيات ينابيع السلام والطمأنينة والسكينة، وقدمت الشفاء والعزاء لطبقات المجتمع المضطربة ولل كثير من الجرحى وأصحاب القلوب المتعبة، وكانت تحتضن الكثير من الغافلين كالمرضى الذين ينتظرون التخلص من أمراضهم،





وتبتعد دائماً في معاملاتها مع الناس عن «الحقد والكراهة»، ويوضح يونس أمره هذه الحقيقة أجمل توضيح بقوله:

«لم آتٍ لأدعي... فعملي المحبة، وبيت الله الأفتدة، قد أتيت لإحياء القلوب!»

لقد أتت هذه الشخصيات الكبرى من أجل إحياء القلوب؛ حيث إنهم كانوا ينظرون إلى قلوب الناس، وينشرون المحبة والرفقة حولهم، فكانوا بحق وسيلة لهداية الكثير من الناس، ولو أن هؤلاء سلكوا عكس هذا السلوك الرائع الذي يعتمد على الفراسة، لانتقطعت روابطهم مع الناس الذين تفصلهم عنهم هاوية كبيرة، وضاعت إمكانية تبليغهم بالتوجه إلى الله تعالى، وصار ذلك عكس ما أراده الله ﷻ، إذ إنه يأمر بإنقاذ عباده الذين غرقوا في مستنقع الذنوب، وهذا هو السبب في إرساله ﷺ آلاف الأنبياء على مدى التاريخ، وأمرهم بتزكية قلوب العباد بأجمل وأنجع أسلوب، ويستمر أولياء الله -الذين وهبهم الله تعالى للناس لل غاية نفسها- في التربية المعنوية بأسلوب الأنبياء نفسه.

إن الله ﷻ هو المصدر الوحيد للرفقة والرحمة، وهو الذي يوضح لنا الأسلوب الأكثر تأثيراً في دعوة العباد إلى الدين بقوله:

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...»^{٥٨٦}

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»^{٥٨٧}

٥٨٦ النحل: ١٢٥.

٥٨٧ فصلت: ٣٣-٣٤.





وكانت نتيجة تطبيق هذا الأسلوب الذي أوصى به رب العالمين أن تحولت الأرواح المليئة بالأشواك إلى ورود رائعة، وامتألت بالأنوار بعد أن كانت في ظلام حالك.

ويبين مولانا جلال الدين الرومي -الذي سار وراء هذه الحقيقة- أهمية توجيه الناس إلى الطريق الصحيح سواء أكانوا كفارًا أم مذنبين، والأسلوب الضروري لتطبيق ذلك بقوله:

«على الرغم من أن الحديد شديد السواد ولا يرى النور فيه، إلا أن الصدا المتراكم عليه يذهب عنه ما إن يُصقل، وحين تلمع المرأة -حتى لو كانت من حديد- تبدو جليّة لامعة، وتظهر عليها الأشكال والصور المقابلة لها».

«فلا تعكّر صفو مياه القلب حتى تستطيع أن ترى عليها نور القمر والنجوم! فالناس مثل مياه النهر، إذا ما تعكّرت هذه المياه فلن ترى فيها شيئاً!».

هذا التعكير الذي يصيب المياه، ويذهب بصفائها وبريقها - كما يقول مولانا - مثل الذنوب التي تعكر القلوب وتذهب بلامح الخير فيها، ولكي يصل المرء إلى درر العالم المعنوية، وإلى أنوار الحقيقة، فعليه التخلص من كدر الذنوب وعكر المعاصي.

ولهذا فإن غاية التصوف هي تربية المشاعر التي تخالطها الأنانية والنفسانية، وإيصال الأفراد -ومن ثم المجتمع كله- إلى الصلاح والسكينة والطمأنينة؛ لأن الله ﷻ قد زين الإنسان باللطافة والرقّة وسمو المشاعر، وقيمة الإنسان منوطة بتمكين هذه المزايا في القلب وتحسينها.

وتتجلى الأخلاق الحميدة على القلوب المليئة بالروحانية، والأعمال الصالحة والأحوال المعنوية الرفيعة، ويصل العبد - على هذا الأساس - إلى حقيقته الأساسية في أنه خلق على ﴿أحسن تقويم﴾.





ونرى مما سبق أن الإنسان لا يُحرَم أبداً من الدعوة إلى الهداية مهما كانت درجة كفره وشركه وارتكابه للموبقات، والأمثلة كثيرة على ذلك في عصر الرسول ﷺ، ومن هذه الأمثلة:

دعوة رسول الله ﷺ وحشياً الذي قتل عمه حمزة، وهو الأمر الذي أثر فيه تأثيراً عميقاً، حيث إنه أرسل إليه أحد الصحابة يدعوه إلى الإسلام، فكان جواب وحشي للرسول ﷺ:

«يا محمد، كيف تدعوني إلى دينك وأنت قد قلت:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ ٥٨٨

وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة؟»

فأنزل الله تعالى حينها قوله:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٥٨٩

ففرح وحشي بهذه البشارة في الآية الكريمة وقال:

«ما أعظم رحمتك يا رب!» ثم تاب توبة نصوحة وأسلم مع أصحابه.

لقد تحول وحشي الذي كان قد قتل حمزة في غزوة أحد إلى الصحابي وحشي رضي الله عنه، وصار ينعم بروحانية الهداية والمغفرة، وانطلق -آملاً بالعفو وراغباً في أداء دية سيدنا حمزة- إلى مسيلمة الكذاب فقتله متحملاً كل المخاطر، وأطفاً





بقتله مسيلمة نار الفتنة. فقال الناس: يا رسول الله، إِنَّا أَصَبْنَا مَا أَصَابَ وَحْشِي، قال عليه الصلاة والسلام:

«هي للمسلمين عامة»^{٥٩٠}

وفي هذا الحديث بشري عظيمة تفتح الباب واسعاً أمام كل تائب مهما كان ذنبه، وأمام كل إنسان مهما كان جُرمه، إنه ليس فقط باب التوبة، ولكنه أيضاً باب الرحمة والمحبة بمعناها الحقيقي الذي يوضحه النبي ﷺ، بالمفهوم النبوي النوراني المقتبس من العفو والكرم الرباني؛ المتمثل في الخطاب القرآني والنداء العلوي: «يا عبادي» وما ذلك إلا إكرام لسيد هؤلاء العباد، وفخر الكائنات محمد ﷺ.

هذه الرحمة الواسعة، والبشارة النبوية والربانية هي الأسلوب الأمثل والأنجع في علاج البشرية عامة، والأمة الإسلامية خاصة، فإن مجتمعاتنا الإسلامية تواجه اليوم أزمة عميقة كتلك الأزمة التي يعاني منها الغرب، فقد سيطرت المادية على حياتنا إلى درجة نبذنا فيها العواطف، وسيطرت العلمانية على الأفكار إلى درجة نبذنا فيها الدين، وسيطرت العقلانية على أسلوب الحياة حتى باتت الروحانية ضرباً من الخيال، وحتى صار أكثر الناس في مجتمعاتنا كآلات التي تنتج وتستهلك ما تنتجه دون مشاعر حقيقية.

ولا مخرج من هذه الأزمة سوى بمخاطبة العواطف والعقول معاً، وبالعامل على استحالة المشاعر لا الأفكار وحدها، والرحمة والهداية هي الأسلوب الأنجح والأنجع.

فالإنسان حين يخضع لشروط وظروف سلبية خاطئة، فهذا يمنعه من قبول الدلائل العقلية، ولكي تألف القلوب الحقيقة، لا بُدَّ أولاً من التقرب منها بالمسامحة، والعمل على تحسين تلك الميول الحسنة الرفيعة في داخلها، وهذه الطريقة هي الأكثر تأثيراً.





ويجب أولاً نيل قلب ذلك الإنسان الغارق في الأخطاء والذنوب والعصيان قبل أن يوجّه له الانتقاد واللوم، ومخاطبته بالحسنى قبل أن يُطلب منه تنفيذ أوامر الدين، لهذا لا بدّ من السعي لتأسيس علاقة محبة تكون قاعدة تأثير على هذا الشخص وسبباً في الاقتراب من عالمه الخاص، وبعد أن يصل قلب هذا الشخص إلى حالة استعداد، يمكن أن تُصحح الأخطاء بالتدريج، ولا بد من الأخذ في الحسبان ثمرة الإكرام والمديح سواء أكان مادياً أم معنوياً، وهي الثمرة التي تنمو في المخاطب نتيجة هذه العلاقة الروحية، ومن اللازم هنا فهم الحديث الشريف التالي فهماً جيداً:

«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^{٥٩١}

فهذا الحديث هو المُتَنَفَّس للقلوب المخنوقة بدخان الذنوب، وعن طريقه تتنفس من جديد وتعود لها الحياة.

وما أجمل توضيح مولانا جلال الدين الرومي لهذه الحديث والموقف الذي يتخذه رسول الله ﷺ من المذنبين:

«إن الدواء يبحث عن المرضى والجرحى كي يشفيهم، وأينما وُجد الهمُّ يكون ذلك المكان قبلة الدواء، وأينما وُجدت الحفر والأماكن الواطئة، فإليها تسيل المياه».

«وإذا كنت في حاجة ماسة لقطرات الرحمة والرحمة، فاقتدِ بما ذكرت!»
وينبغي أولاً تطهير الجراح من الجراثيم قبل أن يأخذ الدواء تأثيره، وهذا يعني تطهير القلوب المريضة من جراثيم الذنوب، وغسلها بماء التوبة، ثم يأتي الدواء -الشفاعة- بعد ذلك.

والحديث الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ:

«التائب من الذنب، كمَنْ لا ذنب له»^{٥٩٢}

٥٩١ أبو داود، السنة، ٢٠ / ٤٧٣٩.

٥٩٢ ابن ماجه، الزهد، ٣٠ / ٤٢٥٠.





هو رحمة بنا، إذ إنها بشارة من ناحية، ومن ناحية أخرى تُظهر الشرط الذي يوصل إلى هذه البشارة.

وكما كان الأنبياء كلُّهم يراعون الفطنة في أسلوب الهداية والرحمة في إطار هذا المعيار، كذلك هم أولياء الله تعالى الذين يتَّبَعون خطا النبي ﷺ، وبناءً على هذا، تعد الرحمة أولى ثمرات الإيمان، وقد عُرِّفت العبودية باختصار في إطار المعيارين التاليين:

- «التعظيم لأمر الله تعالى» أي تنفيذ أوامر الله تعالى بإجلال.

- «والشفقة على خلق الله تعالى» أي إظهار الرأفة والرحمة بالمخلوقات من أجل الخالق ﷻ.

ويقدم الفضيل بن عياض -وهو من أولياء الله- مثلاً حياً عن المؤمن الذي يعيش ضمن هذه المعايير:

فقد رُوي يوماً وهو يبكي، فسألوه عن سبب بكائه، فأجابهم:

«أبكي لأنني أشفقت على مسلم مسكين ظلمني، وسبب همِّي كله أن هذا الرجل سيُخزى يوم القيامة».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي موضحاً ما يبعث مثل هؤلاء الناس الكاملين على الرحمة والمرحمة:

«حين تضطرب أمواج الرحمة، يرتوي كل شيء من مياه الحياة حتى الحجارة، ويُبعث من مات منذ مئات القرون من قبره، وتتحول الوجوه الشيطانية المسودة إلى وجوه ملائكية تغار منها حتى حوريات الجنة».

ويُروى أن إبراهيم بن الأدهم غسل مرة فم سكران تفوح منه رائحة الخمر الكريهة، وحين سألوه عن سبب ذلك أجاب:

«إنه لمن عدم الاحترام ترك فمٍ ولسانٍ خُلقا لذكر اسم الله ﷻ على مثل هذه الحال».





وحين أفاق الرجل من سكرته، قالوا له:

«لقد غسل زاهد خراسان إبراهيم بن الأدهم فمك».

حينها شعر الرجل بالخبجل، فاستيقظ قلبه وقال:

«إذا كان هذا ما حصل، فإنني أتوب إلى الله من هذه اللحظة».

وبعد أن كان إبراهيم بن أدهم وسيلة لتغير حال هذا الرجل، رأى في منامه رؤيا صادقة يُخاطب فيها:

«لقد غسلت فم هذا الرجل من أجلنا، ونحن غسلنا قلبه من أجلك!»

ويخاطب الله نبيه ﷺ وأمته من بعده:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...﴾^{٥٩٣}

ولا ريب أن خير قدوة لنا في تطبيق هذا الأمر هو سيدنا رسول الله ﷺ، فثمة الكثير من المواقف التي أظهر فيها النبي عليه الصلاة والسلام نماذج من فيض رحمته وعفوه، وهي نماذج سامية لا مثيل لها تغبطه عليها حتى الملائكة، ومن هذه المواقف:

إعلانه عليه الصلاة والسلام بعد فتح مكة عفواً عاماً عن الجميع وإعطاؤهم الأمان، وكانت مكة تعيش تجليات المحبة والرحمة في هذا اليوم العظيم الذي كان عيداً عظيماً عُفي فيه عن الجميع، بعد أن عاشت مكة سنوات طوالاً يسودها الظلم والعداوة، لكن أحد المكّيين واسمه فضالة أراد أن يمنع فرحة الانتصار بقتل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فاقترب منه وهو يبّيت القتل، فانتبه له النبي عليه الصلاة والسلام وعلم ما ينويه، ولم يظهر أي اضطراب أو غضب، بل فتح له جناح الرأفة والرحمة وتوجه إليه وخاطبه بهدوء: «أفضالة؟» قال: «نعم فضالة يا رسول الله»، قال: «ماذا كنت تحدّث به نفسك؟» قال: «لا شيء، كنت





أذكر الله»، فضحك النبي عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالةٌ يقول:

«والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحبَّ إليَّ منه»^{٥٩٤}

ولا شك أن هذا الموقف يظهر السلوك الرفيع والقلب الكبير، وهو التطبيق العملي لمقولة: «دع مَنْ يُقَدِّم على قتلِكَ يحيا بك».

وتاريخ الإسلام مليءٌ بأمثلة شبيهة لا تُعد ولا تُحصى، وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه ثمرة من الثمار القيِّمة الأولى لهذا الأسلوب الرائع والراقي، وجاء الكثيرون من بعده، يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حين تتحرك أمواج رحمة الله وكرمه، تتساقط الأمطار في كل أرض قاحلة، وترتوي جميع الأراضي الجذباء»

«اعلم يا مَنْ تدعو للهداية أن علاج العين الشريرة إنما هي العين الخيرة، فالعين الخيرة والنظرة الحسنة تسحقان العين الشريرة، والعين الخيرة والنظرة الطاهرة تنشآن من حقيقة أن رحمة الله تفوق غضبه، أي تنشآن من رحمته، أما العين الشريرة فهي من الغضب واللعنة، ولأن العين الخيرة هي من رحمة الله تعالى فهي تغلب العين الشريرة.

وهذا الحال تجلُّ من تجليات الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تعالى: «...إن رحمتي تغلب غضبي»^{٥٩٥}. ولتعلم أن رحمة الله تعالى تفوق قهره في كل حين، ولهذا نجد أن الأنبياء كلهم يفوقون أعداءهم ويتصرون عليهم».

«وعليه فإن الحل في دفع البلاء ليس اللوم ولا الظلم؛ بل العفو والمسامحة والكرم، ولتفهم بعد هذا الكلام أصول علاج الأمراض والبلايا».

٥٩٤ ابن هشام، السير، ٤، ٤٦؛ ابن كثير، السير، ٣، ٥٨٣.

٥٩٥ البخاري، التوحيد، ٥٥ / ٧٤٠٤؛ مسلم، التوبة، ١٤-١٦ / ٢٧٥١.





«ولا تنسَ أيضًا أن العفو عن الظالمين هو ظلم للمظلومين، وأن الإشفاق على اللصوص ومن يرتكب أنواعًا مختلفة من السيئات هو ضربٌ للضعفاء وإيذاء لهم!»

فيجب إذاً تحقيق توازن دقيق في هذا الموضوع؛ لأن الله تعالى «غفور رحيم»، وهو في الوقت ذاته «عزيز ذو انتقام»، أي إنه ينتقم من الظالمين الذين يأكلون حقوق الناس.

لذلك كان من أحاديث رسول الله ﷺ:

«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»،

فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال:

«تَحْجُزْهُ أو تمنعه من الظلم، فَإِنَّ ذَلِكَ نصره»^{٥٩٦}

وخلاصة القول: إن البشرية جمعاء في ذنوبها مثل الطيور الجريحة، تحتاج إلى تضميد جراحها بكل رفق ورقة، كي تتخلص من آلامها وجراحها ومعاصيها، وليس أنجع لها من أسلوب الرحمة والمحبة الذي شرعناه فيما سبق.





ينبغي مسامحة المذنب لا الذنب، وكراهية الذنب لا المذنب، ويجب على المؤمن المتحلّي بهذا الشعور أن يعتمد دائماً في التبليغ والإرشاد أسلوب «مؤاخضة النفس، ومسامحة الغير».



٢. أسلوب الحلم والرفقة

إن النظر إلى الإنسان من المنظور الصوفي يتطلب ملاحظة أصله وجوهره، لا الاكتفاء بحالته التي تشوبها الذنوب، وهذه من الحِكم الكبيرة لإقبال الأسلوب الصوفي على المذنب - لا الذنب - بالرحمة والمسامحة، والمتصوف الحقيقي هو ذلك المتصوف الذي يرى المذنب كالطير المكسور جناحه وبحاجة ماسة إلى الرفقة والاهتمام، ويشعر في داخله بأهمية إعادة الصحة والطمأنينة لهذا المذنب، وتسكين روحه التي تتخبط في أزمتها، وذلك لأن إظهار الرفقة والمسامحة للمخلوقات من أجل الخالق إحدى أكثر الأمور المؤثرة في وصول المؤمنين إلى الفضيلة والمرتبة العليا.

ونضرب هنا مثلاً على ما ذكرناه من قصص الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فقد كان الصحابي أبو الدرداء رضي الله عنه قاضياً في الشام، فمرَّ يوماً على رجل قد أصاب ذنباً، فكانوا يسبّونه، فقال: «أرايتم لو وجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟» قالوا: نعم، قال: «فلا تسبّوا أحاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم»، قالوا: أفلا تبغضه؟ فأجابهم أبو الدرداء الذي تربّى في المدرسة النبوية: «إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي»^{٥٩٧}

٥٩٧ انظر: عبد الرزاق، المصنف، ١١، ١٨٠؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢٢٥.





لقد أراد الصحابي الحكيم أبو الدرداء رضي الله عنه أن يغرس من خلال هذا الموقف بعضاً من المعاني التي عاش عليها وتعلمها في كنف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مكلف بتبليغها للمؤمنين، وغرسها في نفوسهم لتكون أطراً حاكمة لتصرفاتهم تجاه كل صاحب ذنب، ولتكون قوانين مادية وقلبية في معاملة الخاطئين، ولتكون حداً فاصلاً بين الذنب والمذنب، وكذلك بين المذنب ومن يشاهد هذا المذنب، في كيفية التعامل معه، والشعور تجاهه، ومحاولات إنقاذه، والأخذ بيده.

إن الذنوب بحرٌ لجيٍّ لا مناص لأحد من البشر من الإصابة منه، فإما غريق، وإما مصاب بقطرات مائه، ولا نجاة لأحد أو للبشرية كلها إلا بأن يأخذ الجميع بيد الجميع؛ متمسكين بحبل الله تعالى المنقذ من ذلك البحر.

فأسلوب الحلم والرفقة هدفه إنقاذ المذنب من الاختناق بدخان ذنبه، أو التلوث بقذارات جرمه، ثم تطهيره بالمسامحة والعفو، والتقرب منه بالرحمة والمحبة، وإغراق ذنوبه في بحر التوبة.

وتأمل الأسوة الحسنة -رسول الله صلى الله عليه وسلم- كيف لم يبال بما فعله المشركون به، فلم يعاتبهم ولم يجادلهم فيما اقترفوه؛ إنما دعاهم إلى الإسلام والإيمان والهدى، والتخلص من الشرك، والتطهر من ذنوب الماضي والحاضر، والإقبال على الله سبحانه.

ولله المثل الأعلى، فالحق تبارك وتعالى لا يدعو فقط عباده المسلمين المؤمنين؛ بل يؤكد الدعاء والنداء على أكثر عباده ذنوباً وأعظمهم إثماً وأفدحهم جرماً؛ يدعوهم للتوبة والتطهر، ويرغبهم في الإقبال عليه سبحانه دون الالتفات إلى ذنوب الماضي مهما بلغت؛ بل يتخطى ذلك كله ويبشر هؤلاء التائبين -مُظهرًا مدى عظمة الكرم والعفو الرباني- بأنه يجعل هذه الجبال من الذنوب في حسنات تطفح بها صحائف الخير، وفي ميزان العبد إذا هو تاب وآمن وعمل صالحاً، وهو ما تقره الآية الكريمة:





﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^{٥٩٨}

إن مَنْ لا يستطيع أخذ نصيبه من هذه الرحمة الفياضة هو عدو لنفسه وللإنسانية جمعاء، وهؤلاء الغافلون الذين لا يجدون الرحمة والرفقة هم الأشقياء الذين يسدّون بأيديهم طريقهم نحو السعادة الأبدية، أما أولياء الله تعالى مثل مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمره وغيرهم ممّن وصلوا إلى منبع الرحمة، فهم مثل زهور الجنة بوجوههم النورانية المتبسّمة، يلقون المحبة من الناس جميعاً، بل حتى من الكون كله بدءاً بالطيور الأليفة وانتهاءً بالذئاب الشرسة؛ لأنهم ينشرون السعادة والخير بين الجميع دون استثناء، ويداوون القلوب الجريحة دون تفرقة، والأمر المهم في الموضوع هو أنه يجب أن تكون طبيعة المريد مثل طبيعة الورد التي لا تتأثر بمجاورة الأشواك حين تكون في حديقة الدنيا، فتتحول هي أيضاً إلى أشواك، بل تنشر عبقها داخل الأشواك في هذه الدنيا حتى لو كانت تعاني من برودة الشتاء التي تفسد جمال الربيع واخضراره، ومن الكلمات الجميلة لمولانا جلال الدين الرومي قوله: «لقد بدأ القمر بتلقي النور وبثّ الضوء في كل مكان؛ لأنه لم يَخَفْ من الليل ولم يهرب من ظلامه الدامس، كذلك صار للورد رائحة زكية؛ لأنها تعايشت مع تلك الأشواك التي تحيط بها».

«ولتسمع هذه الحقيقة من الورد وهي تقول: لِمَ أشعر بالغمّ، وأرمني نفسي في الهم، حين أكون مع الأشواك؟ فأنا قد حصلت على هذه الابتسامة من خلال صحبتي مع هذه الأشواك على الرغم من طباعها السيئة، وبواسطتها استطعت أن أنشر العبق في أنحاء العالم».





ويلخص الشيخ أشرف أوغلو الرومي الأسلوب الضروري للوصول إلى هذه الحالة في هذا البيت من الشعر:

يجب أن تتجرع السموم.... وكأنها الشهد لأجل الحبيب.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي ﷺ:

«لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله»^{٥٩٩}

وفي يوم من الأيام وقع أحد تلامذة الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو رحمته الله في ضعف نفسه نتيجة لأزمة وضائقة حلت به، فأتى باب الشيخ وهو سكران، ففتح له البواب وقال له مؤنبًا:

«ما هذه الحالة التي أنت عليها؟ هل أنت مدرك إلى أي باب أتيت؟»

فأجابه الرجل المسكين الذي لا حيلة له:

«وهل يوجد باب أدخل منه غير باب الرحمة هذا!» فكان هذا اعترافاً منه بعجزه وموقفه الصعب.

وما إن سمع الشيخ سامي كلام العاجز هذا، حتى أسرع إلى الباب، وأدخل تلميذه المجروح قلبه إلى قصر الروحانية، وأحيا بالرحمة والرفقة والمحبة قلبه المكسوم، ومع مرور الأيام تحول هذا التلميذ الذي أرشده الشيخ بأسلوب الرقة القلبية إلى أحد الصالحين الكبار بعد أن تخلص من أحواله السيئة كلها.

إن الأخلاق الحميدة التي نراها في أولياء الله تعالى، والتي تتلخص في «النظر إلى المخلوقات بنظرة الرفقة التي أمر المولى ﷺ بها»، تتجلى على أجمل صورها في الحديث النبوي الشريف الذي يشمل الجميع دون استثناء:





«...والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا»،

قالوا: يا رسول الله كلنا رحم، قال:

«إنه ليس برحمة أحدكم خاصته، ولكن رحمة العامة»^{٦٠٠}

ومهما ابتعد الإنسان عن الغاية الأساسية التي أرادها الله تعالى منه فإنه يبقى صاحب شرف ومكانة رفيعة؛ لأنه «إنسان»، فبقاؤه غارقاً في مستنقع الذنوب وعدم معرفته بنبل ورفعة جوهره هو كسقوط الحجر الأسود من جدار الكعبة الشريفة إلى الأرض وتلوّثه بالوحل، فلا يتصوّر في هذا الموقف أن ضمير المؤمن لن يكثرث ولن يحرك ساكناً، فالمؤمنون احتراماً للحجر الأسود وتعظيماً له لن يتركوه على حاله، بل يسارعون لتناوله مع ما عليه من وحل وأذى، ويشرعون في تنظيفه، وعيونهم تغرق بالدموع، ثم يتنافسون في إرجاعه إلى موقعه المقدّس، لأنهم يعلمون أن هذا الحجر من الجنة، ويعرفون القيمة العظيمة في جوهره، والحال نفسُها مع الإنسان؛ فهو أيضاً كان في الجنة وأُخرج منها، فمهما وقع في الذنوب والآثام، تظل قيمة جوهره باقية إلى الأبد.

ومن ناحية أخرى، لن نجد أي طبيب ماهر يغضب على مريضه ويقول له: «لماذا مرضت؟» وحتى لو كان المرض بسبب إهمال المريض وتقصيره، فإنه سيعلل المرض بالعجز الطبيعي لدى المريض سواء أكان بدنياً أم فكرياً، وبدلاً من أن يغضب على المريض بسبب قيامه بأي أمر أدّى إلى مرضه، يأخذ في حسابه الألم الذي يعانيه المريض، ويسرع في إعطائه العلاج بالرحمة والرفقة دون أن يضيع المزيد من الوقت، إذ إنه يرى نفسه مكلفاً بمعالجة هذا المريض، والمتصوف أيضاً يرى نفسه مثل الطبيب الذي ينتقل من مكان إلى آخر في المجتمع كي يعالج المرضى، فيكون إحساسه هذا -الذي يحكم سلوكه- كحبل

٦٠٠ النسائي، السنن الكبرى، ٥، ٤١٤/٥٩٢٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٣٠/١٢٧٣١؛ الحاكم،

المستدرک، ٤، ١٨٥/٧٣١٠.





النجاة لِمَنْ ضَلَّ الطريق، فيكون تقديم هذا الحبل وانتشال المذنب من مستنقع الذنوب الذي غرق فيه وسيلةً تجعل المرء ينال السعادة العظمى.

ويلفت انتباهنا ما قاله محمد ﷺ لِعَلِيٍّ ؑ في ساحة الحرب أثناء فتح خيبر: «يا علي، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من أن يكون لك حمر النعم»^{٦٠١} وتعبّر الآية الكريمة التالية عن الحقيقة نفسها:

﴿...وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَ مِمَّا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾^{٦٠٢}

لقد تخطت المسألة هنا مجرد العلاج والتطهير والدعوة إلى التوبة، إنها مسألة إيمان أو كفر، إنقاذ من جهنم وإرشاد إلى الجنة؛ تلك هي مهمة المسلم والداعي عبر أرق الأساليب بالرأفة والحلم.

هذا الأسلوب يكون حتى مع أشد الناس كفراً وعتوّاً، فقد أمر المولى ﷺ موسى عليه السلام حين أرسله إلى فرعون -كي يدعو إلى الإيمان- بأن يخاطبه بـ«القول اللين»؛ لأن نجاح الداعي في دعوته -كما ذكرنا فيما سبق- هو العمل الصالح الذي يحمل إلى الفوز الأعظم، فالله تعالى لم يكن غافلاً -وحاشا أن يكون- عن شدة كفر فرعون، إذًا، حتى لو كان المخاطب عظيم الكفر مثل فرعون، يجب ألا تطغى علينا مشاعرنا، وألا نستخدم التهديد والوعيد ونبالغ فيهما، بل نتبع الأوامر الإلهية التي تطالبنا بالقول الحسن اللين، وما أحسن كلام مولانا جلال الدين الرومي حين يقول:

«افهم وأدرك جيداً قول الله تعالى ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا»^{٦٠٣}

«فإنك إذا ما وضعت الماء على الزيت المغلي، فستفسد الموقد والقدر معاً»

٦٠١ البخاري، الجهاد، ١٤٣/٣٠٠٩، المعازي، ٧٨/٤٢١٠؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٣٤/٢٤٠٦.

٦٠٢ المائدة: ٣٢.

٦٠٣ طه: ٤٣-٤٤.





ويوضح الله تعالى للأمة كلها هذه الحقيقة في الآية الكريمة التالية التي قالها في النبي ﷺ:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾^{٦٠٤}

وكما أن أسلوب الرأفة مستخدم حتى مع أشد الناس كفراً، فكذلك يجب أن يستخدم مع أشد الناس التزاماً وإيماناً، فهذا الكائن البشري الطيني لا يخلو من ضعف، ولا يسلم من خطأ، وإذا ما اعتمدت على قوة إيمانه في توجيه اللوم والتعنيف إليه، واستخدام الأسلوب الفظ في إيقاظه من غفوته أو زجره عن غفلته، فقد يجرح ذلك مشاعره ويصدم حواسه، فيجعل ذلك حاجزاً بينه وبين النصيحة، ويلقى أسلوبك آذاناً صمّاً، فتفسد من حيث أردت أن تصلح، وتلقى نتائج عكسية تماماً، فذلك أسلوب مرفوض حتى من الوالدين مع ولدهما، وهما من هما قريباً ومحبة إليه، فما بالنا بالآخرين.

إن الطبيب الذي يضطر إلى إجراء جراحة للمريض، يستخدم المبضع للقطع والاستئصال، لا يستخدمه بعنف وغضب؛ بل يستخدمه بكل رفق حتى في حالات البتر، لأنه يريد التخلص من الأذى في الجسد، ولا يريد أن يتسبب في الأذى لبقية الجسد.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«حين يعاتبك أبوك بسبب خطأ ارتكبته، يبدو لك كالوحش الذي سيهاجمك وينقض عليك، مع أنه أبوك... وهذا هو تأثير الهم الذي ينبع من جفائه وتوبيخه لك، أي إن تنبيه أبيك وعتابه وجفائه - على الرغم من أنه لأجل صلاحك - يظهر رحمته بك وحزنه عليك كالوحش المفترس».





فيجب على الدوام أن تتذكر أنك تتعامل مع إنسان مسلم بشري الطبيعة، وليس ملائكي الخلقة، الذنوب أقرب إلى جبلته من النورانية، والرحمة والرأفة أشد تأثيراً فيه من الفظاظة والغلظة. لهذا يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^{٦٠٥}

ومن الحوادث التي تنير عقولنا ما قامت به السلطنة «بزم عالم» التي أدركت الحكمة من هذا الحديث الشريف، فَبَنَتْ وَقفاً في الشام تعويضاً للأشياء التي تكسرها الخادמות ولكي لا تجرح مشاعرهن بتوبيخ أسيادهم لهن.

إن المؤمن بمثل هذا الشعور والإحساس يجب أن يستخدم دائماً في التبليغ والإرشاد أسلوب «مؤاخذه النفس، ومسامحة الغير». فالله تعالى يقول:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ

مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^{٦٠٦}

مثل هذه التوجيهات الإلهية والإرشادات الربانية والقيم الجمالية، ينبغي أن يعيشها المسلم منهاجاً حياتياً، وليس فقط نموذجاً حكاياً، فيجعلها نبراساً في الدنيا، وممرجاً إلى السماء، وقنطرة إلى الجنة، ورابطاً بين الدنيا والآخرة، وسبيلاً لسعادة الدارين. هذه القيم هي التي صنعت رجالاً غيروا وجه العالم، وصححوا مسار التاريخ، وتناولوا بأيديهم الثريا، وأثبتوا أن الإنسان المخلوق من طين هو المستحق لأعلى عليين.

ومن أمثلة هؤلاء الشيخ «أدبالي» السلطان الروحي والحامي المعنوي والمؤدب للسلطان العثماني «عثمان غازي» مؤسس الدولة العثمانية، فانظر كيف كان الأساس الذي قام عليه هذا البناء.

٦٠٥ مسلم، البر، ٣٢ / ٢٥٦٤؛ أحمد، مسند، ١٤، ٣٣٨ / ٨٧٢٢.

٦٠٦ الحجرات: ١٢.





فنصائح هذا الشيخ وتوصياته للسلطان عثمان غازي فيها الكثير من المعاني والقيم العظيمة له ولمَنْ يأتي من بعده ممَّن يتولون الإدارة من أعلى رتبة إلى أدناها، وحتى لأفراد الأسرة الواحدة في تعاملاتهم بينهم، فمن أقواله:

«يا بُني، إنك السيد الآن، ومن الآن فصاعداً الغضب منا ولين العريكة عليك، الاستياء منا وتحسين العلاقة عليك، الاتهام منا والمكابدة عليك، الخطأ والعجز منا والصفح عليك، سوء الخلق وعدم الانسجام والتصادم والخلافات منا والعدالة عليك، النظرات الخبيثة والتشاؤم والاتهام منا والمسامحة والعفو عليك».

«يا بُني، التفرُّق بعد اليوم منا وتوحيدنا عليك... الكسل منا والتوعية والتشجيع والتوجيه عليك».

إن هذه النصائح الفريدة هي مظاهرٌ وتجلياتٌ لا مثيل لها، صادرة عن بصيرة القلب وسمو الفضيلة لإنسان يستطيع أن يعفو عن المساوئ لأجل الله ﷻ، وينظر إلى عباد الله بالرفقة والرحمة والمحبة في الظروف كلها.

فلم يكن رسول الله ﷺ يجرح مشاعر المذنب أمام العامة حتى لو كان يعرفه، بل كان يوجه كلامه للكل ويحذرهم من ذلك الذنب، وفي بعض الأحيان كان لا يُشعر المخاطب بخطئه.

وهذا هو الأسلوب الذي يحمي المخطئ من الخزي والإذلال، وهو الصفة المشتركة لجميع مَنْ يفهم التصوف بمعناه الحقيقي ويعيش حياته على أساسه؛ لأن السبيل إلى الله تعالى ليس بهدم القلب بل ببنائه.

لقد كان أسلوب الرفقة والحلم هو طريق العودة والتوبة للكثيرين من الذين نبذهم المجتمع واحتقرهم الناس، لقد استطاعت الرفقة أن تكشف عن معدن قلوبهم الرباني، واستطاع الحلم أن يأخذ بأيديهم عبر التوبة إلى سماء القيم.

ويُروى أنه كان للجنيد البغدادي طالب، وفي يوم من الأيام وجده جنيد في موقف معيب مُخزٍ، فاستحيا الطالب كثيراً منه، وهجره، وما عاد يأتي إلى الزاوية





الصوفية، وبعد مدة وبينما كان الجنيد البغدادي يمر في السوق مع أصحابه رآه الطالب الذي خرب قلبه، فابتعد بسرعة من هناك خجلاً منه، وحين انتبه الجنيد رحمته الله التفت إلى أصحابه وقال:

«أكملوا طريقكم، فأحد طيوري قد هرب من عشي!»

ثم سار وراء طالبه، وحين نظر الطالب إلى الراء ورأى شيخه يتعقبه اضطرب في خطوه وأسرع في مشيه إلى أن وصل إلى طريق لا مخرج منه، وهناك اصطدم بجدار دون قصد لشدة قلقه وخجله، وما إن رأى شيخه أمامه حتى تبدل لون وجهه وأطرق رأسه، فقال له الجنيد رحمته الله:

«يا بُني، إلى أين تذهب؟ ممّن تهرب؟ إن لم تكن مساعدة وعون الأستاذ لطالبه في مثل هذه الأيام الصعبة والأوقات العصيبة فمتى تكون؟».

ثم أخذه بالرأفة والرحمة إلى الزاوية، وندم الطالب على ما فرط منه وانكبّ على شيخه، وتاب عن ذنبه.

وغير هذه الحالة كثير من الحالات التي نالتها بركة النظرة الثاقبة والنضج التربوي في الإرشاد المعنوي، والتي اتسعت دائرة نورها، فشملت هدايتها وإنقاذها نماذج كانت بعيدة كلّ البعد عن النجاة أو مظنة النجاة، فمهما كانت عيوب الإنسان وذنوبه، فرحمة الله أوسع، وباب توبته أكبر من الدنيا ومَنْ عليها، ونظرة رحمته تشمل كلّ الموجودات لا الإنسان وحده، ولا المسلم وحده، فما بالنا بالمذنب الذي هو أظماً الموجودات إلى قطرات الرحمات.

ومن الصفات المميزة التي تدل على المسلم الناضج قدرته على العفو عن الشخص المخطئ، وليس ذلك فحسب، بل معاملته لمن أساء إليه بالخير والإحسان، ودعاؤه لمن رأى منه الإساءة بالصلاح والهداية، وكيفينا هنا أن نتذكر أن النبي ﷺ حين رماه أهل الطائف بالحجارة لم يدع عليهم، بل دعا الله تعالى أن يهديهم إلى سواء السبيل، وأن يخرج من أصلابهم من ينصر الدين





وينشره، وكان ﷺ يحمي عزة الدين الجديد بعدم الدعاء على أهل مكة بالهلاك والغضب الإلهي، بل كان يؤدُّ أن يدخل كل فرد منهم دائرة الهداية، فكان أسلوبه هذا وسيلةً في نجاة الكثير من النفوس الضائعة في هذه الحياة. يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ...﴾^{٦٠٧}

ويقول رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»^{٦٠٨}

وعن أبي الأحوص، عن أبيه ؓ قال:

قلت: يا رسول الله، الرجل أمرُّ به فلا يقريني ولا يضيِّقني فيمُرُّ بي، أفأجزيه؟ قال: «لا، أقره»^{٦٠٩}

ففي مثل هذه الحالات إذا كان الشخص عدوًّا وعُوِّمِلَ بالخير والإحسان، فسيغدو صاحبًا، وإذا كان بعيدًا سيصبح قريبًا، وإذا كان قريبًا تزداد محبته، والناس اليوم أحوج إلى هذه القيم والأخلاق من الناس الذين نسمع أخبارهم، فقد طغت المادية حتى كادت تقتل الأرواح ظمًا، وانطفأت المشاعر حتى كادت تقتل الناس قسوة وتحجرًا.

لذلك فإن الحكمة من وراء رغبتهم في الروحانية هي سعيهم للتخفيف عن أرواحهم المثقلة بأدران المادية، وهنا يعدُّ استخدام أسلوب التصوف في تقديم الإسلام وتعليم آدابه من أنجع الأساليب وأنفعها.

٦٠٧ فصلت: ٣٤.

٦٠٨ الترمذي، البر، ٦٣/٢٠٠٧.

٦٠٩ الترمذي، البر، ٦٣/٢٠٠٦؛ أحمد، مسند، ٤، ١٣٧/ ١٧٢٣١.





إن الكثير من الذين اهتدوا في الغرب هذه الأيام يلجؤون إلى مراجعة مؤلفات كبار المتصوفة مثل مولانا جلال الدين الرومي وابن عربي لملء الفراغ الذي أحدثته المادية في أرواحهم، وتأتي الكتب الصوفية في مقدمة الكتب الإسلامية التي يكثر الطلب عليها في العالم الغربي. فالعالم اليوم في حاجة ماسّة إلى التعمق القلبي الذي يشمل العالم كله، والذي يعبر عنه مولانا جلال الدين الرومي في قوله:

هَلَمْ إِلَيْنَا مَهْمَا كُنْتَ، هَلَمْ إِلَيْنَا!
كافراً كنت أم مجوسياً أم وثنيّاً، هَلَمْ إِلَيْنَا!
فزاويتنا «الإسلام» زاوية لا تخلو من أمل!
وحتى لو أفسدت توبتك مئة مرة، هَلَمْ إِلَيْنَا!

إن الغاية من دعوة المسامحة التي أطلقها مولانا الرومي هي تعريف الإنسان بجوهره، وتشريفه بالإسلام عبر الخلاص من ذنوبه وأخطائه على أساس المسامحة والرفقة والرحمة، أي إن الأبيات لا تعني قبول الإنسان دون غاية والبقاء على حالته القديمة، بل المقصود هو فتح باب الله للجميع، فإذا دخلوا هذا المشفى الكبير، وهذا الحجر الصحي يجد كل داء دواءه، ويجد كل عليل شفاءه، ويجد كل مريض طبيبه الذي يدرك حالته، ويمسّ بمبضعه ودوائه سبب العلة.

المقصودون ببناء مولانا هم أصحاب العلل وليس أصحاب المعافاة؛ لأن المقصود منحهم العلاج وليس الفقه والعلم.

ومن الضروري التعامل مع الناس بالأسلوب الصوفي القائم على الإيثار والرحمة والمسامحة في الأوقات التي تضعف فيها تطبيق الحياة الدينية، وتكثر فيها ذنوب الناس؛ لأنه الأسلوب الأنجع الذي يعيد الإنسان المذنب العاصي إلى الطريق الصحيح ويزيد من احتمال نجاته.





ولكن لا بد من أن نذكر هنا أن مسامحة المذنب والعفو عنه تكون في الأمور الشخصية، إذ ليس من الحق العفو عمن يظلم العباد و يأكل حقوقهم، فإن ذلك يفسد سعادة المجتمع وطمأنينته، وليس من الخطأ بالتأكيد أن ينظر الإنسان الذي يعيش ظاهر الدين فقط إلى المذنب بمشاعر «الغضب»، فمن الضروري بالنسبة إليه أن يبقى بعيداً عن المذنب كي يحمي نفسه مما ينتج عن صحبة المذنب من أضرار.

إن الغافل في حياته تروق له الذنوب كما تروق له نغمات الموسيقى، فتراه يرتكب هذه الذنوب دون أدنى شعور بثقلها وعواقبها، لهذا كان من الخطر بالنسبة إلى العامة مسامحة ذنب المذنب؛ لأنها قد تكون سبباً في عدم تعظيم الأوامر الإلهية، وإفساد القلب بالذنوب، وشيوع الفاحشة، وهذا يعني أن المراد هو التسامح مع المذنب لا الذنب، وعداوة الذنب لا المذنب.

وآخر ما نذكره هنا الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ:

«يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا»^{٦١٠}

وبالطبع يكون ذلك بشرط عدم الإضرار بجوهر الدين والخروج عن الاستقامة. إلهي، املاً قلبنا بالحكم، واجعلنا ممن يحبونك حق المحبة، وأطلعنا على أسرار الدنيا والآخرة.

يا رب، اجعل قلوبنا منبعاً للرحمة والرفقة يصب في قلوب مخلوقاتك، واجعل ذلك خالصاً لوجهك الكريم.

يا رب، بدل سيئاتنا حسنات، واغفر لنا ذنوبنا.

إلهي، ألحقنا بزمرة الصالحين، الهداة إلى طريقك، الذين يعفون عن خلقك، والذين أدركوا سر قولك «إن رحمتي تغلب غضبي». آمين...





الفصل الثالث



معرفة الله ﷻ والهبات الإلهية

أ. معرفة الله ﷻ

١. الذات الإلهية

٢. الصفات الإلهية وتجلياتها

٣. معرفة الله والتجليات لدى العارفين

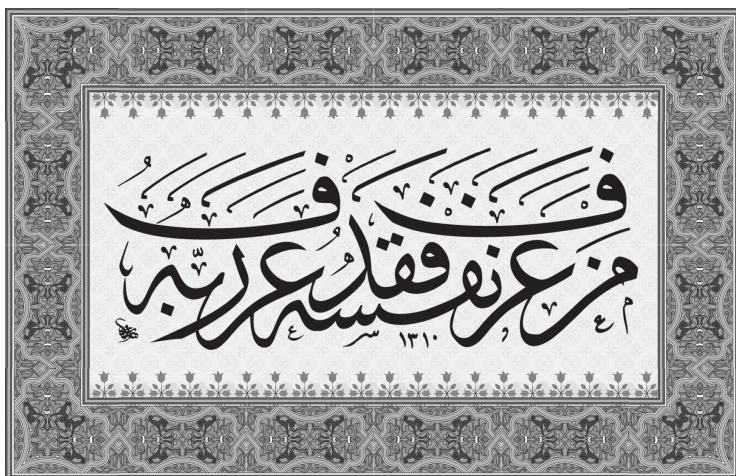
ب. الهبات الإلهية

١. العلم اللدني

٢. الفراسة

٣. التصرف والكرامة

٤. الرؤيا الصادقة



«من عرف نفسه فقد عرف ربه»



معرفة الله ﷻ والهبات الإلهية

يقول الله تعالى:

﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^{٦١١}



أ. معرفة الله ﷻ

١. الذات الإلهية

يقول رسول الله ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله»^{٦١٢}

في الحديث نهى عن التفكير في ذات الله تعالى؛ لأن الإنسان قاصر الفكر والإدراك والحواس عن إدراك ذات الله سبحانه، ويجب أن يُقصر تفكيره على آلاء الله ونعمه ومخلوقاته.

وإن معرفة الله تعالى التي تصل بالبشر إلى الإيمان والعرفان، وتبلغ بهم أنوار الهداية لا تتعلق بذات الله تعالى بل بصفاته جلّ وعلا، فالله تعالى منزّه عن الزمان والمكان، أما إدراك الإنسان فهو محكوم بالزمان والمكان، لذا فإن منطقته الذي يعمل به مرتبط بما يتلقاه عن عالمه المادي من انطباعات، وإذا ما أراد فهم أي شيء وإدراكه، فمن اللازم أن يكون له مشابه في العالم المرئي وانطباع سابق عنه في ذهنه، أما الله ﷻ فمن صفاته أنه لا يشبهه مخلوقاته فهو سبحانه «مخالف للحوادث»، وهذا يعني أنه مختلف كلياً ولا يشبه أي شيء مخلوق، وهو الكامل المتعالي على ما سواه.

٦١١ الشورى: ١١.

٦١٢ الطبراني، المعجم الأوسط، ٦، ٢٥٠/٦٣١٩؛ الديلمي، مسند، جـ ٢، ٥٦؛ الهيثمي، مجمع

الزوائد، ١، ٨١/٢٦٠؛ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٢٦٢/١١٩.





وهذه الحقيقة المنطقية هي نتيجة إدراك كمال النظام الذي يحكم الكون كله، وحاشا أن يُقَارَن السبب الأول الذي لديه القدرة على خلق مثل هذا العالم، أي المولى ﷺ، مع آثاره، فهو صاحب الكمال والعظمة والقدرة، الذي يفوق المخلوقات كلها، وهذه حقيقة يقتضيها العقل والمنطق، فمن المستحيل والخطأ أن يخمن البشر حقيقة بماهية ذات الله تعالى الذي لا مثيل له ولا شبيه.

أي إن التكليف الذي أمرنا به في حق الله ﷻ هو البدء بفهم صفات الله تعالى لنصل من خلالها إلى الإيمان بوجود ذاته ﷻ، لهذا قدّم الله لنا -نحن البشر- الأمثلة والإيضاحات عنه في القرآن الكريم وفقاً لهذا الأسلوب، ومنها قوله في الآية الكريمة:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^{٦١٣}

وإذا ما دققنا في هذه الآية الكريمة نجد أن القرآن الكريم -بضرب هذا المثل- يُعْطِي الإدراك البشري أولاً انطباعات يمكنه استيعابها، ثم يُجَرِّد من هذه الانطباعات بحقيقة تتجاوز الخيال والإدراك، يُعَبِّرُ عنها قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، أي إن نور الله تعالى ليس كأنواع الأنوار المحدودة التي تخطر على بال الإنسان، ولن تكون كأَيٍّ منها، فهو نور غير محدود فوق كل الأنوار، ونور لا يمكن أن يدركه البشر، فمن المستحيل أن يرى كل إنسان الدليل الحق، ويعلم آيات الله تعالى، ويخضع لأوامره؛ لأن إدراك المرئي كما أنه مرتبط بالنور، مرتبط





كذلك بالعين التي ستري، فكل شيء يمكن رؤيته بالعين سيكون واضحاً للعين ببركة النور، أما الأعمى فلن يرى أبداً، لذلك فإن وجود الروح التي ترى هو ركن أساسي في رؤية المخلوقات والحقائق، ولها أهمية كبيرة كأهمية النور، فالروح القادرة على الرؤية هي فقط التي تستطيع الإدراك والفهم.

ونرى من ناحية أخرى أن وصف المولى ﷻ ذاته في الآية الكريمة بـ «النور» وقوله: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» يدل على أنه خالق العالم كله، وهو الذي يُري هذا الكون كله، ويُعلم الحقائق الكثيرة ما ظهر منها وما بطن، ويبعث الحياة في العيون والقلوب. ولو لم يكن نور الله تعالى، لما عُلم أو وُجد أي شيء، ولما وصل الإنسان إلى الحقائق، ولما امتلأت القلوب بالبهجة والسعادة أبداً.

إن جميع أنواع الأنوار التي تيسر رؤية المخلوقات ومشاهدتها ما هي إلا تجلٍ من تجليات ذلك النور العظيم.

وعليه؛ فإنه كما توجد درجات للأنوار في السموات، كذلك توجد أمثلة عن هذه الدرجات في الحياة الدنيا، فعلى سبيل المثال، تضرب أشعة الشمس القمر، ومنه تتوجه هذه الأشعة إلى الأرض لتدخل في بيت من البيوت، وتسقط على مرآة في أحد الجدران، ثم تسقط على مرآة أخرى في الجدار المقابل، ثم تسقط على كأس ماء، ومن ثم تنعكس على سقف البيت، فنجد أن أقوى هذه الأنوار هو الذي انبعث من المصدر وهو الشمس، والنور الثاني من حيث القوة هو الذي كان في القمر، والثالث الذي كان في المرآة الأولى، والرابع في المرآة الثانية، والخامس في الماء، والسادس في السقف.

ونرى أن أقرب نور إلى نقطة الخروج الأولى هو أقوى من البعيد عنها، كذلك تدرج الأنوار في السموات، أي إن النور المستفاد منه أقوى من المستفيد، وتزداد هذه الأنوار جميعها وتتقوى لتصل في النهاية إلى النور العظيم الذي لا نهاية له، وهو نور الله ﷻ.





وهذا يعني أن كل شيء إنما يُكتشف ويُعرف بكشف الله تعالى له فهو نور السموات والأرض، فلولا نوره لاستحال وجود المخلوق ورؤيته. إن الإنسان الذي ينظر إلى اخضرار الربيع في ضوء النهار، يقول أمام هذه الألوان المتنوعة التي يراها: «لم أر سوى الاخضرار!» وهذا يعني أنه استغرق في الربيع واخضراره، ولم ينتبه إلى النور الذي يضمن له رؤية هذا المنظر، أي إنه أدرك جميع الألوان التي رآها بفضل النور، وهذا النور في هذا الموقف يكون خفيًا بالنسبة إلى الإنسان وذلك لشدة ظهوره ووضوحه.

ويقول أرباب المعرفة الذين ينطلقون من هذه الحقيقة:

«الله ﷻ ليس غائبًا في الواقع، لكنه غائب بالنسبة إلى استعدادنا وإدراكنا البشري؛ بسبب شدة ظهوره».

يقول الشيخ هُدائي:

«ظهوره حُجْبٌ للظهور... فهل لصاحب البصيرة حاجة لنور».

وبتعبير آخر، إذا وضعنا إنسانًا في غرفة منارة، فيها ضوء قوته خمسة آلاف فولت، فإنه بسبب قدرة عينيه المحدودة لن يرى أي شيء تحت هذا الضوء. فمن هذا المنطلق سيغيب عن الإدراك البشري -بلا ريب- الله ﷻ صاحب النور الذي يفوق نوره كُلَّ أنوار الدنيا. ولإبراز هذه اللفتة يقول الله ﷻ في وصف المؤمنين:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾^{٦١٤}

لكن هذا النوع من الغيب بالنسبة إلى أهل البصيرة هو أظهر وأوضح من أي مخلوق بسبب شدة تجلي نوره.

إننا نعيش اعتمادًا على الهواء، ولكننا لا نراه مع أنه يُحيط بنا من كل جانب، ولا نستطيع الإحساس به إلا أثناء التنفس، ونحن إذ لا نرى الهواء لا ننكر وجوده؛ بل نعترف أيضًا بضرورته حين نقول: «لن نستطيع العيش بلا هواء!».





والمخلوقات البحرية مثلنا أيضًا، فهم لا ينتبهون لوجود الماء حولهم داخل البحر، رغم أن الماء محيط بهم من كل جانب.

وهذا يعني أننا نستطيع إدراك الكائن حين يكون أمامنا، أو عن يميننا، أو عن شمالنا، أو في أية جهة كان، بيد أنه إذا أحاط بنا من كل جانب، فإنه يتجاوز حدود الجهات، ويفوق ظهوره إدراكنا، ويصبح خفيًا عن عيوننا المحدودة بالجهات، ولو لم يكن الأمر هكذا - كأن يكون الهواء واضحًا لنا - لما استطعنا العيش في هذه الحياة؛ لأن المخلوقات الأخرى حين نكون في جو ضبابي، تصبح غير مرئية، أي إن رؤية الكائن الذي يحيط بنا من كل جانب سيكون سببًا في عدم رؤية الكائنات الأخرى؛ لهذا كان الله جلَّ وعلا خفيًا عن العيون في هذا العالم، ولو كان ظاهرًا لما رأى الناس سواه بسبب جماله وإحاطته بهم من كل جانب، وبالطبع لما كان هناك شيء اسمه الحياة الدنيا.

وفي مثل هذه الحالة نجد أن الله المتعالي، أي الذي يفوق خيالنا وإدراكنا، خفيٌ عنا وظاهرٌ لنا في الوقت نفسه، وبمعنى أدق؛ هو خفيٌ عنا بذاته، ظاهرٌ أشد الظهور في تجلياته.

ظاهرٌ؛ لأن المخلوقات جميعها ناتجة عن نور ذاته.

خفيٌ؛ لأن قوة العيون لا تكفي للنظر إلى نوره.

ظاهرٌ؛ لأنه يتجلى بصفاته على كل ما سواه.

خفيٌ؛ لأنه لا مثيل له... فعلم الإنسان بالأشياء عمومًا يعتمد على مقارنته إياها بأضادها، فبضدها تتميز الأشياء.

لهذا من الطبيعي جدًا لمن لا ضد له أن يكون خفيًا.

وبالطبع لا يوجد أي مخلوق لديه شعور وقدرة كافية لإدراكه ﷻ، ولهذا السبب، نجد أن الإيمان هو الاعتقاد الجازم بوجوده، لا الإحاطة بحقيقة ذاته؛ لأن الوجود أو عدم الوجود أمر، والحكم على ماهية شيء موجود أمر آخر.





ومن هذا المنطلق أنعم الله تعالى على الإنسان بالعقل كي يدرك وجود الذات الإلهية فقط، ومنح الإنسان بالتفكير إمكانية الانتقال من الأثر إلى المؤثر في عالم الشهادة الذي ملأه سبحانه بتجليات صفاته.

ويعكس المثال التالي هذه الحقيقة على أفضل وجه:

في يوم من الأيام رأى الشيخ الجنيد البغدادي -وهو من كبار أولياء الله- مجموعة من الناس يركضون وهم في حالة اضطراب وقلق، فسألهم:

«إلى أين تذهبون وأنتم في هذه الحالة من الاضطراب والهيجان؟»

فأجابوه:

«لقد جاءنا اليوم عالم من كذا وكذا، وهو يوضح وجود الله تعالى ووحدانيته بألاف الأدلة، نذهب إليه للاستفادة من أدلته وشرحه، فلتأت معنا إن أردت ذلك!»

فابتسم الجنيد ابتسامة تدل على حزنه لحالهم، وقال لهم:

«إن في الكون أدلة لا تُعد ولا تُحصى على وجود الله تعالى بالنسبة إلى العيون التي ترى، والآذان التي تسمع، والقلوب التي تعي، فما أكثر شواهد الله تعالى على ذاته! يا قوم، مَنْ كان لديه شكٌ بعد هذا، فليذهب؛ أما أنا، فليس في قلبي أدنى شك في ذلك».

وبعبارة أوجز، أظهر الله تعالى للعيون المبصرة تجليات صفاته الإلهية اللامحدودة في الإنسان الذي يشكل جوهر العالم، وفي الكون الذي يُعدُّ قرآناً صامتاً، وفي القرآن الذي يُعدُّ كوناً ناطقاً، وقد أرسل الله الأنبياء كي يكونوا عوناً في الاستفادة من هذه التجليات، ويهدوا الناس إلى الصراط المستقيم، ومن خلال هؤلاء الأنبياء أظهر الله ﷻ بعضاً من حقائق عالمي الشهادة والغيب بصورة تناسب الإدراك البشري، وعلى شكل «كلام» كما هو ظاهر في القرآن الكريم.





وهكذا نستطيع أن نقول في حق الله ﷻ على حسب قدرة الكلام وإمكانيته ما يلي:

هو الوجود المطلق في الواقع الذي لا تحدُّه الحدود، والذي لا يمكن أن يوصف بشيء خارج أوصافه الخاصة به، حتى إن كلمة «مطلق» التي نصفه بها تبعاً لإدراكنا قد تحدُّه، لكننا نضطر لقول ذلك لنشرح صفاته؛ لأن الله ﷻ مختلف عن أي شيء قد يخطر على بال الإنسان.

وإظهار صفات هذا الوجود المطلق ﷻ ضرورة لذاته، وكما هو حال ضوء القنديل الذي ينعكس في كل جانب، كذلك حال جميع الكائنات ثابت في علم الوجود المطلق مجملاً، فالكون مظهر من مظاهر هذه الحقيقة، والكائنات في هذا العالم الذي نسميه عالم الشهادة موجودة وجوداً نسبياً، أي إنها لا توجد في وجودها لوحدها، فهي موجودة على أنها مظهر من مظاهر صفات الوجود المطلق وآثاره وأحكامه وقدرته وإبداعه، ومع أن الذات الإلهية تُظهر إبداعها وقدرتها وحكمتها وتديرها وتصرفها وصفاتها في الكائنات كلها، إلا أن هذه الذات لا تظهر أبداً في عالم الوجود، أي إن عالم الوجود هو ظهور للصفات لا للذات.

ونستنتج من ذلك أن الذات مقدسة ومنزهة عن كل شيء، فانعدام الشمس يصاحبه انعدام الضوء، وعلى الرغم من أن ضوء الشمس لا ينفصل عن الشمس، إلا أن هذا الضوء ليس الشمس ذاتها.

يبد أن الاعتقادَ الباطل بأن كل شيء هو الله سبحانه، وأن الكون هو الإله، اعتقادٌ يقوِّد إلى المادية التي تصور «الواحد» كأنه «الكل»، إن مذهب الحلولية الذي وضعه أفلاطون مصدره هذا الوهم المجانب للصواب، وقد رغب بعضهم في وضع فكرة وحدة الوجود داخل خانة الاعتقاد هذه، لكن المتصوفة الحقيقيين





دائمًا ما كانوا يرفضون مثل هذا الاعتقاد المنحرف، ففكرة وحدة الوجود^{٦١٥} الحقيقية تقول إن كل شيء موجود بوجوده ﷻ، أما ذاته فهي منزهة عن الأشياء كلها، أي إن الكون مظهر لصفات الحق تعالى، أما ذاته فهي ليست الكون؛ لأن الخالق لا يمكن أبدًا أن يظهر على شكل المخلوق، ومن كانت لديه قناعة مخالفة لذلك فهو واقع في الكفر الصريح؛ لأن الله ﷻ مخالف للحوادث، أي لا شبيه ولا نظير له، لذلك هو منزّه عن الصفات البشرية جميعًا.

ومن المعلوم أن هناك من ابتعد كثيرًا عن هذه الحقيقة مثل اليهود الذين قالوا إن عزيرًا ﷺ ابن الله، والنصارى الذين قالوا إن عيسى ﷺ ابن الله، وحاشا لله أن يكون هذا الكلام صحيحًا، ويأتي الجواب الإلهي على هذه الضلالات كلها، التي أنشأتها البشرية من خيالها ثم آمنت بها، في قوله ﷻ:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^{٦١٦}

وانطلاقًا من هذا نصل إلى أن أساس الاعتقاد الإسلامي يتكون من كلمة التوحيد، وهي في الحقيقة إخراج كل فهم عقائدي خاطئ عن الألوهية من القلب بكلمة «لا إله»، ثم تثبيت الفهم والاعتقاد الأصح في الألوهية التي أمرنا بها المولى ﷻ بكلمة «إلا الله»، وما أكثر الآيات الدالة على هذه الحقيقة:

٦١٥ وحدة الوجود: هو مفهوم صوفي وضعه ونظمه الشيخ محي الدين بن عربي. وهناك مفهوم آخر اسمه «وحدة الشهود» وضعه مجدد الألف الثاني الإمام الرباني. والرأيان في الأصل يوضحان الموضوع نفسه ولكن من جهتين مختلفتين، أي إن الاثنين إيضاح للفرق بين صفة الله تعالى وهي «الوجود»، والوجود/الكينونة في عالم الشهادة. والفارق الوحيد بينهما هو أن «وحدة الوجود» هي الإحساس بالتوحيد، أما «وحدة الشهود» فهي مشاهدة تجليات التوحيد. وبما أنها يتحدثان عن الحال، فلا يجب خلطهما مع تأويلات الفلسفة التي تعتمد على العقل.





﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾^{٦١٧}

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^{٦١٨}

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^{٦١٩}

والخلاصة هي أن إدراكنا للذات الإلهية يقتصر على معرفتنا بالله سبحانه وتسليمنا له في إطار الانطباعات والحكم التي نتلقاها من عالمنا، أي إن العبد مهما كانت حاله وعظمت قدرته واستعداداته في هذا العالم الفاني داخل هذه المعايير الفانية، سيبقى عاجزاً ثم عاجزاً عن إدراكه للذات الإلهية.

ونعلم من القرآن الكريم أن سيدنا موسى ﷺ تلذذ بالحالة المعنوية العظيمة حين تكلم مع المولى جلّ وعلا في جبل طور، وقد ترنحت عواطفه نتيجة هذه التجليات الإلهية التي ذاقها هناك، فلم يعد يعلم هل هو في الدنيا أو في الآخرة، وكأنه خرج من مفهومي الزمان والمكان، فتولدت في قلبه رغبة شديدة في رؤية ذات الله تعالى نتيجة هذه الحالة العظيمة من العشق والوجد والاستغراق، فطلب ذلك من ربه ﷻ، وكانت إجابة الله تعالى له:

﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وطلب منه النظر إلى الجبل، فإن رآه في مكانه، فسيرى ذات الله تعالى، وتقول الروايات إن نوراً من الله تعالى انعكس على الجبل من وراء حجب لا تُعد ولا تُحصى، فذُكَّ الجبل حينها دكاً، وغُشي على موسى ﷺ من دهشته، فلما أفاق بدأ بتسبيح الله والاستغفار؛ لأنه تجاوز الحد.^{٦٢٠}

٦١٧ البقرة: ٢٥٥.

٦١٨ الشورى: ١١.

٦١٩ الإخلاص: ١-٤.

٦٢٠ انظر: سورة الأعراف، الآية ١٤٣.





إن هذه الحقيقة القرآنية دليلٌ واضح على أن البشر محكومون بالعجز المطلق في موضوع إدراك الذات الإلهية.

ونعلم من خلال الأحاديث الشريفة أن المؤمنين سيرون الذات الإلهية في الجنة كما يرون البدر في هذه الدنيا، ولا تناقض بين هذه الحقيقة وما ذكرناه آنفاً من حقائق؛ لأن الشروط في الدنيا والآخرة مختلفة، أي إن الله ﷻ سيهب المؤمنين في الجنة قدرات واستعدادات مختلفة تجعلهم قادرين على مشاهدة الذات الإلهية، فالرسول ﷺ لم يُترك داخل الشروط والظروف الدنيوية ليتلقى الوحي، بل أتاه جبريل وشق صدره وأخضعه لعملية معنوية كي يمنحه بُنية وقابلية وقدرة تمكنه من حمل المهمات والتكاليف الخاصة بالأنبياء، ولو كانت قدرة النبي ﷺ وطاقته مثل غيره من البشر، لما صار مؤهلاً لوظيفة النبوة والتكاليف والتجليات الكبرى مثل المعراج.

ونخلص إلى أن مَنْ يرتقي من الإيمان إلى الإحسان هو مَنْ يحظى بالحقيقة والمعرفة في ضوء هذه الأسرار الإلهية كلها، ويغدو جوهرَ هذا الكون ولبّه، ويمثّل الإنسان الكامل الحقيقي، ويبحث دائماً عن العالم الأزلي ويشتاق إليه، أي بحثٌ واشتياقٌ للوصال مع الوجود المطلق، فهذا العالم النسبي المقيّد الذي وقع فيه أشبه بمكان اغتراب بالنسبة إليه، لكنه تجرّد عن وجوده الفاني في هذا العالم، فسلم إرادته لإرادة الله جلّ جلاله.

اللهم يسّر لنا الوصول إلى الإيمان اليقيني الصحيح.

اللهم زين حديقة إيماننا ببراعم العمل الصالح الخالص لوجهك الكريم.

اللهم ارزقنا صحبة حبيبك محمد ﷺ في الجنة.

وشرّفنا بالنظر إلى جمال وجهك الكريم يا رب العالمين!

آمين...





«إِنْ مَنْ يَنْظُرُ بِنُورِ الْحَقِّ، يَرَى الْخُلُودَ فِي ذَرَّةٍ، وَيَشَاهِدُ

الْمَحِيطَ كُلَّهُ فِي قَطْرَةٍ» مولانا جلال الدين الرومي



٢. الصفات الإلهية وتجلياتها

إِنَّ ذَاتَ اللَّهِ ﷻ وَاحِدَةٌ، أَمَّا صِفَاتُهُ فَلَا مَتَنَاهِيَةَ، أَيُّ إِنْ صِفَاتُهُ لَا تَحَدُّدٌ بِمَقْدَارٍ مُعَيَّنٍ، فَهِيَ صِفَاتٌ لَا نِهَائِيَّةٍ، وَلَا يَعْلَمُهَا كُلُّهَا إِلَّا هُوَ، وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْبِيََاءَهُ قِسْمًا مِنْهَا، فِي حِينٍ عَلَّمَ النَّاسَ قِسْمًا آخَرَ مِنْهَا، وَهِيَ الْأَسْمَاءُ التَّسْعَةُ وَالتَّسْعِينَ، أَمَّا الْعُلَمَاءُ فَهُمْ مُطَّلِعُونَ عَلَى صِفَاتٍ إِلَهِيَّةٍ كَثِيرَةٍ لَا تَدْخُلُ فِي الْأَسْمَاءِ التَّسْعَةِ وَالتَّسْعِينَ.

وَتُفِيدُ الصِّفَاتُ الْإِلَهِيَّةُ الْمَعْلُومَةُ وَغَيْرُ الْمَعْلُومَةِ أَوَّلًا تَنْزُّهُ خَالِقِ الْكَوْنِ عَنْ صِفَاتِ النِّقْصِ، وَأَنَّهُ مُتَعَالٍ مُتَصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، أَيُّ إِنْ كَمَالُهُ يَفُوقُ الْخِيَالَ، وَمِنْ هُنَا نَجِدُ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ نَقْصَانٌ فِي أَيْةِ صِفَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تَصَنَّفُ إِلَى «ذَاتِيَّةٍ» وَ«ثَبُوتِيَّةٍ»، أَوْ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ صِفَاتٌ لَا تَنَاسِبُهُ ﷻ.

وَبِمَعْنَى آخَرَ، كَمَالُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ لِأَنَّهُ حَيٌّ حَيَاةً دَائِمَةً مُطْلَقَةً، وَصِفَةُ حَيَاتِهِ لَيْسَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ الَّتِي تَنَاقُضُ الْمَوْتَ، فَحَيَاتُهُ ﷻ حَيَاةٌ خَاصَّةٌ بِهِ فَقَطْ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ فِي ذَلِكَ:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ...﴾ ٦٢١

أَمَّا عِلْمُهُ فَهُوَ عِلْمٌ مُنْزَهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ نَتِيجَةُ التَّفَكِيرِ وَالتَّأَمُّلِ، وَأَصْدَقُ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا مُحَدُودِيَّتِهِ ذَلِكَ التَّنَاسُقُ وَالنِّظَامُ الدَّقِيقُ الَّذِي نَرَاهُ فِي هَذَا الْكَوْنِ، وَالَّذِي لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ عَقْلٍ أَوْ إِرَادَةٍ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ، أَمَّا الْبَشَرِيَّةُ بِعِلْمِهَا





في هذا الكون فهي تصل إلى اختراع صغير بعد تضافر جهود الكثير من العلماء، ويكون هذا الاختراع نتيجة العلوم والقواعد البشرية الكثيرة المترامية على مدى القرون، فمثلاً الهاتف النقال المستخدم بكثرة في أيامنا هذه للتواصل بين الناس لم يُخترع إلا بعد آلاف السنين من وجود الإنسان في هذا الكون، وبعد تراكم الكثير من التجارب في هذا المجال، والحال نفسه في جميع مجالات الرقي الأخرى، وما هذه الاكتشافات والاختراعات والأسرار التي لم تُحل بعد إلا جزءً بسيطاً من العلم الإلهي الذي وضعه في نظام الكون بلمح البصر.

وأفضل مثال على الفرق الكبير بين علم الله تعالى وعلم مخلوقاته هو قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام:

ففي أثناء الرحلة التي رأى فيها موسى من الخضر عليهما السلام العجائب والغرائب والحوادث ذات الحكم المجهولة، إذ بطائر يقف على زاوية السفينة التي ركبوها، ثم أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، فجعل الخضر يُري موسى هذا المنظر ثم قال له:

«ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره»^{٦٢٢}

وفي ضوء هذه الحقائق يبيّن مولانا جلال الدين الرومي الحكم من وراء تعليم البشر صفات العلم والسمع والبصر الإلهية قائلاً:

«لقد أعلمك الله أنه عليم أي -يعلم كل شيء حق العلم- كي تخاف فلا ترتكب الشرور وتفسد».

«وقد أعلمك أنه سميع أي -يسمع كل شيء حق السماع- كي تغلق شفاهك فلا تنطق بالكلام السيئ البذيء».





«وقد أعلمك أنه بصير أي -يرى كل شيء حق الرؤية- كي لا تتورط في الأعمال السيئة في السر والخفاء».

وجميع أنواع الكلام الموجودة هي تجلٍ لصفة كلام الله ﷻ، وهكذا يُظهر الله تعالى قدرته اللامحدودة في صفة كلامه، ويذكر اسمه الشريف بالسنّة ولغات لا تُعد ولا تُحصى، فقد وهب الله تعالى لكل مخلوق في الكون -بما فيهم المخلوقات التي يظن الإنسان أن لا روح فيها- لغة خاصة من صفة كلامه جلّ جلاله، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿تَسْبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾^{٦٢٣}

وبما أن التسيّحات كلها -التي لا شك في وجودها- تكون بذكر الأسماء، فإن الوسيلة الوحيدة الممكنة للإنسان كي يعرف الله تعالى هي تجليات الصفات الإلهية في حدود إدراكنا.

وهذه الصفات من ناحية المعنى هي «صفات»، أما من ناحية إشارتها للذات الإلهية الموصوفة فهي «أسماء»، أي إن الله ﷻ متصفٌ بهذه الصفات لدرجة أنها صارت أسماء له سبحانه، فكم من إنسان حين يتصف بصفة سامية لدرجة كبيرة، تغدو هذه الصفة اسمًا له في نهاية المطاف، مثل سيدنا الصديق، والإمام الأعظم، وميّت زاده وآخرين كثير.

لذا، يمكن إطلاق اسم «تجليات الأسماء» على تجليات الصفات الإلهية، وقد أخبرنا الله تعالى أن صفاته هي أسماءُه، كي تكون هذه الأسماء وسيلة لإدراك عباده له، ويبيّن ذلك بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾^{٦٢٤}

٦٢٣ الإسراء: ٤٤.

٦٢٤ الأعراف: ١٨٠.





لأن العبد يحافظ على ارتباطه بربه من خلال أسمائه، وتُظهر هذه الحقيقة أن اسم الله تعالى عنصر لا غنى عنه في تنزيهه، ومن هنا نجد أن الأفعال الحسنة والسيئة من العبد لا تكون تجاه حقيقة الألوهية بل تجاه أسمائه ﷻ، وعلى هذا الأساس تكون حقيقته منزهة في كل حين.

والحق أنه لولا وجود اسم الله تعالى الخاص «الله»، لوجد الإنسان صعوبة كبيرة في تنظيم علاقته وصلته مع ربه؛ لأن الإنسان معتاد على إطلاق اسم على الكائن، ثم التعبير عنه بذلك الاسم، والاسم بالنسبة للإنسان تسجيل للكائن في إدراكه، لهذا السبب، علّم الحق ﷻ آدم ﷺ حين خلقه الأسماء كلها، وأظهر رفعة سيدنا آدم على الملائكة بهذا العلم؛ لأن معرفة اسم الكائن، يعني أيضاً إدراك ذاته بمعنى ما، ولو لم يعلمنا الله تعالى أسمائه الحسنى فكيف كان لنا أن ندركه ونعرفه حق المعرفة؟

أي إن الإنسان في حاجة دائمة لمعرفة أسمائه ربه التي تبين صفاته وخصائصه، فكلُّ عبد يرغب في نداء ربه بالاسم المناسب لحاله في مختلف المواقف التي يعيش فيها، ولو لم تكن هذه الأسماء لكان هناك عجز كبير عن إيجاد ارتباط مع الله تعالى، وقد يستحيل ذلك.

ويمكن القول إن هذه الأسماء تُزيل إلى حدٍّ ما صمت الإنسان أمام الذات الإلهية، أي هي مفاتيح معضلات الإدراك البشري، فذكر أسماء الله تعالى يكفي وحده لتغذية الإيمان، وجعل الإنسان يشعر بأنه أمام الله تعالى، ويزيد من عشقه ومحبته، ويجعله خاشعاً لربه، راغباً في نعمه، تاركاً للدنيا وما فيها من لذات وحظوظ فانية، ومتوجهاً للحياة الأبدية، ويحثه على الوصال مع الله تعالى، والدليل على هذه الفوائد هو أن الأدعية والأذكار التي أوصى بقراءتها رسول الله ﷺ في المواقف المختلفة كانت مليئة بأسماء الله تعالى.





وحين يكون المؤمن في ظروف صعبة جداً وفي حاجة ماسة للرحمة الإلهية، فإنه يبحث عن تعبير مختصر يشرح حاله ورغبته في أن يعينه ربه، فيلتجئ إلى أنسب اسمين من أسماء الله في هذه الحالة وهما «الرحمن» و«الرحيم»، أما حين يكون منهكاً تحت ثقل الذنوب، ويشعر بانقطاع حبل المحبة، فإنه يبحث عن وسيلة تُقرِّبه من المولى ﷻ، فيأوي إلى اسمي الله «الغفار» و«الستار»، وحين يرى تجلي القدرة الإلهية وعظمتها في الكون وفي روحه، فإنه يبحث عن تعبيرٍ للمشاعر التي يحس بها والمعرفة التي نالها - المشاعر والمعرفة التي لا يمكن للكتب أن تصفها - فيجد في نهاية المطاف التعبير المناسب لحالته بقوله: «الله أكبر» وبهذا تسكن روحه الخفاقة المضطربة.

والخلاصة أن العبد في مختلف الأحوال التي يمرُّ بها يفتح أبواب روحه الموصدة بواسطة صفات الله تعالى المختلفة، وبها يتخلص من الاختلاجات الكثيرة التي يحس بها والحاجات التي يرغب فيها.

ولهذا السبب عرّف الله تعالى نفسه بما يتناسب مع عظمتها، وبأسلوب يفهمه الناس في الوقت ذاته، أي إنه ثمة سببٌ شخصي مرتبط بالإنسان نفسه، ولهذا عرّفنا المولى ﷻ بنفسه عبر مجموعة من الصفات مثل العليم، والحكيم، والقدير، وما إلى ذلك من صفات، واستطاع الإنسان من خلال هذه الصفات أن يعرف ربه؛ لأن الإنسان يجد قسماً من هذه الصفات في نفسه - ولو كانت محدودة إلى درجة كبيرة - وهذه هبة من الهبات الإلهية من أجل إيمان البشر وهدايتهم.

إن تجليات صفات الله تعالى وأفعاله هي عبارة عن «تكرُّم إلهي من أجل الإدراك البشري»، والتجلي هو إظهارٌ لما يُتجلى، لكن هذا الإظهار ليس كما هو موجود في ذاته ﷻ، بل يتحقق على صورة تكرُّم إلهي على إدراكنا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي في إطار هذه الحقيقة: «إن مَنْ ينظرُ بنور الحق يرَ الخلود في ذرة، أي يرى شمس الخلود، ويشاهد البحر كله في قطرة».





وقد أدرك الشيخ إبراهيم غُلشاني دقة هذه الحقيقة فأشدد يقول:

يا رוחي، كيف لهذه القطرات أن تحوي بحاراً؟

يا رוחي، كيف لهذه الذرات أن تحوي شمساً؟

وجواب هذا التساؤل مخفيٌّ في كلام مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول:

«مَنْ ذا الذي يستطيع إدراك فعل الله الذي لا يُسأل عن حكمه؟ أو مَنْ ذا الذي يستطيع الوصول إلى حقيقة فعله؟ إن قولي هذا قول ضروري لشرح ذلك فقط».

«الدين في الحقيقة ليس إلا البقاء مُعجباً مندهشاً، لكن هذا الإعجاب لا يعني إنكار الحقيقة لعدم استيعاب العقل لها، بل الافتنان والإعجاب والاستغراق في الحبيب».

«وإذا نمنا فذلك بسبب فقداننا لوعينا بعشقه تعالى، إذ نكون في غاية النشوة، وإذا ما استيقظنا فإننا نحيا الأسرار الكثيرة في صنائع الله جلّ جلاله وإبداعه».

«وإذا ما بكينا، فسنكون غيومه المليئة برزقه وبركته؛ وإذا ما ضحكنا، فسنكون برقه المضيء».

«وإذا ما غضبنا وثرنا ودخلنا في حرب، فهذا تجلي قهره وجلاله، وإذا ما تصالحنا واعتذرنا، فهذا مظهر وتعبير عن حبه».

«مَنْ نحن في هذا العالم الكبير المَعقَّد؟ إننا كائنات فانية، كائنات لا قيمة لها، إننا مثل حرف الألف الذي لا يتصل بأيٍّ من الحروف بعده ولا يقبل أي نقطة، إن كل حركة وحال من أحوالنا هي تجلٍّ من تجليات أسمائه وصفاته الإلهية».

إن الباعث الذي جعل مولانا الرومي يغرق في بحر الحيرة والإعجاب هو التجليات السامية اللانهائية لأسماء الله وصفاته الظاهرة في نفسه والعالم، وهي تجليات توقف عمل العقول كلها.

وهذه الحقيقة -أي كثرة أسماء الله تعالى- تُسهّل على الإنسان فهم كثرة أفعاله سبحانه، وتُبرز اللامحدودية في محتوى ألوهيته، وتنزهه سبحانه عن اللبث





-الواقع في فهم الإنسان الناقص الضيق- وخاصة الصفات التي تناقض بعضها، فهي من الصفات التي تمنع وتعيق الأفهام والإدراكات التي تميل إلى تحديد الألوهية، فمن يريد أن يرى أن الله تعالى ظاهرٌ فقط، فهو كذلك؛ لكنه باطن في الوقت ذاته.

أي إن الله ﷻ «جامع الأضداد»، فهو يجمع في كينونته الصفات المتضادة. وهذا السمو والجلال هو السبب في اختلاف المخلوقات بعضها عن بعض، وعليه فإن أي شيء قابل للإدراك البشري يمكن أن يفهم عبر التضاد، وكلما ازداد التضاد وصار تضاداً تاماً، ازداد الإدراك صفاءً.

ونجد من ناحية أخرى أن الأشياء المتضادة في عالمنا لا تعيش أبداً في انسجام مع بعضها، بل فيها ميول لإفناء بعضها بعضاً أو الاتحاد، وهذا الميل يأخذ حيزاً في العالم المادي وفي الحقائق الميتافيزيقية أيضاً بصورة مطلقة؛ لأن أصل الوجود واحد، أي إنها ضرورة من ضرورات «عادة الله».

وكما أن الضوء والظلام، والحرارة والبرودة في سعي دائم لإفناء بعضها بعضاً، كذلك التغيرات والتبدلات الروحية التي تظهر في الفكر والإحساس، كلها تجري وفقاً لهذا للقانون الإلهي.

أما صفات التضاد في الذات الإلهية فهي ليست كالميول في عالمنا تسعى لإفناء بعضها بعضاً، بل لهذه الصفات القدرة والاستعداد للانسجام مع بعضها بعض، أي إنه لا يوجد ضدُّ لأيّة صفة من صفات الله الموجودة في ذاته.

فالله حيٌّ، لكن حياته منزّهة عن الموت الذي هو ضد حياة المخلوقات.

وهو الموجود، ووجوده منزّه عن العدم.

وهو عليم، وعلمه منزّه عن الجهل.

وهو قاضي الحاجات، ومنزه عن احتياج سواه.

وجميع صفاته الأخرى تجري على هذا النحو.





وبما أنه لا قدرة لنا للاطلاع على المحتوى المطلق لصفات ذات الله ﷻ، ولا نستطيع التفكير إلا من خلال الانطباعات التي نأخذها من عالم الحواس، فإن إدراك طبيعة هذه الصفات وتحليلها يفوق طاقتنا، ويمكننا توضيح هذه الفكرة من خلال المثال الآتي:

إذا كان لدينا سلك كهربائي، فيمكننا من خلال هذا السلك واستطاعته أن نحصل على البرودة إذا وصلناه بثلاجة، وعلى الحرارة إذا وصلناه بمدفأة، فيكون لدينا نتيجتان متضادتان، ولنفترض أننا وضعنا الثلاجة والمدفأة في الغرفة نفسها وبدأت العمل، سنجد حينها أن الحرارة والبرودة في حالة صراع، يحاول كل منهما القضاء على تأثير الآخر، بينما لا يوجد صراع في السلك الكهربائي الذي يعدُّ منشأ الحرارة والبرودة أبداً، وبالمثل، منح الله ﷻ الكائنات حداً معيناً من القدرة والاستعداد، وكلُّ منها يتلقى تجليات أسماء الله في إطار استعداداته، وينتج عن هذا صراع مستمر بين الأضداد، حيث يحاول الأقوى إخضاع الأضعف.

ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى: إن الصراع بين الأضداد في عالمنا لا يسعى إلى إفناء بعضها بعضاً، بل ضمان الانتصار في هذا الصراع، وبما أن كل ضد يعتمد على اسم أو أكثر، وبما أن الأسماء الإلهية أسماء أبدية، فإنه لا يمكن لهذا التضاد أن يعرف نهايةً.

والنتيجة الطبيعية لهذه الفكرة أنه حين يتجلى على المؤمنين حال انتصار صفة «الهادي» الإلهية، تتجلى على الكافرين صفة «المُضِلُّ»، فالضدَّان الإيمان والكفر مستمران حتى يوم القيامة، ومن المستحيل أن ينتهي الصراع بينهما بانتصار أحدهما، وفناء الآخر فناءً تاماً؛ لأن تجليات أسماء الله تعالى كلها أبدية ومستمرة دون انقطاع.

ومن النتائج الأخرى لهذه الفكرة أنه مهما كانت قوة الكفار وسلطتهم، فلن يستطيعوا هزيمة وإفناء الإيمان، وهذه الحقيقة تنطبق أيضاً على المؤمنين،





وما ذكرناه هنا حول الإيمان والكفر في سياقه البشري ينطبق على جميع أشكال التضاد في هذا الكون.



ولا بُدَّ لنا من ناحية أخرى أن نعلم أن الكون الذي وُجد بتجلي أسماء الله كلها ليس المتلقي الوحيد لهذه التجليات، فالإنسان والقرآن كلاهما كان له النصيب نفسه من هذه التجليات أيضًا.

وفي الوقت الذي يشكّل الكون عالمًا فعليًا في هذه التجليات نجد أن القرآن منظومة حقائق تعبّر عن حقائق الكون على صورة «كلام»، والإنسان من حيث وجوده مثل الكون تمامًا، فهو يتلقى تجليات أسماء الله كلها، وهو من هذه الناحية يحتل موقعًا بارزًا، فالإنسان جوهر الكون وبذرتة وخلاصته، لهذا يُطلق عليه اسم «العالم الصغير».

إن التضاد الموجود في أسماء الله تعالى موجودٌ أيضًا في الإنسان الذي يُعدُّ المكان الأنسب لتجلي هذه الأسماء، وبناءً على هذا الأساس، نرى أن المؤمن الذي تنتصر فيه صفة «الهادي» الإلهية، لا بُدَّ وأن تكون فيه نبذة من صفة «المُضِل»، والإيمان الموجود في مثل هذا الإنسان ما هو إلا نتيجة غلبة صفة «الهادي» الإلهية فيه، أما الحال لدى الكافر فهو عكس هذا الحال.

والنتيجة الطبيعية لهذا الأمر هو وجود استعدادٍ - قويًا كان أم ضعيفًا - لدى المؤمن للوقوع في الكفر، واستعدادٍ لدى الكافر للدخول في الإيمان، لذا، من الأمور المهمة أن يعيش المؤمن حياته «بين الخوف والرجاء»، فمن الضروري ألا ينسى المؤمن أبدًا احتمال أن تزلَّ قدمه بين ليلة وضحاها.

إلى جانب ذلك يجب الأخذ بالحسبان أن أكثر الناس كفرًا قد يأتي عليه يوم تغلب فيه صفة «الهادي»، فهذا يقتضي إذاً قبول مخاطبته في ضوء هذا الاحتمال والرجاء.





ويلفت انتباهنا هنا الحديث الشريف الذي يقول فيه رسول الله ﷺ:

«إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يُخْتَم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يُخْتَم له عمله بعمل أهل الجنة»^{٦٢٥}

لهذا يجب أن يكون قلب المؤمن بين الخوف والرجاء، وأن يجعل الأمر الإلهي في قوله ﷻ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^{٦٢٦} شعاراً له في حياته.

إنَّ الشعور بالأمن المطلق أو اليأس المطلق كفرٌ صريح بسبب جهل الإنسان للقدر، أي هل سينتهي به المطاف مؤمناً أم منكراً، فلا أحد يعلم كيف سيكون حاله عند النَّفْس الأخير، ولا أحد يضمن آخرته سوى الأنبياء وَمَنْ بُشِّرُوا بالفلاح من الناس «مثل العشرة المبشرين بالجنة».

وقد ذكرنا سابقاً أن الصفات المتضادة للذات الإلهية متداخلة فيما بينها وفي حالة انسجام وسكون، وتتجلى في الدنيا التي هي عالم امتحان، لكن ثمة ميل إلى انتصار إحداها على الأخرى، أي يغلب أحياناً الذين اهتدوا بتجلي اسم «الهادي»، وأحياناً أخرى يزداد الكفرة بغلبة اسم «المُضِل»، وحتى مع وجود الأنبياء وجهودهم الجبارة في هداية الناس، كان المجتمع يحوي الكفار والفساقين، في حين لم تخلُ الحقب التي حكم فيها الكفر والظلم من المؤمنين الذين حافظوا على الإيمان واستمسكوا به.

ويحتوي القرآن الكريم على الكثير من الأمثلة لمؤمنين آمنوا وكافحوا في سبيل إيمانهم حتى آخر نَفْس، وارتقوا إلى ربهم شهداء، ومن هؤلاء أصحاب الأخدود الذين ألقوا في أخدود النار، والحواريون الأوائل الذين آمنوا بسيدنا عيسى عليه السلام ولم يرجعوا عن إيمانهم مع أنهم سَلَّمُوا أرواحهم بين أسنان الأسود،

٦٢٥ مسلم، القدر، ١١/٢٦٥١.

٦٢٦ الحجر: ٩٩.





وحبيب النجار الذي رجمه قومه الظلمة، وسحرة فرعون الذين آمنوا بموسى ﷺ فعاقبهم فرعون بأن قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم صلبهم في جذوع النخل، فكان جوابهم:

﴿...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾^{٦٢٧}

إن هذه الحقائق كلها تعطينا دروساً في الاعتقاد الصحيح والتربية الإيمانية، وعليه فإنه مهما كان الإنسان شديداً في كفره، فلا يحق لأحد أن يحرمه من الدعوة إلى الإسلام، فقد يسيطر عليه فجأة تجلي صفة الله «الهادي» المستقرة في لاشعوره، فتتغير شخصيته تغيراً جذرياً، أي إن احتمال الهداية يبقى حتى في أشد الناس كفرًا، وقد أوضح الله ﷻ هذه الحقيقة حين كلف سيدنا موسى وأخاه هارون عليهما السلام بدعوة فرعون إلى الإيمان فأمرهما الله تعالى أن:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^{٦٢٨}

ولا ريب أن هذه الآية الكريمة تعرض لنا في الوقت ذاته أفضل طريقة لتبليغ الإسلام، ولهذه الطريقة أساسان:

١- تبليغ الحقيقة للمخاطب بأسلوب رقيق لا يستفزه أو يجرح كرامته:

فلو كان لدى فرعون ميول كثيرة للإيمان بموسى ﷺ بعد رؤية معجزاته، لكان المانع والعائق في إيمانه هو هامان ومن حوله، وسبب آخر في عدم إيمانه هو غروره وكبره، لكنه حين كان يغرق في البحر الأحمر أراد في حالة اليأس أن يتمسك باسم الله «الهادي» لأنه كان في حالة عجز تام، فقال حينها:

﴿...آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ...﴾^{٦٢٩}

٦٢٧ الأعراف: ١٢٦.

٦٢٨ طه: ٤٤.

٦٢٩ يونس: ٩٠.





بيد أن إيمانه لم يُقبل لأنه عاش حياته طالبًا تجلي اسم «المضل» فما أفاده هذا الإيمان في سكرة الموت، وانتقل إلى الآخرة كافرًا ظالمًا مفرطًا في ظلمه ويؤكد الله ﷻ على هذه الطريقة في آية أخرى يقول فيها:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^{٦٣٠}

٢- تبليغ الإسلام للناس كافة بغض النظر عن الظروف والحالات التي هم عليها: لقد كان فرعون ظالمًا شقيًا لا يرغب في الدنو من الإيمان، وكان في الوقت ذاته قاتلاً لآلاف الأطفال وساعيًا للقضاء على موسى عليه السلام، ومع ذلك كله أرسل الله له مَنْ يبلغه، وفوق ذلك كله، يأمر الله ﷻ موسى وهارون عليهما السلام:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^{٦٣١}

ونفهم من هذا البيان ضرورة أن يكون التبليغ شاملاً للناس جميعاً مهما كان وضعهم الذي هم عليه.

فقد كان رسول الله ﷺ يدعو أبا جهل كثيراً ويبلغه الرسالة، لكن أبا جهل أنكر ذلك بسبب غلبة النفسانية والكبر فيه، مع أنه كان يقبل نبوة سيدنا محمد ﷺ في ضميره ووجدانه.

ومن ناحية أخرى، نجد أن السلوك الرفيع للنبي ﷺ كان وسيلة لهداية الكثير من الناس الذين كانوا من ألد أعداء الإسلام في الماضي مثل سيدنا عمر بن الخطاب، وأبي سفيان، وهند، ووحشي.

هذا السلوك الدعوي والأسلوب الإرشادي يرسم ملامح نمط رقيق في التعامل فيه الكثير من اللباقة والرقّة والجمال، ويضع في حسابه كل الظروف

٦٣٠ النحل: ١٢٥.

٦٣١ طه: ٤٤.





المحيطة والعوامل المؤثرة في المدعوين والمُخَاطَبِينَ، وكذلك الذين تُقَدِّم لهم الخدمة، وكل الدوائر التي حول الداعية والمرشد. وذلك هو الأساس والقاعدة في السلوك الصوفي، حيث يبلغ هدفه بأشد تأثير وفائدة ونضج.



ونتيجة للتصديق بالقلب بوجود ذات الله تعالى ووحدانيته والإقرار باللسان، والضرورة الطبيعية الناتجة عن هذا الإيمان، أمر الله تعالى عباده بتعظيمه بالعبادات، ولم يهب الله تعالى الاستعداد الذي يحقق هذه العبادات للمخلوقات كلها، بل وهب الإنس والجن فقط، وقد وضع الله تعالى في هذين الصنفين الفهم والإدراك، لذلك فهما مسؤولان ومكلفان كل حسب فهمه وإدراكه.

إنَّ الجنَّ أكثر عدداً من الإنس، لهذا حين يُذكران معاً في الآيات الكريمة يأتي ذكر الجن أولاً، لكن الإنسان يحتل شرفاً وموقفاً أكثر رفعة، ومع ذلك، فهما من حيث الغاية من خلقهما مكلفان بالعبادة والعبودية لله تعالى، يقول الله تعالى في القرآن الكريم مبيناً هذه الغاية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^{٦٣٢}

ولم يكتفِ الله ﷻ -الذي غلبت رحمته غضبه- بإعداد الإنس والجن بالعقل والإدراك والفهم وقدرة التمييز من أجل الإيفاء بمهمة «العبودية»، بل فوق ذلك كله، أكرمهم ﷻ بالعون الإلهي، وعلى الرغم من أنَّ كلَّ عنصر في هذا الكون هو دليل على وجود الخالق ﷻ، فإن الله ﷻ أرسل قوافل الأنبياء والمرشدين الكاملين لمساعدة الإنس والجن في التخفيف من العقبات والمشاق التي قد يلقونها أثناء استنباط الأدلة الماثلة في الكون لينتقلوا منها إلى ذاته سبحانه، ولكي لا يُحرَم أيُّ فردٍ من هذا المدد الإلهي ابتداءً الله هذا المدد بالإنسان الأول،





فقد تَوَجَّ سَيِّدُنَا آدَمُ أَبَا الْبَشَرِ بِتَاجِ النُّبُوَّةِ، وَلَأَنَّ الْإِنْسَانَ أَرْقَى وَأَشْرَفَ مِنَ الْجِنِّ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ، حَتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ كُفِّ بِهَدَايَةِ الْجِنِّ أَيْضًا.

وَعَلَى أَنْ التَّبْلِيغُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ هُوَ نَفْسُهُ عِنْدَ الْجَمِيعِ مِنْ نَاحِيَةِ الْإِعْتِقَادِ وَالْحَقَائِقِ الْكُبْرَى، إِلَّا أَنَّ الْأَحْكَامَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ جَاءَتْ مُتَوَازِيَةً مَعَ تَطَوُّرِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ، ثُمَّ وَصَلَتْ إِلَى أَوْجِ كَمَالِهَا مَعَ نَبِيِّ آخِرِ الزَّمَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَسَيَسْتَمِرُّ هَذَا الْقُرْآنُ مَعْجَزَةً بَيَانِيَّةً لَا تَتَغَيَّرُ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَكَانَ مِنْ أَسْمَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ «رَسُولُ الثَّقَلَيْنِ»؛ لِأَنَّهُ بُعِثَ لِعَالَمِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مَعًا. إِنْ هَذَا الْكَوْنُ الَّذِي خُلِقَ بِتَجَلِّيِ أَسْمَاءِ اللَّهِ ﷻ هُوَ عَرَضٌ مُبْهَرٌ لِقُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ، وَمَعَ كُلِّ يَوْمٍ يَتَقَدَّمُ فِيهِ الْعِلْمُ يَزْدَادُ فَهْمُ التَّجَلِّيَّاتِ الْمُدْهَشَةِ لِلْإِبْدَاعِ الْإِلَهِيِّ بِصُورَةٍ أَعْمَقُ وَأَشْمَلُ، وَيَزْدَادُ إِدْرَاكُ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، وَمَا يُوَكِّدُ قَوْلَنَا هَذَا مَا نَرَاهُ مِنْ تَقَدُّمٍ فِي مَجَالَاتِ الْعُلُومِ كُلِّهَا بَدَأًا بِأَبْحَاثِ الْفَضَاءِ، مُرَوِّرًا بِالتَّطَوُّرِ فِي عِلْمِ الْوَرَاثَةِ، وَصَوْلًا إِلَى عَجَائِبِ الْحَاسُوبِ، لِهَذَا كُلِّهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ ٦٣٣

فكَلَّمَا تَقَدَّمَتِ الْعُلُومُ خُطْوَةً إِلَى الْأَمَامِ، قَدَّمَتْ لِلْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ دَلَائِلَ جَدِيدَةً عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، فَالْكَوْنُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مَنْظُومَةٌ حَقَائِقُ لَا مَتْنَاهِيَّةَ فِي خِدْمَةِ الْإِدْرَاكِ الْبَشَرِيِّ، كَكِتَابِ مَفْصَلٍ وَبَيَانٍ مُحْكَمٍ لَكِنْ دُونَ كَلِمَاتٍ، أَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَخْضَعُونَ لِلْأَوْامِرِ الْإِلَهِيَّةِ فَهُمْ قَدْ تَجَاوَزُوا مَرَحِلَةَ قِرَاءَةِ الْحَقَائِقِ الْمَكْتُوبَةِ فِي السُّطُورِ، وَبَدَّوْا - مِنْ خِلَالِ اسْتِعْدَادِهِمُ الرُّوحَانِي - بِقِرَاءَةِ الْحِكْمِ وَالْأَسْرَارِ فِي كِتَابِ الْكَوْنِ.

وَتَسْعَى الْعُلُومُ الطَّبِيعِيَّةُ إِلَى وَضْعِ قَوَاعِدٍ لِلنِّظَامِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يَحْكُمُ الْعَالَمَ تَحْتَ اسْمِ «الْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ»، لَكِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَصِلُونَ إِلَى الْمُرَادِ





الإلهي الذي يحكم الكون من خلال إدراكهم الحقائق التي تُسمى بقوانين الطبيعة من نقطة أكثر شمولاً.

والإنسان الذي يُسمّى بالعالم الصغير هو أيضاً مثل العوالم الأخرى، منظومة من الحقائق اللامتناهية الموضوعية بين يدي الإدراك البشري، وهذه هي الحكمة من وراء إطلاق اسم «زبدة الكون» أي جوهر الكون على الإنسان، فكما أن جميع خصائص ما سينتج عن البذرة مكنوزة فيها، كذلك تتركز في الإنسان جميع الأسرار والحقائق الموجودة في الكون والقرآن على صورة نواة فيه.

وبعبارة أخرى، إن الله ﷻ المنزّه عن مشابهة المخلوقات، والمنزّه عن إدراك البشر لذاته، والبديع الذي ترك فقط باب إدراك إبداعه وصنعه مفتوحاً للإنسان، قد خلق هذا الإنسان «خليفةً» له في الأرض، وجعله أشرف المخلوقات وجوهر الكون، وبسبب الحقائق المكنوزة في هذا الإنسان فهو يسمّى بالكون الصغير، ويسعى العلم من هذا الجانب إلى جعل الإنسان يدرك ذاته أولاً، ثم يدرك الغاية من خلق المخلوقات، وبهذا يفتح أمامه الباب للوصول إلى معرفة الله تعالى.

ويوضح يونس أمره غاية العلم الأصلية بقوله:

العلم معرفة العلم

العلم معرفتك نفسك

إن لم تعرف نفسك

فكيف تدرس؟

لا تقل قرأت فعلمت

لا تقل أطعت كثيراً

إن لم تعرف الله الحق

فهذا مجرد كلام





إن ما وهبه الله ﷻ للإنسان من قيمة عالية وموقع مميّز بين المخلوقات يمكن أن نجده في مؤلفات كُتبت في الوسط الصوفي، هذه المؤلفات التي تعكس عمق العالم القلبي، وأول ما يبرز في خاطر حين نستذكر هذه المؤلفات هو الشاعر المشهور الشيخ غالب -من شعراء القرن الثامن عشر- وهو الشاعر الذي كتب دواوين يعرف فيها الإنسان بما يحويه من قيم تناسبه، ويخاطب الشاعر «الإنسان» في شعره قائلاً:

فيك مخزن أسرار المحبة

فيك معدن الأنوار والفتوة

«أيها الإنسان! فلتعلم أن محفظة أسرار المحبة -القلب- موجودة فيك، لديك... وأن مصدر نظافة الخلق، وأنوار الكرم والمروءة هو فيك ولا في أحد غيرك...»

وكم من حالات سرية خفية موجودة فيك

والمعرفة فيك، والحدّاقة فيك، والحقيقة فيك

انظر لترى فيك الأرض والسماء، والنار والجنة

انظر فلا شك أن فيك العرش والكرسي والملائكة

انظر إلى نفسك نظرة حسنة، فأنت خلاصة العالم

وأنت بؤبؤ عين الوجود

وبعبارة أوجز، الإنسان هو خلاصة التجليات التي تنتزل على هذا العالم الفاني من الحقائق العظيمة لرب السموات والأرض الذي يسعى الإدراك البشري إلى الوصول إليه عبر الانتقال من السبب إلى المُسبّب، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الإبداع إلى المبدع؛ والإنسان بما فيه من مواهب هو عالم آخر له مزاياه الخاصة، وهو المرشح الوحيد ليكون قرآنًا حيًّا في هذا الوجود.

ومع ذلك كله، لم تنجح الأبحاث العلمية في فهم «الإنسان» فهماً يساوي المستوى الذي وصلت إليه في اكتشاف أسرار الكون، والسبب وراء ذلك أن





الإنسان مركَّب من «روح» و«بدن»، وبسبب قلة المعرفة بطبيعة روح الإنسان لحكمة إلهية، لذا، فإن للإنسان عالمًا داخليًا غامضًا يحتوي أسرارًا أكثر من أسرار الكون، ومع أنه طرأ تغير وتقدم كبير، وعُلم الكثير عن بدن الإنسان على مدى ألفي عام، إلا أن الحال ليس كذلك مع روح الإنسان؛ حيث إن العلوم بقيت عاجزة عن معرفة طبيعة الروح وأسرارها، والآية الكريمة التالية تأكيد لهذه الحقيقة:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{٦٣٤}

وحين نتكلم عن الكون، نجد أنه قد نُسج بطريقة منظمة وفق قواعد كاملة معقدة، وهذه القواعد هي ما نقول عنها:

عادة الله أو سنة الله، وهي في الوقت ذاته القوانين التي تحتوي على حكم عميقة، والمتعلقة بالعوالم المادية أو الميتافيزيقية، وهي التي تدل على قدرة الله وعلمه المطلقين.

والخصائص المتشابهة بين هذه القواعد التي لا تتغير دليلٌ على أن مَنْ وضع هذه القوانين واحدًا لشريك له، وشاهد على أن هذا الكون هو من صنع يدٍ واحدة ليس غير. والإسلام يدعو الإنسان ليقرأ ويرى التجليات المثورة في كتاب الكون مثلما يقرأ آيات القرآن الكريم؛ لأن الله ﷻ يُعرِّف الناس بوجوده وذاته من خلال الحكم والعبر والأسرار المكنونة في مخلوقاته.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾^{٦٣٥}

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^{٦٣٦}

٦٣٤ الإسراء: ٨٥.

٦٣٥ الشعراء: ٧.

٦٣٦ الروم: ٥٠.





﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ
هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾^{٦٣٧}
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^{٦٣٨}

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^{٦٣٩}
ومن الحقائق الجليلة أمام أعيننا هذا النظام والانسجام الموجود في هذا
العالم اللامحدود الذي يأخذ الألباب، وهو نظام مستمر منذ أن خلق الله الكون
دون أي خلل أو عيب، نظام كامل متوازن بحسابات غاية في الدقة.

فمثلاً لو لم يكن ميل محور الأرض بدرجة ٥, ٢٣، لما رأينا الفصول في
كل عام، ولا استمر الصيف إلى الأبد في مناطق، بينما استمر الشتاء إلى الأبد في
مناطق أخرى، ولو كانت المسافة بين الأرض والشمس أكثر قليلاً، لصارت جميع
المناطق في الأرض مثل القطبين، ولو كانت المسافة أقرب قليلاً، لاحترق كل
شيء على وجه الأرض، وهذه الحقائق وما شابهها تثبت لنا أن الأجرام السماوية
كلها قد أعدت ونظمت بصورة تضمن استمرار الحياة.

إن العيون التي لديها البصر والبصيرة ترى أن هذه الدنيا -أمام سلطان الله
تعالى- ما هي إلا جزء بسيط من ملايين ومليارات الأجرام التي تسبح في الفلك،
وهذه الأجرام هي كالغبار المتناثر في هذا الكون، والأرض مجرد ذرة واحدة
فيها، وجميع ما فيها من جبال وسهول ومحيطات وبشر يدخلون في هذا الغبار.

٦٣٧ الملك: ٣-٤.

٦٣٨ الغاشية: ١٧-٢٠.

٦٣٩ ق: ٦.





إِذَا، لَا قِيَمَةَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بِعِبَادَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى.

ومع تقدم العلم، سيزداد فهم عظمة وقدرة الله تعالى الموجودة في الإنسان والسموات والأرض، فقد خلق الله ﷻ مخلوقاته بصورة تناسب جلال شأنه، وبحساب دقيق معقد كامل لا حد له، يقول المولى جلّ جلاله في كتابه العظيم:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^{٦٤٠}

والحق أن تقدم الأبحاث العلمية حول طبيعة الكون يساعدنا في فهم شامل للدقائق المُشار إليها في القرآن الكريم؛ لأن كل اكتشاف جديد في العلوم الطبيعية لا يؤكد على صدق القرآن الكريم فحسب، بل تشير بعض هذه الاكتشافات إلى الآيات العسية على فهم الإنسان حتى الآن.

فآيات القرآن الكريم التي تشير إلى مراحل خلق الإنسان قد جعلت العلماء المنصفين في مجال علم الأحياء والتشريح في دهشة وحيرة، وألزمهم بالنطق بالحق، فالقرآن يصف أدق مراحل الخلق حتى مراحل تشكل الإنسان في رحم أمه، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^{٦٤١ . ٦٤٢}

٦٤٠ فصلت: ٥٣.

٦٤١ المؤمنون: ١٢-١٤.

٦٤٢ كان مما أدهش الأستاذ د. مارشال كانسون الذي اشتهر في مجال التشريح تلك الآيات في القرآن الكريم التي تتحدث عن مراحل خلق الإنسان، ومما لفت انتباهه كثيرًا المعلومات المتعلقة بخصائص المضغة التي ذكرها القرآن. وتأخذ المضغة شكلًا يشبه قطعة اللحم حين تمضغها الأسنان، وكل هذا





والقرآن الكريم غير مطالب أصلاً بتقديم تفصيل علمي تقني، لأنه ليس كتاباً منحصرًا في علم الفلك أو النبات أو الأحياء أو الأرض، بل هو كتاب فيه جوامع الكلم، ويسهم كل اكتشاف جديد في مجال العلم والتكنولوجيا في تأكيد الحقائق والعبر والحكم التي يشير إليها القرآن دون أن يصريح بها، وهذا ما يلقي الضوء على الحقائق الإلهية مع مرور كل يوم، وأكثر هذه الحقائق صراحة وتفصيلاً هو الكون، والسبب وراء ذلك أن الحقائق الموجودة في الإنسان والمكنوزة في جوهره موجودة في القرآن ولكن بصورة أوضح قليلاً، ومع ذلك كله تبقى الكثير من الحقائق العلمية في القرآن الكريم غامضة.

وترجع وجازة القرآن إلى ما يحتويه من حقائق لا تُعد ولا تُحصى، ولو أن الحقائق التي ظهرت بالأبحاث العلمية كانت في القرآن الكريم بصورة جليّة ومفصلة، لوقع محظوران وهما:

أ. استصعاب قبول الحقائق وإنكارها بالنظر إلى المستوى العلمي الذي يعيشه الناس في كل عصر، لذلك كان من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم أن حجب هذه الحقائق بطريقة جعلها تُكتشف مع مرور الوقت.

في ستمتر واحد لا غير. وتوجد في المضغة خصائص الإنسان كلها، لكن بعضها فعالة وبعضها كامنة لم يحن وقتها. ولم يتمكّن الطب إلى الآن من التعبير عن هذا الموضوع، فإن قال إنه ثمة أعضاء تعمل، سيجد أعضاء لا تعمل، وإن قال أنها لا تعمل، فهي تعمل. لذا ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿مُضْغَةٌ مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾ (الحج، ٥) فكان هذا الوصف للمضغة وصفاً شاملاً للمعلومات كلها، فقدّم لنا القرآن هذه الحقيقة منذ قرون طويلة.

وكان مما قاله د. مارشال الذي رفض في البداية القرآن الكريم ثم وجد نفسه مضطراً لقبوله، حين رأى هذه الحقائق: «نعم، إن هذا القرآن الذي ينير درب أهل العلم أنزله الله تعالى، وستظهر حقائقه واحدة تلو الأخرى مع مرور الوقت، ليتحقق قوله تعالى: ﴿لَكُمْ نَبَأٌ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام، ٦٧)».

(انظر: عبد المجيد زنداني، المعجزات العلمية في القرآن، ص ٣١-٣٦)





ب. تعذر قراءته من البداية إلى النهاية وذلك للحجم الكبير الذي كان سيتطلبه، وهو حجم لن يتخيله أي إنسان، ناهيك بالطبع عن المحافظة عليه من خلال حفظه، يقول الله ﷻ موضِّحاً هذه الحقيقة:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^{٦٤٣}
 ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^{٦٤٤}

وهذا توضيح أن القرآن الكريم يشير إلى جوهر كل حقائق هذا العالم.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^{٦٤٥}

وهذه دعوة من الله تعالى إلى عباده كي يتفكروا في القرآن الكريم تفكيراً حقيقياً. وإذا ما أردنا استخدام لغة القرآن نفسها، فيمكننا وصف القرآن الكريم أنه «فرقان»، أي هو الكتاب المبارك الذي يبيِّن الفارق بين الهداية والضلالة، والخير والشر، والنور والظلام، ويبرز الاختلاف بين هذه الأضداد، ويعطي النتائج لمن يقترب منه تبعاً لاستعداده ونيتته ونصيبه.

وتثبت الآيات الكريمة أن مَنْ يقترب من القرآن الكريم بقلب خالٍ من الفساد، يزداد إيمانه بما يراه من براهين جديدة في كل مرة، يقول المولى ﷻ:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^{٦٤٦}

٦٤٣ النحل: ٨٩.

٦٤٤ الأنعام: ٥٩.

٦٤٥ محمد: ٢٤.

٦٤٦ الأنفال: ٢.





ونجد من ناحية أخرى أن مَنْ ينظر إلى القرآن الكريم نظرةً سلبية، فإنه يزداد ضلالة على ضلّالته.

فحين ينظر المرء إلى أمر ما نظرة محبة، تغدو جميع المحاسن فيه واضحة جليّة أمامه، في حين إذا نظر عكس ذلك، فلن يرى أيّاً من مزاياه، فنظرة هؤلاء مثل نظرة أبي جهل للإسلام، ومثل هؤلاء حين يقرؤون القرآن الكريم يزداد كفرهم وإلحادهم؛ لأنهم يقفون عاجزين عن الوصول إلى مستوى القرآن الرفيع وبلاغته، وتكون حالتهم مثل حالة أولئك الذين يخسرون أمام منافسيهم بسبب طمعهم واحتدام عواطفهم، فيعيشون في حالة غيظ شديدة، ونتيجة لذلك يزداد استحقاقهم للجزاء والعقاب، يقول المولى رحمته عليه في ذلك:

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ٦٤٧

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ٦٤٨

وهكذا نجد أن القرآن دليل هداية للمتقين، في حين أنه يزيد الكافرين الذين يغلقون أعينهم بعناد أمام أنوار الحقيقة كفرًا وخسارةً، وهذا أمر ثابت بالبيان الإلهي، حيث يقول الله تعالى في هؤلاء:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ٦٤٩

٦٤٧ الإسراء: ٨٢.

٦٤٨ فصلت: ٤٤.

٦٤٩ الحج: ٤٦.





وقد ذكرنا في ما سبق أن الكون منظومة مخلوقات وُجِدَتْ بتجلي صفات الله، والقرآن الكريم هو انعكاس الحقائق الموجودة والمكنوزة في هذه المنظومة على صورة كلام، ولأن الإنسان هو الجوهر والخلاصة والبذرة الأساسية للكون والقرآن، فإنه ينال نصيباً من هذه التجليات المتضادة، سواء أكانت قليلة أم كثيرة.



لقد خلق الله ﷻ الكون وما فيه بتجليات أسمائه، وجعل التجليات الكاملة لهذه الصفات من نصيب الإنسان وحده، وهذا هو السبب الذي جعل من الإنسان «أشرف المخلوقات»، وهو أيضاً «جامع الأضداد» لكن بحسب استعداده وقدرته، فهو يضحك ويبكي، ويحب ويكره، أي إن الإنسان في وجوده يحتوي على صفة الرحمة، وكذلك القهر والغضب، لهذا يمكن أن يظهر على الإنسان اللطف والكرم، ونار الحقد والسخط، أما مشاعر الحلم والغضب دائماً فهي في حالة مدّ وجزر لديه.

والخلاصة أن للإنسان نصيباً من كثير من صفات الله ﷻ، لكن درجة تجلي هذه الصفات تختلف من إنسان لآخر، والاختلاف في الأخذ من هذه التجليات بين الحد الأقل والأكثر هو ما يكون الدرجات لدى البشر.

فعلى سبيل المثال، كل إنسان في هذا العالم له حتماً نصيب معين من صفة الله «الرحمن» أو «الرحيم»، لكن هذا النصيب دائماً يتغير من إنسان إلى آخر وتختلف درجته، فمنهم مَنْ تنحصر صفتا «الرحمن» و«الرحيم» في نفسه أو في أفراد أسرته وأصدقائه على أكبر تقدير، ومنهم مَنْ تشمل هذه الصفتان فيهم البشر جميعاً، وقد تشمّلان الحيوانات كلها.

ويمكننا أن نعرض هنا بعض الحوادث التي تتجلى فيها صفة «الرحمن» بالكامل: بينما كان أبو يزيد البسطامي يسافر في إحدى سياحاته، جلس في ظل شجرة وتناول طعامه هناك، ثم استمر في سفره، وبعد أن قطع مسافة طويلة، إذ به يرى





نملة في صرّته، فقال: «لقد جعلت مخلوق الله هذا بعيداً عن وطنه»^{٦٥٠}، لذا عاد إلى تلك الشجرة ليضع النملة هناك.

ومثال آخر على أشخاص وصلوا إلى أعلى درجات الرحمة هو الشيخ السري السقطي رحمته الله الذي يُحكى أنه قال:

«منذ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قلبي مرة «الحمد لله»، قيل له: وكيف ذلك؟ فقال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني واحد وقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فأنا نادم من ذلك الوقت على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً من الناس»^{٦٥١}

ويقول سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله في الحديث:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^{٦٥٢}

وعلى هذا الأساس، مَنْ تتمركز فيه مشاعر الرحمة والمحبة كيفما كانت بدايتها، ويتسع قلبه لجميع المخلوقات دون استثناء، حينها يصبح مؤمناً كاملاً في إيمانه، وتعبير آخر عاشقاً حقيقياً، وحتى لو بدأ العشق بميل وجاذبية لمحبوب معين كما تبرعم الزهرة في بدايتها، فسيكون هذا العشق عشقاً حقيقياً حين لا يقتصر على محبوب واحد، بل يشمل المخلوقات كلها وذلك من أجل خالق هذه المخلوقات.

وإذا لم تتجاوز علاقة الرحمة والمحبة التي نسميها «العشق الإلهي» الحدود والآفاق، فلا يمكن أن نقول عنها عشقاً، ولكن قد نصف هذا العشق بـ«العشق المجازي» باعتبار شكله البدائي.

٦٥٠ انظر: القشيري، الرسالة، القاهرة، دار المعارف، ص ٢٢٩؛ سعدى، بستان، ص ٧٨.

٦٥١ ابن خلكان، وفیات الأعيان، ٢، ٣٥٧؛ خطيب البغدادي، تاريخ، ٩، ١٨٨؛ الذهبي، السير، ١٢،

١٨٥-١٨٦.

٦٥٢ البخاري، الإيمان، ٦، ١٣.





وقد كان من نتيجة تجليات أسماء الله ﷻ وجود طبائع مختلفة بقدر عدد البشر، وكما أن اللون الناتج عند امتزاج الألوان يكون قريباً من اللون الطاعني بين هذه الألوان، كذلك تؤثر صفة التجلي الغالبة على تركيب تجليات الأسماء. وقد تنوعت الطرق الصوفية بسبب تنوع الطبائع كي يترقى الإنسان بسهولة، فكان من اللازم اختلاف طريقة التربية بين مرید وآخر.

والحق أنه يمكن تصنيف الطبائع بحسب الصفات الغالبة في كل طبع؛ حيث يمكننا أن نقسمها إلى أنواع مختلفة كما نقسم المخلوقات إلى: إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد. لكن قد يكون الفرق في صفة من الصفات بين مخلوقين في الصنف ذاته أكبر من الفرق بين مخلوقين من صنفين مختلفين. فمثلاً، تكون المسافة والدرجة بين أدنى وأعلى إنسان من حيث الموقع أكبر وأعظم من الدرجة بين الحيوان والإنسان، والسبب وراء هذا الفرق الكبير هو الاختلاف العظيم في التجليات، ويمكن أن يكون هذا الفرق في الصفات الحسنة والسيئة معاً، فثمة فرق شاسع بين مَنْ يكون في أقل درجات الظلم أو الكفر وبين الظالم العاتي أو الكافر الممعن في كفره.

فالكافر الذي تغلب عليه صفة «المُضِل» ويكون في أدنى المستويات، يحيا حياة دنيئة في ظل حياته المحدودة، ولا يكثرث أبداً بإيمان المؤمنين من بني جنسه، لكن قد تزداد درجة كفره ليصل إلى درجة يواجه فيها الأنبياء والصالحين كما فعل أبو لهب وأمثاله.

والظلم مثل هذا، فالصياد الذي يصطاد بهدف التلذذ بالصيد لا من أجل الطعام يقسو قلبه مع مرور الأيام ليصل ظلمه إلى درجة السادية، وقد كان الملوك الظلمة في الإمبراطورية الرومانية يتلذذون برؤية أتباع سيدنا عيسى عليه السلام والأسود تقطعهم إرباً إرباً، وهذا مثال عن أولئك الذين قال عنهم الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.





إن التنوع اللامحدود بين التجليات الظاهرة في الأشياء الطبيعية وفي الإنسان يُظهر أحد القوانين الأساسية في العالم وهو قانون «الاختلاف»، ومن العبث السعي لجعل مخلوقين متساويين تمامًا، ناهيك عن العالم كله؛ حيث إنه لا يوجد مخلوقان توأمان في هذا الكون، وذلك بمقتضى تجلي الأسماء الإلهية التي لا تُعد ولا تُحصى، فكما أنه لا توجد شجرتان تشابهان بعدد الفروع والأوراق والثمار، كذلك لا يوجد توأمان من البشر بالمعنى الكامل للكلمة يتشابهان بدناً وروحاً.

وإذا عرفنا الله تعالى والإنسان والكون كما ذكرنا، فإننا نستطيع تحمل الأضداد فينا وصولاً إلى الرحمة والمسامحة.

فالتصوف إذاً هو نضج النظر بالمحبة والمسامحة إلى الأشياء التي تُغضب من لم يمض في طريق التصوف، وهذه فضيلة سبر الحِكم وراء الظاهر.

إن الفضيلة والنضج هما مصدر المزايا الكثيرة الموجودة فينا، فهما اللذان يضمنان تعاملنا بالرفقة أولاً مع المذنبين بدل الغضب، وبالرفقة والأمل مع الكافر من خلال التفكير بالحرمان الذي يعيش فيه، وهما اللذان يمنحانا القوة والشجاعة في التبليغ، ويجعلاننا نرى المذنبين والكفار كالعميان المحتاجين للتنبيه والإرشاد أمام المخاطر، ولأننا نتألم لهم كما نتألم حين نرى طيراً كُسر جناحه، نفهم من ذلك أنه ليس من المنطق الغضب على المذنب.

وتجعل هذه الفضيلة والنضج من أحاسيس المحبة والرحمة تفيض فينا كالشلال لتجاوز علاقات القرابة كلها، وتشمل البشرية جمعاء دون أي استثناء.

والمجتمع الذي يتكون من مثل هؤلاء الناس تنتهي فيه الجرائم والصراعات، ليحلَّ محلُّها التعاون بالعطف والحنان، وبهذا يزداد عدد الصالحين والمصلحين، وتعمُّ «الأخلاق الحميدة» التي يتحلَّى بها هؤلاء الصالحون الذين اقتدوا بالنبي ﷺ، ويغدو التعامل مع المخطئين في المجتمع تعاملًا ناضجًا يشبه التعامل في الحادثة التالية التي تقدِّم لنا خير مثال:





من الشخصيات المشهورة في تاريخ التصوف الشيخ حاتم الأصم رحمته الله وهو من مشايخ بلخ، ومن الشخصيات النادرة التي استطاعت الوصول إلى المراتب العليا في الأخلاق من خلال إصلاح النفس والروح بالتربية المعنوية التي أمر بها الله تعالى ورسوله، ويرجع سبب لقبه المشهور «الأصم» -على الرغم من أن سمعه كان سليماً- إلى الحادثة المعبرة الآتية:

في يوم من الأيام جاءت امرأة مسكينة إلى الشيخ حاتم تسأله عن مسألة، وحين أرادت أن تشرح طلبها، صدر منها صوت، فاستحيت المرأة، فتظاهر الشيخ حاتم أنه لم يسمعها كي لا يحرجه، ثم وضع يده في أذنه وقال:

«يا أختاه، هلاً رفعتي صوتك، فأنا بالكاد أسمع!»

فسرّت المرأة أنه لم يسمع الصوت، وعادت تشرح مسألتها بصوت أعلى. وتشير الروايات أن سيدنا حاتم بعد تلك الحادثة كان يدّعي الصمم كي لا يخرج المرأة حتى توفاه الله بعد خمسة عشر عاماً، وبهذا اشتهر بين الناس باسم «حاتم الأصم».

إن سموّ الأخلاق وورقة الإحساس التي أظهرها حاتم الأصم في هذا المثال ليست مجرد نقل لما قرأه في الكتب وتطبيقه في الحياة، فهذه اللطافة واللباقة والفضيلة التي أظهرها سيدنا حاتم دليل على تخلقه بصفة الله «ستار العيوب» وجعلها جزءاً من سلوكه، ويسمّى مثل هذا السلوك -لاسيما في التصوف- بـ«التخلق بأخلاق الله».

لذا، يتلقّى أولياء الله تعالى تجليات صفات الله ﷻ، وتخضع إرادتهم لإرادة المولى ﷻ، وهم يعرفون حق المعرفة أن إرادة الله هي الصواب، ويوجهون مَنْ حولهم إلى هذا الطريق الصحيح.

والمثال الآتي حول هذه الفكرة فيه الكثير من الحكم والعبر:





سأل الشيخ سنبل سنان مريديه يوماً:

«يا أولادي، لو فرضنا أن الله ﷻ قد أعطاكم القدرة والإرادة التي تُسير هذا الكون، ماذا كنتم تصنعون؟» فتعددت أجوبة المريدين، فمنهم مَنْ قال: «كنت أفنيت الكافرين جميعاً» ومنهم مَنْ قال: «كنت أهلك كل مَنْ يشرب الخمر». وبعضهم بالغ فقال: «ما أبقيت في الوجود أي شخص يُدخن».

وكان من بين المريدين العالم مصلح الدين أفندي الذي بقي صامتاً ولم يجب بشيء، فالتفت إليه الشيخ سنان وسأله: «يا بُني، وأنت ماذا تقول؟»

فأجابه مصلح الدين أفندي بكل أدب:

«يا سيدي، حاشاً أن تكون في إرادة الله ﷻ عيب أو خلل كي أفكر في تغييره، وجوابي هو أنني لا أغير شيئاً، وأبقي كل شيء على حاله».

فسرَّ الشيخ سنبل سنان بجوابه هذا وقال:

«الآن وصلنا إلى الإجابة الصحيحة ومركز الفكرة».

وبعد ذلك اليوم لقَّب الشيخ مصلح الدين بـ «مركز أفندي» وحمل الأمانة المعنوية بعد أستاذه الشيخ سنبل سنان. ويلخص الشيخ إبراهيم حقي أرضرومي هذا الحال، ويعبر عن تفويض كل أمر لله تعالى بقوله:

كل أموره تفوق أمور غيره

وتليق ببعضها

ومهما فعل فهو صواب

لنرَ مولانا ماذا يفعل

ففعَّله حسن مهما كان

ونفهم مما سبق أنه لا يمكن نبيل هذه الأحوال الجميلة السامية إلا بالتخلق - في الأساس - بتجليات صفات الله ﷻ، وإن لم نكن كذلك فلن يختلف حالنا عن حال تلك الورقة التي لا علم لها بما يُكتب أو يُرسم عليها.





ويعبر مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة أجمل تعبير بقوله:

«إذا ما رسمت رجلاً مهموماً مغموماً على ورقة من الأوراق، فلن تعلم تلك الورقة وذلك الرسم أي شيء عن الغم أو الهم أو السعادة».

«فحين تنظر إلى ذلك الرسم ترى الغم عليه، لكن الرسم والورقة التي رُسمت عليها لا تعرف الغم، وإذا رسمت رجلاً ضاحكاً، فالرسم ليس لديه أية فكرة أيضاً عن الضحك».

لذلك إذا كان الإنسان -وهو أشرف المخلوقات- جاهلاً بتجليات صفات الله عليه، فإنه مثل تلك الورقة وذلك الرسم الجاف، مهما كثرت التجليات.

ولهذا السبب علينا أن ندمج جميع الصفات الفانية والنسبية التي قُدمت لنا في امتحان الدنيا مع تجليات صفات الله ﷻ، ويجب علينا أن نعلم أن ما تتضمنه الصفات التي تعود لذات الله ﷻ لا يمكن لأي بُعد أو حجم أن يحتوي مضمونها، فكلها صفات أزلية، وأبدية، ومطلقة، ولا نهاية لها، أي لا حد ولا أفق لأية صفة من صفاته؛ فعلم الله، وكلامه، وقدرته، وتكوينه، وأوصافه الأخرى، كلها منزّهة عن أي نوع من أنواع التشبيه والإيضاح. أما خصائصنا وخصائص هذه الدنيا فكلها محدودة فانية، وما هي إلا ظل زائل، والإنسان الذي لم يدرك حاله هذا بعد بالمعنى الكامل، لن يستطيع فهم الصفات المنحصرة في الله ﷻ فهماً صحيحاً، فكما أننا لا ندرك ماهية ذات الله تعالى وحقيقته، كذلك لا ندرك إدراكاً كاملاً حقيقة هذه الصفات وماهيتها.

إن مَنْ يطّلع على هذه الحقيقة، ويدرك أن صفاته كلها من رؤية، وسمع، وفهم، وكلام، وسائر الصفات الأخرى، هي مجرد تجلي جزء بسيط من صفات الله ﷻ، يحيا حياته بفيوضات المعرفة في المحوية، ويغوص في أعماق الإيمان الحقيقي ليقول:

«لا موجود إلا هو».





وحين تصل القلوب والعقول إلى ذروة العرفان، تُجَبَّل بالحكمة التي تقول:
«يا ربي، أنت كما أنت».

وبهذه الطريقة يصلون إلى ربهم بقلب سليم خالٍ من جميع أنواع الوهم
والوساوس، ويكتبون في سجل الأولياء.

سأل درويشٌ أبا يزيد البسطامي يوماً: «يا شيخنا، ما هو اسم الله الأعظم؟»
فأجابه البسطامي:

«يا بُني، وأيُّ اسم من أسماء الله صغير حتى تسأل عن الأعظم؟ لا تكن
غافلاً؛ أسماء الله كلها عظيمة. وإذا كنت تريد أن يحقق لك الله طلبك، فعليك أن
تحمي قلبك من الانشغال بما سواه ^{٦٥٣}، فأسماءه لا تتجلى في القلوب الغافلة،
أما القلوب المعمورة بنوره، فالله تعالى ينظر إليها بالكثير من أسمائه كل حين».

والكثير من الآيات الكريمة في القرآن تصف اسم الله بـ «العظمة» و«العلو»:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^{٦٥٣}

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^{٦٥٤}

وقد طَبَّق رسول الله هذا الأمر الإلهي، فقد كان أثناء ركوعه في الصلاة يقول:

«سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى»^{٦٥٥}

اللهم إننا ندعوك بأسمائك الحسنى، وباسمك الأعظم، أن تجعل لنا نصيباً
من أسرار معرفتك ومحبتك! .. آمين!



٦٥٣ الواقعة: ٧٤.

٦٥٤ الأعلى: .

٦٥٥ انظر: أبو داود، الصلاة، ١٤٦-١٤٧/٨٦٩.





الإنسان الكامل هو ذلك الذي وصل إلى منبع النور الإلهي،
وتجلى ذلك النور على نفسه نارًا لتحرق الميول النفسانية،
فهو ببركة محبة الله ﷻ وعشقه وصل إلى معرفة الله ﷻ.



٣. معرفة الله تعالى والتجليات لدى العارفين

معرفة الله تعالى علم إلهي لا حدَّ له ولا نهاية، إذ يحتوي على أسرار الكون
وحكمه جميعها، ولا يمكن تعريف هذا العلم بمعناه الكامل لأنه يتجاوز إدراك
البشر، إلا أن كل شخص يأخذ نصيبه من هذا العلم بحسب قدرته واستعداده
وسعيه، ولهذا السبب يقول سيدنا محمد ﷺ:

«.... لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^{٦٥٦}

والخواص من العباد يسمُّون «ورثة الأنبياء»؛ لأنهم ذوو أفعال وأقوال
استثنائية جاءت بطريقة ربانية لدنية، لا كسبية بشرية، وليس أفضل كلامًا وسلوكًا
بعد كلام الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ مما ورثه هؤلاء فيضًا وتجليًا، وينعكس هذا
الفيض على قلوب وأرواح كل مَنْ في معية هؤلاء الخواص، فيزداد سعيهم
وجهادهم، وتزداد أنوار بصائرهم، فتتجلى لهم الأسرار، وتمتلئ قلوبهم بالأنوار،
وتظهر صدورهم من الوسوس والشهوات.

وورثة الأولياء من الأنبياء تمتد إلى ميولهم وطبائعهم وصفاتهم، فمجموعة
من هؤلاء الأولياء يرثون من صفات نبي الله سيدنا آدم ﷺ، ومجموعة يرثون
من صفات أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم ﷺ، ومجموعة يرثون من صفات كليـم
الله سيدنا موسى ﷺ، ومجموعة يرثون من صفات روح الله سيدنا عيسى ﷺ،
ومجموعة يرثون من صفات أشرف خلق الله سيدنا محمد ﷺ.





فَمَنْ كان منهم من أهل المعرفة والمحبة والتوحيد، فذلك محمدي المشرب، مصطفوي الورد. وهناك مجموعة من الأولياء بلا صفة، وليس لهم تعيين واضح في الصفات والسمات؛ لأنهم نهلوا من جميع الأنبياء، واستقوا من كل المرسلين. ويهب الله ﷻ عباده هؤلاء الذين يحبهم تجلياته بحسب أحوالهم، فمنهم مَنْ كان الشاه نقشبند الذي كان بحرًا لا ينضب في معرفة الله تعالى والإحسان، ومنهم مَنْ صار مثل مجنون ليلى يجول في صحارى العشق، ومنهم مَنْ كان يطوف في أودية الدهشة والعجب، ومنهم مَنْ عجز عن النطق حين رأى العظمة الإلهية، ومنهم مَنْ صار مثل يونس أمره بلبلاً يتغنى بالعشق، ومنهم مَنْ صار مثل مولانا جلال الدين الرومي الذي كان كسحب السماء بروحانيته تتقاطر الحكم من لسانه كأنها اللآلئ النادرة.

هؤلاء وأمثالهم من الذين منحهم الله معرفته، وأفاض عليهم من تجلياته، جعلهم للناس دليلاً ونبراساً، وهداية للبشرية في متابعة مهمة الأنبياء.

والإنسان الكامل هو ذلك الذي وصل إلى بؤرة النور الإلهي، وتجلي ذلك النور على نفسه ناراً لتتحرق الميول النفسانية، فهو ببركة محبة الله وعشقه، وصل إلى معرفة الله ﷻ.

فيغدو ذلك الإنسان مركز جذب نوراني، تتوق إليه الأفئدة، وتهوي إليه القلوب، وتنجذب نحوه الأرواح محبةً واحتراماً واسترشاداً، فقد خلّص نفسه من العلائق الدنيوية، وانفلت من جاذبية الدوران حول فلك الذات والكبر والعُجب والغرور.

وهو يعيش جسداً وروحاً في عالمين، في دنيا الناس، وفي معية الله تعالى، فيحيا بين الناس بـ«التعظيم لأمر الله»، و«الشفقة على خلق الله»، وهو على العكس من ذلك في معاملته للظلمة والكافرين، لا يجنح إليهم، ولا يميل نحوهم مهما كانوا، فرباط محبته مع الله لا يُقبل فيه أهل الجحود والنكران، لكنه في الوقت نفسه يقتضي التألم لحال هؤلاء والدعاء لهم بالهداية؛ ذلك هو الإنسان الكامل العارف بالله تعالى.





الدنيا وما يتصل بها من مال وملك وثروة لا تشغله أو تلفت نظره سوى ما يقيم أوده من نفقة، فقد نذر نفسه وحياته لمحبة ربه ومعيته.

وفي القصة التالية يوضح مولانا الرومي رَحِمَهُ اللهُ اختلاف الأرواح والنفوس والاستعدادات من إنسان إلى آخر، وأن كل فرد يرى الزينة التي وضعها الله تعالى في الكون من منظوره ومن مرآته الخاصة، وأن من الناس مَنْ يكون مع الله ﷻ حتى لو كان وسط الناس:

«في يوم من الأيام ذهب صوفيٌّ إلى إحدى الحدائق الغنَّاء طالبًا البهجة والتفكر العميق، فانتشى لمّا رأى تنوع الألوان هناك، ثم أغمض عينيه وبدأ بالمراقبة والتفكر. فمرَّ به غافل، فظن أن الصوفي نائم، وتعجب من حاله وضاق صدره، ثم قال له: «كيف لك أن تنام؟ افتح عينيك وتأمل في عناقيد العنب هذه، والأشجار المزهرة، وهذه الأرض بأعشابها المخضرة، وانظر إلى آثار رحمة الله». فأجابه الصوفي:

«أيها الغافل، فلتعلّم جيدًا أن أعظم آثار الرحمة الإلهية هو القلب، وكل شيء خارجه هو بمثابة ظلٍّ لهذا الأثر العظيم، كما يجري جدول الماء بين الأشجار، فترى انعكاس صورة الأشجار في المياه البراقة على طرفي الجدول...

إن ما تراه داخل هذه المياه ما هو إلا جنةٌ من الخيال، أما الجنة الحقيقية ففي القلب؛ لأن القلب هو محلُّ نظر الله، وانعكاسُ هذه المشاهد البديعة التي تراها هو انعكاسُ من العالم الدنيوي المكوّن من الماء والتراب.

ولو لم تكن الإبداعات في هذا العالم مجرد انعكاس من عالم الفؤاد، لما سمى الله ﷻ عالم الخيال هذا بعالم الانخداع والاغترار، يقول الله تعالى:

﴿...وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^{٦٥٧}





إن الغافل الذي يظن أن الدنيا هي الجنة ويقول: «الجنة هنا!» ما هو إلا إنسان انخدع بظاهر الغدير. ومن يبقَ بعيداً عن الجنان والبساتين الأصلية، أي عن أولياء الله تعالى، ينخدع أشد الانخداع بميله إلى هذا الخيال. فنوم الغفلة هذا ينتهي يوماً ما، فُتفتح حينئذ العيون، وتُرى الحقيقة، لكن ما فائدة رؤية المشهد الحقيقي مع خروج آخر نفس؟ وما أعظم سعادة ذلك العبد الذي مات قبل أوان موته، واستطاعت روحه أن تشم رائحة هذه الجنة...

هذا العبد الذي عرف حقيقة الخلق ومصدره معرفة يقينية، ورأى بعيني قلبه تجليات ربه في مخلوقاته، هو عبد يرى بنور الله، فقد منحه الله من لدنه نوراً بعد أن طهر نفسه من اللذات النفسانية، وأشرع فؤاده لفيوضات الله تعالى الذي قال:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ...﴾^{٦٥٨}

فالنور الذي يقذفه الله في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب. وأولياء الله السائرون في درب معرفته، ويقتاتون على نوره ومحبه؛ أولئك يعيشون في بحر فيوضاته كالأصداف التي تتلقى حبات الرمال لتصنع منها اللؤلؤ أعظم جواهر البحر؛ بل هم يحولون قلوب مرديهم ومحبيهم إلى أصداف ذات لآلئ وجواهر، وبحسب كل مريد أن يفتح قلبه كالأصداف لهذه الفيوضات، كي يصنع قلبه اللآلئ والمعجزات.

وقد ورد في شرح المشنوي:

«إن الله -صاحب الكلام- قد همس بسرّ في أذن السحاب، فانسكبت الأمطار من عيونها كانسكاب المياه من الدلاء، وهمس بسرّ في أذن الورد، فأعطاهها جمالاً بألوانها وعبقها، وهمس بسرّ في أذن الحجر، فجعل منه العقيق، أي إن الله تعالى بتجلي صفة اللطيف جعل الغيوم ماطرة، والورود جميلة،





والحجارة قيّمة. وقد أودع سرّاً في جسد الإنسان، فمنّ حافظ على هذا السر من أهل المعرفة ارتقى إلى الدرجات العليا. وبعد أن أخذ أولياء الله الإلهام من عالم الملكوت، تخلصوا من أجسادهم، ووصلوا إلى سر القرب من الحق ﷻ.

ولا ريب أن هذه الأسرار هي سر المحبة التي هي وسيلة للمعرفة في التجليات المختلفة، وسر المحبة هذا يخفي جمال وكمال كل شيء في إطاره الفيّاض.

إن أولياء الله تعالى الذين وصلوا إلى المراتب العليا تزداد لديهم تجليات المحبة الذاتية، والمحبة الذاتية المجازية هي محبة المرء لمرء أو لشيء فان دون إرادة، والارتباط معه برباط العشق؛ أما المحبة الذاتية الحقيقية فهي انجذاب المرء لربه والفناء فيه. وأولياء الله محبتهم لله تعالى ثابتة ثبات الجبال، لا ترحزحها الأهوال، فلا هي تهتز إن أصابها حزن وهم، ولا هي تتعش إذا لقيت إكراماً؛ بل الحب على الحالين موصول.

وفي القصة الرمزية التالية مثال لتلك المحبة الذاتية:

يروى مولانا شمس الدين محمد روجي رحمته الله «توفي في ٩٠٤ هـ / ١٤٩٩ م»:

«كان أحد الشباب يداوم على حضور حلقات مولانا سعد الدين الكاشغري، وكان في المقدمة دائماً في الخلوة والعشق والرياضة، وفي يوم من الأيام وقع في حب امرأة، فغلبت المحبة الزائدة لهذه المرأة قلبه وجعلته أسيراً. وحضر هذا الشاب هدية من الذهب والألماس بعد أن تجاوز المحن والمصاعب للحصول عليها، ووضعها بجانب الطريق الذي تمر هذه المرأة منه واختبأ في إحدى الزوايا كي لا يأخذها إلا معشوقته، ولم يضع في الهدية أية علامة تدل معشوقته عليه، وحين علمت ما صنع قلت له: ما أغرب ما صنعت! لقد تركت ما حصلت عليه بصعوبة ومشقة في جانب الطريق! ولو وجدت هذه المرأة هديتك ورأتها، لما علمت بأمرك، ولا بمنّ وضعها هنا ولا السبب وراء ذلك، ليتك فعلت شيئاً تعلم منه أن الهدية منك لكي لا يضيع جهدك سدى. وما إن قلت هذا القول حتى





خرجت كلمة «آه» من أعماق قلبه، وانهمرت الدموع من عينيه، ثم قال: «كيف لك أن تقول هذا؟ أنظني لا أعرف غرابة ما صنعت، لكنني لا أنتظر أي مقابل لهذا العمل، فأنا لا أريد لذلك القلب الرقيق أن يشعر بأي منّة تجاهي»^{٦٥٩}

فإذا كانت المحبة المجازية الفانية تُظهر مثل هذا العمق والرفقة واللطافة وجمال السلوك، فمن يعلم إذاً التجليات العلوية لمعرفة الله تعالى التي يحظى بها مَنْ ينال «المحبة الذاتية».

ويوضح مولانا جلال الدين الرومي مراحل القلب بقوله إنه حين كان «مدرّساً عامّاً» في المدرسة السلجوقية، أي حين كان في قمة العلم الظاهري، «لم يكن ناضجاً»، وحين بدأ بنيل تجليات معرفة الله تعالى وبدأت أسرار الكون واضحة جليّة أمامه، صار «ناضجاً»، ثم حين صار في حالة فناء في المحبة الذاتية «احترق».

ولا يمكن الوصول إلى معرفة الله تعالى إلا بإيمان مطمئن بالذات الإلهية، والاطّلاع على التجليات الإلهية بالقدر الذي يسمح له الإدراك البشري.

اللهم امنحنا القدرة على أداء الأمانات التي وهبتها لنا حقّ الأداء. ووفقنا في عمل صالح يجعلنا ننال أعظم درجات رحمتك في الآخرة يا رب العالمين.

يا رب، تجلّ على قلوبنا بمحبتك.

يا رب، وفقنا في معرفة سر «أحسن تقويم» التي شرفتنا بها على سائر مخلوقاتك بمحبتك ورحمتك بعبادك، وأحي قلوبنا بقطرات رحمتك يا أرحم الراحمين. آمين!





نيل الهبات الإلهية منوط بنضج القلب.



ب. الهبات الإلهية

لقد خُلِقَ كل مَنْ في هذا الوجود بتجلّي صفة «اللطيف» أي بلطف ربنا العلي العظيم، ولم يُخلَق أي مخلوق بكسبه، والوجود الفاني والنسبي لهذه الكائنات، وجميع الأوصاف والإمكانات المرتبطة بالحكمة من خلقها هي كلها -دون استثناء- هباتٌ إلهية، وهذا يعني أن وجود كل موجود في هذا الكون ما هو إلا كرم وإحسان ولطف من الله ﷻ.

إن مصطلح «الهبة الإلهية»^{٦٦٠} يستخدم في الأصل للدلالة على وجود كل شيء مخلوق وما يصاحبه من صفات، لكننا سنستخدم هذا المصطلح هنا للإشارة إلى الهبات التي ينالها العبد خلال سيره في طريق التصوف وفقاً للمراحل التي يقطعها، وكلما تقدّم العباد ذوو الاستعداد في هذا الطريق نالوا مجموعة خاصة من الألفاظ والمزايا حتى قبل انتقالهم إلى الدار الآخرة، ولو قلنا إن الإنسان ينال ما يناله بداية باستخدام الإرادة الجزئية، فإنه ينال بلطف الله تعالى أكثر بكثير مما بجهد، وهذا ما يسمى بـ «الهبة الإلهية»، لأن الفارق الكبير بين الاستحقاق واللفظ أدى إلى الاعتقاد أن الاستحقاق «غير موجود» أصلاً، إذ إن الإمكانية التي هي وسيلة للاستحقاق هي بالأساس هبة إلهية.

٦٦٠ الهبة الإلهية: المنحة الإلهية، وهي أيضاً اللطف الإلهي.





وأهل الجهاد والاستعداد من المتصوفة الذين ينالون بالترقية درجاتٍ روحية ومعنوية ينالهم نصيبهم أثناء السير في طريق الله سبحانه وتعالى من تجليات الكمال، وأسرار الجمال، وحكم الجلال؛ وبفضل ما يكرمهم به الله تعالى من أنوار تنكشف لهم الأسرار، وتنزاح من أمامهم الأستار، وتتجلى لأنظارهم الغيوب.

وتوجه السوانح والإلهامات في القلوب السليمة العباد إلى الله ﷻ وإلى جوهر الحقيقة، ويحظى العبد بالرؤى الصادقة التي هي جزء من حقائق اللوح المحفوظ المستقبلية المنعكسة على القلوب، ويغدو صاحب تفكيرٍ ناضج وفراصة يدرك بها الإرادة الإلهية في كل أمر.

هذه الأحوال - وغيرها كثير - يصل إليها الإنسان بجهوده الخالصة لوجه الله، وأولاً وأخيراً بلطف الله تعالى وكرمه وإحسانه؛ هذه الكرامات تُسمى علمياً بـ «اللدنية».

هذا العلم اللدني الذي يفوق قدرات العقل الإنساني ومداركه واستطاعته ينال أولياء الله جزءاً منه بكرم الله تعالى ولطفه، مما يؤهلهم - حسب درجتهم - لفهم الأمور فهماً شاملاً، وإدراكها إدراكاً محيطاً، واستيعابها بشكل مُدرك للحكمة من ورائها.

وفيما يلي نقدم شرحاً يقرب للأفهام معنى العلم اللدني بقدر ما تستوعبه الأفهام البشرية، وبقدر ما تسمح به النصوص الشرعية.





١. العلم اللدني

«... وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه....»^{٦٦١}



والتسمية الاصطلاحية لـ «العلم اللدني» مشتقة من الآية الكريمة: ﴿...مَنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^{٦٦٢}، وهو علم وهبي يناله العبد من الله تعالى لطفًا منه وكرمًا. والحقائق التي تلقّاها رسول الله ﷺ من المولى ﷺ تُقسّم إلى ثلاثة أصناف، والحقائق في الصنف الأول لا تُدرك إلا بنور النبوة، لهذا بقيت سرًّا بين الله تعالى ونبيه الكريم، ولم يفصح النبي ﷺ عن هذه الحقائق لأيٍّ من أصحابه. ومن خلال مضمون بعض الأحاديث الشريفة نفهم أنه ثمة حقائق بين الله تعالى ورسوله لا يجوز ولا يمكن إفشاؤها، وحتى لو صرّح بها رسول الله ﷺ فيستحيل فهمها، ومن هذه الأحاديث قول الرسول الكريم ﷺ لأصحابه: «... والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»^{٦٦٣}

أما الصنف الثاني من الحقائق التي تلقّاها رسول الله ﷺ من الله ﷻ، فيمكن أن يدركها «الخواص» أو «خواص الخواص»^{٦٦٤} ممن ارتقوا في الدرجات العقلية

٦٦١ البخاري، الرقاق، ٢٨ / ٦٥٠٢.

٦٦٢ الكهف: ٦٥.

٦٦٣ البخاري، الكسوف، ٢ / ١٠٤٤؛ مسلم، الصلاة، ١١٢ / ٤٢٦.

٦٦٤ الخواص: عباد الله المتّقون المختارون. خواص الخواص: المختارون من المختارين.





والروحية، ولديهم الاستعداد والأهلية لهذا الإدراك، وهذه الحقائق المعلومة هي التي نقلها النبي ﷺ لسيدنا أبي بكر وعلي وبعض من كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وصار انتقال هذه الحقائق من صدر إلى آخر عُرفاً متبّعاً؛ لأن انتقالها إلى السطور، وإطلاع مَنْ هم ليسوا أهلاً على هذه الحقائق قد يوقعهم في الأخطاء نتيجة سوء فهمهم، فعلى الإنسان مسؤولية يتحملها في هذا الموضوع بقدر استعداده وقدرته القلبية، وهو مجبور على كشف هذا الاستعداد فيه من أجل سلامته ونجاته.

والصنف الثالث من هذه الحقائق يتضمن الحقائق الشرعية، والناس كلهم مكلفون بالإيمان والعمل بالحقائق في هذا الصنف، لهذا السبب لم يستثن المولى ﷺ أيّاً من عبادته في أحكامه الشرعية، بل شمل حتى أقل الناس استعداداً وطاقة، وهي حقائق لازمة لكل إنسان، وقد أعلنت في هذا العالم كله لأنها تكاليف مفروضة على الجميع.

وقد كان النبي ﷺ يوضح أحياناً لأصحابه بعضاً من الحوادث التي ستمرّ على الأمة حتى قيام الساعة، لكن الكثير من الصحابة لم يفهموها بمعناها الحقيقي، وقسم منها نسي مع مرور الوقت.^{٦٦٥}

ويجب علينا أن نعلم - كما ذكرنا آنفاً - أن الرسول ﷺ قد أخبر أصحابه من ذوي الأهلية بحقائق يصعب فهمها، وانتقلت الكثير من هذه الحقائق من صدر إلى آخر؛ لأن هذه الحقائق ليست ضرورية للعامة، وتتجاوز إدراك الكثير من الناس وإحاطتهم بها. إن تسلسل هذه المعرفة بين ذوي الاستعداد، وعدم اطلاع كل فرد عليها، وانتقالها في كثير من الأحيان من صدر إلى آخر، أي من فرد مؤهل إلى فرد مؤهل آخر، هو عُرف متبّع على مدى التاريخ.

٦٦٥ انظر: البخاري، القدر، ٤، بدء الخلق، ١؛ مسلم، الفتن، ٢٣؛ أبو داود، الفتن، ١/٤٢٤٠؛ الترمذي، الفتن، ٢٦/٢١٩١؛ ابن ماجه، الفتن، ١٨؛ أحمد، مسند، ٥، ١٥٣، ١٦٢؛ ابن حبان، صحيح، ١٤، ١٢٩/٦٤٣٢؛ الحاكم، ٤، ٥٥١/٨٥٤٣؛ البيهقي، شعب، ٦، ٣٠٩.





ومن الصحابة الذين اطلعوا على بعض من أسرار هذا العلم الخاص، إضافة إلى أبي بكر وعلي ﷺ: حذيفة بن اليمان، وأبو هريرة، وعمر بن الخطاب، ومعاذ ابن جبل، وابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وحارثة بن مالك ﷺ أجمعين.



ولله ﷻ ألطاف كثيرة لا تراها العيون ولا تستوعبها العقول، يمنحها لقلوب عباده الذين يتقون، ويخضعون لإرادتهم ورغباتهم البشرية لإرادة المولى ﷻ.

ويبين ربنا ﷻ ألطاف العلم والحكمة التي يكرم بها عباده المتقين بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^{٦٦٦}

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^{٦٦٧}
ويقول عيسى ﷺ:

«مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^{٦٦٨}

وورد في الحديث القدسي أن الله تعالى قال:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...»^{٦٦٩}

٦٦٦ الأنفال: ٢٩.

٦٦٧ الحديد: ٢٨.

٦٦٨ أبو نعيم، حلية الأولياء، ١٠، ١٥.

٦٦٩ البخاري، الرقاق، ٣٨/٦٥٠٢، انظر: ابن ماجه، الفتن، ١؛ أحمد، مسند، ٦، ٢٥٦.





ومن معاني هذا الحديث القدسي أن العبد حين يؤدي فرائض الله تعالى على أتم وجه، وأحسن أسلوب، ويؤديها بإخلاص وقربى، ثم لا يزال نهمه للعبادة وشوقه لربه يدفعه حتى يُقبل على النوافل، فيبادل ربه إقبالاً بإقبال؛ بل يسعى نحوه بغير إمهال، ولا يزال العبد في حب لربه حتى يمتلئ قلبه بالعشق وروحُه بالوجد؛ عندها ينال العبد من ألطف الله ومكرماته الإلهية بعد أن يكون قد اتخذ لقلبه حصناً من الرغبات، ولنفسه نجوة عن الشهوات، ولبدنه ترساً ضد الحرام والشبهات، ولحياته منهاجاً على خطى المصطفى ﷺ.

ولكي ينال هذه الألفاف الإلهية، يجب عليه أن يمسك اللذات البدنية عند حذّها المناسب، ويسعى للارتقاء عن العالم المادي إلى العالم الروحي؛ لأن هذه الألفاف ألفت عظمة يفتح من خلالها الله ﷻ إدراك عبده -المحجوب بسبب ضعفه البشري- ويوجهه نحو الصواب والحقائق والحكم. وحينها لا يخطو العبد خطوة في كل أحواله وحركاته إلا وفقاً للإرادة الإلهية، ويصيب في تفكيره ورؤيته للأمور، فلا تخدعه الأسباب والذرائع، ولا المظاهر الخارجية؛ لأن إرادته قد اتصلت بإرادة الله ﷻ، وحينئذ يستطيع العبد أن يكشف الوجه الداخلي للحوادث، ويبصر بما لا يبصر به غيره.

وفوق هذا وذاك تتولد في عقله وذنه أفكارٌ ومعانٍ رائعةٌ لا حصر لها؛ عظمة مثل أحوال القلب، دقيقة مثل خلاصات اللب، لطيفة مثل ألفت الرب، لا تعبر عنها الكلمات؛ بل تومئ إليها الرموز والإشارات، وهي ما يسميه أهل التصوف «لطيفة»، وجمعها «لطاتف»، وهي الإشارات والأدلة التي يتكرم بهارب الكرم على عباده الصالحين، وأوليائه السائرين في طريق الروحانية.

ومن هذه الإشارات واللطاتف ما نسميه «هاتف»، وهو الصوت الذي يأتي من الغيب تنبيهاً وإرشاداً لعباد الله تعالى حين يقعون في مواقف صعبة تحتاج الدعم الإلهي، وهو الصوت الذي يُسمع في قلب السالك يدعوهُ إلى الله ﷻ.





وتشير الحادثة الآتية إلى أنَّ سماع الصوت من الغيب حقيقة لا يُنكرها أحد:

«لما أراد الصحابة غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون مَنْ هو: أن اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه، وعليه قميصه يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص، دون أيديهم»^{٦٧٠}



لقد علّم الله ﷻ الناس «الكتاب» و«الحكمة» والعلوم الأخرى التي لم يعلموها بواسطة الأنبياء، وكان هذا التعليم ظاهراً أحياناً، وأحياناً أخرى لدنياً على شكل إلهامات تنزل على القلب مباشرة، لكن هذه الأحوال، وتلك التي أشرنا إليها آنفاً يصعب على الإدراك البشري فهمها في كثير من الأوقات، ولهذا السبب تبقى مجهولة عن الكثير من الناس، إلا أنه من الثابت في القرآن والسنة أن العلم اللدني حقٌ وحقيقة لا ريب فيها.

وخير دليل على العلم اللدني تلك الحادثة التي جرت بين موسى والخضر عليهما السلام، والتي وردت في القرآن الكريم^{٦٧١} وبعض من الأحاديث الشريفة: كان فرعون وجنوده يلاحقون سيدنا موسى والمؤمنين به إلى أن وصلوا البحر الأحمر، وهناك غرق فرعون وجنوده أمام أعين بني إسرائيل، وبعد هذا اللطف الإلهي جمع موسى ﷺ قومه، وخطب فيهم بلغة فصيحة بليغة حماسية، فرقت قلوب مَنْ سمعها، وذرفت عيونهم، وأعجب قوم سيدنا موسى بسعة علمه وعمق معرفته، فسئل: أيُّ الناس أعلم؟ حينها لم يقل موسى ﷺ «الله أعلم»، بل قال: «أنا»، فكانت هذه غفلة منه وزلة، فعاتبه الله تعالى إذ لم يرُد العلم إليه، فقال

٦٧٠ انظر: أبو داود، الجناز، ٢٧-٢٨ / ٣١٤١؛ أحمد، مسند، ٤، ٢٦٧؛ ابن ماجه، الجناز، ١٠.

٦٧١ انظر: سورة الكهف، الآيات، ٦٠-٨٢.





له: «بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك»، أي قد أعطاه الله علماً خاصاً هو «العلم اللدني».

فقال سيدنا موسى عليه السلام متشوقاً لنيل هذا العلم:

﴿... لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^{٦٧٢}

ثم انطلق هو وابن أخته يوشع بن نون، فشاهد خلال رحلته هذه بعض التجليات، وفي النهاية وجدا من يبحثان عنه، وقد وضح القرآن الكريم هذا اللقاء بقول الله تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^{٦٧٣}

وقد وجد سيدنا موسى عليه السلام عن طريق الوحي هذا الرجل عند صخرة مسجى بثوب أخضر، فاقترب منه سيدنا موسى وسلم عليه قائلاً: «أنا موسى»، فأجابه الخضر عليه السلام^{٦٧٤}: «موسى بني إسرائيل؟»، قال: «نعم، أتيتك لتعلمني مما علّمت رشداً»، قال الخضر: «يا موسى، إني على علم من علم الله، علّمه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله، علّمه الله لا أعلمه».

فقال سيدنا موسى عليه السلام للخضر:

﴿هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾^{٦٧٥}

٦٧٢ الكهف: ٦٠.

٦٧٣ الكهف: ٦٥.

٦٧٤ كلمة خضر في اللغة العربية تعني «أخضر» أو «ما له علاقة بالأخضرار». وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء» (البخاري، الأنبياء، ٢٧ / ٣٤٠٢؛ الترمذي، التفسير، ١٨؛ الديلمي، مسند، ١، ٣٤٥)

ويقول التابعي مجاهد: «حين يصلي الخضر في مكان، يخضر ما حوله». ونفهم من هذا كله أن اسمه الحقيقي ليس خضراً بل هو اسم لُقّب به.

٦٧٥ الكهف: ٦٦.





فبين سيدنا موسى ﷺ رغبته في تحصيل العلم من الخضر ﷺ على هذا النحو، ومن الواضح في الآية الكريمة أن تحصيل العلم يتطلب أن يكون الطالب «تابعاً» لأستاذه؛ لأن هذا العلم سيتقل من صدرٍ إلى آخر، فمن اللازم إذاً وجود معية جسدية ومعنوية.

كان موسى ﷺ يريد أن يتعلم من الخضر ﷺ الحكيم من وراء بعض الحقائق العجيبة والغريبة التي شاهدها، والتي لا يمكن أن تُفهم من الظاهر، فقال له الخضر ﷺ:

﴿... إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾^{٦٧٦}

فكان هذا القول من الخضر ﷺ أول كشف عن حالة سيدنا موسى النفسية والروحية، وكان بذلك يُعلمه حقيقة ذاته التي ستصبح واقعاً فيما بعد. لأن هذا العلم كان بحاجة إلى صبر عظيم، أمّا موسى ﷺ فقد كانت حياته مليئة بالحركة والنشاط، فكان الدرس الذي سيتعلمه سيدنا موسى هو معرفته لموقعه وعجزه أمام علم الحقيقة الإلهية. فقال موسى ﷺ بإصرار وإلحاح:

﴿... سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^{٦٧٧}

فأجابه الخضر ﷺ:

﴿... فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^{٦٧٨}

فانطلقا يسيران في ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فكلّموهم أن يحملوهم، فعفروا الخضر فحملوه بغير أجر، ثم أخذ الخضر الفأس فنزع لوحاً، فقال له موسى ﷺ مضطرباً:

٦٧٦ الكهف: ٦٧-٦٨.

٦٧٧ الكهف: ٦٩.

٦٧٨ الكهف: ٧٠.





«ماذا تصنع؟ قوم حملونا بغير أجره تعمد إلى سفينتهم فتخرقها لتغرق أهلها،
لقد جئت شيئاً إمراً»

فذكره الخضر عليه السلام بتنبيهه الأول:

﴿...أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^{٦٧٩}

فأجاب موسى عليه السلام:

﴿...لَا تَوَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾^{٦٨٠}

ثم جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال
له الخضر عليه السلام:

«يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور
بمنقاره من البحر».

فلما خرجا من البحر، مرّا بسلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه
فقلعه بيده (أي قتله)، فقال له موسى عليه السلام:

﴿...أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾^{٦٨١}

فأجابه الخضر عليه السلام كجوابه الأول:

﴿...أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^{٦٨٢}

قال له موسى عليه السلام:

﴿...إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾^{٦٨٣}

٦٧٩ الكهف: ٧٢.

٦٨٠ الكهف: ٧٣.

٦٨١ الكهف: ٧٤.

٦٨٢ الكهف: ٧٥.

٦٨٣ الكهف: ٧٦.





﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ...﴾^{٦٨٤}

فقال له موسى عليه السلام بعد رؤية عمله هذا:

قومٌ أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، أصلحت لهم حائطهم،

﴿...لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^{٦٨٥}

فقال الخضر عليه السلام:

﴿...قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾^{٦٨٦ ٦٨٧}

وثمة الكثير من الشروحات والإيضاحات حول الحكم والعبر والأسرار الموجودة في هذه القصة، ويمكننا هنا عرض بعض من هذه النكت المليئة بالحكم:

٦٨٤ الكهف: ٧٧.

٦٨٥ الكهف: ٧٧.

٦٨٦ الكهف: ٧٨-٨٢.

٦٨٧ الكهف، ٧٨-٨٢. انظر: البخاري، العلم ١٦، ٤٤، الأنبياء ٢٧، التفسير ١٨ / ٤؛ مسلم، الفضائل،

١٧٠-١٧٤؛ الترمذي، التفسير، ١٨ / ٣١٤٩؛ أحمد، مسند، ٥، ١١٧-١١٨.





العلم اللدني هو رؤية الحوادث والظروف الخارجية رؤيةً تفوق المعايير البشرية، وبمعايير نظام يجهله الكثير من الناس.

فالكلُّ مثلاً يتفق على أن «السؤال» هو أهم مفاتيح التعلم، أما في هذا العلم، فلا مجال للسؤال، والاعتراض، والنقاش، والجدال؛ بل الصمت، والصبر، والتسليم بالأمر.

وفي هذا العلم تتوجه العيون نحو النهاية والنتيجة فقط، وما أجمل قول الشيخ إبراهيم حقّي أرضرومي:

الحق يجعل الشرور خيراً

فلا تظن أن الله يفعل غير هذا

والعارف يشاهد

لترى ماذا يفعل مولانا

ففعله حسن دائماً

لا تقل لم هذا؟

فهكذا هو الصواب

اصبر وانظر إلى الخاتمة

لترى ماذا يفعل مولانا

ففعله حسن دائماً.

وقد ذُكر في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر أن أصحاب السفينة الصالحين لم يأخذوا أجره من موسى والخضر عليهما السلام أثناء رحلتهم، ونرى من خلال هذا أن تقديم معروف صغير لأولياء الله تعالى يقابله أجر وبركة عظيمة، فقد نجت السفينة من الغصب من خلال ضرر صغير فيها، أي إن هذا المال الحلال الذي أحسن به المساكين على موسى والخضر عليهما السلام لم يضع هباءً.





وفي نجاة السفينة من غضب الملك من خلال إحداث عيب فيها معنى إشاري، وهو أن الإنسان سفينة تسير في بحر العمر، وإذا ما رأى نفسه بلا عيب، فذلك سيجرّه إلى دوامة الكبر والعُجب، أي إلى الهلاك، وهذا ما يفسّر ضرورة الاعتراف دائماً بالعجز والقصور والحذر من الضياع المعنوي الروحي.

وقتل الخضر عليه السلام للطفل البريء حادثة مليئة بالحكم، ومن هذه الحكم:

إنه يجب على الإنسان أن يُبقي محبته لأسرته، وأبيه وأمه، وأخوته وأصدقائه -وهي محبة بشرية فطرية- في الحد المناسب، وألا تتجاوز محبتهم محبة الله ﷻ في قلبه، وما لم يلتزم بذلك، فإنه لن يصل إلى غايته الأساسية، وقد يخرج عن الصراط المستقيم، ويزيغ حتى يهلك.

ومن أسماء الله ﷻ «الرقيب»، وهو يعني عدم رضا الله تعالى عن أن يكون في قلب عبده- الذي أحبه- محبة تراحم محبة الله ﷻ ولو قليلاً، إذ سلطان محبة الله لا يقبل الشراكة في ملكه.

وقبل أن يكون سيدنا يوسف نبياً أحس والده يعقوب عليه السلام بذلك، ورأى نور النبوة في جبينه، فكان له في قلبه محبة شديدة، لكن محبة يعقوب عليه السلام الزائدة لابنه وولعه به كانت سبباً في غيرة الله، لهذا السبب أراد الله ﷻ ابتلاءه، وكانت النتيجة -كما هو معلوم- أن فارق ابنه لسنوات طويلة، أي إن المحبة الزائدة تبعها فراق مؤلم.^{٦٨٨}

إن بعضاً من الحقائق الكبرى تصبح معروفة للجميع من خلال تداولها في المجتمع، وتصبح جزءاً من ثقافة ذلك المجتمع، فمن الأمثال السائدة «المحبة الزائدة تجلب الفراق السريع»، وهذه العبارة تشير إلى انعكاسات المحبة المفرطة التي تصل إلى درجة عبادة هذه المحبة.





والحق أن في قتل الخضر عليه السلام للغلام عبرًا وحكمًا كثيرة، فمن الطبيعي أن الوالدين قد غمرتتهما السعادة بولادة ولدهما هذا، ثم لبسا ثياب الحداد وحزنا عليه عندما مات، لكن لو عاش هذا الغلام وكبر لأهلك نفسه ووالديه في الدنيا والآخرة، وبالطبع لو ترك القرار للأب والأم لما أرادا موت ابنهما أبدًا، بيد أن الله الرحيم بعباده غاية الرحمة، والذي تفوق محبته محبة الوالدين لأولادهما، أكرم عبده الصالحين بأن قدر موت هذا الولد، ثم أعطاها ولدًا صالحًا بدلًا عنه، ولأن الغلام الذي مات كان بريئًا في هذه الدنيا، وانتقل إلى الآخرة مع براءته، فإنه بذلك فاز بحياة الآخرة الأبدية بصحبة والديه، أي إن هذا اللطف الرباني الذي جاء على صورة قهر كان تفضيل الضرر الأصغر على الضرر الأكبر والأعظم.

وهذا يعني أن تقويم العباد للحوادث في أغلب الأحيان تقويم خاطيء؛ لأنه لا يعلم الحكمة الإلهية.

يقول المولى رحمته الله في القرآن الكريم:

﴿...وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٦٨٩}

إن قتل إنسان بريء جريمة كبيرة تقتضي القصاص شرعًا، إلا أن المثال الذي ورد في القصة ولم يأت موافقًا للأحكام الشرعية - واعتمد على العلم الباطني ليس غير - لا يمكن أن يحدث في أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنها أمة مكلفة بالظاهر فقط، ولهذا السبب لا يتصرف العارفون بالعلم القلبي تصرفًا يخالف الأسباب الظاهرية، ولا يجاوزون عالم الأسباب، فحدود الأحكام الشرعية حدود لا يتعدّاها أحد مهما كان.





وكان موسى ﷺ نبيًا له شريعة خاصة بأمتة مكلف بتطبيقها، أما الخضر ﷺ فقد كان يتصرف في إطار العلم الذي منحه الله تعالى إياه، أي إنه كان يفعل ما يفعله تطبيقًا لأوامر الله تعالى لا لرغباته وأهوائه، واعتراض موسى على الخضر ﷺ كان بسبب مراعاته لحدود الله تعالى.

والله ﷻ هو الذي أخبر الناس بهذه القصص في القرآن الكريم، أي إن الحوادث في هذه القصة تبدو في الظاهر مخالفة للحقائق الشرعية، إلا أنها في الحقيقة مظاهر مختلفة تكمل بعضها بعضًا.

وحين علم سيدنا موسى ﷺ أسرار هذه التجليات توقف عن الاعتراض، وفهم أن الشريعة مثل البدن، والحقيقة مثل الروح.

وقد كُلف الناس بالظاهر فقط لأن الأحكام الشرعية تشمل الجميع دون استثناء، وأغلب الناس غير مطلعين على الحقائق الباطنية.

ومن ناحية أخرى نرى أن الخضر ﷺ قد قام بإصلاح حائط في القرية كاد أن ينهار دون أن يأخذ أي أجر مادي، على الرغم من طرد أهل القرية ومعاملتهم السيئة لهما، وذلك ليظهر أن حماية الأيتام واجب مهم وفضيلة سامية، ويوضح أيضًا حكمة أن المال الحلال لا يضيع أبدًا، وأن ما يجنيه العباد الصالحون من مال حلال يحميه الله، ولا يضيع هباءً منثورًا.

وعن عثمان رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: الكنز لوح من ذهب عليه سبعة أسطر مكتوبة:

- ١- عجبت لمن عرف أن الدنيا سريعة الزوال ثم يرغب فيها.
- ٢- وعجبت لمن عرف أن الأمور بالأقدار ثم يغتم بالمآلات.
- ٣- وعجبت لمن عرف الحساب ثم يجمع المال.
- ٤- وعجبت لمن عرف النار ثم يذنب.





٥- وعجبت لَمَنْ عرف الجنة يقيناً ثم يستريح.

٦- وعجبت لَمَنْ عرف الله تعالى ثم يذكر غيره.

٧- وعجبت لَمَنْ عرف الشيطان فأطاعه.^{٦٩٠}

ومن المعاني الإشارية في هذه القصة أن مجمع البحرين الذي التقى فيه سيدنا موسى والخضر عليهما السلام يدل على أن سيدنا موسى يمثل بحرًا في العلم الظاهري، والخضر عليه السلام يمثل بحرًا في العلم الباطني.

إن اتباع سيدنا موسى للخضر عليهما السلام بغية تحصيل العلم اللدني يلفت الانتباه من حيث إنه يُشبه العلاقة بين المرشد والمريد في التصوف، ويمكننا القول هنا إنه يجب على العبد -ولو كان في علمه متعمقًا مثل موسى عليه السلام- أن يجتو أمام أولياء الله تعالى المطلعين على المعاني، وأن يطلب إرشادهم بتواضع كي ينال علمًا جديدًا لا يعلمه.

ويروى أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى كان يجتو كما يجتو الطالب بأدب أمام الشيخ شيبان الراعي -وهو من أهل القلوب- ليستفيد من فيوضاته المعنوية، وكان يستشير في بعض الأمور، وقد سأله طلبته يومًا:

«يا إمامنا، الفرق شاسع بينك وبين شيبان، فما الحكمة من احترامكم وتأديبكم بين يديه إلى هذا الحد؟»

فأجابهم الشافعي: «يا أبنائي، إنه يعرف ما لا نعرف!»

وقد كان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يلجآن في بعض المسائل إلى معروف الكرخي، ويسألانه عن رأيه فيها.

إن الشيوخ الربانيين الروحانيين لا يكونون مقصدًا لَمَنْ يطلب العلوم الظاهرية، بل لَمَنْ يريد تحصيل العلوم القلبية؛ لأن مهمتهم أن يدلوا على الطريق





التي توصل إلى الله ﷻ، وكان الكثير من كبار علماء التفسير والحديث والفقهاء ينتسبون إلى التصوف، ويستدلون بأولياء الله تعالى في المسائل الدقيقة التي لم يعرفوها، مثل السيد الشريف الجرجاني، ومُلا جامي، وابن عابدين، والألوسي، وآخرين كثر.

وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة -الذي كان أفقه أهل عصره- يأخذ من فيوضات صحبة الإمام جعفر الصادق.^{٦٩١}

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى المدينة المنورة، وبقي يصحب الإمام جعفر الصادق سنتين، فقام بتحصيل الكثير من العلوم النافعة، وحين شرف جعفر الصادق ﷺ العراق، صحبه الإمام أبو حنيفة هناك أيضاً، وكان مما روي عن الإمام أبي حنيفة قوله: «لولا السَّنتان لهلك النعمان»، يريد بهما السنتين اللتين صحب فيها الإمام جعفر الصادق لأخذ العلم عنه.^{٦٩٢}

وقد علم جعفر الصادق ﷺ الإمام أبا حنيفة في لقاءتهما الحِكم الدقيقة في الأحكام الدينية، والأسس المهمة المتعلقة بالمواضيع الحساسة التي قد يخطئ العقل فيها^{٦٩٣}.

ولهذا السبب كان أبو حنيفة ﷺ يروي كثيراً عن الإمام جعفر الصادق، وحين نقرأ كتاب الآثار لأبي يوسف، والآثار للإمام محمد بن الحسن، فإننا نجد فيهما رواية أبي حنيفة عن جعفر بن محمد في مسائل كثيرة.^{٦٩٤}

٦٩١ الذهبي، تاريخ الإسلام، بيروت ١٤١٣، دار الكتاب العربي، ٩، ٨٩-٩٠؛ المزي، تهذيب الكمال، بيروت ١٤٠٠، الرسالة، ٥، ٧٩-٨٠؛ محمد أبو زهرة، أبو حنيفة، قونيا ١٩٥٩، ص ٩٠؛ مكّي، مناقب أبي حنيفة.

٦٩٢ الألوسي، صب العذاب على من سبّ الأصحاب، ص ١٥٧؛ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص ٣٧-٣٩، ٢٥٤.

٦٩٣ انظر: أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٩٦؛ الخاني، الحقائق، ص ١٣٠.

٦٩٤ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص ٣٨، ٢٥٣-٢٥٤.





ومن الحوادث المهمة في حياة الإمام أبي حنيفة الحادثة الآتية التي تدل على احترامه الكبير لأهل الروحانية:

تشير الروايات إلى أن إبراهيم بن الأدهم -وهو أحد أولياء الله تعالى- مرَّ يوماً بمجلس الإمام الأعظم، فاستصغره طلاب الإمام، ونظروا إليه شزراً، وحين رأى الإمام الأعظم موقفهم هذا قال لإبراهيم بن الأدهم:

«أهلاً بك يا سيدي، شَرَّفَتْ مجلسنا هذا!.. فسَلِّم عليهم إبراهيم بن الأدهم باستحياء، وأكمل سيره في طريقه، وحين ابتعد سأل الطلاب إمامهم أبا حنيفة: «كيف لهذا أن ينال كل هذا التعظيم والترحيب منكم؟»

فأجابهم الإمام الأعظم جواباً فيه من التواضع بقدر ما فيه من كشف الحقائق: «إنه مشغول مع الله دائماً، أما نحن فمشغولون بالقليل والقال»^{٦٩٥}



ولتحصيل العلم اللدني آدابٌ وأركانٌ يجب مراعاتها، كما هو الحال في كل العلوم والمقامات، وأهم هذه الآداب: التحلي بالتواضع، والشعور بالعجز، وانعدام الذات.

وها هو «كليم الله» سيدنا موسى عليه السلام -وهو من «أولي العزم»- لم يقل يوماً: «يجب علي أن انشغل بقومي، أو التوراة تكفيني، أو أن الوحي يخاطبني، ولو طلبتُ العلم من الله فسيعلِّمني مباشرة»، بل كان عليه السلام يُظهر أشد التواضع، ويتَّبِع أوامر الله جلَّ جلاله، وبهذا كان مثلاً للبشر من بعده في كمال السلوك في هذا الموضوع. وخير دليل على ذلك قوله:

﴿... لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^{٦٩٦}

٦٩٥ الهجویری، كشف المحجوب، ص ١٢٦.

٦٩٦ الكهف: ٦٠.





إن هذا التواضع الذي أظهره النبي موسى ﷺ أمام الخضر هو خير قدوة لكل طالب علم ومعرفة.

ولو شاء الله ﷻ لالتقى موسى بالخضر عليهما السلام مباشرة، لكنه أراد أن يسيرا في طريق شاق إلى أن التقيا في النهاية، وهذا يعني أنه لا بد في هذا الطريق من العزم والهمة وبذل الجهد إضافة إلى «اللطيف الإلهي».

وتشير هذه الحادثة التي جرت بين سيدنا موسى والخضر في الوقت ذاته إلى ضرورة أخذ العلم الباطني من عالم يراعي أسباب هذا العلم وأصوله، أي إنه لا يمكن الوصول إلى هذا العلم دون أسباب ودليل ومرشد، والمستثنى الوحيد من هؤلاء هم مَنْ كانوا أمثال سيدنا أويس القرني أي «أويسى المشرب»، ونذكر هنا أن الوصول إلى المقصد في هذا الطريق يحتاج إلى عزيمة كبيرة وهمة عالية.

ومن ناحية أخرى، نجد أن طلب سيدنا موسى من الخضر ﷺ العلم قد يثير في العقل السؤال التالي: كيف لولي أن يعطي درساً لنبي من أولي العزم؟.

لذلك لا بد هنا من الإشارة إلى أن طلب سيدنا موسى ﷺ العلم من الخضر لا يدل أبداً على أن موسى ﷺ لم يكن ذا علم ومعرفة، أو أن الله سبحانه لم يفض عليه من الكشف والإلهام، بل تدل على تلك الحالة التي يأخذ فيها المرء ممن هو أكمل منه في مجال معين.

فالمعماري «سنان» وهو واحد من أعظم المعماريين الذين عرفتهم الدولة العثمانية، كان يستعين ببعض كبار الفنانين والفنيين المختصين في الأمور الفنية كالرخام وغيره، وهؤلاء كانوا أقل منه درجة وخبرة ودراية، وكانوا يعملون تحت إشرافه وتعليماته، أو أنه كان مشرفاً على الأعمال الإنشائية، وآخر مشرفاً على الأعمال الفنية، وثالث على الأعمال الزخرفية، وهكذا...

ولهذا لا يمكن القول إن الخضر ﷺ أرفع درجة من سيدنا موسى ﷺ لأنه صار معلماً له لمدة محددة، ولا يمكن بالأصل إجراء مقارنة في رفعة الدرجة





بينهما، لأن كلا منهما في وادٍ مختلف عن الآخر، والحكمة من هذه الحادثة بينهما هي إظهار الحقيقة المطلقة للإنسانية جميعاً، هذه الحقيقة تقول إن المخلوقات كلها بما فيهم الأنبياء يقفون دائماً عاجزين أمام العلم الإلهي.

والأنبياء هم من البشر الذين اختارهم الله ﷻ وخاطبهم بالوحي، ولا يمكن لعباد الله هؤلاء أن يرتكبوا الذنوب، بيد أنهم -بسبب طبيعة العجز البشرية فيهم- قد يقعون نادراً في أخطاء تُسمى «هفوات»، فيذيقهم الله تعالى طعم العجز على هذه الصورة، كي يعلموا الأحكام من وراء ذلك أحياناً، أو ليكونوا مثلاً للناس أحياناً أخرى، ويربيهم بذلك الله ﷻ تربية نجعل ماهيتها وكيفيتها، وقد فهم سيدنا موسى ﷺ بعد هذه التجربة أن علم الله غير محدود، أما علم البشر فهو علم يوصف بالعجز والقصور، ورأى أنه ثمة الكثير من العلوم موجودة في هذا الكون لا يعلمها، فكانت هذه القصة عبرة للبشر جميعاً حتى قيام الساعة.

والحق أن أنبياء الله تعالى على الرغم من نبوتهم وما عندهم من قدرات وصلاحيات كبيرة، يعلمون فقط بالمقدار الذي أنعم الله تعالى عليهم، ويطلعون على الغيب بالنسبة التي أكرمهم بها المولى ﷻ، ولأن العلم اللدني هو علم وهبي، نجد أنه حتى الأنبياء يعلمون ما علمهم الله ﷻ، ويجهلون ما حجب عنهم، فحين طلب سيدنا موسى ﷺ العلم من الخضر، استخدم عبارة «أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا» وليس «مما علمت»، أي إن العلم يجب أن يُنسب إلى الله ﷻ لا إلى العباد، فالمنع المطلق للعلوم كلها هو الله ﷻ، وإذا أحسن على عبد أحسن بالقدر الذي يشاء، وييسر مجموعة من الأسباب الظاهرية ليجعلها وسيلة لتحصيل بعض العلوم، في حين يمنح بعض العلوم لقلب عبد دون سبب.

ونحن نعلم أن العبد الصائم إذا أكل شيئاً سهواً فإنه لا يفطر، والحال كذلك حين نسي سيدنا موسى وعده للخضر عليهما السلام فاعترض عليه، ومع ذلك





استمرت صحبتهم، لكن موسى ﷺ جعل شرطاً لنيل العلم المحتمل بقوله بعد أن استحيا:

«...إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا»^{٦٩٧}

مع أنه لم يكن مجبراً على ذلك، فكانت النتيجة أن بقي علمه محدوداً. يقول النبي ﷺ:

«يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر حتى يقصّ علينا من أخبارهما»^{٦٩٨} وهذا يعني أن الأساس في هذا الطريق هو أن يكون العبد من أهل الصبر والحذر. ومن التعليقات والشروحات التي قدمها أهل التصوف حول هذه القصة: تشير الروايات أن الفتى الذي رافق سيدنا موسى ﷺ في رحلته هو ابن أخته يوشع بن نون، وهو من أوائل أصحابه الذين آمنوا بنبوته، وهو الذي صار خليفته بعد وفاته ﷺ.

وحين هاجر النبي ﷺ اختار أبا بكر ﷺ رفيقاً له في هجرته، وهو أفضل أصحابه وأتمه أجمعين، والذي قال النبي ﷺ في حقه:

«ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»^{٦٩٩}

وتبرز هذه الأمثلة أهمية الصحبة الحقيقية التي تبتغي رضا الله ﷻ أثناء السير في طريق القلب والروحانية.

إن قصة سيدنا موسى ﷺ هذه مليئة بالأسرار والحكم، ومع ذلك لم تقدّم لنا سوى بعض الأمثلة من محتوى العلم اللدني.



٦٩٧ الكهف: ٧٠.

٦٩٨ مسلم، الفضائل، ١٧٠ / ٢٣٨٠؛ البخاري، التفسير، ١٨ / ٢.

٦٩٩ البخاري، أصحاب النبي، ٢ / ٣٦٥٣.





وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحُقَّ لها أن تتط، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً... ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله».

فقال أبو ذر رضي الله عنه بسبب خوفه وخشيته من الله ﷻ:

«لوددت أني كنت شجرة تعضد»^{٧٠٠}

وقد عبّر بعض الصحابة عن مشاعر العجز والحيرة والدهشة أمام عظمة الحقائق الدنية بطرق مختلفة:

فسيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول:

«طوبى لك يا طير، والله لوددت أني كنت مثلك تقع على الشجرة، وتأكل من الثمر، ثم تطير وليس عليك حساب ولا عذاب، والله لوددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق مرّ علي جمل، فأخذني فأدخلني فاه فلاكني»^{٧٠١}

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«وددت أني كنت نسيّاً منسياً»^{٧٠٢}

إن السبب في كون الصحابة على هذه الحالة هو شعورهم بالعجز والخوف أمام عظمة الله تعالى وقدرته.

لقد كان لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل شيء، حتى في الحفاظ على تدفق الأسرار من قلب أسكرته لذة الألفاظ والمنح الدنية، مهما كان صاحبها في ذروة الروحانية، فلا يخرج عن الحدود، ولا يحيد عن الطريق، ولا يتجاوز المعقول في مخاطبة الناس؛ لأن كل ذرة من ذرات هذا الكون تتوازن مع أخواتها

٧٠٠ الترمذي، الزهد، ٦/٢٣١٢؛ ابن ماجه، الزهد، ١٩/٤١٩٠..

٧٠١ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧/٩١، ٣٤٤٣٢.

٧٠٢ البخاري، التفسير، ٢٤/٤٧٥٣؛ أحمد، مسند، ١/٢٧٦، ٢٤٩٦؛ الحاكم، المستدرک، ٤/٩، ٦٧٢٦.





بتوازن إلهي واعتدال رباني، ينبغي أن يحافظ عليها أهل الربانية أمام تجليات العالم الروحاني، وكان رسول الله ﷺ أحياناً يمتلئ بالفيوضات المعنوية، فما كان من الممكن تحمّل هذه الحالة لمدة طويلة، لا سيما حين ينزل الوحي عليه، حينها كانت تستقبله الرعدة، وتتقاطر حبات العرق كاللآلئ من جبينه، وكان حين يصل أحياناً إلى مرحلة الفيض والاستغراق يضرب يده على فخذه عائشة رضي الله عنها ويقول: «كلميني»، ليستغل بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قلبه عنه فيرجع إلى حالته البشرية.^{٧٠٣} وحين كانت الدنيا على وشك أن تغلبه كان يقول:

«يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»^{٧٠٤}

فبذلك كان يحافظ على التوازن بين حالته البشرية والروحانية.

وكان رسول الله ﷺ معتدلاً في عالمه الداخلي إلى أقصى درجة، وكان سلوكه مع الناس في الخارج دائماً سلوكاً معتدلاً أيضاً، ولم يعلم أحداً الحقائق التي وهبها الله ﷻ له والتي تفوق إدراك العقل إلا لمن كان مؤهلاً لها، وبناءً على أهمية هذا الأمر كان سيدنا علي رضي الله عنه يقول:

«حدثوا الناس بما يعرفون...»^{٧٠٥}

أي خاطبوا الناس بالقدر الذي تستوعبه عقولهم، لا بمستوى عقولكم. وفي سياق هذه الحقائق السرية يوضح أبو هريرة رضي الله عنه أنه لم يروِ قسمًا من الأحاديث الشريفة لخوفه من عدم فهم الناس لها، إذ يقول:

«حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبشئته، وأما الآخر فلو بشئته قُطِعَ هذا البلعوم»^{٧٠٦}

٧٠٣ انظر: المناوي، فيض القدير، ٥، ٢٢٨.

٧٠٤ أبو داود، الأدب، ٧٨ / ٤٩٨٥.

٧٠٥ البخاري، العلم، ٤٩ / ١٢٧.

٧٠٦ البخاري، العلم، ٤٢ / ١٢٠.





ويقول المولى رحمه الله في الآية الكريمة:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ٧٠٧



ولم يُقدِّم كبار أهل التصوف العلوم التي نالوها لذوي الإدراك المحدود؛ لأن هذه الأسرار التي يعجز العقل عن إدراكها يجب أن تبقى مخفية عن من ليس أهلاً لها.

ومن عباد الله الذين أكرمهم الله سبحانه وتعالى بأسرار خاصة «أبو منصور الحلاج»، ولكنه حين أفشى جزءاً بسيطاً جداً من تجليات قلبه أهدر دمه، وأقيم عليه حد القتل.

لقد كان الحلاج غارقاً في بحر الوحدة، وفي حالة وجد وسُكر شديدة، داخل دوامة من التجليات والفيوضات، حينها صرخ قائلاً: «أنا الحق»، فكان التصريح بمثل هذا السر باللسان أمراً جعل الناس يقيسونه بحدود عقولهم، والعقل لا يمكن أن يقيس مثل هذا الأمر لدقة معناه.

وحال الحلاج هذا يمكن رؤيته لدى الكثير من أولياء الله تعالى، ولكنه لا يكون تحديداً ولا تشخيصاً، بل هو حال مؤقت قد يظهر حين يفقد الولي حذره، ويفقد حالة التمكين أثناء كونه في حالة الفناء في الله، ولا يستطيع مراعاة العقل، وحين يغادر العقل عالم المقاييس الظاهرية، أي حين تنفذ قدرته، يُرفع التكليف عنه شرعاً؛ لأن أول شروط التكليف الشرعي حسب المعايير الإلهية هو «وجود العقل»، ولا يمكن أن يكون هناك نصيب للعقل ولا تأثير له لدى النطق بمثل هذه الكلمات، فلا يمكن إذاً إدراك مثل هذه الأحوال بالعقل.





وتحدث هذه الأحوال حين يكون الجذب غالباً، ويُطْلَق على من يمرُّ بهذه الحالة اسم «المجذوب»^{٧٠٨}، ومثل هذه الأحوال التي لا يمكن أن تدركها المقاييس الظاهرية يمكن أن يصفح عنها أهلها، لكن لا يمكن لوم عامة المسلمين إذا ما استنكروها وكرهوها، وعلى هذا الأساس قيل في الحلاج الذي ذكرنا كلامه وعاقبته أن: «كلا الطرفين كان محقاً: الحلاج، ومن حَكَمَ عليه بالقتل»، ولهذا السبب كان «التمكين» من أكثر الأمور التي يوصي بها التصوف، وكان المقبول هو السعي لتكون جاذباً لا مجذوباً.

وتشير الروايات أنه حين وقف الجلال أبو الحارث أمام الحلاج لتنفيذ الحكم، وضربه ضربة قوية هَشَمَ بها أنفه ووجهه، أطلق الشبلي في تلك اللحظة صيحة تمزقت منها جبته، ثم خرَّ مغمياً عليه.

كان هذا التجلي لدى الحلاج حالاً من الأحوال، وما إن ينتهي هذا الحال يبقى الحق حقاً، والشيء شيئاً، ويقول الشيخ شبلي في ذلك:

«لقد مررت مع الحلاج بالمراحل نفسها، فنعتوني بالجنون وتركوني، أما الحلاج فقد نسبوا إليه العقل، فلهذا قتلوه».

ويقول شبلي أيضاً:

حين قُتل الحلاج زرت قبره في تلك الليلة، وصليت حتى الصباح، وناجيت ربي وقت السحر قائلاً:

«إلهي، لقد كان هذا العبد عبداً مؤمناً موحداً عارفاً بك، فما حكمتك يا رب من هذه المصائب التي حَلَّتْ به؟».

٧٠٨ المجذوب: هو العبد الذي يضعف عقله أمام الجذب الإلهي، لكنه يبقى مرتبطاً بالمولى ﷻ في عالمه القلبي. وإذا كان المجذوبون غرباء في الحياة البشرية، فهم في مرحلة تجاوزوا فيها الكثير من الناس العاديين من ناحية الإدراك القلبي والباطني، وكان إرادتهم وإدراكهم وفهمهم قد أصيب بصدمة كهربائية لا يطبقها أحد. وهؤلاء هم أمثلة حية للعجز البشري أمام تجليات الذات الإلهية.





فغلبني النعاس في تلك الأثناء، ورأيت قيام الساعة، وسمعت الحق تعالى يقول:
«أنزلنا عليه البلاء لأنه كشف سرنا لمن ليس أهلاً له».

ونفهم من هذا الكلام أنه لا يوجد محذور في نيل سر الحقيقة بالفناء في الله، بل المحذور من إفشاء السر لمن ليس أهلاً له في حالة السكر المعنوية التي تنتج عن نيل الأسرار، لذلك من الخطأ الكبير التكلم بالسوء عن أولياء الله والمتصوفة الحقيقيين، وذلك بتعميم حالات استثنائية مرَّ بها بعض المتصوفة بسبب عدم مراعاتهم لهذا المعيار وفطر نشوتهم، فالكلام بسوء عن العباد الذين يحبهم الله تعالى، وعدم تقدير قيمتهم أشد أنواع الجهل وانعدام البصيرة، إذ لا يمكن أبداً أن يردهم أي مؤمن أبداً.

فالأساس إذاً في هذا الطريق المعنوي هو التمسك بالمعايير الشرعية المقدسة، وعدم رفض الأسرار الأبدية، وهذا يقتضي أيضاً عدم الحديث عن الأسرار الخفية بين العبد وربّه جلّ وعلا.

وهذه كلها تجليات يعيشها العبد في حالات الاستغراق الروحية وفيما وراء قدراته العقلية، وحين يعود إلى حالة العقل السليم بعد تجاوزه للحالات الخاصة تغادر مثل هذه الشطحات مكنمها ليحل الهدوء من جديد.

ويُساق بعض أولياء الله إلى مجموعة من تصرفات غير معتادة نتيجة تأثير التجليات الاستثنائية التي تغلب على أرواحهم، لكن حين يعودون بوعي من العالم الذي ينعدم فيه العقل والإرادة يواصلون السير في طريق الاستقامة.
وحين سُئل الجنيد رحمته الله:

«إن بعض أولياء الله يخرجون عما هو معتاد بدخولهم في حالة الوجد، فماذا تقول فيهم؟. أجاب قائلاً:

دعوهم وشأنهم، دعوهم فليرتاحوا في الطمأنينة التي وجدوها مع الله تعالى، فلا تلوموا أحوالهم إن لم تحرمها الشريعة قطعاً، ولتعلموا أن هذه الطريق قد





أحرق فؤادهم، وأتعبهم السعي والجهد، فتعرضوا للكثير من البلايا، وهم يقومون بتلك الأفعال كي يتجاوزوا الأحوال التي هم عليها، فلا ضير في ذلك».

وتشير الروايات إلى أن أبو منصور الحلاج قد دعا قبل قتله بالدعاء التالي الذي يُظهر إخلاصه والمرتبة المعنوية التي وصل إليها:

«اللهم هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصُّبا لدينك وتقرباً إليك، فاغفر لهم، إنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لَمَا فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لَمَا كشفتُ سرَّك، يا ربي اعف عنهم، فهم مَنْ أوصلني إليك».

ونقل عَمَّن رأى حال الحلاج في العالم المعنوي قولهم إنه حين علَّق الحلاج على الشجرة ليُصلَّب جاءه إبليس فسأله:

«لقد قلتَ «أنا» مرة، وأنا قلتُ «أنا» أيضاً مرة، فكيف تنزلت عليك الرحمات بينما نزلت عليَّ اللعنات!»

فأجابه الحلاج:

«أنت بقولك «أنا» رأيت نفسك أعلى وأشرف من آدم، فأظهرت تكبرك، أما أنا فقد قلت: «أنا الحق»، فأفانيت ذاتي في الحق تعالى، إن التكبر الذي يُظهر الأنا علامةً من علامات جهنم، أما التخلص من الأنا، أي الفناء في الحق فيعني «المحوية»، فلهذا السبب نزلت الرحمات عليَّ، ونزلت اللعنة والذلة عليك».

ويُروى أن إبراهيم بن فاتك زار الحلاج يوماً، فنصحه قائلاً:

«يا بُنَيَّ إنَّ بعض الناس يشهدون لي بالكفر، وبعضهم يشهدون لي بالولاية، والذين يشهدون عليَّ بالكفر أحبُّ إليَّ وإلى الله من الذين يقرّون لي بالولاية». فقلت: «يا شيخ ولم ذلك؟»، فقال: «لأنَّ الذين يشهدون لي بالولاية من حُسن ظنهم بي، والذين يشهدون عليَّ بالكفر تعصُّبا لدينهم، ومَنْ تعصَّب لدينه أحبُّ إلى الله ممَّن أحسن الظن بأحد».





ويقول مولانا جلال الدين الرومي الذي تجاوز بتجلياته تجليات الحلاج بكثير:

«لو علم الحلاج بالتجليات بيني وبين ربي لرجمني هو بنفسه».

إن هذه الأحوال وما شابهها مظاهر لحالة الفناء في الله تعالى، ويوضح مولانا الرومي الفناء في الله تعالى عبر هذه التشبيهات:

«حين ترى نهر الحياة الذي لا حدَّ له، فامزج ماءك الموجود في الكأس، أي عمرك الفاني هذا، في ذلك النهر الأبدى! هل أتاكَ يومٌ رأيت فيه الماء يفر من النهر؟»
«وحين يمتزج ماء الكأس بماء النهر، يتخلص من وجوده هناك، ويكون ماء ذلك النهر».

«حينها تختفي صفة الماء الموجود في ذلك الكأس، ويبقى ذاته، وبعد هذا، لن ينقص ذلك الماء، ولن يتعكَّر، ولن تخرج منه أية رائحة».

إن مولانا وأمثاله ممَّن اتصل قلبهم بالله تعالى يصير سبحانه بصَرهم الذي يبصرون به، ويدهم التي يبطشون بها؛ لأن كل إحساس وفكر متوجه لديهم إلى الحكمة الإلهية.

ويقول أحد المفكرين العاشقين لمولانا الرومي موضِّحاً عجز أكثر البشر عن إدراك أحوال مولانا القلبية:

«لقد استمعنا إلى صيحات الوجد الصادرة عن مولانا جلال الدين، ولكن لا مجال لنا أن نرى عمق بحر الطمأنينة التي سبر غورها، فما نراه هو ما خرج من عمق البحر وطفأ على ظهر الماء، ولم تنتعم بعشق مولانا الرومي، بل بصيحات العشق التي نطق بها، وهذا كل ما استطعنا أن نعبر عنه بلساننا الملتوِّغ، فهو وحده من غاص في بحر الطمأنينة، وما بقي لنا إلا أصداء دوامة وجده وعشقه، وهيهات هيهات أن نكون مثل مولانا»^{٧٠٩}





إنَّ حالة العشق والوجد والاستغراق هي تجلُّ ربانيّ، كالبحر لا يعلم كنوزَه وأسراره إلا أهله ممَّن غاصوا في أعماقه.

ولنا أن نذكر هنا محي الدين بن عربي الذي عكس جزءاً من أسرار هذا العلم على السطور على شكل رموز، وقد كان ابن عربي ذا قدر كبير لدى أولياء الله، لأنهم رأوا في كلامه وشروحاته حقائق الأسرار التي لا مثيل لها، وأطلقوا عليه لقب «الشيخ الأكبر»، أما أولئك البعيدون عن العالم الباطني، فقد اتَّهموه بالكفر لأنهم لم يستطيعوا حلَّ هذه المعضلة.

وإذا لم يكن هناك صاحبٌ يستطيع تحمل الأسرار ويؤتمن عليها، فالصمت به أولى؛ لأنه ينبغي التكلم مع كل امرئ بما يبلغه عقله، أما ذكر الحكمة والمعرفة لمن لا يعرف شيئاً عن الحال يعدُّ ظلمًا للحقيقة.

ويقول محي الدين بن عربي رَحِمَهُ اللهُ في هذا الأمر:

«مَنْ لم يَألف أحوالنا، فلا يقرَأَنَّ كتبنا»

ويقول مولانا جلال الدين الرومي:

«لقد نطقت بالأسرار برموز غير جلية؛ لأن مَنْ يسعى إلى توضيح أكثر يُحرق لسانه، ومَنْ يستمع يحرق إدراكه».

وقد كتب مولانا الرومي رَحِمَهُ اللهُ كتابه «المثنوي» وقدمه للناس الذين يختلفون كثيراً فيما بينهم في استعداداتهم وقابليتهم، ولكي لا يسير ذوو الإدراك السطحي في الطريق الخاطئ قام بشرح الحقائق المجردة والأسرار الإلهية التي يصعب فهمها من خلال قصص بسيطة مشخَّصة، أو أخفاها بستر الرموز فلا يعلمها إلا أهلها، وبذلك ستر دقائق المعاني الموجودة في «المثنوي» عمَّن لا يملك ذلك العمق القلبي.





ويقول مولانا رحمه الله:

«إن أبياتي ليست أبياتاً، بل عالماً مليئاً بالمعاني، وهزلي ليس هزلاً بل تأديب؛ وقصصي ليست كلماتٍ بسيطةً عادية بل قصصاً تعليمية هدفها إدراك الأسرار وتوضيحها».

والمجالس التي تُكشف فيها حقائق الأمور لا تُسطر أسرارها وإنما تتناقلها خواص الصدور، وتجعل في حرز عن العامة، فهي أمور لا يدركها إلا أهلها، ولا ينبغي أن يطلع عليها سواهم.



يوصف التصوف بأنه: «طريق العشق والمحبة»، ولذلك كان لزماً على مَنْ يسير في هذا الطريق أن تكون «المحبة» دينه ودينه ووسيلته وغايته، فالتصوف مكانه الطبيعي، وعالم القلوب مجاله الأساسي، والمحبة هي السبب وراء خلق الكون، لكن المحبة في بعض الأحيان تجعل المشاعر خارجة عن طور العقل، وعن طول الإرادة، فيصعب حينها السيطرة على الجذب والوجد.

وخير مثال على المحبة الكبيرة التي كانت بين رسول الله ﷺ وجعفر الطيار ؑ هو الحادثة الآتية:

حينما عاد جعفر ؑ مع جماعة من الصحابة من الحبشة إلى المدينة، كان النبي عليه الصلاة والسلام آنذاك في خيبر، فلم يسترح جعفر، بل تابع طريقه إلى خيبر بكل شوق وحنين، وحين رأى رسولُ الله ﷺ جعفرَ ؑ أمامه غمره السرور والفرح فقال:

«ما أدري بأيهما أُسرُّ: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»^{٧١٠}





وأثناء عودة رسول الله ﷺ من «عمرة القضاء»^{٧١١}، تداول مع أصحابه قضية رعاية فاطمة بنت حمزة سيد الشهداء، فكانت النتيجة أن يتكفل بها جعفر الطيار ﷺ، ثم قبل النبي ﷺ جعفر بين عينيه وقال له:

«أشبهت خلقي وخلُقي»^{٧١٢}

فسرَّ جعفر ﷺ بهذا المدح النبوي له وابتهج، ثم حجل حول رسول الله ﷺ كطفل بري.^{٧١٣}

فإذا كان الإنسان يتنشي ويضطرب حين يلقي ثناءً من أحد، فمن باب أولى إذا أن يتجرد عن عالمه الخارجي، ويدخل في حالة استغراق إذا ما نال الألفاف والتجليات الإلهية، ولكن المهم هو عدم الخروج عن المعايير التي تتطلبها الطبيعة البشرية، والمحافظة على التوازن والاستقامة أثناء الدخول في فيض الطرب والبهجة. والمحافظة على هذا التوازن تتطلب إرشاد أولئك الذين استطاعوا توحيد العلوم الظاهرية بالحياة الروحانية في الطرق الصوفية.

وما لم يصل أولئك المكلفون بمهمة الإرشاد إلى القدرة والمستوى اللازمين في العلوم الظاهرية، فسيقون معرضين للخطر في طريق العشق والمحبة، ولتفادي ذلك استمر المرشدون في بعض الطرق الصوفية مثل «النقشبندية» وكانوا من العلماء الذين لديهم العلوم الظاهرية، وبفضل هذا حافظوا على أنفسهم من الوقوع في المخاطر التي أشرنا إليها.

وتختلف أصول التربية لدى أولياء الله تعالى، ففي النقشبندية -التي تعد من أعظم الطرق الصوفية- يخضع السالك للتربية دون الوقوع في حالة الجذب.

٧١١ عمرة القضاء: هي العمرة التي نوى رسول الله ﷺ أداءها في سنة صلح الحديبية، لكنه رجع حينها، وقضاها في السنة التي تليها.

٧١٢ البخاري، المغازي، ٤٣/ ٤٢٥١.

٧١٣ انظر: أحمد، مسند، ١، ١٠٨، ابن سعد، الطبقات، ٤، ٣٥؛ الواقدي، المغازي، ٢، ٧٣٩.





ويقول الشيخ عبد الخالق غجدواني:

«لو عاش الحلاج في زماننا وخضع لتربيتنا، لكنّا حميناه بإذن الله ﷻ من الوقوع في حالة السكر».

وتعد زيادة حالات الإثارة بسبب شدة الجذب والطرب أحياناً في بعض الطرق زلات أقدام من منظور الشريعة، وهذا ما يُظهر المخاطر التي قد تنتج إذا زادت حالة الإثارة والبهجة المقبولة في أساسها.



ولقد علمنا من خلال سير وقصص الأنبياء عليهم السلام أنّ لهم صفاتٍ مشتركة تجمعهم كالرسالة والنبوة والعلم، كما إن لكل منهم مزاياه وخصائصه التي يتفرد بها، فمنهم ذوو الطبيعة الجلالية، ومنهم ذوو الطبيعة الجمالية، لكنهم على الإجمال في درجة من معرفة الله تعالى تتسامى كثيراً عن درجة الإنسان العادي، وفي درجة من الزهد في الدنيا والدنو من الله ترتقي كثيراً على غيرهم من العباد، وهم مع ذلك كله يدركون -حق الإدراك- مدى عجزهم تجاه علم الله تعالى ومعرفته التي تتسع أكبر مما يتسع أفق الكون على الذرة.

هؤلاء الأولياء مع اختلاف درجاتهم، تختلف كذلك مهماتهم وتكليفاتهم، فمنهم مَنْ يتوجه نشاطه إلى العوام في السير والسلوك، وتكون مهمته الإرشاد والتربية، ويكون مثل معلم التلاميذ الذي يعرف الكثير من حقائق العلم لكنه يتظاهر أمامهم بأنه يعرف فقط ما يعلمهم إياه، وهي الحالة التي يُطلق عليها «تجاهل العارف».

ومع ذلك فيُسمَح لهم أن تنطلق من ألسنتهم وأفئدتهم ينبعُ الحكمة، وتفيضُ منهم الأسرارُ على مَنْ حولهم من المريدين.

وهناك من الأولياء مَنْ لا يُكلّفون بالإرشاد ولا ينطقون بالحكمة والأسرار، إنما هم في حالة دائمة من الصمت والانبهار أمام الحكمة الإلهية، وفي حالة دهشة وحيرة من عجائب العلم الإلهي.





وبعض الأولياء كانت تختلف الأحوال لديهم دائماً، ويمرون بمراحل مختلفة في حياتهم، ولنذكر هنا مثلاً على هذه الأحوال من حال الشيخ محمد پارسا: كان الشيخ محمد يقف قليلاً في ساحة المسجد بعد صلاة العشاء من أجل صعبة الناس، ثم يتوجه إلى داره، وأحياناً يكون في حال مختلفة، فيقف في ساحة المسجد حتى أذان الفجر؛ حيث يدخل حالة دهشة وحيرة كبيرة، ثم يعود مرة أخرى إلى المسجد مع حلول الفجر.

وكذلك اختلف سلوك الأولياء لدى الموت مثلما اختلف نمط حياتهم وتصرفاتهم، فمولانا جلال الدين الرومي كان قد احترق بنار العشق الإلهي، ولذلك كانت ساعة موته بالنسبة إليه ساعة «وصال»، وليلة وفاته «ليلة العرس».

أما الحسن البصري رحمته الله فكان دائماً في قلق دائم حول حالته التي سيكون عليها أثناء خروج نفسه الأخير، وذلك بسبب غلبة تجلي «خشية الله» عليه.

إن كل ما نعرفه عن العلم الدني مجرد انعكاسات قليلة على هذه الكلمات -بقدر ما تسمح الكلمات- من التجليات المأخوذة أولاً من حياة الأنبياء والقليل من تجليات حياة الأولياء، وبما أن هذا العلم المطلق علم لا يعلمه إلا الله ﷻ، فإن إدراكه بمعناه الحقيقي يفوق حدود إدراكنا بكثير.





٢. الفراسة

الفراسة هي القدرة على مشاهدة ما وراء الحُجُب،
واستشفاف الأسرار المخفية، فَمَنْ يبلغ بنظره جوف
الصَّدف لا بد أن يرى اللؤلؤة المكنونة داخلها.



الفراسة هي النور الذي ألقاه الله ﷻ في قلوب عباده الذين يحبهم، أي وقوع
أحوال مثل الحصافة، والعبقرية، والإحساس، والمعرفة، والفهم في القلب،
على صورة استعداد للإدراك المعنوي، وبفضل الأحاسيس الصادقة والإلهامات
المُتَنَزِّلَة يمكن لِمَنْ لديه الفراسة أن يرى أعماق الحوادث، ويخمن ويشخص
الأفكار في الأذهان والقلوب على حقيقتها.

يقول رسول الله ﷺ:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^{٧١٤}

ولا ريب أن مَنْ يحظى بالفراسة هو ذلك العبد الذي يتجرد عن غرور نفسه،
وينظر بنور الله ﷻ، وثمة الكثير من الأمثلة على ذلك في تاريخ الإسلام:

يروى عن أنس بن مالك ؓ قال: دخلت على عثمان ؓ وكنت رأيت في
الطريق امرأة تأملت محاسنها، فقال عثمان ؓ: «يدخل عليّ أحدكم وآثار الزنا
ظاهرة على عينه»، فقلت: أوحى بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: «لا ولكن تبصرة
وبرهان وفراسة صادقة»^{٧١٥}

٧١٤ الترمذي، تفسير، ١٥ / ٣١٢٧.

٧١٥ القشيري، الرسالة، ص ٢٣٨.





ومن المعلوم أن سيدنا عمر بن الخطاب ؓ كان يُصيب في رأيه في كثير من الأمور، وتأتي الآيات الكريمة موافقة لآرائه، يقول رسول الله ﷺ:

«لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر»^{٧١٦}

ويروي لنا أبو العباس بن المهدي الحادثة التالية:

«بينما كنت مسافراً في الصحراء، رأيت رجلاً حاسر الرأس حافي القدمين يمشي أمامي، لا ماء لديه، فقلت في نفسي: كيف يصلي هذا الرجل صلاته؟ أظن أنه لا يعرف الوضوء ولا الصلاة، فقرأ عليّ الرجل قول الله تعالى:

﴿...وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^{٧١٧}

فأغشي عليّ وصُعقت في مكاني، فلما أفقت استغفرت الله تعالى بسبب نظرتي لهذا الرجل، وأكملت سفري. ثم رأيت الرجل مرة أخرى، فأحسست بالهيبة منه، ووقفت مكاني، فتوجه الرجل إليّ وتلا عليّ قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^{٧١٨}

ثم اختفى عن ناظري، وما رأيته بعدها».

ويقول ذو النون المصري رحمه الله:

«رأيت يوماً شاباً عليه ثياب مهترئة مرقعة، فنفرت نفسي منه، لكن قلبي كان يشهد على أنه ولي، وبينما أنا على هذه الحال، بين ما تراه نفسي وما يراه قلبي، أطلع الشاب على سري وقال لي: يا ذا النون، لا تنظرنَّ إليّ بعينٍ ترى اهتراء ثيابي، واعلم أن اللؤلؤة مكنونة في الصدفة. ثم اختفى من ذلك المكان».

٧١٦ البخاري، أصحاب النبي، ٦/ ٣٦٨٩.

٧١٧ البقرة: ٥٣٢.

٧١٨ الشورى: ٥٢.





وفي يوم من الأيام حضر شاب إلى مجلس الشيخ عبد الخالق غجدواني -وكان من أولياء الله- وكان هذا الشاب يخفي نصرانيته، فسأل الشيخ: «ما سر الحديث الشريف: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

فأجابه الشيخ عبد الخالق غجدواني:

«أخرج ذلك الزنار من خصرِكَ (أي حُلَّ علامة الكفر التي يضعها النصاري) وأسلم».

فنطق الشاب بالشهادتين أمام ما رآه من فراسة الشيخ غجدواني، ودخل الإسلام.^{٧١٩}

ويُروى أيضًا أن الجنيد البغدادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد عرف بفراسته شابًا كان متنكرًا بزي إسلامي، ورأى أنه سيسلم في أقرب وقت.

والخلاصة أن الفراسة هبة إلهية تزداد وتنقص بحسب درجة الإيمان والتقوى في القلب.

يقول شاه بن شجاع الكرمانلي «توفي قرابة ٢٧٠ هـ» وكان من أبناء الملوك، مشتمراً لحياة الزهد، مشهوراً بفراسته الحادة:

«مَنْ صرف بصره عن المحارم وأمسك عن الشهوات، وعَمَّر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السُّنة، وعَوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطئ فراسته»^{٧٢٠}



٧١٩ جامي، نفحات الأنس، ص ٥٢٤.

٧٢٠ أبو نعيم، الحلية، ١٠، ٢٣٧.





٣. التصرف والكرامة

نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث
في تحصيل أسبابها، فهي خير من ألف كرامة.

(مولانا خالد البغدادي)



إن الله ﷻ -صاحب القدرة المطلقة- إذا أراد شيئاً، فإنما يقول له «كن»
فيكون، وقد أودع ربنا ﷻ بمقتضى إرادته في بعض من عباده القدرة على التصرف
ببعض الحوادث، وهذا التصرف في الواقع لا يمكن أن يتحقق دون تدخل الله
خالق كل مخلوق، وقد جعل الله تعالى العبد وسيلة في هذا التصرف، كما هو
الحال مع الملائكة الأربعة العظام:

ولنذكر هنا هؤلاء الملائكة ومهامهم: فجبريل عليه السلام مكلف بإبلاغ الوحي
للأنبياء، وميكائيل عليه السلام بتسيير وإدارة أحداث الطبيعة، وعزرائيل عليه السلام بقبض
الأرواح، وإسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور.

ولا ريب أبداً أن المولى ﷻ قادر على تنفيذ هذه المهمات على أكمل صورة
دون الحاجة إلى هؤلاء الملائكة، لكن قضت الإرادة الإلهية أن تكون لهؤلاء
الملائكة تلك الوظائف والصلاحيات، وتنبع قدرة هؤلاء الملائكة وقوتهم -في
الأصل- من قدرة الله ﷻ، وهذه القوة ما هي إلا قوة منحها الله ﷻ لهم، وقوة
جميع المخلوقات وصلاحياتها على هذا النحو.

وقد منح الله ﷻ أنبياءه أيضاً بعض الصلاحية في التصرف، ومن أشهر هذه
الصلاحيات معرفة سيدنا سليمان عليه السلام بلغة الحيوانات، وتصرفه بالرياح، وحكمه
الجنّ.





إن المعجزة والتصرف والكرامة أمور تخضع تمامًا لإرادة الله وأوامره وقدرته، إذ لا يتحقق شيء خارج إرادته سبحانه، أي إذا لم يُرد الله شيئًا فلا يمكن للملك أو النبي أو الولي القيام به.

وعباد الله تعالى الصالحون وأولياؤه المقربون لا تقع في نفوسهم أدنى رغبة في القيام بأصغر تصرف في غير رضا الله تعالى أو على غير مراده سبحانه؛ بل يفضلون أن تسيل دماؤهم هدرًا، وتتقطع أوصالهم إربًا على أن يحيدوا عن رضاه تعالى قيد أنملة، فغاية الغايات لديهم هي السير على هداه، ونيل رضاه في كل لمحّة ونَفْس.

ويهب الله تعالى لعباده الذين اختارهم المعجزة والكرامة والتصرف بالمقدار الذي يحدده، فقد أعطى ﷺ الهدهد التصرف الذي لم يعطه لسيدنا سليمان حين نقل له خبر بلقيس، وأشار إلى المكان الذي يمكن أن يخرج منه الماء ليلبي حاجة الجيش المحتاج إلى الماء.

ولم يكن سيدنا سليمان ﷺ هو الذي أحضر عرش بلقيس، بل عبد صالح عالمٌ كان في مجلسه^{٧٢١}.

وسيدنا موسى ﷺ الذي كان من أولي العزم صار طالبًا عند العبد الصالح الخضر ﷺ، فتعلم منه العجائب والغرائب التي لم يعرفها، وحتى تلك التي لم يستطع تحملها^{٧٢٢}.

وقد وهب المولى ﷺ ذا القرنين ﷺ الكثير من التصرف، فبعد أن انتهى من بناء السد المشهور بقوة التصرف التي أكرمه بها الله تعالى، بيّن أن كل شيء بيد الله سبحانه:

٧٢١ انظر: النمل، ١٧-٤٠.

٧٢٢ انظر: الكهف، ٦٠-٨٢.





﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا

جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾^{٧٢٣}

وكان لإمام الأنبياء محمد ﷺ الكثير من الصلاحيات الاستثنائية.

وقد منح الله تعالى بعضاً من هذه الألفاظ للعباد المختارين من أمة سيد الأولين والآخرين، فقد روي مثلاً الكثير عن أحوال عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وأمثالهما من الأولياء الكبار، وما كان عندهم من تصرفات وكرامات في حياتهم وحتى بعد انتقالهم إلى رحمة الله تعالى.

ولا يمكن أن يحدث التصرف بإرادة الفرد فقط، بل لا بد من دخول تجلي صفة الله «الخالق» في ذلك الفعل كي يتحقق، كما هو الحال في جميع الوقائع، وهذا يعني أنه لا فرق بين التصرف وغيره من الحوادث سوى أن حصول التصرف هو حصول استثنائي، أي إنه غير ميسر لكل عبد من عباد الرحمن.



أما الكرامة التي هي نوع من أنواع التصرف، فهي تلك الحوادث التي تظهر -بكرم الله تعالى- على أولياء الله الذين وصلوا إلى درجة كاملة من الإيمان، والمعرفة، والتقوى؛ وهي حوادث ميتافيزيقية خارقة للعادة، ولا يمكن لقوانين الطبيعة أن توضحها وتفسرها، وهذا هو القسم الصوري للكرامة.

بيد أن الكرامة الأساسية كما يراها أولياء الله تعالى هي في العيش باستقامة. ويختلف أولياء الله تعالى عن سائر الناس من حيث رؤيتهم، وتفكيرهم، وحتى سلوكهم، وذلك نتيجة الصلاحيات المعنوية التي أنعم الله تعالى عليهم بها.

يقول الله تعالى:





﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^{٧٢٤}

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^{٧٢٥}

ويمكننا أن نفهم من هذا التعريف أن الكرامات التي تظهر على أولياء الله على قسمين:

١. الكرامات المعنوية: وهي الوصول إلى درجة معنوية سامقة بقطع المراحل في العلم، والأخلاق، والعبادات، والمعرفة، والتقوى، ثم العيش في ضوء الآية الكريمة:

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾^{٧٢٦} أي إن الكرامة المعنوية هي الاستقامة.

ولا يمكن نيل هذه الكرامات بالعقل والتفكير، فالله ﷻ يكرم بها عباده المختارين فقط.

٢. الكرامات الكونية الصورية: وهي خوارق العادات الظاهرة في العالم المادي مثل طي المكان، وجلب أشياء من بعيد، وتسخير الحيوانات الوحشية، وما شابهها من خوارق.

ولا يهتم أرباب التصوف الحقيقيون كثيراً بمثل هذه الكرامات؛ لأن إظهار مثل هذه الكرامات ليس ضرورة من ضرورات الولاية، حيث إن الله ﷻ يُكرم بعض عباده المختارين بمثل هذا النوع من التصرف، ولا يُسرُّ أصحابها بمثل هذا

٧٢٤ ص: ٢٨.

٧٢٥ الجاثية: ٢١.

٧٢٦ هود: ١١٢.





النوع من الكرامات ما لم تكن ضرورية، وإظهارها هو آخر ما يتمناه الولي؛ لأنها تأتي مصحوبة بدهشة العامة وإعجابهم وثنائهم، فيبدأ حينها الجهال من هؤلاء العامة بتوقع كل شيء من هؤلاء الأولياء.

وعلى الرغم من أن الناس يُقبلون على النوع الثاني من الكرامات، إلا أن الكرامة الحقيقية المقبولة هي النوع الأول، فأهل التصوف متفقون على أن:

«الاستقامة عين الكرامة»

وسعي السالك إن لم يكن باستقامة فهو سعي لا فائدة منه.

وفي المکتوب الذي بعثه مولانا خالد البغدادي لأحد طلابه:

«نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة، فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها فهي خير من ألف كرامة، وأوصيكم بالاشتغال بإحياء السنن السنية، وقمع البدع الردية، ونشر العلوم بالإخلاص، والتمسك بأداب ساداتنا الخواص، ونفي الوجود، وبذل الموجد، والصبر على المفقود، والتبتل إلى الملك المعبود، وتذكر هذا المسكين بالدعوات الخيرية على الدوام، والسلام في البدء والختام»^{٧٢٧}

وفي يوم من الأيام دار الحديث التالي بين الشيخ أبي يزيد البسطامي وطلابه:

- سمعنا أنك تمشي على الماء!. والقشة تمشي على الماء.

- وتطير في الهواء!. والطير يطير في الهواء.

- وتزور الكعبة في ليلة!. والجنان أو الشيطان يذهب في ليلة من الهند إلى جبال ديماوند في بلاد فارس.

- فما عمل أرباب القلوب إذا؟

- ربط قلوبهم بالله ﷻ لا بسواه!^{٧٢٨}

٧٢٧ أسعد صاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، ص ٢٦٧، رقم: ٩٨.

٧٢٨ عطار، تذكرة، ص ٢٠١؛ سراج، اللمع، ص ٣٧٩؛ قاسم عباس، أبو يزيد، ص ٩٨.





إنَّ للكرامات غايةً سامية، وهي توجيه الناس نحو الاستقامة عبر «تأثير الصدمة» إذا جاز التعبير، فالدين عبارة عن تكليف إلهي، وسيستمر بهذه الصفة حتى قيام الساعة، أما خوارق العادات فهي تضر بالتكليف في الدين، لذا لم يلجأ الأنبياء إلى المعجزات، ولا يظهر الأولياء الكرامات ما لم يُجبروا على ذلك.

إن ما ينتج عن الكرامة الحقيقية بصورة عامة هو ما يلي:

١. تأديب النفس.

٢. تطهير القلب من الطباع والميول السيئة، وتزيينها بالفيوضات الإلهية.

٣. تجلية الأسرار والحكم للقلوب.

ومن أهم الوسائل في إظهار الكرامات هو الاسم الأعظم الذي علّمه الله ﷻ عبده، وجعله سرّاً بينهما، ولتتطرق هنا قليلاً إلى موضوع الاسم الأعظم الذي يحتل موقعاً مهماً في بحث الهبات الإلهية.

الاسم الأعظم هو اسم من الأسماء الإلهية التي إذا ما دُعي به سبحانه كان الدعاء مُجاباً، ولكن معرفة الاسم الأعظم من بين أسماء الله ﷻ هو سرٌّ وردت فيه روايات كثيرة، ومن أقوى الآراء حول هذا الموضوع الرأي الذي يقول أن لفظ الجلالة «الله» هو الاسم الأعظم، فهذا اللفظ هو اسم ذات المولى ﷻ، وفيه تجتمع الأسماء كلها.

ولنا أن نذكر هنا أحد الآراء حول هذا الموضوع:

لقد وضع الله ﷻ أشمل وأعمّ تجليات أسمائه الحُسنى في «الإنسان»، لأنه أكرم من قدرته حين نفخ فيه من روحه، والإنسان الكامل هو ذلك الإنسان الذي وصل إلى سعادة التخلق بأخلاق الله تعالى، وذلك من خلال إخراج الأسماء الإلهية الموجودة في فطرته من القوة إلى الفعل، ولذلك يمكن القول إن الاسم الأعظم هو ذلك الاسم الذي يغلب تجليه في العبد سائر الأسماء الأخرى، أي إذا كانت مشاعر الرحمة والرأفة هي الظاهرة على العبد، فهذا يعني أن تجلي اسمي





«الرحمن» و«الرحيم» هو الحاكم والمسيطر على ذلك العبد، فيمكن القول حينئذ إن هذين الاسمين يكونان الاسم الأعظم لمثل هذا العبد، والمهارة الحقيقية هي جعل مقتضى الأسماء الحسنى حالة أخلاق يعيشها المرء كل يوم، والكثير من الناس يقرأ الاسم الأعظم من الكتب وعن ظهر قلبه ولا يتتبع به، وفي تلك الحالة سيكون من العبث انتظار استجابة الدعاء؛ لأن اللسان ينطق بـ «يا رحمن، ويا رحيم»، في الوقت الذي لا يحتوي القلب في داخله على أية ذرة من الرحمة. ومن القصص المعبرة في هذا الموضوع قصة سيدنا علي ؑ والأعرابي:

جاء أعرابي فقير إلى سيدنا علي وطلب منه صدقة، وما كان لدى سيدنا علي ؑ آنذاك أي شيء يعطيه، فأخذ قبضة من رمل وقرأ عليها، ثم نفخ فيها، ثم وضعها في يد الأعرابي ذهبًا، فدهش الأعرابي من ذلك، وتوسّل إلى سيدنا علي أن يخبره كيف فعل ذلك، وماذا قرأ على قبضة الرمل، فأجابه سيدنا علي بكل هدوء بأنه قرأ «سورة الفاتحة»، وفرح الأعرابي بذلك، ثم أخذ قبضة من الرمل، وبدأ يقرأ الفاتحة، وينفخ في قبضته، غير أن الرمل بقي رملاً، ثم سأل الأعرابي عن الحكمة في هذا الأمر، فأجابه سيدنا علي كرم الله وجهه: «الفرق في القلب».

ويروي مولانا في كتابه المشنوي القصة التالية:

صحب رجل سيدنا عيسى ؑ في سفره، وأثناء سيرهما، رأى هذا الرجل عظماً على جانب الطريق، فتوسّل إلى سيدنا عيسى قائلاً: «أعلمني الاسم الأعظم حتى أحيي هذه العظام». فأجابه سيدنا عيسى:

«هذا ليس من عملك، فإحياء الموتى باسم الله الأعظم يتطلب نفساً أظهر من قطرات المطر، وعبودية تفوق عبودية الملائكة، إن الاسم الأعظم بحاجة لقلب طاهر نقي، ولسان لا تشوبه شائبة، فمثل هذا العبد لا يتلوث بالحرام، ويكون كالملائكة طاهراً من الذنوب والمعاصي، وحين يكون قلب العبد طاهراً





يغدو دعاؤه مقبولاً، ويجعله المولى ﷺ أميناً على كنوزه وأسراره، ولنفرض أنك تمسك عصا موسى بيديك، فهل لديك قوته لتصير العصا حية تسعى، ثم تكون قادراً على الإمساك بها؟ كيف لك أن تكون مثله وهو بنفسه قد خاف حين صارت العصا حية، فقال له المولى ﷺ:

﴿...يَا مُوسَى لَا تَخَفْ...﴾ ٧٢٩

والحالة الآن لا تختلف، فما فائدة أن تقرأ وتحفظ الاسم الأعظم إن لم يكن فيك نفس عيسى؟

لكن هذا الغافل لم يكتفِ بذلك، بل قال:

«يا عيسى، إذالم يكن لدي الاستعداد لذلك، ليتك تقرأ أنت على هذه العظام!»

فتعجب سيدنا عيسى عليه السلام من كلام هذا الأحمق، وقال:

«يا رب، ما حكمة هذه الأسرار كلها؟ ما سبب ميل هذا الأحمق إلى الجدل إلى هذه الدرجة؟ يسعى إلى إحياء جسد عبد آخر، وقلبه الذي بين جنبيه قلب ميت، فالميت الحقيقي هو هذا، وليست تلك العظام، فبدلاً من أن يدعو لإحياء قلبه، يسعى لإحياء غيره، إنها غفلة ما بعدها غفلة!»

ولأن أولياء الله تعالى قد وصلت قلوبهم إلى درجة راقية من النضج المعنوي فإن هذه الكرامات لا تترك فيهم أثراً من كبر ولا غرور، ولا تزيد اطمئناتهم إلى ضمان المصير؛ بل لا تزيدهم إلا تواضعاً وشكراً، واحتقاراً للنفس وصبراً، وشعوراً بالعجز أمام كرم الله وقدرته، وخوفاً من ابتلاء الله تعالى وفتنته، ويصير حالهم هذا منبعاً للفيوضات خلال المجاهدات لأولياء الله الحقيقيين.

ولنا في قصة بلعام بن باعوراء العبرة في هاوية الأولياء وسقوط العلماء، فما أشهره في بني إسرائيل بالعلم والولاية ومعرفة اسم الله الأعظم، لكنه رسب في





الاختبار ولم يسلم من الكبر والغرور، وسقط في الهاوية، ولم يبق له بعد فتنته شيء من العلم ولا الولاية ولا حتى الإيمان، وحولته الفتنة من قطب إلى كلب، أو كما وصف القرآن الكريم حاله، فقال:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^{٧٣٠}

من أجل هذا، يُعد الثناء الزائد على الولي صاحب الكرامة خطرًا كبيرًا عليه، وهذا الخطر هو أحد الأسباب التي تجعل من أولياء الله تعالى يجتنبون إبراز الكرامات، فالكرامة ليست نهاية المراتب، ولا تُظهر درجة الولي المعنوية، ويعلم أولياء الله جيدًا أن لا أحد في هذه الدنيا يضمن الآخرة غير الأنبياء، فإن الرجل يعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها^{٧٣١}، فلذلك على كل مؤمن أن يجعل الآية الكريمة التالية دستورًا له في حياته:

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^{٧٣٢}

ويبقى القرآن والسنة بالنسبة إلينا المعيارين الوحيدين اللذين نحتكم إليهما أمام مثل هذه الألفاظ الإلهية التي تأتي على شكل كرامات، كما هو الحال في

٧٣٠ الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

٧٣١ انظر: البخاري، القدر، ١؛ مسلم، القدر، ١؛ الترمذي، القدر، ٤.

٧٣٢ الحجر: ٩٩.





كل أمر أو موضوع يُعرض علينا، ولا بد أن نعلم أيضاً أننا لا نستطيع إنكار وجود الكرامات؛ لأنها حقيقة واقعة.

ولنذكر هنا بعض الأدلة على الكرامات من القرآن الكريم:

منها قول آصف وزير سليمان عليه السلام حين أراد أن يأتيه بعرش بلقيس ملكة سبأ:

﴿...أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...﴾^{٧٣٣} وقد حقق ذلك بالفعل.

وكان زكريا عليه السلام مكلفاً بالسيدة مريم التي نذرت نفسها لعبادة الله في المحراب، فكان في كل مرة يدخل عليها يجد عندها أنواعاً مختلفة من الأرزاق، فسألها رغباً في معرفة الحكمة وراء هذا: ﴿...يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا...﴾، فأجابته السيدة مريم: ﴿...هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾^{٧٣٤}

ومن الأدلة على الكرامات في القرآن الكريم ما نقرؤه في سورة مريم في الآيتين اللتين تتحدثان عن الرزق الذي كان يأتي مريم من عند الله ﷻ.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا﴾^{٧٣٥}

أما الأدلة من السنة فهي كثيرة، منها: قول رسول الله ﷺ:

«لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبي...»^{٧٣٦} وسرد قصصهم.

وفي الحديث الصحيح يُخبر النبي ﷺ أصحابه قصة النفر الثلاثة الذين كانوا يتماشون فأخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم

٧٣٣ النمل: ٤٠.

٧٣٤ آل عمران: ٣٧.

٧٣٥ مريم: ٢٤-٢٥.

٧٣٦ انظر: مسلم، البر، ٨/ ٢٥٥٠.





صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها، فكانت النتيجة أن خرجوا من الغار بفضل الكرم الإلهي.^{٧٣٧}

وعن أنس رضي الله عنه:

«أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أتى أهله».

وكان هذان الرجلان هما أسيد بن حضير وعباد بن بشر.^{٧٣٨}

وحين أسر مشركو مكة خبيثاً ﷺ وجدوه يوماً يأكل قطعاً من عنب، وما بمكة من ثمر، وكان هذا مثلاً على الكرامات التي كان يحظى بها الصحابة.^{٧٣٩}

وتشير الروايات إلى أن سيدنا عمر رضي الله عنه بينما كان على المنبر يخطب الناس، جعل ينادي: «يا سارية، الجبل، الجبل». وما كان لندائه هذا أية علاقة بخطبته، إذ كان سارية حينئذ يحارب أعداء الله في مكان يبعد عن المدينة مسافة شهر، إلا أن المولى جلّ جلاله قد أسمع سارية صوت عمر رضي الله عنه.^{٧٤٠}

وعن سعيد بن المسيب قال: «لو رأيته ليالي الحرة^{٧٤١}، وما في المسجد غيري، ما يأتي وقت صلاة إلا سمعت الأذان من القبر، ثم أقيم فأصلي»^{٧٤٢}

٧٣٧ انظر: البخاري، الأدب، ٥؛ الأنبياء، ٥٣؛ الذكر، ١٠٠

٧٣٨ انظر: البخاري، الصلاة، ٧٩، المساجد، ٧٨، المناقب، ٢٨، مناقب الأنصار، ١٣.

٧٣٩ انظر: البخاري، الجهاد، ١٧٠؛ المغازي، ١٠، ٢٨.

٧٤٠ انظر: ابن حجر، الإصابة، ٢، ٣.

٧٤١ وقعة الحرة: هي المعركة التي دارت بين أهل المدينة وجيش يزيد في الحرة (٦٨٣/٦٣). وقد ارتكب جيش يزيد الذي دخل المدينة المنورة الظلم فيها، واستشهد آنذاك الكثير من الصحابة وحفظة القرآن.

٧٤٢ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٤، ٣٧٥؛ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ١١، ٢٨١.





وكان التابعي مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبّحت معه آنية بيته، وكان مطرف مرة يمشي مع أصحابه في ليلة ظلماء فقال له الغلام: «لا نبصر شيئاً»، فأضاء له مثل السراج على طرف سوطه^{٧٤٣}.

وثمة الكثير من الأمثلة المشابهة في عصر الصحابة والتابعين.

ومن ناحية أخرى، من الممكن أن تصدر خوارق للعادات -تشبه كرامات الأولياء- من الكفار والفسّاق والمتمشيخين الذين يدعون الولاية وهم بعيدون عنها، وتُطلق كلمة «استدراج» على خوارق العادات هذه التي تناسب ادعاءاتهم. وتتحقق مثل هذه الأحوال بواسطة مجموعة من الرياضات الروحية، أي إنه من الممكن إخراج بعض الاستعدادات الروحية من القوة إلى الفعل عبر تأثيرات تخرج عن إطار الدين، فيمكن مثلاً للعبّاد الهنود الوصول إلى القوة الروحية عبر ممارسة الرياضات، ويمكن أحياناً أن يكون ذلك سحراً أو استخداماً «للخدّام»^{٧٤٤} من الجن، ويمكن فهم الفرق بين خوارق العادات هذه والكرامات عبر المعرفة والعلم، ولا بد من القول هنا إن مثل هؤلاء يعيشون حياة تخرج عن إطار التقوى، وأول نقطة يجب الانتباه إليها هي أنهم لا يتبعون سنة رسول الله ﷺ.

ويقول الجنيد البغدادي رحمته الله تعالى:

«إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء، ولا يتبع الكتاب والسنة، فاعلموا أنه استدراج».

٧٤٣ أحمد، الزهد، ص ١٩٦؛ أبو نعيم، الحلية، ٢، ٢٠٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ٦، ٤٨١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الحجر، ١٤٢٤، ١٢، ٤٠٠؛ ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ١١، ٢٨١.

٧٤٤ من الممكن جعل جنّي تحت الطاعة واستخدامه خادماً عبر بعض القراءات الخاصة بذلك، ويطلق على هؤلاء الجن اسم «خدّام». ويستطيع الخدام تنفيذ أوامر الشخص الذي يطيعونه بحسب قدرتهم واستعدادهم.





إِنْ مَنْ يَكْرَمُهُ اللهُ ﷻ بِقُدْرَتِهِ عَلَى إِجْرَاءِ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ لَا يَكُونُ شَخْصًا يُظْهِرُ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ وَيَتَفَاخَرُ بِهَا، وَلَا يُظْهِرُ أَوْلِيَاءَ اللهِ هَذِهِ الْكَرَامَاتِ مَا لَمْ يَكُونُوا مُجْبِرِينَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ مَنْزَهُونَ عَنِ التَّبَاهِي وَالرِّيَاءِ، فَهُمْ قُدُوةٌ لِلنَّاسِ بِكَمَالِ أَخْلَاقِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ، كَمَا كَانَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي بُعِثَ لِيَكُونَ أُسُوةً لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَكَانَ يَتَعَاطَلُ مَعَ النَّاسِ وَفَقًّا لظُرُوفِهِمُ الْبَشَرِيَّةِ، وَلَا يُظْهِرُ الْمَعْجَزَاتِ إِلَّا نَادِرًا -بِإِذْنِ اللهِ- حِينَ تَقْتَضِيهَا الْحَاجَةُ.

وَلَا يَنْحَرِفُ أَوْلِيَاءُ اللهِ -وَلَوْ قِيدَ أَنْمَلَةٍ- عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَكْفِي الْإِنْتِبَاهُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ فَقَطْ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْكَرَامَةِ وَالِاسْتِدْرَاجِ.

وَقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ مِنْ أَصْحَابِ الْإِسْتِدْرَاجِ، فَلَمْ يَعَانَ مِنْ أَلَمٍ فِي رَأْسِهِ طَوَالَ عَمْرِهِ الَّذِي بَلَغَ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ، وَكَانَتْ أَسْنَانُهُ كُلُّهَا سَلِيمَةً، وَيُرَوَّى أَنَّهُ حِينَ كَانَ يَعْدُو بِفَرَسِهِ فِي الْمُنْحَدَرَاتِ، كَانَتْ قَامَتَا الْفَرَسِ الْأَمَامَتَانِ تَطْوِلَانِ.

إِنْ الْإِسْتِدْرَاجَ يَصِيبُ الْكَافِرَ وَالْفَاسِقَ بِالْغُرُورِ وَالْكِبَرِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ هُوَ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ بِإِمْلَاءِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ وَكِيدِهِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^{٧٤٥}

فَحِينَ ضَرَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَحْرَ، فَشَقَّ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، تَوَجَّهَ فِرْعَوْنُ الَّذِي كَانَ يَلْحَقُهُ إِلَى جُنُودِهِ وَقَالَ لَهُمْ:

«أَرَأَيْتُمْ؟ هَا قَدْ شَقَّ لِي طَرِيقٌ فِي الْبَحْرِ لِعَظْمَتِي»

لَكِنَّهُ حِينَ مَشَى فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ، عَادَ الْبَحْرُ إِلَى حَالِهِ، فَهَلَكَ فِرْعَوْنُ مَعَ جُنُودِهِ.





وقد أخبرنا النبي ﷺ في كثير من أحاديثه الشريفة أن الدجال سيسعى لخداع الناس بإظهار الكثير من الاستدراج.^{٧٤٦}

وثمة أحوال ظاهرة تكون عكس الاستدراج الذي يدعيه صاحبه، ويطلق عليه اسم «الإهانة»، مثل ما حدث مع مسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوة، فحين تفل في ماء البئر مدعيًا أنه سيجعل البركة فيه جفّ ماء البئر كله.

ومثلما كان ممكنًا تحقيق التصرف والكرامات في عصر النبي ﷺ وأصحابه الكرام، كذلك من الممكن تحقيقها أيضًا في العصور اللاحقة، فالتصرف والكرامات التي أظهرها الأولياء بغرض توجيه إرادة الناس كانت ببركة النبي الذي اتبعوه طبعًا، وفي الوقت ذاته استمرارًا نوعيًا لمعجزاته.

ومن الحقائق التاريخية التي لا ينكرها أحد أن التصرف والكرامات التي وقعت في عصر السعادة «عصر النبي ﷺ وأصحابه» أو في العصور اللاحقة كانت وسيلة لهداية الكثير من البشر، ورُبَّ شاهد على مثل هذه الحوادث قد قال: «إذا كان الولي في هذا الدين على هذا النحو، فكيف بنبي هذا الدين العظيم!» وبهذا كانوا يؤيدون ويؤمنون بأصل الكرامات، ألا وهو نبينا محمد ﷺ.

بعض الأمثلة الخاصة بالتصرف والكرامات

لقد جعل الله تعالى -خالقُ هذا الكون ومالكه- الإنسانَ أشرف مخلوقاته، وعيّنه خليفته في الأرض كي يعرف الله تعالى حق المعرفة، ويعبده ويطيعه، ويعمر هذه الأرض، ويبين المولى ﷺ هذه الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾^{٧٤٧}

٧٤٦ انظر: البخاري، الأنبياء، ٣، ٥٠، الفتن، ٢٦، ٢٧؛ مسلم، الفتن، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٣؛ الترمذي، الفتن، ٥٩؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣.

٧٤٧ البقرة: ٣٠.





وتنصيب الإنسان «خليفة» له معان منها:

«سأمنح هذا الإنسان بعض الصلاحيات من إرادتي وقدرتي وصفاتي، وسيتصرف بمخلوقاتي بدلاً عني، وسيطبق أحكامي باسمي، لكنه لن يكون الفاعل الأصلي، ولن يطبق الأحكام تبعاً لذاته وشخصه، بل سيكون نائباً ووكيلاً لي في الأرض، وسأمره أن يطبق بإرادته إرادتي وأوامري وقوانيني، ومن يأتي بعده ويرثه سينفذ المهمة نفسها، وبهذا يتضح سر قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾^{٧٤٨}

إن التصرف والمعجزات التي ظهرت على يد الأنبياء، أو التصرف والكرامات التي بدت على أولياء الله تعالى، ما هي إلا تجلٍ لسر خلافة الإنسان في الأرض، ولنذكر هنا بعضاً من الأمثلة الكثيرة عن هذه التجليات:

عن منصور بن عبد الله أن أبا عبد الله بن الجلاء قال:

«دخلت مدينة رسول الله ﷺ وبني فاقة، فتقدمت إلى قبر الرسول ﷺ، وسلمت على النبي ﷺ وصاحبيه، وقلت: يا رسول الله بي فاقة، وأنا ضيفك، ثم تنحيت ونمت دون القبر، فرأيت النبي ﷺ في المنام جاء إليّ فقمت فدفع إليّ رغيفاً فأكلت بعضه، وانتبهت وفي يدي باقي الرغيف»^{٧٤٩}

ومن الحوادث المليئة بالحكم بعد وفاة رسول الله ﷺ الحادثة التي رواها محمد العتبي أحد شيوخ الإمام الشافعي:

«كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول:

٧٤٨ الأنعام، ١٦٥. محمد حمدي، (دين الحق ولسان القرآن)، ١، ٢٩٩-٣٠٠

٧٤٩ انظر: الخركوشي (توفي سنة ٤٠٧)، شرف المصطفى، مكة المكرمة ١٤٢٤، ٣، ٢٣٥؛ ابن الجوزي، الوفاء بأحوال المصطفى ﷺ، ٢، ٢٠٨؛ الكلاباذي، التعرف، ص ٢١٤؛ محمد بن موسى بن نعمان التلمساني، مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام ﷺ في اليقظة والمنام، ص ٦١-٦٢. لقراءة حوادث مشابهة انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٦، ٤٠٠-٤٠١، تاريخ الإسلام، ١٩، ٣٨٤.





﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^{٧٥٠}

وقد جئتكَ مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشد يقول:

يا خير مَنْ دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم^{٧٥١}
ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي،
الحقُّ الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له^{٧٥٢}
وحين حمي الوطيس في معركة «شاناك قلعة» صاح الرائد لطفي بك قائلاً:
«المدد يا محمد! فكتابك يُضاع!» كان الرائد لطفي آنذاك يطلب المدد من
النبي ﷺ، وتبين الحادثة الآتية بوضوح شكل المدد والعون الذي جاء استجابة
للطلب من رسول الله بإخلاص وصدق:

سنة ١٩٢٨... وقد مضى ١٣ عاماً على النصر في معركة «شاناك قلعة».

كان العالم والعارف والشيخ جمال أوغوت ألاسونيوي آنذاك متوجهاً إلى
الحج، وحين وصل إلى المدينة المنورة التقى هناك بالكثير من الأشخاص
الكرام، ومن بين هؤلاء كان المسؤول عن الروضة الشريفة، وكان هذا الرجل
الصالح محباً للعثمانيين بصدق، وكان يمدح العثمانيين دائماً، فسأله الشيخ جمال
أوغوت قائلاً: «ما سبب هذه المحبة للعثمانيين؟»
فأجاب هذا الشيخ النوراني دون أي تردد:

٧٥٠ النساء، ٦٤.

٧٥١ هذا الشعر مكتوب في الوقت الحاضر على عمودين في الحجرة الشريفة من جهة القبلة.

٧٥٢ ابن كثير، تفسير، ١، ٥٣٢ (النساء: ٦٤)؛ الإمام النووي، الأذكار، ١، ٤٤٨، إيضاح، ص ٤٥٤.

انظر أيضاً: البيهقي، شعب، ٦، ٦٠ / ٣٨٨٠.





«يكفيني أن أتذكر حادثة واحدة تجعلني أحب العثمانيين من أجل الإسلام».

وبعد أن أصر الشيخ جمال على أن يذكر هذه الحادثة، بدأ بسردها قائلاً:

«في عام ١٩١٥ جاء إلى الحج عالم من علماء الهند، كان من أولياء الله الربانيين، وبعد أن أدى فريضة الحج، قدم إلى المدينة لزيارة النبي ﷺ، كان الحزن ظاهراً على وجهه، وعينه لا تتوقفان عن سكب الدموع، وحين سألته عن السبب، ازداد بكاءً وقال:

بعد سنوات طويلة كُتِبَ لي أن أزور أشرف خلق الله، لكنني وجدت أن رسول الله ﷺ ليس في مقامه، هل من المعقول أن عيني قلبي أصابتهما العمى؟ لماذا لا أحس بوجود رسول الله ﷺ؟ لقد جعلتني هذه الأفكار في حالة يرثى لها منذ أن وضعت قدمي في المدينة المنورة!.

في تلك الليلة رأى الشيخ المسؤول عن الروضة الشريفة رسول الله ﷺ في منامه، وتذكر ما قاله العالم الهندي، فقال له رسول الله دون أن يتركه في قلقه وهمه:

نعم، كان على صواب فيما أحس، لست في المدينة الآن، بل في «شاناك قلعة»... لم أرضَ أن أترك جنودي في ذلك الموقف العصيب، فأردت أن أعينهم.^{٧٥٣}

وكان مما قال القائد الإنجليزي هاميلتون عن هزيمتهم في شاناك قلعة:

«إن سبب هزيمتنا أمام الأتراك ليس قوتهم المادية، بل تلك القوة المعنوية التي كانت فيهم، إذ لم يكن لديهم بارود كي يقذفوا به، لكننا شاهدنا بأم أعيننا المدد ينزل عليهم من السماء».

إن اعتراف القائد هذا لهو دليل على ما ذكرناه آنفاً.





ومثل هذه الأحداث هي تصرف قد منحه الله ﷻ لأنبيائه بعد وفاتهم، فهم أحياء ولكن على صورة لا يمكن أن ندركها بانطباعاتنا وأحاسيسنا الدنيوية، والحديث الشريف الآتي دليل واضح على هذه الحقيقة:

فَعَن أَوْس بن أَوْس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ»

قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - أي بليت -؟

فقال: «إن الله ﷻ حرّم على الأرض أجساد الأنبياء»^{٧٥٤}

وفي رواية أخرى: قال:

«وبعد الموت، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبى الله حي يُرزق»^{٧٥٥}

والشهداء أيضًا أحياء مثل الأنبياء، فالمولى عليه السلام يقول في الآية الكريمة:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرزَقُونَ﴾^{٧٥٦}

ولا ريب أنه لا يمكن القياس بين الأنبياء والشهداء في حياتهم بعد فراقهم الدنيا، فالأنبياء أعلى درجة من هذه الناحية.

إن تصرف أولياء الله -ورثة الأنبياء- وكراماتهم مستمرة إلى يومنا هذا، وثمة الكثير من الأمثلة تدل على هذا:

٧٥٤ أبو داود، الصلاة، ٢٠١/١٠٤٧، الوتر ٢٦؛ النسائي، الجمعة، ٥.

٧٥٥ ابن ماجه، الجنائز، ٦٥/١٦٣٧.

٧٥٦ آل عمران: ١٦٩.





فقد اشترك الشيخ عبيد الله أحرار في فتح القسطنطينية، وجاء من أواسط آسيا من خلال طي المكان، ويروي لنا ابن حفيده الشيخ محمد قاسم هذه الحادثة:

«أمر الشيخ عبيد الله أحرار بعد ظهر يوم الخميس بتجهيز فرسه فجأة، ثم ركب فرسه وخرج من سمرقند مسرعاً، وقال لطلابه: ابقوا جالسين هنا!. فذهب أحد طلابه المعروفين باسمه «مولانا الشيخ» وراءه متعقباً إياه، وأخبر الآخرين أنه فقد أثر الشيخ عبيد الله أحرار بعد أن مال على ظهر فرسه يمنة ويسرة، ثم عاد الشيخ أحرار بعد مدة، فسأله طلبته سؤال المتشوقين عن الحكمة من سفره المفاجئ، فأجابهم: لقد طلب السلطان العثماني محمد خان العون مني، فذهبت لأعينه، وقد أذن الله ﷻ بأن نتنصر».

ويروي لنا الشيخ عبد الهادي حفيد الشيخ عبيد الله أحرار أثناء زيارته للقسطنطينية قادمًا من خراسان ما جرى معه قائلاً:

«حين كنت في القسطنطينية وصف لي السلطان بايزيد الثاني شكل جدي عبيد الله وشمائله قائلاً: قال لي أبي الفاتح: حين اشتد الأمر علينا أثناء الفتح، التجأت إلى ربي، وطلبت المدد من قطب الزمان... فقدم إلي رجل صفاته كذا وكذا، راكباً فرساً بيضاء، وقال لي: «لا تخف، فالنصر حليفكم!»، فقلت لهذا الشيخ: «لكن عدد جنود الكفار كبير» ففتح لي عباءته، وقال: «انظر فيها»، فرأيت في داخلها جيشاً عرمرماً، فقال لي: «إن هذا الجيش جاء ليعينك». ثم قال: «اصعد هذه التلة، واضرب بالطبول ثلاثاً، ثم مرّ جندك بالهجوم». ففعلت ذلك، واشترك هذا الشيخ معنا بجيشه في الهجوم، فتحقق الفتح المبين»^{٧٥٧}

٧٥٧ انظر: مولانا الشيخ، مناقب الشيخ عبيد الله أحرار، ورقة، ٤ب-٥أ؛ جامي، نفحات الأنس، (قسم لامعي شلبي)، ص ٥٦٦-٥٦٧؛ طاشكيري زاده، الشقائق النعمانية، ص ١٥٧-١٥٨؛ مجدي محمد، حقائق الشقائق، ص ٢٧٢-٢٧٣؛ الشيخ سعد الدين، تاج التواريخ، ج ١، ٤١٠-٤١١.





والخلاصة أن محمدًا الفاتح حين فتح القسطنطينية، استفاد من روحانية الأولياء وعونهم، وهذا الأمر حقيقة من حقائق التاريخ، وكان من هؤلاء الأولياء على وجه خاص الشيخ آق شمس الدين الذي قدم العون في المجال المادي والمعنوي.



ولنا أن نذكر هنا حادثة تدل على «تصرف» الشيخ عزيز محمود هُدائي:^{٧٥٨}
جرت تلك الحادثة في عام ١٩٧٥، حين أتى شاب نوراني الوجه، حسن الهيئة، معتدل القامة، إلى مقام الشيخ هُدائي في وقت صلاة الظهر، فالتقى هناك بالصدفة مع إمام جامع عزيز محمود هُدائي، وسأل الإمام:
«يا سيدي، أتيت لرؤية الشيخ عزيز محمود هُدائي، كيف لي أن أراه؟ أهو هنا الآن؟»

فاحتار الإمام محرّم أفندي حين سمع مثل هذا السؤال وأجابه: «نعم يا بُني، هو هنا».

فحين سمع الشاب بوجود الشيخ هنا قال بسرور:
«أرجوك أن تأخذني للقاء».

ولكن محرّم أفندي لم يفهم ماذا كان يقصد الشاب، وقال له حين صارا بالقرب من القبر:

«يا بُني، هنا عزيز محمود هُدائي!».

ثم أعاد الشاب طلبه:

«خذني للقاء إذًا، أودُّ أن ألقاه!».

لم يفهم محرّم أفندي شيئًا عن حالة هذا الشاب، فسأله لعله يحل هذه المسألة:

٧٥٨ سمعتُ هذه الحادثة من محرّم قير أفندي أحد أئمة مسجد عزيز محمود هُدائي، وقد كان صديقي أيام دراستي في مدرسة الأئمة والخطباء.





«يا ولدي، أتعرف عزيز محمود هُدائي؟».

فأصابت الحيرة هذا الشاب - ذا القلب الصافي الذي ينعكس صفاؤه على محيائه - نتيجة إطالة هذا الحديث، وعدم رغبة محرّم أفندي في لقائه مع محمود هُدائي، وقال لمحرّم:

«إنني أعرف عزيز محمود هُدائي معرفة جيدة، فهو الذي دعاني إلى هنا، وتواعدنا على أن أزوره، وهو يعلم جيداً أنني سأتي لزيارته».

حينها أدرك محرّم أفندي أن للمسألة وجهاً آخر وأن سرّاً خفياً وراءها، فسأله راغباً بمعرفة تفاصيل أكثر:

«وكيف تواعدتُما يا بُني؟»

فبدأ الشاب بالشرح قائلاً:

في عام ١٩٧٤ وأثناء العملية العسكرية في قبرص، كنت أحد الفدائيين المظليين الذين نزلوا هناك، وقد قفزنا بالمظلات أثناء اشتداد المعركة بين جيشنا الذي كان قادماً من البحر وجيش اليونانيين المتمركزين في جبال بيشبارماك، ولكن الرياح الشديدة آنذاك قذفت كل واحدٍ منا إلى جانب، ونزلت عند خط العدو، فصرت بين نارَي الطرفین في موقع كثيف الأشجار، ولم أعرف كيف أتصرف، وبينما أنا على هذه الحالة وإذ بشيخ طويل القامة، ذي هيبة ووجه نوراني يقف أمامي، حينها أصبت بالدهشة والعجب، ونظر إليّ بوجه متبسّم وقال:

«ما الذي تفعله هنا يا ولدي؟ ألا تعرف أنك داخل خط العدو؟ ولماذا دخلت وحدك إلى هنا؟»

فأجبت: «لم آتِ إلى هنا باختيارٍ يا سيدي، بل الرياح هي التي دفعتني إلى هنا». فهزّ الشيخ ذو الوجه النوراني رأسه قليلاً وقال:

«وأنا أيضاً أتيت من أجل القتال، وقد أرسلت قبلكم، وأعرف هذه المنطقة

جيداً، من أي وحدة أنت؟ هلمّ معي إلى وحدتك!»





ثم مشينا في طريق تحت وابل من القذائف، وكان ذلك الرجل الصالح مرتاحاً في سيره، وكأنه يمشي في طريق لا شيء فيه البتة، لقد أصابني حقاً بالحيرة والدهشة، ثم سألني عن اسمي، وعن المكان الذي جئت منه، وأسئلة أخرى كثيرة، وبعد أن أجبت على أسئلته التي طرحها، سألته بفضول:

«وَمَنْ تَكُون أَنْتَ يَا سَيِّدِي؟»

فأجابني: «اسمي عزيز محمود هُدائي يا ولدي».

ثم قلت له:

«يا سيدي، قد قدمت إليَّ إحساناً عظيماً، وأودُّ أن أزورك إذا ما عدت إلى وطني سالمًا، فهلّا تعطيني عنوانك؟»

لكن هذا الرجل الصالح لم يقل لي سوى:

«يا ولدي، إذا أتيت أسكُدار، فسَلْ من شئت هناك، سيوصلونك إلي».

ثم وصلنا إلى وحدتي العسكرية، فقَبَّلَت يدي هذا الرجل الطيب باحترام ومحبة وامتنان، ثم ودَّعته هناك، وذهبت إلى قائدي.

حين رأيَ قائدي أمامه فجأة، أُصِيب بالذهول والدهشة بسبب نجاتي وعودتي سالمًا إلى وحدتي من طوق النيران هناك، وسألني:

«كيف استطعت أن تصل إلى هنا؟»

فأجبته:

«لقد أوصلني شيخ صالح إلى هنا».

وبعد أن انتهت الحرب عدت إلى مدينتي، لكن الإحسان الذي قدمه إلي عزيز محمود هُدائي لم يغيب عن بالي أبدًا، فنويت أن أذهب إلى أسكُدار كي أوفي بوعدِي له بالزيارة، وكلما سألت شخصًا، قال لي:

«إنه الرجل الصالح» ودلَّني إلى هذا المكان.





ثم سكت الشاب قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً، وأعاد ذكر طلبه لمحرم أفندي:

«هكذا التقيت بعزیز محمود هُدائي، يا سيدي، والآن هلاً أخذتني إليه!»

لقد تأثر محرم أفندي كثيراً أمام هذه الحالة الروحانية بعد أن علم المسألة بكل أبعادها، فلم يستطع أن ينطق ببنت شفة، وهذا الشاب ينظر إليه بنظرات متوسّلة، ثم استطاع أن يستجمع قواه، وقال بصوت خافت متلعثماً:

«يا بُني، ما عاد عزيز محمود هُدائي على قيد الحياة، فقد كان ولياً من أولياء الله عاش بين عامي ١٥٤٣-١٦٢٨، ولا بُدَّ أنه قد دعاك إلى هنا كي تقرأ على روحه الفاتحة، وها هو ذا في قبره!»

حين سمع الشاب الوفي المليء قلبه بالإيمان هذه الحقيقة تأثر تأثراً كبيراً، فقد كانت نيته أن يراه، وكان مشتاقاً لذلك، لكنه الآن لا يلتقي بهذا الولي الكبير بل يقف أمام قبره فقط، وبدأ بإدراك التصرف والكرامة المعنوية التي عاشها في تلك اللحظة حين كانت المعركة حامية الوطيس، ثم جعل يشهق لمدة طويلة واضعاً يديه على وجهه.

أمام هذا الموقف؛ كانت الدموع تنهمر من عيني الإمام محرم...



ومن بين الذكريات التي كان يرويها الشيخ الولي محمود سامي رمضان أوغلو، وقد سمعتها لدى حضور مجلسه خلال طفولتي:

كانت أخت الشيخ محمود التي تصغره بعامين مُقعّدة، وكان بالقرب من منزلهم ضريح لأحد أولياء الله اسمه كابلانجا بابا يزوره الناس كثيراً، وبعد أن عجز الأطباء عن علاجها، ذهب مع أخته وأمه في يوم من الأيام لزيارة هذا الضريح، ومكثوا هناك في تلك الليلة، وفي ساعة متأخرة من الليل استيقظوا على صراخ أخته المشلولة، فهرعت الأم إلى الفتاة، وسألتها عمّا حصل، فأجابت أنها رأت شيخاً نوراني الوجه قد أتى وضغط على قدميها، لقد روى الشيخ سامي





أفندي هذه الحادثة، وذكر حينها أنه بعد ذلك اليوم صارت أخته تمشي، ولم تعد تشكو أي ألم من قدميها طوال عمرها.^{٧٥٩}

إن جميع ما ذكرناه هنا والحوادث المشابهة الأخرى هي ألطاف إلهية صارت ببركة التصوف من الكرامات التي أكرم الله ﷻ بها بعضاً من عباده، لكن يجب ألا ننسى أن الفاعل الحقيقي المطلق هو المولى ﷻ، فما زال عونه لعباده مستمراً فياضاً غير منقطع إلى يومنا هذا عبر ملائكته أو أوليائه.



٧٥٩ انظر: محمود سامي أفندي، مجالس العيد، ص ٢٨-٢٩؛ من دنيا ولي الله: حوارات مع الشيخ موسى طوباش أفندي، منشورات دار الأرقم، ١٩٩٩، ص ١٩٥.





٤. الرؤيا الصادقة

«رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^{٧٦٠}



إن الرؤيا الصادقة هي إحدى الهبات الإلهية، وهي إحدى الطرق المعروفة والمقبولة في الاطلاع على الحقائق الغيبية، فخلال النوم يصل ارتباط المرء بعالمه المادي إلى أدنى درجة، وتزداد قوة أحاسيس الروح المحبوسة في البدن، وتجلو الرؤية حين تتبعثر غيوم الآفات النفسية التي تحجب التجليات السامية، وهكذا يستطيع بعض عباد الله الصالحين أن يشاهدوا عالم الغيب في رؤياهم، ثم يعرفوا صحة هذه الكشوفات بعد الاستيقاظ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«لم يبق من النبوة إلا المبشرات»

قالوا: وما المبشرات؟

قال: «الرؤيا الصالحة»^{٧٦١}

أي هي البشارات والإلهامات والإيحاءات التي تنزل على قلوب المؤمنين المخلصين أثناء الرؤيا، وتصبح مكشوفة لهم.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن قوله: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^{٧٦٢}

فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»^{٧٦٣}

٧٦٠ البخاري، التعبير، ٢٦ / ٦٩٨٧ / ٦٩٨٨؛ مسلم، الرؤيا، ٦-٨ / ٢٢٦٤.

٧٦١ البخاري، التعبير، ٥ / ٦٩٩٠؛ مسلم، الصلاة، ٢٠٧-٢٠٨ / ٤٧٩.

٧٦٢ يونس، ٦٤.

٧٦٣ الترمذي، الرؤيا، ٣ / ٢٢٧٥.





والرؤيا ثلاثة أقسام:

١. الرؤيا الشيطانية: وهي الرؤيا التي يُلقِيها الشيطان على الإنسان بغية إخافته، أو إيقاع قلبه في الهموم، أو جعله حزينًا، مثل رؤية الإنسان نفسه يسقط من مكان مرتفع، أو يرى الكوارث والاضطرابات التي تجعله تحت تأثيرها، ومثل هذه الرؤى لا أساس لها أصلاً، وتكون رؤى غامضة مختلطة لا يتذكرها الإنسان كاملة، ولا يجب أن يخبر عنها أحداً، بل يلجأ إلى الله هرباً من إغواء الشيطان.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليحدِّث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعِذْ من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره»^{٧٦٤}

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليصق عن يساره ثلاثاً وليستعِذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»^{٧٦٥}

٢. الرؤيا نتيجة التأثير الخارجي: وهي المشاهد المرتبطة بحال الشخص وخياله، والتي تنعكس على رؤياه، فالرجل الذي أكل طعاماً مالِحاً كثيراً قد يرى في رؤياه أنه يشرب الماء بكثرة، أو قد ينشغل المرء في ذهنه بمسألة فيراها في رؤياه، ومثل هذه الرؤى لا تعبير لها، فهي لا تركز على أساس.

٣. الرؤيا الصادقة: يمكن تذكُّر هذه الرؤيا بسهولة ووضوح، وهي تكون بشارة أو تحذيراً من الله ﷻ، يلقِيها قسم من الملائكة المكلفين بهذه المهمة - بعد تلقِّيها من اللوح المحفوظ - إلى الإنسان النائم بأمر وإذن من الله ﷻ.

٧٦٤ البخاري، التعبير، ٣/ ٦٩٨٥؛ مسلم، الرؤيا، ٣/ ٢٢٦١.

٧٦٥ مسلم، الرؤيا، ٥/ ٢٢٦٢.





إن الرؤى الصادقة هي لمعات من اللوح المحفوظ تنعكس على المستقبل، فقد كانت بداية نبوة رسول الله ﷺ برويته الرؤى الصادقة على مدى ستة أشهر قبل أن يأتيه الوحي.

ويروي محمد بن سيرين، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ:

«إذا اقترب الزمان^{٧٦٦} إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس»^{٧٦٧}

ومن الأحاديث الشريفة قوله ﷺ:

«أصدق الرؤيا بالأسحار»^{٧٦٨}

وثمة من هو أهل لتأويل الرؤى الصادقة وحل ألغازها، وتعبير الرؤيا علمٌ وهبي، وقد كان رسول الله ﷺ يستمع أحيانا إلى أصحابه ورؤاهم بعد أداء الصلاة، ثم يؤولها لهم، فيوضح بذلك التجليات المتعلقة بالمستقبل.

والحق أن تأويل الرؤيا علمٌ يستند إلى بعض القواعد، ويسمى الإنسان الضليع في هذا العلم بـ«المعبر»، وقد وضعت الكثير من المؤلفات المتعلقة بتأويل الرؤيا كي يستفيد منها العامة، وأشهرها تأويلات ابن سيرين، ومحي الدين بن عربي، وألفت الكثير من الكتب إلى يومنا هذا مقتبسة من مؤلفات هذين العالمين، ولكن يُمنع تأويل الرؤيا استنادا فقط إلى المعلومات الموجودة في

٧٦٦ يذكر في شروحات الحديث أن «اقتراب الزمان» يعني تساوي الليل والنهار، أو اقتراب يوم القيامة أو الصباح (وقت السحر)، أو قصر الوقت.

٧٦٧ مسلم، الرؤيا، ٦/٢٢٦٣؛ البخاري، التعبير، ٧٠١٧/٢٦.

٧٦٨ الترمذي، الرؤيا، ٣/٢٢٧٤.





صفحات تلك الكتب، فالقسم الأكبر من التأويل الحقيقي يكون «كشفًا»، لهذا السبب يجب أن يكون لدى المؤؤل استعداد وقدرة معنوية، وإلا فإن التأويلات الخاطئة تودي إلى المهالك، يقول النبي ﷺ:

«... والرؤيا لأول عابر»^{٧٦٩}

لذا لا ينبغي سرد الرؤيا لمن ليس أهلاً لها، ويقول المطلعون على هذا العلم:

«التأويل الأول مهم، لكن التأويلات الأخرى لا تصيب».

وقد ورد في الرسالة المسماة «ميزان النفوس»^{٧٧٠} أن التأويل قسمان: «الأنفسي» و«الآفاقي»، ويمكن لأي شخص من العوام أن ينال القسم الأول، أي يمكن تحصيله من خلال السماع، أو عبر الأخذ من المؤلفات المختلفة حول تأويل الرؤيا التي وضعها المختصون في الماضي، وهكذا يمكن تأويل الرؤى المتشابهة استنادًا إلى التجارب السابقة.

إن كل شيء موجود في الرؤيا بمثابة كلمة من كلمات المعاجم، أي كأنه لغة في حد ذاته، وكل معنى يُوضَع لشيء في لغة الرؤيا يعتمد على علاقة بعيدة، وهذا يعني أنه يستند إلى أساس وسبب، فالحية مثلاً عدو، وهذا المعنى يستند إلى قصة آدم عليه السلام، فكل حال وحركة للأفعى تدل على سلوك معين للعدو، أما إذا كانت الحية مستقيمة أو لا تظهر أية حركة كأنها ميتة، فهذا يُفسّر على أنه طريق.

ومن ناحية أخرى علينا أن نذكر أنه ثمة مؤثرات كثيرة أخرى تلعب دورًا في تأويل الرؤيا مثل الأيام، والفصول، والساعة التي شوهدت فيها الرؤيا، وأمور أخرى، فالرؤيا في الشتاء يتأخر تحققها، أما في الصباح فتكون سريعة التحقق، بيد أن هذه التأويلات لا تكون دقيقة، وذلك لاختلاف طبيعة أصحاب الرؤى.

٧٦٩ ابن ماجه، تعبير الرؤيا، ٧/٣٩١٥.

٧٧٠ كتب هذه الرسالة حافظ خلوصي من مدرسي مسجد بايزيد، وطبعت هذه الرسالة في إسطنبول ١٣٠٥.





أما التأويل «الآفاقي» فهو بحاجة لكشف لا يجده إلا الخواص؛ لأن التفريق بين الرؤيا الشيطانية والرحمانية منوط بالسوانح الإلهية، وقد يختلف تأويل الرؤيا بين شخصين -رأى كل منهما الرؤيا ذاتها- اختلافًا كبيرًا، بسبب اختلاف طبيعة البشر فيما بينهم، وفهم المرء دقائق الأمور مثل هذه، يتطلب أهلية معنوية.

فقد جاء إلى ابن سيرين يومًا شخصان رأى كل منهما في الرؤيا أنهما خطيان يقرآن خطبة، فكان تأويل ابن سيرين أن أحدهما يذهب إلى الحج، أما الآخر فيقتل؛ ولم يمضِ كثير من الوقت إلا وقد تحقق تأويله.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«رأيت ثلاثة أقمار سقطن في حجرتي، فقصصت رؤيائي على أبي بكر الصديق»، فلما توفي رسول الله ﷺ ودُفن في بيتها، قال لها أبو بكر رضي الله عنه: «هذا أحد أقمارك وهو خيرها»^{٧٧١}

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن أم العلاء -امرأة من الأنصار- بايعت رسول الله ﷺ وأخبرته: أنهم اقتسموا المهاجرين قرعة، قالت: فطار لنا عثمان بن مظعون وأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفي غسل وكفن في أثوابه... فممت، فرأيت لعثمان عينًا تجري، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال:

«ذلك عمله»^{٧٧٢}

ومن الحوادث التي وقعت في حياة الرسول ﷺ الحادثة التالية:

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ كي يعبر لها رؤياها التي رأت فيها أن عمود بيتها تهدم، فسأل رسول الله ﷺ عن زوجها ومكانه، فقالت المرأة إن زوجها قد خرج إلى القتال وما زال غائبًا، فبشرها النبي ﷺ أن زوجها سيعود سالمًا، وقد تحقق تأويل النبي ﷺ.

٧٧١ موطأ، الجنائز، ٣٠.

٧٧٢ البخاري، الشهادات ٣٠/٢٦٨٧، تعبير ١٣/٧٠٠٤، مناقب الأنصار ٤٦/٣٩٢٩.





وخلال خلافة أبي بكر رضي الله عنه، رأت المرأة الرؤيا نفسها، وكان زوجها قد خرج إلى القتال أيضاً، فسألها أبو بكر رضي الله عنه عن زوجها كما سأل النبي صلى الله عليه وسلم ثم أخبرها أنه لن يعود هذه المرة.

فاضطربت المرأة وأصابها الدهشة من كلام أبي بكر رضي الله عنه وقالت: «كان تأويل رسول الله صلى الله عليه وسلم للرؤيا نفسها أن زوجي سيعود سالمًا». فأجابها: «قولك هذا صواب، ولكن كُشف له ذلك، وألهم إلي هذا»، وقد تحقق تأويل أبي بكر رضي الله عنه بعد مدة قصيرة.

إن التأويل الصحيح للرؤيا أمر صعب، وقد يكون مستحيلاً دون الدراية المعنوية، وذلك لأنه أثناء الرؤيا تُرى أحوال كثيرة خيالية غير واضحة، تفوق قدرة العقل والفكر.

وقد أخبرنا المولى رحمته الله في القرآن الكريم أنه وهب هذا العلم ليوسف عليه السلام.^{٧٧٣} فحين كان يوسف عليه السلام في السجن استمع إلى رؤيا الخبّاز وساقى الملك اللّذين كانا معه، فأما الخبّاز فقد رأى أنه يحمل خبزاً فوق رأسه تأكل الطير منه، فكان تأويل يوسف عليه السلام أن الملك سيصلبه فتأتي الطير لتأكل من لحم رأسه، وأما الساقى فقد رأى أنه يستقي الملك كما كان يفعل في السابق، فقال يوسف عليه السلام في ذلك: «ستعود إلى عملك ساقياً للملك»، وقد تحققت هذه الكشوفات التي أخبر بها يوسف عليه السلام في الواقع بعد حين.

وقد ذكرنا فيما سبق أن القسم الأكبر من علم التأويل يعتمد على الكشف، لهذا لا بد أن يكون المؤوّل على درجة معنوية، وحين كنّا ندرس في مدرسة إسطنبول للأئمة والخطباء، درسنا على يد الشيخ جلال الدين أوكتان رحمته الله الذي كان معروفاً آنذاك بأنه عالم في تأويل الرؤيا، وكان يقول إن تأويل الرؤيا يجب أن يكون بقلب صافٍ وروحانية، فإصابة التأويل منوطة بتقوى المؤوّل.





وكان شيخنا جلال الدين أوكتان رحمته الله في شبابه يُدرّس في مدرسة إعدادية أمور الدين، ويعيش حياة ملؤها التقوى بقلب حيّ يخشى الله تعالى، وكان مشهوراً آنذاك بإصابته في تأويلاته، وكان بعد أن يخبرنا بأمثلة عن هذه التأويلات يقول: «مرت عليّ مرحلة حُجب فيها هذا العلم عني بسبب إلغاء الدروس الدينية، ثم عيّوني مدرّساً للفلسفة، وحين بدأت بالغوص في نظريات الفلسفة العقلانية، نضبت ينابيع القلب».

ولنا أن نذكر هنا مثلاً من الأمثلة الأخرى المشهورة حول الرؤى الصادقة: بينما كان الإمام البوصيري -صاحب قصيدة البردة المشهورة- عائداً إلى بيته التقى بشيخ نوراني الوجه، فقال له ذلك الشيخ: «يا بوصيري، أرايت رسول الله في رؤياك الليلة؟» فأجابه البوصيري: «لا».

فذهب الشيخ دون أن ينطق بشيء، لكن كلام الشيخ هذا جيّش مشاعر عشق النبي ﷺ ومحفته في فؤاد الإمام، وفي تلك الليلة رأى الإمام رسول الله ﷺ في رؤياه، فاستيقظ سعيداً، شاعراً بالطمأنينة، وبعد هذه الرؤيا كتب الكثير من المدائح عن النبي ﷺ التي جعلت العشاق يتعمقون في بحر المحبة. ثم أُصيب الإمام بشلل نصفي بعد مدة، فصار إلى حالة لا يقدر فيها على المشي والحركة، وكتب حينئذ قصيدة البردة المشهورة طالباً من الله الشفاء.

وفي الليلة التي أنهى فيها كتابة قصيدته هذه، رأى النبي ﷺ في رؤياه، وقرأ عليه القصيدة، وبعد أن قرأها بالكامل، مسح النبي ﷺ على الجزء المصاب من بدن الإمام البوصيري، فكان أثر هذه المحبة أثراً كبيراً إذ استيقظ الإمام البوصيري دون أن يشعر بأي مرض في بدنه، فشكر الله تعالى أن شفاه.

وفي ذلك الصباح، وبعد أن عادت صحته إليه، خرج الإمام بسرور قاصداً المسجد، وبينما هو في طريقه، إذ بالشيخ أبي الرجاء يقول له:





«يا بوصيري، هَلَّا قرأت علي قصيدتك في مدح سيد الكون؟»

فسأله الإمام البوصيري:

«إن قصائد مدح رسول الله ﷺ كثيرة، فأيتها تريد؟»

فأجابه الشيخ أبو الرجاء:

«تلك التي قرأتها على الرسول ﷺ، لأنني رأيته قد سُرَّ بهذه القصيدة». فأصابت الحيرة والدهشة الإمام البوصيري الذي كان يعلم أنه لم يكن قد قرأها على أحد حتى تلك اللحظة.^{٧٧٤}

إن في الإسلام أمثلة كثيرة جدًا عن حالات يرى فيها الصادقون الكثير من أسرار عالم الغيب بواسطة الكشف والفراصة والإلهام والرؤيا الصادقة؛ لكن لا بد أن نتذكر دائمًا الحقيقة الإلهية التي تقول:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾^{٧٧٥}

لذلك تبرز هنا الحاجة إلى إيضاح هذه المسألة.

والحق أن إيضاح هذه المسألة وارد في محتوى الحديث القدسي الذي يقول فيه الله تعالى:

«فإذا أحببته (أي عبدي): كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،

ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...»^{٧٧٦}

ومركز الكشف والإلهام هو الروح التي نفخها الله تعالى في الإنسان، وإذا ما نظرنا ظاهرًا بالعين الموجودة في الرأس نجد أن حُجب الغيب يبطل عملها -بالقدر الذي حدّده الله تعالى- أمام «النور الإلهي» الموجود في تلك العين، فالله

٧٧٤ انظر: إلهان آرموتشي أوغلو، ترجمة قصيدة البردة، ص ٧-١٠.

٧٧٥ النمل: ٦٥.

٧٧٦ البخاري، الرقائق، ٨٣/٦٥٠٢.





إذاً هو من يُظهِر الغيب لعبده لأنه لا قدرة للعبد أصلاً على رؤية الغيب أو سماعه أو معرفته؛ فعلم العبد مقتصر على العلم الذي يكرمه به الله ﷻ.

يقول المولى ﷻ في الآية الكريمة مشيراً إلى أنه يخبر بعض الحقائق الغيبية:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^{٧٧٧}

ولنا أن نذكر هنا أن الغيب نوعان: غيب مطلق، وغيب إضافي «نسبي».

الغيب المطلق: هو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقدرة المرء على معرفة أي شيء من الغيب المطلق لا يرتبط أبداً بدرايته وعلمه، فهو يعلم ما يُعلمه الله فحسب، وعلمه هذا بقدر لطف المولى ﷻ.

أما الغيب الإضافي: فهو الأمور المعلومة لبعض الأشخاص والمجهولة لبعضهم الآخر، فمثلاً لا أحد يعلم كم مقدار المال الموجود في جيب امرئ ما

٧٧٧ آل عمران: ٤٤. لقد نسب المولى ﷻ بعضاً من صفاته إلى عباده، فالله تعالى يكرم عبده بما يريد، وكيفما يريد، دون وجود أي سبب قسري شديد. ويكرم من يشاء، ويعلي مقام من يشاء، ويجعله أسمى من المخلوقات الأخرى، لكن هذا لا يعني أنه قد أعطاه صفات ألوهية. ويجب علينا أن نعلم أننا حين نرى لدى العبد صفة من صفات الله ﷻ، فإن هذه الصفة تبقى على صورة تناسب الحدود البشرية ولا تتعداها، فهي لطفٌ من الله ﷻ، وليست بجهد العبد. وهو أمر مرتبط دائماً بإرادة الله وإذنه، كما هو الحال في كل أمر.

فعلم الغيب مثلاً هو صفة من هذه الصفات، وحينما يقول الله تعالى:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل، ٦٥)

لا ننسى أن الله تعالى قد أخبر أنبياءه بأمور غيبية، وهذا ما نجده في آيات أخرى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران، ١٧٩)

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

رَصَدًا﴾ (الجن، ٢٦-٢٧)





سواه، نفهم من هذا إذاً أن الغيب بالنسبة إلى بعض الناس ليس غيباً بالنسبة إلى أشخاص آخرين.

والغيب الذي نتكلم عنه والذي يعلمه أولياء الله، هو غيب مطلق لا يعلمه الأولياء إلا بإذن ربّ الأولياء، وبالمقدار الذي حدّده لا أكثر ولا أقل.

ومهما أصاب أولياء الله في حدسهم وتخمينهم، لا يدعون أنهم أصحاب كشف وفراصة، وحين ينظر المرء إلى وجه مثل هؤلاء الصالحين، يتذكر الله ﷻ، إذ تتقاطر الحكمة والمعرفة من ألسنتهم، فهم لا يتكلمون بأنفسهم، بل يبدو أن الله يجعلهم ينطقون بالكلام إن جاز التعبير، ويقفون متواضعين أمام ألطف الله تعالى، فالإنسان مخلوق ضعيف قد يتجاوز حدوده فيقع في الغرور، ومن المعلوم أنّ تكبر الإنسان وتغطرسه من أعظم الكبائر والمصائب، لذلك قد يُذيق الله عبده طعم العجز من أجل تحذيره وتنبيهه.

فالأصل في الفراسة والكشف والرؤى الصادقة أنها ألطفُ يُلهم الله ﷻ بها الحقائق لعباده الصالحين.





الفصل الرابع

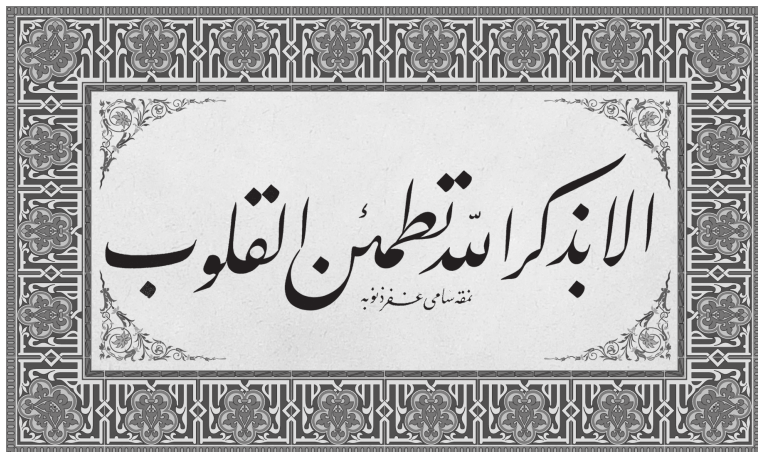


بعض المسائل في التصوف

أ. التوسل

ب. التبرك

ت. زيارة القبور



قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)



بعض المسائل في التصوف

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾^{٧٧٨}



أ. التوسل

التوسل مفهوم شرعي صوفي يستعصي على فهم من قست قلوبهم من الفقهاء والأصوليين وغيرهم ممن لا يؤمن إلا بالعلم فقط، لكن المتشربين منهم لروح الشريعة لا لحرفية النص، والذين يعرفون أن للعلم سُبلاً أخرى غير الكتب يدركون شرعية التوسل وروحانيته.

التوسل في مصطلح اللغة العربية هو اتخاذ وسيلة أو طريقة يصل بها الإنسان إلى مراده؛ حتى إن الزبيدي قرن في شرح القاموس بين التَّوَسُّل والتَّوَصُّل، وهذه الوسيلة المتخذة في التوسل تحمل معنى أدق من مجرد الاستعانة، فهي تحمل معنى الرغبة الأخص، كما قال أبو البقاء في كتابه «الكليات»، وقد جاء معنى الوسيلة في «مختار الصحاح» بأنها «ما يُتَقَرَّبُ به إلى الغير...» ويقال: وَسَّلَ فلان إلى ربه وسيلة بالتشديد، وتَوَسَّلَ إليه بوسيلة، إذا تقرب إليه بعمل.

أي إن التوسل يعني طلب الوسيلة والواسطة، والاستعانة في التوصل والتقرب.

أما أساليب التوسل فهي الدعاء إلى الله تعالى والتقرب إليه، والتزلف إليه سبحانه بأسمائه وصفاته العلى وقرآنه الكريم ونبيه العظيم وأنبيائه المرسلين وعباده الصالحين وكل عمل مخلص رجوت فيه وجه ربك وحده.





والتوسل والوسيلة هي إحدى الأساليب التي أمر بها الشرع الشريف، فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^{٧٧٩}

وورود كلمة ومصطلح «الوسيلة» في الآية على صورتها المطلقة وغير المحددة دليل على تعدد مفاهيم الوسيلة واتساع نطاق التوسل، لكنه مشروط بشرط الآية، وهو تقوى الله تعالى، العاصمة للمؤمنين من الوقوع في الزلل والزيغ عند ابتغاء الوسيلة، وهو التغافل عن الأصل في التوسل، وهو أن الله غاية التوسل، وهو وحده سبحانه مانح الوسيلة.

وثمة بعض المفسرين الذين يُضيفون إلى معاني التوسل وسيلة أخرى ذات شأن، وهي الخضوع لتربية مرشد كامل، فهو الذي كلفه الله تعالى بوراثة الأنبياء في إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الحق.

هؤلاء العلماء والصالحون والمرشدون ليسوا على شاكلة الرهبان، ولا التوسل أو الوسيلة ضرب من الرهبة، فالمرشدون ليسوا أكثر من أضواء على الطريق، وأدلاء في الصحراء، وقباطنة في لجج البحار؛ لكن الوضع مختلف تماماً في النصرانية والرهبانية، فالواسطة أو الوسيلة المذمومة في الشرع هي تلك التي تجعل الراهب واسطة بين العبد وربّه، والإسلام يرفض ذلك تماماً وينهى عنه، فالعبد في الإسلام يستطيع الاتصال بالسماء، والتواصل مع ربه مباشرة وفوراً بلا واسطة ولا إجراءات ولا طقوس.

ولا زال دور المرشد يلقي بعض الاعتراضات، وذلك ناتج عن تسطيح الفهم واقتصاره على التعريف اللغوي أو التوارث المفاهيمي لمصطلحي المرشد والإرشاد، فهو في تصور المعترضين يتطابق مع مفهوم الرهبة، فالعبد في





النصرانية لا يستطيع أن يُقدِّم على طاعة أو عبادة دون وساطة الراهب الذي يمنحه الموافقة والمباركة؛ بل والمغفرة والرحمة، وهذا ما حدث بالفعل لدى النصرانية المحرفة.

وهذا التدخل -من الراهب ومن المرشد- بين العبد وربّه مرفوض من أهل الاعتراض على الإرشاد، وهو مرفوض أيضاً ممّن يفهمون الإرشاد بمفهومه الصحيح، فلا وجه للمقارنة بين المرشد والراهب، ولا وجه للتشابه بين التصوف والرهبة المسيحية.

فالمرشد درع يكسو جسد المريد في طريقه وحرّبه ضد أعدائه المعنويين، ولا يقاتل نيابة عنه في معركته هذه، والمرشد سيفٌ وسلاحٌ في يد المريد يعينه في جهاده، وليس صكّ غفران يضمن له ملكيته لبعض أراضي الجنة، والمرشد قائد حصيف في معركة يقود المريدين والسالكين إلى أساليب النصر وخططه، والمنفذون والمقاتلون هم جنوده من المريدين، وليس المرشد قائد العميان إلى الطريق الذي لا يعرفون.

فالقائد لا يختار الطريق وحده، ولا يسير فيه وحده، ولا ينتصر في المعركة وحده. فإذا أدركنا -من خلال هذه الصور- بعض المعاني الحقيقية للإرشاد والتصوف، وابتعدنا عن المعاني المقولبة والمعدة سلفاً، أدركنا أن أخطاء فهم المعترضين وأخطاء فعل بعض المتصوفين هي التي تصنع ذلك اللبس في فهم معنى التوسل والوسيلة.

هذا اللبس قد يحدث كثيراً عندما تختلط الأمور، لكن لا ينبغي عند اختلاط الأمور أن نحكم عليها جميعها بالخطأ، وأن نرفضها ونقصيها؛ خاصة أن موضوع التصوف برّمته هو محل هجوم كبير من غير المسلمين ومن بعض المسلمين أنفسهم، وأحد أغراض هذا الهجوم هو قضية التوسل، والتي لا يسلم مهاجموها ومهاجمو التصوف من الأغراض الشخصية وسوء النية وتصيّد الأخطاء أو الاتهام





بوجود مخالفات لاختلاق مشهدٍ ضبابي حول المسألة برمتها لصرف الناس عنه،
ولإيجاد صعوبات وملازمات في الفهم، وتعويق الوصول إلى الحقيقة.
وكل ذلك لا ينبغي أن يقلل من شأن التصوف، أو يطعن في المعنى الحقيقي
للتوسل.

وإذا أدركنا معنى القائد ودوره في الألوية العسكرية، ومعنى الريان ودوره
في الملاحة البحرية؛ ندرك وظيفة المرشد ودوره في طريق الروحانية، فالقائد لا
يمسك كل الأسلحة بيديه، ولا يحارب وحده، ولا ينتصر وحده، ولا حتى بعظيم
منزلته وعلو مقداره وعميم بركته، وإلا لانتصر النبي ﷺ في غزوة أحد وحده؛ رغم
مخالفة الرماة لإرشادات القائد والمرشد.

كما إن الرُّبَّان لا يمسك الدفة وحده، ولا يوجه الأشرعة وحده، ولا يحرك
المجاديف وحده، ولا يراقب الطريق وحده، إنما هو يقود هذه المنظومة كلها؛
ليصل الجميع بخبرته وقيادته إلى شاطئ الأمان والغاية الموجودة مستفيدين من
خبرته وقيادته.

وفي طريق الله تعالى يقوم المرشد بدوره في إرشاد المريد ونصيحته، وليس
بدوره في العبادة نيابة عن المريد.

يقوم المرشد بدوره كربان في تحديد أفضل الطرق التي توصل إلى بر
الأمان، أفضلها وأسلمها وأيسرها وأقصرها....

ودوره هو تعليم الملاحين أسرار حياة البحر؛ لاسيما عندما يكون بحرًا لجيًّا
تلاعب بسفنه العواصف، وتشرف بها على المهالك.

دوره هو قيادة السفينة عبر المضائق والصخور والشعاب المرجانية الظاهرة
على السطح أو الكامنة بخطورتها تحت الماء.

دوره هو التحذير من مغبة انقياد الأشرعة للرياح، واستسلامها للهواء والأهواء.





دوره هو وضع الخريطة -للخرائطي- في موضعها الصحيح، وأن يقرأ له مفاتيحها، ويبين له دقائقها ورقائقها، ويبصّرهُ بالمواضع التي هو مقبل عليها لأول مرة، وقد وطّنتها أقدام الربان، فعلمت متاهاتها ومخاطرها، وبحرها وبرها.

فإذا أطاعه البحّارة ونفذوا تعليماته بدقة، ووضعوا محاذيره موضع الجد، واستلهموا تشجيعه لبلوغ القصد، كان ذلك هو طريق الرشاد ومهمة الإرشاد.

وربما وصل هؤلاء البحارة إلى طريق أبعد مما وصل إليه الربان، فقد أضافوا خبرته إلى خبرتهم، وتوصلوا بجهدهم إلى جانب إرشاده، وتوصلوا بإخلاصهم وعون ربهم إلى آفاق لم يبلغها مَنْ أرشدهم، فيصلوا إلى الجزيرة المجهورة والكنز المفقود الذي يبحث عنه كل البحارة والمريدين، وها هو التلميذ يتفوق على أستاذه، والمريد يسبق مرشده، وهو ما تراه -في الظاهر- من قصة شمس التبريزي ومولانا جلال الدين الرومي.^{٧٨٠}

فالمرشد وسيلة لا غاية، أداة لا هدف، قائد لا مركبة.

والتوسل -إذا حررناه من جمود المعاني اللغوية، وأخرجناه إلى رحابة التطبيقات الإيمانية- وجدنا في معانيه التوجه بالدعاء إلى الله تعالى بقلب يملؤه حب أحباب الله، وبأعين دموعها قطرات ندى الاستغفار والتسبيح والذكر، وبأكف الضراعة التي يرفعها العبد مستجدياً ربه، فإذا استحى أن يرفعهما العبد لتقصيره، يمسكهما المرشد ليرفعهما عالياً.

فالمرشد هو حرارة الدعاء التي يحترق بها قلب العبد تجاه مولاه، وهو بلاغة الكلمات التي يوجز بها المريد مطلبه من ربه تبارك وتعالى. وبذلك لا يعني التوسل إضفاء أي نوع من القدرة أو القداسة على الصالحين أو المُتَوَسِّل بهم.

٧٨٠ إن شمس التبريزي الذي اكتشف بحر الروحية التي كانت مكنوزة في روح مولانا جلال الدين الرومي، كان كالشرارة التي أشعلت النار العظيمة، فكانت هذه وظيفته ومهمته، وأمام هذا الفيضان العظيم من الروحية وجد التبريزي نفسه في بحر لا حدّ له.





يقول الإمام مالك رحمته الله:

«توسلوا برسول الله ﷺ في دعائكم».

ويقول الإمام الجزري رحمته الله:

«اتخذوا الأنبياء والصالحين وسيلة كي يُقبل دعاؤكم».

ولنذكر هنا بعض الأمثلة عن التوسل:

التوسل برسول الله ﷺ

يقول الإمام السبكي:

«إن التوسل بالنبي ﷺ جائز في كل حال، قبل خلقه، وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا، وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة، وفي الجنة»^{٧٨١}

ويقول ابن كثير والطبري في تفسيرهما لقول الله: يَعْبُدُونَ

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يُسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ

فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^{٧٨٢}

لما جاءهم، يعني اليهود، كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مصدق لما معهم يعني من التوراة، وقوله وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم.^{٧٨٣}

٧٨١ الإمام السبكي، شفاء السقام، ص ٣٦٠.

٧٨٢ البقرة: ٩٨.

٧٨٣ ابن كثير، تفسير، ١، ٦١٢ الطبري، تفسير، الحاكم، المستدرک، ٢، ٢٨٩؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٢،

٧٦؛ القرطبي، ٢، ٢٧؛ الواحدي، أسباب النزول، ص ٣١.





وعن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف:

«إئت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، وتذكر حاجتك، ورُح إليّ حتى أروح معك».

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان، فجاء البواب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: «حاجتك؟» فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال له: «ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة»، وقال: ما كانت لك من حاجة فائتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده، فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتى كلمته فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أتاه رجل ضرير، فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أو تصبر؟» فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد، وقد شق عليّ. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

«إئت الميضأة، فتوضأ، ثم صلّ ركعتين ثم ادع بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في».

فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل عليه الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط. ^{٧٨٤}

٧٨٤ انظر: الترمذي، الدعوات، ١١٨/٣٥٧٨؛ ابن ماجه، الإقامة، ١٨٩/١٣٨٥؛ النسائي، السنن الكبرى، ٦، ١٦٩؛ أحمد، مسند، ٤، ١٣٨/١٧٢٤١؛ الحاكم، المستدرک، ١، ٧٠٧-٧٠٨؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٥، ٤٦٤؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٢٧٩.





وكمال الأدب أن نقول نحن إذا دعونا بهذا الدعاء: يا رسول الله، بدل يا محمد، لحرمة نداءه ﷺ باسمه، وما ذكر في هذا الحديث مستثنى لتصريحه ﷺ وسلم بالإذن فيه لذلك الرجل.^{٧٨٥}

ويُروى أنه قُحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت: «انظروا قبر النبي ﷺ، فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف»

ففعّلوا، فمُطروا مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي «عام الفتق»^{٧٨٦} وفي الحديث الصحيح يقول رسول الله ﷺ:

«إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بـعيسى، فإنه روح الله، وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامداً أحمد به لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تُشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فأخرج منها مَنْ كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنتلق فأفعل، ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرج له ساجداً...»^{٧٨٧}

٧٨٥ العلامة يوسف بن إسحاق النبهاني، الفضائل المحمدية، حلب ١٤١٤، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

٧٨٦ الدارمي، المقدمة، ٩٣/١٥.

٧٨٧ البخاري، الأنبياء ٣، ٩، التفسير، ١٧/٥، التوحيد ٣٦/٧٥١٠؛ مسلم، الإيمان ٣٠٢، ٣٢٧،

٣٢٨/١٩٤؛ الترمذي، القيامة، ١٠/٢٤٣٤.





وقد استعمل رسول الله ﷺ كلمة «الاستغاثة» في الحديث الذي قال فيه:
«إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فينا هم كذلك
استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ»^{٧٨٨}



ومن المعلوم في آداب الدعاء وقواعده المرعية أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى والصلاة على رسوله الكريم ﷺ، ثم يختم أيضاً دعاءه بالحمد والصلاة، فهو متيقن أن هذه الصلاة على النبي ﷺ مقبولة؛ لذا فهو يحف كلماته ودعاءه بوسيلة وتوسل لقبول الدعاء.

فعن فضالة بن عبيد، قال: بينما رسول الله ﷺ قاعد إذ دخل رجل فصلى، فقال: اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ:
«عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، وصل عليّ
ثم ادعه»^{٧٨٩}

التوسل بالأنبياء

يقول الله ﷻ في القرآن الكريم عن فضيلة «التابوت»:
﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^{٧٩٠}
لقد كان هذا التابوت لدى بني إسرائيل، وكانوا يطلبون العون بذلك، أي يتوسلون إلى الله تعالى بما في داخله، وبناءً على ما نقله المفسرون وكتاب التاريخ مثل الطبري، والقرطبي، وابن كثير، والسيوطي، كان فيه أشياء من آثار موسى

^{٧٨٨} البخاري، الزكاة، ٥٢ / ١٤٧٥.

^{٧٨٩} الترمذي، الدعوات، ٦٤ / ٣٤٧٦.

^{٧٩٠} البقرة: ٢٤٨.





وهارون: «عصا موسى عليه السلام، وقطعة من لباسه، ولباس هارون عليه السلام ونعله، وإناءه، وألواح التوراة».

ويقول ابن كثير: «من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان قد سلب منهم، وقهرهم الأعداء عليه، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه، قيل طشت من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء»^{٧٩١}

التوسل بالملائكة

ثمة الكثير من الروايات حول إمكانية التوسل بالملائكة، فعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال:

«إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة، يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد: أعينوا عباد الله»^{٧٩٢}

ويقول رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«إذا نفرت دابة أحدكم أو بعيره بفلاة من الأرض لا يرى بها أحداً، فليقل: أعينوني عباد الله، فإنه سيُعان»^{٧٩٣}

ويقول الإمام النووي رحمه الله:

«حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم أنه أفلتت له دابة أظنُّها بغلة، وكان يعرف هذا الحديث، فقال، فحبسها الله عليهم في الحال، وكنت أنا مرةً مع جماعة، فانفلتت منهم بهيمةٌ وعجزوا عنها، فقلته، فوقف في الحال بغير سبب سوى هذا الكلام»^{٧٩٤}

٧٩١ ابن كثير، البداية، ٢، ٨.

٧٩٢ ابن أبي شيبه، المصنف، ٦، ٩١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ١٣٢/١٧١٠٤.

٧٩٣ ابن أبي شيبه، المصنف، ٦، ١٠٣/٢٩٨١٩.

٧٩٤ الإمام النووي، الأذكار، ص ٢٠١.





التوسل بالصالحين

من العوامل المهمة التي تستجلب الرحمة الإلهية، وتحقيق قبول الدعاء، توجه العبد إلى ربه كي يستجيب له بحق الأنبياء أولاً، ثم ورثتهم من الأولياء، وعباد الله الصالحين الذين هم في أسمى الدرجات عنده، أي جعل مَنْ يحبهم الله وسيلة، والالتجاء والتضرع إلى المولى ﷺ بهذه المشاعر والأحاسيس، فالعبد لا يتوجه بالدعاء إلا إلى الله ﷻ، لذا يجب على العبد أثناء دعائه أن يطلب الاستجابة من الله تعالى، لا مِمَّنْ يحبهم الله تعالى حين يجعلهم وسيلة في دعائه، فذكر الصالحين هو أصل من الأصول المتبعة، لا شيء إنما ليكونوا فقط سبباً في قبول الدعاء.

وإضافة إلى هذا كله، يجب أن نذكر هنا أن التوسل بالصالحين ذوي الفضائل، هو في الواقع توسل بأعمالهم الصالحة وسجاياهم الحميدة؛ لأن أعمالهم الصالحة هي سبب وصولهم إلى المراتب العالية، واتصافهم بالقيم السامية. حتى إن رسول الله ﷺ قد ابتهل إلى الله طالباً النصر والعون متوسلاً بفقرائه المهاجرين، فقد رُوي أنه قال:

«أبغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»^{٧٩٥}

«إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»^{٧٩٦}

وقد جعل الإمام البخاري في صحيحه باباً سَمَّاه: «باب مَنْ استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب»، ونقل فيه أحاديث شريفة منها:

«هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم»^{٧٩٧}

٧٩٥ أبو داود، الجهاد، ٧٠/٢٥٩٤؛ الترمذي، الجهاد، ١٥/١٧٠٢؛ أحمد، مسند، ١٩٨، ٥/٢١٧٣١.

٧٩٦ النسائي، الجهاد، ٤٣/٣١٧٨.

٧٩٧ البخاري، الجهاد، ٧٦/٢٨٩٦؛ الطبراني، المعجم الكبير، ١، ٢٩٢.





«يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم مَنْ صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم مَنْ صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم مَنْ صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح»^{٧٩٨}

لقد أخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف أَنَّ النصرَ يتحقق، والفتحُ يُكْتَبُ بالصحابة الكرام، والتابعين، وتابعي التابعين. ونرى هنا معجزة واضحة من معجزات نبينا ﷺ، ندرك فضيلة الأجيال الثلاثة الأولى من هذه الأمة، فقد كانت صلتهم بالله أقوى، وسعيهم نحو الآخرة أرشد، وانقطاعهم عن شهوات الدنيا أشد.

ويذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه لولا وجود مَنْ لا يستحق العذاب من المؤمنين الضعفاء لحقَّ على الكفار والفجار عذابٌ شديد من الله المجيد، يقول الله تعالى في ذلك:

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^{٧٩٩}

ومما يعضد هذه الوسيلة، ويعين في قبول الدعاء التوسل بالصالحين الذين لا يفتن إليهم الناس، فهم لا يملكون مالا ولا يحوزون جاهاً؛ إنما غناهم في قلوبهم، وجاههم عند ربهم، وهم بين الناس منكسرة قلوبهم.

٧٩٨ البخاري، الجهاد، ٧٦/٢٨٩٧.

٧٩٩ الفتح: ٢٥.





وينقل لنا مالك بن دينار كلامًا واضحًا معبرًا، حول التوسل بمن لديهم قلوب منكسرة حزينة، والوصول بهم إلى الرضا الإلهي:

«قال موسى عليه السلام: يا رب أين أبغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم»^{٨٠٠}

ومن الحقائق المعروفة أن بركة الصالحين تشمل من حولهم، والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ:

«النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»^{٨٠١}

«ما من أحد من أصحابي يموت بأرضٍ إلا بعث قائدًا ونورًا لهم يوم القيامة»^{٨٠٢}
واستنادًا إلى بيان علماء التحقيق، نجد أن بعضًا من بركات أولياء الله تنتقل إلى الناس طوعًا، وكذلك تنتقل بعض هذه البركات إلى غيرهم دون إرادتهم، وتنتقل بالصورة ذاتها بعض أحوال الصالحين إلى طلاب الحق ببركة وجودهم بجانب الصالحين، والأحاديث الشريفة التي ذكرناها تثبت وجود هذه البركة.^{٨٠٣}



وعن أنس بن مالك، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال:

«اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»
قال: فيُسَقَوْنَ.^{٨٠٤}

٨٠٠ أبو نعيم، الحلية، ٢، ٣٦٤.

٨٠١ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٧/٢٥٣١.

٨٠٢ الترمذي، المناقب، ٥٨/٣٨٦٥.

٨٠٣ الشيخ أشرف علي تانوي، حقيقة الطريقة، ص ١٦١-١٦٢، حديث رقم: ١٧٩.

٨٠٤ البخاري، الاستسقاء، ٣/١٠١٠.





فخطب عمرُ رضي الله عنه الناس، فقال:

«أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظمه، ويفخمه، ويبر قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله ﷻ فيما نزل بكم»^{٨٠٥}

إن هذه الحادثة أوضح دليل يُظهر توسل صحابي بآخر، لكن هذا الحال أثار نقاشاً وجدلاً، إذ رأى بعضهم أن التوسل ممكن بالصالحين الأحياء فقط، ولا يجوز التوسل بهم بعد وفاتهم، لكن لا دليل يُثبت قولهم هذا، فالروح باقية، تحس وتدرك وتشعر، والميت بحسب اعتقاد أهل السنة يسمع، ويحس، ويشعر؛ ويستفيد من أفعال الخير ويُسر بها، ويتأذى من أفعال الشر ويحزن بسببها، فإذا كان هذا الأمر يشمل الناس كلهم، فكيف سيكون الحال إذاً مع النبي ﷺ أفضل البشر وأعلاهم درجة؟

لهذا السبب يعد تخصيص التوسل بالرسول ﷺ في حياته فقط وجهة نظر لا تؤيدها الحقائق الشرعية، فقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه يلتجئ إلى الله داعياً:

«يا رب، توسلنا إليك بنبينا»

ولم يكن ذلك قبل وفاة النبي ﷺ فقط، بل حتى بعد وفاته. وكان السبب الذي دعاهم إلى التوسل بسيدنا العباس رضي الله عنه - لا بغيره - أنه عم النبي ﷺ، أي إن التوسل به كان لقربته من أشرف الخلق ﷺ، وهذا يعني توسل برسول الله ﷺ حتى بعد وفاته. نعم، لقد توفي رسول الله ﷺ لكن فضيلته عند ربه ومقامه وموقعه وقيمته لا تموت، بل باقية إلى الأبد، لذا يُعدُّ توسُّلنا بنبينا ﷺ إظهاراً لإيماننا بحمّة الله العظيمة لنبيه وقيمته لديه، ويفيد ذلك أيضاً إيماننا به وبرسالته ﷺ، وهذا لا يعني البتة عبادته، فمهما كانت درجته سامية، ومرتبته عالية، فهو في النهاية إنسان خلقه رب الأكوان.





ويمكن بالمثل التوسل بعباد الله الذين يحبهم الله تعالى بعد وفاتهم، وأوضح مثال على هذا المثال التالي: فقد كان العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة وهو من كبار السلف الصالح، ويتوسلون عنده في قضاء حوائجهم، ويرون نجاح ذلك، منهم الإمام الشافعي رحمه الله لما كان ببغداد فقد روي عنه أنه قال:

«إني لأتبرك بأبي حنيفة، وآتي قبره، فإذا عَرَضْتُ لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره، وسألت الله عنده، فُتِّقْضِي سَرِيعًا»^{٨٠٦}

التوسل بالأعمال الصالحة

الأعمال الصالحة وسيلة للتخلص من المشكلات والأزمات، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال:

«بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها. فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صببة صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي، وإنه ناء بي الشجر، فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقامت عند رءوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصببة قبلهما، والصببة يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء. ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء. وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمائة





دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجلها قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم، فقامت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أنني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها. ففرج لهم فرجة. وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرا وراعيها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي، فقلت: اذهب إلى ذلك البقر وراعيها، فقال: اتق الله ولا تهزأ بي، فقلت: إني لا أهزأ بك، فخذ ذلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق بها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج ما بقي. ففرج الله عنهم»^{٨٠٧}

فجعل أحدهم طاعة والديه وسيلة، فتحركت الصخرة قليلاً من مكانها، دون أن يستطيعوا الخروج، وتوسل الثاني بالحياء والعفة، فتحركت الصخرة دون أن يستطيعوا الخروج، وتوسل الثالث بمراعاة حقوق العباد، فتحركت الصخرة من مكانها وخرجوا من الغار.

التوسل بأسماء الله الحسنى

من الوسائل الأخرى التي تجعل الدعاء مقبولاً ومستجاباً أسماء الله الحسنى، فذكرُ أسماء الله كثيراً أثناء الدعاء والالتجاء يعد من طرق التوسل التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها.

يقول المولى ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾^{٨٠٨}

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

٨٠٧ البخاري، الأدب ٥/٥٩٧٤، أحاديث الأنبياء ٥٣/٣٤٦٥..





«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ الْأَحَبِّ إِلَيْكَ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أُجِبْتَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا اسْتَرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ، وَإِذَا اسْتَفْرَجْتَ بِهِ فَرَّجْتَ».

قالت: وقال ذات يوم:

«يا عائشة هل علمت أن الله قد دلني على الاسم الذي إذا دعيت به أجاب؟»
قالت: فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي فعلمني، قال:
«إنه لا ينبغي لك يا عائشة»

قالت: فتنحيت وجلست ساعة، ثم قمت فقبلت رأسه، ثم قلت: يا رسول الله، علمنيه، قال:

«إنه لا ينبغي لك يا عائشة أن أعلمك، إنه لا ينبغي لك أن تسألني به شيئاً من الدنيا»

قالت: فقامت فتوضأت، ثم صليت ركعتين، ثم قلت: اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهُ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحَسَنَى كُلِّهَا، مَا عَلِمْتَ مِنْهَا، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، قالت: فاستضحك رسول الله ﷺ، ثم قال:

«إنه لفي الأسماء التي دعوت بها»^{٨٠٩}

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنْ لَكَ الْحَمْدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَانُ، بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فقال:

«لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجِبَ»^{٨١٠}

٨٠٩ ابن ماجه، الدعاء، ٣٨٥٩/٩.

٨١٠ ابن ماجه، الدعاء، ٣٨٥٧/٩؛ أبو داود، الوتر، ١٤٩٣؛ النسائي، السنن الكبرى، الطهارة، ١١٦٥٢/٥٨.





ونفهم من هذين الحديثين والأحاديث الشريفة الأخرى أن التوسل بأسماء الله الحسنى من سنة رسول الله ﷺ ومن توجيهاته الشريفة.



ويرى بعض العلماء أنه لا فرق في المعنى بين الاصطلاحات الصوفية التالية: «التوسل» و«الاستعانة» و«الاستغاثة» و«التشفع» و«التوجه» و«التبرك» إن هذه الألفاظ التي هي بمعنى طلب العون، تعني طلب المدد من أولياء الله تعالى الذين لديهم قدرة على التصرف، سواء أكان ذلك في غيابهم أم في حضورهم، و«طلب المدد» يعني الطلب من الصالحين الذين هم -بلا ريب- في الدرجات العليا أن يكونوا وسيلة في الوصول إلى المقصود، ويتحقق ذلك بدعائهم، وتوجههم، واهتمامهم القريب.

وتستخدم كلمة «المدد» غالباً للدلالة على عون أولياء الله، وتستخدم كلمتا «النصرة» و«التوفيق» للعون من الله تعالى.

فالمعين الأساسي هو الله ﷻ لا سواه، والتوسل أثناء الدعاء لا يعني أبداً طلب العون من غيره ﷻ؛ لأن الذي يتوجه إليه العبد أثناء الدعاء هو الله رب الأرض والسماء.

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿... وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^{٨١١}
 ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^{٨١٢}

وعن ابن عباس ؓ، قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً، فقال:

٨١١ الأنفال: ١٠.

٨١٢ آل عمران: ١٦٠.





«يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجُفت الصحف»^{٨١٣، ٨١٤}

وهذه الحقيقة من الحقائق التي يقر بها المؤمنون جميعاً، ففي كل ركعة من ركعات الصلاة يتلون قوله تعالى في سورة الفاتحة: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وهذا إقرار منهم بهذه الحقيقة. وبعد العون الإلهي الذي نزل على المؤمنين في غزوة بدر نزلت الآية الكريمة التي يقول فيها الله ﷻ: ﴿...وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...﴾^{٨١٥}

أي إن الفاعل الحقيقي والمطلق الذي قدّم كل نوع من أنواع العون المعنوي والألطف، هو الله ﷻ لا سواه.

٨١٣ الترمذي، القيامة، ٥٩/ ٢٥١٦.

٨١٤ لا يشير هذا الحديث الشريف كما هو واضح من ظاهره أنه لا يُطلب العون إلا من الله تعالى، ونفهم من الحديث -لدى النظر إليه من منظور شامل- أنه يأمرنا ألا ننسى أن الخير الذي يأتي إلينا عبر بعض الأسباب والوسائط هو في الواقع من الله ﷻ. ويطلب رسول الله ﷺ بكلامه هذا أن ندرك أن النعم التي تأتينا على يد المخلوقات هي في حقيقة الأمر نعمٌ أنعمها الله ﷻ علينا، ونجبرنا بضرورة التوكل على الله وحده. وبالطبع من اللازم -إلى جانب هذا- التوسل بالأسباب، وطلب العون من الأشخاص الضروريين. (انظر: البقرة، ٤٥؛ الأنفال، ٦٠؛ الكهف: ٩٥...)

وقد تشفّع لنا نبينا ﷺ في المعراج بعد نصيح سيدنا موسى عليه السلام، فكان نبينا وسيلة لتخفيف الصلوات عنا من خمسين صلاة إلى خمس صلوات فقط. ويجدّرنا الحديث الشريف أيضاً من الطمع وطلب أشياء من الناس لا حاجة لنا فيها، ويحثنا على القناعة بما أعطاه الله تعالى حتى لو كان قليلاً، ونتعلم من هذا الحديث أيضاً ضرورة الطلب بإصرار، من فضل الله المتان، فهو يُسرّ حين يرى عبده يطلب منه بإصرار وإلحاح، ولكن الإنسان بطبعه ملول.

٨١٥ الأنفال: ١٧.





تلك الأدعية التي تؤمّل في ذات الله تعالى وعونه؛ تبرّكاً بالعون المعنوي من أولياء الله، وبركات الفيض الروحاني من الصالحين، لا تقصد أي نوع من الشرك أو الكفر أو طلب الفعل من الأولياء؛ بل طلب دعم الدعاء لدى الفاعل الأول والأوحد ﷻ.

وليست أدعية أولئك الجُهّال الذين يطلبون من أصحاب القبور بصراحة أن يقضوا لهم حوائجهم، فيفتحون على أنفسهم وعلى سامعيهم باباً من الشرك، فهي تقدح في جوهر العقيدة، وتخدش أصل التوحيد؛ ربما مرجع أكثرها إلى أخطاء في الفهم، وأخطاء في التصرف، وجهل بأصول التوحيد والعقيدة، ويجب مواجهة هؤلاء بالتعليم والتفهيم، ويجب أيضاً ألا نتخذهم منظاراً نرى التوسل من خلاله، وألا نجعلهم علة لنقدح في التصوف وأهله.^{٨١٦}

٨١٦ إن الذين قالوا بإمكانية استعمال مثل هذه الألفاظ يزعمون أنها نوع من «المجاز العقلي» الموجود في علم البلاغة. والمجاز العقلي هو عدم إسناد الفعل إلى المؤثر والفاعل الحقيقي، بل إلى شيء له علاقة بمكان الفاعل أو زمانه أو سببه. ومثال على هذا الفن الأدبي قوله تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) فنحن نعلم أن الذي يخرج أثقال الأرض هو الله تعالى، ولكن لم يُسند الفعل هنا إلى الفاعل الحقيقي، بل إلى مكان الفعل، ومع ذلك يبقى الفعل من أمر الله تعالى. ويقول الصوفية إنهم يعلمون أن الفاعل الحقيقي ليس الشخص الذي يتوسلون به، ويؤمنون أن الذي يقدّم العون في الحقيقة هو الله تعالى، وإليه يتوجهون بالطلب. (وهم يقبلون أنه إن لم يكن الأمر هكذا، فهو شرك صريح). ويقول الإمام محمد أبو زهرة في ذلك: «نعم تفرط من العامة عبارات كال توسل بجاهه، أو الاستشفاع بشفاعته، وهي عبارات لا وثينة فيها، بل تؤوّل بأقرب تأويلاته؛ ويُفهم الجاهلون، ولا تمتنع تلك الذكريات العطرة لأجل عبارات من العوام يحسن إرشادهم، لا منعه من الزيارة، وتفهمهم لا تكفيرهم، وإن الله سبحانه قد صان التوحيد إلى يوم القيامة؛ وقد ذكر ذلك سيدنا محمد ﷺ في آخر حياته، وبشّر به المؤمنين؛ وهو أن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرض العرب، فليس لابن تيمية أن يخاف على التوحيد من بعد». (أبو زهرة، ابن تيمية، ص ٣٢٦)

إن النداء بقول «مدد يا رسول الله» الذي يتكرر كثيراً في أدبيات الدين مع وسائل مختلفة يعني اللجوء إليه بأمل نيل شفاعته في الآخرة، ونظرة بعض الناس إلى هذا القول أنه شرك هي نظرة لا أساس لها، لأنه من المسلّمات لدى كل مؤمن أن تحقق شفاعته النبي ﷺ يكون بأمر من الله تعالى وإذن منه.





إن احترام آثار رسول الله ﷺ نابع من عشقه ومحبته
وارتباط القلب به.



ب. التبرُّك

وهو التماس البركة وطلبها من مصدرها، ونيل فيوضاتها عبر أهلها.
والتبرُّك هو واحد من صور التوسل؛ لأنه وسيلة للوصول إلى الله تعالى،
ومفتاح من مفاتيح الأبواب الموصلة إليه سبحانه.
ويكون التبرُّك بالأشخاص وبالأعيان وبالمكان؛ أي: يمكن للإنسان أن
يتبرَّك بشخصٍ ما، أو بمكانٍ ما، أو بشيءٍ ما من الأدوات والجمادات.
أما تبرُّكك بالأشخاص، فذلك لأنك تعلم أن هذا الشخص مبارك وقريب من
الله تعالى، ومرآة لفضله وفيوضاته، وموئل لبركاته، ومرشد لعباده، وقبلة لطلاب
الحاجات والبركات، وهذا الشخص المبارك والمُتبرِّك به هو مجرد سبب لقضاء
الله وصورة لقدره سبحانه.

وأما التبرُّك بالأشياء والأعيان والجمادات فليس ذلك راجعاً إلى أصل هذه
الأشياء؛ إنما هو راجع إلى نسبة هذه الجمادات إلى أصحابها من أهل البركة
والتقوى والروحانية، فعباة الشيخ ومسبحته مثلاً ليست مصدراً للبركة؛ بل هي
بقية من أثر بركة هذا الشيخ وتقواه وروحانيته، التي انتقل أثرها وأريجها وعبيرها
ونورها وإشعاعها النوراني من صاحبها إلى ما حوله من أشخاص وجمادات.

كذلك تبرُّكك بالأماكن التي شهدت فيوضات روحانية، وبالمناطق التي
تنزلت فيها البركات والخيرات، والبقاع التي تشرفت بحياة أولي الفضل والصلاح،





وشهدت حياتهم وعبادتهم، ولقوا فيها من خيرات ربهم ونزول ملائكته وبركاته عليهم، مثلما فعل سيدنا زكريا عليه السلام عندما دعا ربه في الموطن الذي تتعبد فيه مريم عليها السلام ونزل فيه رزق ربها عليها.

أما أماكن المعاصي والفجور، فعلى الإنسان أن يبتعد عنها دائماً، فحين مرّ رسول الله ﷺ بالحجر -موضع هلاك قوم ثمود- أثناء غزوة تبوك، قال لأصحابه:

«لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»^{٨١٧}

وعن نافع، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود -الحجر- فاستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ:

«أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»^{٨١٨}

قال الإمام النووي: وفي هذا الحديث فوائد منها مجانبة آبار الظالمين، والتبرك بآبار الصالحين.^{٨١٩}

وفي حجة الوداع وأثناء مروره ﷺ بين منى ومزدلفة أسرع في وادي محسر، ففي هذا المكان قهر الله ﷻ أصحاب الفيل، وأهلكهم مع قائدهم أبرهة، فاستعاذ رسول الله ﷺ أن يصيب المسلمين ما أصابهم،^{٨٢٠} ولهذا السبب لا تجوز الوقفة في هذا الوادي في الحج.

٨١٧ البخاري، الصلاة ٥٣٤٣٣، الأنبياء ١٧، التفسير، ٢/١٥؛ مسلم، الزهد ٣٨-٣٩ / ٢٩٨٠.

٨١٨ البخاري، أحاديث الأنبياء، ١٧/٣٣٧٩؛ مسلم، الزهد، ٤٠ / ٢٩٨١.

٨١٩ شرح صحيح مسلم، ٨، ١١٨.

٨٢٠ انظر: مسلم، الحج، ١٤٧؛ النووي، شرح صحيح مسلم، ٨، ١٩٠؛ أحمد، مسند، ١، ٧٦؛ علي

القاري، مرقاة المفاتيح، ٥، ١٧٧٤-١٧٧٥؛ ابن القيم، زاد المعاد، بيروت ١٩٩٥، ٢، ٢٢٥-٢٥٦.





التبرك بالصالحين

عن عائشة رضي الله عنها:

«أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهنّ، وأمسح بيد نفسه لبركتها»^{٨٢١}

وعن حذيفة رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ إذا لقي الرجل من أصحابه ماسحه ودعا له، قال: فرأيتُه يومًا بكرة فحدثُ عنه، ثم أتيتُه حين ارتفع النهار، فقال:

«إني رأيْتُك فحدثَ عني».

فقلت: إني كنتُ جُبْنًا فخشيتُ أن تمسني، فقال رسول الله ﷺ:

«إن المسلم لا ينجس»^{٨٢٢}

وعن أنس رضي الله عنه قال:

أنَّ أم سليم كانت تبسط للنبي ﷺ نطعًا، فيقيل عندها على ذلك النطع، قال: فإذا نام النبي ﷺ أخذت من عرقه وشعره، فجمعتُه في قارورة، ثم جمعتُه في سك، قال: فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة أوصى إلي أن يجعل في حنوطه من ذلك السك، قال: فجعل في حنوطه.^{٨٢٣}

وعنه أيضًا، قال:

كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها، وليست فيه، قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها، فأتيت فقبل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك، على فراشك، قال فجاءت وقد عرق، واستنقع عرقه على قطعة أديم، على الفراش، ففتحت

٨٢١ البخاري، الطب، ٣٢/٥٧٣٢.

٨٢٢ النسائي، الطهارة، ١٧٢/٢٦٧. قارن: البخاري، الغسل، ٢٣؛ الترمذي، الطهارة، ٨٩/١٢١.

٨٢٣ البخاري، الاستئذان، ١٤/٦٢٨١.





عتيدتها فجعلت تشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها، ففزع النبي ﷺ فقال: «ما تصنعين؟ يا أم سليم» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: «أصبِتِ»^{٨٢٤}
وعن جابر بن عبد الله ﷺ، قال:

«مرضت مرضاً، فأتاني النبي ﷺ يعودني، وأبو بكر ﷺ، وهما ماشيان، فوجداني أغمي علي، فتوضأ النبي ﷺ ثم صب وضوءه علي، فأفقت. فإذا النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع في مالي، كيف أقضي في مالي؟ فلم يجبني بشيء، حتى نزلت آية الميراث:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...﴾^{٨٢٥} ٨٢٦

عن عائشة ﷺ: «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين»^{٨٢٧}

وعن طلق بن علي ﷺ قال:

خرجنا وفداً إلى النبي ﷺ فبايعناه، وصلينا معه وأخبرناه أن بأرضنا بيعة لنا، فاستوهبناه من فضل طهوره فدعا بماء فتوضأ وتمضمض، ثم صبه في إداوة وأمرنا فقال:

«اخرجوا فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بيعتكم، وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوها مسجداً»

قلنا: إن البلد بعيد، والحر شديد، والماء ينشف، فقال:

«مدوه من الماء؛ فإنه لا يزيده إلا طيباً»

٨٢٤ مسلم، الفضائل، ٨٤ / ٢٣٣١.

٨٢٥ النساء: ١٧٦.

٨٢٦ البخاري، المرضى، ١٨ / ٥٦٥١؛ مسلم، الفرائض، ٥-٨ / ١٦١٦. لقراءة حديث آخر لصحابي تبرك تبركاً مشابهاً، وشُفي من مرضه انظر: البخاري، الوضوء، ٣٩، ولحديث آخر يأم فيه النبي ﷺ صحابياً بالتبرك بماء الوضوء لصحابي آخر فشافاه الله، انظر: مسلم، السلام، ٤٢؛ الموطأ، العين، ١، ٢.

٨٢٧ أبو داود، الطب، ١٥ / ٣٨٨٠.





فخرجنا حتى قدمنا بلدنا فكسرنا بيعتنا، ثم نضحنا مكانها، واتخذناها مسجداً، فناديناه فيه بالأذان، قال: والراهب رجل من طيء، فلما سمع الأذان قال: دعوة حق، ثم استقبل تلعة من تلاعنا فلم نره بعد.^{٨٢٨}

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه، قال:

خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة إلى البطحاء، فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين، والعصر ركعتين، وبين يديه عنزة. كان يمر من ورائها المرأة، وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم، قال فأخذت بيده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك.^{٨٢٩}

ويوضح لنا أنس بن مالك رضي الله عنه في رواياته عن حج الرسول ﷺ، تنافس الصحابة فيما بينهم للتبرك بشعر رسول الله ﷺ، فيقول:

لما رمى رسول الله ﷺ الجمرة، ونحر نسكه وحلق، ناول الحالق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: «احلق» فحلقه، فأعطاه أبا طلحة، فقال: «اقسمه بين الناس»^{٨٣٠}

ويقول أنس رضي الله عنه أيضاً:

«رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل»^{٨٣١}

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قد وزع الشعرة والشعرتين بين الناس.^{٨٣٢} وكان الناس يتنافسون للحصول على شعره المبارك ﷺ.^{٨٣٣}

٨٢٨ النسائي، المساجد، ١١/٧٨٢؛ أحمد، مسند، ٤، ٢٣.

٨٢٩ البخاري، المناقب، ٢٣/٣٥٥٣؛ أحمد، مسند، ٤، ٣٠٩.

٨٣٠ مسلم، الحج، ٣٢٦/١٣٠٥؛ الترمذي، الحج، ٧٣/٩١٢.

٨٣١ مسلم، الفضائل، ٧٥/٢٣٢٥.

٨٣٢ مسلم، الحج، ٣٢/١٣٠٥.

٨٣٣ أحمد، مسند، ٣، ٢٥٦.





وحين حُذِّث عبيدة السلماني وهو من كبار التابعين بهذا الحديث قال:
«لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء أصبحت على
وجه الأرض وفي بطنها»^{٨٣٤}

لقد كان الصحابة الكرام لا يتبركون بأشياء الرسول ﷺ فقط، بل بخصلات
شعره ولحيته المباركة أيضاً، وكانوا لا ينسون التبرك حتى أثناء القتال، وخير مثال
على ذلك احتفاظ خالد بن الوليد رضي الله عنه ببعض من خصلات شعر رسول الله ﷺ في
قلنسوته، وتشير الروايات إلى أن خالدًا رضي الله عنه قال للنبي أثناء حلقه ناصيته:

«يا رسول الله، ناصيتك! لا تؤثر بها عليَّ أحدًا، فذاك أبي وأمي!»^{٨٣٥}
وحين أُعطي ما طلب، كان يضعها على عينيه وفيه، فلا يلتقي جمعاً إلا فضَّه،
وكان يقول:

«فاتخذت قلنسوة، فجعلتها في مقدم القلنسوة، فما وجهته في وجه إلا وفتح
له»^{٨٣٦}

٨٣٤ أحمد، مسند، ٣، ٢٥٦.

٨٣٥ يقول سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: «كنت أنظر إلى خالد بن الوليد وما نلقى منه في أحد، وفي الخندق، وفي
الحديبية، وفي كل موطن لا قانا، ثم نظرت إليه يوم النحر يقدم إلى رسول الله ﷺ بدنة، وهي تعتب في
العقل». (الواقدي، ج٣، ١١٠٨-١١٠٩)

٨٣٦ انظر: الواقدي، المغازي، ٣، ١١٠٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١١١

يروى لنا السيد حكمت أطان مثلاً حياً حول موضوع التبرك بشعر رسول الله ﷺ ولحيته قائلاً:
«في عام ١٩٨٣ سمعت علي يوجل أفندي يحكي هذه الحادثة: كنت إماماً في المسجد الجامع بصولو
أوفا، وفي يوم من الأيام جاء إليَّ إمام من قرية مجاورة وقال: سأخبرك بحادثة لم أجد لها أي معنى،
ثم بدأ بالشرح: «في يوم من الأيام أتاني بعض الأشخاص من قرية مجاورة للقرية التي كنت إماماً
فيها، ومعهم مجموعة من الكتب، وقالوا لي: يا شيخنا، لقد توفى والدنا، وبقيت كتبه لدينا، لكننا
لا نستطيع قراءة هذه الكتب، وأنت أستاذ يمكنك الاستفادة منها، فهي هديتنا لك. فأخذت
الكتب، وبعد أن ودعيتهم، جلست بالقرب من المدفأة التي كانت تلتهم بنيرانها، وبدأت اتصفح
الكتب. فوجدت داخلها مكتوبات وظروف تعود للأب المتوفى. فجمعت هذه المكتوبات ورميتها





وعن جعفر بن عبد الله بن الحكم:

«أن خالد بن الوليد فقد قلنسوة له يوم اليرموك، فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، فقال: اطلبوها، فوجدوها فإذا هي قلنسوة خَلَقَ، فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ فخلق رأسه، فابتدر الناس جوانب شعره فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا رزقت النصر»^{٨٣٧}

إن هذه الحوادث التي جرت أمام أعين الصحابة ما هي إلا دليل على انتقال الروحانية والأحاسيس، ودخولها حتى في الأشياء المادية، وبيت القصيد هنا أن يكون المرء صاحب قلب واعٍ يتلقى الفيوضات المنعكسة من الأشياء المباركة شريطة ألا تتجاوز الحد.

وقد استمر السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين بعد الصحابة بتطبيق مثل هذه الأمور التي لها علاقة بالتبرك، ولنا أن نذكر هنا بعضاً من الحوادث أمثلةً على هذا الموضوع:

عن ابن سيرين، قال: قلت لعبيدة:

«عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس» فقال: «لأن تكون عندي شعرة منه، أحب إلي من الدنيا وما فيها»^{٨٣٨}

داخل المدفأة لأنها كانت خاصة به. كانت النار مشتعلة في المدفأة، ولكن ما إن أُلقيت المكتوبات، حتى خمدت. فأصبت بالدهشة لما حصل، وخرجت من البيت خائفاً. وبعد مدة ليست بالقصيرة، استطعت الدخول إلى البيت بخوف.

يقول علي أفندي: فقلت للإمام: «توجد لحية الرسول في تلك الظروف». وبعد مدة صادفت ذلك الإمام فقال لي: «يا شيخي، كيف عرفت أن لحية الرسول في تلك الظروف؟» لقد جاء الذين أهدوني هذه الكتب لاحقاً وقالوا: «لم نكن نعلم يا شيخي أن لحية الرسول ﷺ موجودة في الظروف بين تلك الكتب، فهلا تعطينا إياها؟» وقصصت لهم هذه القصة المدهشة.

^{٨٣٧} الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٣٤٩؛ العيني، عمدة القاري، ٨، ٢٣٠-٢٣١.

^{٨٣٨} البخاري، الوضوء، ٣٣.





وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل:

«رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها على فيه يقبلها. وأحسب أنني رأيته يضعها على عينه، ويغمسها في الماء ويشربه يستشفى به. ورأيته أخذ قصعة النبي ﷺ فغسلها في حب الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفى به، ويمسح به يديه ووجهه».^{٨٣٩}

وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه قال:

رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل، فقال: ما رأيت كالיום ولا جلد مخبأة، فلبط سهل، فأتي رسول الله ﷺ، فقليل: يا رسول الله، هل لك في سهل بن حنيف؟ والله ما يرفع رأسه، فقال: «هل تتهمون له أحدًا؟» قالوا: نتهم عامر بن ربيعة، قال: فدعا رسول الله ﷺ عامرًا فتغيظ عليه، وقال:

«علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت اغتسل له»

فغسل عامر وجهه ويديه، ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه وداخله إزاره في قدح، ثم صب عليه، فراح سهل مع الناس ليس به بأس.^{٨٤٠} ويتعرض المرء إلى العين أي الحسد كثيرًا، لذا يلزم عليه التعوذ بالله تعالى دائمًا، وقراءة بعض السور مثل الفاتحة، والفلق، والناس، وآية الكرسي وغيرها، ويجب عليه أن يدعو الله كثيرًا.

فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس».

قال البزار: يعني بالعين.^{٨٤١}

٨٣٩ الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت ١٩٨٦-١٩٨٨، ١١، ٢١٢.

٨٤٠ موطأ، العين، ٢؛ قارن: مسلم، السلام، ٤٢؛ أبو داود، الطب، ١٥ / ٣٨٨٠.

٨٤١ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٥، ١٠٦ / ٨٤٢٣.





التبرك بفضلة الطعام

إن أكل وشرب فضلة طعام الأولياء يعد وسيلة من وسائل ترقى الروح، وليس هذا الأمر بدعة أو لا يستند إلى دليل كما يظن بعضهم، فثمة الكثير من الأمثلة على ذلك من حياة النبي ﷺ في كتب الحديث والسيرة.

فقد وجد الصحابة البركة في بقايا الطعام المبارك للنبي ﷺ في أماكن وأزمنة مختلفة، لاسيما في غزوة الحديبية.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال:

عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركة فتوضأ، فجهش الناس نحوه، فقال: «ما لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، ولما سُئل جابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة. ^{٨٤٢}

ولا ريب أن هذا الماء الذي نبع من بين يدي رسول الله ﷺ أفضل من ماء زمزم وأكثر شفاءً؛ لأنه نبع من بين يده النورانية وبدنه الشريف المبارك.

وثمة أحاديث شريفة توضح أنه لما كان رسول الله ﷺ يشرب اللبن، كان يعطي بقية اللبن إلى أصحابه، فتنتقل الفيوضات إلى الشارب، وتحل البركة على اللبن، فلا ينقص شيء.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: والله يا رسول الله، لا أؤثر بنصيبك منك أحداً، قال: فتلّه رسول الله ﷺ في يده. ^{٨٤٣}

٨٤٢ البخاري، المناقب، ٢٥ / ٣٥٧٦، المغازي، ٢٣ / ٤١٥٢.

٨٤٣ البخاري، الأشربة، ١٩ / ٥٦٢٠.





وعن أسماء بنت أبي بكر: رضي الله عنها

أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكة، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ، فأُتيت المدينة فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أُتيت به رسول الله ﷺ فوضعت في حجره، ثم دعا بتمر فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بالتمر، ثم دعا له فبرك عليه. ^{٨٤٤}

وعن أنس رضي الله عنه قال:

لما ولدت أم سليم، قالت لي: يا أنس، انظر هذا الغلام، فلا يصيبن شيئاً حتى تغدو به إلى النبي ﷺ يحنكه، ^{٨٤٥} فغدوت به. ^{٨٤٦}

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن النبي عليه الصلاة والسلام نزل عليه، فكان يصنع للنبي عليه الصلاة والسلام طعاماً، فإذا جيء به إليه، سأل عن موضع أصابعه، فيتبع موضع أصابعه. ^{٨٤٧}

وعن جابر رضي الله عنه، قال:

كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدّية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدّية عرضت في الخندق، فقال:

«أنا نازل»

ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبشنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقاً، فأخذ النبي عليه الصلاة والسلام المعول فضرب، فعاد كشيئاً أهيل، أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي عليه الصلاة والسلام شيئاً

٨٤٤ البخاري، العقيقة، ١/٥٤٦٩، مناقب الأنصار، ٤٢/٣٩٠٩؛ مسلم، الأدب، ٢٥-٢٦/٢١٤٦.

٨٤٥ التحنيك: هو وضع شيء حلو مثل التمر أو العسل في حَنَك الوليد قبل أن يتذوق حليب أمه.

٨٤٦ البخاري، اللباس ٢٢/٥٨٢٤، العقيقة ١؛ مسلم، اللباس، ١٠٩/٢١١٩.

٨٤٧ انظر: مسلم، الأشربة، ١٧٠-١٧١/٢٠٥٣.





ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي عليه الصلاة والسلام والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال:

«كم هو» فذكرت له، قال: «كثير طيب»، قال:

«قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي»، فقال: «قوموا»

فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك، جاء النبي عليه الصلاة والسلام بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال:

«ادخلوا ولا تضاعطوا»

فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال:

«كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة»^{٨٤٨}

وحين نزل النبي ﷺ بأصحابه بالجعرانة بين مكة والمدينة، أثناء عودتهم من غزوة الطائف، دعا بقدر فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه ومجّ فيه، ثم قال لأبي موسى الأشعري وبلال ؓ:

«اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا»

فأخذا القدر ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر: أن أفضلا لأكما، فأفضلا لها منه طائفة.^{٨٤٩}

٨٤٨ البخاري، المغازي، ٢٩ / ٤١٠١؛ مسلم، الأشربة، ١٤١ / ٢٠٣٩.

٨٤٩ البخاري، المغازي، ٥٦ / ٤٣٢٨؛ مسلم، الفضائل، ١٦٤ / ٢٤٩٧.





التبرك بالأشياء

من الحقائق المعروفة أن الشيء الذي يُذكر المرء بمحبوبه يقوّي الرابطة معه عبر التأثير به، وهذه سمة تقتضيها الفطرة الإنسانية، لكن قد تزداد هذه المشاعر لتصل إلى درجة العبادة، وهذا ما نراه في حقائق التاريخ.^{٨٥٠}

وإذا نظرنا من منظور آخر نجد أنه من الميول البشرية الطبيعية أن يحبّ الإنسان الأشياء التي تذكره بحبيبه، والمهم هنا هو عدم تجاوز الحد في هذه المحبة، ولا ريب أن المفاهيم المجردة تعكس أحوالاً وهيئات على الأشياء المادية المشخّصة، وخير مثال على هذا ما ورد في القرآن الكريم:

فحين أخرج قميص يوسف عليه السلام من مصر ليؤخّذ إلى أبيه يعقوب عليه السلام، وجد يعقوب عليه السلام ريح ابنه مع أنه كان في بلاد الكنعانيين، وحين مسح عينيه بالقميص، عاد إليه بصره.^{٨٥١}

وهذا التأثير الذي يتحقق بالأشياء هو من الوسائل التي يستخدمها المرشد الكامل -إلى حد معين- كي يحفظ السالك في مستوى معين، فلا نشغال مع هذه الانعكاسات يقوّي الرابطة، وهو في الوقت ذاته سنة التهادي.

٨٥٠ إذا نظرنا في تاريخ الأديان نجد ما يسمى بـ«الوثنية»، وعبادة الأشياء التي تركها الصالحون بعد وفاتهم، وما يرافقها من ضلالات بإضافة القداسة عليها، ويعد هذا كله انحرافاً نتج عن تجاوز الميول والأحاسيس البشرية حدودها الطبيعية، فمن العسير فهم المفاهيم المجردة، ولهذا انحرف قسم من الناس عن الصراط المستقيم حين قاموا بتشخيص الخلق بأشياء مادية، فكانت ولادة الوثنية نتيجة هذا الضعف البشري، لكن علينا أن نعرف أن التجليات المعنوية للحقائق المجردة موجودة بالفعل في الأمور المادية، والمنهج الصحيح كي يدرك أصحاب المحاكات السليمة انعكاسات الحقائق المجردة وتجلياتها على الأمور المادية هو عبر الانتقال من الأثر إلى المؤثر. وبهذه الطريقة يُعرف الله جلّ جلاله، والروح، والمفاهيم المجردة الأخرى.

٨٥١ انظر: يوسف، ٩٣-٩٦.





ويروي الزبير بن العوام رضي الله عنه :

أنه كان معه عَنَزَةٌ ^{٨٥٢} يوم بدر، فسأله إياها رسول الله عليه الصلاة والسلام فأعطاه، فلما قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام أخذها، ثم طلبها أبو بكر رضي الله عنه فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سألها إياه عمر فأعطاه إياها، فلما قبض عمر رضي الله عنه أخذها، ثم طلبها عثمان رضي الله عنه منه فأعطاه إياها، فلما قُتل عثمان وقعت عند آل علي فطلبها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فكانت عنده حتى قُتل. ^{٨٥٣}

فما السبب وراء هذا الحرص والاهتمام بهذه الرمح خاصة على كثرة الرماح المشابهة؟

إذا ما دلَّ هذا على شيء، فإنه يدل على وجود قيمةٍ فيها لا توجد في غيرها من الرماح.

ولا بد أن نسأل أنفسنا هنا السؤال التالي كي نعي جيداً: مَنْ هم الذين أظهرُوا اهتماماً كبيراً بهذه الرمح؟

إنهم الخلفاء الراشدون الأربعة، سند الدين، وأئمة الموحدين، وحُماة شريعة رب العالمين، ومن بعدهم الزبير بن العوام وابنه عبد الله رضي الله عنه أجمعين.

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال:

حين نزل رسول الله عليه الصلاة والسلام في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، قال: «اسقنا يا سهل»، فخرجت لهم بهذا القدح فأسقيتهم فيه، ويروي أبو حازم: أخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال: ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. ^{٨٥٤}

٨٥٢ العنزة: هي رمح قصير عريض النصل. (المترجم)

٨٥٣ البخاري، المغازي، ١٢/٣٩٩٨.

٨٥٤ البخاري، الأشربة، ٣٠/٧٣٦٥.





وعن حجاج بن حسان قال:

كنا عند أنس بن مالك رضي الله عنه فدعا بإناء... فأمر فجعل لنا فيه ماء فأتينا به، فشربنا وصيبنا على رؤوسنا ووجوهنا، وصلينا على النبي ﷺ. ٨٥٥. ٨٥٦

وعن سهل بن سعد، قال:

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي الشملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله، أأكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة.

فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فأكسنيها، فقال: «نعم»، فلما قام النبي ﷺ لأمه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها، ثم سألتها إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلي أُكفَّنُ فيها. ٨٥٧

وفي رواية أخرى قال:

إني والله، ما سألته لألبسه، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه. ٨٥٨
وقيل إن الصحابي الذي طلب الشملة هو عبد الرحمن بن عوف وقيل هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. ٨٥٩

٨٥٥ البخاري، الأدب، ٣٩/٦٠٣٦.

٨٥٦ ثمة أمثلة كثيرة عن التبرك بالإناء أو القربة التي كان يشرب بها النبي ﷺ الماء. انظر: البخاري، الأشربة ٣٠، فرض الخمس ٥؛ مسلم، الأشربة ٨٩؛ الترمذي، الأشربة ١٨/١٨٩٢؛ ابن ماجه، الأشربة ٢١؛ أحمد، مسند، ٣، ١١٩، ١٨٧، ٢٤٧، ٦؛ ٣٧٦؛ ابن حجر، فتح الباري، ١٠، ١٠٠.

٨٥٧ البخاري، الأشربة، ٣٠/٧٣٦٥.

٨٥٨ البخاري، الجنائز، ٢٩/١٢٧٧؛ الطبراني، القبر، ٦، ١٣٣/٥٧٥١.

٨٥٩ انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣، ١٤٣-١٤٤.





وأخرجت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه جبة يومًا، وقالت لمولاهما عبد الله: «هذه جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها»^{٨٦٠}
وعن جابر رضي الله عنه، قال:

أقبلنا من مكة إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعتلّ جملي -وساق الحديث بقصته- وفيه ثم قال لي: «بعني جملك هذا»، قال: قلت: لا، بل هو لك، قال: «لا، بل بعنيه» قال: قلت: لا، بل هو لك يا رسول الله، قال: «لا، بل بعنيه»، قال: قلت: فإن لرجل عليّ أوقية ذهب، فهو لك بها، قال: «قد أخذته، فتبلغ عليه إلى المدينة»، قال: فلما قدمت المدينة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال: «أعطه أوقية من ذهب وزده»، قال: فأعطاني أوقية من ذهب، وزادني قيراطًا، قال: فقلت: لا تفارقني زيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فكان في كيس لي فأخذه أهل الشام يوم الحرة.^{٨٦١}
وحين احترقت الكعبة زمن يزيد بن معاوية، قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

يا أيها الناس، أشيروا عليّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها؟ أو أصلح ما وهى منها؟، قال ابن عباس: فإني قد فرق لي رأي فيها، أرى أن تصلح ما وهى منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم.^{٨٦٢}

وكان للعباس ميزاب على طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب، صب ماء بدم الفرخين، فأصاب عمر وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه، ولبس ثيابًا غير ثيابه، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: «والله

٨٦٠ انظر: مسلم، اللباس، ٢٠٦٩/١٠.

٨٦١ مسلم، المساقاة، ٧١٥/١١١.

٨٦٢ مسلم، الحج، ١٣٣٣/٤٠٢.





إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ، فقال عمر للعباس: «وأنا أعزم عليك لما سعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ»، ففعل ذلك العباس ﷺ. ٨٦٣

ومن الحوادث المشابهة الأخرى، الحادثة الآتية:

كان أبو هريرة ؓ أكثر من روى عن رسول الله ﷺ، إذ كان دائماً جانب النبي في كل أحواله وحركاته، ويروي قائلاً، قلت للنبي ﷺ: يا رسول الله أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه؟ قال: «إسقط رداءك» فبسطته، قال: فغرف بيديه، ثم قال: «ضمه» فضممته، فما نسيت شيئاً بعده. ٨٦٤

وعن صفية بنت بحرة، قالت: استوهب عمي فراس من النبي ﷺ قصعة رآه يأكل فيها. فأعطاه إياها، قال:

«وكان عمر إذا جاءنا قال أخرجوا إليّ قصعة رسول الله ﷺ، فنخرجها إليه فيملؤها من ماء زمزم فيشرب منها وينضح على وجهه» ٨٦٥

وقد ثبت أن عبد الله بن أحمد بن حنبل سأل أباه عمّن يلمس رمانة منبر النبي ﷺ، ويمس الحجرة النبوية، فقال: «لا أرى بذلك بأساً» ٨٦٦

ويقول القاضي عياض:

«إن ابن عمر قد رُئي واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه» ٨٦٧

وعن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال:

٨٦٣ أحمد، مسند، ١، ٢١٠ / ١٧٩٠؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٤، ٢٠٦ / ٧٠٧٠.

٨٦٤ البخاري، العلم، ٣١ / ١١٩؛ الترمذي، المناقب، ٤٦ / ٣٨٣٥.

٨٦٥ ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ٣، ٢٠٢، ٥، ٢٦٧.

٨٦٦ الذهبي، السير، ١١٢، ٢١٢.

٨٦٧ ابن سعد، ١، ٢٥٤؛ القاضي عياض، الشفاء، ٢، ٤٧، ٧١؛ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١، ٢٣٠.





«رأيت نفرًا من أصحاب النبي ﷺ إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى رمانة المنبر القراءاء فمسحوها ودعوا»^{٨٦٨}

وقد أفرد البخاري في صحيحه بابًا خاصًا بهذا الموضوع سمّاه: باب ما ذكر من درع النبي ﷺ، وعصاه، وسيفه، وقدحه، وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره، ونعله، وآنيته مما يتبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته.^{٨٦٩}



ولنذكر هنا حادثة جرت بين الإمامين أحمد بن حنبل والشافعي، فهي مثال جيد على هذا الموضوع:

يقول الربيع وهو أحد أبرز طلاب الإمام الشافعي: قال لي الشافعي: يا ربيع خذ كتابي، وامض به وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وأتني بالجواب، فدخلت بغداد، فلما أنفقتل من المحارب سلّمت إليه الكتاب، وقلت له: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال أحمد: نظرت فيه؟ قلت: لا، وكسر أحمد الخاتم، وقرأ الكتاب، فتغرّغت عيناه بالدموع، فقلت له أي شيء فيه يا أبا عبد الله؟ فقال: يذكر أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام، وقل إنك ستُمتحن وتُدعى إلى خلق القرآن، فلا تجبههم، يرفع الله لك علمًا إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت البشارة، فخلع قميصه الذي يلي جلده فدفعه إلي، فأخذته وخرجت إلى مصر، وأخذت جواب الكتاب، وسلمته إلى الشافعي. فقال لي: يا ربيع، أي شيء الذي دفع إليك؟ قلت: القميص الذي يلي جلده. فقال لي الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بلّّه وادفع إلينا الماء حتى أشركك فيه.^{٨٧٠}

٨٦٨ ابن أبي شيبة، مصنف، ٣، ٤٥٠ / ١٥٨٨١؛ ابن سعد، ١، ٢٥٤؛ القاضي عياض، الشفاء، ٢، ٧١.

٨٦٩ انظر: البخاري، فرض الخمس، ٥.

٨٧٠ انظر: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، ص ٦٠٩-٦٠١.





وقد حُفِظَت شعرات النبي ﷺ بكل اعتناء، فكانت مثل نسمات رحمة على المسلمين، تهبُّ من عصره إلى أيامنا هذه.

إن تقدير واحترام أشياء الرسول ﷺ الناتج عن محبته وعشقه يقوِّي الرابطة القلبية تجاهه ﷺ، وكم من مُحبٍّ للنبي ﷺ قد استفاد من بركة أشياء النبي ﷺ العزيزة المباركة.

لقد استمرت عظمة الإمبراطورية العثمانية ستة قرون ونيِّفاً، وهي مدة لم تحظَ بها أية دولة إسلامية قبلها، وكان سر هذه العظمة هو إعطاء العثمانيين أهمية للروحانية. ومن الروايات المشهورة أن السلطان عثمان غازي حلَّ ضيفاً في بيت من البيوت، فلم يمدَّ قدميه طوال الليلة بسبب وجود القرآن الكريم في الغرفة. وقد أحضر السلطان سليم خان الأمانات المقدسة إلى إسطنبول بكل تبجيل وتعظيم، وعيَّن أربعين من حفاظ القرآن - وكان هو بنفسه أحدهم - كي يرتلوا عندها القرآن الكريم، واستمر هذا العُرف دون انقطاع حتى سقوط الخلافة. وكان ذلك السلوك وأمثاله أحد الأسباب المعنوية لعظمة الدولة العثمانية.

إن وجود خرقة النبي ﷺ الشريفة والأمانات المقدسة في قصر طوب كابي «الباب العالي» في يومنا هذا، وإمكانية أن يراها كل زائر، كان وسيلة لأمتنا والعالم الإسلامي كله كي يتبرَّكوا بها، وينالوا الشرف والرفعة.

التبرك بالمكان

عن أبي بردة، قال: قدمت المدينة فلقيني عبد الله بن سلام، فقال لي: «انطلق إلى المنزل، فأسقيك في قدح شرب فيه رسول الله ﷺ، وتصلني في مسجدٍ صلى فيه النبي ﷺ، فانطلقت معه، فسقاني سويقاً، وأطعمني تمرًا، وصليت في مسجده»^{٨٧١}





وكان عبد الله بن سلام عليه السلام قد دعا النبي ﷺ إلى بيته، والتمس منه أن يصلي في أفضل مكان، ثم صار ذلك المكان فيما بعد مسجدًا. والمسجد المذكور في الرواية هو المسجد الذي أُقيم على المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ.

وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه - وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرًا من الأنصار - أنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد أنكرتُ بصري، وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم، ووددت يا رسول الله، أنك تأتيني فتصلي في بيتي، فأتخذة مصلى، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «سأفعل إن شاء الله» قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنهما حين ارتفع النهار، فاستأذن رسول الله فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت، ثم قال:

«أين تحب أن أصلي من بيتك؟»

قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ﷺ فكبر، فقمنا فصفنا فصلى ركعتين ثم سلم، قال وحسنه على خزيمة صنعناها له، قال: فأب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد، فاجتمعوا.^{٨٧٢}

وعن محمد بن عمران الأنصاري، عن أبيه، أنه قال:

عدل إلي عبد الله بن عمر، وأنا نازل تحت سرحة بطريق مكة. فقال: ما أنزلك تحت هذه السرحة؟ فقلت: أردت ظلها. فقال: هل غير ذلك؟ فقلت: لا، ما أنزلني إلا ذلك. فقال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ:

«إذا كنت بين الأخشبين من منى - ونفخ بيده نحو المشرق - فإن هناك واديًا يُقال له السرر، به شجرة سر تحتها سبعون نبيًا»^{٨٧٣}

٨٧٢ البخاري، الصلاة، ٤٥-٤٦/٤٢٥، الأذان، ٤، ٥، ١٥٣، التهجد ٢٥، ٣٣/١١٨٦؛ مسلم، الإيمان ٥٤، ٥٥، المساجد ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥/٣٣، فضائل الصحابة ١٧٨.

٨٧٣ موطأ، الصحيح، ٢٤٩؛ النسائي، المناسك، ١٨٩/٥٩٩٢؛ أحمد، مسند، ٢، ١٣٨/٦٢٣٣.





لقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث بركة هذه الشجرة العظيمة بسبب ولادة سبعين نبياً تحتها. ويقول الإمام مالك:

«في هذه الرواية دلالة على التبرك بمواضع النبيين»^{٨٧٤}

ويقول ابن عبد البر:

«وفي هذا الحديث دليل على التبرك بمواضع الأنبياء والصالحين ومقاماتهم ومسكنهم، وإلى هذا قصد عبد الله بن عمر بحديثه هذا، والله أعلم»^{٨٧٥}

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يوضح بالتفصيل الأمكنة والأوقات التي صلى فيها رسول الله ﷺ أثناء غزواته، وكان هو بنفسه يصلي في تلك الأمكنة.^{٨٧٦}

وعن يزيد بن أبي عبيد، قال:

«كنت آتي مع سلمة بن الأكوع، فيصلّي عند الأسطوانة التي عند المصحف، فقلت: يا أبا مسلم، أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة، قال: فإني رأيت النبي ﷺ يتحرى الصلاة عندها»^{٨٧٧}

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «لو عرفها الناس لاضطربوا عليها بالسهم، وإنها أسرتّها إلى ابن الزبير فكان يكثر الصلاة عندها، ثم وجدت ذلك في تاريخ المدينة لابن النجار وزاد أن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها، وذكره قبله محمد بن الحسن في أخبار المدينة»^{٨٧٨}

ولسوّاري المسجد النبوي كلها فضائل خاصة، ففي جوار كل واحدة منها كان رسول الله ﷺ والصحابّة الكرام يصلّون ويتضرعون إلى الله تعالى، فعن أنس

٨٧٤ شرح الزرقاني على الموطأ، ٢، ٣٩٩.

٨٧٥ ابن عبد البر، التمهيد، ١٣، ٦٧.

٨٧٦ انظر: البخاري، الصلاة، ٨٩؛ ابن حجر، فتح الباري، ٢، ٤٤٣.

٨٧٧ انظر: البخاري، الصلاة، ٥٩ / ٢٠٥؛ مسلم، الصلاة، ٢٦٤ / ٥٠٩؛ أحمد، مسند، ٤، ٤٨.

٨٧٨ ابن حجر، فتح الباري، ٤، ٤٥٣.





بن مالك عليه السلام، قال: «لقد رأيت كبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتدرون السواري عند المغرب»^{٨٧٩}

وعن أبي مجلز، إن أبا موسى عليه السلام كان بين مكة والمدينة، فصلّى العشاء ركعتين، ثم قام فصلّى ركعة أوتر بها، فقرأ فيها بمئة آية من النساء، ثم قال: «ما ألوت أن أضع قدمي حيث وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قدميه وأنا أقرأ بما قرأ به رسول الله»^{٨٨٠}

ونفهم من هذه الأحاديث الشريفة والروايات أن التبرك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأشياءه، وبكل شيء منسوب إليه، هو سنة مرفوعة وأمر مشروع يستحق الثناء. ويكفي لإثبات ذلك أن خيار الصحابة الكرام عليهم السلام قد فعلوا ذلك، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وافق عليه، وأمر به أحياناً، وأشار إليه أحياناً أخرى. وهذه الروايات التي تُظهر جواز التبرك برسول الله صلى الله عليه وسلم هي دليل على إمكانية انتقال البركة إلى غيره بالتبرك به.

إن تقبيل ما مسّته يد النبي صلى الله عليه وسلم، والرغبة في الشرب من الإناء الذي شرب منه، أو من القربة التي لامست فمه، والسعي للتبرك بالدراهم التي لمسها، وجبته التي كان يلبسها، والمكان الذي صلى فيه، وموضع قدمه، يُظهر درجة حرص الصحابة الكرام على نيل البركة، وسعيهم الكبير لتحقيق ذلك.

إن من يطلب بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبركة المكان الذي صلى فيه، يطلبها في الحقيقة من الله جل جلاله، ولا يمكن أن يكون هناك معنى آخر غير ذلك للتبرك بالمكان الذي كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.



٨٧٩ البخاري، الصلاة، ٥٠٣/٩٥.

٨٨٠ النسائي، قيام الليل، ٤٦/ ١٧٢٨؛ أحمد، مسند، ٤، ٤١٩/ ١٩٧٦٠.





قال رسول الله ﷺ:

«قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة»^{٨٨١}
ليست المقابر أجدائاً وأشلاء وحفر؛ إنما هي مدرسة تعلم الحكم والعبر، ولزيارتها في تذكير الناس بالآخرة أعظم الأثر.



ت. زيارة القبور

تتنازع الإنسان في رحلته الدنيوية الأخروية موجتان؛ إحداهما تدفعه لإلقاء المرساة قرب شاطئ الدنيا والركون إلى ملذاتها والرضا بسعادتها - مهما شحبت ألوانها - خوفاً مما في متاهة الشاطئ البعيد.

والثانية تجذبه إلى توجيه أشرعته نحو لجج البحر، والابتعاد عن الماء الراكد والحياة الراكدة التي يحياها، وتدفعه نحو الرحيل إلى عالم البحث عن الذات، ومحاولة الفهم لمعاني الموت والحياة، والهوية الحقيقية للإنسان، والغرض من خلقه وإيجاده.

هذا البحر اللجي الذي يقع الإنسان بين شاطئيه، وتتجاذبه أمواجه، هو الحقيقة الغائبة والفريدة والوحيدة التي ينبغي على الإنسان إدراك مجاهيلها.

وهذان الشاطئان هما «المجيء إلى الدنيا والرحيل عنها».

أما البحر الذي بينهما فهو رحلة البحث عن الذات، وإدراك قيمة الحياة، ومعرفة ما ينبغي على الإنسان فيها من أحوال وسلوكيات، وما يجب أن يتقنه فيها





من زيف وخدع وألوان باهتات، وأن يعرف طريقه نحو الحقيقة الوحيدة في هذه الدنيا، وهي الموت، فيكرّس للموت حياته، ولا يترك للدنيا غير رفاته.

والموت -عند المؤمن- لا يعني مطلقاً انتهاء اللذات، وابتداء الملمات، إنما هو أعظم بشارات الوصال مع الله ذي الجلال، فالموت ليس نهاية المآل، إنما هو مجرد انتقال من حال إلى حال، من دنيا الجهاد والأهوال إلى جنة الراحة وجزاء الأعمال.

بينما الموت لدى غير الفائزين من أهل الخسران المبين، فهو توديع اللذات والشهوات، واستقبال الأهوال والحسرات، وتحول كل ولي حميم إلى عدو عظيم؛ حيث الطعام من زقوم، والشراب من حميم، واللباس قطران، والأغشية نيران، والعذاب مقيم. والفرق بين الفريقين هنا هو أن الفائز منهما استطاع إدراك حقيقة الدنيا قبل فواتها، والاستعداد للآخرة قبل مباغتتها.

والبشرية كلها يمكنها إدراك هذه الحقيقة ومعرفة كنه الدنيا، ثم إدراك حقائق أرض الأسرار التي نسميها القبر؛ إذا هي أعملت فكرها ومشاعرها، وتعمقت بقلبها قبل عقلها في حقيقة ما يحدث بعد الموت، وجعلت من القبر داراً مثل دار الدنيا، فأعدت له من المهمات كما أعدت للدنيا من اللزوميات، لاسيما وأن خازن هذه الدار وحارس هذه القبور -وهو الموت- ما زال منادياً في صبيحة كل يوم على مسامع كل البشر؛ ناصحاً أميناً، ومبلغاً فصيحاً مبيناً، وإن كانت نصيحته بصمت بليغ، فبجواره ناطق حكيم، ونذير عظيم، هو القرآن الكريم.

ولعل في وجود المقابر على مشارف المدن، وعند طرق الناس وبجوار المساجد دليل على وعي الأسلاف الذين أرادوا وصول هذا الصوت الصامت إلى كل الناس بكرة وعشية؛ حتى النباتات التي تزرع عند المقابر هي من الأشجار المعمرة التي لا تخضع لتغيرات الطقس والفصول، لتكون رمزاً لخلود الموت وأبدية يقين الآخرة.





وما أحسن قول الشاعر مترجماً لسان حال الموت القائل:

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلُّكم يصير إلى تباب

هذا النداء لا يحتاج إلى سمع سليم لسمع، ولا إلى قلب رهيِّف ليحس، إنما الجميع يصلهم النداء عبر عشرات المفقودين من الأهل والأحباب والخلان والأصحاب. وقد علَّمنا نبينا ﷺ أن صفة عالم القبر يحدده التزامنا بأوامر الله تعالى في الحياة الدنيا، يقول صلى ﷺ:

«إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»^{٨٨٢}

فهو يشير بهذا الحديث إلى العلاقة والرابطة القوية بين الموت والحياة. وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته، ف قيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال:

«إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»^{٨٨٣}

وعن عائشة رضي الله عنها:

أنَّ يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم، عذاب القبر».

قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.^{٨٨٤}

٨٨٢ الترمذي، القيامة، ٢٦.

٨٨٣ الترمذي، الزهد، ٥/٢٣٠٨؛ أحمد، مسند، ١، ٦٣-٦٤.

٨٨٤ البخاري، الجنائز، ٨٧/١٣٧٢؛ مسلم، المساجد، ١٢٣/٥٨٤.





وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»^{٨٨٥}
وعن البراء رضي الله عنه، قال:

«كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى، حتى بلّ الثرى، ثم قال: «يا إخواني لمثل هذا فأعدوا»^{٨٨٦}

والحق أن القبور مدرسة مليئة بالحكم والعبر، وزيارتها من أكثر دروس التفكير في الموت تأثيراً. وقد كان رسول الله ﷺ يزور قبور أصحابه ممن انتقلوا إلى الدار الآخرة قبله وفاءً منه لهم، ويدعو لهم بالخير.

وكان النبي ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول:

«السلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار»^{٨٨٧}

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع، فيقول:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون غداً، مؤجلون، وإنا - إن شاء الله - بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»^{٨٨٨}

وعنها أيضاً قالت:

«لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه، فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه، فاضطجع، فلم

٨٨٥ مسلم، المساجد، ١٢٨-١٣٤/٥٨٨؛ أبو داود، الصلاة، ١٤٩، ١٧٩؛ النسائي، السهو، ٦٤.

٨٨٦ ابن ماجه، الزهد، ١٩/٤١٩٥.

٨٨٧ الطبري، جامع البيان، ١٣، ١٨٦؛ ابن كثير، تفسير، ٢، ٥٢٩؛ قارن: أبو داود، المناسك، ٩٦-٩٧.

٨٨٨ مسلم، الجنائز، ١٠٢/٩٧٤.





يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلت درعي في رأسي، واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع فقام، فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقت فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: «ما لك؟ يا عائشة، حشيا رابية» قالت: قلت: لا شيء، قال: «لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير»، قالت: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فأخبرته، قال: «فأنت السواد الذي رأيت أمامي؟» قلت: نعم، فلهدني في صدري لهداة أوجعتني، ثم قال: «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟» قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم، قال:

«فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني، فأخفاه منك، فأجبت، فأخفيتك منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت، فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي، فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم»^{٨٨٩} وبيّن هذا الحديث أن أفعاله ﷺ تخضع لمراقبة الله ﷻ، ونفهم أيضًا من هذه الروايات أن الرسول ﷺ كان يزور قبور الصحابة كثيرًا، فمن الضروري واللازم على أمته إذا أن يزوروا قبره ﷺ.

ولما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري».

فبكى معاذ جشعًا لفراق رسول الله، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة فقال: «إن أولى الناس بي المتّقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا»^{٨٩٠}

٨٨٩ مسلم، الجنائز، ١٠٣/٩٧٤.

٨٩٠ أحمد، مسند، ٥، ٢٣٥/٢٢٠٥٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٢٢/١٤٢٣٨.





وأقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضحاً وجهه على القبر، فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه، فإذا هو أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فقال:

نعم جئت رسول الله ﷺ ولم آتِ الحِجْر، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله»^{٨٩١}

إذا نرى في هذا الحديث صحابياً يزور قبر النبي عليه الصلاة والسلام، ويمسح وجهه به.

وقد كان رسول الله ﷺ يزور القبور كثيراً، ويحث أصحابه وأمته على ذلك في الحديث الشريف الذي يقول فيه:

«قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور... فزوروها فإنها تذكّر الآخرة»^{٨٩٢}.^{٨٩٣}

وعن الإمام الشعبي -وهو من كبار التابعين- قال:

«كانت الأنصار إذا مات لهم الميت، اختلفوا إلى قبره يقرؤون عنده القرآن»^{٨٩٤}

وقد علم النبي ﷺ أصحابه السلام إذا خرجوا إلى المقابر، فكان يقول:

«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا -إن شاء الله-

للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»^{٨٩٥}

وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما لا يمر بقبر إلا سلم.^{٨٩٦}

٨٩١ أحمد، مسند، ٥/٤٢٢؛ ٢٣٥٨٥؛ السيوطي، الصغير، ١/١٤٣٤٠؛ الهيثمي، ٥/٢٤٥، ٩٢٥٢.

٨٩٢ الترمذي، الجناز، ٦٠/١٠٥٤؛ مسلم، الجناز، ١٠٦/٩٧٧.

٨٩٣ كان الناس في الجاهلية يعتقدون أن لأرواح أجدادهم قدسية، فكانوا يفتخرون بذلك، ويزورون القبور. وقد منع النبي ﷺ في بداية الإسلام الناس من زيارة القبور كي لا يبقى أي أثر من عادات الجاهلية الباطلة. وبعد أن زال خطر التفاخر، أذن لهم بزيارة القبور كي يتفكروا في الموت.

٨٩٤ أبو بكر بن الخلال، القراءة على القبور، بيروت ١٤٢٤، ص ٨٩، رقم: ٧.

٨٩٥ مسلم، الجناز، ١٠٤/٩٧٥.

٨٩٦ انظر: عبد الرزاق، مصنف، ٣/٥٧٥، ٦٧٢١.





ويقول رسول الله ﷺ:

«إن العبد، إذا وُضِعَ في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم»^{٨٩٧}
وقال بعض المالكية:

«وفي زيارة واحد من معارفه صلة رحمه»^{٨٩٨}

إن زيارة القبور هي وسيلة للزائر لأخذ العبر، ووسيلة للموتى لتتزل الرحمات،
فالميت في قبره كالمرء حين يقع في مستنقع، فينتظر العون والمدد.

وعن ابن عباس ؓ، قال: خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمع
صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال:

«يعذبان، وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول،
وكان الآخر يمشي بالنميمة»

ثم دعا بجريدة، فكسرها بكسرتين أو ثنتين، فجعل كسرة في قبر هذا، وكسرة
في قبر هذا، فقال:

«لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»^{٨٩٩}.

فأوصى الصحابي بريدة الأسلمي ؓ:

«أن يجعل في قبره جريدان»^{٩٠٠}

يقول القرطبي في تفسير هذا الحديث الشريف:

«إن قوله عليه الصلاة والسلام: «ما لم ييبسا» إشارة إلى أنهما ما داما رطبين
يسبحان، فإذا يبسا صارا جمادًا، والله أعلم... وقال علماؤنا: ويستفاد من هذا

٨٩٧ البخاري، الجنائز، ٦٨/١٣٧٤؛ مسلم، الجنة، ٧٠-٧١/٢٨٧٠.

٨٩٨ عبد الحميد بن محمد علي، الذخائر القدسية في زيارة خير البرية، بيروت ١٤٢٨، ص ١٩٥.

٨٩٩ انظر: البخاري، الأدب، ٤٩/٦٠٥٥؛ الوضوء، ٥٥، ٥٦/٢١٨؛ الجنائز، ٨٢/١٣٧٨. مسلم،

الطهارة، ١١١/٢٩٩؛ أبو داود، الطهارة، ١١؛ ابن ماجه، الطهارة، ٢٦.

٩٠٠ البخاري، الجنائز، ٨٢.





غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن... وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يهدي إليه»^{٩٠١، ٩٠٢}
ومن الأصول المعروفة التي يطبقها كثير من الناس تلاوة القرآن لا سيما سورة يس، كي يستفيد الميت من الرحمات الإلهية بهذه التلاوة.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«...يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له،

واقرؤها على موتاكم»^{٩٠٣}

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

«إذا مات أحدكم فلا تحبسوه، وأسرعوا به إلى قبره...»^{٩٠٤}

٩٠١ القرطبي، تفسير، ١٠، ٢٦٧.

٩٠٢ نفهم من هذه الروايات أنه لا بأس في زرع الأشجار في المقابر بعد معرفة السبب والحكمة من ذلك، ووضع علامة على القبر كي يعرف صاحبه وتنظيفه وتنظيمه -دون مبالغة- يعد عملاً مستحسنًا، والروايات الآتية تدل على هذا الأمر: فعن المطلب بن أبي وداعة، قال: لما مات عثمان بن مظعون، أخرج بجنازته من المدينة إلى البقيع، فدفن -كان عثمان رضي الله عنه من المهاجرين الأوائل الذين توفوا في المدينة-، فأمر النبي ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر، فلم يستطع حمله، فقام إليه رسول الله ﷺ، وحسر عن ذراعيه، قال كثير: قال المطلب: قال الذي يخبرني ذلك: عن رسول الله ﷺ، قال: كأني أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ، حين حسر عنهما ثم حملها فوضعها عند رأسه، وقال:

«أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي» (أبو داود، الجناز، ٥٧-٥٩/٣٢٠٦)

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال:

«استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها

تذكر الموت» (مسلم، الجناز، ١٠٥-١٠٨/٩٧٦؛ ابن سعد، طبقات، ١، ١١٦-١١٧)

والخلاصة هي أنه من الجائز وضع حجر في مقدمة القبر كي تكون علامة يعرف بها أقارب الميت القبر بسهولة، والاعتناء وتنظيم القبر كي يقر عين الناظر، وليس هذا دليلاً على الإسراف والمبالغة في هذا الموضوع.

٩٠٣ النسائي، السنن الكبرى، عمل اليوم والليلة، ٩٤/١٠٨٤٧؛ أحمد، مسند، ٥، ٢٦/٢٠٣٠٠.

٩٠٤ الطبراني، المعجم الكبير، ١٢، ٣٤٠/١٣٦١٣؛ الهيثمي، ٣، ٤٤/٤٢٤٢؛ ابن حجر، فتح الباري، ٣، ٤٨١.





وعن العلاء بن الجلاج، عن أبيه، أنه قال لبنيه:

«إذا أدخلتموني قبري فضعوني في اللحد، وقولوا: باسم الله وعلى سنة رسول الله ﷺ، وسنوا عليّ التراب سنًا، واقرؤوا عند رأسي أول البقرة وخاتمتها، فإنني رأيت ابن عمر يستحب ذلك»^{٩٠٥}

ويلفت انتباهنا هنا وصية عمرو بن العاص في آخر أيامه لمن حوله حين قال: «... إذا دفنتموني فشنوا علي التراب سنًا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»^{٩٠٦} وقد ذكر هذا الحديث الإمام النووي في كتابه، ثم نقل لنا قول الإمام الشافعي:

«ويستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن، وإن ختموا القرآن عنده كان حسنًا»^{٩٠٧} وعن عثمان رضي الله عنه، قال: كان النبي عليه الصلاة والسلام، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال:

«استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالثبوت، فإنه الآن يُسأل»^{٩٠٨}

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

خرجنا مع رسول الله يومًا إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه حين توفي، قال: فلما صلى عليه رسول الله ﷺ، ووضع في قبره، وسوى عليه، سبّح رسول الله ﷺ فسبحنا طويلاً، ثم كبر فكبرنا، فقليل: يا رسول الله لم سبحت ثم كبرت، قال: «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله ﷻ عنه»^{٩٠٩}

٩٠٥ البيهقي، السنن الكبرى، ٤، ٥٦.

٩٠٦ مسلم، الإيمان، ١٩٢/١٢١.

٩٠٧ النووي، رياض الصالحين، ص ٢٩٣.

٩٠٨ أبو داود، الجنائز، ٦٧-٦٩/٣٢٢١.

٩٠٩ أحمد، مسند، ٣، ٣٦٠/١٤٨٧٣؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٦، ١٣/٥٣٤٦.





وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ، وهو قاعد على قبره، قال: «لو نجا أحد من فنة القبر لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضم ضمة ثم رُخي عنه»^{٩١٠} ونفهم من هذه الأحاديث الشريفة أن من وسائل تنزل الرحمات على الموتى زيارة القبور والسلام على ساكنيها، والدعاء والاستغفار لهم، وفعل الخيرات والحسنات لهم، وتلاوة القرآن الكريم.

ويوضح لنا ربنا ﷻ في القرآن الكريم الدعاء الذي يجب أن ندعوه به لإخوتنا المؤمنين الذين سبقونا إلى الدار الآخرة، فيقول ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^{٩١١}

فما بين الإفراط والتفريط يقع الكثيرون في الأخطاء عند زيارة القبور، فيفرطون في ابتداع واتباع طقوس ما أنزل الله بها من سلطان، ولكل بلد وقوم طقوس متبعة، ولعل أشهرها وأكثرها بُعداً عن السنة الاستمداد المباشر من صاحب القبر، وطلب العون والفعل المباشر من الميت.

وأما التفريط فهو المبالغة في النهي عن الزيارة والاستشفاع، وعد ذلك كله من قبيل الشرك، مهما التزم الزائر بالآداب والسُنن.

والوسطية هي منهاج ديننا الحنيف، وإنما جاء الإفراط والتفريط من ضعف الفهم وسوء التطبيق، وهو ما أصاب النصارى في تحريف دينهم، فاختلط في فهمهم اللاهوت بالناسوت، وأضيفت القداسة الربانية إلى البركة النبوية، فلم يفرقوا بين الرب وبين النبي ﷺ.



٩١٠ الطبراني، المعجم الكبير، ١٠، ٣٣٤ / ١٠٨٢٧؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٣، ٤٦، ٤٢٥٧.

٩١١ الحشر: ١٠.





وقد بين رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث الشريفة أن المؤمن يستفيد من أفعال الخير التي قام بها في حياته بعد وفاته، ومن دعاء وإنفاق أقاربه وإخوته الأحياء، وحضهم على فعل مثل هذه الخيرات:

فعن ابن عباس ؓ:

أن سعد بن عبادة ؓ توفيت أمه وهو غائب عنها، فقال: يا رسول الله، إن أُمِّي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقت به عنها؟ قال: «نعم»، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عليها.^{٩١٢}

وعن عائشة ؓ:

أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أُمِّي افتللت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأصدق عنها؟ قال: «نعم تصدق عنها»^{٩١٣}

وعن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، أن أمه أرادت أن توصي، ثم أخرجت ذلك إلى أن تصبح، فهلك، وقد كانت همت بأن تعتق، فقال عبد الرحمن: فقلت للقاسم بن محمد: أينفعها أن أعتق عنها، فقال القاسم: إن سعد بن عبادة قال لرسول الله ﷺ: إن أُمِّي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم»^{٩١٤}

وعن يحيى بن سعيد أنه قال:

توفي عبد الرحمن بن أبي بكر ؓ في نوم نام، فأعتقت عنه عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام رقاباً كثيرة.^{٩١٥}

٩١٢ البخاري، الوصايا، ١٥ / ٢٧٥٦. حائطي: هو البستان من النخل إذا كان له جدار. المخراف: اسم لحائطه والمخراف الشجرة وقيل ثمرها.

٩١٣ البخاري، الوصايا، ١٩ / ٢٧٦٠؛ أبو داود، الوصايا، ١٥ / ٢٨٨١.

٩١٤ الموطأ، العتق، ١٣ / ٧.

٩١٥ الموطأ، العتق، ١٤ / ١٤.





وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال:

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أُمِّي ماتت وعليها صوم شهر، أفأفُضِّيه عنها؟ فقال: «لو كان على أُمِّك دين، أُكُنْتُ قاضيه عنها؟» قال: نعم، قال: «فدين الله أحق أن يُقضى»^{٩١٦}

وعنه أيضًا، قال:

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أُمِّي ماتت وعليها صوم نذر، أفأصوم عنها؟ قال: «أرأيت لو كان على أُمِّك دين فقضيتيه، أكان يؤدي ذلك عنها؟» قالت: نعم، قال: «فصومي عن أُمِّك»^{٩١٧}

وقال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيَقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدَكَ لَكَ»^{٩١٨}
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^{٩١٩}

وهو حديث عظيم يفتح أبواب خير جليلة على عباد الله تعالى، ويطيل في آجالهم وأعمارهم أمدادًا طويلة بالعمل الصالح والثواب غير المنقطع؛ بل هو يفتح أبواب الأمل والنجاة وعلو الدرجات في الجنة، فالصحيفة لا تنغلق، والأقلام لا يتوقف صريفها، وميزان الحسنات لا ينفك يثقل ويرجح، والأعمال الصالحات تجد في الآخرة الجزاء الأوفى، وتستمر في الدنيا تدفع الأبناء والأصدقاء الأوفياء

٩١٦ مسلم، الصيام، ١١٤٨/١٥٥.

٩١٧ مسلم، الصيام، ١١٤٨/١٥٦.

٩١٨ ابن ماجة، الأدب، ١/ ٣٦٦٠؛ أحمد، مسند، ٢، ٥٠٩/ ١٠٦١٠.

٩١٩ مسلم، الوصية، ١٤/ ١٦٣١؛ أبو داود، الوصايا، ١٤/ ٢٨٨٠.





إلى الترحم والدعاء والبذل والعطاء، فيقع ذلك كله في ميزان الميت، ويلج إليه في عالم البرزخ، فيرفعه من مقام إلى مقام، ويبدله من حال إلى حال.

ومن بين الأعمال الصالحة التي حضَّ عليها النبي ﷺ قضاء دين الميت، فقد كان يسأل عن دين الميت إذا حضر جنازته، ولا يصلي عليه إلا بعد قضاء الدين، ليعلمنا بأسلوب لطيف -نحن الأحياء- الرحمة بأمواتنا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه:

أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين، فيسأل:

«هل ترك لدينه فضلاً؟»

فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلَّى، وإلا قال للمسلمين:

«صلوا على صاحبكم».

فلما فتح الله عليه الفتوح، قال:

«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك ديناً فعلي

قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته»^{٩٢٠}

وفي رواية أخرى:

«ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى

بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾»^{٩٢١} فأیما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا،

ومن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتني فأنا مولاه»^{٩٢٢}

وفي هذا الموضوع اجتهد الإمام محمد ليضع مصطلح «إسقاط الصلاة» على

أمل العفو عن الصلوات الفائتة، قياساً على إعطاء الفدية لمن لم يستطع الصوم

٩٢٠ البخاري، تفسير، ٣٣/١، الكفالة، ٥، الفرائض ٤، ١٥، ٢٥؛ مسلم، الفرائض، ١٤، ١٥.

٩٢١ الحشر، ٦.

٩٢٢ البخاري، الاستقراض، ١١/٢٣٩٩.





لضرورة أو عدم قدرة، وهذا يعني إطعام فقير عن كل صلاة لم يصلها الميت، أو إخراج مقدار معين من المال، ويجب أن يكون الإنفاق دون أي تقليل للمبلغ، وأن يُعطى للمحتاج، ونلاحظ في اجتهاد الإمام محمد ثلاث فوائد مهمة هي:

١. الحث على الإنفاق، ونيل الميت أجره.

٢. سرور المحتاج ودعاؤه للميت.

٣. الأمل بعفو المولى ﷺ عن الميت.

لكن تغيّر «الإسقاط»^{٩٢٣} الذي يستفيد منه الميت -مع الأسف- إلى «تحويل»^{٩٢٤} في أيامنا هذه، وبهذا ابتعد عن غايته الأساسية، وقدّم صورة معاكسة لروح الإسلام.

إن العمل المسمى بـ«التحويل» هو نوع من أنواع الغش والخداع، فهذا العمل الخاطيء هو السعي للتعويض عن عبادة فائتة بالتظاهر بإنفاق صدقة دون وجودها في الواقع، فبدل إخراج مبلغ من المال وإنفاقه على المحتاجين بنية صادقة كي يُكفّر عن الميت صلواته الفائتة، نجد -مع الأسف- أنّ مجموعة من الأشخاص يتحول المبلغ بينهم من يد إلى يد بعبارة «قبلت، ووهبت»، وبهذا يزيد مقدار المال

^{٩٢٣} الإسقاط: هو إعطاء بدل نقدي للفقراء من أجل إزالة كفارات العبادات عن الشخص الذي مات دون أن يوفي بها مثل الصلاة، والصوم، والأضحية، والذرة، والكفارة.

^{٩٢٤} التحويل: هو وضع مقدار معين من المال في صرة، ثم وهبه للفقراء، ثم أخذه مرة أخرى بالهبة، والاستمرار على هذا العمل حتى قضاء الدين. ولم يكن هذا العمل في حياة النبي ﷺ ولا التابعين أو تابعي التابعين. وقد جَوّز الإسقاط في أواخر القرن الثاني للهجرة، بينما جَوّز الإسقاط على صورة التحويل في القرن الخامس للهجرة. إن التحويل الذي صار عادة في زماننا هذا، والذي يظن الناس أنه يستند إلى مصادر إسلامية، هو مجرد بدعة تحجر الإنسان إلى البخل في الإنفاق، والكسل في العبادات. ولهذا يلزم على المسلم ترك هذه العادة، والتصدق عن الميت، وفعل الخيرات من أجله، والتوسل إلى الله كي يعفو عن ذنوبه. وعلى هذا النحو يكون المسلم قد طبق السنة، ووصلت العبادات المالية، وأفعال الخير، والصدقات إلى أصحابها الحقيقيين، أي إلى المحتاجين.





المراد إنفاقه. إن إعطاء مبلغ قليل من المال للكثير من الأشخاص -مع اشتراط الإرجاع في البداية- ثم إرجاع هذا المبلغ، وإعطاؤه لشخص آخر، ثم إرجاعه مرة أخرى، والإيمان بأن المال قد زاد بعدد تكرار الإرجاع، ما هو إلا مجرد بدعة قبيحة يخدع بها المرء ذاته، لا سيما الأغنياء من الناس، فمن المحير والمدهش أن ترى الأغنياء يلجؤون إلى هذا العمل، ثم يأملون أن يصلوا إلى النتيجة المرجوة، إن هذا الفعل هو فعل عبثي لا فائدة منه، وإذا نظرنا إليه بموضوعية نجد أنه فعل لا منطقي يسعى لخداع الله سبحانه، وحاشا لله أن يُخدع ﷺ.

اللهم اجعل نياتنا كما ترضى، واحمنا من أن نكون ممن يتعلقون بالدنيا، فيكون الهلاك عاقبتهم.

اللهم أنت أرحم الراحمين، فزينا حياتنا ومماتنا بالبركات والنعم وفضائل العليين التي تكرم بها عبادك الصالحين، واجعلنا ممن يحققون الوصال يا رب العالمين.

اللهم اجعلنا جميعاً ممن ينظرون إلى الكون بعين محبتك، ويرونه بالبصيرة والأحاسيس والوجدان والإيمان، واجعلنا ممن يصلون إلى غفرانك بعبرات الندامة التي تنسكب من مقلهم، ويقفون أمام حضرتك بوجوه مبيضة.

آمين





الفصل الخامس



وصايا أولياء الله



(المساحة)



وصايا أولياء الله تعالى

وصايا أولياء الله تعالى وإرشاداتهم وكلماتهم مرآة
تنعكس عليها معاني القرآن الكريم، وسنة النبي ﷺ.



إن أولياء الله تعالى هم الذين استحقوا مكانة «ورثة الأنبياء»، ولأن الأنبياء لم يُورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، فعلم الأنبياء الذي ورثه الأولياء علم الظاهر وعلم الباطن في أرقى مستويات كماله، بعد أن قطعوا مراحل التربية الصوفية في طريق الله، ووصلوا إلى كمال السلوك ونضج القلب، وحملوا راية الإرشاد التي هي من مهمة الأنبياء ومن صنعة المرسلين، فصاروا منارات على الطريق، ونبراساً لكل مريد، ينقلون النور الحق من لدن خاتم الأنبياء ﷺ إلى قيام الساعة. ومن معاني حديث النبي ﷺ:

«إن العلماء ورثة الأنبياء»^{٩٢٥}

أي: العلماء الذين حصّلوا العلم الظاهر واكتسبوا العلم الباطن، وتدرجوا في العلوم حتى وصلوا إلى العرفان، وتدرجوا في السلوك حتى حظوا بالإرشاد. والإرشاد هو حَمْلُ راية الرسالة والنبوة والبلاغ التي سلمهم إياها الأنبياء بعد أن طهّر هؤلاء أنفسهم من أنانية «نفسي، نفسي»، ونالوا إيثار «أمتي، أمتي»، فاستمر نور نبراسهم وفيض إرشادهم إلى ما بعد انتقالهم، وفناء أجسادهم، فهم يحيون بأرواحهم التي لا تقنى بعد أن جعلوا هذه الأرواح طاهرة مطهرة بوصالها مع الله تعالى، وجعلوا منها جسراً تمر عليه الأمة في طريقها إلى الله تعالى.

٩٢٥ أبو داود، العلم، ١/ ٣٦٤١؛ ابن ماجه، فضل العلماء، ١٧/ ٢٢٣.





وقد اكتسب هؤلاء - فيما اكتسبوا - تجليات من أسماء الله الحسنى: الرحمن والرحيم، فكانت الرحمة والرأفة والشفقة والمحبة جزءاً أصيلاً من كيانه، ومدداً يمدون الناس منه في طريق خلاصهم، ويتحملون عبر تجلياته مسؤولية هداية الخلق إلى سبيل ربهم.

وما هذه الإرشادات والمواعظ والنصائح من أولياء الله تعالى إلا رافد يستمد ماءه من النهر المحمدي والينبوع المصطفوي، حيث مركز الفوائد المعنوية، ونبراس الهداية الربانية، الذي يشع نوراً وماءً وحياة على امتداد أعمار البشرية عبر أولياء الله المرشدين.

هؤلاء المرشدون ومجالسهم هم الأنموذج الحي الذي تنتقل من خلاله حياة النبي ﷺ حية نابضة إلى واقع الناس، فيتعلمونها ويرونها رأي العين، ويستشعرونها بأحاسيسهم.

لقد فقد هؤلاء المرشدون إرادتهم النفسانية، وصاروا - لفرط حبهم لله تعالى - يعيشون فقط بإرادته سبحانه، وصاروا عباداً ربانيين، يرون بعين الله تعالى، ويسمعون بسمع الله تعالى، ولأنهم تجردوا من الدنيا ومن النفس فقد صاروا مركزاً للجذب النوراني، يحبهم الناس، ويقبلون عليهم، وتهوي إليهم الأفئدة، وتنصاع إليهم القلوب، وتأوي إليهم النفوس، وترتاح إلى كنفهم الأرواح، وتصير كلماتهم شفاءً من كل داء، وراحة من كل عناء.

فهؤلاء قد عملوا بما علموا، فصارت كلماتهم ذات روح تسري في الكلمات، وصارت أفعالهم كالجاذبية الكونية تدور في فلكها الكواكب، وتنجذب إليها الكائنات والذرات، وصارت حياتهم وسيرتهم كالقلوب النابضة لا محيص لكل قطرة دم في الجسد أن تحتاج إليها، وتمر بها، وتصدر عنها كل من أراد الحياة.

وفي السطور والصفحات الآتية سوف نسوق نسمات من أريج قلوبهم، ورشقات من فيض نبعهم:



الحسن البصري رحمته الله

(٦٤٢هـ - ٧٢٨هـ)

يا ابن آدم، إن المؤمن يصبح حزينًا ويمسي حزينًا، ولا يسعه غير ذلك؛ لأنه بين مخافتين: بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك.

أيها الناس، اعملوا صالحًا بإدراككم لهذه الحقيقة، فالله ورسوله يريان أعمالكم، فإنكم لمنقبولون إلى رب يعلم السر وأخفى، حينها سيعلمكم بما عملتم ولن يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وكان يقول:

حادثوا هذه القلوب، واصقلوها بذكر الله، فإنها سريعة الدثور، واقرعوا هذه الأنفس، فإنها طامحة؛ فإنكم إلا تمنعوها، تنزع بكم إلى شر غاية.

ابن آدم، إنك لا تستحق حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعبث هو فيك، فأصلح عيب نفسك، فإنك لا تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر أنت أولى بإصلاحه.

ابن آدم، إن تكن عدلاً، فاجعل لك عن عيوب الناس شغلاً؛ فإن أحب العباد إلى الله تعالى مَنْ شغله عيبه عن عيب غيره.

أيها الناس، إن القرآن الكريم شفاء للمؤمنين، هدى للمتقين، مَنْ عمل به، اهتدى وسار على الصراط المستقيم، وَمَنْ أعرض عنه شقي وصار إلى الهلاك المقيم.

يا ابن آدم إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتُحاسب وحدك.





مالك بن دينار رحمته الله

(توفي سنة ٧٤٨هـ)

لم يبقَ صفاء في الدنيا إلا في اثنتين:

١. لقاء الإخوان وصحبتهم.

٢. القيام لصلاة التهجد، والانشغال في هذا الوقت المبارك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن.

جعفر الصادق رحمته الله

(٦٩٩هـ - ٧٦٦هـ)

لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.^{٩٢٦}

إذا بلغك من أخيك أنه قال فيك ما تكره فلا تغتم لذلك، إن كانت حقاً كانت عقوبةً عَجَلَتْ، وإن كان غير ذلك فحسنة لم تعملها.^{٩٢٧}

سفيان الثوري رحمته الله

(٧١٣هـ - ٧٧٧هـ)

إنما يُطلب العلم لِيُتَقَى الله تعالى به، وتُتبع أوامره، ويُخشى منه جلّالته، وفضيلة العلم أنه يجعل صاحبه ذا أخلاق وأحاسيس راقية، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء.

ذهابك إلى خراسان للتبليغ أرباح لك من البقاء في جوار مكة (للاقامة).
أول شرط في العلم هو البحث عن طريقه، ثم العمل به بعد تحصيله... ثم الصمت والتفكير... ثم النظر بعينه إلى الكون.

٩٢٦ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٩٨.

٩٢٧ الخاني، الحقائق، ص ١٣٢.





أبو عثمان الحيري رحمته الله

(توفي في سنة ٩١١ هـ)

الصحبة مع الله تعالى بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والحرمة، والصحبة مع الأهل والولد بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر والانبساط ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم ورؤية نعمة الله عليك أن عافاك مما ابتلاهم به. ^{٩٢٨}

الإمام الغزالي رحمته الله

(توفي سنة ١١١١ م)

يا بُني، ليكن قلبك يقظاً بصورة مطلقة في العبادات الثلاث، ولا تصرف عقلك وقلبك إلى مكان آخر؛ هذه العبادات هي: قراءة القرآن الكريم، وذكر ربك، وإقامة الصلاة، وإياك أن تصرف عقلك وقلبك في هذه الأحوال الثلاثة إلى مكان آخر ولو للحظة، ولا تنس أنك أمام الله تعالى، إذ لا قيمة في أن تتوجه إلى القبلة وعقلك يسعى وراء أمور أخرى، فلتكن وجهتك الكعبة التي هي أول معبد في الإسلام، واربط قلبك مع الله تعالى، فإن كنت تريد أن تكون من العارفين، فليكن سكوتك فكراً، ونظرتك عبرة، ورجاؤك طاعة، فهذه الخصال الثلاث علامة العارفين.

يا بُني، احذر من الدين، فقرش من الدين قد يذهب بثواب كثير من العبادات المقبولة، ولم يكن رسول الله ﷺ يصلي على مَنْ مات وعليه دين، وكان القصد من ذلك حث الغني على الرحمة لقضاء الدين أو العفو عنه، إن المؤمن لا يأخذ الدين بلا ضرورة لكنه إن اضطر لأخذ الدين ونوى إيفاء أعانه الله عليه، حتى إنه إن سعى لإيفاء الدين فلم يستطع، فإن الله يعينه يوم القيامة.

٩٢٨ انظر: البيهقي، شعب الإيمان، ١٠، ٤٣٢ / ٧٧٥٤؛ القشيري، الرسالة، ص ٨٢.





والشكر على البلاء لازم، إذ لا بلاء غير الكفر والذنوب، فلا يكونن في داخله خير لا تعلمه، فالله يعلم الخير لك أكثر مما تعلم، وثمة الكثير من الأمور تظنها شرًا لكنها تكون خيرًا لك، وأمور أخرى تظنها خيرًا تكون في الحقيقة شرًا، وأسلم طريق لك هو الرضا بأمر الله، و«الشكر» على كل حال.

يا بُني، إن كان ثمة أمر يجب أن تدقق فيه غاية التدقيق فهو مَنْ تصحبهم، واعلم جيدًا أن سلة صالحة من التفاح لا يمكن أن تصلح تفاحة رديئة بينها، بيد أن تفاحة رديئة واحدة كافية لإفساد السلة كلها، لذلك كن دائمًا مع الصالحين.

والصديق الطيب كَمَنْ يبيع عطر الورد، فإما أن تشتري منه، أو يمسح على يدك قليلًا، أو أنك تشم رائحة جميلة ما دمت عنده، فالمرء مع مَنْ أحب، واعلم أنك ستحشر مع مَنْ تصاحبه في هذه الدنيا، لذا احرص على صحبة العلماء والصالحين الذين يعملون بعلمهم.

يا بُني، كل شيء في الحياة كما قسمه الله سبحانه وتعالى، فقد جعل الله تعالى من الناس أغنياء وفقراء، وأصحاء ومرضى، وعلماء وجُهاًل، ولا يمكن الحفاظ على توازن الدنيا إلا على هذا النحو، فحين ترى مَنْ هم أصغر منك، فإياك أن تحتقرهم وتتفاخر أمامهم، إذ كان من الممكن أن يكونوا مكانك وتكون مكانهم، فتدبر، وصاحب الفقراء؛ واسع أن تكون متواضعًا لهم دائمًا، واحم وقار الإنسانية والإسلام، إذ لا يمكن نيل السعادة إلا على هذا النحو، فإن كنت تريد الطمأنينة في الدنيا والآخرة، فلا تؤذِ أحدًا، وقل في نفسك حين ترى مَنْ هو أكثر شبابًا منك: «ذنوبه أقلُّ من ذنوبي»، وحين ترى مَنْ هو أسنُّ منك فقل: «حسناته أكثر من حسناتي، وهو أفضل مني من حيث لا أعلم»، وحين ترى عالمًا قل: «لديه علمٌ ينقذ به نفسه» وحين ترى جاهلاً قل: «إنه لا يعلم، والله يغفر له»، وحين ترى





كافراً، فكَرَّ في عاقبتك ولحظة خروج نَفْسِكَ الأخير وقل: «إذا هداه الله سبحانه وتعالى، فسيغفر ذنوبه كلها، ويقف أمام الله سبحانه وتعالى طاهراً نقيّاً، أما أنا فكيف سأكون لحظة خروج روعي؟» لأن العاقبة مجهولة، فكلما عرفت نفسك ورأيته حقيرة، فُزْتَ بالمراتب العليا عند الله سبحانه وتعالى.

يا بُنَيَّ، اسعَ إلى تلبية حاجات إخوتك مهما استطعت، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«... مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ...»^{٩٢٩}

و يقول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«لَا يَسْتَرْ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^{٩٣٠}

ويجب على العاقل أن يقول لنفسه: إن رأس مالي هو عمري فقط، ولا أملك أي شيء آخر، ورأس المال هذا له قيمة كبيرة جداً حتى إنَّ كُلَّ نَفْسٍ لا يمكن أن يعيده المرءُ بأيِّ حال البتة، فالأنفاس معدودة متناقصة، لذا اعرف قيمة أنفاسك وانظر إلى هذه الدنيا الفانية كأنك تموت غداً، واحمِ أعضاءك كُلَّها من الحرام، وتشبث بالتقوى.

اللهم اختتم بالسعادة آجالنا، واجعلنا ممَّن يحظون برضاك وتوفيقك، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل التقوى زادنا، وعليك اتكالنا واعتمادنا يا رب العالمين، وثبتنا على طريق الحق، لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد المصطفى المبعوث رحمة للعالمين.

٩٢٩ البخاري، المظالم، ٣/ ٢٤٤٢؛ مسلم، البر، ٥٨/ ٢٥٨٠.

٩٣٠ مسلم، البر، ٧٢/ ٢٥٩٠.





يا غلام، التقوى ضرورية لك، لهذا اسعَ إلى الإيفاء بمقتضيات التقوى كي يتخلص قلبك من العداوات والطبائع الخبيثة في داخلك، ويستقيم بالخير.

يا غلام، لا تكن جامعاَ للأمور الدنيوية فتكون كالذي يجمع الحطب في الليل وهو لا يعرف ما يجمع، وانظر فيما بين يدك من أمور دنيوية حلال هي أم حرام، مشروعة أم غير مشروعة، وكن مع شمس التوحيد والتقوى في أفعالك كلها.

يا غلام، العمل بالقرآن يرفعك إلى موقع القرآن، ويجلسك هناك، أما العمل بالسنة فيقربك من رسول الله، وبهمة رسول الله ﷺ القلبية والمعنوية لن تبتعد ولو للحظة عن قلوب أولياء الله، فمن يزين قلوبهم هو رسول الله ﷺ.

يا غلام، الطعام الحرام يमित قلبك، أما الطعام الحلال فيحييه، ثمة لقمة تشغلك بالدنيا وأخرى تشغلك بالآخرة، وثمة لقمة ترغّبك في خالق الدنيا والآخرة.

يا غلام، اصحب من يعينك في مجاهدتك نفسك، ولا تصاحب من يعين نفسك عليك، وانشغل بنفسك أولاً، وكن نافعاً لها، وأصلحها. ثم انشغل بغيرك، ولا تكن كالشمعة تضيء للآخرين في حين تذوب هي وتموت.

يا من يود أن يعمل صالحاً في سبيل الله، كن مخلصاً، وإلا فإن تعبك سيذهب سدى.

إن إرشاد الناس لا يكون بالكلام بل يتحقق باشتياق واعتقاد خالص نابع من القلب، وهذه كلها نتائج يصل إليها المرء بالخلوة والعبادة والذكر والرياضة والمراقبة، لا بالتصرفات الشكلية الظاهرية التي لا تصل إلى الروحانية ولا تؤثر في الروح البتة، لهذا السبب يجب على السالك في الصراط المستقيم أن يكون لسانه كقلبه، وباطنه كظاهره، وكلامه كنيته، وأن تكون كلها شيئاً واحداً.



أحمد الرفاعي رحمته الله

(١١١٨م - ١١٨٢م)

أي سادة، عليكم بالتقرب من أولياء الله، فَمَنْ والى ولي الله فقد والى الله،
وَمَنْ عادى ولي الله فقد عادى الله سبحانه وتعالى.

أي سادة، عليكم بذكر الله، فإن الذكر مغناطيس الوصل وحبل القرب، وَمَنْ
ذكر الله طاب باله، وَمَنْ طاب باله وصل إلى الله، فذكر الله يثبت في القلب ببركة
الصحبة، فالمرء على دين خليله.

أي سادة، الفكر أول أعمال النبي ﷺ، فقد كان عبادته قبل فرضية المفروضات
التفكر في آلاء الله ومصنوعاته حتى كلف ما كلف عليه صلوات الله وسلامه،
فعليكم بالتفكر في آلاء الله وأخذ العبرة من الفكرة.

إياكم أن تكونوا كالمنخل يُخرج الدقيق الطيب ويمسك لنفسه النخالة، وأنتم
كذلك تخرجون الحكمة ويبقى الغل في قلوبكم.

وتطالبون حينئذ بقوله تعالى:

﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^{٩٣١}

نقوا قلوبكم وطهروها فذلك أولى من تنقية الثياب، إن الله سبحانه وتعالى
لا ينظر إلى ثيابكم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وكونوا على الاستقامة ولا تطلبوا غير
الله سبحانه وتعالى.

أي سادة، من طرق الباب بالخضوع فتح له بالقبول، وَمَنْ دخل الرحاب
بالانكسار جلس في بيت العزة.





عبد الخالق الغجدواني رحمته الله

(توفي ١١٨٩ م)

يا بُني، أوصيك بتحصيل العلم والأدب، وتقوى الله تعالى، واتبع آثار السلف الصالح، ولازم السُّنة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب الصوفية الجاهلين، ولازم الصلاة بالجماعة بشرط أن لا تكون إماماً ولا مؤذناً، وإياك والشهرة فإنها آفة، وكن واحداً من الناس، ولا تَمَلْ لمنصب ولو كان محموداً كالقضاء والفتوى، ولا تكن كفيلاً ولا وصياً، ولا تصحب الملوك وأبناءهم، والمُرَدَّ والنساء والمبتدعة والعوام، ولا تسمع الأنغام إلا قليلاً، فإن كثرة السماع تولد النفاق وتميت القلب، ولا تنكر على أصحاب السماع لأنهم كثيرون.

وقل الكلام والطعام والمنام، وفرّ من الناس فرارك من الأسد، والزم الخلوة وأكل الحلال، واترك الشبهات إلا عند الضرورة، فربما غلب عليك طلب الدنيا، وفي طلبها يذهب دينك وإيمانك، ولا تضحك كثيراً فإن كثرة الضحك تميت القلب.

ولا تحتقر أحداً، ولا تزين ظاهرك؛ لأن تزيين الظاهر من علامة إفلاس الباطن، ولا تجادل الخلق، ولا تسأل أحداً شيئاً، ولا تأمر أحداً بخدمتك، واخدم المشايخ بالمال والجاه والبدن، ولا تنكر عليهم أفعالهم، فإن المنكر عليهم لا ينجو، ولا تغتر بالدنيا وأهلها، وينبغي أن يكون قلبك محزوناً ومغموماً، وبدنك مريضاً، وعينك باكية، وعملك خالصاً، ودعاؤك بتضرع، ولباسك خِلْقاً، ورفيقك الفقر، وبضاعتك الفقه، وبيتك المسجد، ومؤنسك الحق سبحانه وتعالى.^{٩٣٢}



فريد الدين عطار رحمته الله

(١١٤٥م - ١٢٢١م)

اقبل عُذْرَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ، فالله لا يحب مَنْ يؤذي عباده، ومثل هذا الطبع لا يليق بصاحب دين، إِنَّ مَنْ يَجْرَحُ قَلْبًا بِظُلْمٍ، يرى ذلك الجرح في بدنه. وَمَنْ يرى عيوبه يجد القوة في روحه.

علامة الحماسة عدم رؤيتك عيوبك وأنت تبحث عن عيوب الآخرين، وزرعك بذرة البخل في فؤادك، ثم تأمل الكرم.

إِنْ مَنْ لَا يُرِضِي الْخَلْقَ بِأَخْلَاقِهِ لَا قِيَمَةَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

عليك بزيارة المرضى فهذه سنة نبينا ﷺ، وارو العطشى إن استطعت، واخدم الناس في المجالس، واسأل عن أحوال اليتامى كي يجعلك الله عزيزاً، فبكاء اليتيم لحظة يكفي لهز عرش الرحمن، والظالم الذي يُكيي اليتيم سيكون حطباً لنار جهنم، وَمَنْ يَسُرُّ يَتِيمًا يَفْتَحْ لِنَفْسِهِ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ.

كل ما تعطيه في سبيل الله هو رأس مالك، وكل ما يبقى ستُحاسب عليه.

محي الدين بن عربي رحمته الله

(١١٦٥م - ١٢٤٠م)

إِذَا عَوَّدْتَ قَلْبَكَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ فسيستنير بنور الذكر، وهذا النور يفتح عين القلب.

عامل عباد الله بالرأفة والرحمة، ولتعم رحمتك الكائنات كلها، ولا تقل: «هذا تبني، لا حياة فيه، ولا فائدة»، بل فيه فائدة وخير كثير، واترك المخلوق بحاله، وارحم برحمة الخالق.

لَا تَرُدَّ مَنْ يَطْلُبُ مِنْكَ شَيْئًا، بل فز بقلبه ولو بكلام حسن، وانظر إليه بوجه باسم، وتفكر في ملاقاتك الله تعالى غداً.





لا تكن عبدًا لغير الله من أجل أمور دنيوية؛ لأنك عبد الله الذي قبل أن تكون عبدًا له.

عليك أن تظهر المحبة لعباد الله المؤمنين بالسلام عليهم وإطعامهم وقضاء حاجاتهم، واعلم أن المؤمنين كرجل واحد وجسد واحد. عود نفسك على الجماعة، وحاول البكاء خشية من الله، واعتصم بحبل الله، واطلب ما يحبه الله ويرضاه عنه.

مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله (١٢٠٧م-١٢٧٣م)

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والأولياء رحمة للعالمين، لذلك تراهم ينصحون الناس بلا سأم أو ملل، ومن لا يستمع إلى نصائحهم ولا يقبلها، يدعون الله من أجله قائلين:

«يا رب اعفُ عنهم، ولا تغلق أبواب رحمتك في وجوههم».

وأنت أيها الإنسان استعمل عقلك، واستمع إلى نصائح الأولياء بعقل واع، استمع كي تتخلص من الخوف والحزن، وتصل إلى اليقين والراحة المعنوية.

وقبل أن تضع الفرص وتقع في التردد تمسك بالإنسان الكامل الذي ما غرّه هذا العالم الفاني، فأخضع رقبته لله تعالى، وحين تكون مثله تتخلص من فتن هذه الدنيا الفانية وفتن آخر الزمان.

إن كلمات أولياء الله كنهز ماؤه عذب حلوا، فحين تسنح لك الفرصة، اشرب من هذا الماء حتى الارتواء، لعل الأزهار المعنوية تتفتح في قلبك.

واعلم يا سيدي أن الأدب كالروح التي تسكن في بدن الإنسان، والأدب في الأصل نور عيون أولياء الله وقلوبهم، فإن كنت راغبًا في قطع رأس الشيطان، فافتح عينيك كي ترى أن الأدب هو قاتل الشيطان.





افتح عينيك وانظر في القرآن الكريم الذي هو كلام الله العليم من أوله إلى آخره، ستجد أن آياته كلها تعلمك الأدب.

بع وجودك وفناءك ومالك وملوك كله واشتر قلبًا، خذ قلبًا كي يكون نورًا لك في قبرك، حين تمكث وحيدًا هناك في ظلام حالك.

إن بقاء الإنسان بصحبة وليٍّ من أولياء الله مرة واحدة يعادل عُمره كله، فقيمة كل شعرة تسقط منه كقيمة الجوهرة، لكن ثمة أصحاب القلوب القاسية ممن هم بخلاف أولياء الله، فإن أنت ابتعدت عنهم وتفاذيت رؤيتهم، فنعم ما صنعت، فذلك يساوي ملك الكون كله.

وقد قلت لقلبي:

«لا تحرص أن تكون في المقدمة، بل كن بلسماً، لا شوكة تؤذي الآخرين، فإن كنت لا تريد أن يأتيك ضرر من سواك، فلا تتكلم بالسوء أو تفكر فيه، ولا تعلم الفواحش، واعمل الصالحات في كل حين».

إبراهيم الدسوقي رحمته الله

(توفي ١٢٧٧م)

الواجب عليك يا ولدي أن تطلب دعاء القوم، وتلمس بركاتهم هذا إذا لم تجد قدرة على عملهم، فإن وجدت قدرة على ذلك سعدت أبد الأبدان.

يا حامل القرآن لا تفرح بحمله حتى تنظر هل عملت به أم لا فإن الله ﷻ يقول:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ ٩٣٣

ولا تخرج عن كونك حمارًا إلا إن عملت بجميع ما فيه، ولم يكن منه حرف واحد يشهد عليك.





يا بُني، لا تشغل بالأمور التي لا نفع منها مثل الجدل والنميمة والكلام المعسول، وكن من أهل السكوت، واختر الإخلاص، واعمل صالحًا في هذا الطريق ولا تتبع هواك.

واصحب أولياء الله تجمع الشريعة والحقيقة في ذاتك، ولا تنس أن من يمكن أن يساعدك في هذا الطريق هو مثل هؤلاء الناس.

يا بُني، كلُّ ما أوده هو أن تعمل دائمًا وفقًا للسنة... وأن تراعي الأدب اللازم في هذا الطريق.

ويجب أن تكون شجاعًا لا مثل الذين يفزعون من ظلهم، وألا تستسلم عند أول كربة تواجهها.

املا نفسك بمحبة المولى، وكن في حالة وجد معه.

يا أبنائي، إن كنتم تبحثون عن شخص تغتابونه، فاغتابوا آباءكم وأمهاتكم، فهم أحق بحسناتكم من غيرهم.

إن الله تعالى يطلع على قلوب عباده في اليوم والليلة اثنتين وسبعين مرة، فنظفوا يا أولادي محل نظر ربكم، واجعلوه طاهرًا مطهرًا، حسنًا نقيًا، زاهرًا نيرًا، صادقًا خالصًا، لترتع في رياض القرب، ويظهر فيها النور، فإن الإناء إن لم يكن شفافًا لا يظهر للفتيلة فيه نور.

يا أخي، إياك وأن تظن أنك تفعل شيئًا لوحدك، واعلم أن الله جعلك تصوم صيامك، وتصلي صلاتك، وتعمل عملك، فإن كنت قد وصلت إلى درجة التقوى فالله قد أوصلك، أو نلت أمرًا ماديًا أو معنويًا فالله قد أعطاك.

يا ولدي احذر أن تقول أنا فإن الله يعجز المدعين، ولو كنت على عمل الثقيلين هبطت، أو صاحب منزلة سقطت.^{٩٣٤}





بهاء الدين نقشبند رحمه الله

(١٣١٨م - ١٣٨٩م)

إن طريقنا هو طريق الخلاص الذي بيّنه الله تعالى؛ لأن هذا الطريق هو اتباع السُّنة والصحابة الكرام، لهذا ينال المرء في طريقنا الكثير في وقت قصير.

لهذه الطريقة ثلاثة آداب:

أدب مع الله ﷻ وهو: أن يكون المريد في الظاهر والباطن مستكملًا للعبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، مُعْرِضًا عن ما سواه بالكلية، ومنفقًا النعم في سبيل الله ﷻ.

وأدب مع رسوله ﷺ وهو:

أن يستغرق في مقام «فاتبعوني»، ويراعي ذلك في جميع الأحوال وجوبًا، ويعلم أنه ﷺ واسطة بين الحق والخلق.

وأدب مع المشايخ وهو لازم للطالبيين.^{٩٣٥}

إذا كان الطعام محضّرًا بغفلة أو غضب أو دون رغبة، فلا خير فيه ولا بركة؛ لأن النفس والشيطان قد وجدا طريقًا إليه، ومن يأكل طعامًا كهذا لا بد وأن يفسد طمأنينته في نهاية المطاف، والخير يأتي من الطعام الحلال الخالص الذي لم تخلطه غفلة، وتناوله المرء مدرّكًا الله تعالى، إن السبب في عدم توفيق الناس في أداء أعمال خالصة صالحة هو عدم اكتراثهم بالحرام في المأكل والمشرب، والمشتبهات وحقوق العباد، بينما أحوال المرء كلها -لا سيما حال الخشوع والطمأنينة في الصلاة، وسكب الدموع أثناءه- أحوالٌ مرتبطة بأكل اللقمة الحلال، وطبخ الطعام ذاكراً الله تعالى، وأكله كأنه أمام الله، ولا يمكن لمن يربّي بدنه باللقمة الحرام أن يشعر بأية لذة في الصلاة.

٩٣٥ الخاني، الحقائق، ص ٤١١-٤١٢.





إن حقيقة كلمة «لا إله إلا الله» أن تزيل كل شيء من قلبك، ويبقى الله تعالى فيه وحده.

إن النور والصفاء هو بإيفاء أحكام الإسلام، أي اتباع الأوامر واجتناب النواهي، وترك المحرمات والشبهات وحتى أغلب المباحات، والابتعاد عن الرخص، والأخذ بالمباحات على قدر الضرورة وهذه الأمور وسيلة أيضًا للوصول إلى درجات الولاية، فيها يصل المرء إلى هذه الدرجات، وكلُّ مَنْ يبقى بعيدًا عن هذه الدرجات فبسبب عدم اكتراثهم واتباعهم رغباتهم، ففیوضات الله تعالى يمكن أن تنزل في كل حين.

مولانا خالد البغدادي رحمته الله (توفي في سنة ١٨٢٦ م)

أوصيكم بتقوى الله وطاعته، وترك إيذاء الناس ولا سيما في الحرمين الشريفين، ولا تغترب أحدًا وإن اغتابوك، ولا تأخذ من أحد شيئًا من حطام الدنيا إلا أن يحكم بأخذه الشرع، فخذ واصرفه في سبيل البرِّ ولا تتفكه بصرفه في الشهوات وإخوانك المؤمنين جوعى عالة، ولا تكذب ولا تحتقر أحدًا، ولا تعتقد نفسك فوق أحد، وابذل جهدك في العبادة القلبية والبدنية، واحسب نفسك أنك ما عملت خيرًا أبدًا؛ إذ النية روح العبادة ولا نية إلا بإخلاص، والإخلاص لأكبر منك فضلًا عنك، وأنا والله لا أعتقد أنني عملت خيرًا منذ ولدني أُمِّي، وأنت تعتقدني خيرًا منك.

فإن لم تجد نفسك مفلسًا عن كل خير، فهو غاية الجهل، وإن وجدت نفسك مفلسًا، فلا تقنط من رحمة الله تعالى، فإنَّ فضل الباري خير للعبد من أن يكون له عمل الثقلين.^{٩٣٦}





موسى أفندي طوباش رحمته الله

(١٩١٨م-١٩٩٩م)

تنعكس روحانية المؤمن وسريرته على سلوكه وعلايته، وتصير تصرفاته انعكاساً لأحواله القلبية، وتصبح فضائله مرآة لسرائره.

ومن هذه الفضائل التي هي عماد أحواله:

- دوام التواضع والتزام النفس به.
- إدراك قيمة الزمن ومعرفة كنز الوقت، وتقدير جواهر الأنفاس، حتى لا نسرف في نفس واحد منها.
- محبة عباد الله جميعاً، فلا هجران، ولا نزاع معهم.
- تقديم النصيح للناس يسيراً لطيفاً، ومخاطبة الناس على قدر ما تستوعبه عقولهم، وتدركه أفهامهم، وتفقهه قلوبهم.
- الستر على عيوب الناس لإصلاحها، والمداراة على خطاياهم ليدركوا فرصة النصيحة والتوبة قبل الفضيحة.
- تحرّي الحلال واجتناب الحرام في كل قول وعمل ومطعم ومشرب.
- استعظام مقدار الذنب مهما كان صغيراً، فهو شأن المؤمن، وعدم احتقار الخطايا، فهذا شأن المنافق، فمن استصغر الذنب كأنه استهزأ بالرب.
- لنزين الأوقات بالطاعات، والأسحار بالصلوات، والأذكار بالدعوات، لننال رضا الله ببركة العبادات.
- وليكن ديدننا تقديم الخدمة إلى كل المحيطين بنا، والدينا وأسرتنا، وذوي السن وأهلينا، وكل ذي حاجة وفاقه.
- لنبتعد قدر الإمكان عن صحبة أهل الدنيا، ولنكثر من صحبة الصالحين ومجالس المتقين.





- ولنكن شديدي الحرص في أسواقنا، ونتحرى الدقة في أمور معاملتنا، وبيعنا وشرائنا، فلا نكون من المطففين، ولا مَمَّنْ يبخسون الناس أشياءهم، فهذه المعاملات قد تضيّع العبادات، وتأكل الحسنات.

وإياك والغفلة عن الذكر، فذلك مصدر الأخطار والخطايا، وينبوع الحزن الذي يكدر صفو الحياة، فَمَنْ كان في معية ربه بالذكر المعنوي، تهابه الشهوات وزخرفها الدنيوي ويحيا كريم النفس مطمئن الخاطر، يقطر قلبه على الناس رحمة، وعلى كل المخلوقات شفقة ورأفة، ويحيا دوماً متدثراً في عبادة المحبة التي يلف بها كل ما تقع عليه عيناه من كون الله.

ولتجعل نُصَبَ عينيك هذا الدستور «سيد القوم خادمهم» في الخدمة: فالخدمة ليست فقط تكليفاً؛ إنما سمو وتشريف، فإنك لا تبتغي وجه الناس بخدمتهم، إنما تبتغي وجه الله ﷻ، فأنت في الحقيقة لا تخدم الناس إنما تتعبد لرب الناس، فأفضل الأعمال عند الله إدخال السرور على المؤمن.

وثمة موضع خاص لخلق خاص، وهو ستر العيوب، والعفو عن المسيء، وإمهال الخاطيء، وقبول العذر، وإقالة العثرات، فكثير من أهل الأخلاق والعبادات ينسون صفة من صفات الله العلي التي ينبغي التخلق بها، وهي «ستار العيوب»، فإذا كان الرب سبحانه على عظمته وقدرته وجبروته؛ يغفر ويستتر، أفلا يعفو العبد وهو الأحوج إلى عفو الناس عن حقوقهم لديه، ليستحق عفو رب الناس من نعمته عليه.

إن ذكاء المؤمن وفطنته وكياسته تتجلى عبقريتها في التمسك بحبل الله في خضم الدنيا، والبقاء في معيته سبحانه رغم زحام البشر؛ بعيداً عن غوغائيتها، مترفعاً عن جواذبها، مرفراً مع الملاء الأعلى بروحه ونفسه ومشاعره.

وأخيراً، ثمة نعمة لا يدركها العبد وإن كانت من أعظم النعم؛ إنها نعمة العجز أمام قدرة الرب، لقد كانت هذه النعمة أعظم النعم التي أدركتها أثناء سلوكي في





طريق الروحانية؛ حيث حجزتني عيوبي عن النظر إلى عيوب غيري، وشغلتنني
سوءاتي عن التطلع إلى سوءات الناس، وأدركت إفلاسي أمام رب العالمين،
وخلوّ جَعْبَتِي مع طول سفري وقلة زادي، فانشغلت بالحق عن الخلق، والحمد
للّٰه الذي أعانني بإدراك عجزِي، فاشتغلت بالتمسك بحبل معيته.



اللّٰهُمَّ اجعل لنا نصيبًا من المحبة الموجودة في قلوب أوليائك، وامنحنا القدرة على
الاستقامة بنصائحهم وإرشاداتهم، فبهمتهم المعنوية تربينا وعلى أيديهم ترعرعنا.
آمين.





(انتبه إلى الأدب)

الفصل السادس

قصص وعبر صوفية

- التعلُّم الحقيقي
- طريقة التربية المعنوية
- إبراهيم بن أدهم والغزال
- عدم الإساءة إلى طريق المولى ﷺ
- الكرامة
- تأثير القلوب الغافلة
- باب الحبيب
- الطاعة - الخدمة - النصيحة
- خدمة المخلوقات
- لطافة أولياء الله تعالى
- الإرادة في الحضرة الإلهية
- الأدب
- الأدب في الخدمة
- الأدب في كل حال
- أخلاق ولي الله تعالى وخدمته
- ليعلم الباقي لا الفاني!
- لا تحتقرنَ أحدًا
- لا تُعبِ أحدًا
- إدخال السرور في قلب اليتيم
- الصداقة
- المقصود من الصداقة
- التسليم تسليماً كاملاً
- طلب الدعاء من المؤمنين
- المجنون وعلاج القلب
- وجوه كوجوه الملائكة
- حالة القلب لدى فعل الخيرات
- الأعمال الصالحة التي تصل إلى العرش العظيم
- إدراك وجود الله دائماً
- احتاج إلى الكريم
- مسؤولية العظماء
- الاستجابة لدعوة الله تعالى
- أهمية الحلال
- الربح الحلال



قصص وعبر صوفية

إن الله تعالى اصطفى من عباده ورثة لأنبيائه، يحيون لخدمة البشرية، إصلاحاً لها، ورفقاً بها.



ليس التصوف قولاً فحسب إنما هو حال وسلوك.

وقد أسلفنا الحديث في الفصول السابقة عن هذه المعاني، فليس التصوف مقصوراً على الحِكم والمواعظ والوصايا، إنما هو أحوال يتقلب فيها المرء في سلوكه وجهاده وطريقه إلى الله ﷻ، تنعكس عليه فيها فيوضات الصالحين، وفضائل الأولياء المقربين، إذ تنعكس أخلاقهم وحياتهم وقصصهم على تلاميذهم عبراً ونماذج ونبراساً.

تلك هي «القصص» أو ما نطلق عليه «المناقب» التي تحمل إلينا أخبار الصالحين وحياتهم، وقد أدت هذه القصص والمناقب دوراً كبيراً في الهداية والتربية، وإنضاج الإيمان، وإكمال الأخلاق، وزيادة أواصر القربى، وتعميق جذور المحبة، وإنضاج ثمار الفضائل من الرحمة والعفو والإيثار.

هذا المنهج التربوي المعتمد على القصص منهج رباني، جاء في القرآن الكريم للتأثير في القلوب وتربية النفوس.

واتباعاً لهذا المنهج الرباني القرآني سنواصل في هذا الفصل - كما بدأنا في الفصول السابقة - عرض نماذج واقعية من حياة أهل التصوف وسلوكهم، كي تنعكس تلك الحقائق على السطور، كما انعكست في الصدور، وأتبعناها بتأويلات وتفسيرات وتنبيهات تقربها للأفهام، وتجعلها نبراساً للأجيال.

أي إننا نرغب في هذا الفصل أن نقدم لقرائنا بعضاً من رشفات بحر أخلاق وفضائل المتصوفين.





- التعلُّم الحقيقي

كان الشيخ سامي أفندي قد أنهى دراسته في كلية الحقوق في دار الفنون، وفي يوم من الأيام قال له أحد أولياء الله - وقد كان معجباً بأخلاقه الفاضلة وسيرته العطرة -:

«يا بُني، إنَّ علمك هذا حسن، ولكن اسعَ لإكمال علمك الأساسي، ودعني أسجِّلك في مدرسة العرفان، لتتعلم هناك علوم القلب وأسرار الآخرة»، ثم أضاف قائلاً:

«يا بُني، إنني لا أعلم كيف وماذا يعلمون الطلاب في تلك المدرسة، ولكني أعلم شيئاً واحداً وهو: أنَّ أول درس عدم إيذاء الآخرين، وآخر درس ألا تُؤذَى منهم».

وقوله هذا يعني أن يكون المرء صاحب قلب سليم، فالله تعالى يقول:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^{٩٣٧}

العبرة:

إذا كان من اليسير عليك ألا ترمي الناس بسهام أذاك، فإنه من الصعب عليك أن تتقي سهام أذاهم، فإنك لا تعلم من أين تأتيك، ولا كيف تتسلل إلى قلبك سموها، إنما يتأتى ذلك لمن حصَّن نفسه بطهارة القلب، وتركية النفس، والتجأ إلى معية الله، واثقاً في معونته سبحانه.

فحين لقي رسولُ الله ﷺ الشَّدة والأذى من أهل الطائف جاءه مَلَكُ الجبال فقال له:

«قد بعثني ربك إليك لتأمرني بما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلتُ».





إلا أن نبي الله عليه الصلاة والسلام الذي أرسل رحمة للعالمين لم يقبل عرض ملك الجبال؛ لأنه كان يحمل في داخله مشاعر الرأفة والرحمة بالناس، وليس مشاعر الانتقام والتشفي؛ وإنما أدار وجهه إلى الطائف، ودعا الله تعالى أن يهدي أهلها.

وحين كان الناس يرمون أبا منصور الحلاج، وهو من عشاق النبي ﷺ، كان يدعو الله سبحانه قائلاً:

«اللهم اعفُ عنهم قبلي، فهم لا يعلمون!»

وهذه حالة يصل إليها المرء بالتعلم الحقيقي، أي إنها حالة مرتبطة بالقلب السليم الذي يكون نتاج التربية المعنوية.

وسئل أبو القاسم الحكيم يوماً عن صفات القلب السليم، فأجاب:

«للقلب السليم ثلاث صفات:

الأولى: قلب لا يؤذي.

الثانية: قلب لا يتأذى.

الثالثة: قلب يعمل الخير لرضا الله دون أن ينتظر أجراً.

فالمؤمن يقف أمام حضرة المولى ﷺ بالورع حين لا يؤذي أحداً، وبالوفاء حين يوجه قلبه إلى ربه دون أن يتأذى بأحد، وبالإخلاص حين لا يرقب رضى أي شريك لله ﷻ في عمله الصالح».

يقول الشاعر:

غاية الإنس والجن في الكون ألا تتأذى ولا تؤذي أي كائن.





- طريقة التربية المعنوية

يوضح الشيخ شاه نقشبند دقائق الأمور التي يهتم بها في موضوع تطهير القلب وتزكية النفس في التصوف بقوله:

«إننا نربي المريد حسب الضرورة، أي حسب الحالة التي هو عليها، فترانا نرجح الجذب أحياناً، والسلوك أحياناً أخرى، إذ نعلم أن بعض مَنْ يأتي إلى مجالسنا فيهم بذور المحبة، وبعضهم لا يملكون هذه البذور، أو أن هذه البذور قد فسدت بسبب العلاقات الدنيوية والفسانية، فمهمتنا تطهير هذه العلاقات الفانية، وزرع بذور المحبة في القلوب، أما البذور المزورة فنسقيها بزمن الحقيقة، ونعرضها لشمس معرفة الله، فتغدو بستاناً من الإخلاص»^{٩٣٨}

«حين نتكلم عن تلقين الذكر، نجد أنه كحجر الصوان الذي تضعه في يد المريد، إذ يحدد المريد بنفسه النتيجة، أي إشعال فتيل العشق بذلك الحجر أو عدم إشعاله»^{٩٣٩}

العبرة:

كثيرة هي أمراض البدن، وكثيرة هي أدواؤها، ولا يختلف الحال كثيراً في أمراض الروح والقلب والنفس وأدوائها، وأهل الطب الرباني من أولياء الله تعالى لديهم من الفراسة والبصيرة ما يشخصون به كل داء يدقُّ عن الأبصار، ويعزُّ على الأفهام، ويعزب عن الإدراك، فيعرفون لكل داء دواءه، ولكل حال شفاؤه، ولكل عليل أسلوباً تربوياً يوافقه.

فقد أوصى أولياء الله تعالى بعض السالكين مثل إبراهيم بن أدهم بأن: «اترك التاج والعرش»، وأوصوا بعضهم الآخر مثل السلطان محمد الفاتح: «إذا تركت

٩٣٨ انظر: أنيس الطالين، ص ٩٠.

٩٣٩ انظر: محمد باقر، المقامات، ص ٦٢.





مهمتك هذه، ولم يأتِ مَنْ هو أصلح منك، فترقّب وبالأّ ينزل عليك». فكان إرشادهم يعتمد على مقام المخاطب.

وقد يمتحن الأولياء بعض الناس بالماء وبعضهم بالنار، لذا، كما أنه من الضروري التسليم للطبيب وتطبيق وصفته كي يُشفى المرء من أمراضه البدنية، كذلك الحال في الأمراض القلبية، بل هي أشد حساسية، فالإهمال في التداوي البدني يضر المرء في دنياه، أما إهمال تداوي القلب فيجعل الإنسان خاسراً للدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.



- إبراهيم بن أدهم والغزال

كان إبراهيم بن أدهم حاكماً في بلخ يتنعم بالسلطة والأبهة، وكان الصوفيون والعارفون في ذلك العصر ينبّهونه بين الحين والآخر كي يُخلّصوه من هواه، ويحيوا تفكيره بالآخرة، ومن أشهر الروايات عنه أنه سمع ذات ليلة ضجة غريبة تأتي من سطح قصره، فلم يستطع النوم وصاح: «ماذا تفعلون هناك؟»

فكان الجواب الغريب: «نبحث عن الناقة التي أضعناها!»

فغضب إبراهيم بن أدهم وقال: «أتبحثون عن ناقة فوق السطح؟».

فسمع جواباً مليئاً بالعبر والمعاني:

«يا إبراهيم، إن كنت تعلم أنه لا يمكن البحث عن ناقة فوق السطح، فلم تبحث عن السعادة الأبدية في هذه الأبهة والعظمة الدنيوية التي تعيش في ظلها».

لقد أثّرت هذه الكلمات في إبراهيم بن أدهم أكثر من التنبيهات التي كان قد سمعها، لكن بعد مدة قصيرة نسي إبراهيم هذه الكلمات، ولم يتغير حاله.

ومضت الأيام تلو الأيام إلى أن جاء اليوم الذي خرج فيه إبراهيم بن أدهم مع حاشيته لاصطياد الغزلان ثم ابتعد عن حاشيته، إذ كان يبحث عن صيد ثمين،





وفي تلك الأثناء سمع منادياً يقول: «استيقظ»، لكنه لم يأكبه بذلك، فسمع الصوت مرة أخرى، ثم مرة أخرى... وبدأ يسمع الصوت نفسه من كل ناحية، كان يسمع منادياً يقول:

«استيقظ قبل أن يوقظك الموت».

وبينما إبراهيم بن الأدهم مندهشاً خائفاً إذ وقف غزال جميل أمامه، فرغب في اصطيد هذا الحيوان اللطيف الثمين، واستعد لرميه، وفي اللحظة التي كان يطلق فيها سهمه، توقف الغزال ناظراً إلى إبراهيم، ونطق قائلاً:

«يا إبراهيم، أخلقك الله الرحمن كي تصيدني؟»

فارتعد إبراهيم من رأسه حتى قدميه، وفاضت الدموع من عينيه، ونزل عن فرسه ليسجد لله تعالى ويتوب توبته هناك، ودعا الله سبحانه قائلاً:

«اللهم يا ذا اللطف والكرم، انظر إلى حالي، يا رب قد أضعت أنفاس عمري في أبهة العيش طويلاً... يا رب فطهر قلبي بلطفك، ولا تجعل فيه إلا محبتك».

لقد فتح إبراهيم بن الأدهم عينيه بعد ذلك اليوم على عالم مختلف كلياً، ناظراً إلى ملكوت الله ﷻ، فكانت نظرتة هذه هي التي أزالَت مفهوم الجمال الذي كان يعتقد به في الماضي، وبعد ذلك اليوم لم يعد للسلطنة والجاه الذي كان يتمتع به في بلخ أي أهمية، إذ بدت هذه الأمور كلها أموراً مؤقتة آيلة إلى الفناء.

خرج إبراهيم بن أدهم إلى الصحارى وهو على هذه الحال، كانت عيناه غارقتين بدموع التوبة، وقلبه محترقاً بنار الندامة وسار طويلاً في هذه الصحارى إلى أن صادف راعياً، فأسرع إليه ليأخذ من الراعي عباة، ويعطيه لباسه، فأحس براحة كبيرة في قلبه. أما الراعي فقد أصابته الحيرة مما حصل، وكان يقول في نفسه: «لا بد أن أميرنا قد أضاع عقله»، لكن إبراهيم بن الأدهم لم يُضِعْ عقله، بل عاد إليه رشده آنذاك، فقد خرج لاصطياد الغزلان، لكن الله تعالى أيقظه وأنقذه بهذه الغزاة.





العبرة:

الإنسان بين خيارين وسلطانين، فاختيار الآخرة هو سلطنة الأبد، وامتلاك النفس والروح لا الجسد، وسلوك طريق السعادة الذي لا نرى فيه عوجاً ولا أمتاً. أما اختيار الدنيا فهو الأخذ من جهنم بأوفر نصيب، والعيش في الدنيا على شفا جرف هار، مهما علا فيها شأنك، أو عظم سلطانك فهو شأن تتقاذفه الخطوب، وسلطان تبغضه القلوب، فتصير كظمآن لا يجد إلا السراب، وفقير لا ينال إلا التراب.

لقد فهم إبراهيم بن الأدهم هذا السر، ورأى أنَّ صلاحه لا يكون إلا بتركه للسلطة، فضحَّى بها، وبذلك صار سلطاناً في عالم الأبدية، أما أسباب التحذيرات والتنبيهات التي كان يتلقاها فهي بركة الجوهرة التي كانت في قلبه، أي جوهرة الإخلاص والولاء لله تعالى وبمعنى أدق، كانت حالته القلبية وسيلةً أظهرت له الأسباب التي دفعته إلى ملكوت الله تعالى، ونيل تجلياته سبحانه، وسهَّلت عليه إفراغ نفسه بترك السلطنة، فوصل في النهاية إلى درجات الإحسان وما أجمل تعبير الشاعر عن هذه الحال حين قال:

إذا أراد الله أمراً يسَّره

خالق الأسباب كلمح البصر أمره.



- عدم الإساءة إلى طريق المولى ﷺ

طريق التصوف هو واحد من الطرق السائرة إلى الله تعالى، وموئل لتجليات نوره سبحانه، ولذا لا يُسمَحُ فيه بأي زيغ عن الاستقامة أو مخالفة لدين الله في جوهره وروحه.

وها هو الشيخ بهاء الدين نقشبند وكان من أولياء الله تعالى وأحد علماء الحديث الشريف، الذي ذاع صيته في مدارس بخارى حتى أقبل على دروسه





الكثير من العلماء والطلاب والمريدين، حتى اشتكت بقية المدارس من قلة الطلاب فيها، وازدحامهم عند الشيخ بهاء الدين، وضج العلماء - علماء الظاهر - قلقاً من هذا الأمر، فخاطبهم شيخنا بهاء الدين النقشبندي:

«دعوني أخبركم بطريقتنا، وإذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسنة، فأعلمونا كي نكف عنه».

وبعد أن تلقى العلماء أجوبة مقنعة على الأسئلة كلها، واستمعوا له لمدة طويلة، لم يجدوا ما يمكن الحديث عنه فقالوا:

«إنَّ طريقتكم طريقة استقامة - أي وفق القرآن والسنة -، ولا اعتراض لنا عليها».

وحين قال أحدهم:

«القبة التي تلبسونها سببٌ للشهرة».

أجاب سيدنا بهاء الدين:

«إذا ما صارت قبعتي موضوع جدل، فإن خلعتها أنسب». ثم خلع قبعته وأعطاهما لفقير.^{٩٤٠} وبعد هذه الحادثة ارتفعت مكانة شيخنا النقشبندي لدى العلماء كلهم.

العبرة:

القرآن دستور أهل الله تعالى، والسنة منهاجهم، وشرع الله تعالى طريقتهم؛ ذلك هو الطريق الحقيقي للتصوف، وديدن كبار أقطاب التصوف في وصاياهم، وهاهو الشيخ نقشبند رحمته الله ينصح مريديه وينصح كل السالكين بالترام شرع الله، فهو لم يجادل علماء الظاهر وإنما قال لهم:

«إذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسنة، فأعلمونا كي نكف عنه»

٩٤٠ صلاح الدين بن المبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ٢٧٨-٢٧٩؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، الورقة: ٧٤-٧٥ ب.





فأوضح بقوله هذا أهمية الاستقامة في هذا الطريق، لهذا على السالكين أن يُظهروا هذه الحساسية نفسها، وألا يعيبوا هذا الطريق الطاهر، ونقصد بالعلماء هنا العلماء الصالحين الربّانيين، لا «علماء السوء» الغافلين الذين فسدت قلوبهم وعلومهم، فساروا عكس الطريق إلى الحق، وانعدم الإخلاص والتقوى لديهم، وأنكروا فضائل أولياء الله تعالى، وباعوا آيات الله مقابل فتات الدنيا.



- الكرامة

طلب المريّدون يوماً من الشيخ شاه نقشبند أن يُظهرَ لهم كرامة من الكرامات، فردَّ عليهم قائلاً:

«إن كرامتنا واضحة للجميع، فها نحن ذا نستطيع الوقوف على أقدامنا، والمشي على هذه الأرض، رغم كثرة الذنوب على أكتافنا، فهل ثمة كرامة أعظم من هذه الكرامة؟»^{٩٤١}

وكان الشيخ يذكّر طلابه دائماً أن الأمر المهم في التصوف هو الاستقامة لا الكرامة، وكان يقول:

«لا ينبغي الميل إلى الأفعال الخارقة للعادة وإظهار الكرامات، فالمهارة الأساسية هي أن تكون على استقامة»^{٩٤٢}

«ويمكن الاعتماد على خوارق العادات والكرامات بشرط الاستقامة في العمل، والتمسك بالسنة الشريفة، فإذا لم يكن هناك تمسك بالسنة، فلا يُعتمد على خوارق ولا كرامة»^{٩٤٣}

٩٤١ أنيس الطالبين، ص ١١٢؛ أبو القاسم، الرسالة البهائية، ورقة: ٥٨ أ.

٩٤٢ أنيس الطالبين، ص ٨٨.

٩٤٣ أنيس الطالبين، ص ٢٦.





وكان الشيخ نقشبند ينقل كلام أحد أولياء الله الذي يقول:

«إذا دخل الولي بستاناً، فنادته كل ورقة من أوراق أشجارها: يا ولي الله، فعلى الولي ألا يلتفت إلى ذلك الصوت لا ظاهراً ولا باطناً، بل عليه أن يسعى في كل حين لزيادة حالة العبودية والتقوى والتواضع التي هو عليها، وإظهار الرقة والعناية، فمرتبة الكمال في هذا الموضوع مخصوصة بسيدنا المصطفى ﷺ، فبقدر ما كان يحظى النبي ﷺ بالنعم والمكارم الإلهية، كان يزيد من عبوديته والتجائه وتضرعه إلى المولى ﷺ، ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^{٩٤٤}»^{٩٤٥}

وكان بعض مريديه يقولون له:

«يا سيدي، مهما حاولت إخفاء كراماتك، تظهر بين الحين والآخر».

فيجيبهم بكل تواضع:

«إن ما ترونه هو كرامات المريدين»^{٩٤٦}

لم يكن الشيخ نقشبند يحب الظهور، بل البقاء خفياً، ولم يأذن -في حياته- لمريده حسام الدين خواجه يوسف أن يكتب أقواله أو كراماته.

العبرة:

إن عظماء الإسلام لم يكن لهم كرامات، ولا هم سعوا إليها، لقد كفاهم من الكرامة حد الاستقامة، فصارت الاستقامة لهم دستوراً؛ حتى سمت بهم الاستقامة فوق مرتبة الكرامة.

وهل الكرامة إلا فعلٌ خارق للعادة؛ ولقد أظهر البعض كرامات كالمشي على الماء، أو الارتقاء في جو السماء؛ لكنهم بذلك لم يتعدوا مرتبة الأسماك

٩٤٤ البخاري، التهجد، ١٦ / ١١٣٠؛ مسلم، صفة القيامة، ٨٠ / ٢٨١٩.

٩٤٥ أنيس الطالبيين، ص ٨٨؛ محمد باقر، المقامات، ص ٥٧.

٩٤٦ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٨ أ.





والطيور، وليس أسمى من مرتبة الإنسان الذي هو عبد لله سبحانه وتعالى، وهو بالفعل يرتقي في مقامات العبودية بكراماته، وليس يرتقي في طبقات الهواء والهراء.

هؤلاء الذين كانت كراماتهم تنفيذاً للأمر الرباني الذي شَيَّب شعر النبي ﷺ في قول الحق سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾^{٩٤٧} فعملوا عليها في الظاهر والباطن طوال حياتهم.



- تأثير القلوب الغافلة

في يوم ذي شأن من عام ١٣٤٠هـ كان ثمة احتفال ديني أقيمت شعائره ومراسمه في مسجد آية صوفيا بإستانبول؛ حيث بدأ الحفاظ يرتلون آيات القرآن الكريم، ثم أخذ المنشدون يتغنون بالمدائح النبوية، مع المناقب المحمدية قراءة وإسماعاً لهذا الحشد الغفير من كل الطبقات والفئات التي اجتمعت لتستمع بهذه الأمسية الدينية، التي -من المفترض- أن يشع فيها الإيمان على قلوب الحاضرين ونفوسهم.

لكن المشاعر كانت مختلفة لدى أحد الحضور؛ إنه الشيخ الرباني عادل، وهو من بيلاربيه، حيث كان يجلس قريباً من المنصة يحاول أن يتخلص من هذا الضيق الجاثم على صدره؛ مستغرباً من هذه المشاعر السلبية في ذلك الجو الديني المفعم، تلفت الرجل يمنية ويسرة لعله يجد مصدر هذا الإشعاع المضجر والريح الصرصر، ولم يطل البحث؛ إذ وجد الشيخ قريباً منه أحد الغافلين قساة القلوب، وكأن قلبه الغافل هو مصدر ذلك الإشعاع، وكأن أنفاسه فحيح أفعى تبث السم، فتكدر روحانية الموقف وتحول النفحات إلى لفحات. وحينها تدارك





الشيخ عادل حاله وانتقل بعيداً عن الرجل،^{٩٤٨} ولكن لم يفارقه هذا الأثر إلا بعد حين، ولا عجب؛ فلدغة العقرب تنقل السم إلى الجسد في ثوانٍ معدودات، لكن استخراج السم من الجسد، ثم البرء من آثاره يستغرق ليالي عدة.

العبرة:

إذا كانت وجوه الصالحين هي مرآة تعكس أنوار الإيمان، وأنفاسهم نفحات من أريج جنة الإيمان، فعلى الضد من ذلك نجد وجوه الطالحين تحمل قسماؤها شبيهاً من قساوتهم، وأنفاسهم تبت فحيحاً من خبث أنفسهم.

وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح، فهذه القلوب التي هامت في رحاب محبة الله تعالى، وأُشْرِبت من قطرات ندى لطفه، ونبتت غراسها وأورقت غصونها وأثمر نوارها في بستان ذكره ومعيته، نجد في ثناياها قصور الجنة يسبح فيها ولدان مخلصون، يطوفون ويُخدمون، ويقدمون لكل المخلوقات كؤوساً من معين.

أما تلك القلوب التي عبدت غرور الدنيا، واتبعت كل سفيه، ولم تسطر في صحيفتها إلا ما يُغضب ربها ولا يرضيه، فلا يُرجى منها إلا نارٌ تقور، وماءٌ يغور، وأرضٌ تبور، وظلٌّ حرور، وعذابٌ وثبور.

ولعل ذلك هو أحد الأسباب الأساسية للأمر القرآني بالنفور عن مجالس هؤلاء، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^{٩٤٩}

٩٤٨ إن تأثير الصلاة يعتمد على حالة القلب، يقول الله ﷻ في سورة الماعون: ﴿قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرْءَوْنَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾. لهذا من الطبيعي وجود الغافلين، أي من فيه مرض في قلبه، وحتى المنافقين في المساجد.

٩٤٩ الأنعام: ٦٨.





إن الخواص من عباد الله تعالى الذين يتمتعون بحساسية قلبية يفهمون هذه الدقة في أمر الله تعالى أكثر من غيرهم، فكلما زادت حساسية القلب توسَّعت المعايير، وبدأ العبد برؤية الحقائق وراء الحجب، وأدركت الأحاسيس الأحداث التي لا ينتبه إليها الآخرون، ولنذكر هنا مثلاً معبراً عن هذا الموضوع من حياة سيفي بابا:

كان سيفي بابا أحد أولياء الله تعالى، محباً للشيخ سامي أفندي -صاحب الكشوفات والأحوال الروحانية- وكان يسكن في طوبكابي، وذهب ذات يوم لزيارة الشيخ سامي رحمه الله، وما إن وصل إلى بيته حتى سقط مغشياً عليه، فقلق عليه الإخوة، وبعد أن أفاق قال أحدهم:

«دعونا نأتي بالطبيب»، لكن سيفي بابا قال والإرهاق بادٍ عليه:

«لا يا بُني، لا تدعُ الطبيب، فحالتي هذه ليست بسبب مرض بدني، لقد أثرَ فيَّ أهل المعاصي وأماكن العصيان التي مررت بها في طريقي من طوبكابي إلى أرُنكوي، وحين دخلت من هذا الباب الطاهر، لم يتحمل قلبي تأثيرات الروحانية التي تلقاها هنا، وستعود صحتي إليَّ ببركة الروحانية، وعون سلطان العارفين سامي أفندي».

والخلاصة:

إن القلوب إما أن تكون مناراتٍ أو مغارات، مناراتٍ تشع النور للخلائق، فتهتدي وتستضيء وتستنير وتستبصر، أو مغاراتٍ تؤوي في جوفها كُلَّ الظلمات والأهوال، ولا يخرج منها للناس إلا الأذى والمخاطر.

وفي صحراء الدنيا يجب على المسافر الحصيف أن يهتدي بقبسات منارات هذه القلوب، فيجد عندها القرى والهدى، وأن يحذر من مخاطر تلك المغارات، فلا يقترب منها، فيَفْجُوهُ ما لا يقدر عليه من أهوالها.





وكان سيدنا داوود عليه السلام يتهل إلى الله تعالى بين الحين والآخر بالدعاء التالي:
«يا رب إن رأيتني متوجهاً إلى مجالس الغافلين، فاكسر قدمي قبل وصولي إليهم، فهذا إكرام عظيم منك عليّ».



- باب الحبيب

في يوم من الأيام قال الشيخ أبو سعيد النيسابوري لطلابه:
«أعدُّوا الركاب، فإننا متجهون إلى بلدة».

ثم خرج الشيخ مع ثلة من طلابه، وحين وصلوا إلى قرية في نيسابور سأل:
«ما اسم هذه القرية؟»

فأجابوه: «اسمها دردوست، أي باب الحبيب».

فقرر الشيخ أبو سعيد رحمته الله النزول فيها، وبعد أن نزلوا ضيوفاً ليوم واحد، سأله بعض الطلبة:

«يا شيخنا، قد كنا ذاهبين إلى بلدة، أفلا نكمل طريقنا؟»

فأجابهم الشيخ الذي يمتلئ قلبه بالأسرار المعنوية:

«يجب على العاشق أن يقطع المسافات الطويلة كي يصل إلى باب الحبيب، ألا وقد وصلنا إلى هذا المكان، أي إلى «باب الحبيب»، فإلى أين نتجه بعدها؟»

فأمضى الشيخ هناك أربعين يوماً، وسادت الأحوال المعنوية والروحانية في تلك القرية، وتاب أكثر أهل القرية ببركة صحبة أبي سعيد رحمته الله وفيوضاته، وصاروا طلاباً صادقين عنده، فكان المعنى الحقيقي الذي قصده الشيخ بعبارته «باب الحبيب» هو فتح القلوب... فلكي يُفتح للعبد باب رضا الحبيب لا بد من حَمَلِ القلب الذي اهتدى إلى حضرته تعالى.





العبرة:

قادة الجيوش والعسكر يفتحون القلاع والحصون، وقادة الأرواح والمريدين يفتحون مغاليق القلوب، فهذا هو دورهم الذي خلقهم الله لأدائه، وتلك هي متعتهم في إيصال الخلق إلى الله تعالى، ففي ذلك وصالهم معه سبحانه وتعالى.



- الطاعة - الخدمة - النصيحة

قال أحد الصالحين - وكان مداومًا على صحبة داوود الطائي - مخاطبًا معروف الكرخي:

«إياك وترك العمل الصالح، فبه تقترب من رضا الله تعالى».

فسأل الكرخي: «وما قصدك بالعمل؟»

فأجابه: «أن تكون مطيعًا لربك في كل حين، وخادمًا وناصحًا للمسلمين».

العبرة:

بالطاعة تكون العبودية، وبالتسليم الكليّ لله تعالى يكون الإسلام، ومنهما تكون بركة الأعمال، فالعبادة القليلة بطاعة وتسليم خيرٌ عند الله ﷻ من عبادات كالجبال، أفلم يكن السبب في طرد إبليس هو نقص طاعته وتسليمه، لا قلة عبادته؟ أما الخدمة فهي الفضيلة التي تمسك بها الأنبياء والأولياء كلهم، فلم يتخلوا عنها في سقمهم، حتى وهم على فراش الموت، وحالتهم هذه مثال كافٍ لأهل العرفان ليعلموا كيف يتمسكون بالخدمة، فالخدمة - باختصار - شعار يتخذه أصحاب القلوب الرحيمة الكريمة.

فمن نضج قلبه، واستوى في الجهاد عوده، وفنيت في العبادات نفسه تراه متجردًا من وجوده الفاني، ومن كينونته البشرية، فيرى ذاته أقل الناس شأنًا، وآخرهم رتبة، وأدناهم منزلة، فيسير في ذيل القافلة خادمًا مطيعًا، وعبدًا مستكينًا ساكن





الفؤاد، رقيق الحال، منجذباً دوماً نحو القلوب المنكسرة، ذوي الهموم والبائسين، اليتامى والمرضى والمحزونين، وغيرهم من البسطاء والضعفاء، هو دائماً معهم يواسيهم ويؤازرهم ويشاركهم أتراحهم، ويخدمهم بقلبه الناضج الرحيم.

أما حين نتكلم عن النصيحة، فهذا أمر يعود لأهل النصيحة فقط، فهي تؤثر بمقدار ما يطبقها المرء، لهذا ليس من الصواب أن يكون كل امرئ ناصحاً، أي لا بد أن يكون الناصح أهلاً لذلك ممَّنْ يتمسكون بأخلاق النبي ﷺ وأسلوبه، أما التهرب من النصيحة مع وجود الأهلية فهو مسؤولية يحاسب عليها المرء حساباً عسيراً، يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف: «الدين النصيحة»^{٩٥٠}

لهذا فإن ترك النصيحة سببٌ للخسران أو ضحته سورة العصر، ويشمل هذا بالتأكيد عدم الاستماع للنصيحة.

والخلاصة هي أن الطاعة والخدمة والنصيحية يجب أن تكون دستوراً ثابتاً للسالكين في الطريق إلى الحق تعالى، وعليهم أن يسعوا لنيل رضا المولى ﷻ بهذه الوسائل الموصلة إلى السعادة الأبدية.



– خدمة المخلوقات

رأى أحد الصالحين في نومه السلطنة برتونيل بعد وفاتها جالسة في مقام عالٍ، وهي السلطنة التي بنت مسجد «والدة» في آكسراي في إستانبول، فسألها:

«هل أعلى الله مقامك بسبب هذا المسجد الذي أمرتِ ببنائه؟»

فأجابت: «كلا»، فسألها الصالح بدهشة:

«فما العمل الذي وصلت به إلى هذه المرتبة؟»

فأجابت السلطنة جواباً فيه الكثير من العبر:





«لقد كان يومًا ماطرًا حين ذهبنا لزيارة مسجد أيوب عليه السلام، وفي طريقنا إلى هناك، رأيت هرة صغيرة هزيلة تحاول الخروج من بركة الماء بالقرب من الرصيف، فأمرتُ بإيقاف العرب، وقلت للمربية^{٩٥} التي كانت بجانبني: «اذهبي وأحضري هذه الهرة الصغيرة، فإنها تكاد تغرق في البركة».

لكن المربية قالت: «يا سلطاني، ستتسخ ثيابنا»، فعلمت أنها لا ترغب في إحضارها.

ولم أكن أريد توبيخها، فخرجت من العرب، وسرت في الوحل، وأنقذت تلك الهرة الصغيرة التي كانت ترتجف، وأحسست بالألم بسبب حالتها، فاحتضنتها كي تنال الدفء، وما هي إلا لحظات حتى عادت المسكينة إلى نشاطها وحيويتها. وقد أحسن الله تعالى لي بهذا المقام العالي بسبب خدمتي الصغيرة لهذه الهرة.

العبرة:

البيت الصغير الذي صنعه السيدة من كفيها وأطراف ردائها، فصار مأوى دافئًا لهرّة صغيرة ضالة صار عند الله تعالى أعظم أجرًا من بيت الله الفخم والمسجد الضخم الذي لا يزال حتى الآن ماثلاً للعيون بعد قرون.

خدمة السلطنة لهرّة من مخلوقات الله تعالى صارت سببًا في مقامها في الجنة، فما ظنك بخدمات دائمة لكل مخلوقات الله تعالى، يؤديها الإنسان الناضجة روحه، والطاهر قلبه، حتى تصير الخدمة غريزة في طبيعته الرحيمة، وصفة مميزة في إنسانيته الراقية.



٩٥١ كانت النساء اللاتي يعملن في خدمة السلطنة من السودان، ويطلق عليهن اسم «باجي». وكان العثمانيون يطلبون الخدمات من السودان على وجه الخصوص كي يعملن في القصر لأنهن كنّ نظيفات عفيفات طاهرات.





- لطافة أولياء الله ﷺ

يروى لنا الشيخ موسى أفندي رحمته الله الحادثة الآتية:

في أحد مواسم الحج كنا في منزل عبد الستار أفندي التركستاني الأصل برفقة العلامة الشيخ سامي أفندي وطلابه، وكان منزله في مكة المكرمة بالقرب من المسجد الحرام في حي أجساد، وكانت الغرفة التي يجلس فيها الشيخ سامي مقابل الشارع، في حين يمكث مَنْ كان برفقته في القسم الداخلي.

وقد شرفنا في ظهيرة أحد الأيام بالوقوف على باب غرفتنا وقال:

«ثمة محتاج في الخارج، أظن أنه بحاجة إلى طعام».

فشرعت أحضّر الطعام بسرعة، وخرجت فلم أرَ الفقير، فقلت في نفسي إنه لم ينتظر، فعدت إلى الغرفة، ثم بعد ثماني أو عشر دقائق، جاء الشيخ سامي مرة أخرى وقال:

«لقد جاء المحتاج مرة أخرى، وينظر إلى الداخل».

وحين أخذت الطعام وخرجت مرة أخرى، إذا بكلب يلهث لشدة جوعه، وينظر إلى داخل المنزل، فوضعت الطعام مباشرة أمامه، فلم يُبق منه شيئاً.^{٩٥٢}

العبرة:

كلنا مخلوقات الله، وكلنا عبيده، فلا يتعالى عبد على إخوانه، ولا مخلوق على أقرانه، مهما اختلف الجنس، أو تفاوتت الأصناف والمقادير.

ذلك هو فَهْم المتجردين من أولياء الله تعالى الذين تستحضرون عند المخلوق خالقه الذي أبدعه، ولا يهتمون بصورة ذلك المخلوق حتى لا تشغلهم عن استحقاقه لديهم وحقه عندهم، حتى لو كان ذلك المخلوق كلباً.





أليس ذلك الكلب مخلوقاً؟ أليس هو من خلق الله تعالى وإبداعه؟ أليس هو أيضاً مُيسَّر لما خُلِقَ له؟

هكذا هي لطافة عظماء الدين وتواضعهم، إذ لم ينادِ الشيخ سامي أفندي الكلب باسم جنسه، بل استعمل كلمة «شخص» للدلالة على هذا الحيوان، وكان في كثير من الأحيان لا يستعمل كلمة «مخلوق» للحيوانات، بل «عباد الله».

لأن حُسن الأخلاق تجاه المخلوقات من أجل الخالق يُعرض في الحقيقة على الخالق ﷻ، وحُسن الأخلاق هذا نابع من قلب متعلق بالله ﷻ، أي من قلب سليم، ومن يصل إلى القلب السليم، فقد وصل إلى ينبوع الولاية الذي لا ينضب، فيكون بعدها في حالة من اللذة الروحانية؛ لأن القلب السليم هو المكان الذي يتجلّى عليه المولى ﷻ، ومثل هذه القلب يكون ساحة للكرم والرحمة.



- الإرادة في الحضرة الإلهية

كثر القيل والقال حول الشيخ محمد نور العربي - من متصوفة القرن التاسع عشر - بأنه أنكر وجود «الإرادة البشرية» أي الإرادة الجزئية، فأصدر السلطان عبد المجيد الذي سمع مثل هذا الكلام قراراً بدعوة الشيخ إلى الحضور، ليسأله عن هذه المسألة، ودُعي الشيخ فكان جوابه:

«لا ريب أن للعبد إرادة جزئية، وهي علة المسؤولية، لكنها ليست عند كل عبد وفي كل زمان، فمثلاً لا شك أنني صاحب إرادة جزئية، لكنني أتيت بأمر السلطان، ولا قدرة لي في أن أذهب من هنا، فإن قيل: «احضر» حضرنا، وإن قيل: «اذهب» ذهبنا، وهذا يعني أن لا إرادة لدي في هذا الأمر، وتحركاتي كلها أيضاً محدودة؛ لأنني أمام السلطان، وثمة بعض الأشخاص يحيون دائماً في مثل هذه الحالة، أي في إدراك أنهم في حضرة رب العالمين، في حين هناك الكثير من الأشخاص يقرّون أنهم أمام الحضرة الإلهية في الصلاة فقط، مع أن الله





تعالى حاضر وناظر إليهم في كل مكان، إذًا مَنْ ارتقى إلى درجة معنوية معينة، يحيا مدرّكًا أنه أمام الحضرة الإلهية في كل حين، وأنتم هنا الذين تقدرون وجود الإرادة الجزئية عند مثل هؤلاء أو عدم وجودها.

فسّر السلطان بهذا الجواب، وأكرم الشيخ وأحسن إليه.

العبرة:

إن العبد صاحب إرادة، وهذه الإرادة أو القدرة إكرام من الله ذي الجلال والعزة، ومع أن إرادة الله تعالى موجودة في كل حدث، فإنه يرضى عن الخير فقط، فغاية المعلم مثلاً هي تقديم العلم لطلابه كي يجتازوا الامتحان، فإن لم يدرس الطلاب، فلا حيلة للمعلم، أما وظيفة الطبيب فهي علاج المرضى، فإن لم يطبّق المريض وصفة الطبيب، فإن النتائج السيئة التي قد تصيب المريض يكون هو وحده مسؤولاً عنها، ولا يمكن أن يُتهم الطبيب هنا بأي تقصير.

وتسليم العبد إرادته إلى المولى ﷻ -الذي يقف في حضرته- سيكون وسيلة للإحسان إلى العبد لا إلى المولى سبحانه، أي إذا سلّم العبد -في إطار معايير الإخلاص- بصره لنظر الله المطلق، ويده لقدرة المولى المطلقة، ولسانه لصفة كلام الله المطلقة، وأذنه لسمع الله المطلق، فسيكون بصره وسمعه وإدراكه أحسن، أي إنه لن يُحرم البتة مما تخلقى عنه، بل إنَّ كلَّ ما سلّمه يعود إليه بحفظ كثيرة مطلقة، لذلك يقول الله تعالى في الحديث القدسي في عباده الصالحين الذين سلّموا إرادتهم لإرادة الله تعالى الذي يقفون في حضرته دائماً:

«... كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها،...»^{٩٥٣}





- الأدب

يقول داوود الطائي:

«لزمت الإمام أبا حنيفة عشرين عامًا، فلم أراه يومًا جالسًا حاسر الرأس، سواء كان وحيدًا أم بصحبة الآخرين، ولا ماذًا قدميه للراحة، فقلت له:

هل عليك جناح إن مددت قدميك حين تكون وحيدًا؟

فأجابني: التأدب أمام الله تعالى أفضل»

العبرة:

الأدب عند أولياء الله تعالى هو غرسٌ نَبَتَ في قلوبهم، روته دماء جهادهم حتى تفرعت شجرته في عروقهم، فصار الأدب دينهم وديندهم، وصار الأدب لُحْمَتَهُمْ وَسَدَاهُمْ، وصار الأدب نورهم وسراجهم يصدر عنهم ويصدرون عنه، حتى لا تكاد تميز الحدود بينهما.

هم الأدب بعينه، لا يتصنعونه من أجل أحد ولا في وجود أحد، إنما هم دائمًا في حضرة الله الواحد الأحد، فالأدب الصادر عنهم أدب مع الله ﷻ ومع الناس، لا باعتبارهم أشخاصًا إنما باعتبارهم خلقًا من خلق الله ﷻ.

وهؤلاء العارفون أصحاب القلوب الكاشفة يعيشون في يقين دائم أنهم في معية الله سبحانه وتعالى وحضرته في كل زمان ومكان، مستظلين بظلال قوله سبحانه وتعالى:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾ ٩٥٤

أما أصحاب العقول القاصرة والقلوب غير الناضجة فيكتفون بتصنع الأدب في الصلاة كأن الله تعالى حاضر فيها فقط ثم يغيب -حاشاه- بعد انقضائها، ولو





استشعرت قلوبهم معيته، واستروحت أرواحهم بحضرته لأدركوا معنى وسر قوله سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾^{٩٥٥}

فهم دائماً في حالة صلاة؛ أي إنهم دائماً في حالة حضور خاشع أمام الله تعالى.



- الأدب في الخدمة

يقول عبد الله روغندي:

«إياك أن تستصغر خدمة وُكِّلَ بها؛ لأن الخدمة تبقى خدمةً، وقد تكون الخدمة التي تبدو لك غير ذات شأن شيئاً عظيماً عند الله تعالى لأسباب متنوعة، وبما أننا نجهل الخدمة التي يرضى عنها المولى ﷺ، لذلك فلتستمر في الخدمة بكل أنواعها، حتى تصل إلى مراد الله تعالى ورضاه، ولتكن النعم والتجليات التي نلتها وسيلةً لزيادة شكرك وخدمتك فقط».

العبرة:

الخدمة شعار المرشدين والمريدين من أهل التصوف، وهي أيضاً وسيلة ومنهج وسلوك، والغاية منها بلوغ رضا الله ﷻ، فإذا فَقَدَتِ الخدمةُ أحدَ هذه المعاني والشروط والحدود؛ خرجت من مضمونها وانحرفت عن مسارها.

فعليك أن تخدم الناس - كل الناس - في كل الأوقات والأحيان والأحوال، في المنشط والمكروه، للعظيم والحقير، فإذا اقتصرت خدمتك على أحدٍ ما، فقد قصدت بخدمتك هذا الأحد، ولم تقصد رضا الواحد الأحد.

وقد تلقى مثل هذه الأنواع من الخدمة ثناء الناس، لكنها تسقط من نظر رحمة الله عن العبد، وينزل عليه غضبه، فليست غاية الخدمة نيل النتائج التي تبهر





عيون الناس في هذه الدنيا، بل عرض الأعمال والخدمات التي توصل العبد إلى الدرجات العليا في عالم الآخرة.

لذلك على السالك أن ينظر إلى كل نوع من أنواع الخدمة على أنها غنيمة، فمن الممكن أن تخفي الخدمة التي يستصغرها الناس داخلها أجرًا إلهيًا لا تحدّها السماوات والأرض، وقد يمتحن الله ﷻ ولاء العبد وإخلاصه فيخفي الكثير من نعمه في قطرة، وينظر إلى القلوب أين تتجه.



- الأدب في كل حال

يقول ابن عطاء رحمته الله:

إن الذين يترقون في هذا الطريق المعنوي لم يصلوا إلى هذا المقام السامي بالعبادات مثل الصلاة والصيام فحسب، بل ارتقوا في الدرجات بسلوكهم وأعمالهم الفاضلة، إضافةً إلى أداء العبادات بالتمام والكمال، يقول رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا...»^{٩٥٦}

العبرة:

الدين هو الأخلاق، ومن جوانب عظمة النبي ﷺ أنه كان كما وصفه ربه سبحانه في القرآن:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^{٩٥٧}

هذا هو سر الرسالات، وهدف الأنبياء، وغاية المرسلين، وطريق المرشدين، ومُراد السالكين، ومنهج المريدين.

٩٥٦ الترمذي، البر، ٧١/٢٠١٨.

٩٥٧ القلم: ٤.





وما أجمل قول الشاعر حين وصف الأدب قائلاً:

الأدب تاج من نور الباري

فالبسه تأمن من كل بلاء.

ونظم أحد العارفين شعراً قال فيه:

بحث بين أهل القلوب طالباً

كلَّ عمل مقبول لكن بالأدب.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«سأل قلبي عقلي: ما الإيمان؟، فدنا عقلي من أذن قلبي وهمس: الإيمان هو الأدب... لذلك مَنْ لا أدب عنده، لا يقتصر على إيذاء نفسه فحسب، بل قد يحرق الدنيا كلها بسبب قلة أدبه».



- أخلاق ولي الله تعالى وخدمته

كان الشيخ أحمد الرفاعي يلقي السلام على كل مَنْ يراه، وإذا ما سمع بمرض أحدهم في قرية أو بلدة، يعود في أول فرصة تسنح له، وكان حين يلتقي بأعمى في سفره يمسك بيده ويحمله إلى وجهته، وإذا صادف شيخاً أعانه في حمله ثم نصح أصحابه بحديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا قبض الله له مَنْ يكرمه عند سنه»^{٩٥٨}

وأثناء عودته من سفره خارج المدينة كان يذهب إلى الغابة، فيحتطب ثم يحمل حطبه على دابته، ويعود إلى المدينة ليوزعه على الأراامل والعاجزين والفقراء والمحتاجين.





وكان يهرع إلى خدمة المجانين والمقعدين، فينظف ثيابهم، ويجالسهم، ويصحبهم، ويحمل إليهم الطعام فيطعمهم بيديه، ثم يطلب منهم أن يدعوا له، وكان يقول لمريديه:

«إنَّ زيارةَ مثل هؤلاء من العاجزين ليست مستحبة، بل واجبة».

وفي يوم من الأيام مرَّ على أطفال يلعبون، فهرب بعضهم خوفاً من هيئته، فركض الشيخ مباشرة خلفهم، واحتضنهم برأفة ومحبة كبيرة لينال محبة قلوبهم، وخاطبهم قائلاً:

«يا أولادي، إنكم ترون أنني عبد عاجز، فسامحوني إن أقلقتمكم».

العبرة:

قلب الإنسان هو صحيفة أعماله ومرآة سيئاته، فإذا أصاب ذنباً ما ولم يتداركه بالاستغفار والتوبة نُكِّت فيه نُكَّة سوداء، فإذا تكاثرت تلك النُكَّت اسودَّت الصحيفة واسودَّ القلبُ، وقد أدرك العارفون هذه الثغرة الخطيرة للذنوب على القلوب، فكان لسان حالهم:

«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد».

ويضعون نصب أعينهم قول الحق تعالى:

﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^{٩٥٩}





- ليعلم الباقي لا الفاني!

كان بعض فقراء المدينة المنورة - فيما مضى - يجدون في كل صباح أكياس دقيق عند أبوابهم يضعها شخص مجهول، وفي صباح أحد الأيام استيقظ الفقراء فلم يجدوا أكياسهم، وبينما كانوا يتساءلون عن السبب، إذ سمعوا صوتاً شجياً يعلن وفاة زين العابدين حفيد الإمام علي عليه السلام، فحزن كل من هناك حزناً شديداً. فشرعوا بالتحضير لدفنه، وحين أرادوا تغسيله، جعلوا ينظرون إلى آثار سوداء بظهره، فقالوا: «ما هذا؟» ف قيل: «كان يحمل أكياس الدقيق ليلاً على ظهره يعطيها لفقراء أهل المدينة»^{٩٦٠}

العبرة:

أضاف كتاب «صفة الصفوة» إلى تفاصيل قصة هذا الكرم الخفي لسبيل البيت النبوي، أن زين العابدين كان يُشيع بين الناس أنه من البخلاء، فلما مات علم أهل المدينة أنه كان يُعول أكثر من ثمانين بيتاً من فقرائها!

هذه المبالغة في الستر والإخفاء، وفي درء العيون والألسن عن الأعمال أشبه بحصون المؤمن التي يحافظ بها على عمله من الرياء، ذلك الشرك الخفي الذي يمحق الأعمال، ويذهب بثوابها أدراج الرياح.

لذا يكون العمل الصالح مقبولاً حين يؤديه العبد واضعاً في ذهنه فكرة «ليعلم الباقي لا الفاني»، عندها لن تكون الأقلام ولا المداد كافية لتسجيل ثواب مثل هذه الأعمال وأجرها.

وما أسعد أولئك العظماء المجهولين والأتقياء الأخفاء، الذين يسعون لبث السرور في قلوب العباد بخدمات التضحية الصادقة سعيّاً لرضا الله، لا تلبيةً لأهوائهم.





- لا تحتقرنَّ أحدًا

يُروى أن عيسى عليه السلام خرج مع رجل يدعي الصلاح من بني إسرائيل، فتبعهم رجل ذليل معروف بفسقه وذنوبه بين الناس، وأثناء استراحتهم في الطريق، جلس هذا المذنب في مكان آخر في حالة من الندامة والحياء كسير القلب، والتجأ إلى الله تعالى أرحم الراحمين طالباً عفوه، ودعا قائلاً:

«يا رب، اعفُ عني بنبيك الكريم هذا».

فاستصغره الرجل الذي يدعي الصلاح حين رآه، واستحققه، ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم لا تحشرنني مع هذا الرجل يوم القيامة».

فأوحى الله ﷻ إلى نبيه عيسى عليه السلام أن:

«يا عيسى، قل لعبديَّ هذين إنني استجبت دعاءهما، فعفوت عن المذنب مع كثرة ذنوبه وجعلته في الجنة، أما الآخر الذي يدعي الصلاح بين الناس فلن يرى الجنة، إذ أراد ألا يكون مع عبدي الذي غفرت له».

العبرة:

القلوب هي موازين الأعمال، ومرآة الأحوال، ومنابر الدعاء والسؤال، فالقلب الكسير التائب أحبُّ إلى الله تعالى من القلب المغتر بعبادته المتعالي بأعماله، ورُبَّ ذنب أورث ذلاً بين يدي الله وانكساراً، هو أعظم أجراً من عبادة أورث صاحبها تعالياً واستكباراً. يقول رسول الله ﷺ:

«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم...»^{٩٦١}

ويقول الشاعر:

أيها الزاهد لا تحتقرن الشُّعث الغُبر... فكم من كنز أسفل الخرب.





- لا تَعِبْ أَحَدًا

يقول حمدون قصار رحمته الله: «إن رأيت سكران يترنح في طريقه، فانتبه، وإياك أن تُلْمُهُ، فقد تُبْتَلَى بما ابْتُلِيَ به».

العبرة:

قال رسول الله ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك في رحمه الله وبتليك»^{٩٦٢}
وقد عبر الإمام الشافعي عن فلسفة أهل الحق ونظرتهم تجاه أهل الصلاح، وأهل الذنوب، فقال:

أحب الصالحين ولست منهم لعلني أنال بهم شفاعته
وأكره من تجارته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة.

والمتصوفون المرشدون لا يبغضون أهل الذنوب؛ بل يبغضون عين الذنوب، أما أهلها فهم بضاعتهم التي يتجرون فيها بالإرشاد والهداية والإصلاح، فهم كالصيافة يميزون الذهب مهما ضاعت معالمه، وتشوهت صورته، كذلك العبد إذا أوحلته المعصية، ودنسته الذنوب، أبعد ما يرجوه هو التقريع والتعنيف والعيب. يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^{٩٦٣}

فحصر بذلك محاسبة العباد على ذنوبهم به وحده ﷻ، وحرّم على الإنسان أن يدخل في هذه الدائرة الخاصة به سبحانه.

٩٦٢ الترمذي، القيامة، ٥٤/٢٥٠٦؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٢٢، ٥٣/١٢٧.

٩٦٣ الحجرات: ١١.





ونجد من ناحية أخرى أن مَنْ يعيب غيره ويحتقرهم غالبًا ما يقع في الخطأ والذنب نفسه، وهذا ما يعبر عنه المثل الذي يقول: «مَنْ عاب ابْتُلي».



- إدخال السرور في قلب اليتيم

يقول السري السقطي:

«رأيت معروفًا الكرخي في أحد أيام العيد يجمع نوى التمر في الطريق، فسألته عن سبب جمعه إياها، فقال: رأيت طفلًا صغيرًا يبكي، فسألته عن حاله، فأخبرني أنه يتيم يبكي لافتقاره إلى ثياب ودمى يتنعم بها كغيره من الأطفال، ثم بكى مرة أخرى، فأشفقت عليه؛ لذا أجمع نوى التمر كي أبيعها، وأشتري له بها ثيابًا ودمى. فأشفقت أنا أيضًا على الصغير واكتوى قلبي لأجله، فرجوت الشيخ قائلاً: ائذن لي أن أهتم بهذا الطفل، ولا تشغل فؤادك به، ثم أخذت الطفل ولبيت احتياجاته». ويوضح السري السقطي الحالة التي وصل إليها بركة هذا العمل الصالح بقوله: «لقد دخل النور إلى قلبي ببركة هذه الخدمة، فصرت في حالة مختلفة كليًا، وتذوقت اللذات الروحانية الكثيرة»^{٩٦٤}

العبرة:

إن إدخال السرور إلى قلب اليتيم ورعايته من أفضل الأعمال الصالحة التي حثَّ الإسلام عليها كثيرًا ولها أجر عظيم جدًا، والوعد الذي أعطاه رسول الله ﷺ في الحديث الآتي يروق القلوب العاشقة:

«كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة»، وأشار بالسبابة والوسطى. ويُقصد أيضًا من هذا الحديث الاهتمام بمسائل اليتيم كلها المادية والمعنوية.





الصدقة

يقول سهل بن إبراهيم:

«صحبت إبراهيم بن أدهم: فمرضت فأنفق عليَّ نفقته، فاشتريت شهوة، فباع حماره وأنفق علي ثمنه، فلما تماثلت قلت: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فقال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخي على عنقي، فحملني ثلاثة منازل»^{٩٦٥}

العبرة:

لا تصلح أيام البسط والرخاء في تقويم الأصدقاء، فهم فيها كثير ملتفون حولك، فإذا انقضت تلك الأيام انفضوا، وإذا ولت تلك الأيام انفرط عقدهم، حتى يكادوا ينكروا أنهم رأوك من قبل، ولكن:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا مَنْ كان يألّفهم في الموطن الخشن
وأهل الصلاح والفلاح من الرعيل الأول من المسلمين حين ذكرهم الله
تعالى في قرآنه العظيم، وصفهم بأنهم:

﴿...رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...﴾^{٩٦٦}

﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾^{٩٦٧}

فإذا تراحم العباد، أظلتهم رحمت رب العباد، وهو قانون سماوي يوضحه الحديث الشريف:

«الراحمون يرحمهم الرحمن...»^{٩٦٨}



٩٦٥ القشيري، الرسالة، ١، ٣٧.

٩٦٦ الفتح: ٢٩.

٩٦٧ الحشر: ٩.

٩٦٨ أبو داود، الأدب، ٥٨ / ٤٩٤١.





- المقصود من الصداقة

صحب عبد الله بن المبارك يوماً رجلاً سيئ الطباع، وبعد أن افترقا بدأ عبد الله بالبكاء، فرآه أصحابه فسألوه: «لِمَ تبكي؟ ما الذي أحزنك؟»

فتنهّد، وقال وعيناه تدمعان:

«لم أستطع أن أصلح حال صديقي على طول سفرنا، ولا حسّنت أخلاقه. وأسأل نفسي: أمن عيب فيّ لم يستفد هذا الرجل؟ فإن لم يجد الاستقامة لخطأ مني، فماذا سيكون حالي غداً!»

ثم شهق شهقاتٍ واستمر في بكائه.

العبرة:

﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^{٩٦٩}

فإذا افتقدت الصداقة التبادل المعنوي، والتأثير الإيماني، والأخذ بالأيادي للترقي الروحاني؛ تصبح عبثاً لا عوناً، وعداوة لا خُلةً، وتصبح رابطتها تعصباً لا عصبية، وتعاونها مظلمة لا مرحمة.

فالذين يلتقون على موثيق الله تعالى ليشدّ بعضهم من أزر بعض، غير الذين يتغافلون عن الهدف الحقيقي للصداقة فيتلاحون في جهنم، ويقول بعضهم لبعض:

﴿...لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾^{٩٧٠}

وتتأصّل الأصدقاء ليس كتناصح المرشدين والمريدين أو العلماء المتعلمين؛ إنما هو محاسبة النفس وتطهيرها، فالمؤمن مرآة أخيه، والمرء على دين خليله،

٩٦٩ الزخرف: ٦٧.

٩٧٠ الفرقان: ٢٨.





فإذا وجدت من نفسك صلاحًا، ومن قلبك طهارة، ومن روحك رقيًا، فاعلم أن صاحبك قد بادلك طباعك، وأن قلبه قد أصاخ أذنيه لسماعك، وأن قدميه توافقنك في دربك.

وأما إذا وجدت في أخلاقه اعوجاجًا، وأنه حاد عن الصراط المستقيم، فاعلم أن عقد الصداقة بينكما قد انفرط، وأن هوى نفسه غلب عليه.



- التسليم تسليمًا كاملاً

روي أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام:

﴿اذهبِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^{٩٧١}

فقال: «يا رب، أهلي وغنمي»، قال الله تعالى مذكّرًا إياه أنه خير الحافظين:

«إذا وجدتني فأبشّرني بشيء تصنع بغيري؟»

يا موسى، اذهب واعتصم، واستسلم لي، وفوض الأمور إليّ، فإني جعلت الذئب راعيًا لغنمك، والملائكة حافظين لأهلك....

يا موسى، مَنْ أنجاك من اليم حين ألقتك أمك فيه؟

وَمَنْ رَدَّكَ إِلَىٰ أُمِّكَ بعده؟

وَمَنْ أنجاك من عدوك فرعون حين قتلت نفسك؟

وَمَنْ أنجاك من المفازة حين فررت من فرعون؟».

وهو يقول في ذلك كله:

«أنت، أنت»^{٩٧٢}

٩٧١ طه: ٢٤.

٩٧٢ أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، ص ١٧٨.





العبرة:

﴿...أَوَلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمَنَّ قَلْبِي...﴾^{٩٧٣}

أنبياء الله تعالى وأولو العزم من رسله لا ريب في تمام يقينهم وفي ذروة تسليمهم وفي برد طمأنيتهم، لكن حديث النفس الخفي يديه رب اللطف الخفي في هذه المواقف والعبر لدى أسمى نماذج البشرية من رسل الله تعالى.

وفي هذه القصة يرسخ الله ناموسه الكوني، ودستوره القرآني أنه:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾^{٩٧٤}

فكل أوامر الله تعالى وتكاليفه هي في حول البشر وطولهم واستطاعتهم، مهما بدا للمأمور استحالة تنفيذ الأمر، فإذا أخلص العبد لربه وأصاخ السمع لأمره واستحث الهمم لكل جوارحه كان ربه معه في نفاذ أمره، وكان معه يسمع ويرى.

فليصدع أهل الحق بدعوة ربهم، ولا يخافوا في ذلك لومة لائم حتى لو كان المدعو هو فرعون وهامان ورجالهما:

﴿...فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا...﴾^{٩٧٥}

فقد جعل الحفيظ ﷺ موسى يتربى ويتزعرع في قصر فرعون، وهو الذي جعل نار نمرود روضة لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو الذي حفظ أهل الكهف من شر الظالمين بأن جعلهم ينامون قرابة ثلاثمئة سنة في الكهف، وهو الذي صان نبينا المصطفى ﷺ من الكثير من الأخطار لا سيما في غار ثور حين أعمى أبصار أعدائه.



٩٧٣ البقرة: ٢٦٠.

٩٧٤ البقرة: ٢٨٦.

٩٧٥ يوسف: ٦٤.





- طلب الدعاء من المؤمنين

مرَّ معروف الكرخي يوماً بسقاء يقول: «رحم الله مَنْ يشرب»، وكان صائماً فتقدم، فشرب، فقيل له: «ألم تكن صائماً؟» فقال: «بلى، ولكنني رجوت دعاءه». ورُئي في المنام بعد وفاته فقيل له: كيف عاملك الله؟ فأجاب:

«لقد غفر ربي لي ببركة الدعاء الخالص الذي دعاه السقاء، وعاملني برحمته»^{٩٧٦}

العبرة:

كم من الأتقياء الأخفياء الصالحاء الذين تبلغ دعواتهم عنان السماء ولا يلقي لهم الناس بالاً، لكن أهل القلوب العارفة والأحاسيس المرهفة يدركون قيمة هؤلاء ومنزلتهم عند ربهم، فيلتمسون بركة دعائهم ويحرصون على نوال فيوضاتهم.

فلا العارف يكتفي بعمله، ولا المؤمن ييخل على الناس بدعائه، ولا الحصيف تفضل عيناه عن معرفة أهل الفضل والبركة.

يقول رسول الله ﷺ:

«ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، وأهل النار: كل جَوَّازٌ عُتِلَّ مستكبر»^{٩٧٧}



- المجنون وعلاج القلب

ذهب أبو يزيد البسطامي إلى الطبيب قاصداً العلاج، فسأل: «يا طيب، هل عندك علاج لمرضي؟ فأجاب الطبيب: «ما مرضك؟»، قال: «مرض الذنب»، ففتح الطبيب يديه معرباً عن يأسه، وقال: «لا أعلم علاجاً لمرض الذنب».

٩٧٦ انظر: أبو نعيم، الحلية، ج٨، ٢٦٥؛ القشيري، الرسالة، ج١، ٤٤.

٩٧٧ البخاري، الأيمان، ٩/ ٦٦٥٧؛ مسلم، الجنة، ٤٧/ ٢٨٥٣.





في تلك الأثناء مرّ مجنون بهم، فقال: «يا سيدي، أنا أعلم علاج مرضك»، فسّر البسطامي وقال: «هاتِ ما عندك» فقال:

«خذ بعشرة دراهم جذور توبة، وبعشرة دراهم أوراق استغفار، ثم ضعها في مهراس القلب، ثم اطحنها بمدقة التوحيد، ومررها بمنخل الإنصاف، واعجنها بالدموع، ثم اطبخها في موقد العشق، ثم كُلْ من هذا المعجون خمس ملاعق كل يوم، حينها لا يبقى أثر لمرضك».

وبعد أن سمع أبو يزيد البسطامي هذا الكلام تنهد وقال: «وأسفاه على مَنْ يظن نفسه عاقلاً، وأن عارفاً مثلك مجنون».

العبرة:

كم هم كثيرون أولئك المغمورون من عقلاء المجانين وأطباء العارفين، لا يبالون بمظهر ولا مخبر، ولا يشغلهم نظر الناس إليهم ولا قول الناس فيهم، مثلهم كمثّل أويس القرني الذي لم يأبه له قومه، وتركوه يكلأ مطاياهم ويحرس متاعهم بينما الخليفان صاحباً رسول الله ﷺ يجِدَّان في البحث عنه ليدعو لهما عملاً بوصية النبي ﷺ.

وتعكس هذه القصة من ناحية أخرى بركة الأمر الإلهي في قوله تعالى:

﴿...وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^{٩٧٨}

فقد فهمنا من قصة هذا الشاب العارف أن الوصفات القلبية الصادرة عن الصالحين كافة تقدّم شفاءً لأمراض معنوية كثيرة، وبذلك تربط القلوب بالحق تعالى بصورة نقية طاهرة حيّة، ونرى أن طلب البسطامي علاجاً لقلبه مع أنه صاحب قلب حيّ يقظ ما هو إلا مظهر من مظاهر تواضعه، وطريقة يعالج فيها قلب الطبيب الذي كان عنده.





- وجوه كوجوه الملائكة

في يوم من الأيام كنّا عائدين من بورصة إلى إستانبول برفقة الشيخ سامي أفندي ووالدي موسى أفندي رحمهما الله، وفي يالووا كان علينا أن نقف بسيارتنا في صف واحد كي تصعد السيارات إلى الباخرة لتنقلنا إلى الشاطئ الآخر، وبينما كان الموظف المسؤول عن تنظيم الصف -منعاً للفوضى- يشير إلى مكان وقوفنا بالسيارة، نظر إلى الشيخين سامي أفندي وموسى أفندي اللذين كانا يجلسان في الخلف، فتوقف فجأة مندهشاً ثم اقترب منا وحقق ببصره من نافذة السيارة وقال: «يا الله، ما أغرب هذه الدنيا! ثمة فيها وجوه كوجوه الملائكة... ووجوه كوجوه نمرود».

العبرة:

من علامات الولاية ذلك النور الإلهي الذين تتعطش إليه القلوب الباحثة عن المدد الرباني، فتراه من حيث لا يراه الناس. ومن علامات الولاية تلك الوجوه التي لا يملك رائيها إلا أن يندهش ناطقاً بالتسبيح، منفتح القلب بالذكر.

إنهم ورثة الأنبياء، وقد كان قدوتهم ﷺ المثل الأسمر في ذلك، فمن ينظر إليه من الغرباء يعرف أنه نبي، ومن يستمتع بنور محياه يدرك الهدى؛ كل ذلك والنبي ﷺ لا يكاد ينطق، وأشهر حادثة نعرفها في ذلك هي قصة إسلام أحد أحبار يهود المدينة، وهو عبد الله بن سلام، الذي قال حين نظر إلى الحبيب الهادي ﷺ: «إن وجهه ليس بوجه كذاب»، وهنالك أسلم وآمن.^{٩٧٩}

لذلك نرى أنه حين يمشي أيُّ عبد أو يتجول في أي مكان يخبر دائماً من حوله بأشياء -إيجابية أو سلبية- دون أن ينطق بكلمة، أي عبر حاله، ويترك لدى





الناس انطباعات كثيرة، ويخاطبهم بنظراته الكثيرة سواء أكانت عن قصد أم دون قصد، فمن له أن يعلم كم من شخص مجهول سيعجبه حال ذلك العبد بمجرد النظر إلى جلوسه، وقيامه، وحديثه، ونظراته، وسلوكه وحاله كله، فيأخذه قدوة حين يجده مناسباً لفطرته.

واعلم أن الكون مكان لتجلي أسماء الله الحسنى، وهذا الإنسان الغامض بأسراره هو تجلي الإبداع والقدرة الإلهية، وهؤلاء الصالحون والكاملون الذين هم مظهر من مظاهر فيوضات الله تعالى لم يكونوا يوماً جزءاً من الماضي، إذ تستمر حياتهم بعد فناء أجسادهم؛ لأنهم قدوة للبشرية كلها.



- حالة القلب لدى فعل الخيرات

يروى الشيخ موسى أفندي رحمته الله الحادثة الآتية:

كنّا في سفر مع الشيخ سامي أفندي، وفي بلدة أورغوب أوقف رجل حافلتنا وطلب مالاً كي يشتري سجائر، ومع أن بعض المسافرين أبدوا معارضتهم بصمت، قال الشيخ سامي أفندي:

«بعد أن طلب منا فعلينا أن نعطيه»،

فلبوا طلبه. فسرّ الفقير بذلك وقال مبدلاً نيّته:

«يمكنني الآن أن أشتري خبزاً بهذا المال»، وابتعد عنهم.

العبرة:

فقط عليك أن تخلص النية حين تعمل العمل، وتنظر إلى قلبك، ولا تنظر إلى مَنْ تقدم له خدمتك. إن السلوك والمعاملات حين تكون لرضا الله تعالى وحده، تؤثر في قلب المُخاطَب، وتُحسِّن أخلاقه، لذلك لا بُدَّ أن يتذكر الإنسان دائماً أن حالة قلبه أكثر أهمية من حالة قلب المحتاج أثناء فعل الخيرات.





فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأُتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله»^{٩٨٠}

من أجل هذا كله، يجب على المتصدق أن يكون شاكراً لربه؛ لأن تأثير الصدقة منوط بإخلاص المتصدق.



- العمل الصالح الذي يصل إلى العرش العظيم

عن حماد بن أبي حنيفة، قال:

«قالت مولاة لداود الطائي: يا داود، لو طبختُ لك دسمًا؟ قال: فافعلي، قال: فطبخت له شحمًا، ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، فقالت له: فديتك إنما تأكل هذا الخبز بالماء بالمطهرة قال: إذا أكلته كان في الحش، وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخورًا»^{٩٨١}

٩٨٠ البخاري، الزكاة، ١٤ / ١٤٢١؛ مسلم، الزكاة، ٧٨ / ١٠٢٢.

٩٨١ أبو نعيم، الحلية، ٧، ٣٥١.





العبرة:

خلق الله عبادةً من خلقه يحيون لقضاء حوائج خلقه، ما في أجسادهم سوى قلوب تستشعر هموم الناس، وأرواح تتألم لألمهم، ولا جوارح لهم إلا وهي تسعى في البر بالناس؛ حتى يكادوا أن ينسوا أنفسهم، وكما أنه من المستحيل أن تتوقف الشمس عن بث الحرارة، كذلك من المستحيل ألا يتألم ذوو الأرواح السامية من أحوال الناس المأساوية، وأن يتغاضوا النظر في المحن والمصائب، فالرحمة جوهر من الجواهر الإلهية النفيسة تشمل العالم كله، وقلب أولياء الله خزينة رحمة لا تنفد، فهم يرون أنه من الأفضل الفوز المتوقع حين يتركون العلاقات والرغبات التي تزيد من طمع النفس، ويركزون على المعاملات الحسنة التي تغذي الروح وتخلد الأعمال، فمن أكثر أرباح الإنسان قيمة في هذه الدنيا مثل هذه الأعمال الصالحة، أما المكاسب الأخرى فما هي إلا أمانات مؤقتة يرجعها الإنسان واحدة تلو الأخرى.

فعن عائشة رضي الله عنها، أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ:

«ما بقي منها؟»

قالت: ما بقي منها إلا كتفها قال:

«بقي كلها غير كتفها»^{٩٨٢}



- إدراك الحق دائماً -

يروى الشيخ عبد القادر الجيلاني القصة التالية:

«خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثت أياماً لا أجد ماء، فاشتد بي العطش، فأظلمتني سحابة ونزل عليّ منها شيء يشبه الندى فرويت، ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك، وقد

٩٨٢ الترمذي، القيامة، ٣٣/ ٢٤٧٠؛ أحمد، مسند، ٤، ١٩١/ ٢٣٥٩.





أحللت لك المحرمات -أو قال ما حرمت على غيرك- فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اخساً يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك، وقوتك في أحوال منازلتك، ولقد أضللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لربي الفضل والمنة، قال: فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد حللت لك المحرمات»^{٩٨٣}

العبرة:

عالمٌ واحد أشدُّ على الشيطان من ألف عابد، فلا يزال الشيطان يمارس دوره الأبدي في حربه على بني البشر، وخصوصاً العباد منهم ليضلهم عن سبيل الله، لكن العبادة مع قلة العلم تجعل صاحبها عرضةً للزيف ونزغات الشيطان.

ونعيش اليوم حالة مماثلة لما ورد في القصة، فالكثير ممن يدعون العلم يسعون إلى الإضرار بالمجتمع وذلك بتحريم ما حلَّه الإسلام وتحليل ما حرمه، لذا من المهم أن ندرك ونعي جيداً فراسة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقدرته على التفريق، فالشعار الذي يتخذه الشيخ الجيلاني واضح غاية الوضوح، لا يمكن أن يمنع الله تعالى حقاً عن الأنبياء ويعطيه لمن سواهم، وهل الشيطان ومن تبعه من علماء السوء يعرفون ماهية الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والحسن والقيح أكثر من الأنبياء أنفسهم؟ لا وألف لا...

ويوجه الله ﷻ خطاباً قاسياً إلى مثل هؤلاء بقوله في كتابه العظيم:

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ...﴾^{٩٨٤}



٩٨٣ ابن العماد، شذرات الذهب، ٦، ٣٣٣-٣٣٤.

٩٨٤ الحجرات: ١٦.





- أحتاج إلى الكريم

يقول أبو يزيد البسطامي:

«في يوم من الأيام أردت عبور نهر دجلة، وحين وصلت إليه اقتربت الضفتان فصارتا طريقاً لي، فتداركت نفسي وقلت لدجلة: والله لا تخدعيني! فصاحب الزورق يحملني بنصف درهم، أما أنتِ، فتريدين أعمالي الصالحة التي أعددتها على مدى ثلاثين عاماً، إذاً لا يمكنني أن أضيع ثلاثين عاماً من عمري من أجل نصف درهم، أنا بحاجة إلى كريم لا كرامة»^{٩٨٥}

العبرة:

الاستقامة عين الكرامة، والفرار من إظهار الكرامات شعار أهل الولاية، الذين يحرصون على العمل لا على إعلام الناس وطلب الشهرة لديهم. هؤلاء لا يبيعون جنة الله تعالى بكرامات الدنيا، ولا يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً، فحاجتهم كرم الله لا كرامة العبادة.

ويقول سهل بن عبد الله التستري -وهو من أولياء الله- في هذا الأمر:

«أعظم الكرامات إبدال الطباع السيئة بالحسنة، وبعض الكرامات هي مثل الدمى التي تُعطى للطفل الباكي كي يتسلى بها، وهذا ما يطلبه الغافلون لا الأولياء، إذ يشتغل بها هؤلاء الغافلون ويُسْغَلون مَنْ حولهم».

من أجل هذا كله، اعلم أن عين الصواب دائماً هو اتباع قول الله تعالى:

﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ...﴾^{٩٨٦}



٩٨٥ عطار، تذكرة، ص ١٨٦.

٩٨٦ هود: ١١٢.





- مسؤولية العظماء

مرَّ الإمام أبو حنيفة النعمان على طفل يلعب بالطين فقال للطفل: إياك أن تنزلق بالطين، فقال الطفل: بل أنت إياك يا إمام أن تزل بالدين، فإن زلة العالم زلة العالم. فاندesh الإمام من كلام الطفل وبكى، ثم قال لطلابه: «إن وصلكم دليل أقوى في مسألة ما فلا تتبعوا قولي، فهذه علامة كمال في الإسلام، وبهذا تظهر محبتكم واتباعكم لي...»^{٩٨٧}

العبرة:

الذين يحظون بمقدمة الصفوف قيادة وريادة تكون صدارتهم تكميلاً لا تشريعاً، ويتحملون من الأعباء ما يلهمهم عن الخيلاء. فإذا هم أحسنوا كان ذلك للدين وللدنيا وللناس انتصاراً، وإذا هم أخطؤوا تحملوا أمام الله تعالى والتاريخ جزاء ما ضلوا وأضلوا. لذا كان عظماء الإسلام كالإمام أبي حنيفة يراعون هذه الدقة في فتاويهم، ويعيشون التقوى حالاً ومقلاً معاً. ففي أحد الأيام بينما كان الإمام أبو حنيفة مع أصحابه إذ رأوه يزيل قذارة صغيرة جداً عن ثيابه، فسألوه: «يا إمام، إن هذه البقعة الصغيرة لا تمنع الصلاة بحسب فتواكم، فلماذا تسعى لإزالتها إذا؟»

فأجابهم الإمام: «تلك فتوى، وهذه تقوى».

فهذا هو الشعار الوحيد الذي يجعل من المسؤوليات -صغيرها وكبيرها- تجاه العباد ورب العباد، سبباً للنجاة في الآخرة.





- الاستجابة لدعوة الله ﷻ

يقول الحسن البصري رحمته الله:

«الغنم تطيع راعيها لعلمها أنه يقودها إلى مرعى خصيب أو يجرها عن وادٍ سحيق... وأنت....! ألا تطيع ربك وهو إلى مراعي الجنة يدعوك، وعن أودية النار يجررك!».

العبرة:

ما أكثر الدعوات، وما أكثر مَنْ يدعونك إلى سبل فجاج في الأرض والسماء، إلى الدنيا والآخرة، ولكن ما يعقل هذه الدعوات إلا العالمون، الذين نور الله أبصارهم وبصائرهم وقلوبهم وعقولهم، فأسلموا قيادهم لله تعالى وحده، ولبوا نداءه سبحانه، فكانت «حي على الصلاة» سيبلهم إلى الفلاح، وطريقهم إلى أن تسبح أرواحهم في ملكوت الله تعالى.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي:

«كن سليم العقل... فلطالما يطلبك المولى ﷻ، عليك أن تلبيه حتى لو اضطررت إلى أن تجعل رأسك قدماً تسير بها».

«فدعوته سبحانه ترفع من درجات الإنسان، وتمنحه طرباً روحانياً، وتعفو عن كثير لا تحصيهم، وتُعدُّ فرشاً أبدية، وتضع موائد راقية».



- أهمية الحلال

جاء إلى أبي العباس النهاوندي أحد طلابه، وقد كان هذا الطالب تاجراً غنياً، فأراد أن يعرف مَنْ أحق الناس بالزكاة، فقال له أبو العباس رحمته الله:

«اتَّبِعْ قلبك في قرارك!»، ثم خرج من مجلس شيخه، فرأى في الطريق متسولاً أعمى فحزن عليه، ثم أخرج صرة ذهب وأعطاه إياه زكاةً منه، فسُرَّ الأعمى بعد





أن تلمس الصرة بيديه، وافترقا هناك، وفي اليوم التالي وبينما كان الطالب يسير في الطريق نفسه، رأى الأعمى يتكلم مع أعمى آخر، فسمع هذه الجملة:

«لقد أعطاني أحد النبلاء أمس صرة من ذهب، فذهبت إلى الحانة، وشربت بها الخمر».

فحزن الطالب لما سمعه وضاق صدره، فذهب مباشرة إلى الشيخ أبي العباس، وروى له ما حصل، لكن أبا العباس لم يعطه الفرصة كي يكمل كلامه، بل أعطاه درهماً كان قد باع به قلنسوته، وقال له:

«أعطِ هذا الدرهم لأول مَنْ تجده في طريقك».

فخرج الطالب دون أن يتكلم شيئاً كي ينفذ هذه المهمة، وأعطى الدرهم لأول مَنْ وجده كما قال له شيخه، لكن الفضول جعله يتعقب هذا الشخص، اتجه المسكين إلى حي من الأحياء في طرف المدينة، ودخل في مكان خرب، ثم أخرج طائر حجل ميتاً من تحت ثيابه ورماه على الأرض، وأثناء خروجه من هناك، استوقفه الطالب وسأله:

«استحلفك بالله أن تقول لي ما أصابك! وما هذا الحجل الذي رميته هنا؟»

حين رأى المسكين الرجل الذي أعطاه الدرهم قال متلعثماً: «منذ سبعة أيام لا أجد ما أطعم به أولادي، أستطيع وزوجتي أن نصبر على ذلك، لكن الأولاد ما عادوا يتحملون الجوع، وما كنت أستطيع أن أطلب المال من أحد، وبينما كنت أعاني الكثير من الألم والاضطراب، وجدت الحجل الميت الذي أوشك أن يفسد كما رأيت، وكنت للضرورة أريد أن أحمله كي يأكله أولادي، وكنت أتوسل إلى الله ﷻ قائلاً:

«يا رب، انظر إلى حالي»، فجئتني وأعطيتني هذا الدرهم، فشكرت ربي وذهبت كي أتخلص من هذا الطائر الذي لا يؤكل، أما الآن فسأذهب إلى السوق لأشتري لأولادي شيئاً يؤكل».





فدهش الطالب مما سمع، وأسرع إلى شيخه أبي العباس، وقبل أن ينطق بشيء، قال له الشيخ:

«يا ولدي، هذا يعني أنك لم تتبّه إلى الحرام أو المشبوه في ربحك، لهذا ذهبت زكاتك إلى الخمر، فالربح يخرج من يدك بالصورة التي أتت إليك، وسبب ذهاب درهمي إلى رجل صالح أن الدرهم قد كسبته بتعبي، أي بالحلال».

العبرة:

يظل الحلال حلالاً دائماً في منشئه ومكسبه ومصرفه ومستودعه ومسيره وأثره وأجره، ويبقى الحرام حراماً، لا يقبل الله من أهله صرفاً ولا عدلاً، لذلك كان الأجداد يقولون: ما يأتي من «الحي»، يذهب إلى الـ«هو».

ولهذه العبارة معنيان:

الأول: إن ما يأتي من «الحي» وهو الله، يعود إلى «هو» أي الله سبحانه.
والثاني: إن ما يأتي بسهولة ويكون مختلطاً بالشبهات والحرام، يذهب كله هباءً، أي يصبح الحلال وسيلة للحلال، والحرام سبباً للحرام.
ويوضح الشيخ أبو بكر الورّاق هذه الحقيقة بقوله:
«حين أصبح، أنظر إلى الناس، فأعرف من يأكل الحلال ممن يأكل الحرام»،
فسئل: «وكيف تعرف ذلك؟»

فقال: من يصبح، فيغتاب هذا، ويشتم هذا، ويتكلم بما لا ينفع، فأعلم حينها أن سبب حاله هذا الطعام الحرام الذي يأكله، أما من يصبح، فيشغل لسانه بذكر الله تعالى وكلمة التوحيد والاستغفار، فأعلم أن هذا من الطعام الحلال... فالحلال والحرام ينعكسان-بحسب خصائصهما- على أفعال المرء.





- الريح الحلال

كان الإمام أبو حنيفة صاحب ثروة كبيرة لعمله بالتجارة، لكن بسبب انشغاله بالعلم كان يوكل مَنْ يدير له تجارته، وكان بنفسه يتأكد من تجارته أحلال هي أم حرام. وكان الإمام دقيقاً جداً في هذا الموضوع، وفي يوم من الأيام أرسل شريكه حفص بن عبد الرحمن لبيع القماش، وقال له:

«يا حفص، إن في البضاعة عيباً، فأخبر المشتري بذلك وبع بسعرٍ أقل».

فباع حفص البضاعة بالسعر الذي حدده الإمام، لكنه لم يخبر المشتري بالعيب، فلما علم الإمام بذلك سأل حفصاً: «أتعرف المشتري؟»

ولما لم يكن حفص يعرف المشتري أصاب الإمام القلق من أن يخالط ماله الحرام، فتصدق بالمال الذي بلغ ثلاثين ألف درهم كله، وانفصل عن شريكه. فكانت تقواه هي رأس ماله في الدنيا، وربحه في تجارته مطيته للأخرة.

العبرة:

أكبر دليل على حال المرء معاملاته لا عباداته، وأصوب ميزان للقلوب هو الذي يرجح كفة السلوك لا المعاذير والشبهات.

سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يشني على رجل، فسأله: أسافرت معه قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة، قال: لا، قال: فأنت جاره صباحه ومساءه، قال: لا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.^{٩٨٨}

وكان سفيان الثوري رحمته الله يقول:

«إن التزام المرء بالدين منوط بطعامه الحلال». وسُئل يوماً عن فضل الصف الأول، فقال: «انظر كسرتك التي تأكل من أين تأكلها، وصل في الصف الأخير»، وفي رواية عنه: «انظر إلى درهمك من أين هو؟ وصل في الصف الأخير».





وقد روى والدي موسى أفندي رحمته الله الحادثة الآتية التي توضح الاجتهاد في طلب الربح الحلال في التجارة، وبركة هذا الأمر، وأهمية إبعاد الحرام:

كان جارنا ممّن اهتموا إلى الإسلام، فسألته يوماً عن سبب هدايته، فقال: «لقد أسلمت بعد أن رأيت الأخلاق الحميدة لربيع مُلاً في التجارة، فقد كان جاراً لنا في مزرعتنا في آجبيادام، وكان يؤمّن رزقه ببيع الحليب، وفي إحدى الليالي جاءنا وقال: «هذا الحليب حليبيكم»، فقلت مندهشاً: «لكنني لم أطلب منك حليباً»، فقال لي ذلك الجار اللطيف المرهف الحس:

«لقد دخلت إحدى الأبقار إلى مزرعتك، ورعت هناك دون أن أراها، لذا هذا الحليب من نصيبك، وسأحضر لكم الحليب حتى ينتهي ذلك الحيوان من أثر العشب الذي أكله، ولا يبقى منه شيء».

فقلت له: «ما هذا الكلام؟ ماذا يفيدني العشب؟ إن هذا العشب حلال لك». فأجابني ربيع: «لا، لا يمكن، هذا الحليب حقكم».

وبقي يحضر لنا الحليب أياماً إلى أن انتهى الحيوان من أثر العشب الذي أكله. فزاد سلوك هذا الإنسان المبارك من تأثيره عليّ حتى أزلت حُجب الغفلة عن قلبي، وأشرقت شمس الهداية فيه، وقلت في نفسي:

«لا جرم أن دينَ هذا الإنسان ذي الخلق الرفيع أعظم الأديان، ولا ريب أن الدين الذي يربّي إنساناً لطيفاً طاهراً كاملاً عارفاً للحق هو الدين الصحيح». ثم نطقْتُ بالشهادتين ودخلت الإسلام منذ ذلك اليوم.

إنَّ تحرّي الحلال والحرام والدقة الشديدة في التعامل معهما ليس تعتاً أو إفراطاً أو تشدداً، إنما هو حرص شديد على النقاء، فإناء اللبن الناصع تكدره الشعرة الدقيقة، والثوب شديد البياض تُشينه بقعة كراُس الدبوس، كذلك قلب المؤمن يخشى أن ينكت فيه الذنب الصغير نكتة سوداء واحدة، فتفتح السبيل لأخواتها.





والربح الحلال هو أحد ركائز التقوى، وقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»^{٩٨٩}

فهو الذي استطاع أن يتخلص من أسر المال وإغراء الربح، ومن دنس الشبهات والتباس الرُّخص واستمراء خداع الناس، واستطاع أن يلزم نفسه بمنهاج رباني، فهو في السوق بجسده لكنَّ قلبه متعلق بشريعة ربه، وهو في معاملته مع الناس بلسانه لكن ذكر مولاه يملأ جنانه، لا يرى في التجارة وخداع الناس مغنماً لكنه يستشعر في مثقال حبة من خردل مأثماً، فمعاملاته مع رب الناس لا مع الناس، ومكسبه في رضا رب الناس لا في خداعهم.

يقول رسول الله ﷺ واصفاً حال الناس والتجار في تهاونهم الشديد تجاه الكسب وشبهات المال:

«يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه، أمن حلال أم من حرام»^{٩٩٠}

لكن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومنَ حام حول الحمى أوشك أن يواقعه، وقليل طيب خير من كثير آثم.

فمنَ كانت هذه بضاعته وتجارته مع الله ﷻ، ومنَ كانت هذه سريرته وسيرته مع خلق الله تعالى صار مصدرًا للحلال ومنبعًا للطهارة وموثلاً للفيوضات ومعلماً للهدى بين الناس.

وأما منَ استهواه بريق المال واستمرأ الحرام فيصير لجهم حطباً.

ندعو الله الكريم أن يحفظنا بحفظه.. آمين..





الفصل السابع



حِكم من أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ



« لا موجود إلا هو »



حَكَمٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ﷻ

سيدنا أبو بكر ﷺ

- لَا خَيْرَ فِي قَوْلٍ لَا يُرَادُّ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا خَيْرَ فِي مَالٍ لَا يُنْفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَغْلِبُ جَهْلُهُ حِلْمَهُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً.^{٩٩١}
- كُنْ مَوْلًىً لِلْعَارِفِينَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ تَعَالَى.
- إِذَا اسْتَشَرْتَ فَاصْذُقِ الْحَدِيثَ تُصَدِّقِ الْمَشُورَةَ، وَلَا تَخْزِنْ عَنِ الْمَشِيرِ خَبْرَكَ فَتَوْتَى مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ.
- أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مِنْ خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ: مَنْ فَرِحَ بِالتَّائِبِ، وَاسْتَغْفَرَ لِلْمُذْنِبِ، وَدَعَا الْمُدْبِرَ، وَأَعَانَ الْمُحْسِنَ.
- أَكَيْسَ الْكَيْسِ التَّقْوَى، وَأَحْمَقَ الْحُمَقِ الْفُجُورَ.
- إِذَا فَاتَكَ خَيْرٌ فَأَدْرِكْهُ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ فَاسْبِقْهُ.
- صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ.
- الدُّنْيَا سَوْقُ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ رَأْسُ مَالِهِمْ، وَالْأَعْمَالُ الْحَسَنَةُ بَضَاعَتُهُمْ، وَالْجَنَّةُ رِبْحُهُمْ، وَالنَّارُ خَسَارَتُهُمْ.
- وَكَانَ إِذَا مُدِّحٌ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِي، وَأَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا تَوَاضِعْنِي بِمَا يَقُولُونَ».^{٩٩٢}
- إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَخَلَ الْعَجَبَ بِزِينَةِ الدُّنْيَا مَقَّتَهُ رَبُّهُ ﷻ حَتَّى يَفَارِقَ تِلْكَ الزَّيْنَةَ.^{٩٩٣}

٩٩١ أبو نعيم، الحلية، ١، ٣٦؛ ابن كثير، تفسير، ٨، ١٠٦.

٩٩٢ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٤.

٩٩٣ أبو نعيم، الحلية، ١، ٣٧؛ الخاني، حقائق، ص ٢٨٨.





- إياكم والفخر، وما فَخِرُ من خُلِقَ من تراب، ثم إلى التراب يعود، ثم يأكله الدود، ثم هو اليوم حي وغداً ميت!^{٩٩٤}
- اللهم اجعل خيرَ عمري آخرَه، وخيرَ عملي خواتمه، وخيرَ أيامي يومَ لقائك.^{٩٩٥}



سيدنا عمر رضي الله عنه

- مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ، وَلَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَا يُغْفَرُ، وَلَا يُعْفَ عَمَّنْ لَمْ يَعْفُ، وَلَا يَوْقَ مَنْ لَا يَتَوَقَّ.^{٩٩٦}
- أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ مَنْ رَفَعَ إِلَيَّ عِيُوبِي.^{٩٩٧}
- حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزِينُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحَسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا.^{٩٩٨}
- إِنَّ الدُّعَاءَ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ، حَتَّى تَصْلِيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ.^{٩٩٩}
- أَحَبُّكُمْ إِلَيَّ أَفْضَلُكُمْ اسْمًا مَا لَمْ أَرَهُ، وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ أَفْضَلُكُمْ أَخْلَاقًا حِينَ أَرَاهُ، وَأَحَبُّكُمْ إِلَيَّ أَصُوبُكُمْ حَدِيثًا فِي الْإِبْتِلَاءِ.^{١٠٠٠}
- لَا يَبِيعُ فِي سَوْقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ.^{١٠٠١}

٩٩٤ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠١.

٩٩٥ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٣.

٩٩٦ البخاري، الأدب المفرد، دمشق، ٢٠٠١، ص ٤١٥، رقم: ٣٧١.

٩٩٧ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٠.

٩٩٨ الترمذي، القيامة، ٢٥/٢٤٥٩.

٩٩٩ الترمذي، الوتر، ٢١/٤٨٦.

١٠٠٠ ابن الجوزي، مناقب، ص ٢١٩.

١٠٠١ الترمذي، الوتر، ٢١/٤٨٧.





- أكثرُوا ذكر النار فإنَّ حرَّها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها حديد. ١٠٠٢
- ما الدنيا في الآخرة إلا كنْفَجَة أرنب. ١٠٠٣
- لو هلكت شاة ضياعاً بشاطئ الفرات خشيت أن يسألني الله عنها. ١٠٠٤
- تفقهوا قبل أن تُسَوِّدوا. ١٠٠٥
- وكتب إلى عماله قائلاً: «إنَّ أهم أمركم عندي الصلاة، مَنْ حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، وَمَنْ ضيعها فهو لما سواها أضيع» ١٠٠٦
- لا تعترض لما لا يعينك واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من الأَقوام، ولا أمين إلا مَنْ خشي الله، ولا تصحب الفاجر فَتَعَلَّم من فجوره، ولا تطلعه على شرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله. ١٠٠٧
- استعينوا على النساء بالعُري، فإنَّ إحداهنَّ إذا كُثرت ثيابها وحسنت زينتها أعجبها الخروج. ١٠٠٨
- ترك الذنب أسهل من التوبة.
- عليكم إصلاح أنفسكم قبل إصلاح غيركم.
- أكثر الناس جهلاً مَنْ باع آخرته من أجل دنيا غيره.
- أقلل من مِيلِك إلى الدنيا كي تعيش حرّاً.



١٠٠٢ الترمذي، جهنم، ٢/٢٥٧٥؛ ابن أبي شيبة، مصنف، ٧، ٥٣/٣٤١٥٦.

١٠٠٣ ابن أبي شيبة، مصنف، ٨، ١٥٢/٣٤٤٧٥؛ الزخشي، ٦، ٢٢٧.

١٠٠٤ ابن أبي شيبة، مصنف، ٨، ١٥٣.

١٠٠٥ البخاري، العلم، ١٥.

١٠٠٦ موطأ، وقوت الصلاة، ٦.

١٠٠٧ ابن أبي شيبة، مصنف، ٨، ١٤٧.

١٠٠٨ ابن الجوزي، مناقب، ص ٢٢١.





سيدنا عثمان رضي الله عنه

- لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله ﷻ. ١٠٠٩
- ما أحبُّ أن يأتي علي يوم ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله. ١٠١٠
- وما مات عثمان رضي الله عنه حتى خرَّق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه. ١٠١١
- همُّ الدنيا ظلمة في القلب، وهمُّ الآخرة نور في القلب. ١٠١٢
- مَنْ ترك الدنيا أحبَّه الله تعالى، وَمَنْ ترك الذنوب أحبته الملائكة، وَمَنْ ترك الطمع أحبه المسلمون. ١٠١٣
- حُبِّبَ إليَّ من الدنيا ثلاث: إشباع الجوعان، وكسوة العريان، وتلاوة القرآن. ١٠١٤
- لا ريب أن الله تعالى ذمَّ الدنيا كي لا تميلوا إليها ولتطلبوا بها الآخرة، ولا جرم أن الدنيا فانية والآخرة باقية. فلا يثيرونكم ما كان فانيًا فيمنعكم عمَّا هو باق. اختاروا الباقي على الفاني، فللدنيا نهاية، والأوبة إلى الله، فاحشوه. ١٠١٥
- ابن آدم، اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك، فخذ حذرَكَ واستعد له، ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك. واعلم ابن آدم، إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لها، لم يستعد لها غيرُك، ولا بد من لقاء الله، فخذ لنفسك، ولا تكلها إلى غيرك، والسلام. ١٠١٦

١٠٠٩ علي المتقي، كنز العمال، ٢، ٢٨٧/٤٠٢٢.

١٠١٠ علي المتقي، ٢، ٣١٦/٤١١٠.

١٠١١ البيهقي، الأساء والصفات، ص ١٨٢؛ الكاندهلوي، حياة الحصابة، ٣، ٢٣.

١٠١٢ ابن حجر، المنبهات، ص ٣.

١٠١٣ ابن حجر، المنبهات، ص ٥.

١٠١٤ ابن حجر، المنبهات، ص ١١.

١٠١٥ ابن أبي الدنيا، الموسوعة، ١، ٧٧.

١٠١٦ علي المتقي، كنز العمال، ١٥، ٦٩٧-٦٩٨/٤٢٧٩٠.





- مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر، قبل أن يسלט عليكم شراركم، ويدعو عليهم خياركم، فلا يُستجاب لهم.^{١٠١٧}
- أربع ظاهرن فضيلة وباطنهن فريضة: مخالطة الصالحين فضيلة والاقتداء بهم فريضة، وتلاوة القرآن فضيلة والعمل به فريضة، والزيارة للقبور فضيلة والاستعداد لها فريضة، وعيادة المريض فضيلة واتخاذ الوصية منه فريضة.^{١٠١٨}
- خمسٌ من علامات المتقين: أولها ألا يجالس إلا مَنْ يَصْلُحُ الدينُ معه، ويغلب الفرج واللسان، وإذا أصابه شيء عظيم من الدنيا يراه وبالاً وإذا أصابه شيء قليل منها اغتنم ذلك، ولا يملأ بطنه من الحلال خوفاً من أن يخالطه حرام، ويرى الناس كلهم قد نجوا ويرى نفسه قد هلك.^{١٠١٩}
- المؤمن في ستة أنواع من الخوف: أحدها من قبل الله تعالى أن يؤخذ منه الإيمان، والثاني من قبل الحفظة أن يكتبوا عليه ما يفتضح به يوم القيامة، والثالث من قبل الشيطان أن يبطل عمله، والرابع من قبل ملك الموت أن يأخذه في غفلة بغتة، والخامس من قبل الدنيا أن يغترّ بها فتشغله عن الآخرة، والسادس من قبل الأهل والعيال أن يشتغل بهم فيشغلونه عن ذكر الله تعالى.^{١٠٢٠}
- علامات العارفين ثمانية أشياء: قلبه مع الخوف والرجاء، ولسانه مع الحمد والثناء، وعينه مع الحياء والبكاء، وإرادته مع الترك والرضا، يعني ترك الدنيا وطلب رضا مولاه.^{١٠٢١}



١٠١٧ علي المتقي، ٣، ٦٨٢-٦٨٣/٨٤٥١.

١٠١٨ ابن حجر، المنبهات، ص ١٤.

١٠١٩ ابن حجر، المنبهات، ص ٢٠.

١٠٢٠ ابن حجر، المنبهات، ص ٢٥.

١٠٢١ ابن حجر، المنبهات، ص ٣١.





علي بن أبي طالب عليه السلام

- إذا حدثتم عن رسول الله حديثًا، فظنوا برسول الله أهياه وأتقاه وأهداه. ١٠٢٢
- ما أدري أي النعمتين أعظم عليّ منّة من ربي، رجلٌ بذل مصاص ١٠٢٣ وجهه إليّ فرآني موضعًا لحاجته، وأجرى الله قضاءها أو يسرها على يدي، ولأن أفضي لامرئ مسلم حاجة أحب إليّ من ملء الأرض ذهبًا وفضة. ١٠٢٤
- يا دنيا غري غيري، إليّ تعرضت أم إليّ تشوفت! هيهات هيهات! قد بايتك ثلاثًا لا رجعة فيهن، فعمرك قصير، وخطرك قليل، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق. ١٠٢٥
- ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل. ١٠٢٦
- تمام النعمة الموت على الإسلام. ١٠٢٧
- الدنيا لينٌ مُسها، قاتلٌ مُسها. ١٠٢٨
- الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. ١٠٢٩

١٠٢٢ أحمد، مسند، ١، ١٢٢.

١٠٢٣ مصاص: المصاص: خالص كل شيء.

١٠٢٤ علي المتقي، كنز العمال، ٦، ٥٩٨/١٧٠٤٩.

١٠٢٥ ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣، ١١٠٨.

١٠٢٦ البخاري، الرقاق، ٤.

١٠٢٧ البيضاوي، أنوار التنزيل، ١، ٢٠١، (البقرة، ١٥٠).

١٠٢٨ الرازي، مفاتيح الغيب، (آل عمران، ١٨٥)

١٠٢٩ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣١٢/٢٧٩٥.





- أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرْ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا. ١٠٣٠
- قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ: عَالَمٌ مَتَهَتَكَ، وَجَاهِلٌ مَتَنَسَكَ. ١٠٣١
- الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، فَإِنْ كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطُرْ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْكَ فَلَا تَضْجُرْ. ١٠٣٢
- مَنْ لَمْ يُعْطِ قَاعِدًا لَمْ يُعْطِ قَائِمًا. ١٠٣٣
- مَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنيهِ. ١٠٣٤
- كُنْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرَ النَّاسِ، وَكُنْ عِنْدَ نَفْسِكَ شَرَّ النَّاسِ، وَكُنْ عِنْدَ النَّاسِ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ. ١٠٣٥
- أَصْعَبُ الْأَعْمَالِ أَرْبَعُ خِصَالٍ: الْعَفْوُ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْجُودُ فِي الْعُسْرَةِ، وَالْعَفَّةُ فِي الْخُلُوعِ، وَقَوْلُ الْحَقِّ لِمَنْ يَخَافُهُ أَوْ يَرْجُوهُ. ١٠٣٦
- رَأْسُ الْآفَاتِ الْوَلَهْ بِاللذَاتِ.
- الذَّنْبُ الْوَاحِدُ كَثِيرٌ، وَأَلْفُ طَاعَةٍ وَعِبَادَةٍ قَلِيلَةٌ.
- ظِلُّ الْمَعْوَجِ مَعْوَجٌ.
- قِيمَةُ الْمَرْءِ بِقِيمَةِ طَلِبَاتِهِ وَرَغْبَاتِهِ.
- خَالَقُوا النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ، لِيَبْكُوا عَلَيْكُمْ حِينَ تَمُوتُونَ، وَيَشْتَاقُوا لَكُمْ وَأَنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ.

١٠٣٠ الباقلائي، إعجاز القرآن، ص ١٤٤.

١٠٣١ البورصوي، روح البيان، (آل عمران: ٨٠).

١٠٣٢ النيسابوري، مجمع الأمثال، بيروت، ٢، ٤٥٤.

١٠٣٣ النيسابوري، ٢، ٤٥٤.

١٠٣٤ النيسابوري، ٢، ٤٥٤.

١٠٣٥ ابن حجر، المنبهات، ص ٧.

١٠٣٦ ابن حجر، المنبهات، ص ١٨.





- ولنا أن نذكر هنا العهد الذي كتبه الإمام علي عليه السلام إلى واليه على مصر مالك بن الحارث الأشتر النخعي، وفي هذا العهد الكثير من الحقائق المهمة التي تنطبق على كل عصر:
- أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والطف بالإحسان إليهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك بما عرفت من كتابه وبصرك من سنن نبيه صلى الله عليه وسلم، عليك بما كتبنا لك في عهدنا هذا، لا تنصب نفسك لحرب الله فإنه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، فلا تندمن على عفوه، ولا تبجنن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة.
- ثم أمض لكل يوم عمله فإن لكل يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام، وإن كانت كلها لله؛ إذا صحت فيها النية وسلمت منها الرعية.
- وليكن في خاص ما تخلص لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك ما يجب، فإن الله جعل النافلة لنبئه خاصة دون خلقه.
- لا تجمع الورود من بستان زُرعت فيه بذور الأشواك.
- لا ترد على من نطق بكلام بذيء، فكم من كلمات أشد بذاءة لدى ذلك الرجل يرد عليك بها.
- لا تمازح الجاهل، فقد يجرح قلبك بلسانه المسموم.
- إن الله يحسن حياة من يعيش دينه.





- ما أصعب الارتقاء إلى الفضيلة، وما أسهل الانحدار إلى الرذيلة.
- أكثر الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثرهم كلامًا في معصية الله ﷻ. (سلمان الفارسي رحمته الله)^{١٠٣٧}
- إِنَّ من أعظم الذنوب استخفاف المرء بذنبه. (قاسم بن محمد رحمته الله)^{١٠٣٨}



جعفر الصادق رحمته الله

- لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.^{١٠٣٩}
- أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمي مَنْ خدمني، وأتعبني مَنْ خدملك.^{١٠٤٠}
- إذا بلغك عن أخيك شيء يسوؤك، فلا تغتم، فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.^{١٠٤١}
- مَنْ استبطأ رزقه فليكثر من الاستغفار.^{١٠٤٢}
- إذا بلغك عن أخيك ما تكرهه فالتمس له سبعين عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل له عذرًا لا أعرفه.^{١٠٤٣}



١٠٣٧ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢٠٢.

١٠٣٨ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٩، ص ١٨١.

١٠٣٩ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٩٨.

١٠٤٠ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٩٤.

١٠٤١ أبو نعيم، الحلية، ٣، ١٩٨.

١٠٤٢ الخاني، الحقائق، ص ١٣١.

١٠٤٣ الخاني، الحقائق، ص ١٣٢.





أبو الحسن الخرقاني رحمته الله

- لقد أتى الله بكم إلى هذه الدنيا أنقياء، فلا تذهبوا إليه وفيكم الأدران! ١٠٤٤
- كما أن الصلاة والصوم فرضان والإيفاء بهما واجب، كذلك من الضروري تخليص القلب من الكبر والحسد والطمع بالصورة نفسها. ١٠٤٥
- إذا ما أصاب لباسك شرر من التنور فإنك تهرع فوراً كي تطفئه! فكيف لك إذاً أن تسمح لاحتراق دينك بالنار، بإبقائك الصفات السيئة مثل الكبر والحسد والرياء في القلب؟! ١٠٤٦
- يود العالم كل صباح أن يزيد علمه، والزاهد أن يزيد زهده، لكن أبا الحسن كان دائماً همّه إدخال السعادة والسرور إلى قلب أصحابه. ١٠٤٧
- إذا ما دخلت شوكةً إصبع امرئ أياً كان من تركستان إلى الشام فكأنما دخلت إصبعي، وإذا أصيبت قدم أحدهم بحجرة فقد أصيبت قدمي أيضاً، وإذا كان هناك حزن في قلب ما فذاك القلب قلبي. ١٠٤٨
- إنَّ الشيطان نفسه لا يمكن أن يسبب الفتنة في الدين مثلما يسببه شخصان: العالم الحريص على الدنيا. والمتنسك المحروم من العلم. ١٠٤٩
- أغلق باب الأنانية، وافتح باب الخدمة والصحبة! «يوسف الهمداني رحمته الله» ١٠٥٠



١٠٤٤ الخارقاني، نور العلوم، ص ٢٥٨.

١٠٤٥ عطار، تذكرة الأولياء، ص ٦٢٩.

١٠٤٦ الخارقاني، نور العلوم، ص ٢٣٩.

١٠٤٧ عطار، تذكرة الأولياء، ص ٦١١.

١٠٤٨ عطار، ص ٦٠٤.

١٠٤٩ عطار، ص ٦٢٤.

١٠٥٠ أحمد الكاساني، آداب السالكين، ورقة: ٥٧ب، ١٦٢.





الشيخ نقشبند رَحِمَهُ اللَّهُ

- المرءُ بحاجة إلى جناحين كي يطير إلى عالم القدسية، أما الجناح الأول فهو أداء الكثير من الأعمال الصالحة، وأما الثاني فهو رؤية نفسه ناقصاً. ١٠٠١
- إن خير مَنْ يسلك هذه الطريقة السامية هم أصحاب الهمة العالية الذين يعيشون في حالة تامة من التواضع والتضرع والابتهاال إلى الله تعالى، وقد جعلونا نمُرُّ من هذه البوابة، وكل ما وجدته كان موجوداً في الابتهاال وإنكار النفس وإهمالها. ١٠٠٢
- إن التمسك بالفناء وترك الوجود في هذا الطريق، ثم إظهار اللاوجود والعيش بتواضع هو أعظم ربح، وهذه الأمور إشارات لئيل حالات روحانية عظيمة. ١٠٠٣
- وكان شاه نقشبند كثيراً ما يردد البيت التالي في مجالسه مشيراً إلى إخفاء الأحوال المعنوية:
وَمِنْ دَاخِلٍ كُنْ مَتِيقْظًا غَيْرَ غَافِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ خَالِطٌ كَبَعْضِ الْأَجَانِبِ ١٠٠٤
- حين سئل الشيخ: «ماذا نصنع من أجل نجاتنا في الآخرة؟» أجاب:
«كن مشغولاً بما يجب أن تكون منشغلاً به لحظة خروج نَفْسِكَ الأخير»، وهذا يعني أنه يجب أن تكونوا يقظين طوال عمركم، مثلما يلزم التفكير تماماً بالله تعالى في النَّفْسِ الأخير. ١٠٠٥

١٠٥١ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص ٢٣٢، رقم: ١١٩.

١٠٥٢ صلاح الدين بن مبارك بخاري، أنيس الطالبين، ص ٤٦.

١٠٥٣ أنيس الطالبين، ص ٤٧.

١٠٥٤ أنيس الطالبين، ص ٦٧؛ العلامة محمد بن سليمان البغدادي، الحديقة الندية، إسطنبول ١٤٠٣، ص ١٤.

١٠٥٥ رشحات، ص ١٣٠.





- كل ما يكون مرئياً أو مسموعاً أو متخيلاً أو موهوماً فهو غيره تعالى، وينبغي نفيه بحقيقة كلمة «لا». ١٠٥٦
- إِنَّ ربط العبد قلبه بما سوى الله تعالى «أي بالأمور الدنيوية التي تبعده عن ربه» من أعظم حالات الغفلة. ١٠٥٧
- إن سبب ابتعاد الناس عن الله تعالى هو بعدهم وأخذهم -برغبتهم- على عاتقهم حملاً دنيوياً لا طاقة لهم به، «أي صاروا عباداً لطموحاتهم النفسانية»، إذ لا عيب أبداً في الفيوضات الإلهية. ١٠٥٨
- مَنْ يدخل بيت الكريم ينال كرمه، كذلك حال مَنْ يخدم أولياء الله فيدخل في قلوبهم. ١٠٥٩



الشيخ محمد پارسا

التصوف علم تطبيقي لا نظري، أي هو علم لا يدرك الإنسان معناه الحقيقي بقراءة السطور بل بالعيش بمقتضاه. ويوضح الشيخ محمد پارسا هذه الحقيقة بقوله: «إن أقوال طائفة أولياء الله لم تكن للحفظ والنقل فحسب، بل هي أحوال يعيشها المرء، ولذة يتذوقها، لذلك كان أهل البصيرة يقولون عن أقوالهم هذه «الفقه الأكبر والبرهان الأظهر»، واليقين الذي يصل إليه العبد بالتفكر في أقوال هذه الطائفة المباركة أعظم وأقوى من اليقين بعد رؤية الكرامات» ١٠٦٠



- ١٠٥٦ الإمام الرباني، مكتوبات، ٢، ٢٠٠، رقم: ٢٧٢.
- ١٠٥٧ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ٧٨.
- ١٠٥٨ محمد پارسا، الرسالة القدسية، ص ٣٦.
- ١٠٥٩ رشحات، ص ١٦٥.
- ١٠٦٠ محمد پارسا، الرسالة القدسية، ص ١٩.





الشيخ يعقوب الجرخي

- إذا ما شعر السالك في أيِّ وقت بالانقباض والفتور والوسوسة والقلق، تراه يراجع أحواله وحركاته مباشرة، ويحاسب نفسه ليرى إن ظهر منه شيء مخالف للشرع الشريف أو مغاير للرضا الإلهي، فإن وقع شيء كهذا يستغفر ربه ويعمل بجِد كي يصلحه مباشرة مهما كان العيب صغيراً. ١٠٦١
- ثمة الكثير من العلماء يتعدون عن مجالس أولياء الله، لهذا تبقى عباداتهم ناقصة. «هذا يعني أنه من الضروري على العلماء حضور الصُّحْب دائماً كي يكونوا أصحاب تقوى بأخذهم الفيوضات». ١٠٦٢



محمد الباقي بالله ﷺ

- حين علم الشيخ الباقي بالله ﷺ في يوم من الأيام أن بعض الناس يعيِّبونه قام بتعليم طالبه الذي أتاه بالخبر الأدب التالي:
- «حين نُنَعَت بعيب أو أمر سيئ ننظر إلى أنفسنا مباشرة فنجد صفة سيئة فينا، فتكون هذه الإشارة نصيحة لنا، وبعد أن جئني بالخبر وجدت في نفسي عيباً وقصوراً فالتجأت إلى كرم ربي ﷻ، وسأنجو بإذنه تعالى من هذا العيب». ١٠٦٣
 - لا تصاحب ولا تصادق مَنْ لا تجد في قلبه رغبة في المعرفة الإلهية، واهرب من العلماء الذين يجعلون من علمهم وسيلة لنيل المناصب والمواقع والثناء كما تهرب إذا طاردك أسد. ١٠٦٤



١٠٦١ صلاح الدين بن مبارك البخاري، أنيس الطالبين، ص ١٨٥.

١٠٦٢ الجرخي، ناي-نامه، ص ٦٩.

١٠٦٣ الكشمي، بركات، ص ٦٢.

١٠٦٤ موسوعة الأولياء، ٨، ٣٥٩.





الإمام الرباني رحمه الله

- الشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص، وما لم تتحقق كل من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقق الشريعة، ومتى تحققت الشريعة فقد تحقق رضا الله عز وجل الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية، ورضوان من الله أكبر، فكانت الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، ولم يبقَ مطلب يقع فيه الاحتياج إلى ما وراء الشريعة، «والطريقة» والحقيقة اللتان امتازت بهما الصوفية خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصود من تحصيل كل منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء الشريعة.

والأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف التي تحصل للصوفية في أثناء الطريق ليست من المقاصد، بل هي أوهام وخيالات تربى بها أطفال الطريقة، فينبغي أن يجاوز جميع ذلك وأن يصل إلى مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السلوك والجدبة، فإن المقصود من طي منازل الطريقة والحقيقة ليس شيئاً غير تحصيل الإخلاص المستلزم لحصول مقام الرضا ويوصل إلى دولة الإخلاص.^{١٠٦٥}

- أيها الولد، إن الفرصة غنيمة، والصحة والفراغ مغتزمان، فينبغي صرف الأوقات إلى ذكر الله جل شأنه على الدوام، وكل عمل يصدر وفق الشريعة الغراء فهو داخل في الذكر، وإن كان بيعاً وشراءً؛ فينبغي مراعاة الأحكام الشرعية في جميع الحركات والسكنات لتصير كلها ذكراً، فإن الذكر عبارة عن طرد الغفلة، ومتى حصلت مراعاة الأوامر والنواهي في جميع الأفعال فقد تيسرت النجاة من أسر الغفلة عن الأمر بالأوامر والنواهي عن المناهي، وحصل دوام ذكره تعالى.^{١٠٦٦}

١٠٦٥ الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ٢٠٦، رقم: ٣٦.

١٠٦٦ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ١٧٤، رقم: ٢٦٦.





- إنَّ تحصيل جناحي الاعتقاد والعمل يحصل إذا كان توفيق الحق رفيقاً ودليلاً، فينبغي سلوك طريقة الصوفية العلية لا لغرض تحصيل شيء زائد على ذلك الاعتقاد والعمل ونيل أمر جديد سواهما، فإن ذلك من طول الأمل المفضي إلى الزلل، بل المقصود منها حصول اليقين والاطمئنان في المعتقدات، بحيث لا تزول بتشكيك مشكك ولا تبطل بإيراد شبهة، فإنَّ قدم الاستدلال لا ثبات لها، ولا قرار لخزف معمول من طين، والمستدل ليس له تمكين، ألا بذكر الله تطمئن القلوب.
- «والمقصود من سلوك الصوفية» حصول اليسر والسهولة في إتيان الأعمال، وزوال الكسالة والعناد والتعنت الناشئة من النفس الأمارة.^{١٠٦٧}
- ينبغي أن يكون الشخص متوجّهاً إلى الباطن بعد أن يحلّي ظاهره بالأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطاً بالغفلة، فالتحلي بالأحكام الشرعية دون إصلاح الباطن متعذر، فوظيفة العلماء الإفتاء، وشغل أهل الله العمل، بينما الاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد، وأحواله الباطنية استدرجات، لأن علامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية، وهذا هو طريق الاستقامة.^{١٠٦٨}
- ما أزال أنصح الأصحاب... إلى انقضاء عمري - بعد تصحيح العقائد على وفق ما بيّن في الكتب الكلامية المخصوصة بأهل السنة والجماعة شكر الله سعيهم، وبعد إتيان الأحكام الفقهية من الفرض والواجب والسنة والمندوب والحلال والحرام والمكروه والمشتبه امتثالاً وانتهاءً - تحصيل سلامة القلب عن التعلق بما سوى الحق سبحانه...^{١٠٦٩}

١٠٦٧ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ١٧٤، رقم: ٢٦٦.

١٠٦٨ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، رقم: ٨٧.

١٠٦٩ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ٢٣٥، رقم: ٢٧٨.





- إن العُجب يحرق الأعمال الصالحة كما تحرق النار الحطب، والعُجب ينشأ حين يغدو العمل جميلاً في نظر صاحبه، ولكي نتخلص منه لا بد أن نرى العيوب والأخطاء الخفية، ونرى أعمالنا الصالحة ناقصة، حتى إنه من اللازم أن يستحي المرء من أن تُعرَف حسناته وأعماله الصالحة...^{١٠٧٠}
- لا شيء أنفع من هذه الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» في تسكين غضب الرب جل سلطانه وعلا برهانه، فإذا كانت هذه الكلمة سبباً لتسكين غضب دخول النار فإنها ستكون سبباً لتسكين غضبات أخرى من باب أولى، فإن العبد باعتقاده لهذه الكلمة قد أعرض عن السوى ونفاه من قلبه، وجعل قبلة توجهه المعبود الحق، ومنشأ الغضب الإلهي إنما يتأتى من التوجهات الشتى التي كان العبد مبتلى بها.
- فينبغي أن يُعلم فضيلة هذا الذكر من ههنا حيث لا تعادله الدنيا بأسرها، وتكون عظمة هذه الكلمة الطيبة باعتبار درجات قائلها، كلما كانت درجة القائل أعلى تكون تلك العظمة أكثر.^{١٠٧١}
- الحياة قصيرة، وصرفها إلى أهم المهام ضروري، وهو صحبة أرباب الجمعية، لا تعدل بالصحبة شيئاً أيّاً ما كان، ألا ترى أن أصحاب رسول الله ﷺ فضّلوا بالصحبة على من عداهم سوى الأنبياء عليهم السلام.^{١٠٧٢}
- وقت العمل إنما هو عهد الشباب، والعاقِل مَنْ لا يضيع هذا الوقت ويغتني الفرصة، فإن الأمر مبهم فعساه ألا يبقى إلى زمن الشيخوخة، ولئن بقي فلعله لا تيسر له الجمعية، ولئن تيسرت فلعله لا يقدر على العمل في أوان استيلاء الضعف والعجز، والحال أنَّ أسباب الجمعية كلها متيسرة الآن... والموسم

١٠٧٠ الكشمي، بركات، ص ٢١٧.

١٠٧١ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ٥٩١-٥٩٤، رقم: ٣٧.

١٠٧٢ الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ٤٢٨، رقم: ١٢٠.





موسم فرصة وزمان قوة واستطاعة، فبأي عذر يمكن أن يؤخّر شغل اليوم إلى غد ويُختار التسويف؟^{١٠٧٣}

• فينبغي أداء الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقها، وأن يُجعل ذلك وسيلة لقطع التعلق عن الأموال والأنعام، وينبغي ألا يكون حظ النفس ملحوظاً ومنظوراً إليه في أكل الأطعمة اللذيذة ولبس الألبسة النفيسة، بل اللاتق في استعمال الأطعمة والأشربة ألا ينوي شيئاً غير حصول القوة لأداء الطاعات، وفي لبس الثوب النفيس ينبغي أن ينوي التزين المأمور بقوله تعالى: ﴿...خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^{١٠٧٤} أي عند كل صلاة، وألا يشوبه نية أخرى؛ فإن لم تتيسر حقيقة النية ينبغي أن يتكلف فيها، فإن لم تبكوا فنباكوا، وأن يلتجئ ويتضرع إلى الله سبحانه دائماً لتيسر حقيقة النية وليتخلص من التكلف.^{١٠٧٥}

• ينبغي السعي في أن يكون المنظور في جميع الأفعال والحركات والسكنات رضا المولى جل سلطانه، وأن يعمل بمقتضى شريعته الحقّة، ففي هذا الوقت يكون كلٌّ من الظاهر والباطن متوجّهاً إلى الحق تعالى، وذاكرًا له سبحانه، فمثلاً إذا اختار العبد النوم -الذي هو غفلة من أوله إلى آخره- بنية دفع التكاسل في أداء الطاعة، يكون ذلك النوم بهذه النية عين العبادة، فما دام في ذلك النوم فكأنه في الطاعة لكونه بنية أداء الطاعة، وقد ورد في الخبر «نوم العلماء عبادة»^{١٠٧٦}

• اعلموا أن القلب جار الله سبحانه، وليس شيء أقرب إلى جناب قدسه كالقلب، فإياكم وإيذاءه، أي قلب كان مؤمناً أو عاصياً، فإن الجار وإن كان

١٠٧٣ الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ٣٠٧، رقم: ٧٣.

١٠٧٤ الأعراف: ١٣.

١٠٧٥ الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ٢٩٨، رقم: ٧٠.

١٠٧٦ انظر: الديلمي، الفردوس، رقم: ٦٧٣١؛ الإمام الرباني، المكتوبات، ٣، ٢٢٤، رقم: ١٧.





عاصياً يُحمى، فاحذروا من ذلك، واحذروا فإنه ليس بعد الكفر الذي سبب إيذاء الله تعالى ذنب مثل إيذاء القلب، فإنه أقرب ما يوصل به إليه سبحانه والخلق كلهم عبيد الله سبحانه.^{١٠٧٧}

• لا ينبغي التساهل في إتيان المستحب، فإنه محبوب الحق سبحانه ومرضيه تعالى، فإن علم في جميع الدنيا فعل واحد مرضي ومحبوب عند الحق جل سلطانه وتيسر العمل بمقتضاه، ينبغي أن يغتنمه، وحكمه كحكم جواهر نفيسة اشتراها شخص بقطع خزف.^{١٠٧٨}

• إن المقصود من الخلقة الإنسانية إنما هو أداء وظائف العبودية، ومن أعطى العشق والمحبة في الوسط والابتداء، فالمقصود منه قطع التعلق من غير جناب قدسه جل شأنه، وليس العشق والمحبة من المقاصد، بل هو لحصول مقام العبودية، فإن السالك إنما يكون عبداً لله تعالى إذا تخلص من أسر غيره تعالى وعبوديته بالتمام، وليس للعشق فائدة سوى أن يكون وسيلة الانقطاع عن غيره سبحانه؛ ولهذا كانت نهاية مراتب الولاية مقام العبودية، وليس في درجات الولاية مقام فوق مقام العبودية.^{١٠٧٩}



محمد معصوم السرهندي رحمته الله

• إن الصلاة رأس العبادات التي تُقرب العبد من ربه ﷻ، والصلاة تحمل وساماً من صاحب القدرة المطلقة ﷻ، ولا يمكن الوصول إلى القرب الموجود في الصلاة في أي مكان آخر، ففي الصلاة تُرفع الحُجب بين العبد وربّه، لذلك قيل: «الصلاة معراج المؤمن»، فكلما صلى المرء صلاته بخشوع، كان

١٠٧٧ الإمام الرباني، المكتوبات، ٣، ٣٢٦، رقم: ٤٥.

١٠٧٨ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ١٧٢، رقم: ٢٦٦.

١٠٧٩ الإمام الرباني، المكتوبات، ١، ١٨٠، رقم: ٣٠.





معراجُه أقرب إلى الكمال، وهذا منوط بمراعاته للسنة السنوية أثناء صلاته...
إنَّ الصلاةَ ليست عبارةً عن الحركات التي نعرفها، لأنَّ للصلاة حقيقةً في
عالم الغيب، فهي أعظم وأعلى من الحقائق جميعها.^{١٠٨٠}

- كلما ذكر العبدُ اللهَ ذكره اللهُ أيضًا، فهو يقول في كتابه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^{١٠٨١}،
فمهما استمر العبد بذكر ربه ذكره اللهُ دائمًا، وهل هناك سعادة أعظم من أن
يذكر المولى عبده دائمًا، فينال الفيوضات الإلهية في كل حين؟^{١٠٨٢}
- إنَّ المعرفةَ الإلهيةَ أعظم من الكشف والكرامات، فالمعرفة هي كشف الأسرار
الإلهية، أما الكرامات والخوارق للعدادات فهي كشف لأحوال المخلوقات،
فالفرق إذاً بين المعرفة الإلهية والكرامات كالفرق بين الخالق والمخلوقات،
والمعرفة الحقيقية تساعد في وصول الإيمان إلى الكمال والترقي، أما
الكرامات فليست كذلك، فوصول الإنسان إلى الكمال لا يرتبط بها، إنَّ مَنْ
يطلب الكشف والكرامات يطلب أمورًا صغيرة ويغدو أسيرًا لها، فلا يَسْعُدُ
بالقرب من الله تعالى، ولا ينال نصيبًا من معرفة ربه بالقلب... وإذا ما بدأ المرء
برؤية نفسه مختلفًا عن غيره لإظهاره الكرامات يُحرم حينها من فوائد العبادة
والسير والسلوك، بانجراره إلى الكبر والعجب وتُغلق أمامه سُبُل المعرفة.^{١٠٨٣}
- يا بُنَيَّ، إنَّ أيامَ الشباب هي أكثر أوقات عمرك قيمة، فهذه الأيام، التي يكون
فيها الإنسان قويًا سليمًا، تمضي ويأتي اليوم الذي يضعف فيه الإنسان، وما
أشقى الإنسان الذي يُرجئ معرفة الله - التي هي أشرف وأعظم ربح - إلى
شيخوخته التي قد لا يصل إليها، فتراه يصرف أفضل أوقات عمره في

١٠٨٠ محمد معصوم، المكتوبات، ١، ١٦٧، رقم: ٢٣٠.

١٠٨١ البقرة: ١٥٢.

١٠٨٢ محمد معصوم، المكتوبات، ٣، ٨٤، رقم: ١٤٥.

١٠٨٣ محمد معصوم، المكتوبات، ١، ٥٢، رقم: ٥٠.





الهوى والنزوات التي هي أرذل الأشياء والمنكرات، ولا تنسَ أبداً أنه «هلك المسوفون». ١٠٨٤

- إن مقصود السير والسلوك والرياضة والمجاهدة وتحمل المشقات هو التخلص من محبة ما سوى الله تعالى، وهذه المساعي كلها هي لإظهار عجز العبد وضعفه، وليدرك أنه «لا شيء». ١٠٨٥
- كونوا في حالة عبادة وطاعة، واستغفروا الله لما في عباداتكم من تقصير! وإياكم أن تنظروا إلى أعمالكم على أنها أعمالٌ تليق بالله تعالى، وكان أحد كبار أهل العلم يقول: «اعمل واستغفر»، فهذا هو طريق العبودية عندنا. ١٠٨٦
- إن رؤية الإنسان نفسه مقصرا يزيد من قيمة أعماله ويسهل قبولها. ١٠٨٧
- إن سبب ظلم حكامنا هو سوء أعمالنا، وقد قيل: «أعمالكم عمالكم»، فأصلحوا نفوسكم، واسلكوا طريق الورع والتقوى. ١٠٨٨
- لقد دعا الله تعالى الناس إليه مع استغنائه عن العالم كله، وأرشدهم إلى الوصال معه، وفتح هذا الطريق أمامهم لسعة كرمه، وما أشقانا وما أتعسنا إذا بقينا بعيدين عن الجمال الإلهي ومحجوبين عنه، ولم نتخلص من قبضة النفس والهوى مع وجود هذه الدعوة والهداية. ١٠٨٩
- إن لذة الطاعة والخضوع لأوامر الحق تعالى -الذي نلتجئ إليه- أفضل من لذة المحرمات ولا يمكن أن تجد نعمة تعادل نعمة رضا مولانا ﷺ عن العبد

١٠٨٤ محمد معصوم، المكتوبات، ١، ٦٣، رقم: ٦٥.

١٠٨٥ محمد معصوم، المكتوبات، ١، ١٦٣، رقم: ٢٣٠.

١٠٨٦ محمد معصوم، المكتوبات، ١، ٨٣، رقم: ٩٢.

١٠٨٧ محمد معصوم، المكتوبات، ٣، ١٠٣، رقم: ٢٢٥.

١٠٨٨ محمد معصوم، المكتوبات، ٣، ٢٦، رقم: ٣٤.

١٠٨٩ محمد معصوم، المكتوبات، ٣، ١٠٣، رقم: ١٩١.





وأعماله، فهو الذي يُكرمنا بالنعم كلها ولا ألم أشد من ألم البقاء بعيداً عن رضاه ﷺ. ١٠٩٠

- إن طلب المرء إشباع رغباته النفسانية يعني تركه رضا المولى ﷺ. ١٠٩١
- إن العمر أيام معدودة، لكن بها ينال المرء الملك الأبدي، فلا ينبغي لإخوتي الكرام إذاً أن يضيعوا أعمارهم هباءً. ١٠٩٢
- لا يصل إلى الحق تعالى مَنْ هو محروم من الأدب. ١٠٩٣
- لقد ربط الله تعالى أساس النجاة في الآخرة باتباع الشريعة الثابتة قطعياً، أما القُرْب منه فقد ربطه باتباع السُّنة الشريفة، ويوضح هذا الأمر قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ١٠٩٤. ١٠٩٥



ميرزا مظهر جان جانان رَحِمَهُ اللهُ

- يجب أن يسعى المؤمن إلى تأدية مهام العبودية، وأن يكون مستعداً للموت في كل حين، وحين يُبعد المؤمن الرغبات النفسانية كلها عن قلبه، يصبح الموت هدية إلهية بالنسبة إليه، فحالته هذه وسيلة الوصال مع الله ﷻ ونييه ﷺ. ١٠٩٦

-
- ١٠٩٠ محمد معصوم، المکتوبات، ١، ١٥٢، رقم: ٢١١.
- ١٠٩١ محمد معصوم، المکتوبات، ٣، ٤٥، رقم: ٦٧.
- ١٠٩٢ محمد معصوم، المکتوبات، ١، ٤٦، رقم: ٣٨.
- ١٠٩٣ محمد معصوم، المکتوبات، ١، ١٣٧، رقم: ١٨٢.
- ١٠٩٤ آل عمران: ٣١.
- ١٠٩٥ محمد معصوم، المکتوبات، ١، ٥٨، رقم: ٥٧.
- ١٠٩٦ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٤٣.





- لكل عمل كيفية، والصلاة تجمع كل الكيفيات، فهي تتضمن أنوار الذكر كلها مثل تلاوة القرآن الكريم، والتسبيح، والصلوات الشريفة، والاستغفار، وإذا استطاع المرء أن يؤدي آداب الصلاة حقَّ الأداء، حينها سيجد في الصلاة تلك الأحوال الروحانية التي كانت سائدة في عصر الرسول ﷺ. ١٠٩٧
- إذا ما أمضيت شهر رمضان ذاكراً ربك فستستمر هذه الحالة الجميلة الرائعة سائر العام، أما إذا كان هناك قصور وفور في هذا الشهر فسترى أثر ذلك سائر السنة. ١٠٩٨
- إن محبة عباد الله المحبوبين والمقبولين لديه سبحانه هي أقوى أسباب القرب من المولى ﷺ. ١٠٩٩
- إن سالكي هذا الطريق يخشون أن يتسرب الكبر إلى نفوسهم، وحتى لو قاموا بأعمال كثيرة يرون أنفسهم مقصرين، لذلك يستغفرون الله دائماً ويرون الذنب الصغير كبيراً، والنعمة القليلة كثيرة، ويبقون في حالة شكر ورضا في كل حين. ١١٠٠
- من الضروري أن تُستثمر الأوقات كلها في أداء الأعمال الظاهرية، فنور الأعمال الصالحة تكون سبباً للطمأنينة والعرفان والذكر الدائم للقلب. ١١٠١
- يحتوي علم الحديث على دقائق التفسير، والفقه، والتصوف، وبركة هذا العلم يزداد نور الإيمان، وبفضله تُؤدَّى الأعمال الصالحة، وتكتمل الأخلاق الحميدة. ١١٠٢



- ١٠٩٧ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٧٣.
- ١٠٩٨ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٧٣-٧٤.
- ١٠٩٩ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٤٣.
- ١١٠٠ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٤٩.
- ١١٠١ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٥٠.
- ١١٠٢ عبد الله الدهلوي، المقامات المظهرية، ص ٥٢.





عبد الله الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ

- إن الاستقامة والصواب في التصوف هو أن تكون مستغفراً دائماً، شاعراً بالذنب والحياء، صاحب قلب منكسر في كل حين.^{١١٠٣}
- عار وألف عار علينا! لقد أتينا إلى هذا العالم لنجمع الورود، ولكننا خرجنا منها لا نحمل سوى الأشواك.
- عار وألف عار علينا! لقد أكرمنا بالصحة والعافية والراحة والكثير من الفُرص، لكن مع ذلك قَصَّرْنَا في الشكر على هذه النعم كلها.
- عار وألف عار علينا! لقد أنعم الله علينا بنعمتين عظيمتين هما القرآن الكريم ونبينا ﷺ، ولكننا مع هذا لم نشكر الله كما يليق به، في حين كان أليقَ النعم بالشكر هاتان النعمتان.^{١١٠٤}
- إن الترقّي الذي يمر به المريد بالرياضة لا يعادل شيئاً أمام ترقّيه بالخدمة حتى بنسبة واحد في المئة، فعمل سنوات يتيسَّر بالخدمة في لحظة، فالخدمة تجعل المؤمن ينال الألفاظ الإلهية.^{١١٠٥}
- إنَّ اللغو والغيبة يُذهبان ثواب الصيام، والغيبة وحدها تهدم أجر العبادات كلها، لذلك من الواجب الحذر منها، فما أعظمها من بلاهة أن يؤدّي المرء العبادات بالجد والكد ثم يضيع ثوابها، إن الأعمال تُعرض على الله تعالى، فعرضنا الغيبة واللغو أمام ربنا لهُوَ سلوكٌ بعيد- أشد البعد- عن الأدب.^{١١٠٦}

١١٠٣ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص ٦٥، رقم: ٦٥.

١١٠٤ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص ١٥٨، رقم: ٩١.

١١٠٥ رؤوف أحمد، در المعارف، ص ٦٨.

١١٠٦ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص ١٠٧، رقم: ٨٥.





- من الضروري ذكر الله كثيراً، فالقلب لا ينشرح دون إكثار الذكر، ويجب على الإنسان ألا يمضي لحظة من لحظات عمره دون ذكر وحضور قلب وتفكير بحاجته إلى الله تعالى، ومن اللازم أن يكون ذاكراً بقلبه ومدرّكاً أنه تحت نظر ربه حين يكون مع الناس، وفيوضات الحق تأتي فجأة، لكن إلى القلب الذاكر. ١١٠٧



مولانا خالد البغدادي رَحِمَهُ اللهُ

- وأكرم حملة العلم وحفظة القرآن، واشتغل بقراءة القرآن بحسب التيسير، واشتغل بعلم الفقه والحديث أكثر من غيرهما، ولا يصرفك الحضور القلبي عن ذلك؛ فإنه علامة على ضيق المشرب وقصر الباع. ١١٠٨
- قلبي في لهيب وصدري يحترق، أنقل من طريق إلى طريق، ومن باب إلى آخر.
- إنني في سعي كي لا يغفل أحد عن محبوبي وجنتي. ١١٠٩
- لا تغرنكم كثرة الاشتغال بالنوافل، فإنها مع حسنها الذاتي لغير أرباب الفناء كالسهم القاتل، ألا ترى أن بعض الناس بسبب تعبدهم الظاهري تبدأ لهم الأنانية والجور حتى يعرضوا عن الطريقة وأهلها بذريعة أنهم أتقى منهم مع أن ذلك من أكبر الكبائر كما أطبق عليه أساطين الشرع والشهود. ١١١٠
- أوصيكم... بكثرة الذكر ودوام الالتجاء إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا الفانية، ووفور الرغبة في الآخرة الباقية، وذكر الموت ووحشة القبور، والاستعداد التام ليوم الحساب والنشور، والتمسك بالسنة السنية،

١١٠٧ عبد الله الدهلوي، المكاتيب الشريفة، ص ١٣٥، رقم: ٩٠.

١١٠٨ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص ١٤٠، رقم: ٢٨.

١١٠٩ محمد أسعد أفندي، ديوان أسعد، ص ١١١.

١١١٠ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص ١١٧، رقم: ١٣.





والإعراض عن البدع الردية، وبالדعاء لنصرة الإسلام، وخذلان أعداء الدين والمرتدين اللثام.^{١١١١}

- كيف ينبغي لِمَنْ تشرف بالإسلام النوم عن المحافظة على أمانة الحق تعالى وهو القيام.^{١١١٢}



طه الحريري رَحِمَهُ اللَّهُ

- إن السالك من أهل الكشف والسالک الذي لا كشف له هما كرجلين أحدهما يرى والآخر لا يرى، يسافران إلى الحج ويقترب الاثنان أثناء سيرهما في الطريق من غاياتهما، لكن ثواب مَنْ لا يرى أعظم وأكثر. والسالک الذي لا كشف له في السير والسلوك ربحه أكبر من صاحب الكشف طالما أنه في حالة ترقٍ مستمرة ولو لم يُرَ.^{١١١٣}



محمد أسعد أربيلي رَحِمَهُ اللَّهُ

- اللهم كما أكرمنا بعقل دنيوي يدرك لزوم الفحم قبل قدوم الشتاء القارس، أكرمنا بعقل أخروي يدرك لزوم تنوير ظلمة القبر قبل الدخول فيه! واحفظنا يا رب من الندامة بعد الموت! آمين!^{١١١٤}
- إذا كنا نتأسف على ثانية قد أضعناها من حياتنا التي هي رأس مالنا، فهي الثانية التي بقينا فيها بعيدين عن الذكر والتفكير، فهما الوسيلة لضمان المستقبل.^{١١١٥}

١١١١ أسعد صاحب، بغية الواجد، ص ١٩٥، رقم: ٥٩.

١١١٢ الخاني، الحقائق، ص ٦٩٧.

١١١٣ الأستاذ د. حسن كامل يلماز، السلسلة الذهبية، ص ٢٠٨.

١١١٤ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٦-٧، رقم: ٢.

١١١٥ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٥٥، رقم: ٢٧.





- ماذا سنجيب صاحب المُلْك والملُكوت حين يحاسب عباده يوم القيامة قائلاً: «يا عبدي! كيف تجرأت على فعل ما حرمتُ، وأنا الذي بيد قدرتي حياتُك وموتُك، ورفعتُك وسقوطك، ورخاؤك وضيقك، وصحتك وعافيتك، وكلُّ نَفَسٍ تتنفسه؟ وبأي عقل أطعت الشيطان الملعون عدو سعادتك؟ يا عبدي! أظننتني لا أرى ولا أعلم؟ أو أنك حسبت أن إظهار الحياء والاحترام لعبد عاجز مثلك لازم وإظهارها لي غير لازم؟!»
- من عبقرية أي فيلسوف سنستفيد حينها؟ ومن علم أي محامٍ سنأخذ؟ ما أتعسنا من بشر! ^{١١١٦}
- فليُنِرِ اللهُ عَيْنَ قلوبكم! فكما يوجد ماء الورد في كل نقطة من أوراق الوردة، أسأل الله ﷻ أن يَجْمُلَ كل ذرة في بدنكم برائحة المحبة والذكر الدائم! آمين...
- إن الله تعالى لا يغفل عن عباده البتة، ويحب عباده الذين يذكرونه دائماً ببقائهم في إطار الشريعة المطهرة؛ لذلك فإن رجائي المتواضع هو ألا نبقي محرومين من هذا الشرف الرفيع، وألا نقف أمام المولى ﷻ بقلب مفتون بالرغبات النفسانية. ^{١١١٧}
- من الضروري على كل متوجه إلى الحق تعالى أن يعود لطائفه كلها على الذكر لأن هذه اللطائف كلها بحاجة إلى تطهير، فكما أنه من الضروري على الإنسان أن يغسل كل جزء من بدنه وكل نقطة أثناء الغسل، فكذلك الحال مع مَنْ يريد تطهير عالمه المعنوي، إذ يجب عليه أن يذكر الله بكل لطائفه وبكل ذرة من ذرات بدنه. ^{١١١٨}

١١١٦ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٦٤ - ٦٥، رقم: ٣٦.

١١١٧ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٠٠، رقم: ٦٩.

١١١٨ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٤٠، رقم: ١١٢.





- لا يعجبني في الشيخوخة إلا أمر واحد، وهو أنني أتذكر دائماً أن الوقت انتهى، وأن موعد الرحلة «الخروج من الدنيا» اقترب كان من المعقول أن تعمل من أجل الدنيا إلى الآن، ولكن ماذا سيحصل بعد ذلك؟ أستكون شاباً؟ كن يقطاً! عليك أن تستعد لليوم الذي يأمرك الله تعالى قائلاً: «ارْجِعِي»، وحين تفكر النفس بمثل هذه الأمور تقف عاجزة عن الدفاع، ولا تجد جواباً معقولاً. يا رب احفظنا جميعاً بحفظك، ولا تجعلنا من الغافلين! آمين! ١١١٩
- إن التفكير في الموت كما أنه يخفف من حزن العبد أمام المصائب التي تصيبه، فهو في الوقت نفسه يُسهِّل عليه الموت نفسه، ويُقلل من محبة الدنيا التي تجعله قلقاً وتجرُّه إلى العذاب، وذلك لأن حب الأمور الدنيوية المؤقتة من مال وموقع وجمال، والإلحاح في طلبها هو السبب الأساسي لكل نوع من أنواع الذنوب والاضطرابات. ١١٢٠
- إن أكثر الطرق أهمية في الترقى والتقدم الذي يُتصور من أجل العالم الإسلامي؛ هو ترك الذنوب. ١١٢١
- إن الإنسان الذي يحق له أن يوصف بأنه إنسان مُكْرَم، هو المحظوظ الذي يزيّن داخله وخارجه بتحليه بالأخلاق الحميدة بعد تزكية النفس، والذي يخدم الشريعة ويتبع الطريقة. ١١٢٢
- من المعلوم أن «المحوية» هي أكثر أعمال العبد قبولاً عند الله سبحانه، أي معرفة الإنسان أنه مخلوق ضعيف حقير عاجز، وأن كل جزء أو صفة فيه من لطف الله تعالى ومُلكه، والتجسيد الفعلي للمحوية هو أن يختر العبد ساجداً

١١١٩ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٢٨، رقم: ٩٩.

١١٢٠ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٤١، رقم: ١١٣.

١١٢١ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٣٧، رقم: ١٢.

١١٢٢ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٣، رقم: ١.





يمرغ وجهه في التراب، وإلى جانب ذلك يقول الإنسان: «سبحان ربي الأعلى»، أي ينزه الله من النواقص كلها، فهو فوق كل مخلوق، من منظور القوة والقدرة والمال والملك والأموال الأخرى كلها.^{١١٢٣}

• يمكن للعبد بعمله وعباداته أن يُخلص نفسه من العصيان لا غير، ولا يمكنه ادعاء أية فضيلة أخرى، ويتوقع الفيوضات دائماً من الوسائل القيمة مثل الأدعية الخيرية والتوجهات القلبية.^{١١٢٤}

• إن أحد الذنوب أو الذنب الأعظم الذي يكون سبباً في حرمان العبد عند الله تعالى هو التكبر والأنانية.^{١١٢٥}

• لا يكون الإنسان على يقين بأن دعاءه سيُقبل حين يكون مصحوباً بغرور النفس والاعتماد على قوتها وقدرتها، فأما إذا كانت مصحوبة بالانكسار في القلب والاعتراف بعجز النفس وحاجتها لله فيزداد الأمل بقبولها، ندعو الله تعالى أن يجعل نفوسنا الأمارة ذليلة مهمومة، ويجعل قلوبنا وأرواحنا غالبية دائماً بعشقه ومحبته، وعامرة بالسرور والسعادة! آمين.^{١١٢٦}

• كل شخص يدّعي حب الله وعشق جماله تعالى، ولكن إثبات هذا الادعاء غاية في الصعوبة، والكثير من الناس يغر نفسه في هذا الأمر، وإذا ما أراد المرء معرفة معنى المحبة، فليَرَ معاملته مع أولاده وماله، فكما أن الإنسان يمضي معظم وقته في التفكير فيهم، ويذكرهم دائماً، ويقدم تضحيات شتى من أجلهم، ويتوسل بكل الأسباب، ويتخلى عن راحته وسكينته كي يحظى بهذه الأمور، وهكذا هي المحبة، لكن يجب أن يكون القسم الأكبر منها لله

١١٢٣ محمد أسعد أفندي، المکتوبات، ص ٣١، رقم: ١٠.

١١٢٤ محمد أسعد أفندي، المکتوبات، ص ١١٨-١١٩، رقم: ٨٩.

١١٢٥ محمد أسعد أفندي، المکتوبات، ص ١٣٨، رقم: ١١٠.

١١٢٦ محمد أسعد أفندي، المکتوبات، ص ١٥٨، رقم: ١٣٠.





تعالى لأنه هو الباقي، فهو الرب المنعم الذي لا ينقطع عونه وإمداده عن الخلق لحظة، يقول الله ﷻ في كتابه:

﴿...وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...﴾ ١١٢٧

- إن الجهد المبذول على ما سوى التقرب منه تعالى جهد ضائع، وقد يكون ضاراً أحياناً، بل هو جهد فاني، يذهب في طرفة عين. ١١٢٨
- لقد قيل في الماضي: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، على المريد ألا يعوّل كثيراً على ما يراه من صلاح نفسه أثناء انتقاد محبته وحين يكون بصحبة شيخه، ولا يعتمد كثيراً على الأحوال الحسنة التي يراها في ذاته، فمثل هذه الحالات من الإصلاح هي ظلال معكوسة عليه، لا علاقة لها بالحقيقة، ولكي تكون هذه الأحوال الحسنة أصيلة في المريد، وتتجلى بالتمام فيه - أي التزامه بالأوامر والنواهي الإلهية كلها - فلا بد له أن يسعى ويبدل الكثير من الجهد. ١١٢٩
- «الحر أمير نفسه» فاللهم اجعلنا آمرين على النفس الأمانة وناقلين للنفس المطمئنة، واجعلنا ممن تخاطبهم بقولك:
﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ١١٣٠. ١١٣١
- من المعروف أن المستأجر حين ينتقل من بيت إلى آخر يحمل معه أشياءه كلها، ولا يبقى أي شيء يحبه في بيته القديم، لكن ما يثير الحيرة حقاً هو أن الإنسان حين ينتقل إلى بيت القبر الذي يحتاج فيه إلى كل شيء تراه لا يحمل

١١٢٧ إبراهيم: ٣٤.

١١٢٨ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٦٧-٦٨، رقم: ٣٨.

١١٢٩ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٨٤-٨٥، رقم: ٥٤.

١١٣٠ الفجر: ٢٩-٣٠

١١٣١ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٤٣، رقم: ١٧.





شيئاً مما يحب ولو كان بسيطاً «أي لا ينفق ما يحبه ليرسله قبل الموت إلى الآخرة»^{١١٣٢}

- لا تكثرث بمنْ يعيبك إذا كنت تعمل في سبيل الحق، فلسعة النحل لا قيمة لها عندك إذا كنت تجمع العسل.^{١١٣٣}
- لا تخشَ من الأشواك المنتشرة على الطريق الذي يأخذك إلى بستان العشق! فأنا قادر على جمع المئات من البراعم من كل شوكة.^{١١٣٤}
- إني أتلذذ بالاضطراب في بستان الدروشة، وأرى الوردية في رؤياي حتى لو نمْتُ على وسادة من شوك.^{١١٣٥}
- إذا أمسيتَ أسيراً لمحبة الذهب والفضة فسيكون عيارك أدنى وأخس من النحاس، وإن كنت ترى نفسك حديداً أو حجراً أسود فستغدو جوهرة ما لزمت أهل القلوب.^{١١٣٦}
- إن الغاية الكبرى هي السعادة والسلامة في الآخرة، فحتى إذا عاش الإنسان ألف سنة وملك الخزائن والكنوز، فإنَّ أحواله الدنيوية ستكون مجرد رؤيا بعد الموت، وإن لم يُوفَّق في تنوير منزله الأبدي وإعمارهِ، فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيّاً وسيكون في ندامة ما بعدها ندامة، اللهم اجعلنا ممن يوفَّقون في إعمار دار القرار بإيمان كامل! وأبعد عنا حب الأمور الدنيوية صغيرها وكبيرها! آمين.^{١١٣٧}



١١٣٢ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٦، رقم: ٥.

١١٣٣ محمد أسعد أفندي، ديوان، ص ٩٥.

١١٣٤ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٩٤.

١١٣٥ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ٩٦.

١١٣٦ محمد أسعد أفندي، المكتوبات، ص ١٠٩.

١١٣٧ مكتوب أرسله محمد أسعد أفندي إلى الرائد في البحرية أدهم أفندي، وهي من المكاتيب التي لم تنشر.





محمود سامي رمضان أوغلو رَحِمَهُ اللَّهُ

- لا بد أن يكون التسليم تاماً... فإن كان التسليم ناقصاً، فلا نتيجة ولا فائدة منه! فبالسليم يستيقظ القلب، وتصلح النفس، وينشرح الصدر، ويذكر البدن.^{١١٣٨}
- إن وجود عالم يعلم الناس المسائل الدينية في كل بلدة وقبيلة فرض كفاية، فإن لم يكن هناك عالم فالناس جميعاً مذبذبون حينئذ، ولأن الفقه العام «أي تعلم الأحكام الدينية التي تهّم كل مؤمن» فرض عين، فعدم تعلمها ذنب من الذنوب، إذ لا يُعَدُّ الجهل في ديار الإسلام عذراً.^{١١٣٩}
- يجب أن يكون صاحب الاستقامة مستقيماً منتصباً كالجبل، إذ للجبل أربع علامات هي أنه: لا يذوب بالحرارة، ولا يجمد بالبرودة، ولا تحركه الرياح، ولا تجرفه السيول.^{١١٤٠}
- الطريقة خادمة الشريعة، فكما أن الضوء يطهر الإنسان استعداداً للصلاة نجد أن الطريقة تطهر القلب استعداداً للحضور أمام الله تعالى.^{١١٤١}
- يحتاج الإنسان إلى تشخيص الطبيب وعلاجه كي يُشْفَى من أمراضه البدنية، كذلك الحال مع الأمراض القلبية مثل الكبر، والحسد، وحب الدنيا، إذ لا يجب على الإنسان أن يغفل عن الحاجة الماسة إلى علاج يقدمه له الطبيب المعنوي له.^{١١٤٢}
- ليس كل امرئ عبداً للمولى ﷻ، فقد يكون مخلوقاً فقط؛ لأن العبد الحقيقي لله تعالى يلتزم بالأوامر الإلهية تماماً، ويحذر من نواهيه حذراً شديداً، فإن

١١٣٨ محمود سامي أفندي، مجالس العيد، ص ٢٨.

١١٣٩ محمود سامي أفندي، المصاحبة، ١، ٦٤.

١١٤٠ محمود سامي أفندي، تفسير سورتي يونس وهود، ص ١٤٥.

١١٤١ محمود سامي أفندي، المصاحبة، ٦، ١٥٦.

١١٤٢ محمود سامي أفندي، المصاحبة، ٦، ١٤٦.





فعل هذا فهو عبد حقًّا؛ لأن مَنْ يقضي وقته بالغفلة ولا يكثرث بالعبادة والطاعة لا يمكن أن يكون عبدًا. ١١٤٣

- يُوصف الولد العاصي لأبيه الرؤوف بأنه مجنون، فكيف بمن يعصي ربه الرؤوف الرحيم! فوالله مهما وُصف المخالف لأوامر الله أرحم الراحمين يبقى ذلك الوصف قليلا في حقه. ١١٤٤



صاحب الوفاء الشيخ موسى طوبّاش رَحِمَهُ اللهُ

- مهما تعبّد الإنسان ولو أمضى عمره بين السجود والركوع والصدقة والصيام فإنه لن ينال بذلك إلا الثواب فقط، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الترقّي الروحاني إلا عن طريق السير والسلوك. ١١٤٥
- إذا حقق العبد الوصال مع ربه رَحِمَهُ اللهُ، فقد حقق الوصال مع كل شيء، أما إذا لم يحقق الوصال مع ربه فلا قيمة له مهما ذاع صيته، وأثنى عليه الناس كلهم في الدنيا. ١١٤٦
- فلتعلم أنه كما لا توجد نهاية للعبودية، فلا نهاية أيضًا للسير والسلوك، فمن قال: «وصلت إلى الكمال»، فقد بقي في منتصف الطريق، أما من رأى نواقصه وعيوبه، فهو في ترقٍّ دائم. ١١٤٧
- إذا شعر الإنسان أنه عبد لله تعالى، فأطاع أوامره في كل شيء فقد نال المراتب العليا، لكن ينبغي ألا نكون عشاق مراتب، إذ علينا أن نخضع لما يأمرنا الله به خضوعًا نابغًا من المحبة، ونحذر ونحترس مما ينهانا عنه سبحانه ونستمر

١١٤٣ محمود سامي أفندي، المصاحبة، ٦، ٢١٧.

١١٤٤ محمود سامي أفندي، المصاحبة، ٦، ٢١٩.

١١٤٥ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٥، ٤٢.

١١٤٦ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص ٤٦.

١١٤٧ انظر: صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ١، ٤٣، ٥، ٧٩.





بالعبودية لله تعالى، فكلما ثبتنا على ذلك أكرمنا ربنا ﷻ بالأحوال الجميلة الحسنة، وعندئذ ننجو بأنفسنا بإذن الله تعالى.^{١١٤٨}

- يا رب لا تحرمنا من نعمة المحبة، فكل شيء يزدهر ويحيى ويقوى بمحبتك يا رب العالمين، يا رب اجعل منّ تحبهم محبوين عندنا، فكما جعلت رسولك الكريم ﷺ محبوباً عندنا كذلك اجعل كل ولي، واجعلنا يا رب على أعتاب محبة أهل البيت والصحابة الكرام وكل من يحب دينك ويخدمه دون استثناء.^{١١٤٩}
- يجب على المؤمن أن يستعظم ذنبه الصغير دائماً، فأولياء الله يرون أصغر زلة كالجبال الشاهقة، فيستغفرون ربهم ويتوجهون إليه بحالة انكسار تامة، ودموع منهمة، وندامة وحزن.^{١١٥٠}
- الكيس من يصلح كيسه أولاً فيغلق ثقوبه قبل أن يملأه، فمهما وضعت أشياء عظيمة في كيس مثقوب أو مشقوق، فلن يحافظ على ما يحويه.^{١١٥١}
- يجب على الكيس أن يصون نفسه وأهله من ذوي الأخلاق السيئة والإيمان الضعيف، وأن يبقى بعيداً عنهم، فالأحوال والأخلاق تنعكس على الإنسان بسهولة ممن يألفه ويستأنس به.^{١١٥٢}
- إن ما يوصل العبد إلى معرفة الله من جواهر هي بذور موجودة حقاً في تربة البدن، ولكي تنبت هذه البذور لا بد من دوام الحمد والشكر والذكر والتفكير... إن رأس المعرفة التفكير في أسرار الإبداع الإلهي.^{١١٥٣}

١١٤٨ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٥، ٨٢.

١١٤٩ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٢، ١٨٩-١٩٠.

١١٥٠ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٢، ٦٣.

١١٥١ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٢، ٣٦.

١١٥٢ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٢، ٣٣.

١١٥٣ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٥، ٣٥-٣٦.





- يصل الإنسان إلى معارف روحانية كثيرة لم يتعلمها من الكتب، نتيجة التفكير والمراقبة بقلب سليم مطهر مما سواه تعالى. ١١٥٤
- يجب تعلم الأحكام الدينية بسؤال العلماء الصالحين، إذ إن فتاويهم تكون أكثر إصابة وأعظم تأثيراً لأنهم أصحاب تقوى، ومن ناحية أخرى يجب الابتعاد - قدر الإمكان - عن علماء الدنيا الذين يجعلون علمهم قرباناً لكسب المال ونيل المناصب. ١١٥٥
- ومن أظلم من أب وأم لا يعلمان أولادهما الدين... فترية الأولاد دون دين كزرع شجرة من أجل حرقها في المدفأة. ١١٥٦
- حتى لو جمعتهم مئة إنسان ناقص، فلن يقوموا مقام إنسان كامل. ١١٥٧
- إن العبادات في الإسلام كلها لصالح العباد ونفعهم، إذ إن الله تعالى ليس بحاجة إليها أبداً، فالله تعالى مستغن عن عبادته، فقد شرفهم بالأوامر والنواهي ليفتح لهم سبل الفلاح والرقى، فعلياً أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة الكبيرة. ١١٥٨
- سعيها للخدمة ولكن جُنْدًا لا قادة. ١١٥٩
- لا يمكن للمرء أن يهمل الصغائر مدعيًا أنه يقوم بالأعمال العظيمة، فالأعمال الصغيرة تصبح كبيرة حين تتراكم. ١١٦٠



-
- ١١٥٤ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٢، ٨٩.
- ١١٥٥ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٤، ١٧١.
- ١١٥٦ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٤، ١١٦-١١٧.
- ١١٥٧ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٥، ٥٦.
- ١١٥٨ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، ٥، ١٥٨.
- ١١٥٩ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص ٨٢.
- ١١٦٠ حوارات مع الشيخ موسى أفندي، ص ١٠٥.





يحيى بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

- بقدر ما تحب الله تعالى يحبك الناس، وبقدر خوفك من الله يخافك الناس، وبقدر انشغالك بالله ينشغل الناس بأعمالك.
- وإذا سُرَّ المرءُ باتباعه لأوامر الله تعالى، فإن الكائنات كلها تطلب خدمته بسعادة ورغبة كبيرة، وإذا ذكر المرءُ رَبَّهُ ﷻ وتفكَّرَ وسُرَّ بذلك فسيجد الطمأنينة والسعادة عبر نظر كل شيء إليه، فتوجَّهْ إِذَا بكيانك كله إلى المولى ﷻ لا إلى سواه ولا تنشغل بنفسك، ولا تتوكل إلا على فضل الله تعالى. ١١١



مولانا جلال الدين الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

- لقد علمني شيخي شمس التبريزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمراً قال فيه:
«إذا كان في هذه الدنيا مؤمن يشعر بالبرد، فلا يحق لك أن تتدفأ. وأنا أعلم أن على وجه الأرض مؤمنين يشعرون بالبرد، فلا أعرف الدفء أبداً».
- يا أخي، يجب أن تحيا بالتفكير، إنَّ بدنك عبارة عن عظام ولحم وهذا ما تجده في الحيوانات أيضاً، فإن كان تفكيرك وردة فأنت في بستان من الورود، أي في جنة الدنيا، وإن كان تفكيرك شوكة فأنت حطب في الموقد.
- كن كالكتاب صامتاً حين تلقى جاهلاً.
- حين تحملت الوردة الأشواك، فاح عبيرها.
- مهما كنت غنياً فستأكل بحجم معدتك، وحين تغرف من مياه البحر بإنائك فستأخذ ملء إنائك فحسب.
- إذا عادت الأرضُ السماء تُصاب بالقحط، فتموت حينها.





- فليعلم من عنده جمال أن جماله مجرد إعارة.
- الدعاء والعبادة أن تكون مع الله تعالى، ومن يكن مع الله تعالى فإن الموت والحياة كليهما سعادة بالنسبة إليه.
- حتى الكلاب تشم ما يرمى لها من عظام وخبز قبل أن تأكلها.
- أيتصور أن البذرة تموت حين تُدفن في التراب، أم أن حياتها بدأت الآن؟
- يرى الكهول في قطعة الأجر ما لا يراه الشباب في المرأة.
- كم من سمكة تكون آمنة من كل شيء في الماء، فتُصَاد لطمعها وجشعها.
- أكثر من زيارة أصدقائك، فالطريق الذي لا تسير فيه، ستغويه الأشواك.
- الشهوة كالنار لا تخدم طالما أنها تحترق؛ لكنها تخدم إذا لم تعطها ما تطلب، أرايت نارا تخدم وأنت تضع فيها الحطب؟ ألن تحرق تلك النار الحطب؟



مقتطفات من كتاب «معرفة السعادة»^{١١٦٢}

- يمكن للإنسان أن يطوف دون خجل أمام غيره واضعاً قلبه في كفه.
- أيها الفاني، لماذا تخدع نفسك؟ فأنت مجرد ضيف هنا لبضعة أيام، اعلم أن الحياة من أجل الموت، والموت مستعد للقاءك ينتظر أجلك، فلا ترم نفسك في النار -مدركاً لذلك- من أجل يومين تُسرُّ فيهما.
- إن المسافر لا يبني بيته على الطريق، والمهاجر لا يترك أشياءه في منزله إنك ضيف وهذه الدنيا مضافة لك، ولا تُطلب أشياء كثيرة في المضافة.
- لا تكن فظاً في كلامك مع الناس، فالكلام الفظ كالنار المشتعلة.

١١٦٢ كتاب يحتوي على حِكَم توصل الإنسان إلى السعادة في الدارين، ألفه يوسف خاص حاجب بين عامي ١٠٦٩ / ١٠٧٠ وقدمه لسلطان الدولة القرخانية. ويعد هذا الكتاب أول مؤلف للأتراك بعد دخولهم الإسلام.





- اللغو في الكلام كالنار المشتعلة، فعليك ألا تُخرج مثل هذا الكلام من فمك، وإلا فإنه سيحرقك.
- أيها السلطان، كُلِّ القليلَ واعبد ربك كثيرًا؛ واعمل الفضائل كلها ولكن تكلم قليلاً.
- عليك أن تتحمل أعباء غيرك، ولكن يجب ألا تُحمِّل غيرك حملك؛ ومن يُظهر لك الجفاء، فالزم الصمت واطهر له الوفاء.



- أيها الناس، لا أخشى عليكم من عدم قبول دعائكم، بل أخشى أن تهجروا الدعاء. «الحسن البصري»



- كل نعمة لا تقرب من الله ﷻ فهي بلية. «أبو حازم»



- لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت. «بلال بن سعد»^{١١٦٣}



- إن لم تَشْغَلْ نفسك بالحق شغلتك بالباطل. «الإمام الشافعي»



- الكبير كالحجر المربوط على الخاصرة، يمنعك من السباحة والطيران. «الشيخ بيرم ولي»





التصوف: حال لا يعرفه إلا مَنْ ذاقه، فمن ذاق عرف.



الخلاصة

يخاطب المولى العظيم نبيه الكريم، ويقول:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^{١١٦٤}

والواضح في معنى الآيات أن القلب هو مهبط العلوم ومستودعها، وتربتها التي تنمو فيها، وبستانها الذي تزدهر في رياضه، فالعرفان -الذي هو أرقى العلوم- لا تظهر حقائقه ولا تنجلي دقائقه ولا تتبدى رقائقه إلا في القلوب الهائمة بالعشق والفياضة بالوجد.

لذلك بُنِيَ على هذه الحقيقة وجهةُ نظر التصوف التي تقول:

«العلم أمر أساسي وغايته العمل الصالح، وهو مخفيٌ في سرِّ التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلقه تعالى، فإن لم يكن العلم كذلك فما هو إلا عبءٌ لا فائدة منه».

فالعلوم الكتابية الأكاديمية مثل البذور واللقاحات، تبقى على حالها بذورًا لا نبت لها ولا ثمر إذا هي ظلت في مخازنها وأجرانها ولم تعرف طريقها إلى حياتها في باطن الأرض بين أحضان التراب، كذلك العلوم تبقى مجرد حروف في السطور ولا ترقى إلى درجة العلوم إلا إذا خالطت الأفهام والعقول والصدور.





كذلك الحال حين تُزَرَع بذور العلوم في تربة القلوب، إذ تصبح هذه القلوب بستاناً روحانياً تظهر فيها الثمار الحقيقية للعلم والعرفان.

لهذا السبب نزل القرآن الكريم على الصدر المبارك لرسول الله ﷺ، فلم يتلقَّ الصحابة الكرام الأخبارَ والإرشادات الإلهية من السطور، بل من قلب هذا المخلوق النوراني ﷺ، فاستنارت عيونهم وقلوبهم بتجليات كلام الله في ذلك الصدر المبارك، وهى تجليات كثيرة سامية، فانعكست على أرواحهم حقائِقُ الإسلام العميقة وأسرارها وحكمها بكل ما فيها من جمال، فأمن الصحابة الكرام برسول الله ﷺ وبرسالته مُعجبين بشخصيته الاستثنائية التي كانت قرآناً حياً، وغدا الصحابة الكرام كالنجوم التي تدور حول الشمس؛ تعكس أنوارها وترتبط بجاذبيتها وتدور في فلكها.

لذا؛ فإن شعار أهل التصوف هو أن يحيوا بالإسلام في ظلال الروحانية ومدد الفيوضات وكنف النفحات النبوية الربانية، التي لا تزال تمتد من عصر النبوة عبر أولياء الله تعالى في كل العصور، من قلب المصطفى ﷺ منبع الأنوار إلى قلوب الأولياء والمريدين مستودع الأسرار.

إن الفتاوى الدينية من هذا المنظور هي كالدعائم الأساسية للبناء، أما التقوى فهي عناصر الجمال واللطافة التي تُتِمُّ تلك الدعائم والتصوف الذي يوحد بين هاتين الميزتين من ناحية، نجد أنه من ناحية أخرى لا يوضح كمال الأعمال الحسنة والأخلاق الحميدة فحسب، بل يوضح أيضاً أسرار الإنسان والحياة والكون، وبذلك يُمكن من إدراك المسؤوليات وأداء التكليف بحكمة أكبر، فالتصوف -من منطلق محبة الله تعالى ومعرفته- نافذةٌ معنوية تسمو بالقلوب إلى الدرجات العليا.

وقد ذكرنا في مواضع عدة من هذا الكتاب أن التصوف هو أن نعيش الإسلام بالإخلاص والتقوى والزهد والإحسان والمراقبة والصدق والتسليم والمحبة.





ومن أعظم مزايا التصوف قدرته على أن يعكس هذه الحقائق شاخصة أمام أنظارنا بعد أن يجلي حقيقتها واضحة في أفهامنا، فيبعث فيها الحياة وينفخ فيها الروح، ويغذوها ويربيها في داخلنا وفق استعدادنا وإمكاناتنا.

وما زال دأب الصالحين والأولياء والعلماء من سلفنا - في حياتهم ومواعظهم - يلحقون هذه الكلمات بكل ما يقولون، وكأنهم جسر ينقل الكلمات من عالم الوعظ إلى عالم الواقع والفعل، فيقولون:

«ما أسهل الكلام وما أيسر الاستماع إليه، لكن ما أصعب إيصاله إلى القلوب، وما أصعب أن تتحرك به الجوارح وتنقاد إليه».

وكان دأب هؤلاء الواعظين العاملين الأخذ بيد العباد بعد لطافة الاجتماع، ولذة الاستماع إلى جهاد التنفيذ والانصياع، والتنافس في الخيرات، والإسراع والتسابق إلى درجات الكمال.

والكتابة والقراءة من هذا المنطلق سهلة أيضاً، لكن ما أصعب أن يحيا الإنسان بمقتضى ما يكتب، وأن يجعل الفضائل علامات فارقة في حياته، فكلمة صغيرة مثل «اصبر» لا تُتعب اللسان الناطق بها، ولا الأذن السامعة، ولا العين القارئة، ولكن حين تُوجَّه هذه الكلمة إلى القلوب المعرضة للهموم الكثيرة والمحن العظيمة والاضطرابات الكبيرة والابتلاءات المتعددة وحالات القلق المتنوعة تجد كأنما دخل الإنسان بهذه الكلمة عذاباً جديداً، فتراه في كثير من الأحيان يرى الصبر عذاباً فوق العذاب، لكنه لو أدرك حقيقته لوجده مجنة دون سهام الدنيا حتى يصل إلى الجنة، فليس المقصود إذاً معرفة علوم التصوف وتعليمها، بل جعل هذه العلوم منهاجاً وسلوكاً، وإكسير الحياة والسعادة لقلوبنا. فالله تعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^{١١٦٥}





ويدعو عباده إلى أداء الأعمال الصالحة. وإذا ما دققنا في هذه الآية الكريمة، نجد أن الله تعالى لم يقل «أحسنكم تعلمًا» أو «أحسنكم تعليمًا» أو «أحسنكم استماعًا»، بل يوضح حقيقة «أحسنكم في العبودية أي العمل الصالح».

لذا، غاية التصوف الأساسية هي جعل براعم القلب تورق بزمزم العرفان وكوثر التقوى وماء الخلود النابع من العشق والمحبة؛ وإيصال العباد إلى الله سبحانه وتعالى قبل السقوط في الخسران في هذه الدنيا التي ما هي إلا صحراء غفلة.

فمن فهم هذه الحقيقة وعاشها فهم التصوف وعاشه حالا ومقالات، فمما قاله السلف: «التصوف حال، لا يعلمه إلا من يتذوقه».

إن جوهر ما أردنا قوله في التصوف عبر ما قدمناه من شروحات حتى هذه النقطة هو: العبودية لله تعالى على أفضل وجه، والتحضير الجاد لدار الخلود. أي إن التصوف هو العبودية على أفضل صورة، فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان كي يعبد.

فليس التصوف إذاً إلا إزالة العوائق في طريق العبودية، وتأمين وسائلها. والتصوف بلسم للجروح، فكم من أرض قاحلة صارت حديقة غناء خضراء بالتصوف، وكم من قلوب خربة صارت قصوراً مشيدة به. التصوف باختصار:

طريق نوراني يوصل العبد إلى ثناء الله ومرتبة: ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ﴾، وذلك أثناء انتقال هذا العبد من عالم الاغتراب الدنيوي إلى عالم الوصال الأبدي.

فبيت القصيد إذاً هو التجرد من الأنا النفسانية والبقاء في حالة المحوية أمام العظمة الإلهية، إن هذا الإحساس إحساس سام يُري العبد عجزه، ويُعلمه التوكل على الله تعالى، وبهذا يرتقي القلب إلى ذروة الكمال، فالقلوب التي تعيش في





قصر المحوية، لا تقع البتة في الحرمان والمذلة، بل تنال بوقار الدرجات العليا عند الله تعالى بحسب تمسكها بالتواضع والمحوية، وما أجمل قول الشاعر:

البذرة إذا لم تسقط في التراب لا تنبت

وَمَنْ يتواضع فرحمة الله تنميه

اللهم اجعلنا ممن تثني عليهم بقولك: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾!

اللهم أحي برحمتك الواسعة قلوبنا التي سعيناً أن نحميها من الأنانية والنفسانية بدخولنا في الفناء أمام حضرتك!

يا رب اجعل أقوالنا كنيّاتنا، ونيّاتنا كأقوالنا واجعل براعم الحقيقة تفتح في قلوبنا، تلك الحقيقة التي اجترأنا أن نوضحها بكلامنا وكلماتنا التي هي تجليات صفة كلامك.

يا رب اجعلنا ممن تحبهم، وأدخلنا في زمرة الصالحين واحشرنا معهم! ولا تبعدنا عن اتباع حبيبك ورسولك ﷺ! وأكرمنا بشفاعته العظمى!

اللهم أحسن علينا بالأحوال والأخلاق التي ترضى عنها، ووفقنا دائماً في الأعمال التي ترضيك يا ذا الجلال والعزة! واجعل أحاسيسنا وأفكارنا موافقة رضاك الذي هو غايتنا ومقصودنا!... اللهم أبعدنا عن الأحوال والمعاملات التي تبغضها! وأحينا على صراطك المستقيم حتى آخر أنفاسنا!... اللهم يا قادر ويا مقتدر اجعل عملنا المتواضع هذا وسيلة للخير والهداية والحكمة والحقيقة والمعرفة! آمين...





المراجع

- القرآن الكريم
- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان، مصنف بن أبي شيبة، ت كمال الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩ هـ.
- ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة، القاهرة، ١٤٠٩ هـ.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ت عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، ١٤٠٩ هـ.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ت: علي محمد عمر، القاهرة، ١٩٩٧.
- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، صحيح ابن حبان، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد، ت شعيب أرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، كتاب الزهد، مكتبة محمد سعيد بسيوني زغلول، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ت علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.





- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ت مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، القاهرة، ١٩٩٣.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، القاهرة، ١٩٦٤.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، إستانبول، ١٩٩٢.
- ابن محمد علي، محمد باقر، مقامات الشيخ نقشبند، بخارى ١٩١٠.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، ت مصطفى السقا وآخران، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥.
- أبو القاسم، الرسالة البهائية، مكتبة راشد أفندي بقيصري، رقم: ١١١٠.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن بشير السجستاني، سنن أبي داود، إستانبول، ١٩٩٢.
- أبو زهرة، محمد، ابن تيمية حياته وعصره وفكره، بيروت.
- أبو زهرة، محمد، أبو حنيفة، قونيا ١٩٥٩.
- أبو زهرة، محمد، الإمام الصادق؛ قونيا ١٩٥٩.
- أبو نعيم، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، ١٩٦٧.
- أدهم جبايى أوغلو، قاموس مصطلحات وتعايير التصوف، أنقرة ١٩٩٧.
- أرايدن، سلجوق، التصوف والطرائق، إستانبول، ١٩٩٤.
- أربيلي، محمد أسعد، مكتوبات، درسعادت ١٣٤٣، مطبعة أحمد كامل؛ الرسالة الأسعدية، درسعادت، ١٩٢٤.





- أرطغرل، إسماعيل فني، وحدة الوجود وابن عربي، إستانبول، ١٩٩١.
- أرغول، آدم، الحياة القلبية، إستانبول، ٢٠٠٠.
- أرموتشو أوغلو، إلهان، ترجمة قصيدة البردة، قونيا، ١٩٨٣.
- ألباني، محمد ناصر الدين، فهرس الحديث في المكتبة الظاهرية، مجمع اللغة العربية، دمشق.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، تفسير سورة البقرة، إستانبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، الإنسان المكرم، إستانبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، المصاحبة، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٨،
- أوغلو، محمود سامي رمضان، تفسير سورتي يونس وهود، إستانبول ١٩٨٥.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، سيدنا إبراهيم عليه السلام، إسطنبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، سيدنا أبو بكر الصديق، إستانبول.
- أوغلو، محمود سامي رمضان، مجالس العيد، إسطنبول ٢٠٠٥.
- أولوداغ، سليمان، قاموس مصطلحات التصوف، إستانبول، ١٩٩١.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، إستانبول، ١٩٩٢.
- البخاري، صلاح الدين بن مبارك، أنيس الطالبين وعدة السالكين، إستانبول ٢٠٠٣.
- برقي، علي همة، شرح مجلة الأحكام العدلية، إستانبول، ١٩٨٢.
- البغدادي، العلامة محمد بن سليمان الخالدي، الحديقة الندية، إستانبول ١٤٠٣.
- البغدادي، خالد، ديوان مولانا خالد البغدادي، ت عبد الجبار كافاك، منشورات الأنصار، قونيا، ١٤٣٠هـ.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، بن جابر، بن داود، ت سهيل زكار ورياض زركلي، جمل من أنساب الأشراف، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦.
- البورصوي، إسماعيل حقي بن مصطفى، روح البيان، دار الفكر، بيروت.





- البيضاوي، أبو سعيد نصر الدين عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السُّنن الكبرى، دار الفكر.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، بيروت ١٤٠٥.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، كتاب الزهد الكبير، بيروت، ١٩٩٦.
- پارسا، محمد، رسالة قدسية، دار الأرقم للنشر، إستانبول ١٩٩٨.
- تانوي، شيخ أشرف علي، حقيقة الطريقة من السنة الأنيقة (التصوف بالأحاديث)، أنقرة ٢٠٠٩.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سُنن الترمذي، إستانبول، ١٩٩٢.
- التلمساني، محمد بن موسى بن نعمان، مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام ﷺ في اليقظة والنام، بيروت.
- التهانوي، محمد بن علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، بيروت، ١٨٦١.
- جارودي، روجيه، العهود التي أطلقها الإسلام، ترجمة نزيه أوزل، إستانبول، ١٩٨٣.
- جان، شفيق، ترجمة المثنوي، إستانبول، ١٩٩٧.
- الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الزين، كتاب التعريفات، بيروت، ١٩٩٠.
- جولار، زكريا، قيمة مصدرية لأحاديث الوسيلة والتوسل، مجلة (الام) للأبحاث، كانون الثاني-حزيران، ١٩٩٧، مجلد ٢، عدد ١، ص ٨٣-١٣٢.
- الجيلاني، عبد القادر، الفتح الرباني، إستانبول، ١٩٨٧.
- الجيلي، عبد الكريم، الإنسان الكامل، إستانبول، ١٩٩٨.
- الجرخي، يعقوب، Ney-Nâme (ناي-ناما)، ترجمة: أحمد جاهد حقسوار، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٩.





- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، بیروت، ١٩٩٠.
- حمید الله، محمد، مدخل إلى مؤسسی الإسلام، إستانبول، ١٩٨١.
- الخاني، محمد بن عبد الله، البهجة السنية، إستانبول ٢٠٠٢.
- الخاني، محمد بن عبد الله، الحدائق الوردية، دمشق، ١٤١٧هـ.
- الخرقاني، أبو الحسن علي بن أحمد البسطامي، نور العلوم، كارس ٢٠٠٤.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي، إستانبول، ١٩٩٢.
- دانا، صادق، سلطان العارفين الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٤.
- دانا، صادق، مجالس ألتن أولوق، دار الأرقم للنشر، إستانبول ٢٠٠٩.
- دهلوي، عبد الله، المقامات المظهرية، المكاتب الشريفة، إستانبول، ٢٠٠١.
- دوالي أوغلو، فريد، المعجم الموسوعي للغتين العثمانية والتركية، أنقرة، ١٩٩٧.
- دوغرو، عمر رضا، التصوف الذي طوره الإسلام، إستانبول، ١٩٤٨.
- الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهر دار، الفردوس بمأثور الخطاب، ت السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨.
- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، بيروت، ١٩٩٠.
- الرباني، أحمد الفاروقي السرهندي، مكتوبات الإمام الرباني، دار ياسين للنشر، إستانبول ٢٠١٠.





- الرفاعي، أحمد، حالة أهل الحقيقة مع الله، بيروت ١٤٣٠.
- الروداني، محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر السوسي، جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، ترجمة نعيم أردوغان، إستانبول، ١٩٩٦.
- الزرقان، محمد صالح، فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، بيروت، ١٩٦٣.
- الزنداني، عبد المجيد، المعجزات العلمية في القرآن، إستانبول، ١٩٩٥.
- السبكي، تقي الدين أبو الحسن علي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٣١.
- السرهندي، بدر الدين، حضرات القدس، مكتبة فاشه بأوزبكستان، رقم: ٧٦.
- السكندري، ابن عطاء الله، الحكم العطائية، أنقرة، ١٩٦٣.
- سهلجي، محمد بن علي، النور من كلمات أبي طيفور، (ضمن شطحات الصوفية لعبد الرحمن بدوي)، القاهرة، ١٩٤٩.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، الجامع الصغير، مصر، ١٣٠٦.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، تاريخ الخلفاء، مصر ١٣٨٩.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، شرح ابن ماجة، كاراتشي.
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، إستانبول، ١٩٨٦.
- شانتاي، حسن بصري، القرآن الحكيم ومآله الكريم، إستانبول، ١٩٩٦.
- الشيرازي، سعدي، بستان، إستانبول، ١٩٩٥.
- صاحب، أسعد، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، دمشق ١٣٣٤.





- الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني، المصنف، ت حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- طاطلي، علي جان، الدنيا ونعمها من منظور الزهد، إستانبول، ٢٠٠٥.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير، المعجم الكبير، القاهرة ١٩٨٣.
- الطبري، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد، الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت، ١٩٩٥.
- طوباش، عثمان نوري، كليات، دار الأرقم للنشر-إسطنبول.
- طوبشو، نور الدين، مولانا والتصوف، إستانبول، ١٩٩٨.
- الطوسي، أبو نصر السراج، اللمع، إستانبول، ١٩٩٦.
- عباس، قاسم محمد، أبو يزيد البسطامي، المجموعة الصوفية الكاملة، دمشق ٢٠٠٤.
- عبد الأول، مير، المسموعات، إستانبول ١٩٩٣.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٠.
- عز، ماهر، آثار السنين، إستانبول، ١٩٧٥.
- عز، ماهر، التصوف، إسطنبول، ١٩٦٩.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، ١٣٧٩.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، المنبهات، إستانبول، ١٩٦٠.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر، نشره فؤاد عبد الباقي.





- العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، إستانبول، ١٩٨٥؛ إستانبول ٢٠٠٧.
- عياض، القاضي عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصر ١٩٩٥.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠.
- القاري، أبو الحسن نور الدين محمد الملا الهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت ١٤٢٢.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، ١٩٨٥.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، الرسالة القشيرية، بيروت، ١٩٩٠.
- كارا، مصطفى، حركات التصوف في أيامنا بنصوصها، إستانبول، ٢٠٠٢.
- الكاساني، أحمد، آداب السالكين، مكتبة جامعة إستانبول، المخطوطات الفارسية، رقم: ٦٤٩.
- الكاشفي، علي بن حسين الواعظي، رشحات عين الحياة، طهران، ١٩٧٧، وإستانبول ٢٠١٠.
- الكشمي، محمد هاشم، البركات الأحمدية (زبدة المقامات)، كانبور ١٨٨٩.
- الكشمي، محمد هاشم، بركات (الإمام الرباني ومن سار على طريقه) إستانبول، ١٩٨٠.
- الكشمي، محمد هاشم، نسمات القدس من حقائق الأنس، طهران، ١٩٩٦.
- الكلاباذي، تاج الإسلام أبو بكر محمد بن إسحاق بخاري، التعرف لمذهب أهل التصوف، إستانبول ١٩٩٢.
- كيساكورك، نجيب فاضل، رشحات (شيخ صفي الدين)، إستانبول، ١٩٥٥.
- كيساكورك، نجيب فاضل، من جيش الأولياء، إستانبول، ١٩٧٦.
- اللجنة، موسوعة الأولياء، إستانبول ١٩٩٢، صحيفة تركيا.
- لهبابي، محمد عزيز، الشخصية الإسلامية، إستانبول، ١٩٧٢.
- مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبغي، الموطأ، إستانبول، ١٩٩٢.





- مجددي، رؤوف أحمد، در المعارف، إستانبول ١٩٩٨.
- محمد أفندي، مجدي، حقائق الشقائق، إستانبول، ١٨٥٣.
- المزي، أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، تهذيب الكمال، ت بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، إستانبول، ١٩٩٢.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ترجمة أحمد داوود أوغلو، إستانبول، ١٩٧٩.
- مصر أوغلو، قدير، الكليات، دار السبيل للنشر، إسطنبول.
- المقدسي، عز الدين عبد السلام، حل الأسرار ومفاتيح الخزان، إستانبول، ٢٠٠١.
- ملا جامي، نفحات الأنس، إستانبول، ١٩٨١.
- مناقب الشيخ عبيد الله أحرار، مكتبة بايزيد العامة، قسم بايزيد، رقم: ٣٦٢٤.
- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، بيروت، ١٩٩٤.
- المنذري، أبو محمد، زكي الدين، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، الترغيب والترهيب، القاهرة، ١٩٣٤.
- المولوي، طاهر، شرح المثنوي، إستانبول، ١٩٧٣.
- الندوي، أبو الحسن علي، الإمام الرباني، إستانبول ٢٠٠٥.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، سنن النسائي، إستانبول، ١٩٩٢.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين، بيروت؛
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، مصر، ١٩٨١.
- نيازي، محمد، محشر شانك قلعة، إستانبول، ١٩٩٩.
- الهجويري، كشف المحجوب، مكتبة الإسكندرية.





- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، ١٩٨٨.
- الهيثمي، شهاب الدين أحمد بن حجر، الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، بيروت، ١٩٨٣.
- الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، مصر، ١٩٤٨.
- يازير، ألماليلي محمد حمدي، دين الحق لسان القرآن - تفسير القرآن، إستانبول، ١٩٧١.
- يلماز، حسن كامل، التصوف والطرق بخطوطها الأصلية، إستانبول، ٢٠٠٠.





المحتويات

المقدمة..... ٧

الفصل الأول

ماهية التصوف.....	١٥
أ. أصل التصوف.....	١٥
ب. تعريف التصوف.....	٣٦
ت. موضوع التصوف.....	٥٩
ث. غاية التصوف.....	٦١
ج. ضرورة التصوف.....	٦٥
ح. علاقة التصوف بالعلوم الأخرى.....	٨٧
١. التصوف والعلوم الإسلامية الأخرى.....	٨٨
أ. التصوف وعلم الكلام.....	٨٩
ب. التصوف والتفسير.....	٩١
ت. التصوف وعلم الحديث والسيرة.....	٩٤
ث. التصوف والفقه.....	٩٨
٢. التصوف والعلوم الطبيعية.....	١٠٢
٣. التصوف والأدب.....	١٠٧
٤. التصوف والفنون الجميلة.....	١١١
٥. التصوف والفلسفة.....	١١٩
خ. العلم النافع.....	١٢٣





الفصل الثاني

التربية الصوفية (السير والسلوك).....	١٣٩
أ. النفس وتزكيتها.....	١٤٦
١. ماهية النفس.....	١٤٦
٢. تزكية النفس.....	١٥٢
٣. مراتب النفس.....	١٧٢
أ. النفس الأمّارة.....	١٧٢
ب. النفس اللوامة.....	١٨٢
ت. النفس الملهمة.....	١٨٥
ث. النفس المطمئنة.....	١٨٨
ج. النفس الراضية.....	١٩٢
ح. النفس المرضية.....	١٩٦
خ. النفس الكاملة.....	١٩٨
ب. القلب وتطهيره.....	١٩٩
١. ماهية القلب.....	١٩٩
٢. أنواع القلوب.....	٢٠٩
أ. القلوب المحافظة على نبلها والغاية من خلقها.....	٢٠٩
ب. القلوب المختومة والميتة.....	٢١٣
ت. القلوب المريضة والغافلة.....	٢١٧
٣. تطهير القلب.....	٢٢٢
أ. الطعام الحلال.....	٢٢٣
ب. الاستغفار والدعاء.....	٢٢٩
ت. قراءة القرآن واتباع أحكامه.....	٢٣٧
ث. الخشوع في العبادة.....	٢٤٤





ج. إحياء الليل.....	٢٦٢
ح. ذكر الله تعالى ومراقبته.....	٢٦٨
خ. محبة الرسول ﷺ والإكثار من الصلاة عليه.....	٢٧٨
د. التفكير في الموت.....	٢٨٧
ذ. صحبة الصالحين والصادقين.....	٢٩٥
ر. التحلي بالأخلاق الحميدة.....	٣١١
٤. رؤية العالم بقلب صافٍ.....	٣١٩
ت. المبادئ الأساسية في التربية الصوفية.....	٣٢٧
ث. المرشد الكامل وطرق الإرشاد.....	٣٣٥
١. المرشد الكامل.....	٣٣٥
٢. طرائق الإرشاد.....	٣٤٧
أ. الرابطة محبة.....	٣٥١
ب. الصحبة.....	٣٦٥
ت. الخدمة.....	٣٧٤
ث. التوجه.....	٣٨٩
ج. الدعاء.....	٣٩٣
ج. أسلوب التصوف.....	٣٩٧
١. أسلوب الهداية والرحمة.....	٣٩٧
٢. أسلوب الحلم والرأفة.....	٤٠٩

الفصل الثالث

معرفة الله ﷻ والهبات الإلهية.....	٤٢٥
أ. معرفة الله ﷻ.....	٤٢٥
١. الذات الإلهية.....	٤٢٥





٢. الصفات الإلهية وتجلياتها ٤٣٥
٣. معرفة الله والتجليات لدى العارفين ٤٦٥
- ب. الهبات الإلهية ٤٧١
١. العلم اللدني ٤٧٣
٢. الفراسة ٥٠٤
٣. التصرف والكرامة ٥٠٧
٤. الرؤيا الصادقة ٥٣١

الفصل الرابع

- بعض المسائل في التصوف ٥٤٣
- أ. التوسل ٥٤٣
- ب. التبرُّك ٥٦٣
- ت. زيارة القبور ٥٨٤

الفصل الخامس

- وصايا أولياء الله ٦٠١

الفصل السادس

- قصص وعبر صوفية ٦٢٣
- التعلُّم الحقيقي ٦٢٤
- طريقة التربية المعنوية ٦٢٦
- إبراهيم بن أدهم والغزال ٦٢٧
- عدم الإساءة إلى طريق المولى ﷺ ٦٢٩
- الكرامة ٦٣١
- تأثير القلوب الغافلة ٦٣٣
- باب الحبيب ٦٣٦





٦٣٧.....	الطاعة - الخدمة - النصيحة
٦٣٨.....	خدمة المخلوقات
٦٤٠.....	لطافة أولياء الله ﷺ
٦٤١.....	الإرادة في الحضرة الإلهية
٦٤٣.....	الأدب
٦٤٤.....	الأدب في الخدمة
٦٤٥.....	الأدب في كل حال
٦٤٦.....	أخلاق ولي الله وخدمته
٦٤٨.....	ليعلم الباقي لا الفاني!
٦٤٩.....	لا تحتقرنَ أحدًا
٦٥٠.....	لا تَعِبْ أحدًا
٦٥١.....	إدخال السرور إلى قلب اليتيم
٦٥٢.....	الصدقة
٦٥٣.....	المقصود من الصدقة
٦٥٤.....	التسليم تسليمًا كاملاً
٦٥٦.....	طلب الدعاء من المؤمنين
٦٥٦.....	المجنون وعلاج القلب
٦٥٨.....	وجوه كوجوه الملائكة
٦٥٩.....	حالة القلب لدى فعل الخيرات
٦٦٠.....	العمل الصالح الذي يصل إلى العرش العظيم
٦٦١.....	إدراك الحق دائماً
٦٦٣.....	احتاج إلى الكريم
٦٦٤.....	مسؤولية العظماء
٦٦٥.....	الاستجابة لدعوة الله ﷻ





أهمية الحلال ٦٦٥

الربح الحلال ٦٦٨

الفصل السابع

حُكْم من أولياء الله ٦٧٣

الخلاصة ٧١٠

المراجع ٧١٥

المحتويات ٧٢٥













حمل مجاناً كتب إسلامية

يمكنكم الآن تحميل حوالي 1550 من الكتب الإسلامية
بـ 59 لغة من الإنترنت مجاناً



كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf
جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.org